روايات عالمية روايات عالمية روايات عالمية رو

تشارلز ديكنز

أوليفر تويست



نقلها إلى العربية منير بعلبكي

تشارلز ديكنز

أوليفر تويست

تشارلز ديكنز

أوليفر تويست

نقلها عن الإنكليزية

مُنير البعلبكي

لقد تمّت إعادة تصحيح وتنضيد هذه النسخة
لتصدر في هذه الطبعة الأنيقة، كطبعة تذكارية
لذكرى الأستاذ الكبير منير البعلبكي

سنة الطبع : 2007

إصدار

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص.ب: 4006 (سيدنا)
هاتف: 2303339-2-212+
فاكس: 2305726-2-212+
E-mail: markaz@wanadoo.net.ma
بيروت: شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
ص.ب: 113/5158
هاتف: 352826 (1-00961)
فاكس: 343701 (1-00961)

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر
بيروت ـ لبنان:
شارع مار الياس ـ بناية متكو ـ ط2
ص.ب: 1085 بيروت ـ 2045 8402 لبنان
هاتف: 306666 ـ 701656 (1-00961)
فاكس: 701657 (1-00961)
الموقع على شبكة الإنترنت:
http://www.malayin.com

«تشارلز ديكنز هو أحبُّ الروائيين الإنكليز إلى قلوب الناس، ولعله أعظمهم غَيْرَ مُنازَع. إِنه شعلة مكشوفة من عبقرية فطرية ترسل نوراً لم يعرف البحر ولم تعرف الأرض نظيراً له من قبل.»

الناقد الإنكليزي الكبير تشيسترتون

مقدمة

وُلِد القاص الإنكليزي العظيم تشارلز جون هوفّام ديكنز Charles John Huffam Dickens في بورتسي Portsea في السابع من شباط (فبراير) عام 1812. وكان الابن الثاني لموظف صغير هو جون ديكنز، وزوجته اليزابيث بارّو Barrow .

والواقع أن تشارلز ديكنز أمضى سنوات طفولته في ظل العوز والفاقة، وهو ظلٌّ ازداد قتاماً، عاماً بعد عام، بعد أن ارتحلت الأسرة إلى لندن أولاً، ثم إلى تشاتهام ومن هناك إلى لندن مرّة أخرى، حتى لكاد، في عام 1824، يقضي على مستقبل الغلام قضاءً نهائياً. ففي ذلك العهد كانت مصائر الأسرة وحظوظها قد بلغت الدرك الأسفل باعتقال جون ديكنز والإلقاء به في غياهب سجن مارشالسي Marchalsea الخاص بالمدينين. ومضت السيدة ديكنز مع أربعة من أطفالها للالتحاق بزوجها في السجن، أما تشارلز الفتى فأدخِل في مصنع لدهان تلميع الأحذية، حيث راح يلصق رُقَعاً من الورق على علب «البويا»، لقاء ستة شلنات في الأسبوع، وحيث تعرَّف إلى رفيق له في العمل يدعى بوب فاجين، ولقد كانت هذه الشهور القليلة عهد بؤس مطلق وإذلال ويأس بالغين، بالنسبة إلى تشارلز، اعترف هو في ما بعد بأنه عجز أبد الدهر عن مَحو ذكراه من ذهنه. وأياً ما كان فإن الأيام ما لبثت أن حملت إلى الأسرة التعيسة ميراثاً مكَّن جون ديكنز من مغادرة السجن ومن إرسال ابنه إلى مدرسة في هامبستيد حيث لبثَ سنتين أو ثلاث سنوات.

وفي عام 1827 التحق بمكتب أحد المحامين كموظف ثانوي. وعلى الرغم من أن الراتب الذي فاز به من عمله ذاك كان ضئيلاً فقد مكَّنه من أن يحقق لنفسه قدراً من الاستقلال المادي، ويكسب ودّ عدد من الأصدقاء، ويُشبع ميله إلى المسرح، وهو مَيل قُدِّر له أن لا يفارقه مدى الحياة.

حتى إذا علَّم نفسه الاختزال أمسى، في عام 1829، مخبراً صحفياً في الـ «مورننغ كرونيكل» Morning Chronicle براتب «محترم» كان مقداره خمسة جنيهات في الأسبوع.

وفي عام 1833 كتب ديكنز فصولاً لمجلة «أولد مانثلي ماغازين» Old Monthly Magazin بتوقيع «بوز» Boz أكسبته شهرة أدبية. وقد جمع هذه الفصول، فيما بعد، تحت عنوان «صُوَر بقلم بوز» Scketches by Boz.

وفي السنة نفسها تزوج ديكنز من كاثرين هوغارث Catherine Hogarth. وما هي إلا فترة حتى نشر كتابه الكبير «أوراق نادي بيكوويك» Papers of the Pickwick Club فطارت له شهرة صخمة ما لبثت أن نقلت ديكنز إلى دنيا من الثروة والمجد لم يكن يحلم بها من قبل، فإذا به يصبح أعظم قاص قدِّر لإنكلترة أن تعرفه منذ عرف الأدب الإنكيزي القصة. ومنذ ذلك الحين أصدر ديكنز الرواية تلو الرواية، ولم ينضب معين عطائه الأدبي إلا عشية وفاته بعد نحو ثلاثين عاماً.

عام 1838 صدرت رواية «أوليفر تويست»، لتتبعها بعد عام رواية «نيقولاس نيكلبي» Nicholas Nickleby. وبعد هاتين الروايتين صدرت «ساعة المعلم هامبفري» Master Humphrey's Clock.

حتى إذا كانت سنة 1842 قام ديكنز، تصحبه زوجته، برحلة إلى الولايات المتحدة وكندا، لينشر عند عودته من العالم الجديد كتابه «خواطر أميركية» American Notes وفي عام 1843 أصدر روايته «أغنية من أغاني عيد الميلاد» A Christmas Carol.

وإنما بلغ ديكنز قمة مجده الأدبي يوم أصدر «دايفيد كوبرفيلد»، David Copperfield، وهي أعظم آثاره على الإطلاق. وبعد «دايفيد كوبرفيلد» (1849) أصدر «البيت البارد الكئيب» Bleak House (1853)، و«قصة مدينتين»(*) A Tale of Two Cities (1859)، و«الرحالة غير التجاري» The Uncommercial Traveller (1860) وغيرها.

وفي عام 1869 انهارت صحته من جراء الإجهاد الذي لا يعرف الكلل ليقضي نحبه في اليوم التاسع من حزيران (يونيو) عام 1870 مخلِّفاً كتابه الأخير «لغز أدوين دروود» The Mystery of edwin Drood غير مُنجَز. وقد دفن في «وستمنستر آبي» مع العظماء والخالدين.

م. ب

(*) وقد نقلناها بنصها الكامل إلى العربية منذ بضع سنوات. (المعرب)

الفصل الأول

وفيه نص على المكان الذي وُلد فيه أوليفر تويست والأحداث التي رافقت مولده

بين المباني العامة في مدينة ما، أرى لأسباب متعددة أن من الحكمة أن أحجم عن تسميتها ولن أعمد إلى اختيار اسم متخيَّل أخلعهُ عليها، مبنى كان يقوم مثلهُ، في العهود القديمة، في معظم المدن، كبيرة كانت أو صغيرة: أعني ملجأ للفقراء. وفي هذا الملجأ(*) وُلد ـ ذات يوم من الأيام وفي تاريخ لن أكلف نفسي عناء ذكرهما إذ لا يمكن أن يكون لهما أية أهمية بالنسبة إلى القارئ، في هذه المرحلة من الأحداث على أية حال ـ المخلوق البشري الذي صدّرنا باسمه هذا الفصل.

وخلال فترة طويلة مضت على إدخال جرَّاح الأبرشية المتمرّن ذلك الغلام إلى عالم الأسى والمتاعب، ظل القوم في ريب شديد من أن الطفل سوف يحيا مدة من الزمان تؤهله لحمل أيما اسم على الإطلاق. ولو صحت ظنون القوم وفارق الطفل هذه الدنيا مبكراً، إذن لكان من شبه الثابت أن لا تظهر هذه المذكرات إلى دنيا الحرف البتة. أو قل لكان خليقاً بها، لو ظهرت، أن تتمتع ـ بحكم اقتصارها على صفحتين اثنتين ـ بهذه الميزة التي لا تُقدَّر بمال: كونها أوجز وأصدق سِيرة قُدِّر للأدب أن يعرفها في أيما عصر أو بلد.

وعلى الرغم من أني غير ميال إلى الاعتقاد بأن الولادة في ملجأ

(*) يهاجم ديكنز هنا «قانون إسعاف الفقراء الجديد» New Poor Law الذي صدر عام 1834 وكان موضع انتقاد وشجب بالغين. (المعرب)

للفقراء هي في ذات نفسها أسعد حادث يمكن أن يُلم بمخلوق بشري وأدعاه إلى إثارة الحسد أراني أؤكد أن ذلك كان، في هذه الحالة الخاصة، خير ما يمكن أن يصيب أوليفر تويست. والواقع أن القوم وجدوا عسراً بالغاً في إغراء أوليفر بأن يأخذ على عاتقه مهمة التنفس، وهو عمل مزعج، ولكن العادة جعلته شيئاً ضرورياً لوجودنا المطمئن. فظلّ فترة من الزمان يلهث فاغر الفم فوق حشيّة صغيرة من نُسالة الصوف، متأرجحاً على نحو غير متكافئ ما بين هذا العالم والعالم الآخر: وكانت كفة العالم الآخر هي الراجحة من غير ريب. ولو قد كان أوليفر محاطاً، خلال هذه الفترة الوجيزة، بجدّات حذرات، وعمات قلقات، وممرضات متمرّسات، وأطباء ذوي حكمة بالغة، إذن لقضي عليه في الحال على نحو أكيد. أما وقد خلَت عملية ولادته عن أي من هؤلاء ـ إذ لم يشهدها سوى عجوز مُعدِمة كدّر صفو رأسها مقدار من الجعة غير مألوف، وسوى جرّاح أبرشانيّ متمرن يؤدي أمثال هذه المهام بموجب عقد، فقد اصطرع أوليفر والطبيعة ابتغاء حسم هذه المسألة، فكانت النتيجة أن تنفس أوليفر، بعد جهد كبير، وعطس، وراح يحيط نزلاء الملجأ علماً بهذه الحقيقة: أن عبئاً جديداً قد ألقي على كاهل الأبرشية، بإطلاقه أعلى صيحة يمكن توقُّعها من وليد ذكر لم ينقضِ على تمتعه بذلك الملحق البالغ النفع، الذي ندعوه صوتاً، غير ثلاث دقائق وربع.

وفيما كان أوليفر يقدّم هذا البرهان الأول على أن رئتيه تعملان في حرية وعلى وجه صحيح اضطرب الغطاء المرقع الذي طُرح في غير ما عناية على السرير الحديدي. وارتفع عن الوسادة، في وهن، وجه شاحب لامرأة فتية. ونطق صوت خافت بهذه الكلمات نطقاً غير مُبين: «دعوني أرى الطفل، وأموت.»

وكان الجراح قاعداً، موجهاً وجهَه نحو النار، فاركاً راحتيه حيناً، مدفئاً إياهما حيناً. حتى إذا تكلمت المرأة الفتية نهض، ومضى نحو الفراش، وقال في جرس أحفل بالحنان مما كان متوقعاً منه:

ـ «أوه، يجب أن لا تتحدثي عن الموت الآن.»

ـ «لا، لا، فليبارك اللّه فؤادها العزيز!» كذلك اعترضت الممرضة، مُقحمة في جيبها، على نحو خاطف، زجاجة خضراء كانت تذوق محتوياتها في إحدى الزوايا بارتياح واضح. «فليبارك اللّه فؤادها العزيز! لو أنها عُمرت بقَدر ما عمرتُ، يا سيدي، ولو رزقت ثلاثة عشر ولداً كما رزقت، وماتوا كلهم ما خلا ولدين اثنين، أجل ولدين اثنين قُدر عليهما أن يعيشا معي في الملجأ، إذن لكانت أعقل من أن تنفعل وتهتاج على هذه الشاكلة، فليبارك اللّه فؤادها العزيز! فكِّري قليلاً ما معنى أن تكون المرأة أماً. . . إن ههنا حَملاً صغيراً غالياً. فكِّري!»

ولكن هذا التصوير المؤاسي لمستقبل أم من الأمهات عجز في ما يبدو عن إحداث أثره المناسب. لقد هزّت الأم رأسها، وبسطت يدها نحو الوليد.

ووضعه الطبيب بين ذراعيها. فطبعت شفتيها البيضاوين الباردتين، في انفعال، قبلة على جبينه، ومرّرت يديها على وجهه. وأجالت في ما حولها نظرة شاردة، وانقلبت على ظهرها. . . وماتت. لقد فرك الطبيب والممرضة صدرها، ويديها، وصدغيها، ولكن الدم كان قد كفّ عن الجريان إلى الأبد. لقد حدثاها حديث الأمل والسلوان. ولكنهما كانا قد أمسيا، منذ فترة غير قصيرة، غريبين عنها.

وأخيراً قال الطبيب: «لقد قضي الأمر، أيتها السيدة ثينغامي!»

ـ «آه، أجل، يا لها من شابة بائسة!» كذلك قالت الممرضة، رافعة سدادة الزجاجة الخضراء التي كانت قد سقطت على الوسادة حين انحنت لتحمل الطفل. «يا لها من شابة بائسة!»

فقال الطبيب وهو يلبس قفازيه في أناة بالغة: «ليس ينبغي لك أن تجدي حرجاً في استدعائي إذا ما بكى الغلام، أيتها الممرضة. أغلب الظن أنه سوف يكون مزعجاً. وفي هذه الحال، أعطيه شيئاً من ثريد.» واعتمر بقبعته، واتخذ سبيله نحو الباب، متمهلاً لحظة على مقربة من

السرير ليقول: «لقد كانت فتاة بهية الطلعة، على أية حال. من أي بلد هي؟»

فأجابت المرأة العجوز: «لقد جيء بها إلى هنا الليلة البارحة، بناءً على أمر الناظر. ولقد وُجدت طريحة في الشارع. كانت قد سارت مسافة، ذلك بأن حذاءها كان قد تهرّأ وبلي. أما من أين أقبلت وإلى أين كانت ذاهبة فذلك ما لا يعرفه أحد.»

وانحنى الجراح فوق الجثة، ورفع اليد اليسرى. وقال وهو يهز رأسه: «إنها القصة القديمة دائماً، لا خاتم زواج. لقد فهمتُ. آه! طاب مساؤك!»

ومضى رجل الطب لتناول طعام العشاء. أما الممرضة فانكبَّت كرة أخرى على الزجاجة الخضراء، حتى إذا تجرعت منها ما قُدر لها أن تتجرعه جلست على كرسي خفيض على مقربة من النار، وشرعت تُلبس الطفل.

أي مثل رائع على سلطان الثياب كان أوليفر تويست! لقد كان خليقاً بالمرء أن يُخدع عن نفسه حين لم يكن على جسد الطفل غير تلك البطانية، فيحسبه ابن نبيل من النبلاء أو يحسبه ابن شحاذ من الشحاذين. ولقد كان عسيراً على أشد الأغراب تشامخاً أن يحدد مكانه الصحيح في المجتمع، أما الآن وقد دُثر في الملابس القطنية البالية التي اصفرّت بتطاول الاستعمال لمثل هذا الغرض المتواتر فقد وُسم وألصقت عليه بطاقة مميّزة، وأنزل في منزلته على التوّ: طفل من أطفال الإحسان... يتيم في ملجأ من الملاجئ... عبد رقيق مهين نصف جائع... مُقدر عليه أن يسلخ العمر بين اللطمات والصفعات... يزدريه الجميع ولا يرثي له أحد.

وبكى أوليفر في قوة وعنف. ومن يدري، فلعله لو عرف أنه يتيم أُسْلِمَ إلى رحمة النظار ووكلاء الكنائس وعطفهم الرقيق إذن لرفع عقيرته بالبكاء على نحو أقوى وأعنف.

الفصل الثاني

وهو يعرض لنشأة أوليفر تويست وتعليمه وتغذيته

وطوال الأشهر الثمانية أو التسعة التالية كان أوليفر ضحية سلسلة نظامية من ضروب الخيانة والخداع. لقد نُشئ على زجاجة الرضاع وفي الوقت المناسب كتبت سلطات الملجأ إلى سلطات الأبرشية واصفة حال الغلام الجائع وما يقاسيه من بؤس. فما كان من سلطات الأبرشية إلا أن سألت سلطات الملجأ، في كثير من الاحترام، عما إذا كان بين نزلاء «البيت» آنذاك أيما أنثى مؤهلة لأن تقدِّم إلى أوليفر تويست ما هو في حاجة إليه من عزاء وغذاء. فأجابت سلطات الملجأ، في كثير من الاتضاع، أن ليس لديها مثل هذه الأنثى. عندئذ قررت سلطات الأبرشية، في شهامة ورأفة، أن «تُلزِّم» أوليفر، وبكلمة ثانية، أن تبعث به إلى ملجأ فرعي واقع على مبعدة ثلاثة أميال، حيث كان نحو عشرين أو ثلاثين من الأحداث الذين انتهكوا حرمة قوانين إسعاف الفقراء يتدحرجون على أرض المبنى، طوال ساعات النهار، من غير أن يعوقهم عن ذلك إفراط في المأكل أو إسراف في الملبس، تحت رعاية أبوية تغدقها عليهم أنثى عجوز كانت تستقبل أولئك الجناة لقاء تعويض مقداره سبع بنسات ونصف بنس لكل رأس من الرؤوس الصغيرة في الأسبوع. إن ما قيمته سبعة بنسات ونصف بنس من الطعام ليشكلُ غذاء صالحاً كاملاً لطفل لمّا يشب بعد عن الطوق. ففي ميسور هذه السبعة البنسات ونصف البنس أن تكفل للطفل أشياء كثيرة... كافية لأن تُثقل معدته، وتوفر له أسباب الرفاهية. وكانت الأنثى العجوز امرأة ذات حكمة وخبرة: كانت تعرف ما الذي ينفع الأطفال، وكانت تدرك إدراك جد دقيق ما الذي ينفعها هي. وهكذا سخَّرت القسط الأعظم من التعويض لمصلحتها هي، وأسلَمت الجيل الأبرشي الصاعد إلى حياة أشد ضنكاً من تلك التي حُددت له في الأصل، موجدة بذلك وراء الدرك الأسفل دركاً أشد إمعاناً في السُّفلية،

ومقيمة الدليل على أنها فيلسوفة عملية من الطراز الأول.

والناس كلهم يعرفون قصة ذلك الفيلسوف العملي الآخر الذي كانت له فلسفة عظيمة تقول بأن في إمكان الفرس أن تحيا من غير طعام، والذي أثبت صحة فلسفته هذه بأن قَصر غذاء الفرس على قشة واحدة في اليوم الواحد، وكان خليقاً به من غير ريب أن يجعل من فرسه حيواناً مفعماً بالنشاط والحيوية من غير أن يقدِّم إليها أي طعام البتة لو لم تمت قبل أربع وعشرين ساعة من تناولها أول كميّة موفورة من الهواء النقي خُصصت لها. ومن سوء طالع الفلسفة العملية الخاصة بتلك الأنثى التي عُهد بأوليفر تويست إلى رعايتها الواقية أن تطبيق نظامها هي كانت تلازمه في العادة نتيجة مماثلة. إذ ما إن يناضل طفل للاحتفاظ برمقه، في رعايتها، على أصغر جزء ممكن من أهزل طعام ممكن ويُوفق إلى ذلك حتى يحدث ـ ويا للتمرد الجموح! ـ في كل ثماني حالات ونصف من أصل عشر حالات، واحد من أمرين: إما أن يُلم به السقم بسبب من الحرمان والبرد، أو يقع في النار بسبب من الإهمال، أو يختنق نصف اختناق مصادفة واتفاقاً. وفي كل من هذه الحالات على تنوعها كان المخلوق الصغير البائس يدعى، عادة، إلى عالم آخر لكي يُجمع إلى آبائه وأجداده الذين لم يعرفهم في هذه الدنيا البتة.

وأحياناً، حين يتفق أن يُجرى تحقيق ما، على غير العادة، حول وفاة طفل من أيتام الأبرشية بعد أن نسي عند قلب أحد الفرش رأساً على عقب، أو بعد أن وُبخ حتى الموت في يوم شاءت المصادفة أن يكون يوم استحمام ـ برغم أن هذه المصادفة كانت نادرة جداً، على اعتبار أن أيما شيء متصل بالغسل والغسيل كان نادر الحدوث في الملجأ الفرعي ـ كان يخطر للمحكمين أن يطرحوا أسئلة مزعجة وإلا ثار المواطنون وذيلوا بتواقيعهم احتجاجاً من الاحتجاجات. ولكن هذه الوقاحات سرعان ما كانت تُكبح ببينة الطبيب الجرّاح، وشهادة شمّاس الكنيسة: إذ كان الأول يعمد دائماً إلى تشريح الجثة فلا يجد شيئاً في جوفها (وهو أمر محتمل جداً، في

الواقع) وإذ كان الثاني مستعداً دائماً لأن يُقسم اليمين على أيما شيء تريده الأبرشية، وهو أمر ينمّ عن ولاء إلى أبعد الحدود. وإلى هذا فإن لجنة الملجأ كانت تحجّ إلى الملجأ الفرعي على نحو دوري، وكان من دأبها دائماً أن تبعث بالشماس إلى هناك، قبل أربع وعشرين ساعة، ليعلن أن اللجنة آتية، حتى إذا وفدت اللجنة كان الأطفال مرتبين ترتاح العين لنظافتهم. وما الذي يبتغيه القوم أكثر من ذلك؟

وليس في إمكان المرء أن يتوقع من نظام «التلزيم» هذا أن يُطلع أيما ثمرات ممتازة أو ناضرة جداً. فإذا بعيد ميلاد أوليفر تويست التاسع يأتي وهو بعد طفلاً مهزولاً شاحباً، قصير القامة بعض الشيء، ضئيل الجسم من غير ريب، ولكن الطبيعة أو الوراثة كانت قد غرست في صدر أوليفر روحاً متينة جَلدة، وكان مجال الانتشار واسعاً أمام هذه الروح، بفضل الغذاء الهزيل الذي اعتادت المؤسسة تقديمه إلى الأطفال. ولعل في استطاعتنا أن نعزو إلى هذه الواقعة فضلاً آخر: هو أن أوليفر وُفق بشق النفس إلى بلوغ شيء اسمه العام التاسع. وعلى أية حال، فقد كان هذا هو عيد ميلاده التاسع، وكان يحتفل به في قبو الفحم الحجري مع رهط مختار مؤلف من «سيدين» آخرين ناضري العود كانا قد حبسا ـ بعد أن تلقيا معه جلداً بالسياط عنيفاً ـ بسبب من ادّعائهما، ويا للفظاعة!، أنهما جائعان، عندما أجفلت مسز مان، سيدة الملجأ الصالحة، لدن رؤيتها مستر بامبل، الشماس، يناضل على نحو غير مرتقب لفتح الباب الصغير في بوابة الحديقة الخارجية.

ـ «يا إلهي الطيب! أهذا أنت، مستر بامبل، يا سيدي؟» كذلك قالت مسز مان مُطلة برأسها من النافذة في نشوة من الجذل بالغة الاصطناع والتكلف. «(سوزان، خذي أوليفر والصبيين الآخرين إلى الطابق الأعلى وأغلسي وجوههم في الحال.) يا للسماء! مستر بامبل، لشد ما أنا سعيدة بأن أراك، من غير ريب!»

والواقع أن مستر بامبل كان رجلاً بديناً، صفراوي المزاج. وهكذا

فإنه بدلاً من أن يستجيب لهذا الترحيب الوديّ بروح مماثلة، هز الباب الصغير هزة هائلة، ثم أسبغ عليها رفسة ما كان في ميسورها أن تنبثق إلا من قدم شماس.

فقالت مسز مان وهي تنطلق إلى الخارج ـ ذلك بأن الصبية الثلاثة كانوا قد أخرجوا الآن من مَحبسهم ـ: «يا إلهي، بحسبك أن تفكِّر في هذا. . . بحسبك أن تفكِّر أني نسيت أن البوابة موصدة بالمزلاج من داخل، بسبب من أولئك الصغار الأعزاء! ادخل، يا سيدي. ادخل، أتضرع إليك، يا مستر بامبل، ادخل يا سيدي.

وعلى الرغم من أن هذه الدعوة أرفقت بانحناءة احترام كان خليقاً بها أن تعطف فؤاد وكيل كنيسة فإنها لم تهدئ من ثائرة الشماس.

فتساءل مستر بامبل وهو يمس بعصاه: «أتحسبين أن من السلوك الحَسن الراشح بالاحترام يا مسز مان، أن يبقى موظفو الأبرشية منتظرين بباب حديقتك كلما وفدوا إلى هنا في مهمة أبرشية متصلة بالأيتام الأبرشانيين؟ هل تدركين، يا مسز مان، أنك ـ كما أجيز لنفسي أن أقول ـ مندوبة من مندوبات الأبرشية وأنك تتقاضين منها راتباً معلوماً؟»

فأجابته مسز مان في اتضاع عظيم: «أؤكد لك، يا مستر بامبل، أني كنت ـ بكل بساطة ـ أبلغ واحداً أو اثنين من الصغار الأعزاء الشديدي الولوع بك أن الوافد عليهم ليس أحداً غيرك.»

وكان لمستر بامبل رأي حسن في مقدرته الخطابية وأهميته الشخصية وكان قد أظهر الأولى وأثبت الأخرى. فاسترخى، وأجاب في لهجة أرق وأهدأ: «حسن، حسن: يا مسز مان. قد يكون الأمر كما تقولين، قد يكون. تقدميني إلى الدار، يا مسز مان، ذلك بأني وفدت في مهمة، وأن لديّ شيئاً أقوله.»

وأدخلت مسز مان الشماس إلى حجرة استقبال صغيرة مفروشة أرضها بالآجر، وقدمت إليه كرسياً، ووضعت عصاه وقبعته ذات القرنين ـ في

شيء من التطفل ـ أمامه على الطاولة. فمسح مستر بامبل عن جبينه العرق. ونظر في ارتياح ورضا إلى قبعته ذات القرنين، وتبسم. أجل، تبسم. فالشمامسة هم على أية حال بشر من البشر: وتبسم مستر بامبل.

فلاحظت مسز مان في عذوبة آسرة: «أرجو أن لا يستبد بك الغضب لما سوف أقوله لك. لقد اجتزت مسافة طويلة وأنت تسير على قدميك، كما تعلم، وإلا لما أجزت لنفسي أن أوّجه إليك هذا السؤال. هل لك في قطرة صغيرة من شيء ما، يا مستر بامبل؟»

فقال مستر بامبل، ملوحاً بيده اليمنى على نحو وقور، ولكنه خلو من العنف:

ـ «ولا قطرة! ولا قطرة!»

فقالت مسز مان التي كانت قد لاحظت لهجة الرفض والإيماءة التي رافقتها: «أحسب أنك سوف تشرب. لن أقدم إليك غير قطرة صغيرة، مع قليل من الماء البارد، وقطعة سكر.»

فسعل مستر بامبل.

عندئذ قالت مسز مان في جرس مُقنع: «أجل، مجرد قطرة صغيرة.»

فسألها الشماس: «قطرة من أي شيء؟»

ـ «يا إلهي! إنها من ذلك الشراب الذي أجدني مضطرة إلى الاحتفاظ بقليل منه في الدار لكي أضيفه إلى شراب «دافي»(*) الذي أقدمه إلى ملائكتي الصغار كلما ألمت بهم الأوجاع، يا مستر بامبل» كذلك أجابت مسز مان وهي تفتح خواناً في زاوية من زوايا الحجرة، وتخرج منه زجاجة وقدحاً. «إنه شراب الـ «جن» gin أنا لن أخدعك، يا مستر بامبل. إنه شراب الـ «جن.»

(*) شراب اخترعه Daffy في القرن السابع عشر واكتسب شعبية كبيرة كشراب مسكن خلال قرنين كاملين.

فسألها بامبل متابعاً بعينيه عملية المزج الشيقة: «هل تقدمين شراب «دافي» إلى الأولاد، يا مسز مان؟»

فأجابت الممرضة: «آه، فليباركهم اللَّه، هذا ما أفعله، على الرغم من ثمنه المرتفع. أنا لا أستطيع أن أراهم يتألمون تحت عيني رأسي، كما تعلم، يا سيدي.»

فقال مستر بامبل موافقاً: «لا، لا، أنت لا تستطيعين. أنت امرأة إنسانية رقيقة القلب، يا مسز مان.» (وهنا وضعت الكأس على المائدة) سوف أنتهز أول فرصة مناسبة للتنويه بذلك على مسامع اللجنة، يا مسز مان.» (وأدنى القدح منه.) «أنت تكنين لهم عواطف أم، يا مسز مان.» (ومزج «الجن» بالماء.) «سوف... سوف أشرب نخبك، في بشر وابتهاج، يا مسز مان.» وأفرغ في جوفه محتويات الكأس.

ثم إن الشماس قال، وهو يخرج مفكرة ذات غلاف جلدي: «والآن، فلنتقدم إلى عملنا، إن الطفل الذي عُمد نصف تعميد باسم أوليفر تويست قد بلغ اليوم عامه التاسع.»

فاعترضته مسز مان قائلة وهي تُلهب عينها اليسرى بطرف مئزرها: «فليباركه اللَّه!»

فقال بامبل: «وعلى الرغم من مكافأة مقدارها عشرة جنيهات رُفعت فيما بعد إلى عشرين جنيهاً، وعلى الرغم من جهود الأبرشية السامية إلى أبعد مدى، بل من جهودها الخارقة للطبيعة، فقد عجزنا عن أن نكتشف من هو أبوه، ومن أي موطن وفدت أمه، وما اسمها، وما وضعها الاجتماعي.»

ورفعت مسز مان يدها في انشداه. ولكنها أضافت بعد لحظة من التفكير: «كيف اتفق له، إذن، أن يحمل أيما اسم مهما يكن؟»

فتصدر الشماس في اعتزاز بالغ وقال: «لقد اخترعته أنا.»

ـ «أنت، يا مستر بامبل!»

ـ «أجل، أنا، يا مسز مان. إننا نسمي لقطاءنا وفقاً للترتيب

الأبجدي. ولقد قضى هذا الترتيب بأن يكون اسم اللقيط الأخير مبتدئاً بحرف S، فكان سوابل Swubble وكنت أنا الذي خلعت عليه هذا الاسم. وقضى الترتيب بأن يكون اسم هذا مبتدئاً بحرف T، فكان تويست Twist وكنت أنا الذي خلعت عليه هذا الاسم أيضاً. ولسوف يحمل اللقيط التالي اسم آنوين Unwin، والذي بعده اسم فيلكينز Vilkins. لقد أعددت، سلفاً، لائحة بالأسماء حتى آخر حرف من حروف الأبجدية، ولائحة أخرى تبدأ بحرف الألف للإفادة حين ننتهي إلى حرف Z.»

فقال مسز مان: «يا إلهي، ولكنك من غير ريب أديب بكل ما في الكلمة من معنى، يا سيدي.»

فقال الشماس وقد ارتاح لهذا الإطراء ارتياحاً واضحاً: «حسن، حسن، ربما كنت، كما تقولين، أديباً، ربما كنت أديباً، يا مسز مان.» وتجرّع بقية «الجن والماء» ثم أضاف: «وإذ أمسى أوليفر، الآن، أكبر سناً من أن يبقى هنا فقد قررت اللجنة إعادته إلى الملجأ. ولقد وفدت بنفسي لأصحبه إلى هناك. من أجل ذلك دعيني أراه في الحال.»

ـ «سوف آتيك به على التو.» كذلك قالت مسز مان، وهي تغادر الحجرة لهذا الغرض، وإذ كان أوليفر قد تخلص الآن من طبقة القذر الخارجية التي تغلف وجهه ويديه ـ بقدر ما تستطيع غسلة واحدة أن تقشطه من تلك الطبقة ـ فقد قادته الحامية الخيِّرة إلى الحجرة، وقالت:

ـ «انحنِ احتراماً للسيد الماجد، يا أوليفر.»

فانحنى أوليفر انحناءة احترام قسَّمها بين الشماس القاعد على الكرسي، والقبعة ذات القرنين المستوية على المائدة.

وهنا قال مستر بامبل، في صوت وقور: «هل تريد أن تذهب معي، يا أوليفر؟»

وكان أوليفر على وشك أن يقول إنه راغب في الذهاب مع أيما امرئ في طواعية بالغة عندما رفع بصره فلمح مسز مان، التي كانت قد اتخذت

لها موقفاً خلف كرسي الشماس، وراحت تهز قبضة يدها في وجهه وأمارات الضراوة بادية على وجهها. وأدرك أوليفر على التو، مغزى ذلك التلميح، ذلك بأن جمع تلك الكف كان قد انطبع على جسده مرات عديدة جعلت عدم انطباعه في ذاكرته على نحو عميق أمراً متعذراً.

وتساءل أوليفر المسكين: «هل ستذهب هي معي؟»

فأجابه مستر بامبل: «لا، إنها لا تستطيع. ولكنها سوف تجيء لتراك بين الفينة والأخرى.»

ولم يكن في ذلك كبير عزاء للطفل. بيد أنه، برغم صغر سنه، كان من الفطنة بحيث يتظاهر بالأسف العظيم لاضطراره إلى الرحيل. ولم يكن جدّ عسير على الغلام أن يجعل عينيه تدمعان. فالجوع وقربُ العهد بالعسف والاضطهاد مسعفان عظيمان لمن يودّ أن ينفجر بالبكاء. ولقد انفجر أوليفر بالبكاء على نحو جد طبيعي حقاً. فما كان من مسز مان إلا أن منحته ألف قبلة، ومنحته ما كان هو في حاجة إليه أكثر بكثير: قطعة من خبز وزبدة، خشية أن يبدو أشد جوعاً مما ينبغي لَدُن وصوله إلى الملجأ. وهكذا اقتاد مستر بامبل فتاه، وقطعة الخبز تلك في يده وقبعة الأبرشية القماشية السمراء على رأسه، مبتعداً به عن تلك الدار البائسة حيث لم تضئ قط ظلمة سنوات طفولته كلمة لطيفة واحدة، أو نظرة كريمة واحدة. ومع ذلك فقد غمرته، عندما أوصد باب الدار الصغيرة خلفه، موجة عارمة من أسى طفليّ، فعلى الرغم من عظم بؤس أقرانه ورفاقه في الشقاء الذين كان على وشك أن يخلّفهم وراءه فقد كانوا هم الأصدقاء الوحيدين الذي قُدر له أن يعرفهم. ولأل مرة ران على فؤاد الغلام شعور بالوحشة في العالم الرحب العريض.

واتخذ مستر بامبل سبيله في خطى واسعة. فأغذّ أوليفر السير إلى جانبه، متشبثاً برُدن قميصه الموشى بخيوط ذهبية، متسائلاً عند نهاية كل ربع ميل ما إذا كانا «قد وصلا تقريباً.» وعن هذه الأسئلة كان مستر بامبل يجيب بأجوبة فظة شديدة الإيجاز، ذلك بأن الرقة المؤقتة التي يبعثها

«الجن والماء» في بعض الصدور كانت قد تبخرت. لقد عاد مرّة أخرى شماس كنيسة.

ولم يكد ينقضي ربع ساعة على دخول أوليفر أسوار الملجأ، ولم يكد يلتهم قطعة من الخبز جديدة حتى عاد مستر بامبل ـ وكان قد عهد بالغلام إلى امرأة عجوز ـ ليعلمه أن لجنة الملجأ مجتمعة تلك الليلة، وأنها كانت قد أعلنت أن عليه أن يَمثل بين يديها في الحال.

وإذ لم تكن لأوليفر أيما فكرة واضحة المعالم إلى حد بعيد عن ماهية اللجان وحقيقتها فقد أذهله ذلك النبأ ولم يَدرِ على وجه التحقيق أيتعين عليه أن يضحك أو أن يبكي. بيد أنه لم يجد متسعاً من الوقت لتقليب الرأي في هذه المسألة، ذلك بأن مستر بامبل نقره بالعصا على رأسه نقرة واحدة لكي يوقظه من ذهوله وعلى قفاه نقرة أخرى لكي يبعث في نفسه الخفة والنشاط. ثم إنه أمره بأن يتبعه وقاده إلى حجرة عريضة، طُرشت جدرانها بالكلس، حيث تحلّق حول مائدة من الموائد ثمانية من السادة الأماجد، أو عشرة، كلهم سمين بدين. وعند رأس المائدة، في كرسي ذي ذراعين أعلى بعض الشيء من سائر الكراسي، جلس سيد يبزّ زملاءه سمناً وبدانة، ذو وجه أحمر شديد الاستدارة.

وقال مستر بامبل: «انحنِ احتراماً لأعضاء اللجنة!»

فكفكف أوليفر عبرتين أو ثلاث عبرات كانت تترقرق في عينيه. وإذ لم ير أيما شيء مؤنث(*) غير المائدة فقد انحنى لها هي، لحسن الطالع، دون غيرها.

وقال السيد المستوي على الكرسي العالي: «ما اسمك، أيها الغلام؟»

ورُوّع أوليفر لمشهد هذا العدد الكبير من الرجال الأماجد، فارتعدت أوصاله: ونقره الشماس نقرة أخرى من خلاف، فجّرت الدموع من عينيه.

(*) ذلك بأن أوليفر لم يكن ليفهم ما معنى اللجنة واللجان، فتوهم أن المقصود باللجنة هو المائدة. (المعرب)

والواقع أن هذين السببين جعلاه يجيب في صوت خفيض جداً، متردد جداً. عندئذ قال سيد ماجد مرتد صدرة بيضاء أنه أبله. فكان هذا القول وسيلة ممتازة لرفع معنوياته ولإيقاع الطمأنينة في نفسه.

وقال السيد المستوي على الكرسي العالي: «أيها الغلام، أصغِ إليّ أنت تعلم، في ما أحسب، أنك يتيم؟»

فتساءل أوليفر البائس: «ما معنى ذلك، يا سيدي؟»

فقال السيد ذو الصدرة البيضاء: «الغلام أبله من غير ريب. لقد قدَّرتُ ذلك من البدء.»

عندئذ قال السيد الماجد الذي تكلم أولاً: «صه! أنت تعلم أنه ليس لك لا أب ولا أم، وأن الأبرشية هي التي نشّأتك، أليس كذلك؟»

فأجاب أوليفر باكياً بكاء مريراً: «نعم يا سيدي.»

ـ «ما الذي يدعوك إلى البكاء؟» كذلك سأله الرجل الماجد ذو الصدرة البيضاء. والواقع أن أمر الغلام كان بالغ الغرابة. إذ ما الذي يمكن أن يدعو الغلام إلى البكاء؟

وقال رجل ماجد آخر في صوت أجشّ: «أرجو أن تكون مواظباً على أداء صلواتك كل ليلة، مقيماً على الدعاء لمن يقدمون إليك الغذاء وينهضون بعبء العناية بك... مثل إنسان مسيحي.»

فتلجلج الغلام قائلاً: «نعم، يا سيدي.» لقد أصاب السيد الذي تكلم أخيراً من غير أن يدري. فقد كان خليقاً بأوليفر أن يتكشّف عن إنسان مسيحي جدّ صالح، بل عن إنسان مسيحي صالح إلى حد أعجوبي أيضاً، لو أنه صلّى من أجل أولئك الذين قدموا إليه الغذاء ونهضوا بعبء العناية به. ولكنه لم يفعل، لأن أحداً من الناس لم يعلّمه ذلك.

فقال الرجل ذو الوجه الأحمر، المستوي على الكرسي العالي: «حسناً، لقد جئت إلى هنا لكي تُثَقف وتعلّم صناعة مفيدة.»

فما كان من الرجل الفظ ذي الصدرة البيضاء إلا أن أضاف: «وهكذا فلسوف تبدأ جَمع مُشاقة الكتان صباح غد في الساعة السادسة.»

وتقديراً من أوليفر لجمع هاتين النعمتين في عملية «جمع مشاقة الكتان» المفردة فقد غالى في الانحناء احتراماً، بعد أن أوعز إليه الشماس بذلك. ومن ثم اقتيد على جناح السرعة إلى مهجع واسع، حيث راح ينتحب ـ فوق سرير قاس خشن ـ حتى غلبه الرقاد فنام. يا له من شاهد جميل على إنسانية القوانين الإنكليزية! إنها تجيز للفقراء أن يأووا إلى النوم!

يا لأوليفر المسكين! لم يخطر بباله قط، فيما كان ينعم بالرقاد غافلاً عن كل ما حوله، أن اللجنة كانت قد انتهت في ذلك اليوم بالذات إلى قرار سوف يكون له أعظم السلطان المادي على مستقبله كله. ولكن اللجنة كانت قد اتخذت ذلك القرار فعلاً. وإليك تفصيل ذلك:

لقد كان أعضاء هذه اللجنة فلاسفة ذوي نظر بعيد وحكمة بالغة. وحين اتفق لهم أن وجهوا عنايتهم إلى الملجأ اكتشفوا على التوّ ما كان خليقاً بالعاديين من الناس أن لا يكتشفوه البتة: اكتشفوا أن الفقراء يحبون ذلك الملجأ! لقد كان موطن مسرة جماعية حقيقية للطبقات الأشد إمعاناً في الفاقة والعوز، حانة لا تقتضي نزلاءها تعويضاً ما، فهي تُقدم إليهم على نحو مشترك فطوراً وغداء وشاياً وعشاء على مدار السنة وبالمجان، جنة من آجر وملاط حيث كل شيء عبث ولعب وحيث لا عمل البتة. وقال أعضاء اللجنة، وقد بدت على وجوههم إمارات الفطنة وبُعد النظر: «ها، ها! إننا نحن الذين سنقوّم هذا الإعوجاج! سوف نضع حداً لذلك كلّه، بأسرع من لمح البصر!» وهكذا سنُّوا قانوناً يقول بأن على جميع الفقراء أن يتخيَّروا إحدى خطتين (ذلك بأنهم ما كانوا يؤمنون بسياسة الجبر والإكراه. . . لا، فليس ذلك من شيمتهم) إما أن يموتوا جوعاً، على نحو بطيء، في الملجأ، وإما أن يموتوا جوعاً، على نحو سريع، في خارجه. من أجل ذلك تعاقدوا مع مصلحة المياه على تزويد الملجأ بمقادير من الماء غير محدودة، ومع أحد أصحاب المطاحن على تزويده بمقادير دورية صغيرة من دقيق الشوفان، وأصدروا أمرهم بتقديم ثلاث وجبات من الثريد

الهزيل يومياً، وبصلة مرتين كل أسبوع، ونصف رغيف ليس غير كل يوم أحد. لقد وضعوا جمهرة كبيرة من الأنظمة الإنسانية الأخرى التي ترشح بالحكمة، في ما يتصل بالسيدات، لا نرى موجباً لذكرها هنا. وتلطفوا فتولوا تطليق الزوجة الفقيرة من الزوج الفقير بسبب من ارتفاع نفقات المحاكمة في «مجلس الفقهاء»(*) وبدلاً من أن يُجبروا المرء على إعالة أسرته، كما سبق لهم أن فعلوا حتى ذلك الحين، أقصوا أسرته عنه وجعلوا منه رجلاً أعزب! ولا جدال في أن عدد طالبي الإسعاف، وفقاً لهذين البندين الأخيرين، كان خليقاً به أن يتضخم تضخماً عظيماً في مختلف طبقات المجتمع لو لم يكن الإسعاف مُردفاً بالملجأ. ولكن أعضاء اللجنة كانوا ذوي بصر بالعواقب، فاحتاطوا لهذه المعضلة وحسبوا حسابها: لقد جعلوا الإسعاف رهناً بالملجأ وبالثريد، فليس من سبيل إلى فصله عنهما، وكان في هذا ما أرعب الناس وروّعهم.

وخلال الشهور الستة الأولى التي انقضت على نقل أوليفر تويست إلى الملجأ تمّ إنفاذ النظام الجديد على نحو كامل. ولكن ذلك كان باهظ النفقة بادئ الأمر، بسبب التضخم الذي طرأ على فاتورة دفّان الموتى، واضطرار اللجنة إلى تبديل ثياب الفقراء جميعاً، تلك الثياب التي انتهت إلى أن تصبح فضفاضة على أجسامهم المنكمشة المضناة، بعد أسبوع أو أسبوعين من العيش على الثريد. ولكن عدد نزلاء الملجأ تقلّص كما تقلّص عدد الفقراء، فاستبد الجذل بنفوس أعضاء اللجنة.

وكانت الحجرة التي يُقات فيها الصبية قاعة مبلّطة واسعة تقوم على أحد أطرافها قدر كبيرة كان طاهي الملجأ، المرتدي مئزراً لهذا الغرض، يغرف الثريد منها عند كل وجبة من وجبات الطعام تعاونه في ذلك امرأة أو امرأتان. ومن هذا المركّب السار كان كل صبي يصيب صحناً ليس غير،

(*) «مجلس الفقهاء» Doctor's Commons محكمة دينية أكليركية كان لها صلاحية النظر في قضايا الطلاق والمصادقة على الوصايا ومسائل الحرم إلخ. وقد وصف ديكنز هذه المحكمة وصفاً انتقادياً لاذعاً في روايته «دايفيد كوبرفيلد». (المعرب)

إلا في مناسبات الابتهاج العمومية الكبرى حين كان كل صبي يحظى إلى جانب الثريد بأونصتين وربع أونصة من الخبز. ولم تكن الصحاف لتحتاج أبد الدهر إلى غسل وتنظيف. ذلك بأن الصبية كانوا يلمعونها بملاعقهم إلى أن يعاودها الإشراق من جديد. حتى إذا أتموا هذه العملية (التي ما كانت لتستغرق في أيما يوم من الأيام فترة طويلة جداً، باعتبار أن الملاعق كانت في مثل حجم الصحاف تقريباً)، راحوا يحدقون إلى القدر الكبيرة بعيون متحرقة باللهفة إلى درجة بدوا معها وكأنهم على استعداد لأن يلتهموا حتى الفخار الذي صنعت منه، شاغلين أنفسهم في غضون ذلك بلعق أصابعهم ـ على نحو هو عنوان الكد والمواظبة ـ ابتغاء تلقف أيما أثر ثريديّ اتفق أن أصاب تلك الأصابع. إن للصبية، عادة، شهوة إلى الطعام ممتازة. ولقد قاسى أوليفر تويست ورفاقه عذاب المجاعة البطيئة طوال أشهر ثلاثة: وأخيراً انتهى بهم الجوع إلى غاية من النهم والضراوة جعلت صبياً منهم كان فارع الطول بالنسبة إلى سنه ولم يكن متعوداً ذلك الضرب من العذاب (ذلك بأن والده كان يملك مطعماً حقيراً) نقول انتهى بهم الجوع إلى غاية من النهم والضراوة جعلت ذلك الصبي يلمع لرفاقه إلماعاً ملفعاً بالأسرار بقوله إنه إذا لم يَفز بصحفة إضافية من الثريد، يومياً، فقد يجد نفسه مضطراً ذات ليلة إلى أن يأكل الصبي الذي ينام في محاذاته، والذي اتفق أن كان غلاماً مهزولاً طريّ العود. كان ذا عين ضارية جائعة، فصدقوه ولم يشكّوا قط بوعيده وتهديده. وتشاوروا في الأمر، فضربوا قُرعة ليروا من الذي يتعيّن عليه أن يتقدّم نحو الطاهي، بعد تناول العشاء تلك الليلة، ويسأله مزيداً من الثريد. وقد وقعت القرعة على أوليفر تويست.

وهبط الليل. واتخذ الصبية مقاعدهم. وانتصب الطاهي، في ثوبه الرسمي، أمام القدر الكبيرة، ووقفت مساعدتاه الفقيرتان خلفه. ووزعت صحاف الثريد، وتُليَت صلاة مائدة طويلة بين يدي هذا الطعام الهزيل. واختفى الثريد. وهمس بعض الصبية في آذان بعض، وراحوا يتغامزون

بأوليفر، في حين أنشأ جيرانه الأدنين يلكزونه بمرافقهم. والواقع أنه كان ـ على طراوة عوده ـ يائساً من أثر الجوع، مغامراً من جراء البؤس، فنهض عن المائدة، وتقدَّم نحو الطاهي، والصحفة والملعقة في يده، وقال، مروّعاً بعض الشيء لهذا التهور الذي غلب عليه:

ـ «أرجوك، يا سيدي. أريد مزيداً من الثريد.»

وكان الطاهي رجلاً بديناً مفعماً بالعافية. ومع ذلك فقد شحب وجهه، لدن سماعه هذا الكلام، شحوباً شديداً. لقد حدَّق في دهش مشدوه، طوال بضع ثوان، إلى ذلك المتمرد الصغير، ثم تمسّك بالقدر الكبير خشية أن يسقط على الأرض مغشياً عليه. وشُلَّت المساعدتان دهشاً وانشداهاً، وشلّ الصبية خوفاً وفزعاً.

وأخيراً قال الطاهي في صوت واهن: «ماذا؟!»

فأجابه أوليفر: «أرجوك، يا سيدي. أريد مزيداً من الثريد!»

فسدد الطاهي إلى رأس أوليفر ضربة بالمغرفة، وكتّفه بين ذراعيه، وصرخ منادياً شماس الكنيسة.

وكانت اللجنة مختلية في اجتماع سري وقور، عندما اقتحم مستر بامبل الحجرة في اهتياج عظيم ووجّه الخطاب إلى السيد الماجد المستوي على الكرسي العالي فقال:

ـ «مستر ليمبكينز، أسألك العفو، يا سيدي! لقد طلب أوليفر تويست مزيداً من الثريد!»

وأجفل أعضاء اللجنة جميعاً. وتبدّى الذعر على كل وجه.

وقال مستر ليمبكينز: «مزيداً من الثريد! هدئ من روعك، يا بامبل، وأجبني في وضوح. هل أفهم من ذلك أنه طلب مزيداً من الثريد بعد أن التهم نصيبه المخصص له من طعام العشاء؟»

فأجاب مستر بامبل: «أجل، يا سيدي.»

فما كان من السيد الماجد ذي الصدرة البيضاء إلا أن قال: «هذا الولد

سوف يموت شنقاً. أنا على مثل اليقين من أن هذا الولد سوف يموت شنقاً.»

ولم يجادل أحد في رأي السيد الماحد النبوئي. ودارت مناقشة حارّة. وأصدرت اللجنة أمرها بأن يحبس أوليفر تويست في الحال. وصباح اليوم التالي ألصق على البوابة الخارجية بيان يعرض مكافأة مقدارها خمسة جنيهات لأي امرئ يريح الأبرشية من أمر العناية بأوليفر تويست والإنفاق عليه. وبكلمة أخرى، أبدت اللجنة استعداداً لأن تقدّم جنيهات خمسة وأوليفر تويست إلى أيما امرئ، رجلاً كان أو امرأة، يريد غلاماً يُمهّنه في أيما تجارة أو صناعة أو حرفة.

وقال السيد الماجد ذو الصدرة البيضاء فيما هو يقرع البوابة الخارجية ويقرأ البيان صباح اليوم التالي: «أنا لم أكن في أيما يوم من أيام حياتي مقتنعاً بشيء أكثر من اقتناعي بأن ذلك الصبي سوف تقوده قدماه، في المستقبل، إلى المشنقة.»

وإذ كنت أعتزم أن أبيِّن، في الفصول التالية، هل كان السيد الماجد ذو الصدرة البيضاء مصيباً أو غير مصيب فقد أفسدُ عنصرَ التشويق في هذه الرواية (هذا إذا صحّ أنها تتمتع بشيء من ذلك العنصر) إن أنا غامرت فألمعتُ، منذ الآن، إلى حياة أوليفر تويست القادمة، هل انتهت إلى مثل تلك النهاية العنيفة أم لا؟

الفصل الثالث

وهو يصف كيف كان أوليفر تويست على قاب قوسين من الحصول على وظيفة ليست من ذلك النوع الذي لا يقتضي المرء عملاً موازياً للراتب

وانقضى على ارتكاب أوليفر جريمته العَقوق الكافرة، جريمة التماس المزيد من الثريد، أسبوع كامل قضاه سجيناً في الحجرة المظلمة الموحشة

التي أسلمتهُ إليها حكمة اللجنة ورأفتها. ويبدو للوهلة الأولى أنه ليس من غير المعقول أن نفترض أنه لو كان أوليفر يكنّ كامل الاحترام اللائق لنبوءة السيد الماجد ذي الصدرة البيضاء إذن لعمد إلى توكيد ما يتمتع به ذلك السيد من موهبة في حقل التنبؤ، مرة وإلى الأبد، بربط أحد طرفي منديله بكلاب في الجدار وشدّ نفسه إلى الطرف الآخر. بيد أن تنفيذ هذا الصنيع كانت تحول دونه عقبة، هي أن مناديل الجيب ـ وقد اعتبرت من أدوات الترف، إلى آخر الدهر ـ كانت قد نُزِعت عن أنوف الفقراء بقرار صريح اتخذته اللجنة في أحد اجتماعاتها ونشرته على الناس مقترناً في كثير من الجلال بتوقيع كل من أعضائها وختمه. ليس هذا فحسب، بل لقد كانت ثمة عقبة أعظم، تتمثل في حداثة سنّ أوليفر وصبيانيته. وهكذا اجتزأ بالبكاء المرير، طوال ساعات النهار. حتى إذا هبط الليل الطويل الموحش بسط يديه أمام عينيه لكي يحجب عنهما الظلمه، وقبع في الزاوية محاولاً أن ينام. وبين الفينة والفينة كان يستيقظ مجفلاً مرتعداً، ويلتصق بالحائط أكثر فأكثر، وكأن استشعار سطحه البارد القاسي نفسَهُ كان ضرباً من الحماية له وسط الظلمة والوحشة اللتين كانتا تكتنفانه.

ولا يحسبَنَّ أعداء «النظام» أن القوم قد أنكروا على أوليفر ـ خلال فترة احتجازه الانفرادي ـ منافع الرياضة البدنية، ومباهج العِشرة الاجتماعية، ومحاسن السلوان الدينيّ. فأما في ما يتصل بالرياضة البدنية فقد كان الجوّ جميلاً بارداً، ولقد أجيز له أن يغسل وجهه ويديه كل صباح تحت المضخّة، في فناء مُبلّط، في حضرة مستر بامبل الذي حال بينه وبين الإصابة بالزكام وأوقع في جسده كله شعوراً بالخَدر، من طريق استخدام عصاه على نحو متكرر. وأما في ما يتصل بالعِشرة الاجتماعية فقد كان أوليفر يُحمل مرة كل يومين إلى الحجرة التي يتناول فيها الغلمان طعامهم، ليُجلد هناك بالسياط على نحو اجتماعيّ لكي يكون في ذلك تحذير عمومي وعبرة جماعية. وأما السلوان الديني فقد كان القوم بالغي الحرص على إتاحته لأوليفر، فكان يُرفس كل مساء، في ميقات الصلاة، إلى الحجرة

نفسها، ويجاز له هناك أن يصغي، لكي يسرّي عن نفسه، إلى ابتهال عام يضرع الغلمان به إلى اللّه، مشتمل على فقرة خاصة أقحمت بأمر من اللجنة. . . فقرة ابتهلوا فيها إلى الخالق أن يجعلهم صالحين، طَاهرين، قانعين، مطيعين، وأن يُنجّيهم من آثام أوليفر تويست ورذائله، أوليفر تويست الذي نصّ الابتهال في وضوح بالغ، على أنه خاضع لرعاية قوى الشر وحمايتها المطلقتين، وأنه أداة أقبلت مباشرة من مصنع إبليس نفسه.

واتفق ذات صباح، بينما كان أوليفر يتقلب في هذه الحال السعيدة الرخيَّة، أن اتخذ مستر غامفيلد ـ منظف المداخن ـ سبيله هابطاً «الشارع الكبير» وهو يقلّب الرأي في الأساليب والوسائل الخليق بها أن تمكنه من دفع بعض متأخرات أجرة بيته بعد أن ألحّ المؤجِر في قضائها إلحاحاً شديداً. والواقع أن تقدير مستر غامفيلد، الأشد تفاؤلاً، لموارده المالية لم يستطع أن يُضيّق الشقة ما بينها وبين المبلغ المطلوب إلى أقلّ من خمسة جنيهات كاملة. ولقد كان يقدح زناد فكره حيناً وينهال على حماره بالضرب حيناً ـ في نوع من اليأس الحسابيّ ـ عندما اجتاز بالملجأ فوقعت عيناه على البيان المعلق على البوابة الخارجية.

وقال مستر غامفيلد مخاطباً حماره: «هش. . . هش!»

وكان الحمار في حال من الذهول العميق، ولعله كان يتساءل ما إذا كان صاحبه سوف يُتحفه بجذع من الملفوف واحد أم بجذعين اثنين بعد أن يتخلص من كيسي السُّخام اللذين أثقلا ظهر العربة الصغيرة. وهكذا واصل تقدّمه الواهن البطيء من غير أن ينتبه إلى كلمة الأمر التي أصدرها صاحبه.

وزمجر مستر غامفيلد مطلقاً لعنة شملت شخص الحمار كله، ولكنها انصبّت بخاصة على عينيه. وركض خلفه، وسدد إلى رأسه ضربة كان خليقاً بها أن تحطم، من غير ريب، أيما جمجمة من الجماجم إلا إذا كانت جمجمة حمار. ثم إنه أمسك بلجامه، ولوى فكه في قسوة وعنف وكأنما أراد تذكيره، في لطف، بأنه لم يكن سيد نفسه. وبهذه الوسائل

أكره على الاستدارة. وبعد ذلك سدّد إلى رأسه ضربة ثانية، لمجرد صعقه ريثما يرجع هو مرّة أخرى. حتى إذا أتمّ هذه الترتيبات تقدّم نحو البوابة الخارجية ليقرأ البيان.

كان السيد الماجد ذو الصدرة البيضاء واقفاً لدى الباب ويداه خلف ظهره بعد أن أعتق نفسه من بعض المشاعر العميقة في حجرة اللجنة. وإذ كان قد شهد النزاع الصغير بين مستر غامفيلد والحمار، فقد ابتسم مبتهجاً عندما تقدم ذلك الشخص لقراءة البيان، ذلك بأنه أدرك في الحال أن مستر غامفيلد هو، على وجه الضبط، «المعلّم» النموذجي الصالح لأوليفر تويست. وتبسّم مستر غامفيلد أيضاً، فيما كان يقرأ الوثيقة في روية وإمعان. ذلك بأن الخمسة الجنيهات كانت هي، تماماً، المبلغ الذي تمناه. أما في ما يتصل بالغلام الذي كان الفوز بالجنيهات الخمسة رهناً بتمهينه فقد أيقن مستر غامفيلد ـ بحكم معرفته أي نوع من الغذاء يقدّمه الملجأ ـ أنه لا بدَّ أن يكون من قياس رائع صغير، قياس مثالي للمواقد ذات الحجم المعدّل للفتحة. وهكذا تهجّى البيان مرّة أخرى، من ألفه إلى يائه. ثم إنه مسّ قلنسوته المُفَرّاة(*)، إشارة إلى اتضاعه، ووجّه الخطاب إلى السيد الماجد ذي الصدرة البيضاء، قائلاً:

ـ «هذا الغلام الصغير، يا سيدي، الذي تريد الأبرشية أن تمهّنه. . .»

فقال السيد ذو الصدرة البيضاء، في ابتسامة متلطّفة: «أجل، أيها الرجل، ما شأنه؟»

فأجابه مستر غامفيلد: «إذا كانت الأبرشية راغبة في تعليمه صناعة قريبة إلى النفس حقاً، في مؤسسة محترمة لتنظيف المداخن، فإني أحتاج إلى غلام، وإني لعلى استعداد لأن آخذه.»

فقال الرجل الماجد ذو الصدارة البيضاء: «ادخل إذن.»

وتخلّف مستر غامفيلد لحظات لكي يسدّد إلى رأس الحمار ضربة

(*) أي الموشحة بالفرو.

جديدة، ويلوي فكّه مرّة أخرى، كتحذير له من الفرار أثناء غيابه، ثم تبع السيد الماجد ذا الصدرة البيضاء إلى الحجرة التي كان أوليفر قد رآه فيها للمرة الأولى.

وقال مستر ليمبكينز عندما عاود غامفيلد إبداء رغبته: «إنها صناعة قذرة.»

وأضاف سيد ماجد آخر: «ولقد اختنق بعض الصبية الصغار في المداخن قبل اليوم.»

فقال مستر غامفيلد: «ذلك لأنهم قد بللوا القش قبل أن يشعلوه في المدخنة لكي يُطلَب إليهم النزول. إن هذا لا ينتج إلا دخاناً. إنه لا يحدث أيما لهب. في حين أن الدخان لا يفيد البتة في حمل الصبية على النزول من المدخنة، لأنه يغريهم بالنوم ليس غير، وهذا هو ما يتوقون إليه. إن الصبية شديدو العناد، مسرفون في الكسل، أيها السادة الأماجد، وليس ثمة ما هو أفضل من اللهب المتقد لحملهم على النزول بأقصى السرعة. وهذا شيء إنساني أيضاً، أيها السادة الأماجد، لأنهم حتى إذا ما علقوا في المدخنة فإن تحميص أقدامهم يجعلهم يناضلون للنجاة بأنفسهم.»

وبدا السيد الماجد ذو الصدرة البيضاء وكأنه قد طرب لهذا التعليل. ولكن طربه ما لبث أن كُبح بنظرة حدجَه بها مستر ليمبكينز. ثم إن أعضاء اللجنة راحوا يتشاورون في ما بينهم، طوال دقائق معدودات، ولكن في صوت خفيض جداً بحيث إن هذه الكلمات «توفير النفقات»، «درسنا الحسابات جيداً»، «العمل على نشر تقرير مطبوع» كانت هي وحدها الكلمات المسموعة. والواقع أن هذه الكلمات لم تُسمع، اتفاقاً، إلا بسبب من تكرّرها على نحو شبه موصول، وفي توكيد عظيم.

وأخيراً انقطع الهمس. واستعاد أعضاء اللجنة مقاعدهم ووقارهم، ليقول مستر ليمبكينز:

ـ «لقد درسنا عَرضك. ونحن لا نقرّه.»

فقال السيد الماجد ذو الصدرة البيضاء: «على الاطلاق.»

وأضاف الأعضاء الآخرون: «لا، من غير ريب.»

وإذ اتفق إن كان مستر غامفيلد يعمل في ظل تهمة طفيفة تقول بأنه قضى حتى الآن على حياة ثلاثة صبية أو أربعة صبية من طريق الرضّ والضرب العنيف فقد بدا له أن أعضاء اللجنة ربما خطر لهم، بسبب من نزوة لا سبيل إلى تفسيرها، أن يدَعوا هذه الواقعة تؤثر في موقفهم من القضية. ولو قد صح ذلك إذن لكان هذا مغايراً كل المغايرة لطريقتهم المألوفة في عقد الصفقات. ومع ذلك فقد اختصر ـ إذ لم يكن راغباً في بعث ذكرى تلك الشائعة ـ بفتل قلنسوته بين يديه، وابتعد عن المائدة في تؤدة. حتى إذا انتهى إلى الباب تمهل وقال:

ـ «وإذن، فأنتم لا تريدون، أيها السادة، أن تسلموه إليّ؟»

فأجابه مستر ليمبكينز: «لا. وإننا نعتقد ـ على الأقل ـ باعتبارها صناعة قذرة، إن عليك أن تأخذ شيئاً أقل من المكافأة التي عرضناها.»

فأشرق محيا مستر غامفيلد، ورجع إلى المائدة، في خطى سريعة، وقال:

ـ «كم تريدون أن تدفعوا، أيها السادة؟ رويدكم! ولا تكونوا بالغي القسوة على رجل فقير. ما الذي تريدون أن تدفعوه؟»

فقال مستر ليمبكينز: «يخيَّل إليّ أن ثلاثة جنيهات وعشرة شلنات سوف تكون أكثر من كافية.»

أما السيد الماجد ذو الصدرة البيضاء فقال: «هذا أكثر مما ينبغي بعشرة شلنات.»

فقال غامفليد: «هيا! قولوا أربعة جنيهات، أيها السادة. قولوا أربعة جنيهات وعندئذ تتخلصون منه إلى الأبد. هيّا!»

فكرّر مستر ليمبكينز في حزم: «ثلاثة جنيهات.»

فألح غامفيلد: «اسمعوا! سوف أقسم الفرق بيننا، أيها السادة. ثلاثة جنيهات وخمسة عشر شلناً.»

فجاءه جواب مستر ليمبكينز الحازمُ: «لن ندفع فلساً واحداً أكثر.»

فقال غامفيلد، متمايلاً: «إنكم تقسون عليّ قسوة بالغة، أيها السادة.»

فأجابه السيد الماجد ذو الصدرة البيضاء: «بوه! بوه! هراء! إنه سوف يكون رخيصاً ولو لم تُمنَح على أخذه أية مكافأة. خذه، أيها الرجل السخيف! لقد خُلق من أجلك. وهو محتاج إلى العصا بين الفينة والأخرى: إنها سوف تنفعه. أما تغذيته فلن تكون باهظة النفقة، لأنه لم يعرف التخمة منذ الساعة التي وُلد فيها. ها! ها! ها!»

وألقى مستر غامفيلد نظرة ماكرة على وجوه الجالسين إلى المائدة، حتى إذ لاحظ البسمة عليها كلها أنشأ يتبسم هو الآخر. لقد تمت الصفقة. وفي الحال أبلغ مستر بامبل أن أوليفر تويست وعَقدهُ يجب أن يمثلا بين يدي القاضي، للفوز بتوقيعه وموافقته، في ذلك الأصيل بالذات.

وتنفيذاً لهذا القرار حُرِر أوليفر الصغير ـ ويا لدهشه البالغ! ـ من العبودية، وأمر بأن يُقحم نفسه في قميص نظيف. ولم يكد ينجز هذا التمرين الرياضي غير المألوف إلى أبعد الحدود حتى حمل إليه مستر بامبل، بيديه هو، صحفة ثريد، وجراية العطلة المؤلفة من أونصتين وربع أونصة من الخبز. وعندما وقعت عينا أوليفر على هذا المشهد الهائل، شرع يبكي على نحو يتفطَّر له الفؤاد، متوهماً ـ وليس ذلك مستغرباً أو غير طبيعي ـ أن أعضاء اللجنة لا بدَّ قد عقدوا العزم على قتله لغرض نافع يجهله، وإلا لما أخذوا البتة بتسمينه على هذا النحو.

فقال مستر بامبل في نبرة ترشح بالتباهي المؤثّر: «لا تُدم عينيك، بل كل طعامك وكن شكوراً. إننا سوف نجعل منك «غلاماً ممهّناً»، يا أوليفر.»

فلم يكن من الطفل إلا أن قال، مرتعداً: «غلام ممهّن، يا سيدي!»

فأجابه مستر بامبل: «أجل، يا أوليفر. إن السادة الكرام المباركين الذين هم آباء لك متعددون، يا أوليفر، على حين أنك حُرِمت الأب الحقيقي، يعتزمون أن يمهّنوك، وأن يضعوك على طريق الحياة، وأن

يجعلوا منك رجلاً، على الرغم من أن ذلك سوف يكلف الأبرشية ثلاثة جنيهات وعشرة شلنات! . . . ثلاثة جنيهات وعشرة شلنات، يا أوليفر! . . . أي سبعين شلناً! مئة وأربعين قطعة من فئة البنسات الستة! وكل ذلك من أجل يتيم خبيث لا يستطيع أحد أن يحبّه.»

حتى إذا تمهّل مستر بامبل لكي يأخذ نفساً، بعد أن ألقى هذا الخطاب في صوت رهيب، تحدّرت العبرات على وجه الطفل الصغير، ونشَج على نحو مرير.

فقال مستر بامبل مخففاً من تفاخره بعض الشيء، فقد أرضى مشاعرهُ أن يلاحظ الأثر الذي خلَّفته فصاحته: «كفى، كفى، يا أوليفر! كفكف عبراتك بكمّ سترتك، ولا تبك فوق ثريدك. إن ذلك صنيع بالغ الحمق، يا أوليفر.» ولقد كان ذلك صحيحاً من غير ريب، فقد كان في الثريد قَدر من الماء كاف وزيادة.

وفي الطريق إلى القاضي قال مستر بامبل لأوليفر إن كل ما يتعيَّن عليه أن يفعله هو أن يخلع على وجهه مظهر السعادة الغامرة، وأن يقول، حين يسأله القاضي ما إذا كان راغباً في التمهّن على يدي منظف المداخن، إنه شديد الرغبة في ذلك حقاً، فوعد، أوليفر بتنفيذ هذين الأمرين جميعاً. خاصة وأن مستر بامبل أشار من طرف خفيّ إلى أنه إن خالف أيّاً منهما فليس في ميسور أحد أن يحزر ما الذي سوف يحلّ به من جراء ذلك. حتى إذا بلغا مكتب القاضي عُزل في حجرة صغيرة وأمره مستر بامبل بالبقاء هناك ريثما يعود هو لاصطحابه.

وهناك لبث الغلام، واجف القلب، نصف ساعة أقحم مستر بامبل، عند انقضائها رأسه غير المزدان بالقبعة ذات القرنين، من وراء الباب، وقال في صوت مرتفع: «والآن، يا عزيزي أوليفر، تعال وامثل بين يدي السيد.» ولم يكد ينطق بذلك حتى خلع على وجهه مسحة كالحة متوعدة، وأضاف في صوت خفيض: «تذكر ما قلته لك، أيها النذل الصغير!»

وحدّق أوليفر ـ عند سماعه هذه اللهجة المناقضة ـ إلى وجه مستر

بامبل في كثير من البراءة، ولكن ذلك السيد الماجد حال بينه وبين إبداء أيما ملاحظة حول هذا الانقلاب المفاجئ بأن قاده على التوّ إلى حجرة مجاورة كان بابها مفتوحاً. لقد كانت حجرة عريضة ذات نافذة كبيرة، جلس وراء مكتبها سيدان عجوزان نُضح شعر رأسيهما بالذرور. كان أحد هذين السيدين يطالع الجريدة، وكان الآخر يقرأ في روية وإمعان ـ مستعيناً على ذلك بنظارتين من «الباغة» ـ وثيقة صغيرة منشورة أمامه. وكان مستر ليمبكينز واقفاً عند جانب من المكتب، ومستر غامفيلد عند الجانب الآخر وقد غسّل وجهه غسلاً جزئياً، في حين كان رجلان أو ثلاثة رجال ذوو وجوه غليظة فظّة يروحون ويجيئون حول المكتب منتعلين أحذية طويلة.

وشيئاً بعد شيء غفا الرجل ذو النظارتين فوق وثيقته الصغيرة. وساد الصمت لحظة بعد أن أوقف مستر بامبل الغلام قُبالة المكتب.

وقال مستر بامبل: «هذا هو الغلام، يا صاحب الفضيلة.»

فرفع السيد العجوز الذي كان يطالع الجريدة رأسه لحظة من زمان، وجذب السيد العجوز الآخر من كمّه جذبة أيقظته من رقاده.

وقال السيد العجوز: «أوه، أهذا هو الغلام؟»

فأجاب مستر بامبل: «إنه هو، يا سيدي. انحنِ احتراماً للقاضي، يا عزيزي.»

فاستجمع أوليفر شتات وعيه وانحنى مقدّماً أسمى آيات احترامه. لقد كان يتساءل، وعيناه مركَّزتان على شعر القاضيين المنضوح بالذرور، ما إذا كان جميع أعضاء اللجان يولدون وتلك المادة البيضاء على رؤوسهم، وما إذا كانوا يصبحون منذ ذلك الحين أعضاء لجان بسبب من هذه الظاهرة نفسها.

فقال السيد العجوز: «حسناً، أنا أحسب أنه مولع بتنظيف المداخن؟»

ـ «إنه شديد الشغف به يا صاحب الفضيلة.» كذلك أجاب مستر بامبل، وهو يقرص أوليفر قرصة خفيّة لكي يُفهمه أن من الخير له أن لا يصرِّح بنقيض ذلك.»

فتساءل السيد العجوز: «وهو يودّ، عن طيب خاطر، أن يكون منظف مداخن، أليس كذلك؟»

فكان جواب مستر بامبل: «لو حاولنا أن نكرِههُ على أيما صناعة أخرى، غداً، إذن لأطلق ساقيه للريح في اليوم نفسه هرباً منها.»

فقال السيد العجوز: «وهذ الرجل الذي سوف يكون سيده ـ أنت، يا سيدي ـ ستُحسن معاملته، وستغذّيه وتعنَى بجميع أمره، أليس كذلك؟»

فأجابه مستر غامفيلد في شراسة: «حين أقول سوف أفعل شيئاً فإنما أعني أني سأفعل.»

ـ «أنت متحدث خشن، يا صديقي، ولكنك تبدو رجلاً أميناً سليم الطوية.» كذلك قال السيد العجوز، محوّلاً نظارتيه صوب المرشح للفوز بمكافأة أوليفر، والذي كان محيّاه الشرير بمثابة إيصال نظامي مذيّل بالطوابع ضماناً للقسوة والوحشية. ولكن القاضي كان نصف أعمى، نصف صبيانيّ، ومن هنا ما كان للمرء أن يتوقع منه أن يرى ما يراه غيره من الناس.

وقال مستر غامفيلد غامزاً بعينه على نحو بشع: «أرجو أن أكون كما تقول، يا سيدي.»

فأجابه السيد العجوز، مثبّتاً نظارتيه على أنفه، مجيلاً طرفه في ما حوله بحثاً عن الدواة: «ليس عندي ريب في أنك كما قلت، يا صديقي.»

كانت هي اللحظة الحاسمة في قدَر أوليفر. فلو كانت الدواة حيث ظنّ السيد العجوز أنها موجودة إذن لكان غمس ريشته فيها ووقَّع العقد، وإذن لكان خليقاً بأوليفر أن يُخرَج من هناك على التوّ. أما وقد شاءت المصادفة أن تكون تحت أنفه مباشرة فقد لزِم عن ذلك، على نحو طبيعيّ، أنه أجال بصره في أرجاء مكتبه كله من غير أن يجدها. وإذ اتفق له، خلال بحثه ذاك، أن ينظر أمامه على خط مستقيم فقد وقع بصره على وجه أوليفر تويست الشاحب المروّع، أوليفر تويست الذي كان ـ رغم جميع نظرات

بامبل وقَرصاته التحذيرية ـ يحدِّق إلى محيّا سيده المقبل الكريه، تحديقاً خلع على وجهه انطباعة كانت مزيجاً من رعب وخوف وكانت من الوضوح بحيث لا يعجز أيما أمرئ عن تبيّنها حتى ولو كان قاضياً نصف أعمى.

وتوقف السيد العجوز، واطرح ريشته، ونقّل طَرفه من أوليفر إلى مستر ليمبكينز، الذي حاول أن يأخذ قَبصة سعوط متظاهراً بالبهجة واللامبالاة.

ـ «اسمع، يا ولدي!» كذلك قال السيد العجوز، منحنياً فوق المكتب. فأجفل أوليفر لدى سماعه هذه الكلمات. ولعله أن يكون غير ملوم في ذلك. فقد كانت لهجة القاضي بالغة اللطف. ومن دأب اللهجة الغريبة أن تروّع المرء. وارتعد ارتعاداً عنيفاً، وانفجر بالبكاء.

وهنا أضاف السيد العجوز: «اسمع، يا ولدي! أنت تبدو شاحب اللون مروّع الفؤاد. فما خطبك؟»

وقال القاضي الآخر، واضعاً الصحيفة جانباً، ومنحنياً إلى أمام وعلى وجهه أمارات الاهتمام: «ابتعد عنه بعض الشيء، أيها الشماس. والآن، أيها الغلام، حدِّثنا ما المسألة. قل ولا تخف.»

فخرَّ أوليفر على ركبتيه، وشبَك يديه، وتضرَّع إلى القاضي أن يعيده إلى الحجرة المظلمة... أن يميته من الجوع... أن يضربه... أن يقتله إذا شاء، فذلك كله خير من إرساله مع هذا الرجل الرهيب.

فقال مستر بامبل، رافعاً يديه وعينيه في جلال مؤثّر إلى أبعد حد: «حسناً، حسناً، إنك يا أوليفر واحد من أوقح الأيتام المحتالين الماكرين الذين قُدّر لي أن أراهم في حياتي.»

ـ «أمسك لسانك، أيها الشماس!» كذلك قال السيد العجوز الثاني عندما أطلق مستر بامبل هذا النعت في صِيغة التفضيل.

فقال مستر بامبل، غير مصدِّق أنه أحسَن السماع: «ألتمس عفوك، يا

صاحب الفضيلة. هل تحدثت فضيلتك إليّ؟»

ـ «أجل. أمسك لسانك.»

وصعق مستر بامبل دهشاً. أيُؤمر شماس بأن يمسك لسانه؟! تلك إذن ثَورة أخلاقية حقاً!

فنظر السيد العجوز ذو النظارتين المصنوعتين من «الباغة» إلى رفيقه، وهز رأسه هزة ذات مغزى.

فقال السيد العجوز، مزيحاً الوثيقة من أمامه فيما كان يتكلم: «نحن نرفض أن نوقع هذا العقد.»

فتلجلج مستر ليمبكينز قائلاً: «أرجو.. أرجو القاضيين أن لا يظنّا ـ بناء على شهادة لا يدعمها الدليل صادرة عن طفل صغير ـ أن سلطات الأبرشية قد أذنبت وأساءت التصرّف..»

فقال السيد العجوز الثاني في لهجة جافة: أرجع الصبي إلى الملجأ، وعاملهُ في رفق. يبدو أنه في حاجة إلى ذلك.»

وفي ذلك المساء عينه لم يؤكد السيد الماجد ذو السترة البيضاء توكيداً مغالياً في اليقينيّة والحزم أن أوليفر سوف ينتهي إلى المشنقة في يوم من الأيام، فحسب، بل عدا ذلك إلى الجزم بأنه، فوق هذا كله، سوف يُشَدّ إلى الخيل في اتجاهات متعاكسة فتقسم جسده أقساماً أربعة. وهز مستر بامبل رأسه وقد بدت على وجهه أمارات انشداه كئيب، وقال إنه يرجو أن يوفق أوليفر إلى سلوك السبيل القويم. فلم يكن من مستر غامفيلد إلا أن أجاب عن ذلك بقوله إنه يتمنى لو يعود إليه. وهي أمنية بدت ـ على الرغم من اتفاق غامفيلد مع شماس الكنيسة في معظم القضايا ـ ذات طبيعة متناقضة تناقضاً كاملاً مع أمنية بامبل.

في صباح اليوم التالي أحيط الجمهور علماً، مرّة ثانية، بأن أوليفر تويست معروض للإيجار، وأن خمسة جنيهات سوف تُدفع إلى أيما امرئ يبدي استعداده لاقتنائه.

الفصل الرابع

أوليفر يدخل في الحياة العامة للمرة الأولى بعد أن عرضت عليه وظيفة أخرى

من دأب الأسر الكبيرة حين تعجز ـ سواء من طريق الثروة، أو من طريق عودة الهبة إلى الواهب، أو انتقال الملكية إليه بعد وفاة شخص آخر، أو ارتقاب الإرث ـ عن أن تضمن لفتيانها وظائف مريحة. . . أقول من دأبها في هذه الحال أن تجعل منه ملاحاً. واقتداء بهذا المثل البالغ الحكمة والنفع، تشاور أعضاء اللجنة في ضرورة ترحيل أوليفر تويست على متن أحد المراكب الصغيرة الشاخصة إلى مرفأ صالح غير صحّي. لقد تراءى لهم أن ذلك هو خير ما يمكن أن يُفعل به، على اعتبار أن ربان السفينة سوف يعمل، في أرجح الاحتمالات، إلى جلده بالسوط حتى الموت، على سبيل المزاح، ذات يوم من الأيام بعد تناول طعام العشاء، أو إلى تطيير دماغه بقضيب حديدي، خاصة وأن كلتا هاتين التسليتين ـ كما يعلم الناس جميعاً ـ أثيرة جداً وشائعة جداً عند رجال تلك الطبقة. والواقع أن أعضاء اللجنة كانوا كلما درسوا هذه الفكرة، من تلك الزاوية، تعدّدت في نظرهم منافعها وتشعّبت. وهكذا أجمع رأيهم، آخر الأمر، على أن الطريقة الوحيدة لإعالة أوليفر على نحو فعّال هي إركابُه البحر في غير إبطاء.

وكان مستر بامبل قد وُجِّه للقيام بمختلف الاستطلاعات التمهيدية، رجاة أن يجد رباناً ما، راغباً في نادل صغير ليس له أهل، وكان قد اتخذ سبيله عائداً إلى الملجأ كي يُبلغ اللجنة نتيجة مسعاه، عندما التقى على عتبة الباب شخصية بارزة لم تكن غير مستر ساواربيري(*)، دفّان الأبرشية.

(*) Sowerberry وقد نحت ديكنز هذا الاسم من لفظتي Sower (حامض) و berry (توت) أي «التوت الحامض». (المعرب)

وكان مستر ساواربيري رجلاً فارع الطول، نحيلاً، بارز المفاصل، يرتدي بذلة سوداء بالية، وجوربين قطنيين مرفوّين سوداوين، وحذاء متناغماً مع البذلة والجوربين. والحق أن الطبيعة لم تخلق محيّاه للابتسام، ولكنه كان على العموم نزّاعاً للمزاح المحترف. كان خطوه رشيقاً وكان وجهه ينم عن مَرح باطني حين تقُدّم نحو مستر بامبل وصافحه في ود بالغ، قائلاً:

ـ «لقد أخذتُ قياس المرأتين اللتين ماتتا الليلة البارحة، يا مستر بامبل.»

ـ «سوف تكسب الثروة التي تطمع فيها، يا مستر ساواربيري!» كذلك قال الشماس وهو يقحم إبهامه وسبابته في علبة السعوط التي دعاه الدفان إلى تناول قبصة منها، وكانت تلك العلبة نموذجاً عبقرياً مصغراً لتابوت مسجّل. وما لبث أن كرّر، مربتاً بعصاه، على كتف الدفان، تربيتاً ودياً: «أقول إنك سوف تكسب الثروة التي تطمع فيها، يا مستر ساواربيري!»

ـ «أتظنّ ذلك؟» هكذا قال الدفان في لهجة نصف مسلِّمة بإمكان تحقق تلك النبوءة، نصف منكرة لهذا الإمكان. «إن الأسعار التي عيَّنتها اللجنة ضئيلة جداً، يا مستر بامبل.»

فأجابه الشماس، مرسلاً ضحكة أرادها أن لا تتجاوز حدود الضحكة الرسمية التي يجدر بموظف عظيم أن يلتزمها: «وكذلك حالُ التوابيت!»

ودغدغت هذه الدعابة مستر ساواربيري وأرضَتهُ إرضاءً بالغاً، كما ينبغي لها أن تفعل، فراح يضحك على نحو موصول. وأخيراً قال:

ـ «حسن، حسن، يا مستر بامبل، إن المرء لا يستطيع إلا الاعتراف بأن التوابيت أمست، منذ تطبيق نظام التغذية الجديد، أضيق من ذي قبل بعض الشيء، وأشد ضحولة مما كانت في الماضي. ولكن من حقنا أن نفوز بشيء من الربح، يا مستر بامبل. فالخشب المجفّف جيداً سلعة غالية الثمن، يا سيدي، وجميع المقابض الحديدية تردُنا، عبر القنال، من بيرمنغهام.»

فقال مستر بامبل: «حسن. حسن. إن لكل صناعة عيوبها. وليس ثمة، طبعاً، أيّ اعتراض على الربح العادل.»

فأجاب الدفان: «طبعاً، طبعاً. وإذا كنت لا أحقق ربحاً من هذه السلعة أو من تلك فإنني أحققه من غير ريب في السياق الطويل، كما ترى... هئ! هئ! هئ!»

فقال مستر بامبل: «تماماً.»

ولكن الدفّان أضاف مستأنفاً ملاحظاته التي كان الشماس قد اعترض سبيلها: «برغم أنه عليَّ القول، يا مستر بامبل، إني مضطر إلى الكفاح ضد بلاء ضخم جداً، وهو أن جميع أصحاب الأجسام البدينة يفارقون الحياة بأسرع مما يفارقها غيرهم. إن الناس الذين سبق لهم أن تقلّبوا في النعمة ودفعوا الضرائب طوال سنين عديدة هم أول من يصيبهم الضعف والخور حين يَفِدون إلى الملجأ. ودعني أنبئك، يا مستر بامبل، أن زيادة ثلاثة إنشات أو أربعة إنشات على تقدير المرء تُحدث ثغرة كبيرة في أرباحه. وخاصة حين يكون لدى المرء أسرة يتعيَّن عليه أن يعيلها، يا سيدي.»

ولما كان مستر ساواربيري قد قال هذه الكلمات بنبرة السخط الخليقة بأمرئ يتظلَّم من حيف أصابه، ولما كان مستر بامبل قد استشعر أنها تنزع إلى الغمز من شرف الأبرشية فقد بدا لهذا السيد الأخير أن من الحكمة أن يغيّر الموضوع. وإذ كان أوليفر تويست هو شغله الشاغل آنذاك فقد جعله موضوع حديثه.

قال مستر بامبل: «بالمناسبة، هل تعرف أيما امرئ محتاج إلى صبي صغير؟ إلى غلام متمهّن من غلمان الأبرشية هو الآن عبء ثقيل ـ أو بالأحرى حجر رحى ـ حول عنق الأبرشية؟ الشروط سخية، يا مستر ساواربيري، الشروط سخيّة!» ورفع مستر بامبل عصاه، فيما هو يتكلم، نحو البيان المعلق فوق رأسه، وقَرع بها هاتين الكلمتين «خمسة جنيهات»، اللتين كانتا مطبوعتين هناك بأحرف رومانية كبيرة، ثلاث قرعات متميزة.

ـ «وحق الإله!» كذلك قال الدفّان، وهو يمسك بمستر بامبل من طيّة

سترته الرسمية المذهّبة الحاشية. «ذلك هو عين الشيء الذي أردت أن أتحدث إليك عنه. أوه، أي زرّ مغرِق في الأناقة هو هذا الزر، يا مستر بامبل! أنا لم ألمحه قط من قبل.»

فقال الشماس وهو يخفض بصره في اعتزاز نحو الأزرار النحاسية الضخمة التي زيَّنت سترته: «أجل، أحسب أنه جميل جداً. إن القالب هو عين قالب الختم الأبرشيّ: السامري الصالح يضمد جراحات الرجل المريض المرضوض. لقد قدَّمته اللجنة إليَّ صباح رأس السنة، يا مستر ساواربيري. ولقد علَّقته للمرة الأولى، في ما أذكر، لكي أشهد التحقيق الذي أجرِي حول ذلك التاجر الذي ألمّ به الفقر، والذي مات، في منتصف الليل، عند مدخل مبنى من المباني.»

فقال الدفّان: «أذكر ذلك، ولقد حكم المحلفون بأنه مات من البرد، ومن حاجته إلى ضرورات الحياة البسيطة. أليس كذلك؟»

فهز مستر بامبل رأسه.

فقال الدفّان: «ولقد أرادوا أن يلفتوا نظر العدالة، في ما أحسب، بأن أضافوا بضع كلمات تقول ما معناه أنه لو أن المسؤول عن الإسعاف قد...»

فقال الشماس: «تُش! حماقة! ولو أن أعضاء اللجنة فتحوا آذانهم لكل الهراء الذي ينطق به المحلفون الجاهلون لشغلهم ذلك عن كل عمل مفيد.»

فقال الدفّان: «من غير ريب. هذا صحيح إلى أبعد الحدود.»

وهنا قال مستر بامبل، وهو يُحكم قبضته على عصاه، كدأبه كلما استبدّ به الغيظ: «المحلفون... المحلفون مساكين خسيسون مبتذلون تعوزهم الثقافة.»

فقال الدفّان: «إنهم لكذلك حقاً.»

ـ «وهم لا يعرفون من الفلسفة ومن الاقتصاد السياسي غير هذا الهراء» كذلك قال الشماس وهو يفرقع أصابعه في ازدراء.

فوافق الدفّان قائلاً: «هم لا يعرفون غير ذلك.»

فقال الشماس وقد احتقن وجهه بالدم: «أنا أحتقرهم!»

فأجابه الدفّان: «وأنا أيضاً.»

ـ «ولست أتمنى إلا أن تقضي هيئة محلفين، من الطراز المستقل، أسبوعاً أو سبوعين في الملجأ. وأنا أزعم بأن قوانين اللجنة وأنظمتها سوف تُفحمهم وشيكاً.»

ـ «فلندعهم وشأنهم، إذن» قال الدفّان ذلك وابتسم موافقاً، لكي يهدئ الموظف الأبرشاني الساخط ويخفف من غيظه المتعاظم.

ورفع مستر بامبل قبعته ذات القرنين، وأخرج من داخلها منديلاً فمسَح به العرق الذي كان الغيظ قد فصّده من جبينه. ثم إنه ثبّت القبعة ذات القرنين على رأسه، مرّة أخرى، والتفت إلى الدفّان وقال في صوت أحفل بالهدوء:

ـ «حسن، وما رأيك في مسألة الغلام؟»

فأجابه الدفّان: «أوه! ولكنك تعرف، يا مستر بامبل، أني أغذي صندوق إسعاف الفقراء بمبالغ كبيرة.»

فقال الشماس: «هممم. ثم ماذا؟»

فأجاب الدفّان: «حسن، لقد كنت أقول في ذات نفسي إني إذا دفعت من أجلهم هذه المقادير كلها فإن لي الحق في أن أنتزع منهم كل ما أستطيع انتزاعه. يا مستر بامبل. وهكذا... وهكذا يخيِّل إليّ أني سوف آخذ أنا ذلك الغلام.»

وأمسك مستر بامبل بالدفّان من ذراعه وقاده إلى داخل المبنى. وهناك طوّق أعضاء اللجنة مستر ساواربيري طوال دقائق خمس، وتمّ الاتفاق على أن يمضي أوليفر معه، تلك الليلة بالذات، «على سبيل التجربة» ـ وهي عبارة تعني، حين تُقال عن غلام ممهَّن من غلمان الأبرشية، أنه إذا وجد «المعلم» بعد اختبار وجيز أن في استطاعته أن ينتزع من الغلام عملاً كافياً

من غير أن يُفرغ في جسده مقداراً كبيرا من الطعام فعندئذ يحقّ له أن يحتفظ به عدة سنوات يفعل به خلالها ما يشاء.

وحين اقتيد أوليفر الصغير، ذلك المساء، للمثول بين أيدي «السادة الأماجد»، وأحيط علماً بأن عليه أن يذهب تلك الليلة إلى بيت صانع توابيت بوصفه خادماً مكلفاً بأداء مختلف ضروب العمل، وأنه إذا ما أبدى أيما شكوى من وظيفته تلك أو انقلب في أي يوم من الأيام إلى الأبرشية فعندئذ يساق إلى البحر لكي يُغرق فيه أو يحطّم رأسه تحطيماً، تبعاً لما يقضي به الحال، . . . أقول عندما أحيط أوليفر الصغير علماً بذلك كله لم يُبدِ من التأثر إلا قدراً يسيراً جداً، وهذا ما دعا أعضاء اللجنة إلى الحكم بأنه وَغد صغير متحجر الفؤاد، وأصدروا أمرهم إلى مستر بامبل بأن يرحّله في الحال.

والآن، على الرغم من أنه كان طبيعياً جداً أن تعصف بأعضاء اللجنة، أكثر من أي جماعة أخرى في العالم، موجة من الدهش والرعب الفاضلين لتكشف أيما مخلوق بشري عن أقلّ إمارات اللاشعور، فإن أولئك القوم كانوا مخطئين في هذه الحادثة بالذات. فالواقع أن أوليفر لم يكن أبعد الناس عن فقدان الشعور فحسب، بل كان يملك من الإحساس أكثر مما ينبغي أيضاً، وأنه كان في سبيله إلى أن ينتهي، مدى الحياة، إلى حال من البلاهة والكآبة الوحشيتين بسبب من الظلم الذي أنزِل به. لقد أصغى إلى ما قرَّرته اللجنة في شأنه بصمت مطلق. وإذ كان يحمل أمتعته بيده (وهو أمر لم يكن عسيراً جداً، إذ كانت كلها منطوية ضمن حدود رزمة ورقية صفراء لا تزيد مساحتها على نصف قدم مربع ولا يزيد ارتفاعها على ثلاثة إنشات) فقد أنزل قلنسوته حتى عينيه. ومرّة أخرى تعلّق أوليفر برُدن سترة مستر بامبل، فقاده ذلك الحِبر إلى موطن من مواطن العذاب جديد.

وطوال فترة ما، جرّ مستر بامبل أوليفر من غير أن يوجّه إليه أيما نظرة أو كلمة. ذلك بأن الشماس رفع رأسه عالياً جداً. كما يتعيَّن على شمامسة الكنيسة أن يفعلوا. وإذ كان ذلك اليوم عاصفاً فقد حُجب أوليفر الصغير

حجباً كاملاً بالأجزاء السفلية من صوب مستر بامبل وقد أخذت الريح تعبث بها كاشفة عن نحو مستحبّ عن سترته ذات الحواشي وعن بنطاله القصير المنتهي عند ركبتيه والمصنوع من قطيفة رديئة داكنة السمرة. حتى إذا اقتربا من المكان الذي كانا يقصدان إليه بدا لمستر بامبل أن من الملائم أن يخفض بصره ليستيقن من حسن مظهر الغلام قبل أن يتأمله معلمه الجديد تأمّل الفاحص المتحرّي. وهو ما أقدم عليه فعلاً، وقد غلبت على وجهه سيماء لائقة وملائمة تنطق بالرعاية الكريمة، فقال:

ـ «أوليفر!»

فأجابه أوليفر في صوت خفيض مرتعد:

ـ «نعم، يا سيدي.»

ـ «انزع تلك القلنسوة عن عينيك، وارفع رأسك عالياً.»

وعلى الرغم من أن أوليفر صدع، في الحال، بما طُلِب إليه، وأمرّ ظاهر يده غير المشغولة امراراً رشيقاً عبر عينيه فقد ترك فيهما، عندما رفعهما إلى قائده دمعة مترقرقة. حتى إذا حدَّق إليه مستر بامبل تحديقاً كالحاً تحدرت على خده. وتبعت تلك الدمعة دمعة ثانية، ثم ثالثة. وبذل الطفل جهداً جاهداً، ولكنه كان جهداً مخفقاً. فسحب يده الأخرى من يد مستر بامبل، وحجب وجهه بكلتا يديه، وأنشأ يبكي حتى تفجّرت العبرات من بين ذقنه وأصابعه المعروقة.

وصاح مستر بامبل وقد توقَّف فجأة مُلقياً على وديعته الصغيرة نظرة راشحة بخبث بالغ: «حسن! حسن! لقد رأيت في حياتي كثيراً من الغلمان الناكرين للجميل ذوي المنازع الأشد إمعاناً في السوء، ولكنك من بينهم جميعاً، يا أوليفر، أكثرهم...»

فنشج أوليفر، متشبثاً باليد الممسكة بالعصا الشهيرة: «لا، لا، يا سيدي. سوف أكون ولداً طيباً من غير ريب. أجل، أجل، يا سيدي، أؤكد لك ذلك! أنا صبي صغير جداً، يا سيدي. وأنا أحسّ بكثير من... بكثير من...»

فسأله مستر بامبل في ذهول: «بكثير من ماذا؟»

فصاح الطفل: «بكثير من الوحشة، يا سيدي! بكثير من الوحشة الشديدة! كل الناس يكرهونني. أوه، يا سيدي، أرجوك. . . أرجوك أن لا يأخذك الغضب عليّ!» وضرب الطفل صدره بيده، ونظر إلى وجه الشماس، وفي عينيه عبرات من ألم صادق.

وقابل مستر بامبل نظرة أوليفر اليائسة المؤثّرة، في شيء من الدهش، طوال بضع ثوان، وتنحنح ثلاث مرّات أو أربع مرّات على نحو أجشّ. وبعد أن غمغم بشيء «عن ذلك السعال المزعج» أصدر أمره إلى أوليفر بأن يكفكف دموعه ويكون ولداً صالحاً. ثم إنه أمسك بيده من جديد، وواصل السير معه في صمت.

وكان الدفّان قد فرغ من إغلاق نوافذ دكانه، بعد أن هبط الليل، وشرع يدوّن بعض النَفقات في دفتر حسابه اليومي على ضوء شمعة كئيب منسجم مع جوّ صناعته أحسن انسجام عندما دخل مستر بامبل.

فقال الدفّان، رافعاً بصره عن الدفتر، منقطعاً عن الكتابة عن منتصف لفظة من الألفاظ: «آها! أهذا أنت، يا مستر بامبل؟»

فأجابه مستر بامبل: «أنا، وليس أحد غيري. دونك الغلام! لقد جئتك به.» وهنا انحنى أوليفر احتراماً.

فقال الدفّان، رافعاً الشمعة فوق رأسه لكي يوفق إلى رؤية أوليفر على نحو أفضل: «أوه، هذا هو الغلام، أليس كذلك؟ مسز ساواربيري، هل لك أن تتكرمي بالمجيء إلى هنا لحظة، يا عزيزتي؟»

عندئذ انبثقت مسز ساواربيري من الحجرة الصغيرة القائمة وراء الدكان، فتبدّت امرأة قصيرة، نحيلة، «مضغوطة»، ذات محيّا هو إلى الشراسة أميَل.

وقال مستر ساواربيري في احترام: «عزيزتي، هذا هو غلام الملجأ الذي حدثتك عنه.» فانحنى أوليفر احتراماً، مرّة أخرى.

فقال زوجة الدفّان: «يا إلهي! إنه ضئيل الجسم إلى حد بعيد.»

فأجاب مستر بامبل، ناظراً إلى أوليفر وكأنما كان هو الملوم على ضآلة جسمه: «حق ما تقولين، إنه ضئيل الجسم من غير ريب. ليس في إمكان المرء أن ينكر ذلك. ولكنه سوف ينمو، يا مسز ساواربيري... إنه سوف ينمو.»

فردت السيدة في شكاسة: «آه، يخيِّل إليّ أنه سوف ينمو على طعامنا وشرابنا. أنا لا أجد أي كسب في أطفال الملجأ. لا، لست أنا من يجد فيهم خيراً ما. ذلك بأن نفقات إعالتهم تفوق قيمتهم الحقيقية دائماً. وأياً ما كان، فالرجال يحسبون دائماً أنهم أكثر منا ذكاء وعلماً. هيّا، اهبط إلى الطابق السفلي، يا كيس العظام الصغير!» قالت زوجة الدفّان ذلك وفتحت باباً جانبياً ودفعت أوليفر، فوق سلم شديدة الانحدار، نحو حجيرة معبّدة، رطبة مظلمة، كانت تشكل نوعاً من «غرفة انتظار» تفضي إلى قبو الفحم، ويطلقون عليها اسم «المطبخ». وهناك جلست فتاة قذرة تنتعل حذاء انبرى عقباه وتلبس جورباً صوفياً أزرق أهمِل إهمالاً شديداً.

وقالت مسز ساواربيري التي كانت قد تبعت أوليفر إلى الطابق السفلي: «اسمعي يا شارلوت، أعطِ هذا الغلام جزءاً من الفضلات التي أفردناها لـ «تريب»(*). إنه لم يرجع إلى البيت منذ الصباح، وهكذا ففي إمكانه أن يستغني عنها. وإني لأجرؤ على القول إن الغلام ليس نيّقاً(**) إلى درجة تجعله يأبى أكلها. هل أنت نيّق، أيها الغلام؟»

فلم يكن من أوليفر ـ الذي التمعت عيناه لذِكر اللحم والذي ارتعد شوقاً إلى التهامه ـ إلا أن أجاب بالنفي. وهكذا وُضع أمامه ملء صحن من الفضلات الكريهة.

لشدّ ما أتمنى لو أن فيلسوفاً متخماً يتحول طعامه وشرابه ـ في

(*) Trip اسم كلب.

(**) النيق: من يتجود في ملبسه ومطعمه ومن يصعب إرضاؤه. وهي لفظة جارية على ألسنة العامة أيضاً. (المعرب)

أحشائه ـ إلى صفراء، فيلسوفاً دمه ثلج، وقلبه حديد. . . أقول لشد ما أتمنى لو أن مثل هذا الفيلسوف وُفِّق إلى رؤية أوليفر تويست وهو يتشبث باللحوم الشهية التي كان الكلب قد عافها. لشد ما أتمنى لو كان في ميسوره أن يشهد الشراهة الرهيبة التي مزّق أوليفر بها تلك الفضلات بكل ما ينطوي عليه الجوع من ضراوة. ولكن ثمة شيئاً واحداً أتمناه أكثر، وهو أن أرى ذلك الفيلسوف يأكل هو نفسه مثل ذلك الطعام، مستطيباً إياه بقدر ما استطابه أوليفر.

وقالت زوجة الدفّان عندما أنهى أوليفر عشاءه، ذلك العشاء الذي راقبته في رعب صامت وفي هواجس رهيبة في ما يتصل بشهوته إلى الطعام في الأيام القادمة: «والآن، هل انتهيت؟»

وإذ لم يبق في متناول أوليفر ما يؤكل، فقد أجاب أن نعم.

فقالت مسز ساواربيري، متناولة مصباحاً قذراً باهت النور، مرتقية السلم أمام الغلام: «إذن، تعال معي. إن فراشك هو تحت المنضدة. وأنت لا تجد مانعاً في النوم بين التوابيت، في ما أحسب؟ ولكن كراهتك لذلك أو عدم كراهتك له لا يقدمان كثيراً ولا يؤخران، إذ ليس في استطاعتك أن تنام في أي مكان آخر. تعال، لا تُبقِني هنا طول الليل!»

وكفّ أوليفر عن التباطؤ، وتبع سيدته الجديدة في وداعه.

الفصل الخامس

أوليفر يختلط برفاق جدد. حتى إذا شهد للمرّة الأولى مأتماً، كوّن فكرة غير مشجعة عن صناعة سيده

وحين تُرك أوليفر وحيداً في دكان الدفّان وضع المصباح على مقعد أحد العمال، وأجال طرفه في جزع في ما حوله وقد عصف به شعور من الذعر والرعب لن يحار في فهمه كثير ممن هم أكبر منه بسنوات عديدة. كان ثمة على حمارين خشبيين أسودين تابوت غير منجز. قائم في منتصف

الدكان، وكان ذلك التابوت مأتمياً جنازياً إلى حد أوقع رعدة باردة في أوصال أوليفر كلما انعطَفت عيناه نحو ذلك الشيء المشؤوم: لقد كاد يتوقع أن يرى كائناً رهيباً ما، يرفع رأسه وئيداً من جوف التابوت لكي يذهب بعقله رعباً ورهباً. وإزاء الجدار صُفّت، في نَسق نظاميّ، مجموعة كبيرة من ألواح شجر الدردار مقطوعة على تلك الشاكلة نفسها: لقد بدت في ذلك النور الباهت أشبه ما تكون بأشباح مرتفعة الأكتاف واضعة أيديها في جيوب بناطيلها القصيرة. وعلى الأرض تناثرت صفائح التوابيت، وشظايا الدردار، ومسامير ملتمعة الرؤوس، ومِزق من جوخ أسود. أما الجدار القائم خلف المنضدة فكان مزداناً بلوحة حيَّة تُمثِّل نادبَين مستأجرين ـ تطوّق عنقيهما ربطتا رقبة بالغتا التيبُّس ـ يؤديان مهمتهما لدى باب منزل كبير، بينا تقدّمت من المدى البعيد عربة موتى تجرّها أربعة جِياد سُود. كان الدكان موصداً وحاراً، وكان الجو عابقاً برائحة التوابيت. ولقد بدت الفجوة التي تحت المنضدة، حيث أقحِم فراشه المحشوّ بنُفاية الصوف، وكأنها قبر من القبور.

ولكن هذه لم تكن هي المشاعر المشؤومة الوحيدة التي أوقعت الغم في نفس أوليفر. كان وحيداً في موطن غريب، ونحن كلنا نعرف مبلغ القشعريرة والوحشة اللتين تُلّمان بنا حين نجد أنفسنا في مثل هذا الوضع. لم يكن لذلك الغلام أصدقاء يحبّهم أو يحبونه. ولم يكن في ذهنه أيما أسف طريّ لفراق هو به حديثُ عهد. ولم يكن غياب أيما وجه محبوب منقوش في الذاكرة ليُثقل فؤاده ويلفّعه بالكآبة. ولكن فؤاده كان، برغم ذلك، كئيباً. ولقد تمنّى، وهو يزحف في فراشه الضيق، لو أن ذلك الفراش كان تابوته، ولو يتاح له أن ينعم برقاد هادئ ونهائي في ثرى الجبّانة والأعشاب الطويلة تتماوج فوق رأسه في رفق، ورنين الناقوس العميق العتيق يُهدهده في رقاده.

وفي الصباح أوقظ أوليفر برفسة صارخة على ظاهر باب الدكان، رفسة تكررت، قبل أن يُوفّق إلى ارتداء ملابسه كيفما اتفق، نحواً من

خمس وعشرين مرة على نحو غاضب عنيف. حتى إذا شرع يفكّ السلسلة كفت القدمان عن الرفس، وجاء دور صوت من الأصوات في العمل.

ـ «افتح الباب! هل تنوي أن تفتحه؟» كذلك صاح الصوت المنتسب إلى تينك القدمين اللتين كانتا قد رفستا الباب.

فأجاب أوليفر وهو يفك السلسلة ويدير المفتاح: «سوف أفتحه في الحال، يا سيدي.»

فقال الصوت من خلال ثقب الباب: «أحسب أنك الغلام الجديد. ألست الغلام الجديد؟»

فأجاب أوليفر: «نعم، يا سيدي.»

فسأله الصوت: «ما سنك؟»

فأجابه أوليفر: «عشر سنوات.»

عندئذ قال الصوت: «إذن فسوف أوسعك ضرباً عندما أدخل. وليس عليك إلا أن ترى الآن هل سأقدم على ذلك أم لا. هذا كل ما هنالك، أيها الغلام المُنَشّأ في ملجأ الأيتام!» حتى إذا أطلق هذا الوعد السخي شرع الصوت يَصفِر.

وكان أوليفر قد أخضع، أكثر مما ينبغي، لتلك العملية التي ألمع إليها، فلم يكن في ميسوره أن يشكّ أقلّ شك في أن صاحب الصوت، كائناً من كان، سوف يفي بعهده أشرف ما يكون الوفاء. وردّ الرتاج بيد مرتعدة، وفتح الباب.

وطوال ثانية أو ثانيتين رنا أوليفر إلى أقصى الشارع، ثم إلى أدناه، ثم نظر أمامه، وقد أصبح على مثل اليقين من أن المجهول الذي خاطبه من ثقب الباب كان قد ابتعد بضع خطوات التماساً للدفء. ذلك بأنه لم ير أحداً غير صبي كبير يرتدي بزة تلميذ من تلاميذ المدارس الخيرية، جالس على دكّة تجاه المنزل، يأكل شطيرة خبز وزبدة كان يقطعها أوتاداً، في مثل حجم فمه، بمطواة كبيرة، ثم يلتهمها في رشاقة بالغة.

وأخيراً، قال أوليفر وقد رأى أن أيما زائر آخر لم يبرز: «ألتمس عفوك، يا سيدي، أأنت الذي قرعت الباب؟»

فأجابه ربيب المدارس الخيرية: «أنا الذي رفست الباب.»

فسأله أوليفر في براءة: «أكنت تريد تابوتاً، يا سيدي؟»

عندئذ غلبت على وجه ربيب المدارس الخيرية سيماء ضراوة رهيبة، وقال إن أوليفر سوف يحتاج، عما قريب، إلى تابوت إذا ما مازح رؤساءه على هذا النحو.

ـ «أنت لا تعرف من أنا، في ما أحسب، يا ربيب الملاجئ؟» كذلك قال ربيب المدارس الخيرية وهو يهبط من أعلى الدكّة في وقار مؤثر.

فأجاب أوليفر: «لا، يا سيدي.»

فقال ربيب المدارس الخيرية: «أنا مستر نوح كلايبول، وأنت تحت إمرتي. أنزِل مصاريع النوافذ، أيها الوغد الصغير العاطل عن العمل.» وأتبع مستر كلايبول هذه الكلمات برفسة وجّهها إلى أوليفر، ودخل الدكان في جلال أورثه شرفاً كبيراً. إنه لمن العسير على شاب كبير الرأس صغير العينين ذي جسم ضخم أخرق وأسارير كئيبة، أن يبدو جليلاً في أيما حال. ولكن هذا العسر يتضاعف حين يضاف إلى هذه المحاسن الشخصية أنف أحمر وبنطال قصير أصفر.

وأنزل أوليفر المصاريعّ. وفيما هو يناضل متمايلاً تحت ثقل أولها أثناء نقله إلى فِناء صغير إلى جانب المنزل حيث كانت تُحفظ خلال النهار كسَر لوحاً من ألواح الزجاج، فهرع نوح إليه وتكرم بمساعدته: لقد عزّاه بأن أكد له أن جزاءه سوف يكون بضع جلَدات، حتى إذا تمّ له ذلك قبل أن يمد يد العون إليه. وسرعان ما هبط مستر ساواربيري إلى الطابق السفلي. وما هي غير لحظات معدودات حتى أقبلت مسز ساواربيري أيضاً. وبعد أن جُلد أوليفر، تحقيقاً لنبوءة نوح، تبع ذلك الشاب إلى السرداب لتناول طعام الصباح.

وقالت شارلوت: «ادنُ من النار، يا نوح. لقد احتفظت لك من فَطور المعلّم بقطعة صغيرة من لحم الخنزير المقدد. أغلق ذلك الباب خلف ظهر مستر نوح، يا أوليفر وخذ الكِسَر التي أفردتها لك على غطاء وعاء الخبز. وهذا هو شايك، فاحمله إلى ذلك الصندوق واشربه هناك، وعجّل، لأنهم سوف يحتاجون إليك للنهوض بعبء العمل في الدكان. هل سمعت؟»

فقال نوح كلايبول: «هل سمعت، يا ربيب الملاجئ؟»

وقالت شارلوت: «يا إلهي! أيّ مخلوق غريب أنت، يا نوح! لماذا لا تدع الغلام وشأنه؟»

فأجاب نوح: «أدعُه وشأنه! وكيف أفعل ذلك ولست أجد أحداً يبالي بأمره؟ فلا أبوه ولا أمه يمكن أن يتدخلا، أبد الدهر، في شؤونه، وجميع أنسبائه يتركونه. أكثر مما ينبغي، يسلك سبيله على هواه. أليس هذا صحيحاً، يا شارلوت؟ هيء! هيء! هيء!»

ـ «أوه، يا لك من روح عجيبة!» كذلك قالت شارلوت، منفجرة بضحكة قلبية شاركها نوح فيها. وبعد ذلك راحا ـ كلاهما ـ ينظران في ازدراء إلى أوليفر تويست، وقد جلس مرتعداً فوق الصندوق في أشد زوايا الحجرة برداً، وانصرف إلى ازدراد الكِسَر اليابسة التي حُفظت خصيصاً له.

لقد كان نوح غلاماً من غلمان المدارس الخيرية، ولكنه لم يكن يتيماً من أيتام الملاجئ. إنه لم يكن لقيطاً، إذ كان في ميسوره أن يُرجع نسبه حتى ينتهي إلى أبويه اللذين كانا يعيشان في موطن مجاور. فأما أمه فكانت غسّالة، وأما أبوه فكان جندياً سكيراً سُرِّح من الخدمة بعد أن حصل منها على رجل خشبية ومعاش يوميّ مقداره بنسان ونصف بنس وجزء من البنس متناهي الصِّغَر. وكان صبية الدكان قد تعوّدوا، منذ عهد بعيد، أن يلصقوا بنوح، في الشوارع العامة، مختلف النعوت الشائنة، من مثل «الساقيَّة(*) الجلدية»، و«ابن الإحسان» وغيرهما. وكان من دأب نوح أن

(*) الساقية: بتضعيف الياء، غطاء جلدي للساق.

يحتمل ذلك من غير احتجاج. أما وقد ألقى الحظ في طريقه غلاماً يتيماً لا أسرة له ـ غلاماً يستطيع حتى أحقرُ الناس أن يشير إليه ببنان الازدراء ـ فقد راح يصبّ تلك النعوت الشائنة عليه ويلصقها به، في كثير من الحماسة، وكأنه كان يردّ بذلك على محقريه جميعاً. وتلك ظاهرة تُظهر لنا في أي قالَبٍ جميل تظهر، أحياناً، الطبيعة البشرية. وإلى أي مدى من الحيدة واللاتحيّز يمكن للخصال الحبيبة نفسها أن تُغرس في نفوس أعرق اللوردات في النعمة والترف وأقذر غلمان المدارس الخيرية قذارة، على حدّ سواء.

وكان أوليفر قد أمضى ثلاثة أسابيع أو شهراً كاملاً في منزل الدفان، عندما ألقى مستر ساواربيري على زوجته عدة نظرات راشحة بالاحترام وقال:

ـ «يا عزيزتي...» كان يعتزم أن يقول أكثر من ذلك، ولكن مسز ساواربيري رفعت بصرها على نحو جدّ مشؤوم، فأمسك عن الكلام من غير أن يتمّ جملته.

فقالت مسز ساواربيري في نبرة جافة: «ماذا؟»

فقال مستر ساواربيري: «لا شيء، يا عزيزتي، لا شيء.»

فقالت مسز ساواربيري: «أفّ! يا لك من بهيمة!»

فقال مستر ساواربيري في ضعة: «لا شيء على الإطلاق، يا عزيزتي. لقد ظننت أنك لا تريدين أن تسمعي، يا عزيزتي. كل ما كنت أريد أن أقوله...»

فاعترضته مسز ساواربيري: «أوه، لا تنبئني بما كنت تعتزم أن تقوله. أنا لست أحداً، فلا تستشرني، أرجوك. أنا لا أريد أن أتطفل على أسرارك.» قالت ذلك وأطلقت ضحكة هيستيرية كلها وعيد بالعواقب الوخيمة المرتقبة.

فقال مستر ساواربيري: «ولكني أريد، يا عزيزي، أن ألتمس النصيحة عندك.»

فأجابت مسز ساواربيري في لهجة مؤثِّرة: «لا، لا، لا تلتمس النصيحة عندي. التمسها عند شخص آخر.» وهنا أطلقت ضحكة هيستيرية أخرى روَّعت مستر ساواربيري ترويعاً كثيراً. وتلك معاملة زوجية تنعم بقدر من الشيوع والاستحسان عظيم، وكثيراً ما تكون فعّالة إلى حد بعيد. والواقع أنها سرعان ما حملت مستر ساواربيري على أن يلتمس من زوجته مِنَّة خاصة، وهي أن يُجاز له أن يقول ما كانت هي شديدة التهلف على سماعه. وبعد مهاترة قصيرة لم تستغرق أكثر من ثلاثة أرباع الساعة تفضلت مسز ساواربيري، في سماحة بالغة، فمنحته تلك الإجازة.

وقال مستر ساواربيري: «إنها تتصل بتويست الصغير، ليس غير، يا عزيزتي. إنه غلام وسيم جداً، يا عزيزتي.»

فلاحظت السيدة: «هذا طبيعي جداً، لأنه يأكل ما فيه الكفاية.»

فاستأنف مستر ساواربيري كلامه قائلاً: «إن على وجهه، يا عزيزتي، مسحة من الكآبة ممتعة إلى حد بعيد. إنه يصلح صلاحاً بعيداً للقيام بدور النادب المتسأجَر، يا مُنية القلب.»

فرفعت مسز ساواربيري بصرها، وعلى وجهها سيماء دهش بالغ، ولاحظ مستر ساواربيري ذلك، ومن غير أن يدع للسيدة الصالحة أيما مجال لإبداء أيما رأي، واصَل حديثه قائلاً:

«لست أعني دور النادب النظامي الذي يشهد جنائز الكبار، يا عزيزتي، ولكني عنيت أن في إمكاننا الإفادة منه في جنائز الأطفال. إنه لطريف جداً أن يُؤتَى بنادب تتناسب سنه مع سن الميت، يا عزيزتي. وفي استطاعتك أن تتأكدي أن ذلك سوف يُحدث أثراً مستحباً جداً.»

وأعجبت مسز ساواربيري ـ وكان لها في صناعة الدفن ذوق رفيع ـ بجدّة تلك الفكرة إعجاباً عظيماً. ولكن لما كان أيما تعبير عن هذا الإعجاب خليقاً بأن يعرّض كرامتها للهوان فقد اكتفت، في تلك الظروف القائمة، بمجرد التساؤل، في كثير من الجلافة، لماذا لم يخطر مثلُ هذا الاقتراح البدهيّ لعقل زوجها من قبل؟ وأوّل مستر ساواربيري هذا التساؤل

تأويلاً صادقاً، فاعتبره نوعاً من الموافقة على اقتراحه. وهكذا انعقد رأيهما، سريعاً، على أن الواجب يقضي بتعريف أوليفر، في الحال إلى أسرار «الصناعة»، ويقضي ـ ابتغاء تحقيق ذلك ـ بأن يرافق معلّمه عند أول مناسبة يُحتاج فيها إلى خدماته.

وما عتمت تلك المناسبة أن نشأت. ففي صباح اليوم التالي، بعد نصف ساعة من تناول الدفان فطوره، دخل مستر بامبل إلى الدكان. حتى إذا أسند عصاه إلى المنضدة، أخرج حافظة أوراقه الجلدية الضخمة من جيبه، واختار من بين محتوياتها قصاصة ورق وقدّمها إلى ساواربيري.

وقال الدفّان، وهو يتأملها في ابتهاج: «آها! هذه الورقة تطلب مني إعداد تابوت، أليس كذلك؟»

فأجاب مستر بامبل وهو يُوثق عروة حافظته الجلدية التي كانت مثل صاحبها بدينة جداً: «إعداد تابوت أولاً، ثم جنازة أبرشانية بعد ذلك.»

وقال الدفّان وهو ينقل طرفه من قصاصة الورق إلى مستر بامبل: ««بايتون؟ أنا لم أسمع بهذا الاسم من قبل.»

فهز بامبل رأسه وقال: «إنهم قوم عنيدون، يا مستر ساواربيري. عنيدون جداً. وفوق هذا فأنا أخشى أن يكونوا قوماً معتدّين بأنفسهم أيضاً يا سيدي.»

فهتف مستر ساواربيري في نبرة ساخرة: «معتدّون بأنفسهم، إيه؟ هذا كثير.»

فأجاب الشماس: «إنه يثير التقزز. إنه أثمديّ(*)، يا مستر ساواربيري.»

فأقرّه الدفّان قائلاً: «لا ريب في ذلك.»

(*) هكذا في الأصل antimonial. ولعل ديكنز كان يريد أن يقول «إنه ينطوي على استخفاف بالأخلاق» antinomian ولكنه أراد أن يكشف عن مدى جهل الشماس اللغوي. (المعرب)

فقال الشماس: «إنا لم نسمع بهذه الأسرة إلا ليلة أمس الأول. ولقد كان خليقاً بنا أن لا نعرف عنها شيئاً لولا أن امرأة تقطن في البيت نفسه قدَّمت استدعاء باسمهم إلى اللجنة الأبرشانية التمست فيه إرسال الطبيب الأبرشاني لمعالجة امرأة اشتدّت عليها وطأة المرض. وكان الطبيب قد مضى لتناول طعام العشاء. ولكن غلامه المتمهّن على يديه (وهو فتى بارع جداً) أرسل إلى القوم، على الفور، دواء في علبة من علب تلميع الأحذية.»

فقال الدفّان: «آه، هذه سرعة خاطر.»

فأجابه الشماس: «سرعة خاطر حقاً. ولكن ماذا كانت النتيجة؟ أيّ مسلك منكر للجميل سلكه أولئك المتمردون، يا سيدي؟ لقد أرسل الزوج إلينا بكلمة قال فيها إن الدواء لا يلائم مرض زوجته، وهكذا فإنها لن تأخذه... أجل قال إنها لن تأخذه، يا سيدي! دواء جيد، قوي ونافع للصحة، كالذي أعطي بنجاح كبير إلى عاملين إرلنديين وحمّال فحم، منذ أسبوع واحد ليس غير... دواء أرسلناه إليه مجاناً، وأرسلنا معه بالإضافة إلى ذلك علبة من علب تلميع الأحذية فكان جزاؤنا على هذا كله كلمة أرسلها إلينا يقول فيها إن زوجته لن تأخذ الدواء، يا سيدي!»

وإذ تمثّلت فظاعة هذا الإثم في عقل مستر بامبل أقوى ما يكون التمثّل فقد ضرب المنضدة بعصاه ضربة قوية، وشاع دم السخط والحنق في وجهه.

وقال الدفّان: «حسناً، أنا لم أعتقد، في أيما يوم من الأيام، أن...»

فصرخ الشماس: «أنت لم تعتقد... يا سيدي! لا، ولم يقدّر لأيما امرئ أن يعتقد... ولكنها ماتت، وأن علينا أن ندفنها، وهذا هو العنوان. وكلما أسرعنا في ذلك كان خيراً وأبقى.»

قال الشماس هذه الكلمات واعتمر بقبعته ذات القرنين واضعاً إياها، أول الأمر، على نحو معكوس ـ فقد كانت تعصف به حمّى من الاهتياج الأبرشي ـ وغادر الدكان مُغضباً.

ـ «يا إلهي، لقد أخذ الغضب منه مأخذاً جعله ينسى حتى السؤال عن أحوالك، يا أوليفر!» كذلك قال مستر ساواربيري وهو يُتبع الشماس نظره فيما كان يهبط الشارع في خطى واسعة.

فأجابه أوليفر: «نعم، يا سيدي» وكان قد بذل قصارى جهده للتواري عن الأنظار خلال المقابلة، وارتعد من قمة رأسه إلى أخمص قدميه لمجرد تذكُّر جرس مستر بامبل. بيد أنه كان في الواقع، في غنى، عن تجشّم عناء الاحتجاب عن ناظري مستر بامبل، ذلك بأن هذا الموظف، الذي كانت نبوءة السيد ذي السترة البيضاء قد خلّفت في نفسه انطباعة عميقة جداً، بدا له أن من الأفضل ـ بعد أن أخذ الدفّانُ أوليفر على سبيل التجربة ـ اجتناب هذا الموضوع حتى ينتهي أجل التجربة وترتبط حياة الغلام بسيده ارتباطاً لا تنفصم عراه إلا بانقضاء سنوات سبع(*)، وبذلك يُقضى، عملياً وقانونياً، على كل خوف من إمكان عودته إلى أحضان الأبرشية.

وقال مستر ساواربيري وهو يرفع قبعته: «حسناً، كلما أسرعنا في أداء هذه المهمة كان ذلك أفضل. كن أنت الرقيب على الدكان، يا نوح. وأنت. يا أوليفر، اعتمر بقلنسوتك واتبعني!» فصدع أوليفر بالأمر، ومضى على أثر سيده في مهمته المهنية.

لقد سارا، فترة من الزمان، خلال جزء من المدينة كان أشد أجزائها ازدحاماً وأكثرها اكتظاظاً بالسكان. حتى إذا هبطا شارعاً ضيقاً أكثر قذارة وبؤساً من أيما شارع اجتازاه حتى ذلك الحين، توقفا لكي يبحثا عن المنزل الذي كان موضوع سعيهما. كانت المنازل القائمة على جانبي الطريق كبيرة عالية، ولكنها عتيقة جداً، وكانت آهلة بأناس من أبناء الطبقة الأشد فقراً وهو ما دلّ عليه في كثير من الوضوح مظهرها المهمل يشهد على ذلك، قذارة أولئك الرجال والنساء القلائل الذين كانوا يتسكعون

(*) تلك هي المدة التي حُددت منذ عهد الملكة اليزابيت الأولى لجميع عقود التمهين apprentice ship، الذي كان يسلم الفتية الصغار لرحمة أسياد كثرتهم العظمى من ذوي القلوب المتحجرة. (المعرب)

أحياناً، هنا وهناك، متصالبي الأذرع، محنيّي الظهور. وكانت الدكاكين تؤلف واجهات عدد كبير من تلك المنازل، ولكن هذه كانت موصدة إيصاداً محكماً. وكان العفن يكسوها، ذلك بأن الأدوار العليا كانت وحدها آهلة بالسكان. والحق أن بعض المنازل التي أمست غير مأمونة بسبب من القِدم والتهرؤ كانت قد مُنعت من الانهيار في عرض الشارع بعوارض من الخشب هائلة رفعت بإزاء الجدران وغُرست في الطريق غرساً ثابتاً. ولكن حتى هذه الجحور المتصدعة بدت وكأنها اختيرت لتكون مأوى ليلياً لبعض البؤساء الذين لا بيوت لهم. ذلك أن كثيراً من الألواح الخشبية التي قامت مقام الأبواب والنوافذ كانت قد انتُزِعت من مواضعها ابتغاء إحداث فتحة كافية لمرور جسم من الأجسام البشرية. كان الوجار راكد المياه قذراً، وكانت الجرذان المستلقية ههنا وهناك، وقد فسدت في تعفُّنها، شنيعة من أثر الجوع.

لم يكن للباب المفتوح الذي وقف عنده أوليفر وسيده لا قارعة ولا مقبض جرس. وهكذا تلمّس الدفّان طريقه، في حذر، خلال المجاز المظلم ـ آمراً أوليفر بالالتصاق به وبأن لا يستسلم للخوف ـ وصعد إلى أعلى الجزء الأول من السلم. حتى إذا تعثّر بباب عند مُنبسَط السلم، قرعه بجمع يده.

وفتحت له الباب فتاة في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة. وفي الحال رأى الدفّان قَدراً مما اشتملت عليه الغرفة كافياً لأن يجعله يوقن أن الشقة كانت هي تلك التي وُجّه إليها. فاجتاز العتبة، وتبعه أوليفر على الأثر.

ولم يكن في الغرفة نار، ولكن كان ثمة رجل قابع على نحو آلي عند موقد فارغ. وكانت امرأة عجوز قد أدنت، أيضاً، إلى ذلك الموقد البارد كرسياً خفيضاً لا ظهر له، وجلست إلى جنبه. وفي زاوية أخرى، قعد بضعة أولاد على جسومهم ملابس رثة بالية. وفي فجوة صغيرة، تجاه الباب، تمدّد على الأرض شيء مغطى ببطانية عتيقة. وارتعد أوليفر حين استقرت عيناه على تلك الفجوة، وازداد التصاقاً، على نحو غير إرادي،

بسيده الدفّان، إذ اعتقد الغلام أن ذلك الشيء كان برغم احتجابه بالبطانية، جثة هامدة.

كان وجه الرجل هزيلاً شديد الشحوب. وكان شعر رأسه وشعر لحيته أشيبين، وكانت عيناه محتقنتين. وكان وجه المرأة العجوز متغضناً، وكانت سنّاها الباقيتان ناتئتين فوق شفتها السفلى، وعيناها لامعتين ثاقبتين. وخشي أوليفر أن ينظر إليها أو إلى الرجل. لقد بدا له أنهما أشبه ما يكونان بالجرذان التي رآها في الخارج.

قال الرجل وهو ينتصب مجفلاً إجفالاً ضارياً عندما دنا الدفّان من الفجوة: «حذار أن تقترب منها. ابتعد عنها، عليك اللعنة! ابتعد عنها إذا كانت لك حياة تخاف أن تفقدها!»

فقال الدفّان الذي كان متعوداً رؤية البؤس في أشكاله جميعاً: «هراء! أيها الرجل الصالح، هراء!»

فأجابه الرجل، متشنج اليدين، ضارباً الأرض بقدميه في غيظ محتدم: «أقول لك إني لن أسمح بدفنها في التراب. إنها لن تنعم هناك بالراحة. إن الديدان سوف تزعجها، ولا أقول تأكلها، فهي رمّة بالية.»

ولم يردّ الدفّان بأيما جواب على هذا الهذيان، ولكنه أخرج من جيبه شريطاً وانحنى لحظة على مقربة من الجثة.

وقال الرجل، منفجراً بالبكاء، ساجداً عند قدمي المرأة الميتة: «آه! اركعوا! اركعوا حولها، كلكم، واشهدوا على ما أقول! أنا أقول إنها جُوِّعت حتى الموت. ولم أعرف قط مبلغ ما انتهت إليه من سوء إلا بعد أن أصابتها الحمى، وعندئذ نتأت عظامها من خلال جلدها. لم يكن ثمة لا نار ولا شمعة. لقد ماتت في الظلام... في الظلام! إنها لم تستطع أن ترى حتى وجوه أولادها، برغم أننا سمعناها تلفظ أسماءهم في صوت لاهث. لقد استعطيت من أجلها في الشوارع، فألقوني في غياهب السجن. حتى إذا انقلبت إلى هنا ألفيتُها تحتضر، فجفّ كل ما في قلبي من دم، ذلك بأنهم جوعوها حتى الموت. أنا أقسم على هذا أمام اللّه

الذي رأى ذلك! لقد أماتوها جوعاً!» ولوى يديه في شعره، وتدحرج على الأرض. مُكبّاً على وجهه. كانت عيناه شاخصتين، وكان الزبَد يغطي شفتيه.

وبكى الأطفال المروّعون بكاءً مريراً. ولكن المرأة العجوز التي احتفظت حتى تلك اللحظة بهدوئها وكأنها لم تسمع أي حرف مما قِيل دعتهم، منذرة متهدّدة، إلى التزام الصمت. حتى إذا حلّت عقدة رقبة الرجل الذي كان لا يزال ممدّداً على الأرض تقدمت، مترنحة، نحو الدفّان.

ـ «إنها ابنتي!» كذلك قالت العجوز وهي تومئ برأسها في اتجاه الجثة متحدثة في تكشيرة بلهاء كانت أشد ترويعاً من هبوط الموت نفسه في مثل ذلك الموطن. «يا إلهي! يا إلهي! وإنه لعجيب أن أكون أنا ـ أنا التي ولَدتها والتي كنت امرأة آنذاك ـ حية أرزَق الآن وأمرح، وأن تكون هي ملقاة هناك باردة جداً، متصلبة جداً! يا إلهي، يا إلهي! أنا لا أستطيع التفكير في هذا. إنه كوميديا حقيقية. . . إنه كوميديا حقيقية!»

وبينا كانت المخلوقة البائسة تغمغم وتضحك في مرحها الرهيب استدار الدفّان ليمضي في سبيله.

فقال المرأة العجوز في همس مسموع: «قف! قف! هل ستدفن غداً، أم بعد غد، أم الليلة؟ لقد جهزتُها أنا بنفسي، وأنا عليّ أن أمشي، كما تعرف. ابعث إليّ بمعطف ضخم، معطف يبعث في الجسد دفئاً عظيماً، لأن البرد قارس جداً. ويتعيّن علينا أن نتناول شيئاً من الحلوى والنبيذ، أيضاً، قبل أن نمضي! ولكن لا بأس، أرسل إلينا بشيء من الخبز ـ برغيف واحد ليس غير، وبكوب ماء. هل سننعم ببعض الخبز، يا عزيزي؟» قالت ذلك في لهفة، وقد تشبثت بسترة الدفّان عندما حاول أن يمضي مرّة أخرى نحو الباب.

فقال الدفّان: «نعم، نعم، طبعاً. كلّ ما تريدين!» وتملّص من قبضة المرأة العجوز، وولى على جناح السرعة، جارّاً أوليفر خلفه.

وفي اليوم التالي (وكانت الأسرة قد أسعِفت في غضون ذلك برغيف وزنه ليبرتان وبقطعة من جبن تركهما لهم مستر بامبل نفسه) رجع أوليفر وسيده إلى المأوى الحقير، وكان مستر بامبل قد سبقهما إليه يصحبه أربعة رجال من الملجأ عُهِد إليهم في مهمة حمل النعش. وكان معطفان أسودان عتيقان قد طُرحا فوق أسمال المرأة العجوز وأسمال الرّجل. وبعد أن أحكِم إقفال التابوت رُفِع إلى أكتاف الحاملين، ساروا به إلى الشارع.

وهمس ساواربيري في أُذن المرأة العجوز: «والآن عليك أن تُغِذي السير، أيتها السيدة العجوز! لقد تأخرنا قليلاً. وليس يجمل بنا أن نبقي القسّ في انتظارنا. انطلقوا، أيها الرجال... انطلقوا بأسرع ما يمكنكم.»

حتى إذا تلقى حاملو التابوت هذا التوجيه أوسعوا الخطى تحت حملهم الخفيف. وبذل المشيّعان الاثنان قصارى جهدهما لعدم التخلّف عنهم. ومشى مستر بامبل وساواربيري في مقدمة الموكب بخطى رشيقة. وراح أوليفر ـ الذي لم تكن رجلاه في مثل طول رجلي سيده ـ يعدو إلى جانب الموكب.

بيد أنه لم تكن ثمة حاجة ماسة للإسراع بقَدر ما حسِب مستر ساواربيري. ذلك بأنهم حين بلغوا الزاوية المظلمة من المقبرة، حيث نبَت القرّاص وحيث كانت قبور الفقراء تُحفر، لم يكن القسّ قد وصل بعد. وبدا للقندلفت، الذي كان يجلس قرب نار حجرة تغيير الملابس في الكنيسة، أن ساعة أو نحوها قد انقضت، في أغلب الظن، قبل أن يصل. وهكذا وضعوا النعش على حافة القبر، وراح المشيعان ينتظران في أناة فوق الطين الرطب، وتحت رذاذ بارد، بينما كان الغلمان المعدمون الذين جذبهم المشهد إلى المقبرة، يلعبون في صخب لعبة الطمامة(*) بين القبور، أو يثبون ـ على سبيل الاستطراد والتنويع ـ فوق التابوت، جيئة

(*) Hide - and - seek ضرب من لعب الأطفال يختبئ أحدهم ويبحث عنه الآخر. (المعرب)

وذهاباً. وإذ كان ساواربيري وبامبل صديقين شخصيين للقندلفت فقد جلسا معه على مقربة من النار، وطالعا الصحيفة.

وأخيراً، وبعد انقضاء ساعة ونيف شوهد مستر بامبل، وساواربيري، والقندلفت يهرعون إلى القبر. وما هي إلا لحظة حتى برز القسُّ، مرتدياً حلته الكهنوتية البيضاء فيما هو يتقدم إلى حيث سبقوه. وعندئذ انهال مستر بامبل بالضرب على ولد أو ولدين لكي يصون المظاهر. فما كان من القس الموّقر إلا أن تلا من صلاة الجنازة كل ما استطاع ضغطه في أربع دقائق، وأسلم حلّته الكهنوتية إلى القندلفت، ومضى لسبيله.

وقال ساواربيري لحفّار القبور: «والآن، يا بيل، اطمر!»

ولم تكن مهمة عسيرة جداً. ذلك بأن القبر كان من الامتلاء بحيث استوى التابوت الأعلى عند ارتفاع لا يفصله عن سطح الأرض غير بضعة أقدام قليلة جداً. وطمر حفّار القبور القبر بالتراب، ووطئه بقدميه وطأً رفيقاً. ثم إنه تنكَّب مسحاته، وانصرف يتبعه الغلمان الذين أطلقوا شكاوى صارخة لانقضاء الملهاة بمثل تلك السرعة البالغة.

وقال بامبل، مربّتاً على ظهر الرجل: «هيّا، يا رفيقي الطيب. إنهم يريدون إغلاق المقبرة.»

وأجفل الرجل ـ ولم يكن قد تحرك قبل ذلك قط منذ أن استقر به المقام عند جانب القبر ـ ورفع رأسه، وحدّق إلى الشخص الذي خاطبه، وتقدم بضع خطوات إلى أمام، وسقط مغشياً عليه. وكانت العجوز المخبولة في شغل شاغل بالانتحاب على معطفها (الذي كان الدفّان قد استرده منها) فلم تُولِه أيّ اهتمام. ورموا على الرجل صفيحة من الماء، حتى إذا استعاد رشده، واستيقنوا أنه غادر المقبرة في سلام، أغلقوا البوابة الخارجية، ومَضوا في سُبلهم المختلفة.

وقال ساواربيري، في طريق العودة: «والآن، يا أوليفر، هل أعجبتك هذه الصناعة؟»

فأجاب أوليفر في تردد بالغ: «كثيراً. أشكرك، يا سيدي... ليس كثيراً، يا سيدي.»

فقال ساواربيري: «آه، إنك سوف تألفها، مع الأيام. وما إن تألفها حتى تصبح أمراً هيناً لا قيمة له، يا ولدي.»

وتساءل أوليفر بينه وبين نفسه ما إذا كان مستر ساواربيري قد احتاج إلى كثير من الوقت حتى يألف هذه الصناعة. ولكنه وجد أن من الخير له أن لا يطرح هذا السؤال. واتخذ سبيله عائداً إلى الدكان، متأملاً في كل ما كان قد رأى وسمع.

الفصل السادس

سخريات نوح تثير حنق أوليفر فيهب للعمل، على نحو أدهشه بعض الشيء

وانقضى شهر التجربة، فمُهِّن أوليفر رسمياً. ولقد كان الموسم، في تلك الفترة بالذات، حافلاً بالأمراض. وبالتعبئة التجارية: كانت سوق التوابيت رائجة. وفي خلال أسابيع معدودات اكتسب أوليفر قدراً من الاختبار عظيماً. والحق أن ابتكار مستر ساواربيري البارع نجح نجاحاً فاق حتى آماله الأشدّ تفاؤلاً. ولم يتذكر الطاعنون في السن من أهل المنطقة عهداً من العهود تفشّى فيه داء الحصبة أو تعاظم خطره على حياة الأطفال أكثر من تفشّيه وتعاظمه في تلك الفترة. وكثيرة هي المواكب الجنائزية التي سار أوليفر في طليعتها، معتمراً بقبعة مطوّقة بعصابة سوداء تدلّت حتى ركبتيه على نحو أثار مشاعر جميع الأمهات في المدينة واستحوذ على إعجابهن استحواذاً لا سبيل إلى وصفه. وإذ كان أوليفر يرافق سيده في معظم جنائز البالغين، أيضاً، لكي يكتسب رباطة في الجأش وسيطرة تامة على الأعصاب لا يستغني عنهما دفان متمرّس، فقد أتيحت له فرص

عديدة لملاحظة الاستسلام والتجلُّد الجميلين اللذين كان بعض ذوي العقول الراجحة يحتملون بهما ما يلّم بهم من محن وأرزاء.

فحين كان ساواربيري يتلّقى، مثلاً، طلباً بدفن سيدة عجوز غنية ـ أو سيد عجوز غني ـ يحيط بها عدد كبير من أبناء الأخ والأخت أو بنات الأخ أو الأخت الذين كانوا خلال مَرضتها الأخيرة محزونين على نحو يجلّ عن التعزّي والذين كان أساهم ممتنعاً على الكبت امتناعاً كاملاً حتى في المناسبات الحاشدة. . . أقول حين كان ساواربيري يتلقى طلباً بدفن سيدة كهذه أو سيد كهذا كان أوليفر يلاحظ أن من دأب القوم أن يبتهجوا بينهم وبين أنفسهم كما يشاء لهم الابتهاج، وأن يغلب عليهم البِشر والرضا، ويتجاذبوا أطراف الحديث في حرية بالغة وحبور غير يسير، وكأن شيئاً مما يزعجهم لم يَحدث البتة. وكان الأزواج، أيضاً، يحتملون مُصابهم بزوجاتهم في هدوء بطولي حتى التطرّف. وكانت الزوجات، بدورهن، يلبسن السواد حداداً على بعولتهنّ وكأنهن قد عقدن العزم ـ وهن أبعد ما يكنَّ عن الابتئاس في ثوب الأسى ـ على جعل ذلك الثوب لائقاً قدر المستطاع، جذاباً جهد الطاقة. ولقد لاحظ أوليفر، أيضاً، أن السيدات والسادة، الذين أفقدهم الحزن صوابهم في أثناء الدفن كانوا يثوبون إلى رشدهم، أو يكادون، حالما يصلون إلى بيوتهم، ويستردون رباطة جأشهم كاملة قبل انقضاء ساعة الشاي. وكان ذلك كله مشهداً فيه متعة كبيرة وعِبرة بالغة، ولقد تأمّله أوليفر في إعجاب عظيم.

هل كان في مسلك هؤلاء القوم الصالحين ما أغرى أوليفر تويست بالرضا والاستسلام؟ ذلك شيء لا أستطيع توكيده، برغم أني كاتبُ سيرته. ولكني أستطيع أن أقول، في غير ما تردد البتة، أنه واصل ـ طوال أشهر عديدة ـ الإذعان في وداعة لضروب الاستبداد والاضطهاد التي أنزلها به «نوح كلايبول»: الذي راح يسومه سوء العذاب أكثر من ذي قبل، بعد أن استثيرت غيرتُه برؤية الغلام الجديد يرقّى إلى مرتبة العصا السوداء وعصابة القبعة الحِدادية، بينما ظل هو، الغلام العتيق، مسمّراً ضمن نطاق

قبعته الشبيه شكلُها بشكل الفطيرة وساقيّته(*) الجلدية. ولقد أساءت شارلوت معاملته، لأن نوح دأب على هذه الإساءة. وكانت مسز ساواربيري عدوّه العنيد لأن مستر ساواربيري كان نزاعاً إلى مصادقته. وهكذا، بين هؤلاء الثلاثة من ناحية وبين تخمة من الجنائز من ناحية أخرى، لم يكن حال أوليفر أحسن من ذلك الخنزير الجائع عندما حُبِس، خطأ، في مخزن الحبوب من أحد مصانع الجعة.

لقد بلغت حياة أوليفر الآن، فصلاً هاماً جداً. ذلك أن حادثة ـ ربما كانت ضئيلة الشأن، قليلة الخطر، في الظاهر ـ ولكنها أحدثت، على نحو غير مباشر، تغيراً ملموساً في مستقبله كله ومسالكه كلها.

فقد هبط أوليفر ونوح، ذات يوم، إلى المطبخ في ساعة العشاء المألوفة لكي ينعما بشرحة صغيرة من لحم الضأن: أوقية ونصف من أسوأ جزء من الرقبة. واتفق أن دُعيت شارلوت إلى مهمة تؤديها خارج المطبخ، فعقبت غيابَها ذاك فترة وجيزة رأى نوح كلايبول ـ وكان آنذاك شديد الجوع نزّاعاً إلى الشر ـ أنه لا يستطيع بأية حال أن يكرّسها لأيما غرض أجلّ من مناكدة أوليفر تويست الصغير ومكايدته.

وإذ عقد نوح النية على الاستمتاع بهذا اللهو فقد داس غطاء المائدة بقدميه، وشدّ أوليفر من شعره ثم من أذنيه، وأعلن عن رأيه فيه قائلاً أنه مُراء، وعبّر عن عزمه على المجيء ليرى إليه مُعَلّقاً على أعواد المشنقة في أيما يوم يقدّر فيه لهذا الحدث السعيد أن يتحقق. وخاض في موضوعات أخرى مختلفة جديرة بغلام من غلمان المدارس الخيرية خبيث متجهم مثله. حتى إذا عجزت هذه السخريات كلها عن إحداث ما قُصِد بها إليه، أعني إكراه أوليفر على البكاء، أغرِيَ نوح بالإمعان في المزاج والإضحاك. وفي محاولته هذه لجأ إلى ما يلجأ إليه أحياناً، حتى في يوم الناس هذا، كثير من أصحاب الدعابة الصغار المتمتعين بشهرة أعظم من شهرة نوح

(*) غطاء جلدي للساق.

بكثير، عندما يريدون أن يكونوا مضحكين. لقد ضرب على وتر الحياة الشخصية.

قال نوح: «كيف حال أُمك، يا ربيب الملاجئ؟»

فأجابه أوليفر: «لقد ماتت. لا تحدّثني بأيما شيء عنها!»

وشاع الدم في وجهه وهو ينطق بهذه الكلمات. وأخذ صدره يعلو ويهبط، وارتعد فمه ومنخراه ارتعاداً غريباً تراءى لمستر كلايبول أنه لا بدَّ أن يكون طليعة نوبة عنيفة من نوبات البكاء. فعاود الهجوم، متأثراً بهذه الانطباعة، فقال:

ـ «من أيّ شيء ماتت، يا ربيب الملاجئ؟»

فأجابه أوليفر، وكأنه يتحدث إلى نفسه لا إلى نوح: «من الحزن وانكسار الفؤاد، كذلك قالت لي بعض ممرضاتنا العجائز. وأحسب أني أعرف ما معنى أن يموت المرء بهذا البلاء.»

فقال نوح فيما كانت دمعة تنحدر على خد أوليفر: «ترالالا... ترالالا. يا ربيب الملجأ! ما الذي جعلك تَشْرَق بالدمع الآن؟»

فأجابه أوليفر مكفكفاً عبرته في الحال: «ليس أنت! لا تتوهَم ذلك!»

فقال نوح ساخراً: «أوه، ليس أنا، إيه!»

فأجابه أوليفر في حدّة: «لا، ليس أنت. والآن، أقلِع عن هذا. لا تقل لي أيما كلمة أخرى عنها. من الخير لك أن لا تفعل!»

فهتف نوح: «من الخير لي أن لا أفعل! حسناً، من الخير لي أن لا أفعل! لا تكن سليطاً، يا ربيب الملاجئ. وكلّ هذا من أجل أمك، أيضاً! لقد كانت امرأة فاضلة، أجل لقد كانت. أوه، يا إلهي!» وهنا هز نوح رأسه هزة معبِّرة، وغضَّن من أنفه الأحمر الصغير كل ما يستطيع الجهد العضلي أن يغضّنه في مثل هذه المناسبة.

وتابع نوح حديثه، وقد شدّ من أزره صمتُ أوليفر وأنشأ يتكلم في لهجة ساخرة ترشح بالشفقة المتكلفة، وهي أدعى إلى الغيظ من أية لهجة أخرى: «أنت تعلم، يا ربيب الملاجئ، أنه لا حيلة لك في ذلك الآن،

ولم تكن لك طبعاً أيما حيلة فيه آنذاك. وأني لشديد الأسف لذلك. وأنا واثق من أننا جميعاً آسفون لذلك، وإننا نشفق عليك كثيراً. ولكن عليك أن تعرّف، يا ربيب الملاجئ، أن أمك كانت بغيّاً حقيقية مئة بالمئة.»

فتساءل أوليفر، وهو يرفع بصره في سرعة بالغة: «ماذا قلت؟»

فأجابه نوح في برود: «كانت بغيّاً حقيقة مئة بالمئة، يا ربيب الملاجئ. ولقد أحسنت صنعاً، يا ربيب الملاجئ، بموتها في الميقات الذي ماتت فيه، وإلا لكان خليقاً بها أن تكون الآن في برايدويل(*) مع المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، أو أن تكون قد رُحّلت من البلاد، أو عُلِقت على أعواد المشنقة. وهذا الاحتمال الأخير هو أرجحها جميعاً. أليس كذلك؟»

وأحال الغيظ وجه أوليفر إلى مثل لون القرمز، ووثب واقفاً، وقلَب الكرسي والطاولة، وأخذ بخناق نوح، وأنشأ يهزّه ـ وقد استبد به حنق عظيم ـ حتى لقد تصادمت أسنانه في رأسه. ثم إنه حشد قوّته كلها في ضربة صارعة طرحَته أرضاً.

كان الغلام قد بدا، قبل دقيقة واحدة، ذلك المخلوق الوادع، الدمث، الكئيب الذي أحالته إليه المعاملة القاسية. ولكن روحه استثيرت آخر الأمر. إن الإهانة الوحشية التي وُجهت إلى أمه الميتة كانت قد أضرمت النار في دمه. وجاش صدره، وانتصبت قامته، والتمعت عينه وقدحَت شرراً، وتغيّرت هيئته الخارجية كلها فيما كان يقف محدقاً إلى المضطهِد الجبان الجاثم عند قدميه، وتحدّاه في قوة لم يعرفها قط من قبل.

ونشج نوح قائلاً: «إنه سوف يقتلني! شارلوت! معلّمتي! هو ذا الغلام الجديد يفتك بي! النجدة! النجدة! لقد جُنّ جنون أوليفر! شار. . . لوت!»

(*) Bridewell مستشفى في لندن كان من قبل ملجأ وإصلاحية للمجرمين. (المعرب)

واستجابت لصيحات نوح صرخة داوية من شارلوت، وصرخة أشدّ دوياً من مسز ساواربيري. واندفعت الأولى إلى المطبخ من خلال باب جانبيّ، وتمهلت الثانية على السلم.

وصاحت شارلوت ممسكة بأوليفر بأقصى قوّتها، التي كانت تقارب قوة رجل معتدل الطاقة مدرّب تدريباً حسناً جداً: «أوه، يا لك من صعلوك صغير! أوه، يا لك من وغد صغير، رهيب، فاتك، ناكر للجميل!» وبعد كل مقطع من مقاطع هذه الكلمات كانت شارلوت توجّه إلى أوليفر لكمة مشحونة بكامل قوتها، مُرفقة تلك اللكمة بصرخة أطلقتها لمصلحة الجماعة. ولم يكن كف شارلوت رقيقاً بأية حال. ولكن مسز ساواربيري اقتحمت المطبخ، خشية أن يكون ذلك الكفّ أعجز عن أن يهدئ غيظ أوليفر، فساعدت على ذلك بأن أمسكت به بإحدى يديها وخدشت وجهه بالأخرى. وفي مثل هذا الوضع الملائم، نهض نوح عن الأرض وراح يلكمه من الوراء.

ولكن هذه التمرينات كانت أعنف بعض الشيء من أن تستمر طويلاً. حتى إذا أوهن الإرهاق عزائمهم جميعاً، ولم يعد في مستطاعهم أن يمزقوا ويضربوا أكثر مما فعلوا، أخذوا يجرّون أوليفر ـ وكان يقوم ويصيح، ولكن من غير أن يعصف به الفزع ـ إلى قبو القمامة (الزبالة)، ثم أوصدوا الباب عليه، حتى إذا تمّ لهم ذلك انخرطت مسز ساواربيري في البكاء.

وقالت شارلوت: «فليباركها اللّه! لقد أغمي عليها! نوح، هاتِ كأساً من الماء، يا عزيزي. عجّل!»

ـ «أوه! شارلوت» كذلك قالت مسز ساواربيري باذلة أقصى جهدها للكلام على الرغم من ندرة النفَس ووفرة الماء البارد الذي صبّه نوح على رأسها وكتفيها. «أوه! شارلوت، أية رحمة إلهية هي التي أنجتنا من الذبح في أسرّتنا!»

فجاءها الجواب: «آه، أنها لرحمة إلهية حقاً، يا سيدي. وكل ما أرجوه هو أن يكون في هذا درس لسيدي فلا يؤوي بعد اليوم أحداً من

هؤلاء الأوغاد المرعبين الذين وُلدوا ليكونوا، وهم في المهد، سفاكين ولصوصاً. يا لنوح المسكين! كان على وشك أن يلفظ أنفاسه الأخيرة عندما أقبلتُ.»

فقالت مسز ساواربيري، وهي تنظر إلى ربيب المدارس الخيرية نظرة إشفاق ورثاء: «يا له من فتى بائس!»

وفرك نوح ـ الذي كان زر صدرته الأعلى، تقريباً، على مستوى قمة رأس أوليفر ـ أقول فرك نوح عينيه بباطن معصميه فيما كان هذا الحنوّ يُغدق عليه، وأرسل بعض العبرات والشَخَرات المؤثرة.

وصاحت مسز ساواربيري: «ما الذي يتعيَّن علينا أن نفعله؟ إن سيدكما ليس في البيت، بل ليس ثمة أيما رجل في البيت، ولن تنقضي عشر دقائق حتى يحطِّم الباب برفساته.» والواقع أن حملات أوليفر العنيفة على قطعة الخشب المشار إليها جعلت هذا الحدث محتمل الوقوع احتمالاً كبيراً.

وقالت شارلوت: «يا إلهي، يا إلهي! لست أدري، يا سيدي.. ولكن يخيَّل إليّ أن علينا أن نستدعي البوليس!»

فاقترح مستر كلايبول قائلاً: «أو رجال الجيش!»

فقالت مسز ساواربيري، متذكّرة صديق أوليفر العجوز: «لا، لا، أسرع إلى مستر بامبل، يا نوح، وقل له أن يجيء إلى هنا في الحال، وأن لا يضيع دقيقة واحدة. ليس من الضروري أن تعتمر بقلنسوتك! عجّل! وفي ميسورك أن ترفع فوق عينك المتورمة، وأنت تعدو، مدية ما، فإن ذلك سوف يخفف من تورّمها.»

ولم يضع نوح أيما لحظة في الرد على مسز ساواربيري، بل أطلق ساقيه للريح بأسرع ما استطاع أن يطلقهما. ولقد دهش جميع الذين كانوا يتنزهون في الشارع دهشاً عظيماً إذ رأوا صبياً من صبيان المدارس الخيرية يخترق الشوارع في سرعة واهتياج، حاسر الرأس وفوق عينه مطواة كبيرة.

الفصل السابع

أوليفر يمعن في التمرد

انطلق نوح كلايبول يعدو في الشوارع ما وسعه العَدو، من غير أن يتوقف مرة لكي يأخذ نفَساً، حتى انتهى آخر الأمر إلى بوابة الملجأ الخارجية. وبعد أن استراح هناك، دقيقة أو نحوها، لكي يُعدّ دفقاً زاخراً من التنهدات ويخلع على وجهه مسحة مؤثرة من الرعب والدموع، قرع خادعة الباب قرعاً قوياً، وأبدى للفقير العجوز الذي فتحه له وجهاً محزوناً إلى درجة جعلته، وهو الذي لم ير حوله في أسعد الأوقات غير وجوه محزونة، يُجفل دهشاً وانشداهاً.

وقال الفقير العجوز: «يا إلهي؟ ما خطبك أيها الغلام؟»

ـ «مستر بامبل! مستر بامبل!» كذلك صاح نوح في رعب متكلف، وفي نبرات كانت من الارتفاع والاهتياج بحيث إنها تناهت إلى أذن مستر بامبل نفسه الذي كان على مقربة دانية، بل بحيث إنها روّعته ترويعاً حمله على الاندفاع نحو الفِناء غير معتمر بقبعته ذات القرنين ـ وهي حادثة غريبة جداً، رائعة جداً، إذ تُظهر أن الشمامسة أنفسهم قد يفقدون موقتاً، بتأثير من حافز مفاجئ قويّ، السيطرة على أعصابهم وينسَون وقارهم الشخصي.

وقال نوح: «أوه، مستر بامبل، يا سيدي! أوليفر، يا سيدي. . . أوليفر قد. . .»

فقاطعه مستر بامبل، وفي عينيه المعدنيتين وميض ابتهاج: «ماذا؟ ماذا؟ لم يفرّ هارباً. إنه لم يفر هارباً. . . هل فر، يا نوح؟»

فأجابه نوح: «لا، يا سيدي، لا. إنه لم يفر، يا سيدي، ولكنه تكشّف عن غلام شرير. لقد حاول أن يفتك بي، يا سيدي، ثم حاول أن يفتك بشارلوت، ثم بسيدتي، أوه! يا له من ألم رهيب! إنه أشبه بسكرة الموت، يا سيدي!» وهنا لوى نوح جسده وفتله ليتخذ مجموعة كبيرة من

الأوضاع الشبيهة بأوضاع ثعبان الماء، محاولاً أن يوقع في نفس مستر بامبل، من طريق ذلك كله، أن الهجمات العنيفة القاتلة التي شنّها أوليفر تويست عليه قد أورثته أذىً باطنياً قاسياً كان في تلك اللحظة نفسها يعاني من آثاره أشد العذاب.

حتى إذا لاحظ نوح أن الأنباء التي حملها قد شلت مستر بامبل شللاً كاملاً عمد إلى تعميق ذلك الأثر بالأعوال من جراء جراحه المخوفة في نبرة يبلغ ارتفاعها عشرة أضعاف ارتفاع نبراته السابقة. وحين بَصُر برجل ذي صدرة بيضاء يعبر الفِناء أضفى على نواحه مسحة مأسويّة أقوى، مدركاً بحقّ أن من المستحسن جداً أن يلفت انتباه ذلك الرجل ويثير حنقه.

وسرعان ما لُفت انتباه الرجل، إذ لم يكد يمشي ثلاث خطوات حتى استدار مغضَباً وتساءل علام كان ذلك الوغد الصغير يُعول وينتحب، ولماذا لم يؤثره مستر بامبل بشيء يجعل سلسلة الهتافات الصوتية التي ألمعنا إليها، عملية لا إرادية؟

وأجابه مستر بامبل: «إنه غلام من غلمان المدرسة الخيرية، يا سيدي، كاد أن يفتك به ـ أجل أن يفتك به، يا سيدي ـ أوليفر تويست الصغير.»

فصاح السيد ذو الصدرة البيضاء، متوقفاً على نحو مفاجئ: «يا إلهي! أنا أعلم ذلك جيداً! لقد عرفت من البدء إحساساً باطنياً انبأني بأن ذلك الوحش الصغير الوقح لا بدَّ أن يموت على المشنقة في يوم من الأيام!»

فقال مستر بامبل، في وجه رماديّ الشحوب: «ولقد حاول، أيضاً، أن يفتك بالخادمة يا سيدي.»

فقاطعه مستر كلاييول: «وبسيدته أيضاً.»

وهنا أضاف مستر بامبل: «وبسيده كذلك، كما أخبرتني، يا نوح، على ما أظن.»

فأجاب نوح: «لا، إنه خارج البيت، ولولا هذا إذن لفتك به أيضاً. لقد قال إنه يعتزم ذلك.»

فتساءل السيد ذو الصدرة البيضاء: «آه، لقد اعتزم ذلك، أليس هذا صحيحاً يا ولدي؟»

فأجابه نوح: «نعم، يا سيدي. وأرجوك، يا سيدي، إن سيدتي تريد أن تعرف هل لدى مستر بامبل فائض من الوقت يمكِّنه من الذهاب إلى هناك، في الحال، لكي يجلده بالسوط... لأن سيدي خارج المنزل.»

فقال السيد ذو الصدرة البيضاء، متبسّماً تبسماً ينمّ عن الرأفة، مربّتاً على رأس نوح الذي كان أعلى من رأسه هو بنحو ثلاثة إنشات: «طبعاً، يا ولدي، طبعاً. أنت فتى طيب... فتى طيب جداً. دونك هذا البنس. بامبل، أمض على جناح السرعة إلى بيت ساواربيري، مصطحباً عصاك، وانظر أيّ الطرق أجدى في معالجة الموقف. لا تأخذنَّك بالغلام رحمة، يا بامبل.»

فأجابه الشماس، مثبّتاً الخيط المشمّع المفتول حول الجزء الأدنى من عصاه لأغراض الجَلد الأبرشيّ: «أجل، لن تأخذني به رحمة ما، يا سيدي.»

فقال السيد ذو الصدرة البيضاء: «وقل لساواربيري أن لا تأخذه به رحمة أيضاً. إنهم لن يستطيعوا تأديبه إذا لم يجلدوه ويضربوه.»

فأجاب الشماس قائلاً: «سوف أعني بتنفيذ توجيهاتك، يا سيدي.»

حتى إذا عدّل وضع القبعة ذات القرنين وسوّى العصا ذات الخيط المشمّع على وجه مريح، انطلق مستر بامبل ونوح كلايبول ـ بأقصى سرعة ممكنة ـ إلى دكان الدفّان.

وهنا، في دكان الدفّان، لم يكن الوضع قد تحسّن البتة. كان مستر ساواربيري لا يزال خارج البيت، وكان أوليفر يواصل رفس باب القبو في عزم لم يعرف الوهن. وكانت الأنباء التي روتها مسز ساواربيري وشارلوت عن ضراوته ووحشيته مرعبة إلى حد جعل مستر بامبل يرى أن من الحكمة أن يلجأ إلى المفاوضة قبل فتح الباب. وهكذا رفس الباب من الجانب

الآخر، على سبيل الاستهلال. ثم وضع فمه على ثقب المفتاح وقال في جَرس عميق مؤثر:

ـ «أوليفر!»

فأجاب أوليفر من الداخل: «هيّا، أطلق سراحي!»

فقال مستر بامبل: «هل تعرف صاحب هذا الصوت، يا أوليفر؟»

فأجاب أوليفر: «نعم».

فقال مستر بامبل: «ألست خائفاً منه، يا سيد؟ ألا ترتجف وأنا أتحدث، يا سيدي؟»

فأجابه أوليفر في جسارة: «لا!»

وكان خليقاً بذلك الجواب المختلف كل هذا الاختلاف عمّا توقّع انتزاعه وعمّا تعود سماعه أن يصعق مستر بامبل إلى حد غير يسير. فارتدّ عن ثقب المفتاح مجفلاً، واستقام منتصباً، وراح ينقّل نظره بين الثلاثة الواقفين على مقربة من واحد إلى آخر، وقد بدت على وجهه إمارات دهش أبكم.

وقالت مسز ساواربيري: «أوه، يا مستر بامبل، لا بدَّ أنه قد جُن. إن أيما صبي فقَد نصف عقله لا يستطيع أن يغامر فيخاطبك بمثل هذه اللهجة.»

فأجابها مستر بامبل، بعد بضع لحظات من التأمل العميق: «ليس الجنون هو المسؤول. إنه اللحم.»

فهتفت مسز ساواربيري: «ماذا!»

فأجابها بامبل، في توكيد صارم: «اللحم، اللحم، اللحم. لقد قمتِ بتغذيته يا سيدتي. لقد ربّيتِ فيه، يا سيدتي، نفساً وروحاً اصطناعيتين لا تتلاءمان مع من كان في مثل وضعه، كما يجدر بأعضاء اللجنة، وهم فلاسفة عمليون، يا مسز ساواربيري، أن ينبئوك. وما حاجة الفقراء والمعدمين إلى نفس أو روح؟ بحسبهم أننا ندعهم يملكون أجساداً من

لحم ودم. ولو أنكِ قَصرتِ طعام الغلام على الثريد، يا سيدتي، إذن لما حدث هذا البتة.»

فهتفت مسز ساواربيري، رافعة بصرها إلى سقف المطبخ في ورع: «يا إلهي، يا إلهي! هذه هي نتيجة السخاء!»

وكان سخاء مسز ساواربيري نحو أوليفر قد تمثّل في أنها أغدقت عليه جميع الفضلات القذرة التي يعاف أكلها أيما مخلوق آخر. وهكذا كان ثمة قدر كبير من الوداعة وإنكار الذات في قبولها، عن رضا وطيب خاطر، ما وجهه إليها مستر بامبل من اتهام خطير. وهو اتهام ـ ونحن نقول ذلك إنصافاً لها ـ كانت بريئة منه كل البراءة، فكراً وقولاً وعملاً.

فقال مستر بامبل عندما خفضت السيدة عينيها، من جديد نحو الأرض. «آه، إن الشيء الوحيد الذي نستطيع أن نعمله الآن ـ بقدر ما أعلم ـ هو أن نتركه في القبور يوماً أو يومين حتى يستشعر الجوع بعض الشيء، ثم أن نخرجه منه ونقصُر طعامه على الثريد طوال مدة تمهينه. إنه يتحدّر من أسرة رديئة. أسرة سريعة الاهتياج، يا مسز ساواربيري! ولقد قال الطبيب والممرضة كلاهما إن أمه وصلت إلى هنا، في وجه مصاعب وآلام كان خليقاً بها أن تقضي، قبل أسابيع، على أيما امرأة رضيّة الطبع.»

عند هذه النقطة من حديث مستر بامبل، وكان أوليفر قد سمع منه قَدْراً كافياً لإعلامه بأن قناة أمه قد غمِزت من جديد، استأنف هذا الأخير رفْسَهُ في عنف جعل من المتعذر على القوم سماع أيّ صوت آخر. وفي تلك اللحظة انقلب ساواربيري إلى داره، وصوّرت له السيدتان جريمة أوليفر مصطنعتين ضروب المبالغات التي خُيّل إليهما أنها قادرة أكثر من أي شيء آخر على إثارة غضبه. فما كان منه إلا أن فتح باب القبو بمثل لمح البصر، وجرّ غلامه الممهَّن المتمرد إلى خارجه ممسكاً به من طوق قميصه.

وكانت ملابس أوليفر قد مُزقت من جراء ما أخضع له من ضرب وصفع، وكان وجهه متورماً مخدشاً، وكان شعره مشعّثاً فوق جبينه. بيد

أن حمرة الغضب لم تكن قد خمدت. وحين سُحِب من سجنه قطَّب في وجه نوح تقطيباً جسوراً ولم يبدِ عليه أيّ أثر من آثار الفزع البتة.

وقال ساواربيري، وهو يهز أوليفر ويسدّد إلى أذنه لكمة: «والآن، ألا تزال تزعم أنك فتى مهذب؟»

فأجابه أوليفر: «لقد أهان أُمي.»

فقالت مسز ساواربيري: «حسناً وما ضرّ لو أهانها، أيها الوغد الصغير الناكر للجميل؟ إنها تستحق ما قاله عنها، وأسوأ.»

فقال أوليفر: «هذا غير صحيح.»

فقالت مسز ساواربيري: «بل إنه صحيح.»

فردّ أوليفر: «هذا كذب.»

وتفجَّر من عيني مسز ساواربيري فيضٌ من الدموع.

هذا الفيض من الدموعْ لم يَدَع لمستر ساواربيري مجالاً للاختيار. فلو إنه تردد لحظة واحدة في معاقبة أوليفر أقسى ما يكون العقاب إذن لاتضح من غير ما ريب لكل قارئ وافر الخبرة ـ وفقاً لكل سابقة من سابقات النزاعات الزوجية المقررة ـ أنه بهيمةٌ من البهائم. . . زوج غير طبيعي، مخلوقٌ مُهين، وتزييف دنيء لرجل ما، وغير ذلك من الصفات غير المستحبّة التي يضيق هذا الفصل، لتعدّدها البالغ، عن استيعابها. وإنصافاً له أقول إنه كان نزّاعاً إلى الرفق بالغلام، ربما لأن مصلحته قضت بذلك، وربما لأن زوجته كانت تبغض ذلك الغلام. بيد أن فيض الدموع لم يبق في يده حيلة. فانهال عليه، في الحال، بضرب مبرّح اقترن بارتياح مسز ساواربيري نفسها، وجَعل استعمال مستر بامبل عصاه الأبرشانية، في ما بعد، أمراً غير ضروري. وطوال ساعات النهار الباقية حُبس أوليفر في المطبخ الخلفي، برفقة مضخَّة وقطعة من خبز. حتى إذا هبط الليل أقبلت مسز ساواربيري لتطلق من وراء الباب مختلف الملاحظات التي ما كانت لتشرّف ذكرى أمه بأية حال، ولتعمد بعد ذلك إلى فتح ذلك الباب،

وتطلب إلى أوليفر ـ وسط سخريات نوح وشارلوت وإشاراتهما بالبنان ـ أن يرتقي السلم ليأوي إلى فراشه الكئيب.

ولم يستسلم أوليفر للمشاعر الناتجة عن المعاملة التي أخضع لها ذلك النهار في نفس طفل صغير إلا عندما خُلِّف وحيداً في صمت دكان الدفّان المظلمة وسكونها. كان قد أصغى لسخرياتهم في ازدراء، وكان قد احتمل ضربات السوط من غير أن يطلق صيحة واحدة: ذلك بأنه كان قد استشعر أن فؤاده زاخر بكبرياء جدير بها أن تكبت أنينه حتى النهاية، ولو أنهم شووه على النار وهو حيّ. أما الآن، بعد أن لم يبق ثمة من يراه أو يسمعه، فقد خرّ راكعاً على الأرض وحجب وجهه بيديه وسفح عبراتٍ هي من المرارة بحيث نسأل اللّه، حفاظاً على شرف الطبيعة البشرية أن لا يُحْوج كثيراً من صغارنا إلى سَفْحها!

وظل أوليفر، برهةً طويلة، على هذه الحال جامداً لا يتحرّك. وكانت الشمعة تحترق خفيضة في مِحْجرها عندما نهض واقفاً. وبعد أن أجال طرفه، بكثير من الحذر، في ما حوله، وأصغى في انتباه، رفع مزلاج الباب في رفق وألقى نظرة على الخارج.

كانت ليلة مظلمة باردة. وبدت النجوم، في عيني الغلام، أبعد عن الأرض مما قُدِّر له أن يراها في أيّ يوم من الأيام. لم يكن ثمة ريح، وكانت الظلال القاتمة التي ألقتها الأشجار على الأرض تبدو ـ بسبب من سكونها المطلق ـ مأتمية يخيم عليها شبح الموت. وأعاد إغلاق الباب في تلطُّف. حتى إذا أفاد من ضوء الشمعة المحتَضر لكي يضمّ ثيابه القليلة في منديل، جلس على أحد المقاعد الخشبية منتظراً بزوغ الفجر.

ولم تكد خيوط الضياء الأولى تشق طريقها عبر فُرُجات المصاريع حتى نهض أوليفر، ورفع مزلاج الباب مرّة أخرى. ثم إنه ألقى على ما حوله نظرة خائفة، وتمهَّل لحظة استبدَّ به خلالها شيء من تردد، وأوصد الباب خلفه ليجد نفسه في الشارع الطلْق.

والتفت يمنة ويسرة، غير دار في أي اتجاه يحسن به أن يفرّ. ، وتذكَّر

أنه كان قد رأى العربات، عند مغادرتها البلدة تكدّ مصعِّدة في الكثيب، فسلك السبيل نفسها، حتى إذا بلغ درباً ضيقاً، عبر الحقول ـ درباً كان أوليفر يعرف أنه يفضي بعد مسافة ما إلى الطريق مرّة أخرى ـ اندفع نحوه وراح يغذُّ السير فيه.

وتذكَّر أوليفر جيداً أنه كان قد أغذَّ السير في ذلك الدرب نفسه، برفقة مستر بامبل عندما قاده هذا الأخير، أول ما قاده، من الملجأ الفرعي إلى الملجأ الرئيسي. كانت طريقه تنبسط تجاه البيت الصغير مباشرة. وتسارعت دقات قلبه عندما أدرك ذلك، وعقد النيّة نصف عقْد على الانقلاب على عقبيه. ولكنه كان قد اجتاز الآن مسافة غير يسيرة ولو قد نكص على عقبيه إذن لأضاع وقتاً كثيراً، وإلى هذا، فقد كان الصبح في أوّله، ولم يكن ثمة كبيرة خوف من أن يراه أحد، وهكذا واصل سيره.

وانتهى إلى الملجأ. ولم يكن نزلاؤه قد أفاقوا بعدُ، في ما يبدو، في تلك الساعة المبكرة، وكفَّ أوليفر عن السير، واختلس النظر إلى الحديقة. كان أحد الأولاد يقتلع الأعشاب الضارة من حديقة صغيرة. وفي الحال رفع الولد وجهه الشاحب فعرف أوليفر فيه واحداً من رفاقه القدماء. وسعد أوليفر بأن تكون عيناه قد وقعتا على ذلك الرفيق قبل مغادرته تلك الديار. إذ كان ذلك الولد ـ برغم أنه أحدث منه سناً ـ صديقه الصغير ورفيقه في اللعب. لقد ضُرِبا، وجُوِّعا، وحُبِسا معاً، مرة ومرة ومرة.

وقال أوليفر، فيما كان الولد يهرع إلى البوابة الخارجية ويقحم ذراعه الهزيلة بين قضبانها لكي يرحب به: «هش، يا «دِك»! هل استيقظ أحد؟»

فأجابه الولد: «لم يستيقظ أحدٌ غيري».

فقال أوليفر: «يجب أن لا تقول إنك رأيتني، يا «دك». أنا راكنٌ إلى الفرار. إنهم يضربونني ويسيئون معاملتي يا «دك». أنا ذاهب لألتمس الثروة في مكان قصيّ جداً. اين؟ لست أدري. ولكن ما أشد شحوب وجهك!»

فأجابه الولد في ابتسامة باهتة: «لقد سمعت الطبيب يقول لهم إني

سوف أموت. أنا جدُّ سعيد برؤيتك يا عزيزي، ولكنْ لا تتوقف.. لا تتوقف!»

فأجابه أوليفر: «بل سأتوقف.. بل سأتوقف لكي أقول لك وداعاً. إني سوف أراك ثانية، يا «دك». أنا على مثل اليقين من أنني سوف أراك! ولسوف تكون في خير وسعادة.»

فقال الولد: «أرجو ذلك. بعد أن أنتقل من هذا العالم، لا قبله، أنا أعرف أن الطبيب لا بدَّ أن يكون مصيباً، يا أوليفر، لأني كثيراً ما أرى في المنام الجنة والملائكة ووجوهاً كريمة لا أراها البتة وأنا يقظان، قبِّلني،» وتسلق الولد البوابة الخفيضة وطوَّق بذراعيه الصغيرتين عنق أوليفر، «وداعاً، يا عزيزي! فليباركك اللّٰه!»

هذه المباركة من بين شفتي ولد صغير، كانت أول مباركة قُدِّر لأوليفر أن يحظى بها منذ أبصر النور. وخلال النضال والآلام والمتاعب والتغيُّرات التي حفلت بها حياته التالية لم ينسها أوليفر لحظة واحدة.

الفصل الثامن

أوليفر يسير إلى لندن. إنه يلتقي على الطريق سيداً صغيراً من نوع غريب

ووصل أوليفر إلى السلم الخفيض الذي انتهى الدرب الجانبي عنده، وألفى نفسه ـ كره أخرى ـ على الطريق الرئيسية. كانت الساعة قد أمست الثامنة الآن، وعلى الرغم من أن خمسة أميال، تقريباً، كانت تفصله عن البلدة فقد ظل يراوح ما بين العَدْو حيناً والاختباء حيناً آخر، حتى الظهر خشية أن يتعقبه أحدٌ فيُدركه. وبعد ذلك جلس يرتاح في محاذاة لوحة تحدد الاتجاهات، وشرع يتساءل ـ للمرة الأولى ـ إلى أين يحسُن به أن يمضي ويحاول أن يكسب رزقه.

وكانت لوحة الاتجاهات التي جلس في محاذاتها تعلن، بأحرف

ضخمة، أن لندن تقع على مبعدة سبعين ميلاً، تماماً، عن تلك البقعة. وأثار ذلك الاسم سلسلة جديدة من الأفكار في ذهن الغلام. لندن! ـ ذلك الموطن الضخم العريض! ـ إن أحداً، حتى مستر بامبل نفسه لن يوفق إلى العثور عليه هناك! ولقد طالما سمع الشيوخ في الملجأ يقولون، أيضاً، أنه ما من ولد نشيط يمكن أن يجوع في لندن، وأن في تلك المدينة الواسعة طرائق لكسب الرزق ليس لدى الذين نُشِّئوا في الريف أية فكرة عنها. لقد كانت هي المكان الأكثر ملاءمة لغلام من غير مأوى.. مقدَّر عليه أن يقضي نحبه في الشارع إن لم تمتدّ إليه يدٌ بعَوْن، وفيما كانت هذه الخواطر تجول في ذهنه وثب واقفاً، واستأنف مسيره.

وكان قد أنقص المسافة التي تفصل ما بين شخصه وبين لندن أربعة أميال أخرى عندما تذكر مبلغ الجهد الذي يتعيَّن عليه احتماله قبل أن يرجو بلوغ طيَّته. حتى إذا فرضت هذه الفكرة نفسَها عليه خفف سيره بعض الشيء وأنشأ يستعرض وسائله التي سوف يستعين بها للوصول إلى هناك. كان لديه، في صُرَّته، قطعة من خبز، وقميص، وزوجان من الجوارب. وكان في جيبه بنس واحد أيضاً ـ منحة قدمها إليه ساواربيري أثر إحدى الجنائز التي أدى فيها مهمته أداء حسناً أكثر من المعتاد. وقال أوليفر ما بينه وبين نفسه: «حسنٌ جداً أن يملك الإنسان قميصاً نظيفاً.. وحسنٌ جداً أيضاً أن يملك زوجين من الجوارب المرفوَّة.. وبنساً واحداً. ولكن هذه كلها لا تكفي في رحلة تقتضي المرء أن يسير على قدميه خمسة وستين ميلاً في أيام الشتاء.» ولكن أفكار أوليفر، كأفكار الكثرة الكاثرة منا، عجزت ـ برغم نشاطها البالغ في اطلاعه على وجوه المصاعب التي تعترضه ـ عن أن ترشده إلى أيما وسيلة عملية للتغلب على تلك المصاعب. وهكذا حوَّل صرّته الصغيرة، بعد فترة من التفكير المتطاول، غير المجدي ـ إلى المنكب الآخر، وراح يمشي مشياً مكدوداً.

لقد سار أوليفر عشرين ميلاً، ذلك اليوم. وطوال هذه الفترة لم يذق غير قطعة من الخبز اليابس كانت معه، وغير بضع جرعات من ماء

استجداها عند أبواب الأكواخ القائمة على جانب الطريق. حتى إذا هبط الليل، انعطف نحو مرج من المروج. ثم إنه على مقربة من كومة تبن عقد العزم على الاضطجاع هناك حتى الصباح. واستبدَّ به الروع بادئ الأمر، ذلك بأن الريح أنَّت على نحو موحش فوق الحقول المهجورة: وكان يستشعر البرد والجوع والوحدة أكثر مما استشعرها في أيما وقت مضى. بيد أن السير كان قد هدَّ قواه، فإذا به يستسلم للرقاد وينسى متاعبه كلها.

وحين أفاق في صباح اليوم التالي استشعر البرد وتصلُّب الأوصال. وأمضَّهُ الجوع إلى حد أكرهه على أن يستبدل ببنسه الوحيد رغيفاً صغيراً في أول قرية بلغتها قدماه. ولم يكن قد اجتاز أكثر من اثني عشر ميلاً عندما هبط الليل من جديد. كانت قدماه متقرحتين، وكانت رجلاه من شدة الضعف بحيث اصطكتا تحته. وكان عليه أن يمضي ليلة أخرى في الهواء الرطب القارس ما زاد حاله سوءاً على سوء. حتى إذا استأنف رحلته صباح اليوم التالي لم يستطع جر قدميه إلا بشق النفس.

وانتظر عند سفح كثيب شديد الانحدار حتى أقبلت مركبة عمومية، فاستجدى مساعدة المسافرين على سطحها، ولكن قلة منهم التفتت إليه وشعرت بوجوده. وحتى هؤلاء سألوه أن ينتظر حتى يبلغوا أعلى الكثيب، إذ يتسنى لهم عندئذ أن يروا إلى أيِّ حدّ يستطيع أن يعدو التماساً لنصف بنس. وحاول أوليفر المسكين فترة قصيرة، أن يجاري المركبة العمومية في انطلاقها، ولكنه لم يوفق إلى ذلك، بسبب إعيائه وقدميه المتقرحتين. وعندما رأى المسافرون على سطحها عجزه عن اللحاق بهم أعادوا أنصاف بنساتهم إلى جيوبهم، معلنين أنه جروٌ كسول فهو لا يستحق شيئاً ما. وابتعدت المركبة مجلجلة، مخلِّفة وراءها سحابة من غبار ليس غير.

وفي بعض القرى وقع بصر أوليفر على لوحات خشبية كبيرة تحذر الناس من الاستجداء في تلك المنطقة، وتنذر من يفعل ذلك بعقوبة السجن. وروَّع ذلك أوليفر ترويعاً كثيراً، وجعله يسعد بالخروج من تلك القرى بأقصى سرعة ممكنة. وفي بعضها الآخر كان أوليفر يقف عند أفنية

الخانات، ناظراً إلى عابري السبيل جميعاً: وهو صنيعٌ كان ينتهي عادة بأمر تصدره صاحبة الخان إلى أحد حوذيي المركبة بطرد الغلام الغريب من المكان، إذ كانت تعتقد أنه جاء ليسرق شيئاً. أما إذا طرق باب أحد المزارعين مستعطياً فإن تسعة رجال من كل عشرة كانوا يهددونه بتحريض الكلب عليه. وحين أقحم أنفه في دكان من الدكاكين ألفى القوم يتحدثون عن الشماس، فكاد فؤاده أن يثب إلى فمه. وطوال ساعات عديدة كانت وثبة الفؤاد هذه هي كل ما فاز به هناك.

والواقع أنه لولا موظف طيب القلب من موظفي المكوس ولولا سيدة عجوز خيِّرة لوصل به الأمر إلى ما وصلت إليه أمه. وبكلمة أخرى، لكان سقط ميتاً فوق الطريق الملكية. ولكن موظف المكوس قدَّم إليه شيئاً من خبز وجبن. والسيدة العجوز، التي ذكّرها بحفيد لها يتيه حافي القدمين في بقعة قصية من الأرض بعد أن حطمت الأنواء مركبه، أشفقت على اليتيم البائس وأعطته كل ما أتاحت لها إمكاناتها المحدودة أن تعطيه، بل وأكثر من ذلك أيضاً، مردفة عطاءها هذا بكلمات بالغة الرقة واللطف وبعبرات مفعمة بالعطف والحنان إلى حد جعل ذكراها أرسخ في فؤاده من جميع الآلام التي قُدِّر له أن يقاسيها.

وفي ساعة مبكرة من الصباح، بعد سبع ليال انقضين على مغادرته مسقط رأسه دخل أوليفر بلدة بارنيت الصغيرة. كانت مصاريع النوافذ موصدة، وكان الشارع خالياً. وكانت الشمس تبزغ بكامل جمالها السَّنيّ، ولكن ضياءها لم يكن له من أثر غير اطلاع الغلام على وضعه المتوحد الموحش عندما قعد، بقدمين داميتين يعلوهما الغبار، عند عتبة باب من الأبواب.

وشيئاً بعد شيء فُتحت مصاريع النوافذ، ورُفِعت ستائرها، وبدأ الناس يروحون ويجيئون. وتمهل قليل منهم ليحدقوا إلى أوليفر لحظة أو لحظتين، أو استداروا ليحملقوا فيه وهم ماضون في سبيلهم مسرعين، ولكن أياً منهم لم يمدّ إليه يد العون أو يجشم نفسه عناء التساؤل كيف

اتفق له أن وفد إلى هناك. وهو لم يؤانس في نفسه الجرأة على استجداء الأكف. ولم يعرف ماذا يفعل.

وكان قد أمضى فترة من الزمان جالساً القرفصاء على تلك العتبة: متعجباً لهذا العدد الضخم في المقاهي (كان كل بيت من اثنين في بارنيت حانة، كبيرة كانت أو صغيرة)، محدقاً في لامبالاة إلى المركبات العمومية المجتازة بالمكان، متأملاً في تعجب بالغ كيف أنها تقطع في يُسْر وفي ساعات قليلة ما احتاج هو في سبيل قطعه إلى أسبوع كامل من الشجاعة والعزم غير المتكافئين مع سنِّه الفتيَّة. . عندما لاحظ (وقد انتزعه ذلك من غمرة أحلام يقظته) أن أحد الغلمان الذين مرُّوا به قبل بضع دقائق مرور الكرام عاد وأخذ يقلِّب طرْفه فيه، على نحو موصول من الجانب الآخر من الطريق. ولم يبال أوليفر بذلك بادئ الأمر، ولكن الغلام واصل تحديقه إليه مواصلة دعت أوليفر إلى رفع رأسه ومبادلته النظرات الثابتة. عندئذ عبَر الغلام الشارع وتقدم حتى أمسى على مقربة من أوليفر وقال:

ـ «هالو، يا صغيري! أية مهمّة عسيرة تشغل بالك؟»

وكان الغلام، الذي طرح هذا السؤال على عابر السبيل الصغير، في مثل سنة تقريباً، ولكنه كان من أعجب الغلمان الذين قدِّر لأوليفر أن يراهم عمره كله. كان صبياً أفطس الأنف، مسطَّح الجبين، عاديّ الوجه إلى حد بعيد، وكان يمثل أقذر نموذج للغلمان يمكن للمرء أن يطمع في رؤيته، ولكن ملامحه وسِماته كانت أشبه بملامح الرجال وسماتهم. كان ضئيل الجسم بالنسبة إلى سنهِ، وذا رجلين متقوستين بعض الشيء، وعينين صغيرتين حادتين بشعتين. وكانت قبعته جاثمة على قمة رأسه في غير إحكام البتة، فهي تنذر بالسقوط كل لحظة ـ ولقد كان خليقاً بها أن تفعل غير مرة لو لم يتعود صاحبها أن ينتر رأسه، بين الفينة والفينة، نترة مفاجئة كانت تعيدها إلى موضعها مرّة أخرى. وكان يرتدي سترة رجالية كادت تنتهي إلى عقبيه. وقد قلب كمّيها لكي يحرر يديه، ولكي يكون في ميسوره بعدُ ـ في ما يبدو ـ أن يقحمهما في جيبي بنطاله المخيط من

مخمل مضلَّع، إذ كان يحتفظ بيديه هناك على نحو موصول. وعلى الجملة فقد كان فتى لم يسبق لأيما حذاء نصف مرتفع الساق أن حمل مخلوقاً طوله أربعة أقدام وستة إنشات، أو أقل، أشد منه صخباً وأكثر اختيالاً.

ـ «هالو، يا صغيري! أية مهمة عسيرة تشغل بالك؟»

كذلك قال هذا الشاب الغريب لأوليفر.

فأجابه أوليفر والدموع تترقرق في عينيه: «أنا جائع جداً، متعب جداً. لقد سرت مسافة طويلة. لقد أمضيت الأيام السبعة الماضية وأنا أمشي.»

فقال السيد الشاب: «أمضيت أياماً سبعة وأنت تمشي؟ أوه، لقد فهمت. أمرٌ صادر من «المنقار» ثم أضاف وقد رأى إمارات الدهش على وجه أوليفر: «ولكني أحسب أنك لا تعرف ما هو «المنقار» يا رفيقي المتشرد».

فأجابه أوليفر في وداعة قائلاً إنه كان يسمع هذه اللفظة تستعمل دائماً، عند الكلام على الطيور، وإنها تعني فم الطائر.

فهتف السيد الشاب: «يا سلام! ما أعظم سذاجتك! ألا تعرف أن المنقار هو القاضي، وأننا حين نسير بأمر من المنقار لا نسير في خط مستقيم، ولكننا نصعد دائماً إلى أعلى ثم لا ننزل بعد ذلك أبداً. ألم تذهب إلى الطاحونة قط؟»

فتساءل أوليفر: «أية طاحونة؟»

ـ «أية طاحونة! إنها الطاحونة التي تحتل أصغر مكان ممكن حتى إنها تدور في داخل إبريق حجريّ(*)، والتي تعمل دائماً بشكل أفضل عندما لا تكون الرياح مواتية للناس، لا عندما تكون مواتية، إذ إنهم لا يستطيعون، في الحالة الأخيرة، أن يجدوا عمالاً. ولكن تعال. أنت تريد بعض الطعام، ولسوف تحظى به. أنا أيضاً مفلس، ليس معي غير شلن وبنت

(*) Stone Jug، والمراد بالإبريق الحجري، «السجن».

سليطة. ولكني سوف أدفع ضمن هذه الحدود. والآن، قف على قدميك، هيَّا!»

وساعد السيد الشاب أوليفر على النهوض وقاده إلى دكان سمَّان مجاور، حيث اشترى مقداراً كافياً من لحم الخنزير المعالَج ورغيف وزنه ليبرتان اثنتان أو، وفقاً لتعبيره هو، «كتلة من نخالة بأربعة بنسات!». وكانت شرائح لحم الخنزير قد حُفِظت نظيفة من الغبار بفضل طريقة بارعة قوامها إحداث فجوة في الرغيف بانتزاع جزء من اللب وإقحامها هناك. وتأبط السيد الشاب رغيفه، ودخل مقهى صغيراً وتقدَّم رفيقَهُ متجهاً نحو مشرب (بار) قائم في مؤخرة المحل. وهنا جيء، بناء على أمر من الشاب الملفع بالأسرار، بزجاجة جعة، وشرع أوليفر يأكل، نزولاً عند رغبة صديقه الجديد، وبإسراف ونهم، فيما كان الفتى الغريب يراقبه، بين الفينة والفينة، في انتباه بالغ.

وقال الفتى الغريب عندما كفّ أوليفر، آخر الأمر، عن الأكل: «ذاهبٌ إلى لندن؟»

ـ «نعم.»

ـ «هل لديك مأوى؟»

ـ «لا.»

ـ «مال؟»

ـ «لا.»

فصفر الفتى الغريب، وأقحم يديه في جيبيه بقدْر ما مكَّنه رُدْنا السترة الضخمة من إقحامهما.

وتساءل أوليفر: «هل تقيم في لندن؟»

فأجاب الفتى: «نعم، أنا أقيم فيها عندما أكون بين أهلي وعشيرتي. وأحسب أنك تريد مكاناً تبيت فيه هذه الليلة، أليس كذلك؟»

فأجابه أوليفر: «أنا أريد ذلك فعلاً. إني لم أذق طعم النوم تحت سقف منذ غادرت الريف.»

فقال السيد الشاب: «لا تدع القلق يستبد بك من جراء ذلك. إن عليّ أن أكون في لندن هذه الليلة. وأنا أعرف سيداً عجوزاً محترماً يقيم هناك، سيداً سوف يؤويك بالمجان، ولن يتقاضى منك أيّ أجر أبداً. . . أعني إذا ما قدَّمك إليه سيد من معارفه، وأنا، ألست من معارفه؟ أوه، لا! لا، بأية حال! على الإطلاق. أؤكد لك ذلك!»

وابتسم السيد الشاب، وكأنما أراد بهذه الابتسامة أن يوحي إلى رفيقه بأن الأجزاء الأخيرة من الحديث لم تكن غير سخرية عابثة، وأتى على آخر قطرة من الجعة كانت في كأسه.

وكان هذا العرض غير المتوقع، عَرْض المبيت تحت سقف من السقوف، أشدّ إغراء من أن يُقاوم. وبخاصة بعد أن أتبِـع في الحال بالتوكيد على أن السيد العجوز المشار إليه سوف يسند إلى أوليفر، في غير ما إبطاء، وظيفة مريحة. وقادهما هذا إلى محاورة أحفل بالودِّ والحميمية اكتشف أوليفر من خلالها أن صديقه يدعى جاك داوكنز، وأنه كان الفتى الأثير عند العجوز المشار إليه آنفاً وصنيعتَهُ.

ولم يكن في مظهر مستر داوكنز أشياء كثيرة تنهض دليلاً على الترف الذي يستطيع نفوذ سيده أن يكفله لأولئك الذين يصطفيهم ويُظلهم برعايته. ولكنه لما كان ذا طريقة في الكلام طيَّاشة فاسقة، ولما كان قد اعترف فوق هذا بأنه اشتهر بين أصدقائه الأدنَيْن بلقب «المراوغ الماكر»(*)، فقد استنتج أوليفر أنه كان قد أهمل حتى ذلك الحين ـ بسبب من نزعته إلى الاستهتار واللامبالاة ـ تعاليم وليّ نعمته الأخلاقية وطرحها وراءه. وتحت تأثير هذه الفكرة عقد العزم، في ما بينه وبين نفسه، على النظر إلى العجوز، في أسرع وقت ممكن، نظرة احترام، وعلى التخلي عن شرف إقامة علاقات أوثق مع «المراوغ الماكر» إذا ما وجده غير قابل للإصلاح، وهو شيء كان شبه متأكد منه.

(*) the artfull dodger.

وإذ عارض جون داوكنز دخولهما لندن قبل هبوط الليل فإنهما لم يصلا إلى بوابة المكوس في آيلينغتون إلا بعد الساعة الحادية عشرة. وعبرا الـ «الاينجيل» إلى طريق سانت جون، وهبطا الشارع الصغير المفضي إلى مسرح «سادلرز ويلز»، ومن ثم سلكا شارع ايكسماوث وشارع كوبيس، وهبطا الفِناء الصغير القائم في محاذاة الملجأ، واجتازا البقعة العتيقة التي كانت تحمل في يوم من الأيام اسم «هولاكي أن ذي هول»، منتقلَين من هناك إلى كثيب صافرون الصغير، فكثيب صافرون الكبير، حيث اندفع «المراوغ» في خطى عجلى، طالباً إلى أوليفر أن يسير في أثره وأن لا يبتعد عنه قيد شعرة.

والواقع أن أوليفر حرص على إبقاء عينيه مرْكَّزتين على قائده، وحرصه هذا كان يشغله عن كل شيء. ومع ذلك لم يتمالك نفسه عن أن يلقي نظرات خاطفة على جانبي الطريق. كانت المنطقة التي اجتاز بها من أقذر المناطق التي قُدِّر له أن يراها حتى ذلك الحين، وأشدّها بؤساً. فالطريق ضيقة جداً، موحلة جداً، والهواء مشبع بالروائح الكريهة. كان ثمة عدد غير يسير من الدكاكين الصغيرة، ولكن البضاعة الوحيدة المعروضة فيها كانت في ما بدا له أكواماً من الأطفال الذين كانوا، حتى في تلك الساعة المتأخرة من الليل، يلجون الأبواب ويخرجون منها، أو الذين كانوا يصيحون من ورائها. وكانت المقاهي هي المواطن الوحيدة التي بدت زاهرة وسط يباس المكان العام. وفيها كانت أشد طبقات الإيرلنديين انحطاطاً تتشاجر ما وسِعها التشاجر. وكانت الدروب والأفنية المسقوفة، التي انفصلت هنا وهناك عن الشارع الرئيسي، تكشِف عن مجموعات صغيرة من المنازل، حيث تمرَّغ في القذر ـ بكل ما في التعبير من معنى ـ رجال مخمورون ونسوة مخمورات. ومن كثير من الأبواب كان ينبثق، في حذر بالغ رجال مريبون مكلَّفون ـ على ما يستفاد من المظاهر جميعها ـ بأداء مهامّ ليست طاهرة جداً ولا بريئة من الأذى إلى حد بعيد.

وكان أوليفر قد شرع يتساءل، في تلك اللحظة بالذات، أليس من الخير له أن يفرّ ناجياً بنفسه، عندما وصلا إلى سفح الكثيب. وهنا أمسك به قائده من ذراعه، ودفع باب بيت قريب من «فيلدلاين» ففتحه. ثم إنه قاده إلى الممرّ، وأغلق الباب من ورائهما.

وصاح صوت من أدنى، جواباً على صفرة من «المراوغ»: «حسناً، ماذا تريد؟»

فكان الرد: «ثروة واكتساح!»

وبدا وكأن هاتين اللفظتين كانتا كلمة سرّ تفيد أن كل شيء قد جرى على ما يرام. ذلك بأن ضوء شمعة واهنة أومض على الجدار عند طرف الممرّ الأقصى. وفي احتراس أطل وجه رجل من مكان تهدَّم عنده درابزون سلَّم المطبخ العتيقة.

فقال الرجل مبالغاً في دفع الشمعة إلى أمام، مظلِّلاً عينيه بيده: «أنتما اثنان. فمن هو الشخص الآخر؟»

فأجابه جاك(*) داوكنز جاذباً أوليفر إلى الأمام: «رفيق جديد».

ـ «من أيّ بلد هو؟»

ـ «من غرينلند. هل فاجين في الطابق العلوي؟»

ـ «نعم. إنه يصنِّف المناديل. اصعدا!» وسُحبت الشمعة، واختفى الوجه.

وتلمَّس أوليفر طريقه بإحدى يديه ـ في حين كان رفيقه ممسكاً باليد الأخرى ـ وارتقى بكثير من العسر السلم المظلمة المحطمة، التي راح قائده يصعدها في يسر وسرعة أظهرا أنه كان يألفها منذ عهد بعيد. وفي عنف فتح باب حجرة خلفية، وجذب أوليفر، خَلْفه، إليها.

(*) يلاحظ القارئ أن ديكنز يسمي «المراوغ» جون حيناً، وجاك حيناً آخر. والواقع أن «جاك» ليس إلا تصغير التحبب لـ «جون». (المعرب)

كانت جدران الحجرة وسقفها سوداء فاحمة من جراء القِدم والقذارة. وأمام نار الموقد كانت طاولة من خشب الشوح انتصبت فوقها شمعة مغروسة في زجاجة من زجاجات بيرة الزنجبيل، وقدران أو ثلاث قدور من الصفيح، وطبق. وكان شيء من النقانق يُنْضَج في مقلاة موضوعة على النار، ومشدودة إلى رف الموقد بخيط قنَّبي. وفوقها كان يقف، وفي يده شوكة تحميص، يهودي متغضِّن الوجه طاعن في السن كان وجهه المنفّر الناضح بالشرّ محجوباً وراء كتلة من الشعر الأحمر المتلبِّد. كان يرتدي مبذلاً (روب) من الفانلّة، يكشف عن نَحْره، وتشوبه بقعٌ من الدهن كثيرة. لقد بدا هذا اليهودي وكأنه يوزع انتباهه ما بين المقلاة وبين مشجب تدلَّت منه جمهرة كبيرة من المناديل الحريرية. وعلى أرض الحجرة اختلطت فُرُش خشنة مصنوعة من أكياس دقيق عتيقة، وتزاحمت جنباً إلى جنب، وحول الطاولة جلس أربعة غلمان أو خمسة غلمان، وليس بينهم من هو أكبر سناً من «المراوغ»، يدخنون بيبات فخارية طويلة، ويعاقرون الخمرة وكأنهم رجال في خريف العمر. ولقد تحلَّق هؤلاء كلهم حول رفيقهم عندما همس في أذن اليهودي ببضع كلمات. ثم استداروا نحو أوليفر وابتسموا له ابتسامة عريضة. وكذلك فعل اليهودي نفسه، وشوكة التحميص في يده.

وقال جاك داوكنز: «هذا هو، يا فاجين، صديقي أوليفر تويست.»

وابتسم اليهودي ابتسامة عريضة. وبعد أن انحنى لأوليفر انحناءة مغالى فيها، أمسك بيده وعبر عن أمله في أن يكون له شرف صداقته الحميمة. عندئذ تحلَّق الشبان ذوو البيبات الفخارية حوله وهزوا كلتا يديه في حماسة بالغة ـ وبخاصة تلك اليد التي كان يحمل بها صرّته الصغيرة. وحرص واحد من أولئك الشبان حرصاً شديداً على أن يعلق له قبعته، وبالغ شاب آخر في التلطف فمد يديه إلى جيوب أوليفر لكي لا يتجشم ـ وهو الذي هدّه التعب ـ عناء إفراغها بنفسه حين يأوي إلى الفراش. ولقد كان خليقاً بالقوم أن يغالوا في هذه المجاملات مغالاة إضافية لو لم يعمد

اليهودي إلى مداعبة رؤوسهم ومناكبهم، في سخاء كثير، بشوكة التحميص التي كان يحملها.

وقال اليهودي: «نحن سعداء بأن نراك، يا أوليفر. جدّ سعداء. أيها المراوغ، ارفع النقانق عن النار، وقرّب إلى الموقد قصعة من أجل أوليفر. آه، أنت تحدِّق إلى مناديل الجيب! أليس كذلك، يا عزيزي؟ إن ثمة عدداً وافراً منها، أليس هذا صحيحاً؟ لقد انتقيناها منذ لحظة ليصار إلى غسلها. هذا كل ما هنالك، يا أوليفر. هذا كل ما هناك. ها! ها! ها!»

واستُقبِل الجزء الأخير من هذه الخطبة بضجة صاخبة من جميع تلامذة العجوز المرِح العامرة نفوسهم بالأمل. وفي غمرة من تلك الضجة قاموا لتناول العشاء.

والتهم أوليفر نصيبه من الطعام، ثم إن اليهودي مزج له كأساً من «جنّ» وماء حارّ، قائلاً له إن عليه أن يتجرعها في الحال، لأن ثمة سيداً آخر في حاجة إلى القَدح. وفعل أوليفر ما طُلب إليه أن يفعله. وما هي إلا فترة يسيرة حتى استشعر أنهم نقلوه، في رفق، إلى أحد الأكياس(*). وبعد ذلك استغرق في نوم عميق.

الفصل التاسع

وهو يشتمل على تفصيلات إضافية عن العجوز اللطيف وعن تلامذته الذين يعمر الأمل نفوسهم

ولم يفق أوليفر من نومه العميق الطويل إلا في ساعة متأخرة من صباح اليوم التالي. ولم يكن في الحجرة أيما شخص آخر غير اليهودي العجوز الذي كان يغلي بعض القهوة في قُديرة ذات مقبض لتناولها مع

(*) يقصد إلى أحد الفرش المصنوعة من أكياس الدقيق وقد سبقت الإشارة إليها في هذا الفصل. (المعرب)

الفطور، ويصفر بينه وبين نفسه في رقة فيما كان يحرِّك القهوة على نحو شبه موصول، بملعقة حديدية. وبين الفينة والفينة كان يصغي كلما انبعث من الدور الأرضي أيما صوت ولو خافتاً إلى أبعد حد. حتى إذا اطمأنت نفسه عاد سيرته الأولى، فهو يصفِر ويحرك القهوة كشأنه من قبل.

وعلى الرغم من أن أوليفر كان قد أيقظ نفسه من الرقاد فإنه لم يكن يقظان مئة بالمئة. إن ثمة حالة وسْنَى، هي منزلةٌ متوسطة بين النوم واليقظة، حالةٌ يحلم فيها المرء خلال خمس دقائق وعيناه نصف مفتوحتين ونفسُه نصف واعية يحلم بكلّ ما يجري حوله، أكثر مما يحلم في خمس ليال وعيناه مغمضتان في إحكام وحواسه ملتحفة بلا وعي كامل. وفي لحظات كهذه يدرك المخلوق البشري مقداراً مما يفعله عقله كافياً في غير ما زيادة ولا نقصان لكي يكوّن فكرة باهتة عن قوى ذلك العقل الجبارة، وطريقته في الوثوب من الأرض وازدرائه الزمان والمكان عندما يتحرر من قيود رفيقه الجسدي.

لقد كان أوليفر في هذه الحال على وجه الضبط. لقد رأى اليهوديّ بعينيه نصف المغمضتين، وسمع صفيره الخفيض، وعرف صوت الملعقة وهي تصرّ في احتكاكها بجوانب القُديرة ذات المقبض. ومع ذلك فقد كانت تلك الحواس نفسها مستغرقة عقلياً ـ في الوقت ذاته ـ في شغل شاغل مع كل من قُدّر له أن يعرفه تقريباً.

حتى إذا أنجز اليهودي مهمته دفع القديرة ذات المقبض إلى رف الموقد. وبعد أن وقف بضع دقائق في وضع متردد وكأنه لم يَدْرِ بأي شيء يشْغُل نفسه استدار ونظر إلى أوليفر، وناداه باسمه. ولم يجب أوليفر. لقد كان ـ على ما يُستدل من المظاهر كلها ـ مستسلماً للرقاد.

حتى إذا اطمأن اليهودي من هذه الناحية تقدّم، في رفق، نحو الباب وأغلقهُ بالمزلاج. ثم إنه أخرج من مخبأ في أرض الحجرة ـ على ما بدا لأوليفر ـ صندوقاً صغيراً ووضعه، في كثير من التلطُّف، على الطاولة. والتمعت عيناه وهو يرفع الغطاء، وأنشأ يحدق إلى محتويات الصندوق

الصغير حتى إذا جرّ إلى الطاولة كرسياً عتيقاً، استوى جالساً وأخرج من بينها ساعة ذهبية رائعة تتألق بالحجارة الكريمة.

وقال اليهودي، وهو يهز كتفيه ويشوِّه كل قسمة من قسمات وجهه بابتسامة عريضة مروّعة: «آها! يا للكلاب الماكرين! يا للكلاب الماكرين! لقد حفظوا السرّ حتى النهاية. فهم لم يخبروا القسيس العجوز أين كانوا قط. إنهم لم يفضحوا فاجين العجوز ولم يكشفوا أمره للشرطة! وما الذي يدعوهم إلى فضحه والوشاية به؟ إنهم لو فعلوا لما حلّ ذلك العقدة أو أخَّر المشنقة دقيقة واحدة. لا، لا! يا لهم من فِتية رائعين! يا لهم من فتية رائعين!»

بهذه وبغيرها من الخواطر المماثلة غمغم اليهودي وأعاد الساعة إلى حرزها الحريز. ثم إنه أخرج من الصندوق نفسه نصف دزينة أخرى من الساعات، على الأقل، واحدة أثر واحدة، وراح يتأملها في حبور، بالإضافة إلى عدد من الخواتم، ودبابيس الصدر المرضعة، والأساور ومن المجوهرات الأخرى ذات المواد النفيسة والصياغة الغالية التي لم تكن لأوليفر فكرة حتى عن أسمائها.

حتى إذا أعاد اليهودي هذه الحلى إلى موضعها أخرج حلية أخرى كانت من الصِغر بحيث استقرت في راحة يده. لقد بدا وكأن عليه نقشاً بالغ الدقة، ذلك بأن اليهودي بسطها على الطاولة ثم ظلَّلها بيده وأنشأ ينعم النظر إليها في اهتمام بالغ. إنعاماً متطاولاً، وأخيراً أعادها إلى الصندوق وكأنه يئس من النجاح. وغمغم وهو يسترخي في كرسيه:

ـ «ما أروع عقوبة الإعدام! إن الأموات لا يتوبون. الأموات لا يكشفون الغطاء عن القصص الشائنة. آه! يا لها من اختراع هو في مصلحة صناعتنا! لقد شُنِق خمسة منهم صَفاً واحداً، فلم يبقَ أحد ليخون، لينقلب إلى جبان مخلوع الفؤاد!»

وفيما اليهودي ينطق بهذه الكلمات وقعت عيناه السوداوان اللامعتان اللتان كانتا تحدقان أمامه على نحو ذاهل. . . أقول وقعت عيناه على وجه

أوليفر. كانت عينا الغلام مسدَّدتين إلى عيني اليهودي في فضول أبكم. وعلى الرغم من أن نظراتهما لم تلتقِ إلا لحظة واحدة ـ إلا أقصر مدة يستطيع العقل أن يتصورها ـ فقد كان ذلك الالتقاء كافياً لإشعار الرجل العجوز أن أوليفر كان يراقبه. وهكذا أطبق غطاء الصندوق في جلبة داوية، ثم أمسك بسكين خبز كانت على الطاولة ونهض عن كرسيه في ضراوة. ومع هذا فقد كانت أوصاله ترتعد ارتعاداً شديداً، ذلك بأن أوليفر استطاع ـ حتى في غمرة من الرعب الذي استولى عليه ـ أن يلاحظ أن المدية كانت ترتعش في الهواء.

وقال اليهودي: «ما هذا! لماذا تراقبني؟ لماذا أفقت من نومك؟ ما الذي رأيته؟ تكلم، أيها الغلام! عجل... عجل... إذا شئت الاحتفاظ بحياتك!»

فأجابه أوليفر في وداعة: «لم يكن في وسعي أن أنام أكثر مما فعلت. وإذا كنت قد أزعجتك فإن ذلك يؤسفني أشد الأسف، يا سيدي.»

فقال اليهودي، مقطِّباً في وجه الغلام تقطيباً ضارياً: «أنت لم تكن مستيقظاً منذ ساعة، أليس كذلك؟»

فأجابه أوليفر: «لا، لا! أؤكد لك ذلك!»

ـ «أواثق أنت مما تقول؟» كذلك صاح اليهودي راشقاً الغلام بنظرة أشد ضراوة حتى من نظرته السابقة، متخذاً وضعاً مفعماً بالتهديد والوعيد.

فأجاب أوليفر في حماسة: «أقسم لك أني لم أكن مستيقظاً، يا سيدي. لا، لم أكن مستيقظاً، من غير ريب، يا سيدي.»

ـ «صه، صه، يا عزيزي!» كذلك قال اليهودي مصطنعاً سيماءه القديمة، على نحو مفاجئ، متلاعباً بمديته لحظة قبل أن يضعها على الطاولة، وكأنه يريد أن يوقع في نفس الغلام أنه لم يمسك بها إلا على سبيل العبث والمزاح. «طبعاً، أنا أعرف ذلك، يا عزيزي، لقد حاولت أن أروّعك، ليس غير. أنت غلام شجاع. ها! ها! أنت غلام شجاع، يا

أوليفر!» وفرك اليهودي يديه ضاحكاً في فتور، ولكنه ألقى على الصندوق، مع ذلك، نظرة قلقة.

وقال اليهودي واضعاً يده على الصندوق بعد صمت قصير: «هل رأيت أياً من هذه الأشياء البديعة، يا عزيزي؟»

فأجابه أوليفر: «نعم، يا سيدي.»

فقال اليهودي وقد شَحُب وجهه: «آه! إنها... إنها لي، يا أوليفر. هي ثروتي الصغيرة. إنها كل ما يتعيّن عليّ أن أعيش عليه، في شيخوختي. الناس يزعمون أني بخيل، يا عزيزي. بخيل ليس غير. هذا كل ما هناك.»

وتراءى لأوليفر أن الرجل العجوز لا بد أن يكون بخيلاً من البخلاء الأقحاح وإلا لما أقام في مثل هذا المأوى القذر، على حين أنه يملك هذه الساعات كلها. ولكنه قال في ما بينه وبين نفسه أن هيامه «بالمراوغ» وبالصبية الآخرين ربما كلفه مقداراً من المال كبيراً، ومن ثم اجترأ بأن ألقى على اليهودي نظرة ترشح بالاحترام، وسأله إذا كان في إمكانه أن ينهض من فراشه.

فأجابه السيد العجوز: «طبعاً، يا عزيزي، طبعاً. على رسلك. هناك جرة ماء في الزاوية، على مقربة من الباب. ايتِ بها إلى هنا. ولسوف أعطيك طستاً لتغسل وجهك، يا عزيزي.»

ونهض أوليفر، ومشى عبر الحجرة، وانحنى لحظة لكي يرفع الجرة. حتى إذا التفت مستديراً كان الصندوق قد ولّى.

ولم يكد يغسل وجهه ويرتّب كل شيء، بإفراغ الطست من خلال النافذة، وفقاً لأوامر اليهودي وتوجيهاته، حتى رجع «المراوغ» يصحبه صديق طريّ العود شديد المرح كان أوليفر قد رآه يدخن في الليلة البارحة... صديقٌ قدِّم إليه، الآن، رسمياً، بوصفه تشارلي بايتس. وجلس الأربعة لتناول طعام الإفطار، وكان مؤلفاً من قهوة ومن بضعة

أرغفة حارة وقليل من لحم فخذ الخنزير المملَّح كان «المراوغ» قد حملها إليهم في قعر قبعته.

وقال اليهودي، ملقياً على أوليفر نظرة خبيثة، وموجهاً الخطاب في الوقت نفسه إلى المراوغ: «حسناً، أرجو أن تكونا قد انصرفتما للعمل في هذا الصباح، يا عزيزيَّ؟»

فأجاب «المراوغ»: «بنشاط عظيم.»

وأضاف تشارلي بايتس: «وكأننا مسامير لا تعرف التعب.»

فقال اليهودي: «يا لكما من غلامين طيبين! يا لكما من غلامين طيبين! بأي صَيْد عدت اليوم، أيها المراوغ؟»

فأجابه الفتى: «بمحفظتين.»

فتساءل اليهودي في لهفة: «محشوَّتين؟»

ـ «حشواً لا بأس به.» وأخرج من جيبه محفظتين، إحداهما خضراء والأخرى حمراء.

فقال اليهودي بعد أن نظر في اهتمام إلى جوفيهما: «لقد كان في إمكانهما أن تكونا أثقل من ذلك. ولكنهما أنيقتان بديعتا الصنع. إن صانعهما فنان بارع، أليس كذلك يا أوليفر؟»

فأجاب أوليفر: «بارع جداً، من غير ريب، يا سيدي.»

وهنا أطلق مستر تشارلز بايتس ضحكة هادرة أثارت دهشاً بالغاً في نفس أوليفر، الذي لم يجد في كل ما جرى أيما شيء يستدعي الضحك.

وقال فاجين لتشارلي بايتس: «وأنت بما عدت، يا عزيزي؟»

فأجاب المعلِّم بايتس: «بمحارم» وأخرج من جيبه أربعة مناديل.

فقال اليهودي وهو يتأملها عن كثب: «حسن. إنها مناديل جيدة. جيدة جداً. ولكنك لم تُجِد تطريزها، يا تشارلي. وهكذا فإن هذه السِمات المطرَّزة يجب أن تُنْزع بإبرة، ولسوف نعلِّم أوليفر كيف يقوم بذلك. هل نعلِّمك ذلك، يا أوليفر؟ ها! ها! ها!»

فقال أوليفر: «إذا راق لك ذلك، يا سيدي.»

فقال اليهودي: «أتحبّ أن تعمل المناديل بمثل السهولة التي يعملها بها تشارلي بايتس، ألست تريد ذلك، يا عزيزي؟»

فأجابه أوليفر: «حباً كثيراً، من غير ريب، إذا شئت أن تعلِّمني ذلك.»

ووجد المعلِّم بايتس في هذا الجواب شيئاً فكاهياً على نحو رائع إلى حدّ جعله ينفجر في ضحكة جديدة. والتقت هذه الضحكة بالقهوة التي كان يحتسيها، فأنزلتها في قناة مغلوطة فكادت أن تنتهي به إلى الاختناق قبل الأوان.

ـ «يا له من ساذج خفيف الروح إلى حد بعيد!» قال تشارلي ذلك عندما استردّ أنفاسه، على سبيل الاعتذار للجماعة عن سلوكه غير المهذب.

ولم يقل «المراوغ» شيئاً، ولكنه ملَّس شعر أوليفر فوق عينيه، وقال إن الأيام سوف تكسبه حكمة وبراعة، على نحو تدريجي. وإذ لاحظ السيد العجوز أن الدم قد شاع في وجه أوليفر، عمد إلى تغيير الموضوع بأن سأل هل شهد تنفيذ الإعدام، ذلك الصباح، خلقٌ كثير. وضاعف هذا من دهشِ أوليفر، إذ اتضح له من أجوبة الغلامين أنهما كليهما شهدا حفلة الإعدام، وعجب أوليفر، بحكم الطبع، كيف استطاعا أن يجدا متسعاً من الوقت للقيام بهذه الأعمال كلها.

وعندما فرغوا من تناول طعام الصباح راح العجوز المرح والغلامان يلعبان لعبة غريبة جداً، استثنائية جداً. وإنما جرت تلك اللعبة على هذا النحو: لقد وضع العجوز المرح علبة سعوط في أحد جيبَيْ بنطاله، ومحفظة نقود في الأخرى، وأقحم في جيب صدرته ساعة ذات سلسلة تطوّق عنقه، وغرز في صدر قميصه دبوساً ماسياً زائفاً، وزرّر سترته تزريراً محكماً ووضع علبة نظارتيه ومنديله في جيبيه، وأنشأ يذرع الحجرة جيئة وذهاباً، محاكياً في ذلك الطريقة التي يستعملها الطاعنون في السن حين

يمشون في الشوارع في أيما ساعة من ساعات اليوم. لقد توقَّف عند المستوقد حيناً، وعند الباب حيناً، متظاهراً بأنه كان يحدِّق بأقصى قدرته على الإبصار إلى واجهات الدكاكين. وفي مثل هذه الأحوال كان يجيل الطرف في ما حوله، على نحو موصول، حذراً من اللصوص، ولا يكفّ عن التربيت على جيوبه جميعاً، بالتتابع، لكي يستيقن أنها لم تفقد شيئاً من محتوياتها، وذلك على نحو مضحك جداً وطبيعي جداً إلى حدّ أغرى أوليفر بالضحك حتى لقد تحدرت العبرات على خديه. وخلال هذا كله كان الغلامان يتبعانه حيثما اتجه، متواريين عن بصره، في رشاقة بالغة، كلما التفت واستدار بحيث كان يتعذر على المرء أن يتعقب حركاتهما، وأخيراً داس «المراوغ» على قدميه، أو تعثَّر بحذائه، بينا صدمه تشارلي بايتس ـ مصادفة ـ من الخلف. وفي تلك اللحظة بالذات سلباه بأقصى سرعة ممكنة علبة السعوط، ومحفظة الأوراق النقدية، والساعة، والسلسلة. ودبوس الصدر، والمنديل. وحتى علبة النظارات نفسها. وكلما اتفق للسيد العجوز أن يضع إحدى يديه في جيب من جيوبه انطلقت من بين شفتيه صيحة ذعر. ومن ثم كانت اللعبة تُستأنف من أولها.

حتى إذا كُرِّرت اللعبةُ مرات عديدة وفدت على السادة الشبان سيدتان شابتان، إحداهما تدعى «بَتْ» والأخرى تدعى «نانسي». كان لكل منهما شعر غزير ردَّته رداً مشوَّشاً إلى الوراء، وكانت ترتدي جورباً وتنتعل حذاء تعوزهما الأناقة والترتيب. ولعلهما لم تكونا وسيمتين بمعنى الوسامة المألوف، ولكن دم الشباب كان يضرّج وجنتيهما، وكانتا تبدوان لعين الناظر قويَتي البنية موفورتَيْ العافية. وإذ كانت حركتهما تتسم بالطلاقة والعذوبة إلى حد يلفت الانتباه فقد خُيِّل لأوليفر أنهما فتاتان جدّ لطيفتين حقاً. ولقد كانتا كذلك من غير ريب.

وتطاول مُقام هاتين الوافدتين. وجيء بشيء من الخمر بعد أن تشكَّتْ إحدى السيدتين الشابتين برداً، واتخذ الحديث وجهة بهيجة جداً، فيها عظة وعبرة. وأخيراً أعلن تشارلي بايتس عن اعتقاده بأن الأوان قد حان

لخبط الأرض بالحوافر. وبدا لأوليفر أن هذا التعبير لا بدَّ أن يكون هو الاصطلاح الفرنسي للانطلاق والرحيل. إذ لم تكد تنقضي لحظات معدودات حتى غادر «المراوغ» وتشارلي والسيدتان الشابتان الحجرة معاً، بعد أن تكرّم اليهودي العجوز الحبيب إلى النفس فزوَّدهم بشيء من المال ينفقونه.

وقال فاجين: «أرأيت، يا عزيزي. إنها حياة عذبة، أليس كذلك؟ لقد مضوا لقضاء ساعات النهار في النزهة والمرح.»

فتساءل أوليفر: «هل فرغوا من أعمالهم، يا سيدي؟»

فقال اليهودي: «نعم. أعني إذا عَرض لهم، خلال وجودهم خارج الدار، عمل جديد، فهُم لن يتوانوا ـ في مثل هذه الحال ـ عن أدائه. باستطاعتك أن تكون على ثقة من ذلك. اتخِذْ منهم قدوة تحتذيها، يا عزيزي. اتخذ منهم قدوة تحتذيها،» وضرب الموقد بمجرفة النار ليضيف إلى كلماته قوة على قوة، «افعَلْ كل ما يأمرونك بفعله، واقبل نصيحتهم في جميع الشؤون ـ وبخاصة نصيحة «المراوغ»، يا عزيزي، إنه هو نفسه سوف يصبح رجلاً عظيماً، ولسوف يجعل منك رجلاً عظيماً أيضاً إذا ضربت على غراره. هل يتدلى منديلي من جيبي يا عزيزي؟» قال اليهودي ذلك وكفّ عن الكلام فجأة.

فأجاب أوليفر: «نعم، يا سيدي.»

ـ «حاول أن تنشله من غير أن أحسّ بذلك، كما رأيتَهم يفعلون عندما كنا نلعب هذا الصباح.»

وأمسك أوليفر بأدنى الجيب بإحدى يديه، كما سبق له أن رأى «المراوغ» يفعل، وباليد الأخرى سحب المنديل منها في خفة ورشاقة.

وصاح اليهودي: «هل اختفى؟»

فقال أوليفر وهو يريه إياه في يده: «ها هو ذا، يا سيدي.»

ـ «أنت غلام بارع، يا عزيزي.» كذلك قال العجوز المولع بالمزاح،

مربتاً على رأس أوليفر إشارة الرضا والاستحسان. «أنا لم أرَ غلاماً أبرع منك قط. دونك هذا الشلن. إنك إذا واصلت التقدم، على هذا النحو، أصبحت أعظم رجال العصر قاطبة. والآن، تعال، ولسوف أريك كيف تنزع السِّمات عن المناديل.»

وتساءل أوليفر عن العلاقة بين نشل جيب السيد العجوز على سبيل المزاح وبين إمكانية صيرورته رجلاً عظيماً. ولكنه ـ وقد حَسِب أن اليهودي، بوصفه أكبر منه سناً بكثير، لا بدَّ أن يكون أوسع منه علماً ـ سرعان ما تبع اليهودي، في هدوء، إلى المائدة حيث استغرق في دراساته الجديدة.

الفصل العاشر

أوليفر يتعرف تعرفاً أفضل إلى أخلاق رفاقه الجدد، ويشتري الخبرة بثمن غال. إن هذا الفصل سوف يكون قصيراً ولكنه هام جداً بالنسبة إلى هذه القصة.

وطوال أيام عديدة لزم أوليفر حجرة اليهودي ينزع السِّمات المطرّزة عن مناديل الجيب (وقد حُمِل عدد كبير منها إلى تلك الدار)، ويشارك أحياناً في اللعبة التي وصفناها آنفاً: تلك اللعبة التي كان الغلامان واليهودي يلعبونها كل صباح في غير ما انقطاع. وأخيراً أخذ يتوق إلى الهواء الطلق، واغتنم فرصاً كثيرة للتضرع إلى السيد العجوز، في لهفة بالغة، أن يجيز له مغادرة الدار والعمل مع رفيقيه.

وكان الذي جعل أوليفر أشدّ حرصاً على المشاركة في العمل على نحو فعال ما رآه من أخلاقية السيد العجوز المتجهمة. فما يكاد «المراوغ» أو تشارلي بايتس يرجع إلى البيت، صفر اليدين، حتى يُسهب اليهودي في الكلام، في حدَّة بالغة، على بؤس أولئك الذين يغلب عليهم التواني والكسل، وحتى يُشعر الغلامين ضرورة الحياة الناشطة الفعالة يفرض

عليهم المبيت على الطوى. والواقع أنه ذهب في إحدى المناسبات إلى حد دحرجتهما معاً على جزء من السلم. ولكن هذا التطبيق لمعتقداته الفاضلة كان استثنائياً ومغالى فيه.

وأخيراً، وفِّق أوليفر، ذات صباح، إلى الفوز بالإذن الذي طالما التمسه في لهفة بالغة. كان يومان أو ثلاثة أيام قد تصرّما من غير أن تُحمل إلى البيت أية مناديل يستطيع أوليفر أن يشغل نفسه بها، وكان طعام العشاء قد أمسى هزيلاً بعض الشيء. ولعل هاتين الواقعتين هما اللتان حملتا السيد العجوز على الموافقة. وسواء أصحَّ هذا أم لم يصحّ فقد قال لأوليفر إن في إمكانه أن يذهب ووضعَهُ تحت وصاية تشارلي بايتس وصديقه «المراوغ» المشتركة.

وانطلق الغلمان الثلاثة. كان «المراوغ» مشمِّراً عن ساعديه، رافعاً حواشي قبعته كالعادة. وكان المعلم بايتس يتهادى واضعاً يديه في جيبيه. وأوليفر يمشي بينهما، متسائلاً إلى أين كانوا يمضون، وبأيّ فرع من فروع الصناعة سوف يُبَصَّر بادئ الأمر.

وكانت خطاهم كَسْلى متوانية مُرِيبة إلى حد أوقع في نفس أوليفر، أن رفاقه يعتزمون أن يخدعوا السيد العجوز بالإحجام عن أداء ما كُلِّفوا به من عمل. وإلى هذا فقد أبدى «المراوغ» نزوعاً شريراً إلى نزع القلانس عن رؤوس الصِبية الصغار والقذف بها إلى أفنية البيوت. في حين تكشَّف تشارلي بايتس عن فهم مشوّه لحقوق المِلْكية من طريق سرقته التفاح والبصل من «البَسْطات» المفروشة على جانبي البيوت الحقيرة وإقحامها في جيوب مدهشة السعة إلى حد بدت معه وكأنها تزرع ألغاماً تحت كل جانب من جوانب بذلته كلها. وبدت هذه الأشياء رديئة إلى حد أثار قلق أوليفر إثارة بالغة حتى لقد كاد يعلن عن عزمه على العودة من حيث أتى، بأسرع ما تمكِّنه ساقاه من ذلك. ولكن أفكاره ما لبثت أن وجِّهت وجهة أخرى بفضل تغيُّر موغل في الغموض طرأ على سلوك «المراوغ».

وتفصيل ذلك أنهم ما كادوا يبرزون من عطفة ضيقة غير بعيدة عن

ساحة كلير كينويل التي لا تزال تدعى إلى اليوم، بضرب من تشويه المصطلحات غريب، «المرج»، حتى كفَّ «المراوغ» عن السير على نحو مفاجئ، وردَّ رفيقيه على أعقابهما ـ واضعاً إصبعه على شفتيه ـ بأقصى الحذر والاحتراس.

وتساءل أوليفر: «ما المسألة؟»

فأجابه «المراوغ»: «هل ترى ذلك الشخص العجوز الواقف أمام الكشك الخاص ببيع الكتب؟»

فقال أوليفر: «السيد العجوز الواقف على الجانب الآخر من الشارع؟ نعم. إني أراه.»

فقال «المراوغ»: «إنه موضوع صالح.»

ولاحظ المعلم تشارلي بايتس: «إنه صيدٌ من الطراز الأول.»

ونقَّل أوليفر طرْفه من «المراوغ» إلى تشارلي ومن تشارلي إلى «المراوغ»، وقد استبدَّ به أعظم الدهش، ولكنهما لم يجيزا له أن يطرح أيّ سؤال. ذلك بأن الغلامين عبرا الطريق خلسة وانسلا حتى أمسيا خلف السيد العجوز، مباشرة، بعد أن لفتا إليه نظر أوليفر. ومشى أوليفر في أثرهما بضع خطوات، وإذ لم يدرِ أيتعيَّن عليه أن يتقدم أو يتأخر فقد وقف في مكانه لا يتحرك وأنشأ ينظر إليهما في انشداه صامت.

كان السيد العجوز شخصية تبدو عليه سيماء المهابة والوقار، ذا شعر نُضِح بالذرور ونظارتين ذهبيتين. كان يرتدي سترة خضراء غامقة ذات طوق مخملي أسود، وبنطالاً أبيض، ويتأبط عصا خيزرانية أنيقة. وكان قد تناول من الكشك كتاباً، ووقف يقرأ في استغراق وجِدّ وكأنه جالس على كرسيه ذي الذراعين في مكتبه الخاص. ومن يدري، فلعله أن يكون قد توهم نفسه هناك. إذا كان واضحاً، من استغراقه البالغ، أنه لم يكن يرى لا الكشك ولا الشارع ولا الغلمان... إنه، بكلمة موجزة، لم يكن يرى غير الكتاب نفسه: وكان يقرأه قراءة موصولة، قالباً الصفحة كلما انتهى إلى

آخر سطورها متابعاً التلاوة ابتداء من أول سطر في الصفحة التالية، مواظباً على ذلك في غير انقطاع، وبأعظم قدْر من الشوق واللهفة.

ما كان أعظم الرعب والذعر اللذين استبدا بأوليفر فيما كان يقف على مبعدة خطى معدودات، فاتحاً أجفانه أوسع ما استطاع أن يفتحهما، ليرى إلى «المراوغ» يقحم يده في جيب السيد العجوز وينشل منها منديلاً، وليرى إليه يدفع هذا المنديل إلى تشارلي بايتس، وليراهما معاً، آخر الأمر، يطلقان سيقانهما للريح، متواريين خلف المنعطف!

وبأسرع من لمح البصر أطبق سرّ المناديل، والساعات، والمجوهرات كلها، بل سر اليهودي نفسه، على ذهن الغلام. ووقف، لحظة، والدم يغلي في عروقه من الرعب حتى لقد استشعر وكأنه يشوى بنار موقدة. ثم إنه أطلق ساقيه للريح، وقد غلب عليه الاضطراب والخوف. وإذ لم يدرِ ما يتعيَّن عليه أن يفعله فقد لاذ بالفرار بأسرع ما حملته قدماه.

ولم يستغرق ذلك كله غير دقيقة واحدة. وفي اللحظة نفسها التي عمد فيها أوليفر إلى الهرب افتقد السيد العجوز منديله في جيبه، حتى إذا لم يجده استدار فجأة، فلمح الغلام وهو ينطلق بمثل تلك السرعة البالغة، فاستنتج بحكم الطبع أنه هو السالب المُغِير، وراح يصيح بأعلى صوته «أوقفوا اللص!» وقد اندفع يجري في أثره، والكتاب في يده.

ولكن السيد العجوز لم يكن الشخص الوحيد الذي أطلق صيحة المطاردة. ذلك بأن «المراوغ» والمعلم بايتس كانا قد اكتفيا ـ رغبة منهما في أن لا يلفتا انتباه الجمهور بالركض في الشارع العام ـ بمجرد الانسحاب إلى أول مدخل وقعت عليه أعينهما عند زاوية الشارع. فلم يكادا يسمعان الصيحة ويريان أوليفر مولياً فراراً حتى أدركا الوضع على وجه الضبط فانبثقا من مخبئهما في خفة عظيمة وراحا يصيحان «أوقفوا اللص!» مشترِكَيْن في الطِّراد مثل المواطنين الصالحين.

وعلى الرغم من أن أوليفر كان قد نُشِّئ على أيدي فلاسفة فإنه لم يكن مُلماً، من الوجهة النظرية، بالحقيقة المقررة الجميلة التي تقول بأن

حفظ الذات هو قانون الطبيعة الأول. ولو قد كان مُلِمّاً بتلك الحقيقة إذن لكان من الجائز أن يأخذ الأهبة لهذا الأمر. والواقع أن عدم استعداده هذا قد زاده ذعراً على ذعر، وهكذا انطلق انطلاق الريح، والسيدُ العجوزُ والغلامان يهدرون خلفه ويصيحون.»

ـ «أوقفوا اللص! أوقفوا اللص!» إن ثمة لسحراً في هذه الصيحة. فإذا بالتاجر يغادر منضدته، والحوذيّ عربتَهُ، وإذا بالجزار يطرح صينيته أرضاً، وبالخباز ينبذ سلَّته، والحلاّب دلوه، والساعي رُزمَهُ، والتلميذ كُراتِهِ، وراصف الشوارع مِعْوله، والطفل مِضْربه الخاص بلعب الكرة، إنهم يهرعون وقد اختلط حابلهم بنابلهم وأخذوا يخبطون خبط عشواء، مهتاجين، صائحين، صارخين، صارعين عابري السبيل وهم ينعطفون حول الزوايا، مثيرين الكلاب، مذهلين الدجاج، وأن الشوارع والساحات والأفنية لترجِّع صدى أصواتهم.

ـ «أوقفوا اللص! أوقفوا اللص!» وتتلقَّف الصيحة مئاتُ الأصوات وتكرِّرُها، ويتعاظم الحشد عند كل عطفة. ويغذّون السير، مخوّضين في الوحل، مطقطقين بأحذيتهم على الأرصفة: وترتفع مصاريع النوافذ إلى فوق، ويندفع الناس إلى الخارج، وتزحف الغوغاء إلى الأمام، وتهجر النظارة مسرحية الدمى الموسومة باسم «بانتش» والعقدةُ في أوج احتباكها، وينضمّ أفرادها كلهم إلى الحشد المندفع، فيضخِّمون الصراخ، وينفخون في الصيحة عزماً جديداً: «أوقفوا اللص! أوقفوا اللص!»

ـ «أوقفوا اللص! أوقفوا اللص! إن ثمة في أعماق الصدر البشري رغبة في المطاردة، في مطاردة أيّ شيء مهما يكن. طفل مسكين متقطِّع الأنفاس، لاهث من أثر الإجهاد، مروّع السِّمات، راشح العينين بالألم المرير، مبلل الوجه بحبات عَرق كبيرة ليُجْهِدُ كل عصب من أعصابه للنجاة من مطارديه. وفيما هم يتعقبونه، مقتربين منه كل لحظة، يمطرون قوّته المتناقصة بصيحات أعلى، ويهتفون ويصرخون في ابتهاج: «أوقفوا اللص! أجل، أوقفوه إكراماً للَّه، أوقفوه رحمة بنا على الأقل!»

وأخيراً أوقفوه! فقد كانت الضربة بارعة. لقد خرّ على الرصيف صريعاً، ويتحلق الحشد حوله في اهتياج. ويتدافع الوافدون الجدد بالمناكب ويتشاجرون لكي يلقوا عليه نظرة. «قفوا جانباً!»، «دعوه يأخذ قليلاً من الهواء. .!» «هراء! إنه لا يستحق ذلك!»، «أين السيد الماجد؟»، «ها هو ذا، لقد وصل.»، «أفسحوا مجالاً للسيد الماجد!»، «أهذا هو الغلام، يا سيدي؟»، «نعم.»

وكان أوليفر طريح الأرض، يكسوه الوحل والغبار، ويقطر الدم من فمه، ويجيل الطرف على نحو شارد في ركام الوجوه المحدقة به، عندما عمد قادة المطاردة ـ في لهفة متطفلة لتقديم خدماتهم ـ إلى جر السيد العجوز ودفعه إلى وسط الحلقة.

وقال السيد الماجد: «نعم. هذا هو الغلام، في ما أحسب.»

فغمغم الحشد: «في ما يحسب. هذه نادرة ظريفة!»

وأضاف السيد الماجد: «يا له من غلام مسكين! لقد جرح نفسه.»

فقال فتى ضخمٌ مكسالٌ وهو يخطو إلى أمام: «أنا الذي جرحته، يا سيدي، ولقد دفعت غالياً ثمن ذلك فجُرِحَتْ مفاصل أصابعي عندما صدمت فمه. إني أنا الذي أوقفته، يا سيدي.»

ومسَّ الفتى قبعته في ابتسامة عريضة، متوقعاً أن يُثاب على ما بذل من جهد بمكافأة ما. ولكن السيد العجوز حدجه بنظرة ترشح بالبغض، ثم أجال بصره في ما حوله بقلق بالغ وكأنه كان يفكِّر هو الآخر في إطلاق ساقيه للريح، وهو عمل كان من الجائز جداً أن يكون قد حاول القيام به، متيحاً للقوم فرصة التمتع بمطاردة أخرى، لو لم يتقدم في تلك اللحظة بالذات ضابط شرطة (وهو آخر من يصل، عادة، في مثل هذه الأحوال) ويشق طريقه وسط الحشد، ويأخذ بخناق أوليفر.

وقال هذا الرجل في جلافة: «هيا، انهض!»

ـ «لست أنا يا سيدي. . . لست أنا يا سيدي، صدّقني! صدقني!

إنهما غلامان آخران،» قال أوليفر ذلك، شابكاً يديه في انفعال بالغ، مجيلاً الطرف في ما حوله. «وهما هنا في مكان ما.»

فقال الضابط: «أوه، لا، إنهما ليسا هنا.» لقد أراد لهذه الملاحظة أن تكون تهكمية، ولكنها كانت ـ بالإضافة إلى هذا ـ صحيحة. ذلك بأن «المراوغ» وتشارلي بايتس كانا قد انسلاّ هابطين أول فِناء ملائم عَرض لهما. «هيا، انهض!»

وقال السيد العجوز، في حنان: «لا تؤذوه!»

ـ «أوه، لا، أنا لا أؤذيه!» كذلك أجاب الضابط، وهو يكاد ينتزع سترته عن ظهره، إثباتاً لكلامه. «هيَّا، أنا أعرفك. هذا لن يفيدك. هل تنوي أن تقف على رجليك، أيها العفريت الصغير؟»

وبذل أوليفر ـ الذي ما كان قادراً على النهوض إلا بشق النفس ـ غاية جهده للوقوف على قدميه، ومن ثم سِيْق في الحال، من طوق سترته، وفي خطى واسعة، خلال الشوارع. ومشى السيد الماجد مع القوم، إلى جانب الضابط. وتقدم الموكب بعض الشيء كلُّ من وُفِّق إلى ذلك من أفراد الحشد لكي يلتفت للوراء ويحدق إلى أوليفر بين حين وآخر. وصاح الصِبْية صيحة الانتصار، وواصل الموكب زحفه.

الفصل الحادي عشر

وفيه كلام عن مستر فانغ، قاضي التحقيق، ونموذج صغير من طريقته في إقامة العدل

كانت الجريمة قد ارتُكِبت ضمن المنطقة التابعة لسلطان قاضي تحقيق لندنيّ سيئ السمعة إلى حد بعيد، بل على مقربة مباشرة من ذلك القاضي. ولم يكن الحشد قد استمتع بأكثر من مواكبة أوليفر خلال شارعين أو ثلاثة شوارع ومن الهبوط معه موضعاً يدعى «موتون هيل» عندما أدخِل الغلام

المسكين، تحت قنطرة خفيضة ومروراً بزقاق قذر، إلى مستوصَف قاضي الأمور المستعجلة، من طريق المدخل الخلفي. وكان الفِناء الذي انعطفوا نحوه فِناء صغيراً معبَّداً، وهناك وجدوا رجلاً ضخماً على جانبَيْ وجهه قبضة من شعر، وفي يده قبضةٌ من مفاتيح.

وقال الرجل في لامبالاة: «ما المسألة؟»

فأجاب الرجل الذي ألقى القبض على أوليفر: «صيَّاد صغير من صيادي المناديل الحريرية.»

وتساءل الرجل ذو المفاتيح: «هل أنت المسروق، يا سيدي؟»

فأجاب السيد العجوز: «نعم. ولكني لست واثقاً من أن هذا الغلام هو الذي أخذ المنديل فعلاً. وإني... وإني لأوثر حفظ القضية.»

فأجابه الرجل: «عليه أن يَمْثُل الآن بين يديْ القاضي، يا سيدي. إن فضيلته سوف يفرغ له بعد نصف دقيقة، هيَّا، أيها الصغير المستحق حبل المشنقة!»

وكانت هذه دعوة لأوليفر لكي يدخل إلى زنزانة مبلَّطة من طريق باب أغلقه الرجل وهو يتكلم. وهنا فُتِّش. وإذ لم يجدوا معه شيئاً فقد عمدوا إلى احتجازه.

كانت هذه الزنزانة أشبه ما تكون، في شكلها وحجمها، بقبو من أقبية الأفنية المحيطة بالمنازل، ولكنها أشدّ منه قتاماً. وكانت قذرة إلى حد لا يُطاق البتة، إذ كان ذلك اليوم هو يوم الاثنين، وكان قد نزلها ستةٌ من السكارى حُبسوا في مكان آخر منذ ليل السبت. ولكن هذا ليس بشيء أيضاً. ففي مخافر شرطتنا يسجن كل ليلة رجالٌ ونساء لأوهى التهم ـ وهذه الكلمة جديرة بالملاحظة ـ في محابس مظلمة تُعْتبر زنزانات نيوغايت(*) ـ التي يحتلها أفظع المجرمين بعد أن يحاكموا ويُدانوا ويُحكم

(*) سجن شهير بُني في عهد الملك هنري الأول حوالى عام 1207. ولم يُهدم هذا السجن إلا عام 1902.(المعرب)

عليهم بالموت ـ إذا قورنت بها، قصوراً باذخة، وليس على من يشك في قولي إلا أن يقارن ما بين هذه وتلك.

وبدا السيد العجوز مغتماً، كاغتمام أوليفر تقريباً، عندما صرّ المفتاح في القفل. وارتدَّ متنهداً إلى كتابه الذي كان، من غير أن يحتسب، سبب هذا البلاء كله.

ـ «إن ثمة شيئاً في وجه ذلك الغلام!» كذلك قال السيد العجوز في ما بينه وبين نفسه وهو يمشي الهُوينا، مُربِّتاً على ذقنه بغلاف الكتاب، بطريقة مستغرقة في التفكير. «شيئاً يعطف فؤادي ويلفت اهتمامي. هل يمكن أن يكون بريئاً؟ إنه يبدو كذلك. وبالمناسبة...»، وهنا هتف السيد العجوز وقد كفَّ عن السير فجأة وأنشأ يحدث السماء، «يا إلهي! أين رأيت شيئاً مثل هذه الطلعة من قبل؟»

وبعد استغراق في التفكير طوال بضع دقائق تقدّم السيد العجوز، وعلى وجهه تلك السيماء التأملية نفسها، نحو حجرة انتظار خلفية تطلّ على الفِناء. وهناك انتحى زاوية وراح يستحضر أمام عينَيْ عقله جمهرة هائلة من الوجوه التي أسدِل عليها طوال سنوات عديدة ستارٌ من الظلمات. ثم إنه قال وهو يهز رأسه: «لا. ليس من ريب في أن ذلك مجرد وهم.»

وطوَّف في ما بينها مرّة أخرى. كان قد استحضرها في ذاكرته، ولم يكن من اليسير عليه أن يعاود نشر الغطاء الذي حجبها طوال تلك المدة كلها، كانت هناك وجوه أصدقاء، وأعداء، وكثيرين ممن كانوا أغراباً، تقريباً، فهم يبرزون من بين الحشد على نحو متطفل. ووجوه فتيات طريَّات العود ناضرات أمسين الآن نسوة عجائز. ووجوه غيَّرها القبر وأطبق عليها ولكن العقل ـ وهو أشدّ من القبر قوة ـ كان لا يزال يضفي عليها نَضْرتها وجمالها القديمين، باعثاً التماع العينين، وبهاء الابتسامة، وإشراق الروح عبر قناعها الصلصالي، مغمغماً إنها جميلة وراء القبر، ولم تتغيَّر إلا لتُرفع ويُسْمَى بها، ولم تُنتَزع من الأرض إلا لتُجْعل مصابيح تسفح ضياء رقيقاً لطيفاً على السبيل المؤدية إلى الجنة.

ولكن السيد العجوز لم يستطع أن يستحضر وجهاً واحداً تحمل أسارير أوليفر أيَّ أثر منه. وهكذا تنهَّد متحسراً على الذكريات التي كان قد أيقظها. وإذ كان ـ لحسن طالعه ـ سيداً عجوزاً كثير الذهول فقد عاود دفن تلك الذكريات في صفحات الكتاب العفِن.

وأيقظته من استغراقه في التلاوة يدٌ مسَّت كتفه، ودعوة من الرجل ذي المفاتيح تطلب إليه أن يتبعه إلى المكتب. فسارع إلى طيّ كتابه ليَمْثُل على التوّ في حضرة مستر فانغ المهيبة.

كان المكتب قاعة أمامية ذات جدار مكسوٍّ بألواح خشبية. وكان مستر فانغ جالساً في أقصى القاعة الأعلى، خلف حاجز خشبي. وعند جانب من الباب قام ضربٌ من الزريبة الخشبية كان أوليفر المسكين قد أوقِف فيها، وقد أوقع هول المشهد في أوصاله رعدة مزلزلة.

كان مستر فانغ رجلاً مهزولاً، متطاول الصدر، متصلب العنق، متوسط القامة، خفيف الشعر. وكان ما يملكه من هذا الشعر نامياً على مؤخرة رأسه وجانبيه. أما وجهه فكان صارماً شديد التورّد. ولو لم يكن قد تعوَّد، فعلاً، أن يحتسي من الخمر أكثر بعض الشيء مما كان مناسباً له، إذن لكان خليقاً به أن يقيم دعوى على محيَّاه بتهمة التجديف، وإذن لعوّض عن كثير من الخسائر الباهظة.

وانحنى السيد العجوز في احترام، وتقدم نحو منضدة قاضي التحقيق، قائلاً وهو يُتبع الكلام بالعمل: «هوذا اسمي وعنواني، يا سيدي.» ثم إنه ارتدّ خطوة أو خطوتين إلى الوراء، وحنى رأسه مرّة أخرى في كياسة وتأدب، وانتظر ريثما يُسْتجوب.

واتفق أن كان مستر فانغ يطالع في تلك اللحظة، بكثير من الاهتمام، مقالة افتتاحية في إحدى صحف الصباح تعلِّق على أحد أحكامه الأخيرة، وتطري فضائله لافتة إليها، للمرة الخمسين بعد الثلاثمئة، أنظار وزير الداخلية وعنايته الخصوصية. كانت أعصابه متوترة، ولقد رفع رأسه ملقياً على الرجل نظرة غضبَى.

وقال مستر فانغ: «من أنت؟»

فأشار السيد العجوز، في شيء من الدهش، إلى بطاقته الشخصية.

فقال مستر فانغ، قاذفاً بالبطاقة وبالجريدة معاً في ازدراء: «أيها الضابط! مَنْ هذا الرجل؟»

فقال الرجل العجوز، متحدثاً كما يتحدث الرجل الفاضل: «أن اسمي، يا سيدي، هو براونلو. فاسمح لي أن أسأل عن اسم القاضي الذي يوجِّه، من غير ما استفزاز مسوِّغ، وتحت راية القضاء وحمايته، إهانة إلى مواطن محترم؟» قال مستر براونلو ذلك وأجال طرفه في المكتب وكأنه يبحث عن شخص يستطيع أن يجيبه عن سؤاله.

فقال مستر فانغ وهو ينحِّي الجريدة جانباً: «أيها الضابط! ما التهمة الموجّهة إلى هذا الرجل؟»

فأجابه الضابط: «إنه غير متهم بشيء البتة، يا صاحب الفضيلة. لقد أقبل ليدّعي على الغلام، يا صاحب الفضيلة.»

كان صاحب الفضيلة يعرف ذلك أحسن المعرفة، ولكن سؤاله ذاك كان ينطوي على مضايقة صالحة... ومأمونة أيضاً.

ـ «أقبل ليدعي على الغلام، أليس هذا صحيحاً؟» كذلك قال فانغ وهو يستعرض مستر براونلو، في ازدراء، من قمة الرأس إلى أخمص القدم. «حلِّفوه اليمين!»

فقال مستر براونلو: «قبل أن أحلَّف اليمين أرجو أن تأذن لي في كلمة أقولها. وهي أنه ما كان في طوقي أن أصدِّق البتة، لو لم اختبر ذلك فعلياً...»

فقاطعه مستر فانغ قائلاً في لهجة حاسمة: «اعْقِل لسانك!»

فأجابه السيد العجوز: «أنا لن أفعل، يا سيدي.»

فقال مستر فانغ: «اعقِلْ لسانك في هذه اللحظة، وإلا طردتك من المكتب. أنت شخص وقحٌ سليط. كيف تجرؤ على تهديد قاض من القضاة؟»

فصاح السيد العجوز والدم يشيع في وجهه: «ماذا؟!»

فقال مستر فانغ للكاتب: «حلِّف هذا الشخص اليمين. أنا لن أسمع أية كلمة أخرى. حلِّفه اليمين.»

كان حنق مستر براونلو قد استثير استثارة بالغة. ولكنه فكَّر في أغلب الظن أن إطلاقه العنان لحنقه هذا قد لا يفضي إلا إلى إيذاء الغلام والإضرار به، فعمد إلى كبت مشاعره وارتضى أن يُحَلَّف اليمين في الحال.

وقال فانغ: «والآن، ما التهمة الموجهة إلى هذا الغلام؟ ما الذي تريد أن تقوله، يا سيدي؟»

فاستهل مستر براونلو كلامه قائلاً: «كنت واقفاً عند كشك من أكشاك بيع الكتب...»

فقال مستر فانغ: «اعقل لسانك، يا سيدي! أيها الشرطي! أين الشرطي؟ هيَّا، حلِّفوا هذا الشرطي اليمين. والآن، أيها الشرطي، ما المسألة؟»

وفي ضعة لائقة روى الشرطي كيف ألقى القبض على المتهم، وكيف فتش أوليفر، فلم يعثر لديه على شيء، وأضاف قائلاً إن هذا كان كل ما يعرفه عن هذه المسألة.

فسأله مستر فانغ: «هل ثمة شهود؟»

فأجابه الشرطي: «لا، ليس ثمة شاهد واحد، يا صاحب الفضيلة.»

واعتصم مستر فانغ بالصمت بضع دقائق، ثم التفت إلى المدعي وقال في غضب بلغ قمة الاحتدام: «أتعتزم أن تصرّح بشكواك ضد هذا الغلام، أيها الرجل، أم لا تعتزم؟ لقد حُلِّفت اليمين. فإذا بقيت واقفاً هناك، رافضاً أن تقدِّم البيِّنة، فسأعاقبك بتهمة تحقير المحكمة. أجل، سوف أفعل، وحقّ...»

بحق ماذا، أو بحق منْ، لا أحد يدري.. ذلك بأن الكاتب والسجان

سعلا، في اللحظة المناسبة تماماً، سعالاً عالياً جداً. وسقط من يد الأول، على الأرض، كتاب ثقيل، وبذلك حال دون بلوغ تلك الكلمة آذان القوم ـ وهو أمرٌ لم يحدث إلا مصادفة، طبعاً.

وفي غمرة من المقاطعات الكثيرة والإهانات المتكررة حاول مستر براونلو أن يبسط قضيته، معلناً أنه، تحت وطأة المفاجأة، عدا في أثر الغلام لأنه رآه يولي فراراً، معبراً عن رجائه ـ إذا ما اضطُرّ القاضي إلى اعتباره، برغم أنه ليس اللص الحقيقي، شريكاً لبعض اللصوص ـ أن يعامله بأقصى قدْر من الرفق تجيزه العدالة.

وقال السيد العجوز في الختام: «لقد جُرِح خلال المطاردة» ثم أضاف، في عزم شديد، ناظراً نحو الحاجز الخشبي: «وأخشى، في الواقع، أن يكون مريضاً.»

فقال مستر فانغ ساخراً: «أوه، نعم، يخيِّل إليّ ذلك! هيا، حذار أن تلجأ إلى أيّ من حِيلك، هنا، أيها المتشرد الصغير. فهي لن تفيدك. ما اسمك؟»

وحاول أوليفر أن يجيب، ولكن لسانه خذله، . كان شاحباً شحوب الموتى، ولقد بدا المكان كله، في ناظريه، وكأنه يدور ويدور.

فسأله مستر فانغ: «ما اسمك، أيها الوغد المخلوع الفؤاد؟ أيها الضابط، ما اسمه؟»

وإنما وُجِّه هذا السؤال إلى عجوز جافي الطبع ـ ولكنه طيّب القلب ـ ذي صدرة مخططة كان واقفاً على مقربة من الحاجز، فمال على أوليفر، وكرَّر السؤال. ولكنه لاحظ أن الغلام كان عاجزاً، فعلاً، عن فهم السؤال، وإذ كان يعلم أن الإحجام عن الإجابة لن يزيد حنق القاضي إلا احتداماً ولن يفضي إلا إلى جعل حكمه أشدّ صرامة وقسوة فقد غامر بجواب مبنيٍّ على مجرد الحدس:

ـ «هو يقول إن اسمه توم هوايت، يا صاحب الفضيلة،» كذلك قال صائد اللصوص، الطيب القلب، هذا.

فقال فانغ: «إنه يأبى أن يتكلم، أليس كذلك؟ حسن جداً، حسن جداً. أين يقطن؟»

فأجابه الضابط متظاهراً مرّة أخرى بأنه يتلقّى جواب أوليفر: «حيث يجد مأوى.»

فسأله مستر فانغ: «أله أبوان؟»

فقال الضابط، مغامراً بإعطاء الجواب التقليدي: «هو يقول إنهما ماتا وهو بعدُ طفل.»

وعند هذه المرحلة من الاستجواب رفع أوليفر رأسه. وفيما هو يجيل عينيه المتوسلتين في ما حوله، غمغم متضرعاً أن يأتوه بجرعة ماء.

فقال مستر فانغ: «هراء! لا تحاول أن تخدعني.»

فاعترض الضابط قائلاً: «أعتقد أنه مريض حقاً، يا صاحب الفضيلة.»

فقال مستر فانغ: «أنا أعقل من أن أصدق ذلك.»

عندئذ قال السيد العجوز، رافعاً يديه: «اعتنِ به، أيها الضابط. إنه سوف يقع مغشياً عليه.»

فصاح فانغ: «تنحّ جانباً، أيها الضابط. دعه يقع، إذا كان ذلك يسرّه.»

وأفاد أوليفر من الإذن الكريم، وخرَّ على الأرض مغشياً عليه. وتبادل موظفو المكتب النظرات، ولكن أحداً لم يجرؤ على الحركة.

ـ «لقد عرفت أنه كان يحاول خداعي،» وكأن غيبة الغلام عن الوعي كانت برهاناً على هذه الحقيقة لا يقبل الجدل. «دعوه منطرحاً هناك. فلن يلبث حتى يملّ ذلك.»

فسأله الكاتب في صوت خفيض: «كيف تعتزم أن تنظر في هذه الدعوى، يا سيدي؟»

فأجاب مستر فانغ: «على وجه الاستعجال. إني أحكم عليه بالسجن ثلاثة شهور... مع الأشغال الشاقة طبعاً. أخلوا القاعة.»

وفُتح الباب لهذا الغرض. واستعد رجلان لنقل الغلام المغشيّ عليه إلى زنزانته، عندما اندفع إلى المكتب رجل كهل ذو مظهر لائق ولكنه فقير، تكسو جسده بذلة عتيقة سوداء، وتقدم نحو القاضي.

ـ «على رِسلكم! على رسلكم! لا تقودوه إلى السجن! تمهلوا لحظة واحدة، إكراماً للَّه!» كذلك صاح الوافد الجديد وهو يلهث من العجلة.

وعلى الرغم من أن العباقرة المترئسين أمثال هذه القاعات يتمتعون بسلطان متعجِّل واعتباطي على حريات رعايا صاحبة الجلالة، وبخاصة إذا كانوا من أبناء الطبقة الأشد فقراً، وعلى سمعتهم، وصِيتهم، بل وعلى أرواحهم تقريباً. . وعلى الرغم من أن المآسي الغريبة التي تمثَّل كل يوم، ضمن هذه الجدران، كافية لأن تبكي الملائكة حتى يُكَفَّ منها البصر، فإن تلك القاعات موصدة في وجه الجمهور فهو لا يطَّلع عليها إلا من طريق الصحافة اليومية. ومن هنا فإن السخط الذي استبد بمستر فانغ لم يكن باليسير عندما رأى مثل هذا الزائر الواغل يدخل القاعة على تلك الصورة اللانظامية الوقحة.

وصاح مستر فانغ: «ما هذا؟ من هذا؟ اطردوا هذا الرجل! أخلُوا القاعة!»

فصاح الرجل: «إني أريد أن أتكلم. أنا أرفض أن أطرد. لقد رأيت كلّ ما حدث. أنا أملك كشك الكتب. أنا أطلب أن أحلَّف اليمين. ولن أرضى أن أكْره على الصمت. مستر فانغ، إن عليك أن تسمع إلى أقوالي. يتعيَّن عليك أن لا ترفض، يا سيدي.»

كان الرجل على حق، وكانت إمارات وجهه تنطق بالعزم والتصميم، وكانت المسألة قد أخذت سبيلها إلى أن تصبح أخطر من أن تُخْنق.

فقال مستر فانغ، على كُره منه شديد: «حلِّفوا الرجل، والآن، أيها الرجل، بأيّ شيء تريد أن تدلي؟»

فقال الرجل: «بهذا: لقد رأيت ثلاثة غلمان، الغلام المعتقل هنا واثنين آخرين، يتسكعون على الجانب المقابل من الطريق، عندما كان هذا

السيد يقرأ. إن الذي ارتكب السرقة هو غلام آخر. لقد شهدتُها وهي تُرتكب. ورأيت أن هذا الغلام، الذي اعتقلتموه، أصابه الذهول والإنشداه عند حدوث السرقة.» وهنا كان الكتبيّ الفاضل استردَّ أنفاسه بعض الشيء، فاسترسل في الكلام راوياً، على نحو أكثر تماسكاً ووضوحاً، ملابسات السرقة وظروفها الدقيقة.

وقال مستر فانغ، بعد صمت: «لماذا لم تأتِ إلى هنا من قبل؟»

فأجاب الرجل: «لم أجدْ شخصاً واحداً أكِل إليه حراسة الكشك في غيابي. كان جميع القادرين على معاونتي قد شاركوا في عملية المطاردة. ولقد وفقت إلى العثور على شخص، منذ دقائق خمس ليس غير، وعندئذ رحت أعدو إلى هنا طول الطريق.»

فسأله مستر فانغ، بعد فترة صمت أخرى: «لقد كان المدعي يقرأ، أليس كذلك؟»

فأجاب الرجل: «نعم. كان يقرأ هذا الكتاب عينه الذي يحمله الآن في يده.»

فقال فانغ: «أوه، ذلك الكتاب، أليس كذلك؟ هل دفع ثمنه؟»

فأجابه الرجل، في ابتسامة: «لا. لم يدفع ثمنه.»

فهتف الرجل العجوز الشارد الذهن، في براءة: «يا إلهي. لقد نسيت ذلك بالكلية».

فقال فانغ، وهو يبذل جهداً مضحكاً للظهور بمظهر الرجل الرؤوف: «شخص مؤهل تماماً للادعاء ضد غلام مسكين! أنا أعتبر، يا سيدي، أنك أحرزت ذلك الكتاب في ظروف مريبة جداً، شائنة جداً. وفي استطاعتك أن تعدَّ نفسك جدّ محظوظ لإحجام صاحب السلعة عن الادِّعاء عليك. فليكن هذا درساً لك، أيها الرجل، وإلا أدركك القانون يوماً. أطلقوا سراح الغلام، وأخلوا القاعة!»

فصاح السيد العجوز منفجراً بالغيظ الذي كان قد كبته طويلاً: «لعنني اللّه... لعنني اللّه، إذا لم...»

فقال القاضي: «أخلوا القاعة! أيها الضباط، هل تسمعون؟ أخلوا القاعة!»

وامتثلوا أمره. واقتيد مستر براونلو، الساخط، إلى الخارج، والكتاب في إحدى يديه والعصا الخيزرانية في الأخرى، وقد استبدّت به سَوْرة من الغيظ والتحدي مسعورة. فلم يكد يبلغ فناء الدار حتى تلاشى غضبه في لحظة واحدة. كان أوليفر تويست الصغير منطرحاً على ظهره فوق الرصيف، وقميصه غير مزرَّر، وصدغاه سابحان في الماء. كان وجهه شاحباً شحوب الموت، وكانت رعدة باردة تشنِّج جسده كله.

فقال مستر براونلو، وهو ينحني فوقه: «يا للغلام المسكين! يا للغلام المسكين! فليدْعُ امرؤ عربة ما، أرجوكم، عجلوا!»

وجيء بإحدى العربات. حتى إذا نُقِل أوليفر في عناية إلى أحد مقعديها، امتطى السيد العجوز متنها واحتل المقعد الآخر.

وقال الكتبيّ وهو يقحم رأسه داخل العربة: «هل تأذن لي في مرافقتك؟»

فأجابه مستر براونلو في حرارة: «يا إلهي، طبعاً، طبعاً، يا سيدي العزيز. لقد نسيتك. يا إلهي! يا إلهي! إن هذا الكتاب لا يزال في يدي! اصعد بسرعة! يا للغلام المسكين! ليس لدينا وقت نضيعه.»

وامتطى الكتبي متن العربة، فانطلقت بهم جميعاً.

الفصل الثاني عشر

وفيه يحظى أوليفر بعناية لم يحظ بمثلها من قبل، وترتد القصة إلى السيد العجوز المرح وأصدقائه الأحداث

ومضت العربة، مجلجلة، جارية فوق الطريق نفسها، تقريباً، التي كان أوليفر قد اجتازها عندما دخل لندن أول ما دخلها برفقة «المراوغ». وبعد أن اتخذت سبيلاً أخرى عندما بلغت الـ «آينجل» عند آيلينغتون وقفت

آخر الأمر أمام منزل أنيق قائم في شارع هادئ ظليل قرب بينتونفيل. وهنا أعِدَّ، على جناح السرعة، سريرٌ مُدّد عليه أوليفر، في عناية ورِقْة، فاطمأنت نفس مستر براونلو لسلامة وديعته الصغيرة. ونعِم أوليفر بعطف وحنان لم يعرفا أيّ حد.

ولكن الغلام ظل، طوال أيام عديدة، غير واع شيئاً من طيبة أصدقائه الجدد وإحسانهم. وبزغت الشمس وغربت، ثم بزغت الشمس وغربت، ودأبتْ على هذا مرات عديدة، بعد ذلك، والغلام لا يزال طريح فراشه، قلقاً، متضائلاً تحت نار الحمَّى المضنِية المصوِّحة. إن الدودة لا تفعل فعلها في الرمة البالية بأكثر يقينيَّة من تلك التي تفعل بها هذه النار البطيئة فعلها في الجسم الحيّ الذي تدبُّ إليه.

وأخيراً أفاق، واهناً هزيلاً شاحباً، مما بدا وكأنه حلم طويل مضطرب. وإذ رفع نفسه في الفراش بعجز، مسنداً رأسه إلى ذراعه المرتجفة، راح يجيل في ما حوله طرْفاً كئيباً قلقاً، وقال:

ـ «ما هذه الغرفة؟ إلى أين اقتادوني؟ هذا ليس هو المكان الذي كنت نائماً فيه.»

لقد نطق بهذه الكلمات في صوت واهن، بسبب من الخور والضعف البالغين اللذين هدّا قواه. ومع ذلك فقد سُمِعت في الحال. وسرعان ما أزيحت الستارة القائمة عند رأس السرير، وإذا بسيدة عجوز حنون مرتدية ملابس محتشمة بالغة النظافة تنهض ـ فيما هي تزيحها ـ عن كرسي مجاور ذي ذراعين كانت مستوية عليه مستغرقة في شغل الإبرة.

وقالت السيدة العجوز في رقة: «صه، يا عزيزي. يتعيَّن عليك أن تخلد إلى السكينة، وإلا عاودك المرض من جديد. ولقد كانت وطأة المرض شديدة عليك... بل كانت على أشدّ ما يمكن لها أن تكون، تقريباً. استلق في الفراش مرّة أخرى، أيها العزيز!» قالت السيدة العجوز ذلك ووضعت رأس أوليفر، في كثير من التلطُّف، على الوسادة، ثم إنها أمرّت يدها على شعره ورفعته عن جبينه، ونظرت إلى وجهه في حنان

ومحبة بالغين لم يتمالك معهما من وضع يده الصغيرة الذابلة في يدها، وشدها إلى عنقه.

وقالت السيدة العجوز والدموع تترقرق في عينيها: «يا إلهي! يا له من غلام عزيز معترف بالجميل! يا له من مخلوق وسيم! أي شعور كان يمكن أن يرواد أمه لو كانت تجلس إلى جانبه كما أجلس ولو استطاعت أن تراه الآن؟»

فهمس أوليفر، طاوياً ذراعيه معاً: «لعلها تراني. لعلها كانت جالسة بقربي. أنا استشعر، أو أكاد، وكأنها كانت جالسة بقربي.»

فقالت السيدة العجوز في رفق: «لقد كان ذلك من أثر الحمى.»

فأجاب أوليفر: «هذا صحيح، لأن الجنة نائية جداً، والناس هناك أسعد من أن يهبطوا للقعود قرب سرير غلام بائس. ولكنها لو عرفت أني مريض إذن لأشفقت عليّ، من غير ريب، حتى هناك في الجنة! ذلك أنها كانت هي نفسها مريضة جداً قبل أن تموت. وعلى أية حال، فإنها لا تستطيع أن تعرف أيّ شيء عني.» وصمت أوليفر لحظة ثم أضاف: «لو رأتني أعذَّب وأُجرح إذن لأحزنها ذلك. ولقد بدا وجهها، دائماً، عذباً وسعيداً، عندما رأيتها في المنام.»

ولم تجب السيدة العجوز بشيء. ولكنها مسحت عينيها أولاً، ونظارتيها الموضوعتين على اللحاف ثانياً، وكأنهما كانتا جزءاً لا يتجزأ من تينك العينين، ثم حملت إلى أوليفر شراباً بارداً. وبعد ذلك ربتت على خده وقالت له إن عليه أن يعتصم بالسكينة المطلقة وإلا ألمَّ به الداء من جديد.

وهكذا التزم أوليفر الهدوء الكامل، أولاً لأنه كان حريصاً على إطاعة السيدة العجوز الشفوق، في كل شيء، وثانياً ـ إذا أردنا أن نقول الحقيقة ـ لأن الكلمات التي سبق له أن فاه بها كانت قد أنهكته إنهاكاً كلياً. وسرعان ما أخذته سِنَة من النوم أيقظه منها ضياء شمعة. وحين أُدْنِي الضياء إلى السرير أبدي لناظريه وجه رجل يحمل في يده ساعة ذهبية ذات ضخامة

بالغة وتكّات قوية. . رجل كان يجسّ نبضه ويقول إنه أحسن جداً من ذي قبل.

وقال الرجل: «أنت أحسن مما كنت بكثير، أليس كذلك يا عزيزي؟»

فأجابه أوليفر: «نعم، أشكرك يا سيدي.»

فقال السيد: «أجل، أنا أعرف ذلك. أنت جائع أيضاً، ألست جائعاً؟»

فأجابه أوليفر: «لا، يا سيدي.»

فقال السيد: «هِمْمْمْ! لا، أنا أعرف أنك غير جائع.» ثم أضاف وهو يتخذ سيماء تنمّ عن حكمة بالغة: «إنه غير جائع، يا مسز بيدوين.»

فحنت السيِّدة العجوز رأسها انحناءة احترام بدت وكأنها تقول إنها تعتبر الطبيب رجلاً عظيم البراعة. وبدا الطبيب وكأنه يشاركها الرأي نفسه مشاركة قوية.

وقال الطبيب: «أنت نعسان، أليس كذلك يا عزيزي؟»

فأجابه أوليفر: «لا، يا سيدي.»

فقال الطبيب في سيماء ثاقبة جداً، راضية جداً: «أنت لست نعسان. ولست ظمآن أيضاً، هل أنت ظمآن؟»

فأجابه أوليفر: «نعم، يا سيدي، ظمآن بعض الشيء.»

فقال الطبيب: «كما توقعت، تماماً، يا مسز بيدوين. من الطبيعي جداً أن يكون ظمآن. في استطاعتك أن تقدّمي إليه قليلاً من الشاي، يا سيدتي، وبعض الخبز المحمَّص من غير زبدة. لا تدفِّئيه أكثر مما ينبغي يا سيدتي، ولكن حاذري أن تدعيه يبرد أكثر مما ينبغي. هل تتلطفين بذلك؟»

فانحنت السيدة العجوز علامة الطاعة. وبعد أن تذوّق الطبيب الشراب البارد وعبَّر عن موافقته عليه في تحفظ، سارع إلى مغادرة الحجرة: كان حذاؤه ذو العنق العالي يَصِرّ، على نحو يأذن بالعظمة والثراء، فيما كان يهبط السلم.

وسرعان ما استسلم أوليفر، بعد هذا، للنوم مرّة أخرى. حتى إذا استيقظ كانت الساعة قد أمست الثانية عشرة تقريباً. وبعيد ذلك تمنَّت له السيدة العجوز، في حنان، ليلة طيبة، وتركته في عهدة امرأة عجوز بدينة كانت قد أقبلت منذ لحظة حاملة معها، في صُرّة صغيرة، «كتاب صلاة» صغيراً وقلنسوة نوم ضخمة. حتى إذا وضعتِ الأخيرة على رأسها والأوَّل على الطاولة، وأنبأت أوليفر أنها أقبلت لتسهر على راحته أدْنَتِ المرأة البدينة كرسيها إلى المستوقد واستغرقت في سلسلة من سِنات النوم القصيرة تخلَّلتها في فترات متواترة أشتاتٌ من كبوات الرأس وضروبٌ من الزفرات. بيد أن هذه كلها لم تُحْدِث من الآثار السيئة ما هو أبعد من حملها على حكّ أنفها في شدة ثم الاستغراق في النوم من جديد.

وهكذا تقضَّى الليل وئيداً وئيداً. واستيقظ أوليفر فترة ما، وراح يحصي حلقات الضوء الصغيرة التي ألقتها طُلَّة الشمع المغموس في الدهن على سقف الحجرة، أو يتتبَّع بعينيه الواهنتين أشكال ورق الجدار البالغة التعقيد. كانت الظلمة وسكون الحجرة العميق موحشين جداً. وإذْ أوقعتا في نفسه أن الموت كان يخيِّم هناك، منذ أيام وليال، وأنه قد يملأ الحجرة، بعدُ، بظلمات وأهوال وجوده الرهيب، فقد قلب وجهه على الوسادة وتضرّع للسماء بصلاة متقدة.

وشيئاً بعد شيء استسلم لذلك النوم العميق الهادئ الذي لا يتيحه غير التحرر من عذاب قريب العهد... لتلك الراحة الوادعة الآمنة التي يوجِع المرء أن يُنْتَزع منها. ومن الذي يتمنى، إذا كان هذا هو الموت، أن يوقظ منه مرّة أخرى ليواجه كل مجاهَدات الحياة واضطراباتها، كل هموم الحاضر وقلق المستقبل، بل ليواجه فوق هذا كله ذكريات الماضي المضنية؟!

وكان الضحى قد ارتفع منذ ساعات عندما فتح أوليفر عينيه. لقد استشعر أنه مبتهج سعيد: كان قد تخطى مرحلة المرض الحرجة في سلام، وكان قد انقلب إلى عالم الأحياء مرّة أخرى.

ولم تنقضِ ثلاثة أيام حتى أمسى في ميسوره الجلوس على كرسي وثير مزوّد بالوسائد. وإذ كان لا يزال أضعف من أن يمشي على قدميه فقد أصدرت مسز بيدوين أمرها بحمله والهبوط به إلى حجرة مدبِّرة المنزل، وكانت حجرة صغيرة خاصة بها هي. أجلسته، العجوز الطيبة، هنا، على مقربة من نارِ المستوقد اتخذت هي لنفسها مكاناً على مقربة منها أيضاً. وإذ أبهج نفسها أعظم الإبهاج أن تراه على مثل هذه الحال من التحسُّن البالغ فقد انخرطت في بكاء مؤثر عنيف.

وقالت السيدة العجوز: «لا تقلق علي، يا عزيزي. إني أسفح هذه العبرات لفرط سروري بك. انظر، لقد انتهى كل شيء، وها أنت تراني في أحسن حال.»

فقال أوليفر: «أنت تغمرينني بالعطف، يا سيدتي.»

فقالت السيدة العجوز: «حسناً، دع عنك هذا، يا عزيزي. فليس لهذا أية علاقة بحسائك. ولقد آن لك أن تفوز به. ذلك بأن الطبيب أجاز لمستر براونلو أن يراك هذا الصباح، وأن علينا أن نبذل قصارى جهدنا للظهور بمظهر البهجة، إذ كلما بدت على وجهَيْنا علائم البِشْر كان أدعى إلى اغتباطه.» قالت السيدة العجوز هذا وشغلت نفسها بتسخين طبق مليء بالحساء... الحساء المركَّز، في ما خيِّل لأوليفر، إلى درجة تكفي، لو خفِّفت إلى النسبة النظامية، لتمكن ذلك الغذاء من إقاتة ثلاثمئة وخمسين فقيراً على أقل تقدير.

ـ «هل أنت مولع بالصور الزيتية، يا عزيزي؟» كذلك سألته السيدة العجوز عندما ركَّز عينيه، في كثير من الانتباه، على لوحة زيتية معلقة على الجدار، تجاه كرسيه مباشرة.

فقال أوليفر من غير أن يصرف عينيه عن اللوحة: «لست أدري على وجه الضبط، يا سيدتي. إن عدد الصور الزيتية التي رأيتها حتى الآن قليل إلى درجة تجعلني لا أكاد أدري. ما أجمل وجه هذه السيدة وأعذبه!»

فقالت السيدة العجوز: «آه، إن الرسامين يعمدون دائماً إلى إبراز

السيدات على نحو أجمل من حقيقتهن، وإلا لما طرق أبوابهم أيّ زبون من الزبائن، أيها الطفل. لعل الرجل الذي اخترع الآلة المسجلة للصور(*) قد عرف أن اختراعه لن ينجح أبداً، فهو صادق أكثر مما ينبغي بكثير، بكثير.» كذلك كررت السيدة العجوز وهي تضحك من صميم قلبها.

فقال أوليفر: «هل... هل هذه صورة زيتية، يا سيدتي؟»

فأجابت السيدة العجوز رافعة بصرها، لحظة، عن المرق: «نعم، هذه صورة زيتية.»

فسألها أوليفر: «صورة من، يا سيدتي؟»

فأجابت السيدة العجوز في بشاشة: «الواقع، يا عزيزي، أني لا أدري. إنها ليست صورة أيما شخص تعرفه أنت أو أعرفه أنا، في ما يخيِّل إليَّ. يبدو لي أنها قد أعجبتك كثيراً، يا عزيزي.»

فقال أوليفر: «إنها جميلة جداً.»

ـ «ولكن، هل أنت واثق من أنك غير خائف منها؟» كذلك قالت السيدة العجوز وقد لاحظت، في كثير من الدهش، نظرة الرعب التي كان يتأمل بها تلك اللوحة.

فسارع أوليفر إلى القول: «أوه، لا، لا. ولكن عينيها محزونتان جداً في ما يبدو. وحيث أجلس، يخيَّل إليَّ أنهما مركَّزتان عليّ. وصمت لحظة ثم أضاف في صوت خفيض: «إنها تزيد ضربات قلبي، وكأنها على قيد الحياة..، وكأنها تريد أن تتحدث إليَّ ولكنها لا تستطيع.»

فهتفت السيدة العجوز مجفلة: «نجِّنا يا رب! لا تتكلم على هذا النحو، يا صغيري. لقد خرجت من مرضك ضعيفاً متوتر الأعصاب. دعني أدير كرسيك إلى الجهة الأخرى، وعندئذ لا تقع عيناك عليها.» وأتبعت السيدة العجوز القول بالعمل ثم أضافت: «لقد أصبحت، الآن، لا تراها على أية حال.»

(*) إشارة إلى التصوير الفوتوغرافي في أولى مراحله. (المعرب)

ومع ذلك فقد رآها أوليفر بعين عقله وكأنه لم يغيِّر وضعه البتة. ولكنه اعتقد أن من الخير له أن لا يقلق بال العجوز الكريمة، وهكذا ابتسم في لطف عندما نظرتْ إليه. حتى إذا اقتنعت مسز بيدوين بأنه استشعر قدراً من الطمأنينة أعظم، أنشأت تملِّح وتكسِّر الخبز المحمص قطعاً صغيرةً وتلقيها في الحساء، مُحْدثة أقصى الجلبة اللائقة بمثل هذا الاستعداد الجليل. وأتى أوليفر على طعامه في سرعة استثنائية. ولم يكد يزدرد الملعقة الأخيرة حتى قُرع الباب قرعاً رفيقاً. فقالت السيدة العجوز: «تفضل!» فدخل مستر براونلو الحجرة.

وتقدَّم السيد العجوز بكامل الحيوية الجديرة به، ولم يكد يرفع نظارتيه ويقحم يديه خلف ذيل مبذله(*) ليلقي نظرة طويلة على أوليفر، حتى اعترت محيَّاه صنوف كثيرة من الالتواءات الغريبة. لقد بدا أوليفر موهن القوى شديد الهزال من أثر المرض وقام بمحاولة مخفقة للوقوف، احتراماً للسيد الذي أحسن إليه، انتهت إلى ارتمائه في كرسيه مرّة أخرى. والواقع، إذا تعيَّن علينا أن نقول الحقيقة كاملة، فإن فؤاد مستر براونلو، وهو الفؤاد الكبير الذي يعدِل قلوب ستة رجال عجائز عاديين إنسانيي النزعة، دفع إلى عينيه مقداراً ضخماً من الدموع بواسطة عملية هيدرولوجية(**)، ليس لنا من الكفاءة الفلسفية ما يؤهلنا لشرحها.

وقال مستر براونلو وهو يتنحنح: «يا لك من غلام مسكين! يا لك من غلام مسكين! أنا مبحوح بعض الشيء هذا الصبح، يا مسز بيدوين، يخيَّل إليّ أني أصبت بزكام.»

فقالت مسز بيدوين: «أرجو أن لا يكون الأمر كذلك، يا سيدي. لقد جُفِّفت أشياؤك كلها تجفيفاً حسناً، يا سيدي.»

فقال مستر براونلو: «لست أدري، يا بيدوين، لست أدري. أنا أميل

(*) المبذل: الروب دو شامبر.

(**) الهيدرولوجيا: علم خصائص المياه ونواميسها.

إلى الاعتقاد بأن فوطة السفرة التي قدِّمت إليّ أمس، عند الغداء، كانت رطبة، ولكن لا بأس. كيف أنت الآن، يا عزيزي؟»

فأجابه أوليفر: «أنا جد سعيد، يا سيدي، وجدّ شاكر لك، يا سيدي، على ما أظهرته نحوي من عطف وحنان.»

فقال مستر براونلو في حزم: «أنت غلام طيب. هل قدَّمت إليه أيَّ غذاء، يا بيدوين؟ بعض المرق، في ما أظن؟»

فأجابت مسز بيدوين: «لقد التهم منذ لحظة طبقاً من الحساء المركز الممتاز، يا سيدي» قالت ذلك متصدّرة بعض الشيء، واضعة على الكلمة الأخيرة توكيداً قوياً لكي تُشعر مستر براونلو أنه ليس بين المرق وبين الحساء الحسن التركيز أيما شبه.

فقال مستر براونلو في رعدة طفيفة: «أوه! لو أعطيته كأسين من خمر «بورت» لعاد ذلك عليه بفائدة أعظم بكثير. أليس كذلك، يا توم هوايت؟»

فأجاب المريض الصغير وقد ارتسمت على وجهه إمارات دهش عظيم: «إن اسمي هو أوليفر، يا سيدي.»

فقال مستر براونلو: «أوليفر ـ أوليفر ماذا؟ أوليفر هوايت، أليس كذلك؟»

ـ «لا، يا سيدي، تويست، أوليفر تويست.»

فقال السيد العجوز: «اسم عجيب؟ ما الذي جعلك تقول للقاضي أن اسمك هو هوايت؟»

فأجاب أوليفر في انشداه: «أنا لم أقل له ذلك قط، يا سيدي.»

ووقع هذا الكلام في أذنَيْ السيد العجوز مثل موقع الكلام المكذوب، فحدّق في شيء من التجهم إلى وجه أوليفر. ولكنْ كان من المتعذر عليه أن يشك في أمره. فقد كان ثمة صدقٌ في كل قَسَمة من قسمات وجهه الهزيلة الغائرة.

ـ «هناك خطأ ما.» كذلك قال مستر براونلو. وعلى الرغم من أن

رغبته في التحديق الموصول إلى أوليفر كانت قد زالت فإن الفكرة القديمة القائلة بأن ثمة شبهاً بين ملامحه وبين وجه مألوف عنده ما لبثت أن راودته في قوة جعلته عاجزاً عن صَرْف نظراته عنه.

وقال أوليفر، رافعاً عينيه في ضراعة: «أرجو أن لا تكون غاضباً عليّ، يا سيدي.»

فأجابه السيد العجوز: «لا، لا. ولكن، ما هذا؟ بيدوين، انظري إلى هناك!»

وفيما هو يتكلم أشار في سرعة إلى الصورة المعلقة فوق رأس أوليفر، ثم إلى وجه الغلام. لقد كان ذلك الوجه نسخة حية عن تلك الصورة. فالعينان، والرأس، والفم كانت هي هي. والقسمات كلها كانت هي هي. وكانت السيماء، في تلك اللحظة، متماثلة في الصورة وعلى وجه الغلام بحيث بدت أدقّ الخطوط وكأنها منسوخة في دقة بالغة!

ولم يدر أوليفر سبب هذا التعجب المفاجئ. ذلك بأنه كان أعجز من أن يحتمل ما أوقعه في جسده من رعدة وإجفال، فغاب عن الوعي. وهذا الضعف من جانب الغلام يتيح لهذه الرواية فرصة لتحرير القارئ من الترقب والقلق في ما يتصل بمريديْ العجوز المرح الناضريْ العود، وللعودة إلى...

... إنه عندما ضمّ «المراوغ» وصديقه الموهوب المعلِّم بايتس صوتيهما إلى صيحة المطاردة التي أطلقت في أعقاب أوليفر بعد أن سلبا مستر براونلو بعض ممتلكاته الشخصية، كما وصفنا من قبل، غلب عليهما شعور بالاحترام لنفسيهما جِدُّ محمود ولائق. ونظراً إلى أن حرية المواطن والفرد هي واحدة من أبرز المفاخر التي يعتز بها الإنكليزي الحقّ فلست في حاجة إلى أن أدعو القارئ للتنبُّه إلى أن هذا العمل خليق به أن ينزع إلى تعظيمهم في عين جميع الرجال الرسميين والوطنيين بقدرْ يتكافأ مع هذا البرهان القوي على تعلّقهم بالنجاة والسلامة بما يعزّز ويثبِّت مجموعة النواميسِ الصغيرة التي ذهب بعض الفلاسفة المشهود لهم بالعمق والتفكير

السليم إلى القول بأنها هي البواعث الأصلية، لجميع أعمال الطبيعة وأفعالها.

ولو أردتُ أن ألتمس أيما برهان إضافي على الطبيعة الفلسفية ـ بكل ما في هذه الكلمة من معنى ـ التي اتسّم بها سلوك هذين السيدين في المأزق الحرج الذي كانا فيه إذن لتعين عليّ أن أجدها في واقعة سبق لي أن دوَّنتها في جزء سابق من هذه الرواية، وهي أنهما كفَّا عن المطاردة حالما ركّز الانتباه العام على أوليفر، وشخصا إلى بيتهما، في الحال، من أقصر طريق ممكن.

وهكذا، فلا جُناح عليك، من أجل أداء خير عظيم، إن أنت اقترفت شراً صغيراً، وأن في ميسورك أن تصطنع أيما وسيلة قد تبررها الغاية التي تسعى لبلوغها. باعتبار أن مقدار الخير، أ, مقدار الشر، أو بالأحرى التمييز بينهما، متروكٌ بالكلية إلى الفيلسوف، فهو الذي يقرره ويحدده من طريق نظراته الصافية، الشاملة، النزيهة، إلى الحالة الخاصة التي يواجهها.

ولم يغامر الغلامان في الوقوف تحت بعض القناطر الخفيضة المظلمة إلا بعد طوّفا، بسرعة بالغة، في متاهة من الأزقة والدروب الضيقة ليس ثمة ما هو أشد منها تعقيداً. حتى إذا اعتصما، هنالك، بالصمت فترة كافية لاسترداد أنفاسهما ولاستعادة القدرة على الكلام، أطلق المعلِّم بايتس صيحة مرح وابتهاج. ثم إنه انفجر بالضحك على نحو لا سبيل إلى السيطرة عليه وطرح نفسه على عتبة أحد المنازل وراح يتدحرج على التراب وقد استبدت به عاصفة من طرب وحبور.

وتساءل «المراوغ»: «ما بالك؟»

فقد تشارلي بايتس: «ها! ها! ها!»

فاحتج «المراوغ»، ناظراً حوله في احتراس: «كفَّ عن إحداث هذه الضجة! أتريد أن يُقبض عليك، أيها الأبلة؟»

فقال تشارلي: «ليس لي في ذلك حيلة! ليس لي في ذلك حيلة! إني

لا أتمالك نفسي عن الضحك كلما تمثَّلته يفرّ بتلك الخطى الواسعة، ويعدو منعطفاً حول الزوايا، ويخرّ على الأرض مصطدماً بالأعمدة، ثم يندفع ثانية وكأنه، مثلها، مصنوع من حديد، وأنا أجري وراءه صائحاً زاعقاً، والمنديل في جيبي. . . أوه، يا إلهي؟» وكان للمعلم بايتس من خياله الخصيب ما ساعده على تصوّر المشهد في ألوان صارخة إلى أبعد مدى. حتى إذا بلغ صيغة التعجب تلك تدحرج مرّة ثانية على العتبة، وأنشأ يضحك ضحكاً مدوّياً أكثر من ذي قبل.

ـ «ما الذي سوف يقوله فاجين؟» كذلك سأله «المراوغ» منتهزاً، لطرح هذا السؤال، أول فرصة اضطر معها صديقه إلى الإخلاد للصمت بسبب من انقطاع النَفس.

فكرر تشارلي بايتس: «ماذا؟»

فقال «المراوغ»: «أجل، ماذا؟»

ـ «حسناً، وما الذي تريده أن يقوله؟» كذلك تساءل تشارلي، مقلعاً فجأة، تقريباً، عن مرحه وابتهاجه. ذلك بأن لهجة «المراوغ» كانت مؤثّرة. «ما الذي تريده أن يقوله؟»

وجعل مستر داوكنز يصفر طوال دقيقتين اثنتين. ثم نزع قبعته، وحك رأسه، ثم هزه ثلاث مرات.

وقال تشارلي: «ماذا تعني؟»

فقال «المراوغ» وعلى محياه الذكي شيء من سخرية: «ترالا لا لا، هذيان وألغاز!»

كان في ذلك بعض الإيضاح، ولكنه لم يكن كافياً. أو هذا على الأقل ما خيِّل إلى المعلم بايتس. فعاود طرح السؤال: «ماذا تعني؟»

ولم يجب «المراوغ» بشيء. ثم إنه اعتمر بقبعته مرّة أخرى، وجمع ذيل سترته الطويلة تحت ذراعه، وأقحم لسانه في خده، ولطم قصبة أنفه نحواً من ست مرات بطريقة مألوفة ولكنها معبِّرة، واستدار على عقبيه،

وانسلّ في الزقاق. فتبعه المعلم بايتس، على الأثر، وقد علت وجهه إمارات التأمل والتفكير.

وكان في وقع الأقدام على درجات السلَّم الصارّة، بعد بضع دقائق من هذه المحاورة، ما جفَّل العجوز المرح القابع إلى جوار المستوقد، وفي يده اليسرى لنقانقة مجففة ورغيف صغير، وفي يده اليمنى مدية جيب. كانت على إحدى الأثافيّ أمامه قِدْر من صفيح، وكانت على وجهه الشديد الشحوب ابتسامة ماكرة. لقد ألقى من تحت حاجبيه الأحمرين الكثيفين نظرة حادة، ومال بأذنه نحو الباب، وأنشأ يصغي.

وغمغم اليهودي، مغيِّراً سيماؤه: «ولكن، كيف ذلك؟ اثنان منهم فقط؟ أين ثالثهم؟ أمن الجائز أن يكونوا قد تعرّضوا لبلاء؟ فلأصْغِ!»

واقتربت الخطى أكثر فأكثر. وانتهيا إلى منبسَط السلم. وفُتح الباب في أناة. ودخل «المراوغ» وتشارلي بايتس، مغلقَيْن إياه خلفهما.

الفصل الثالث عشر

وفيه نقدم إلى القارىء الذكي شخصيات جديدة ونروي أشتاتاً من الأشياء الطريفة المتعلقة بهم والمتصلة بهذه القصة

ـ «أين أوليفر؟» كذلك قال اليهودي وهو ينهض في سيماء متوعدة، «أين الغلام؟»

وألقى اللصان الفتيَّان نظرة على حاميهما، وكأنهما رُوِّعا لما تكشَّف عنه من عنف. وتبادلا النظرات في قلق، ولكنهما لم يجيبا بشيء.

وقال اليهودي آخذاً «بالمراوغ» من خناقه ومتوعداً إياه بأفظع الانتقام: «ما الذي حلّ بالغلام؟ تكلم، وإلا خنقتك خنقاً!»

وكان وجه فاجين ينطق بالجد والعزم إلى حد جعل تشارلي بايتس (الذي كان يرى أن من الحكمة في جميع الأحوال أن يقف على جادّة

السلامة، والذي بدا له الآن أن من المحتمل كثيراً أن دوره في الخنق سوف يجيء بعد دور «المراوغ» مباشرة) يجثو على ركبتيه ويطلق صيحة هادرة موصولة. . . شيئاً بين خوار ثور مسعور وضجيج بوق لتقوية الصوت البشري.

ـ «هل تعتزم أن تتكلم؟» كذلك رعَد اليهودي هازّاً «المراوغ» في عنف بدا معه وكأن بقاءه في تلك السترة الكبيرة لحظة واحدة أمرٌ أعجوبيّ بالكليّة.

وأخيراً قال «المراوغ» في نكد: «لقد قبض عليه رجال الشرطة، هذا كل ما في الأمر. والآن، خلِّ سبيلي، هل لك أن تفعل؟» وبانتفاضة واحدة تملّص من السترة الكبيرة التي خلّفها في يَديْ اليهودي، واستولى على شوكة التحميص وسدّد طعنة إلى صدرة العجوز المرح.

وأمام هذا الخطر الطارئ ارتد اليهودي إلى الوراء في خفة لا يتوقع المرء نظيرها من رجل في مثل شيخوخته الظاهرية. ثم إنه اختطف القدر واستعد لقذفها على رأس مهاجمه. ولكن تشارلي بايتس لفت انتباهه، في تلك اللحظة، بصيحة رهيبة إلى أبعد الحدود، فغيَّر وجهة القدر على نحو مفاجئ، وألقى بكامل ثقلها على ذلك الشاب.

فزمجر صوت خفيض: «ما هذا الذي يجري هناك؟ من الذي قذفني بهذا؟ من حسن الحظ أن الذي أصابني هو الجعة وليس القِدر، وإلا لصفَّيت الحساب مع شخص ما. أنا أعلم أن أحداً لا يطيق، إلا إذا كان يهودياً عجوزاً جهنمياً غنيّاً سلاّباً رعّاداً، أن يسفح أيما شراب غير الماء. . . وحتى الماء نفسه فإن اليهودي لن يسفحه إلا إذا غشّ «شركة النهر» وخدعها كل فصل من فصول السنة. علام هذه الضجة كلها، يا فاجين؟ لعنني اللّه إن لم يكن منديلي قد بُطِّن بالجعة! أدخل أيها البرغوث القذر! لماذا تقف في الخارج وكأنك خجِلٌ من سيدك! أدخل!»

كان الرجل الذي هرّ بهذه الكلمات شاباً قويَّ البنية في نحو الخامسة والثلاثين يرتدي سترة من مخمل قطنيّ أسود، وبنطالاً عسلياً قصيراً شديد

الاتساخ، وحذاء نصف عالي العنق ذا سيور، وجورباً قطنياً رمادياً يشتمل على ساقين ضخمتين لهما ركْبتان كبيرتان منتفختان. . . ساقين من ذلك الصنف الذي يبدو دائماً، في مثل ذلك الزيّ، وكأنه ناقصٌ لا سبيل إلى تحقّقه بالكمال إلا إذا زُيِّن بالأصفاد. كان يعتمر بقبعة بنِّية، ويطوِّق عنقه بمنديل تجشُّؤ قذر راح يمسح الجعة عن وجهه، فيما هو يتكلم، بطرفيه الطويلين المتهرئين. ولقد تكشَّف، عندما تمّ له ذلك، عن تقاطيع عريضة كئيبة تكسوها لحية لم تحلق منذ أيام ثلاثة، وعن عينين متجهمتين، نمَّت إحداهما عن أعراض مختلفة متعددة الألوان تشير إلى أنها تعرضت منذ وقت قريب للطمة مؤذية.

وزمجر هذا الوغد الفاتن: «ادخل! هل تسمع؟»

فانسلّ إلى الحجرة كلب أبيض أشعث ذو وجه خُدِش ومُزِّق في عشرين موضعاً مختلفاً من مواضعه.

وقال الرجل: «لماذا لا تتقدم إلى أمام؟ لقد أمسيت أشدّ غروراً من أن تعترف بي أمام الناس، أليس كذلك، انطرح على الأرض!»

وأردف هذا الأمر برفسة طوّحت بالبهيمة إلى الطرف الآخر من الحجرة. بيد أنه بدا وكأنه كان يألف هذه المعاملة، ذلك بأنه التفّ على نفسه، في هدوء بالغ، في إحدى الزوايا، من غير أن يُطلق أيما صوت. ثم إن عينيه المشؤومتين طَرفتا بمعدل عشرين مرة في الدقيقة، وبدا وكأنه يشغل نفسه باستعراض الحجرة وما فيها.

وقال الرجل وهو يجلس في أناة: «ما هذا الذي أراك منهمكاً فيه؟ أتسيء معاملة الغلمان، أيها اللص العجوز الجشع، الشحيح، الذي لا يشبع؟ إني لأعجب لماذا لا يقتلونك! لقد كنت سأفعل، لو كنت في مكانهم. لو كنت غلاماً يعمل في خدمتك إذن لأقدمت على ذلك منذ عهد بعيد. . . لا، ولن يكون في ميسوري بعد ذلك أن أبيعك، لأنك لا تصلح إلا للوضع في زجاجة كنموذج نادر للبشاعة، وأنا أحسب أنهم لا يصنعون زجاجات على مثل هذه الضخامة!»

فقال اليهودي مرتعداً: «صه! صه! يا مستر سايكس. لا تتكلم بصوت عال إلى هذا الحدّ!»

فأجابه الوغد: «لا تكلف نفسك عناء مسْتَرتي(*). إن نياتك تكون شريرة كلما فعلت ذلك. أنت تعرف اسمي، فانطِقْ به! أنا لن أجلِّله بالخزي عندما يحين الأوان!»

فقال اليهودي في خضوع خسيس: «حسناً، حسناً، كما تريد... يا بيل سايكس، يبدو أنك معكَّر المزاج، يا بيل.»

فأجابه سايكس: «ربما كنت كذلك. ويخيّل إليّ أنك مغضَب، بعض الشيء، أيضاً إلا إذا كنت تقصد إلى قليل من الأذى حين تقذف بالقدور الصفيحية هنا وهناك، كما تفعل وأنت تثرثر و...»

فقال اليهودي ممسكاً بالرجل من رُدنه، ومشيراً بإصبعه إلى الغلمان: «هل أنت مجنون؟»

وأرضى مستر سايكس نفسَهُ بتشكيل عقدة خيالية تحت أذنه اليسرى، ونثْر رأسه فوق الكتف اليمنى: وكان ذلك فصلاً من التمثيل الأبكم وبدا وكأن اليهودي فهمه أحسن فهم. ثم إنه طلب كأساً من الخمر مستعملاً تعابير عامية كانت لغته كلها مزيَّنة بها على نحو سخيّ، ولكنها تعابير لو حاولنا إيرادها هنا لاستغلق فهمها على القارئ استغلاقاً كاملاً.

وأضاف مستر سايكس، وهو يضع قبعته على الطاولة: «وحذار أن تدس السمّ فيها.»

وإنما قِيلت هذه الجملة الأخيرة على سبيل المزاح. بيد أنه لو قُدِّر لقائلها أن يلمح الغمزة الشريرة التي عضّ بها اليهودي شفته الشاحبة وهو يستدير نحو الخزانة إذن لتراءى له أن التحذير لم يكن غير ضروري البتة، أو (على الأقل) أن الرغبة في إجادة فن التقطير لم تكن بعيدة جداً عن قلب العجوز المرح.

(*) أي مناداتي بلفظ «مستر».

وبعد أن تجرع كأسين أو ثلاث كؤوس من الخمر تنازل مستر سايكس فالتفت إلى السادة الصغار، وهو صنيعٌ كريمٌ قاد إلى حديث فُصِّل فيه سبب القبض على أوليفر والطريقة التي تمّ فيها، تفصيلاً كبيراً لم يخلُ من تعديل للحقيقة وتحسين لها وفْقَ ما بدا «للمراوغ» أنه الأنسب والأعقل في تلك الظروف.

وقال اليهودي: «أخشى أن يقول شيئاً قد يعرّضنا للمتاعب.»

فأجاب سايكس في ابتسامة عريضة خبيثة: «هذا محتمل جداً. لقد قضي عليك، يا فاجين.»

وأضاف اليهودي وكأنه لم يسمع ما قاله سايكس، محدّقاً النظر إلى هذا الأخير: «وأنا أخشى أيضاً إذا وقعنا نحن في ورطة أن يقع كثيرٌ غيرنا في مثلها. وأن يكون وضعك عندئذ أسوأ من وضعي، يا عزيزي.»

وأجفل الرجل، وقطَّب في وجه اليهودي على نحو عدائي. ولكن كتفي السيد العجوز كانتا مرفوعتين حتى أذنيه، وكانت عيناه تحدقان تحديقاً ذاهلاً إلى الجدار المقابل.

وران صمت طويل. وبدا كل عضو من أعضاء الجماعة الموقرة مستغرقاً في تأملاته الخاصة، لا نستثني من هذا حتى الكلب الذي بدا، من طريق لعق شفتيه على نحو خبيث، وكأنه يفكِّر في الانقضاض على رجلَيْ أول سيد ـ أو سيدة ـ قد يلتقيه في الشوارع حين يغادر المنزل.

ـ «يجب أن يستطلع شخص من الأشخاص ما حدث في المخفر.» كذلك قال مستر سايكس بصوت أشدّ خفوتاً مما فَعَلَ منذ أن وفَد إلى هناك.

فأعلن اليهودي موافقته على ذلك بهزة من رأسه.

وقال مستر سايكس: «إذا لم يشِ بنا، وحُكِم عليه بالسجن، فعندئذ لا يكون ثمة خوفٌ حتى يُطلق سراحُه. أما بعد ذلك فيتعين علينا أن نتدبر أمره. إن عليكم أن تقبضوا عليه بطريقة ما.»

وهز اليهودي رأسه مرّة أخرى.

والواقع أن الحكمة التي انطوى عليها أسلوب العمل ذاك كانت جليَّة، ولكنْ كانت هناك، مع الأسف، عقبة قوية جداً تحول دون ذلك. وتتلخص تلك العقبة في أن «المراوغ» وتشارلي بايتس، وفاجين، ومستر وليم سايكس، اتفق أن كانوا كلهم يستشعرون، في آن معاً، كراهية عميقة الجذور لفكرة الدنوّ من مخافر الشرطة أياً كان السبب أو كانت الذريعة.

ومن العسير على المرء أن يحزر حتَّام كان خليقاً بهم أن يلزموا مقاعدهم ويتبادلوا النظرات، في حال من القلق ليست بأعذبِ الحالات التي هي من نوعها. بيد أنه لا داعي إلى التكهّن في هذا الموضوع، لأن دخول السيدتين الصغيرتين اللتين كان أوليفر قد رآهما في مناسبة سابقة، دخولاً مفاجئاً، فجَّرَ الحديث من جديد.

وقال اليهودي: «ها هي ذي ضالتنا المنشودة! إن «بَتْ» سوف تذهب. أليس كذلك، يا عزيزتي؟»

فتساءلت السيدة الصغيرة: «إلى أين؟»

فأجاب اليهودي في تملُّق: «إلى مخفر الشرطة ليس غير، يا عزيزتي.»

ومن حق السيدة الصغيرة علينا أن نقول إنها لم تؤكد على نحو قطعيّ أنها لن تذهب، بل اكتفت بمجرد التعبير عن رغبتها القوية الصادقة في أن يباركها الشيطان إذا ذهبَتْ. وهو تهرُّب لطيف من إجابة اليهودي إلى طلبه يُظهر أن تلك السيدة الصغيرة تتمتع بذلك التهذيب الفطري الرفيع الذي لا يطيق إيلام أخ لها في الإنسانية بالرفض المباشر القاسي.

ورانت الكآبة على وجه اليهودي. وأشاح ببصره عن السيدة الصغيرة التي كانت ترتدي على نحو بهيج، لكي لا نقول على نحو فخم، ثوباً أحمر، وحذاء أخضر طويل العنق، وورقاً أصفر خاصاً بتجعيد الشعر. وحوَّله إلى الفتاة الأخرى.

وقال اليهودي في لهجة متملقة: «نانسي، يا عزيزتي، وما رأيك أنت؟»

فأجابت نانسي: «أنا لن أذهب أيضاً. وهكذا فلا فائدة من أيّ محاولة تبذلها لإقناعي، يا فاجين.»

فقال مستر سايكس رافعاً بصره على نحو شكس فظّ: «ماذا تعنين بذلك؟»

فأجابت السيدة رابطة الجأش: «أنا أعني ما أقوله، يا بيل.»

فقال مستر سايكس: «ولكنك أنتِ الشخص المناسب لأداء هذه المهمة. إن أحداً لا يعرف شيئاً عنك في هذه البقعة.»

فأجابت نانسي بالطريقة الهادئة نفسها: «ولما كنت لا أريدهم أن يعرفوا شيئاً عني فإني أميل إلى قول لا أكثر من ميلي إلى قول نعم.»

فقال سايكس: «إنها ستذهب، يا فاجين.»

فقالت نانسي: «لا، إنها لن تذهب، يا فاجين.»

فقال سايكس: «بل إنها ستذهب، يا فاجين.»

ولقد كان مستر سايكس مصيباً. فبفضل سلسلة من التهديدات والوعود والرشوات المتناوبة أقنِعت السيدة التي نحن بصددها، آخر الأمر، بأداء تلك المهمة، والواقع أنها لم تُعَقْ عن ذلك بالاعتبارات نفسها التي عاقت صديقتها القريبة إلى القلب. ذلك بأنها بعد أن نقِلت، منذ قريب، من ضاحية راتكليف النائية ولكن الأنيقة، إلى جوار«فيلد لاين»، لم يساورها مثل ذلك الخوف من أن يتبيَّنها أيّ من معارفها المتعددين.

وهكذا استعدت الآنسة نانسي للمضي لأداء الرسالة التي كُلِّفت بها، متذرعة بمئزر أبيض نظيف عقَدتْهُ فوق ثوبها وبورق لتجعيد الشعر مرفوع تحت قلنسوة من قشّ ـ وقد استُمِدَّ كل من المئزر وورق التجعيد من ذخيرة اليهودي التي لا تنضب.

وصاح اليهودي مبرزاً سلة صغيرة ذات غطاء: «قفي دقيقة. احملي هذه بإحدى يديك. إن ذلك أدعى إلى الاحترام، يا عزيزتي.»

فقال سايكس: «أعطِها مفتاحاً كبيراً لتحمله في اليد الأخرى، يا فاجين، إن ذلك يضفي عليها مظهراً حقيقياً أصيلاً.»

ـ «أجل، أجل، يا عزيزتي، هذا صحيح.» قال اليهودي ذلك وعلّق مفتاحاً من مفاتيح الأبواب الخارجية في سبّابة السيدة الصغيرة اليمنى. «والآن، هذا حسن جداً! حسن جداً، من غير ريب، يا عزيزتي.» وفرك اليهودي يديه وهو ينطق بهذه الكلمات.

فصاحت نانسي، وقد انفجرت بالبكاء ضاغطة على السلة الصغيرة وعلى المفتاح الضخم في كآبة وغمّ بالغين: «أوه، ويلي على أخي! ويلي على أخي الصغير، البريء، الحلو، الحبيب، البائس! ما الذي حلّ به؟ إلى أين اقتادوه؟ أوه، قليلاً من الرحمة، وانبئوني ما الذي فُعِل بالغلام الحبيب أيها السادة! أوه، انبئوني أيها السادة، أتوسل إليكم! انبئوني، إذا سمحتم، أيها السادة!»

حتى إذا لفظت هذه الكلمات في لهجة ليس أحفل منها بالأسى وانكسار الفؤاد ـ لهجة أثارت ابتهاج مستمعيها إثارة لا تعرف الحدود ـ كفت نانسي عن الكلام، وغمزت الجماعة، وحنت رأسها لكل من أعضائها انحناءة باسمة، ثم توارت عن الأنظار.

ـ «آه! إنها فتاة بارعة، يا أعزائي!» كذلك قال اليهودي، ملتفتاً إلى أصدقائه الصغار، هازاً رأسه في وقار وكأنه ينصحهم نصيحة صامتة بأن يتّبعوا المثل الرائع الذي شهدوه بأمّ أعينهم منذ لحظات يسيرة.

وقال مستر سايكس مترعاً كأسه، ضارباً الطاولة بجمع كفِّه الهائل: «إنها مفخرة لبنات جنسها. ها أنا ذا أشرب نخبها، وأتمنى لو كانوا كلهم مثلها!»

وبينا كانت آيات الثناء هذه وكثيرٌ غيرها تُخلع على نانسي الموهوبة انطلقت هذه السيدة الصغيرة إلى مخفر الشرطة مسرعة، فبلغته بُعَيْد ذلك بسلام، على الرغم من بعض الوجل الطبيعي الناشئ عن سيرها في الشوارع وحيدة ومن غير ما حراسة.

حتى إذا دخلت المخفر من الباب الخلفي قرعت بالمفتاح أحد أبواب الزنزانات قرعاً رفيقاً، وأنشأت تصغي. ولم ينطلق من الداخل أيما

صوت، وهكذا سعلت وأنشأت تصغي من جديد. ومع ذلك فلم يكن ثمة جواب ما وهكذا أخذت تتكلم.

لقد غمغمت بصوت رقيق: «يا صغيري أوليفر! يا صغيري أوليفر!»

لم يكن في الداخل غير مجرم بائس حافي القدمين ألقي عليه القبض بتهمة العزف على الناي، وحكم عليه مستر فانغ، بعد أن أقيم الدليل الواضح على جريمته ضد المجتمع، بالسجن شهراً واحداً في الإصلاحية. وقد ضمَّن حكمه هذه الملاحظة المناسبة والمسلّية وهي أنه ما دام قادراً على الاستغناء عن هذه الأنفاس كلها فإن من الأنفع للصحة أن ينفقها على آلة التعذيب المدارة بالدَّوْسِ بدلاً من إنفاقها على آلة من آلات الموسيقى. لم يردَّ على نانسي بشيء، إذ كان مستغْرقاً في النواح ـ ذهنياً ـ على نايه المفقود... نايه الذي صودر لمصلحة الإقليم. وهكذا انتقلت إلى الزنزانة الأخرى، وقرعت بابها.

فصاح صوت خافت ضعيف: «من؟»

فتساءلت نانسي في نشيج تمهيدي: «هل يوجد هنا صبيّ صغير؟»

فأجابها الصوت: «لا. لا سمح اللّه!»

كان هذا صوت متشرد في الخامسة والستين حكم عليه لأنه لم يعزف على الناي. أو بكلمة أخرى لأنه استندى أكفّ المحسنين في الشوارع ولم يمارس أيما عمل يكسب به رزقه. وفي الزنزانة المحاذية كان رجل آخر سِيْقَ إلى السجن نفسه لأنه كان يبيع، بطريقة التجول والمناداة، قدوراً صفيحية صغيرة ذات مقابض، من غير إجازة رسمية. يعني لأنه كان يمارس عملاً يكسب به رزقه، متحدياً بذلك مكتب الإجازات.

ولكن، لما كان أيّ من هذين الرجلين لم يرد عند مناداته باسم أوليفر ولم يعرف أيما شيء عنه فقد مضت نانسي مباشرة إلى الضابط الفظّ، ولكن الصادق الصريح، ذي الصدرة المخططة. وبأدعى أنواع الإعوال والنحيب إلى الرثاء، طالبت بأخيها الحبيب.

فقال الرجل العجوز: «إنه ليس عندي، يا عزيزتي.»

فصاحت نانسي على نحو ذاهل: «أين هو؟»

فأجابها الضابط: «لقد أخذه السيد.»

فهتفت نانسي: «أيّ سيد؟ أوه، أيتها السماء الخيِّرة! أيُّ سيد؟»

وجواباً عن هذا الاستنطاق المتقطِّع أنبأ الرجل الأخت المحزونة أعمق الحزن أن أوليفر سقط مغشياً عليه في المخفر، وأن سراحه أطلِق بعد أن أثبت شاهدٌ أن السرقة ارتكبها صبيّ آخر لم يقع في قبضة العدالة، وأن المدعي اصطحبه معه، وهو في حالة لا وعي، إلى بيته الذي لم يعرف عنه الضابط المتحدث شيئاً غير هذا: إنه يقع في مكان ما في بينتونفيل، إذ سمع هذه الكلمة تُلْفَظ عند إعطاء الأوامر إلى الحوذي.

وفي حال رهيبة من الشك والقلق ترنحت الفتاة المعذّبة في طريقها نحو البوابة الخارجية، ثم استبدلت بمشيتها البطيئة عَدْواً رشيقاً، وانقلبت عائدة ـ من أقصر الطرق التي استطاعت أن تفكِّر فيها ـ إلى منزل اليهودي.

ولم يكد مستر بيل سايكس يسمع تقرير نانسي عن نتائج استطلاعها حتى عمد، على جناح السرعة الخاطفة، إلى إيقاظ الكلب الأبيض. ثم إنه اعتمر بقبعته وانصرف في خفة بالغة من غير أن يكرّس دقيقة واحدة لمجاملة الجماعة بكلمة وداع.

وقال اليهودي في انفعال عارم: «يجب أن نعرف أين هو، يا أعزائي. يتعيَّن علينا أن نعثر عليه. تشارلي، لا تفعل شيئاً غير التسكع هنا وهناك حتى تجيئنا بنبأ ما عنه! نانسي، يا عزيزتي، إن عليّ أن أكتشف مكانه. وإني لأتكل في ذلك عليك، ياعزيزتي... عليك وعلى «المراوغ» البارع في كل شيء. قفوا! قفوا!» كذلك أضاف اليهودي وهو يفتح أحد الأدراج بيد مرتعشة: «دونكم هذه الدراهم، يا أعزائي! سوف أغلق هذا الدكان الليلة. ولسوف تعرفون أين تجدونني! لا تتلكأوا هنا دقيقة واحدة. بل لا تتلكأوا لحظة واحدة، يا أعزائي!»

قال هذه الكلمات ودفعهم إلى خارج الغرفة. ثم إنه أوصد الباب خلفه إيصاداً مزدوجاً ودعَّمه بالمزلاج، وأخرج الصندوق الذي كان قد أراه

لأوليفر ـ غير متعمِّد ـ من مخبئه. وسارع إلى إخفاء الساعات والجواهر تحت ثيابه.

وفي غمرة من انشغاله بذلك قُرِع الباب قرعاً أجفله.

وصاح في صوت حادّ: «مَن بالباب؟»

فأجابه صوت «المراوغ» من ثقب الباب: «أنا!»

فصاح اليهودي نافذ الصبر: «ما الذي تريد أن تقوله بعد؟»

فسأله «المراوغ»: «تريد نانسي أن تسألك هل نخطفه ونحمله إلى الوكر الآخر؟»

فأجاب اليهودي: «نعم. إذا ألقت القبض عليه في أيما مكان. اكتشفوا مكانه، هذا كل ما هنالك! ولسوف أعرف ما الذي يتعيَّن عليّ أن أفعله بعد ذلك. لا تقلقوا أبداً!»

فغمغم الغلام بجواب ينمّ عن الموافقة، وهبط السلّم، في سرعة، لاحقاً برفاقه.

وقال اليهودي مستأنفاً عمله: «إنه لم يشِ بنا حتى الآن. وإذا ما اعتزم أن ينمّ علينا بين أصدقائه الجدد فقد نستطيع أن نغلق فمه قبل أن يوفَّق إلى ذلك.»

الفصل الرابع عشر

ويشتمل على تفصيلات إضافية عن مقام أوليفر في منزل مستر براونلو مع النبوءة الرائعة التي أطلقها بشأنه ـ عندما مضى لأداء مهمة ما ـ رجل يدعى مستر غريمويغ(*)

ما إن ثاب أوليفر إلى رشده من الإغماء الذي أغرقته فيه تلك الصيحة المفاجئة التي كان مستر براونلو قد أطلقها حتى اجتنب كلٌ من السيد

(*) Crimwig، أي «اللمة المستعارة (الشعر المستعمار) الكالحة». (المعرب)

العجوز ومسز بيدوين، بكثير من الاحتراس، موضوع الصورة الزيتية في الحديث الذي تجاذبا أطرافه بعد ذلك. والواقع أن هذا الحديث لم ينطوِ على أية إشارة إلى تاريخ أوليفر أو مستقبله، بل كان مقصوراً على موضوعات يمكن أن تسليه من غير أن تهيجه، وكان لا يزال أضعف من أن ينهض من فراشه لتناول طعام الصباح، ولكنه حين هبط في اليوم التالي إلى حجرة المدبِّرة كان أول عمل قام به هو إلقاؤه نظرة لاهفة على الجدار، رجاة أن يرى مرّة أخرى وجه السيدة الجميلة. بيد أن آماله ما لبثت أن خابت: كانت الصورة قد نزِعت عن الجدار.

وقالت مدبِّرة المنزل وهي تراقب الناحية التي اتجهت إليها عينا أوليفر: «آه، لقد ذهبت كما ترى.»

فقال أوليفر: «هذا ما أراه، يا سيدتي. لماذا نزعوها عن الجدار؟»

فأجابته السيدة العجوز: «لقد نُزِعت، يا ولدي، لأن مستر براونلو قال: ما دامت هذه الصورة تزعجه، على ما يبدو، فمن غير المستبعد أن تحول بينه وبين الشفاء. أفهمت؟»

فقال أوليفر: «أوه، لا، أؤكد لك. إنها لم تزعجني، يا سيدتي، لقد أحببت أن أراها. لقد أحببتها حباً كثيراً.»

فقالت السيدة العجوز في بشاشة: «حسن، حسن، سوف تشفى بسرعة، يا عزيزي، ولسوف تعاد الصورة إلى موضعها من الجدار. إني أعِدُك بذلك! والآن، دعنا نتكلم عن شيء آخر.»

كان هذا كل ما استطاع أوليفر أن يطلع عليه، حتى ذلك الحين، من أمر الصورة الزيتية. وإذ كانت السيدة العجوز شديدة الإحسان إليه خلال مَرْضته فقد حاول أن لا يفكِّر، مؤقتاً، في تلك المسألة. وهكذا أصغى في انتباه إلى جمهرة كبيرة من الحكايات التي روتها على مسمعه عن بنت لها وسيمة حبيبة إلى القلب تزوجت من رجل وسيم حبيب إلى القلب، وعاشت معه في الريف، وعن ابن لها كان كاتباً عند تاجر في جزر الهند الغربية، وكان أيضاً شاباً طيباً إلى أبعد الحدود يكتب إلى أمه، أربع مرات

في العام الواحد، رسائل تنضح بالبر والحب إلى درجة تجعل الدمع يترقرق في عينيها كلما تحدثت عنه. حتى إذا أسهبت السيدة العجوز فترة طويلة في التحدث عن فضائل أولادها ومزايا زوجها الصالح الكريم الذي انتقل إلى رحمة ربه، بلل اللّه ثراه برحمته، منذ ست وعشرين سنة كاملة، كانت ساعة الشاي قد حانت. وبعد تناول الشاي شرعت تلقن أوليفر لعبة الكريبج(*)، فتعلَّمها بسرعة. وراحا يلعبان تلك اللعبة، في اهتمام ووقار عظيمين حتى آن للمريض أن يفوز بشيء من الخمر الممزوج بالماء الحار، مع قطعة من الخبز المحمص من غير زبدة ليمضي بعد ذلك إلى الفراش فينام نوماً هادئاً.

كانت أياماً سعيدة تلك التي قضاها أوليفر في مرحلة النقاهة. كان كل شيء هادئاً جداً، نظيفاً جداً، ومنظماً جداً، وكان كل امرئ كريماً ولطيفاً بحيث بدا لأوليفر، بعد الضجيج والاضطراب اللذين عاش في غمرتهما دائماً، أنه يحيا في الجنة نفسها. ولم يكد يستعيد عافيته إلى حد يمكّنه من ارتداء ثيابه حتى أصدر مستر براونلو أمره بتزويده ببذلة كاملة جديدة، وقلنسوة جديدة، وحذاء جديد. وإذ قال القوم لأوليفر إن في ميسوره أن يتصرف بملابسه القديمة كما يحلو له فقد قدَّمها إلى خادمة كانت قد بالغت في الاعتناء به، وسألها أن تبيعها لرجل يهودي، وتحتفظ بثمنها. وسرعان ما قامت الخادمة بذلك. وفيما كان أوليفر يطل من نافذة حجرة الاستقبال ويرى إلى اليهودي وهو يلف تلك الملابس ويدسُّها في كيسه ويمضي لسبيله، استشعر بهجة غامرة لمجرد التفكير في أنها قد ذهبت بسلام وفي أنه لم يبق ثمة أيما خوف محتمل من أن يضطر إلى ارتدائها بعد اليوم. والحق أنها كانت أسمالاً بائسة، ولم يكن أوليفر قد نعِم قبل ذلك ببذلة جديدة قط.

وذات مساء، بعد أسبوع انقضى على حادثة اللوحة الزيتية، وفيما كان

(*) Cribbage لعبة من ألعاب الورق. (المعرب)

أوليفر جالساً يتحدث إلى مسز بيدوين، جاءت رسالة من مستر براونلو مفادها أنه يرغب في استقبال أوليفر في مكتبه وفي التحدث إليه فترة قصيرة، شرط أن يكون الغلام في حال صحية حسنة.

فقالت مسز بيدوين: «نجِّنا يا رب! نجِّنا يا رب! اغسل يديك، ودعني أفرِق لك شعرك فرقاً حسناً، يا صغيري. يا إلهي! لو عرفنا أنه سوف يستدعيك إذن لألبسناك ياقة نظيفة، ولجعلناك أنيقاً مثل قطعة نقدية جديدة من فئة البنسات الستة!»

وفعل أوليفر ما أمرته السيدة العجوز بفعله. وعلى الرغم من أنها تشكَّت، خلال ذلك، من أنه ليس لديها متسع من الوقت حتى لتمويج الهدب الصغير المحيط بياقة قميصه، فقد بدا من الأناقة والوسامة ـ برغم ذلك النقص المادي الهام ـ بحيث لم تتمالك نفسها عن القول، عندما نظرت إليه في رضا شديد من قمة الرأس إلى أخمص القدم، إنها في الحق لا تعتقد أنه كان في ميسورها، لو أعطيت علماً قبل فترة كافية برغبة مستر براونلو في استقباله، أن تزيد مظهره ذاك، حسناً وأناقة، زيادة ملموسة.

وقرع أوليفر، بعد أن زُوّد بهذا التشجيع، باب المكتب. حتى إذا دعاه مستر براونلو إلى الدخول ألفى نفسه في حجرة خلفية صغيرة غاصة بالكتب، ذات نافذة تطل على بعض الحدائق الصغيرة الجميلة. كانت تقوم أمام النافذة طاولة جلس إليها مستر براونلو وفي يده كتاب يقرأه. حتى إذا وقع بصره على أوليفر وضع كتابه جانباً، وسأله أن يدنو من الطاولة ويجلس. وامتثل أوليفر الأمر، متسائلاً أين يمكن أن يوجد عددٌ من الناس كاف لقراءة هذا العدد الضخم من الكتب التي صُنِّفت، في ما يبدو، لجعل العالم أعقل وأوفر حكمة. وهو لغز يُعْجز، حتى الأقوام الأكثر خبرة من أوليفر تويست. كلّ يوم من أيام حياتهم.

ـ «إن هنا عدداً ضخماً من الكتب، أليس كذلك يا بُنيّ؟» كذلك قال مستر براونلو حين لاحظ الفضول لدى أوليفر من تلك الرفوف المرتفعة من أرض الحجرة حتى سقفها.

فأجابه أوليفر: «عددٌ ضخمٌ جداً، يا سيدي. أنا لم أرَ قط من قبل مثل هذا القدر كله من الكتب.»

فقال السيد العجوز في لطف: «سوف يكون من حقك أن تقرأها إذا كان سلوكك حسناً. ولسوف تحب ذلك أكثر من حبك النظر إلى غلافاتها الجلدية... أعني في بعض الأحوال، لأن هناك كتباً تعتبر الغلافات خير أجزائها على الإطلاق.»

ـ «أحسب أنك تقصد هذه الكتب الثقيلة، يا سيدي،» قال أوليفر وهو يومئ إلى أسفار ضخام تزهو غلافاتها بقَدْر وافر من مداد الذهب.

فقال السيد العجوز مربِّتاً على رأس أوليفر وهو يبتسم: «ليس دائماً. أن ثمة كتباً أخرى لا تقل عنها ثقلاً، وإن تكن أصغر حجماً. هل تحب أن تصبح، عندما تكبر، رجلاً بارعاً وأن تؤلف الكتب؟»

فأجابه أوليفر: «أحسب أني أفضِّل أن أقرأها، يا سيدي.»

فقال السيد العجوز: «ماذا؟ ألا تحب أن تكون مؤلف كتب؟»

وفكَّر أوليفر فترة يسيرة. وأخيراً قال إنه يرى أن من الخير له أكثر أن يصبح كتبيّاً. عندئذ ضحك السيد العجوز من شغاف قلبه وأعلن أنه قال شيئاً جيداً جداً، فسرّ أوليفر بذلك، رغم أنه لم يعرف بأية حال ما هو ذلك الشيء.

وقال السيد العجوز مستعيداً ملامحه الجادّة: «حسن، حسن، لا تخف! إننا لن نجعل منك كاتباً، ما دام ثمة صناعات شريفة أخرى يمكن أن تتعلمها، أو ما دام في استطاعتك أن تكسب رزقك من عمل الطوب والقرميد.»

فقال أوليفر: «أشكرك، يا سيدي.»

وضحك السيد العجوز، مرّة أخرى، للطريقة المتقدة التي أطلق بها هذا الجواب. وقال شيئاً عن غريزة غريبة ما، لم يفهمه أوليفر، ومن أجل ذلك لم يُوْلِهِ اهتماماً كبيراً جداً.

فقال مستر براونلو، متحدثاً بلهجة ألطف، ولكنها في الوقت نفسه

أكثر جدّية، من أيما لهجة قدِّر لأوليفر أن يسمعه يتحدث بها: «والآن، أريد منك، يا بُنيّ، أن تنتبه لما أعتزم أن أقوله. سوف أتحدث إليك في غير تحفظ، لأني واثق من أنك قادر على فهمي كمثل قدرة كثير ممن هم أكبر منك سناً.»

فصاح أوليفر وقد روَّعته النبرة الجادّة التي غلبت على كلمات السيد العجوز الاستهلالية: «أوه، لا تقل لي أنك سوف تخرجني من بيتك، يا سيدي، أرجوك. لا تطردني... لا تدعني أهيم على وجهي في الشوارع مرّة أخرى. دعني أبقى هنا، كخادم من الخدم. لا ترجعني إلى ذلك المكان البائس الذي جئت منه. أشفق، يا سيدي، على غلام شقيّ مسكين!»

فقال السيد العجوز وقد تأثر بحرارة مناشدة أوليفر المفاجئة: «يا ولدي العزيز، لا داعي لأن تخشى تخلِّيَّ عنك إلا إذا أحوجتني إلى ذلك.»

فقاطعه أوليفر: «لن أحوجك.. لن أحوجك أبداً، يا سيدي.»

فقال السيد العجوز: «أرجو ذلك. أنا لا أحسب أنك سوف تحوجني إلى هذا في أيما يوم من الأيام. لقد خدعني، من قبل، كثير من الأشخاص الذين حاولت أن أنفعهم، ولكني مع ذلك أشعر بميل قوي إلى الوثوق بك. وإني لأجدني مهتماً بمصلحتك اهتماماً أعجز عن تفسيره حتى لنفسي. إن المخلوقات التي حبَوْتها بأعظم حبي ليرقدون الآن في أجداثهم، ولكن على الرغم من أن سعادة حياتي وبهجتها مدفونتان هناك أيضاً فإني لم أجعل من فؤادي نعشاً ولم أختمه حابساً فيه، إلى الأبد، أسمى عواطفي. إن الحزن العميق لم يزدها إلا قوة وصفاء.»

وإذْ قال السيد العجوز هذا في صوت خفيض ـ وكأنه يكلم نفسه أكثر مما يكلِّم مخاطبهُ ـ واعتصم بالصمت فترة يسيرة بعد ذلك، فقد لزم أوليفر الهدوء والسكينة.

وأخيراً قال السيد العجوز في لهجة لطيفة: «حسن، حسن. أنا لا أقول هذا إلا لأن لك فؤاداً غضّاً، ولأن معرفتك بما قاسيت من ألم وأسى

عظيمين ربما جعلتك تتورّع عن إصابتي بجراح جديدة. أنت تقول إنك يتيم لا صديق لك في هذا العالم، والواقع أن جميع الاستطلاعات التي وفقت إلى القيام بها تؤيد هذا القول. فدعني أسمع قصتك: قل لي من أي بلدة أنت، ومن الذي تولى تنشئتك، وكيف تم اتصالك بالجماعة التي وجدتك بينها. قل الحقيقة، وعندئذ لن تبقى من غير صديق ما دمت أنا على قيد الحياة.»

وحالَ النشيج، بضع دقائق، بين أوليفر وبين الكلام. حتى إذا كان على وشك البدء في التحدث عن الطريقة التي نُشِّئ بها في الملجأ الفرعي وكيف نقله مستر بامبل إلى الملجأ الرئيسي قُرِع الباب الخارجي مرتين قرعاً مقتضباً نافد الصبر إلى مدى بعيد. وارتقت الخادم السلّم إلى الدور العلوي لتعلن عن تشريف مستر غريمويغ.

فسألها مستر براونلو: «هل يعتزم الصعود إلى هنا؟»

فأجابته الخادم: «نعم، يا سيدي. لقد سألني ما إذا كان عندنا بعض أقراص الحلوى، وحين أجبته بالإيجاب قال إنه جاء لتناول الشاي.»

وابتسم مستر براونلو. ثم التفت إلى أوليفر وقال له إن مستر غريمويغ صديق من أصدقائه القدماء. وإن عليه أن لا يبتئس إذا ما وجده على شيء من الفظاظة. ذلك بأنه، في أعماقه، رجل فاضل ـ وهو أمرٌ يملك مستر براونلو شواهد كثيرة عليه.

وتساءل أوليفر: «هل أهبط إلى الدور الأرضي، يا سيدي؟»

فأجابه مستر براونلو: «لا. إني أفضل أن تبقى هنا.»

وفي تلك اللحظة دخل الحجرة، متوكئاً على عصا غليظة، سيد عجوز ممتلئ الجسم، أعرج بعض الشيء، مُرْتد سترة زرقاء، وصدرة مخططة، وبنطالاً وجرموقاً(*) أصفرين مصنوعين من قطن صينيّ، ويعتمر بقبعة بيضاء عريضة الحافة، خضراء الثَّنْية. كان هدبُ قميصه مُثَنَّى تثْنيات

(*) ضرب من الجوارب، يعرف عند العامة بـ «الجيتر». (المعرب)

دقيقة جداً ينبثق من تحت صدرته، وكانت سلسلة ساعة فولاذية طويلة جداً، ليس في طرفها الأدنى غير مفتاح، تتدلى تحتها في حرية. وكان طرفا منديل عنقِهِ الأبيض معقودين على شكل كُرة بمثل حجم البرتقالة. وكانت صنوف الأشكال التي اتخذها محيَّاه المَلْويّ على نحو شائِه تتحدَّى الوصف. وكان من دأبه أن يبْرُم رأسه جانباً وهو يتكلم، وأن يرسل النظرات في الوقت نفسه من عينيه، على نحو يذكِّر من يراه، تذكيراً لا يقاوم، ببغاء من الببغاوات. وعلى هذا الوضع ثبَّتَ نفسه حالما دخل الحجرة، وهتف في صوت ضار متبرّم ممسكاً بيده الممدودة إلى أمام بقشرة برتقال صغيرة:

ـ «انظر، هل ترى هذه؟ أليس من أغرب الأشياء وأدعاها إلى العجب أني لا أعمد إلى زيارة بيت رجل من الرجال إلا وأجد على السلّم قطعة من «صديق الأطباء» الشقيّ هذا؟ لقد أصِبْتُ بالعرج، ذات يوم، من جراء قشرة برتقال، وأنا أعرف أن قشر البرتقال هو الذي سيوردني حتفي آخر الأمر. أجل، يا سيدي: إن قشر البرتقال سوف يوردني حتفي، وإلا رضيتُ بأن آكل رأسي نفسه، يا سيدي!»

ذلك كان هو العرض الذي تعوّد مستر غريمويغ أن يدعم ويثبِّت به كل توكيداته تقريباً. وكان ذلك بالغ الغرابة إلى أبعد حدّ في حالته هو، لأن رأسه ـ حتى ولو سلَّمنا جدلاً بأن التقدم العلمي يمكن أن يقود ذات يوم إلى وضع يمكِّن المرء من أن يأكل رأسه إذا ما راق له ذلك ـ أقول كان ذلك بالغ الغرابة لأن رأس مستر غريمويغ كان ضخماً على نحو فريد بحيث لا يستطيع أكثر الأحياء تفاؤلاً أن يطمع في التهامة، إلا بشقّ النفس، في جلسة واحدة ـ هذا إذا لم نُدخل في الحساب، أيضاً، طبقة من الذرور كثيفة جداً كانت تعلو ذلك الرأس.

وكرر مستر غريمويغ، ضارباً الأرض بعصاه: «سوف آكل رأسي يا سيدي.» ثم أضاف، ناظراً إلى أوليفر، ومتراجعاً خطوة أو خطوتين: «هالو! ما هذا؟»

فقال مستر براونلو: «هذا أوليفر تويست الصغير الذي تحدثنا عنه.»

فانحنى أوليفر انحناءة احترام.

وقال مستر غريمويغ وهو يغالي في الارتداد إلى وراء: «أنت لا تقصد أن تقول لي إنه ذلك الغلام الذي أصيب بالحمَّى؟.. انتظر دقيقة! لا تتكلم! انتظر...» كذلك تابع مستر غريمويغ فجأة وقد تحرَّر من خوف الحمى حين وُفِّق إلى الانتصار في هذا الاكتشاف: «هذا هو الغلام الذي قشَّر البرتقالة. إذا لم يكن هذا هو الغلام الذي قشَّر البرتقالة وطرح هذه القشرة على السلم أكلتُ رأسي وأكلت رأسه هو أيضاً.»

فقال مستر براونلو ضاحكاً: «لا، لا، إنه لم يأكل أية برتقال. هيَّا! انزع قبعتك، وتحدَّث إلى صديقي الشاب.»

عندئذ قال السيد العجوز، السريع الاهتياج، وهو يخلع قفازيه: «أنا شديد الحساسية في هذا الموضوع. إن ثمة دائماً قليلاً أو كثيراً من قشور البرتقال على رصيف شارعنا. وأنا أعلم علم اليقين أن صبيّ الطبيب الذي في الزاوية هو الذي وضعها هناك. لقد زلت القدم بامرأة شابة، الليلة الماضية. بسبب من قشرة صغيرة، فسقطت على درابزون حديقتي. ولم تكد تنهض من عثرتها حتى رأيتها تنظر نحو مصباحه الأحمر الخبيث ذي الضوء الباهت، فناديتها من النافذة قائلاً: «لا تذهبي إلى عيادته. إنه سفاح! فخٌّ بشريٌّ! وكذلك هو في الواقع. وإذا لم يكن...» وهنا ضرب العجوز النزق الأرض بعصاه ضربة عنيفة كان من دأب أصدقائه أن يعتبروها دائماً ضرباً من التعبير الضمنيّ عن عرْضِه المألوف، كلما أحجم عن إفراغِهِ في كلمات، ثم إنه يجلس، وعصاه في يده لا تفارقها، ولبس نظارة مزدوجة معلقة بشريط عريض أسود وألقى نظرة على أوليفر، الذي تضرّج وجهه، حين ألفى نفسه موضع المعاينة، والذي سارع إلى الانحناء ـ احتراماً ـ مرّة أخرى.

وأخيراً قال مستر غريمويغ: «هذا هو الغلام، أليس كذلك؟»

فأجابه مستر براونلو: «أجل، هذا هو.»

فقال مستر غريمويغ: «كيف أنت، يا بني؟»

فأجابه أوليفر: «أحسن بكثير. أشكرك، يا سيدي.»

وإذ خشي مستر براونلو، في ما يبدو، أن يكون صديقه الفريد على وشك أن يقول شيئاً بغيضاً، فقد سأل أوليفر أن يهبط السلم وينبئ مسز بيدوين أنهما على استعداد لتناول الشاي. وهو أمرٌ سارع الغلام إلى تنفيذه في ابتهاج عظيم بسبب من عدم ارتياحه إلى موقف الزائر منه.

وقال مستر براونلو: «إنه غلام بهيّ الطلعة، أليس كذلك!»

فأجابه مستر غريمويغ في نكد: «لست أدري.»

ـ «لست تدري؟»

ـ «لا. لست أدري. إن جميع الصبية عندي سواء. فأنا لا أعرف غير نوعين منهم: الصبية ذوي الوجوه الشاحبة، والصبية ذوي الوجوه الناضرة.»

ـ «وإلى أي نوع ينتسب أوليفر؟»

ـ «إلى الصبية ذوي الوجوه الشاحبة. أنا أعرف صديقاً له غلام منتفخ الوجه. غلام رائع كما يزعمون، ذو وجه مستدير، ووجنتين حمراوين، وعينين ملتهبتين. غلام رهيب، ذو جسد وأطراف تبدو وكأنها تندلق من ثنايا ملابسه الزرقاء. غلام له صوت ربان، وشهوة ذئب إلى الطعام. أنا أعرفه، ذلك الصعلوك الحقير!»

فقال مستر براونلو: «كفى، كفى، هذه ليست خصائص أوليفر تويست الشاب. ومن هنا فليس ثمة ما يدعوك إلى النقمة عليه»

فأجابه مستر غريمويغ: «أجل، إنها ليست خصائصه. ولكنه قد يكون ذا خصائص أسوأ.»

وهنا سعل مستر براونلو في صبر نافد بدا وكأنه أتاح لمستر غريمويغ فرصة الابتهاج إلى حد مغالى فيه.

وكرَّر مستر غريمويغ: «من أيّ بلدة هو؟ ومن هو؟ وما هو؟ لقد

أصيب بالحمى. وأي بأس في هذا؟ إن الحميَّات ليست وقفاً على الطيبين من الناس... هل هي وقف عليهم؟ الأشرار يصابون بالحمى أحياناً... هذا صحيح، أليس كذلك؟ أنا أعرف رجلاً شنِق في جامايكا لقتله سيده. لقد أصيب بالحمى ست مرّات؛ ولم يفكِّر أحدٌ في الإشفاق عليه بسبب من ذلك. بوه! هراء!»

والواقع أن مستر غريمويغ كان، في أعمق أعماقه، شديد الميل إلى التسليم بأن مظهر أوليفر وسلوكه كانا فاتنين إلى حد غير مألوف، ولكنه كان عظيم الشهوة إلى المتناقضات، وهي شهوة زادها حدّة، هذه المرة، عثوره على قشرة البرتقال. وإذ كان قد قرَّر في ما بينه وبين نفسه أن لا يجيز لأحد أن يملي عليه ما إذا كان غلام ما بهيّ الطلعة أم لا، فقد عقد العزم، منذ البدء، على أن يعارض صديقه. وحين سلّم مستر براونلو بأنه لم يستطع أن يفوز بأيما جواب ضمنيّ عن أيٍّ من النقاط التي سعى إلى استطلاعها، وأنه قد أرجأ كل تحقيق في تاريخ أوليفر الماضي إلى أن يتبدَّى له الغلام وقد أمسى من القوة بحيث يقوى على احتمال ذلك... أقول حين سلَّم مستر براونلو بذلك ابتسم مستر غريمويغ في خبث وتساءل، بسخرية، ما إذا كان من عادة مدبِّرة المنزل أن تعدّ أدوات المائدة الفضية والذهبية عندما يهبط الليل، لأنها إن لم تفتقد ملعقة أو ملعقتين ذات صباح مشرق كنت على استعداد لأن... إلخ.»

وعلى الرغم من أن مستر براونلو كان رجلاً متهوراً بعض الشيء فقد احتمل هذا في رحابة صدر، ذلك بأنه كان يعرف طِباع صديقه الغريبة. وإذ كان مستر غريمويغ قد تلطَّف، خلال تناول الشاي، فعبَّر عن إعجابه الكلِّي بأقراص الحلوى فقد جرى كل شيء على نحو سائغ. وأخذ أوليفر يستشعر اطمئنان النفس أكثر مما استشعره في أي لحظة مضت في حضرة ذلك العجوز الشرس.

ـ «ومتى تعتزم أن تسمع القصة الكاملة، الصحيحة، المحققة لحياة ومغامرات أوليفر تويست؟» كذلك قال غريمويغ لمستر براونلو عند الفراغ

من تناول الشاي، ناظراً بطرف عينه إلى أوليفر فيما هو يستأنف الحديث عنه.

فأجابه مستر براونلو: «غداً صباحاً. وإني لأؤثر أن أخلو إليه عندئذ. اسعَ إليَّ غداً صباحاً في الساعة العاشرة، يا عزيزي.»

ـ «نعم، يا سيدي» كذلك أجاب أوليفر. ولم يكن جوابه ذاك خالياً من التردد، لأن نظرات مستر غريمويغ المسدّدة إليه أربكته.

فهمس ذلك السيد في أذن مستر براونلو: «أريد أن أقول لك شيئاً، وهو أنه لن يسعى إليك غداً صباحاً. لقد رأيته يتردد. إنه يخدعك، يا صديقي العزيز.»

فقال مستر براونلو في حرارة: «سوف أقسم إنه لا يخدعني.»

عندئذ قال مستر براونلو: «إن صح أنه لا يخدعك رضِيْتُ بأن. . .» وضرب الأرض بعصاه.

فقال مستر براونلو ضارباً الطاولة بجمع يده: «إذا لم يُثبِت الغد صدق هذا الغلام كنتُ مستعداً للتخلّي عن حياتي!»

فأجابه مستر غريمويغ وهو يضرب الطاولة هو الآخر بجمع يده: «وإذا لم يثبت الغد كذبه كنت مستعداً للتخلي عن رأسي!»

فقال مستر براونلو، كابحاً غضبه: «سنرى.»

فأجابه مستر غريمويغ، في ابتسامة مستفِزّة: «أجل، سنرى.»

وشاءت الأقدار أن تفِد مسز بيدوين، في تلك اللحظة، حاملة رزمة كتب صغيرة كان مستر براونلو قد اشتراها ذلك الصباح من ذلك الكتبيّ نفسه الذي سبق له أن لعب دوراً في هذه القصة. حتى إذا وضعتها على الطاولة استعدّت لمغادرة الحجرة.

فقال مستر براونلو: «أوقفي الصبي الذي جاء بالكتب، يا مسز بيدوين! إن هناك شيئاً يجب أن يُعاد.»

فأجابته مسز بيدوين: «لقد ذهب، يا سيدي.»

فقال مستر براونلو: «ناديه. هذا مهمّ. إنه رجل فقير، وهذه الكتب لم يُدفْع ثمنها. وهناك كتب يجب أن تُعاد إيضاً.»

وفتح الباب المفضي إلى الشارع، وانطلق أوليفر في اتجاه وانطلقت الفتاة في اتجاه في حين وقفت مسز بيدوين على العتبة وصاحت منادية الصبيّ، ولكن لم يكن ثمة على مدى البصر أيما صبيّ. وانقلب أوليفر والفتاة عائدين، وهما يلهثان، وأعلنا أنهما لم يعثرا له على أثر.

فهتف مستر براونلو: «يا إلهي! ما أعظم أسفي لهذا! لقد كنت شديد الحرص على إعادة هذه الكتب الليلة.»

فقال مستر غريمويغ، في ابتسامة ساخرة: «اعهَدْ إلى أوليفر بنقلها. إنه لا بد أن يوصلها بسلام، كما تعلم.»

فلم يكن من أوليفر إلا أن قال: «أجل، دعني أنقلها إليه، إذا شئت، يا سيدي. إني سوف أجتاز المسافة كلها عَدْواً، يا سيدي.»

وكان السيد العجوز على وشك أن يقول إن أوليفر يجب أن لا يذهب أياً ما كانت الذريعة، عندما أطلق مستر غريمويغ سعالاً بالغ الخبث حمله على تغيير رأيه، وأقنعه بأن تكليفه العاجل بهذه المهمة قد يبدد شكوك ذلك السيد الظالمة، من هذه الناحية على الأقل، في غير ما ابطاء.

فقال: «سوف تذهب، يا عزيزي، الكتب على الكرسي المجاور للطاولة، جئني بها.»

فسارع أوليفر إلى الكرسي وتأبط الكتب، مبتهجاً بأن يؤدي خدمة ما، ووقف أمام السيد العجوز، ممسكاً قلنسوته بيده، منتظراً أن يسمع الرسالة التي كان عليه أن يؤديها.

وقال مستر براونلو، ناظراً إلى غريمويغ على نحو موصول: «يجب أن تقول إنك جئت لإعادة هذه الكتب إلى الرجل، وإنك تريد أن تدفع الأربعة جنيهات ونصف التي له في ذمتي. دونك ورقة الخمسة جنيهات هذه، وهكذا يتعيَّن عليك أن تعيد إليَّ عشرة شلنات من أصلها.»

ـ «لن أغيب غير عشر دقائق، يا سيدي.» قال أوليفر ذلك في لهفة. ثم إنه زرّر سترته على الورقة النقدية، وتأبط الكتب في عناية، وانحنى انحناءة احترام، وغادر الحجرة. وتبعته مسز بيدوين إلى الباب الخارجي، وأعطته كثيراً من التعليمات عن الطريق الأقرب، وعن اسم الكتبي، واسم الشارع، فأعلن أوليفر أنه فهم ذلك كله فهماً واضحاً. وبعد أن أوصته، فوق هذا، بأن يحاذر التعرّض للزكام أجازت له السيدة العجوز، آخر الأمر، أن ينصرف.

وقالت السيدة العجوز: «فليبارك اللّه وجهه الحلو! أنا لا أطيق، بطريقة ما، أن أدعه يغيب عن ناظري.»

وفي تلك اللحظة أجال أوليفر طرفه في ما حوله، في ابتهاج، وحنى رأسه بالتحية قبل أن ينعطف عند الزاوية. فردّت السيدة العجوز تحيته تلك في ابتسام، ثم أوصدت الباب وانقلبت إلى حجرتها الخاصة.

وقال مستر براونلو وهو يُخرج ساعته من جيبه ويضعها على الطاولة: «دعني أرى. إنه سوف يعود في مدى عشرين دقيقة، على الأكثر. ولسوف يكون الظلام قد هبط عندئذ.»

فتساءل مستر غريمويغ: «أوه! هل تعتقد حقاً أنه سيعود؟ قل لي!»

فسأله مستر براونلو: «ألا تعتقد ذلك؟»

وكانت روح التناقض قوية، تلك اللحظة، في صدر مستر غريمويغ. ولقد زادتها ابتسامةُ صديقه الواثقة قوة على قوة.

وقال ضارباً الطاولة بيده: «لا. لا أعتقد. إن على ظهر الغلام بذلة جديدة، وتحت ذراعه مجموعة من الكتب القيمة، وفي جيبه ورقة من فئة الخمسة جنيهات. إنه سوف يلتحق باللصوص أصدقائه القدماء، ويسخر منك. وإذا ما قدِّر لذلك الغلام أن يرجع في أي يوم من الأيام إلى هذا البيت، يا سيدي، أكلت رأسي.»

ولم يكد يتمّ كلماته هذه حتى أدنى كرسيه إلى الطاولة. وهكذا جلس الصديقان، في توقُّع صامت، والساعة بينهما.

وليس من غير المفيد أن نلاحظ ـ لكي نصوِّر الأهمية التي نعلِّقها على أحكامنا الخاصة والغرور الذي نطلق به أشد قراراتنا تهوراً واندفاعاً ـ إنه على الرغم من أن مستر غريمويغ لم يكن بأية حال رجلاً متحجر القلب وعلى الرغم من أن الأسى الصادق كان يمكن أن يوجع فؤاده لو ألفى صديقه المحترم ضحية خداع وتغرير، فقد كان يرجو، في تلك اللحظة، بأقصى الحماسة والقوة، لو تطول غيبة أوليفر تويست فلا يعود إلى منزل مستر براونلو أبداً.

واشتد الظلام حتى لقد أمست الأرقام المرسومة على وجه الساعة لا تُرى إلا بشق النفس. ومع ذلك، ظل السيدان العجوزان جالسين، في صمت، والساعة بينهما.

الفصل الخامس عشر

وهو يظهر مدى ولوع اليهودي العجوز المرح والآنسة نانسي بأوليفر تويست

في حجرة الاستقبال القاتمة من إحدى الحانات الخفيضة، في أقذر جزء من «كثيب صافرون الصغير» ـ وهو وكر مظلم كان مصباح غازيّ متلجلج ينيره طوال ساعات النهار في أيام الشتاء، وكان أيما شعاع من أشعة الشمس لا ينفذ إليه في أيام الصيف ـ جلس رجلٌ مستغرق في التفكير أمام مكيال صفيحيّ صغير وكأس صغيرة... رجلا تفوح منه رائحة الخمر، مُرتد سترة من مخمل قطنيّ وبنطالاً قصيراً عسليِّ اللون، وجورباً وحذاء نصف عالي الساق، لم يكن أيما شرطي متمرس ليشك لحظة ـ حتى على ضوء ذلك النور الباهت ـ أنه مستر وليم سايكس. وعند قدميه، قبع كلب أبيض الفروة أحمر العينين شغل نفسه، على نحو متناوب، بغمز سيده بعينيه الاثنتين في وقت واحد، وبلَعْقِ جرح جديد بليغ في جانب من فمه بدا وكأنه ثمرة صراع حديث العهد.

ـ «إلزم الهدوء، أيها الكلب القذر! إلزم الهدوء!» كذلك قال مستر سايكس قاطعاً الصمت فجأة. فهل كانت تأملاته من العمق بحيث تفسدها غمزات الكلب؟ أم هل كانت تلك التأملات قد أرهقت أعصابه إلى حد جعلها محتاجة إلى كامل الارتياح المستمدّ من رفْس حيوان لم يسئ إليه لكي يلطِّف من توترها؟ الواقع أن هذه مسألة تحتمل الجدل والتفكير. وأياً ما كان السبب فإن النتيجة كانت رفسة ولعنة أسْبغتا على الكلب في آن معاً.

إن الكلاب لا تنزع، عادة، إلى الثأر لنفسها من المظالم التي يُنزلها أصحابها بها. ولكن كلب مستر سايكس ـ وهو الذي يشارك صاحبه بعض شوائب الخُلق والذي كان يرزح في تلك اللحظة تحت وطأة ثقيلة من الشعور بالظلم ـ لم يضع وقته في أيما جلبة أو لغط بل سارع إلى غرز أسنانه في فروة من الحذاء نصف عالي الساق. حتى إذا هزّها هزة عنيفة انسحب، وهو يعوي، تحت مقعد خشبي، ناجياً بذلك من المكيال الصفيحيّ الذي سدَّده مستر سايكس إلى رأسه.

ـ «آه، هكذا إذن!» كذلك قال سايكس، ممسكاً بمحراك النار بإحدى يديه، وفاتحاً بالأخرى في كثير من الأناة مطواة كبيرة أخرجها من جيبه. «تعال إلى هنا، أيها الشيطان المتجسِّد! تعال إلى هنا! هل تسمع؟»

ولقد سمع الكلب من غير ريب، لأن مستر سايكس تكلم بأخشن طبقة من طبقات صوت بالغ الخشونة. ولكنه بدا وكأنه يضمر اعتراضاً لا تفسير له على احتزاز عنقه، فظلَّ في موضعه لا يريم، وراح يعوي على نحو أحفل بالضراوة من ذي قبل، ممسكاً بطرف المحراك ـ في الوقت نفسه ـ بين أسنانه، عاضاً عليه مثل وحش مفترس.

هذه المقاومة لم تزد مستر سايكس إلا هياجاً على هياج، فجثا على الأرض وحمل على البهيمة بأقسى ما استطاع من ضراوة. ووثب الكلب من اليمين إلى اليسار، ومن اليسار إلى اليمين، ناهشاً، عاراً، نابحاً. وطعن الرجلُ ولعن، وضرب وجدَّف. وكان الصراع قد أوشك أن يبلغ المرحلة الأشدّ حرجاً، بالنسبة إلى هذا الفريق أو إلى ذاك، عندما فُتح

الباب فجأة، فاندفع الكلب إلى الخارج، مخلِّفاً بيل سايكس وفي يديه محراك النار والمطواة الكبيرة.

يقول المثل القديم: لا بدَّ لكل نزاع من فريقين اثنين. وإذ حُرِم مستر سايكس من مشاركة الكلب فقد حوَّل حصَّته في النزاع ـ على التوّ ـ إلى الوافد الجديد.

وقال سايكس في إيماءة ضارية: «ما الذي جعلك، بحق الشيطان، تقحم أنفك بيني وبين كلبي؟»

ـ «لم أدرِ، يا عزيزي، لم أدر!» كذلك أجابه فاجين في تذلل. ذلك بأن اليهودي العجوز كان هو الوافد الجديد.

فعرّ سايكس: «لم تدرِ، أيها اللص المخلوع الفؤاد! ألم يكن في إمكانك أن تسمع الضجة؟»

فأجابه اليهودي: «لم أسمع أدنى ضجة. في استطاعتك أن تثق من ذلك ثقتَك من أني حيّ أرزق.»

فقال سايكس في سخرية ضارية: «أوه، لا! أنت لا تسمع شيئاً البتة. أنت تنسلّ دائماً إلى داخل الجدران وإلى خارجها بحيث لا ينتبه إليك المرء وأنت تدخل أو تخرج! لشد ما أتمنى لو كنت أنت الكلب، يا فاجين، قبل نصف دقيقة ليس غير.»

فسأله اليهودي في ابتسامة متكلفة: «لماذا؟»

فأجابه سايكس، وهو يغلق المطواة الكبيرة ويحدج اليهودي بنظرة معبِّرة: «لأن الحكومة، التي تُعْنى بحياة أمثالك من الرجال الذين لا يملكون نصف ما يملكه الكلاب من جرأة وإقدام، تدع المرء يقتل كلبه كما يحلو له! هذا هو السبب!»

وفرك اليهودي يديه، وجلس إلى الطاولة ضاحكاً، على نحو متكلِّف، لمزاح صديقه. بيد أنه كان، من غير ريب، مضطرب النفس اضطراباً شديداً.

فقال سايكس، معيداً محراك النار إلى موضعه، ناظراً إلى اليهودي في ازدراء: «اضحك. . . اضحك ما شئت. فلست أنت من يسخر مني، إلا إذا كان ذلك في المنام. إني أنا صاحب اليد العليا عليك، يا فاجين، وأقسم لك إني لن أتخلى عن تفوقي هذا. انتبه! إذا قضي عليّ أنا قضي عليك أنت! وهكذا يحسن بك أن تأخذ حذرك!»

فقال اليهودي: «حسن، حسن، يا عزيزي. أنا أعرف هذا كله. إن. . . إن مصلحة مشتركة تجمع ما بيننا، يا بيل. أجل. . . مصلحة مشتركة.»

فقال سايكس، وكأنه يعتقد أن تلك المصلحة لم تكن متكافئة وأن نصيب اليهودي منها كان أعظم من نصيبه: «كفى، كفى. ما الذي تريد أن تقوله لي؟»

فأجابه فاجين: «لقد انقضى كل شيء بسلام. وهذه هي حصتك. إنها أعظم بعض الشيء مما ينبغي أن تكون، يا عزيزي. ولكني واثق من أنك سوف تردّ لي الجميل في مناسبة أخرى. و. . .»

فقاطعه اللص بنفاد صبر: «اقلع عن هذا الهراء! أين هي؟ ادفعها إليّ!»

فأجابه اليهودي، في لهجة متملقة: «أجل، أجل، يا بيل. أمهلني قليلاً! أمهلني قليلاً ها هي ذي! خذها كاملة غير منقوصة!» قال ذلك وأخرج من صدره منديلاً قطنياً عتيقاً، ثم حلّ عقدة كبيرة في إحدى زواياه، وأبرز منه رزمة ورقية سمراء صغيرة. فلم يكن من سايكس إلا أن اختطف الرزمة منه، وفتحها على عجل، وأنشأ يعدّ ما اشتملت عليه من جنيهات ذهبية.

وسأله سايكس: «هذا كل شيء، أليس كذلك؟»

فأجابه اليهودي: «أجل، كل شيء.»

فسأله سايكس في ارتياب: «أنت لم تفتح الرزمة وتبلع، وأنت في

طريقك إليّ، واحداً أو اثنين منها، أليس كذلك؟ لا تتظاهر بأن سؤالي هذا قد جرح كبرياءك، فقد أقدمت على مثل ذلك مرات عديدة. رجَّ الجلجل!»

وإنما تعني اللفظتان، باللسان الإنكليزي الصريح: «اقرع الجرس!» فإذا بيهودي آخر يلبي النداء: يهودي أصغر سناً من فاجين، ولكنه لا يقلّ عنه دناءة وبشاعة مظهر.

واكتفى بيل سايكس بالإيماء إلى المكيال الفارغ. وفهم اليهودي ذلك التلميح أحسن فهم، فانسحب لكي يملأه، ولكن بعد أن تبادل نظرة غريبة مع فاجين، الذي رفع بصره لحظة، وكأنه يتوقعها، وهزَّ رأسه جواباً عنها، على نحو طفيف إلى درجة كادت تخفي تلك الحركة عن عين أيما شخص ثالث يراقبهما. ومهما يكن من أمر، فقد فاتت سايكس، الذي كان منحنياً، في تلك اللحظة، يعقد شريط حذائه الذي مزقه الكلب. ومن يدري؟ فلعله لو لاحظ تبادل النظر الخاطف ذاك، إذن لخُيِّل إليه أنه لا يبشِّره بشيء من الخير.

ـ «هل يوجد أحد هنا، يا بارني؟» كذلك تساءل فاجين من غير أن يرفع عينيه عن الأرض بعد أن أخذ سايكس ينظر إليه.

فأجابه بارني: «ليس يوجد أي مخلوق». وسواء أصدرت هذه الكلمات من القلب أم لم تصدر فإنها خرجت عبر الأنف على أية حال.

ـ «لا أحد؟» كذلك تساءل فاجين في لهجة متعجبة، ربما عنت أن في إمكان بارني أن يقول الحقيقة من غير أن يحتاط أو يتحفظ.

فأجابه بارني: «لا أحد غير الآنسة نانسي.»

فهتف سايكس: «نانسي؟ أين هي؟ فلأصَبْ بالعمى إذا كنت لا أقدّر تلك الفتاة لمواهبها الفطرية.»

فأجاب بارني: «كانت تأكل طبقاً من لحم البقر في المشرب.»

ـ «جئني بها إلى هنا!» قال سايكس ذلك وهو يترع كأسه. «جئني بها إلى هنا.»

ونظر بارني إلى فاجين، في وجل، وكأنه يلتمس عنده الإذن بذلك. وإذا ظل اليهودي صامتاً لا يرفع عينيه عن الأرض، انسحب بارني ثم عاد في الحال وأدخَل نانسي، التي كانت مزدانة بالقلنسوة، والمئزر، والسلة. والمفتاح الضخم جميعاً.

ـ «أنتِ لا تزالين تلاحقين الأثر، أليس هذا صحيحاً يا نانسي؟» كذلك سألها سايكس، وقدَّم إليها كأساً.

فأجابته السيدة الصغيرة وهي تأتي على آخر قطرة في الكأس: «أجل، لا أزال، يا بيل. ولقد سئمت هذه المهمة سأماً عظيماً. كان الغلام الصغير مريضاً، ولقد فرضوا عليه أن يلتزم السرير. و. . .»

فقال فاجين، رافعاً بصره: «آه، يا عزيزتي نانسي!»

وقد يكون في ذلك التقلص الغريب الذي طرأ على حاجبَيْ اليهودي الأحمرين، وفي إغماض عينيه الغائرتين نصف إغماضة، ما نبّه الآنسة نانسي إلى أن لسانها يكاد يسرف في الإفضاء بأشياء يجب أن تظل طيّ الكتمان. ولكن هذا لا يهمنا كثيراً. إن كل ما ينبغي أن نعُنْى به هنا هو الوقائع. وإنه لمن الوقائع التي لا ريب فيها أن نانسي كبحت جماح نفسها فجأة، وحوَّلت الحديث إلى موضوعات أخرى بعد أن غمرت سايكس بفيض من ابتساماتها الكريمة. وبعد عشر دقائق تقريباً استبدَّت بمستر فاجين نوبة من سعال. فلم يكن من نانسي إلا أن شدَّت شالها فوق كتفيها، وأعلنت أن ميعاد انصرافها قد حان. وإذ وجد مستر سايكس أن عليه هو نفسه أن يسلك جزءاً من طريقها ذاتها فقد عبر عن عزمه على مرافقتها. وانطلقا معاً، يتبعهما على مقربة الكلبُ الذي انسلَّ من فِناءٍ خلفيّ حالما غاب سيده عن الأنظار.

وأطل اليهودي برأسه من وراء باب الحجرة عندما غادرها سايكس. وأتبعَهُ بصرهُ فيما كان يمضي في المجاز المظلم، وهزَّ جُمْع كفه، مغمغماً بلعنة عميقة. ثم إنه عاود الجلوس إلى الطاولة، مطلقاً بسمة عريضة رهيبة، وسرعان ما استغرق في مطالعة «مجلة البوليس» الشائقة.

وفي غضون ذلك كان أوليفر تويست في طريقه إلى كشك الكتب من غير أن يخطر له ببال أنه على مثل تلك المسافة القصيرة من العجوز المرح. حتى إذا بلغ كليركينويل انعطف، مصادفة، نحو زقاق لم يكن جزءاً من طريقه على وجه الضبط. ولم يكتشف خطأه إلا بعد أن اجتاز نصف ذلك الزقاق، ولكنه كان واثقاً من أنه لا بدَّ أن يفضي آخر الأمر إلى الاتجاه الصحيح فلم يرَ أن يجشم نفسه عناء النكوص على عقبيه. وهكذا واصل سيره، بأسرع ما استطاع أن يواصله، والكتب تحت إبطه.

وكان يُغذّ الخطى، متأملاً في مختلف الأسباب التي توجب عليه أن يستشعر أعظم السعادة والرضا، وفي مقدار استعداده للتخلي عن الكثير الكثير من أجل إلقاء نظرة واحدة على «دِك» الصغير البائس الذي ربما كان في تلك اللحظة بالذات يسفح الدمع المرير من أثر التجويع والضرب المبرّح... أقول كان يغذ السير على هذا النحو عندما أجفل عند سماعه امرأة شابة تصرخ بصوت عال: «أوه، يا أخي الحبيب!» ولم يكد يرفع بصره ليرى ما المسألة حتى أوقفته ذراعان طوَّقتا عنقه تطويقاً محكماً.

فصاح أوليفر محاولاً التملص من تينك الذراعين: «اتركني! دعني أمضي في سبيلي. من أنت؟ علام توقفني؟؟»

وكان الجواب الوحيد عن هذا كله عدداً كبيراً من ضروب الانتحاب والعويل أطلقتها المرأة الشابة التي كانت قد عانقته والتي كانت تحمل في يدها سلة صغيرة ومفتاحاً ضخماً.

وقالت المرأة الشابة: «أوه، يا إلهي! لقد وجدته! أوه، أوليفر! أوليفر! أوه أيها الغلام الخبيث، كيف ترضى أن تحمِّلني هذا الأسى كله من أجلك! عد إلى البيت، يا عزيزي، عد. أوه، لقد وجدته! حمداً للعناية الإلهية، لقد وجدته!» وفي غمرة من هذه الصيحات المتقطعة انفجرت المرأة الشابة في نوبة جديدة من البكاء واستبدت بها هستيريا رهيبة إلى درجة حملت امرأتين اثنتين أقبلتا في تلك اللحظة على أن تسألا صبيّ جزار ذا شعر لمَّاع من أثر المسح بالدهن كان يتابع المشهد هو

الآخر، ألا يظن أن من الخير أن يعدو ويستدعي الطبيب. فما كان من صبي الجزار ذاك، الذي كان في ما يبدو ذا مزاج بليد، لكي لا نقول عديم الإحساس، إلا أن أجاب قائلاً إنه لا يظن ذلك.

وقالت المرأة الشابة، ممسكة بيد أوليفر: «أوه، لا، لا، ليس هناك أيّ داع للقلق. أنا الآن أحسن حالاً. عد إلى البيت في الحال، أيها الغلام القاسي! عد!»

وتساءلت إحدى المرأتين: «ما المسألة، يا سيدتي؟»

فأجابتها المرأة الشابة: «أوه، يا سيدتي، لقد فرّ، منذ شهر تقريباً، من أبويه وهما مخلوقان جليلان كادحان، والتحق بجماعة من اللصوص والأشرار، مفطِّراً بذلك فؤاد أمه.»

فقالت إحدى المرأتين: «يا لك من صعلوك صغير!»

وقالت الأخرى: «عد إلى البيت، عد، أيها الوحش الصغير!»

فأجاب أوليفر مروَّعاً ترويعاً بالغاً: «هذا غير صحيح! أنا لا أعرفها! ليس لي أخت، بل ليس لي أب وأم. أنا يتيم. أنا أقيم في بينتونفيل.»

فصاحت المرأة الشابة: «حسبكم أن تصغوا إليه إذن، إذا كانت لديه الجرأة الكافية!»

ـ «ولكن هذه نانسي!» كذلك هتف أوليفر، وكان قد رأى الآن وجهها للمرة الأولى. وارتد إلى الوراء مجفلاً، في دهشة لا سبيل إلى كبحها.

فصاحت نانسي، مُشهِدة النظارة: «أرأيتم إنه يعرفني! إنه لا يستطيع أن يساعد نفسه. احملوه على العودة إلى البيت، وإلا قضى أبوه وأمه نحبهما، وفطَّر قلبي أنا حزناً عليه.»

وقال رجل اندفع في تلك اللحظة منطلقاً من إحدى الحانات وفي أثره كلب أبيض: «ما هذا؟ أوليفر الصغير! عد إلى أمك البائسة، أيها الجرو! عد إلى البيت في الحال!»

فصاح أوليفر مناضلاً للتخلص من قبضة الرجل القوية: «أنا لست منهم! أنا لا أعرفهم! النجدة! النجدة!»

فكرر الرجل: «النجدة! أجل، أنا الذي سوف أنجدك، أيها الوغد الصغير! ما هذه الكتب؟ لقد سرقتها، أليس كذلك؟ أعطني إياها!» قال ذاك وانتزع المجلدات من قبضته وضربه على أمّ رأسه.

فصاح أحد النظارة من نافذة إحدى العلالي: «أحسنت! تلك هي الطريقة الوحيدة لإعادته إلى صوابه!»

- «من غير ريب!» كذلك صاح نجار وسنان، وهو يلقي على نافذة العلِّيَّة نظرة ترشح بالرضا والموافقة.

وقالت المرأتان: «إن تلك الضربة سوف تعود عليه بفائدة كبيرة.»

فقال الرجل وهو يسدِّد إلى أوليفر ضربة أخرى ويأخذ بخناقه: «آه، ولسوف يتلقَّاها أيضاً! هيا، أيها النذل الصغير! والآن، يا «عين الثور(*)»، تولَّ أمره! تولَّ أمره!»

ما الذي يستطيع أن يفعله في مثل هذه الحال طفل بائس هدّت قواه مَرْضةٌ حديثة العهد، وروّعه عواء الكلب الضاري ووحشية الرجل، وقهره اقتناع النظارة بأنه كان فعلاً ذلك الوغد الصغير المتحجر الفؤاد كما حاول خصماه أن يصوّراه؟ وكانت العتمة قد هبطت، وكان الحيَّ نائياً مهجوراً. لم يكن ثمة من ينجده، وكانت المقاومة عبثاً لا طائل تحته. فما هي غير لحظة، حتى سيق إلى متاهة من الأزقة الضيقة المظلمة، وأكرِهَ على اجتيازها في سرعة جعلت الصيحات القليلة التي تجرّأ على إطلاقها غير بيِّنة ولا مفهومة. وحتى لو كانت تلك الصيحات بينة أو مفهومة إذن لما أغنت عنه شيئاً. إذ لم يكن ثمة من يلقي إليها بالاً.

* * *

كانت مصابيح الطرق الغازيَّة قد أضيئت. وكانت مسز بيدوين تنتظر

(*) يقصد كلبه. (المعرب)

في قلق أمام الباب المفتوح على مصراعيه. وكانت الخادم قد ذرعت الشارع راكضة عشرين مرة متوالية علَّها تجد لأوليفر أثراً. وكان السيدان العجوزان لا يزالان جالسين، على نحو مثابر، في حجرة الاستقبال القاتمة. والساعةُ بينهما!

الفصل السادس عشر

وفيه نرى ما حل بأوليفر تويست
بعد أن ادعته نانسي

وأخيراً أفضت الأزقة الضيقة إلى ساحة واسعة مكشوفة تناثرت فيها زرائب البهائم وغيرها من القرائن التي تدل على سوق من أسواق الماشية. وعند هذه البقعة خفف سايكس من سرعة الانطلاق التي كانا قد اعتمداها حتى ذلك الحين، بعد أن أمست الفتاة غير قادرة بالكلية على الاحتمال أكثر مما فعلت. ثم إنه التفت إلى أوليفر وأمره، في خشونة، بأن يمسك بيد نانسي.

حتى إذا تردد أوليفر عر سايكس قائلاً: «هل تسمع؟» وأجال بصره في ما حوله.

كانوا الآن قد بلغوا زاوية مظلمة، بعيدة كل البعد عن أقدام السابلة. وأدرك أوليفر إدراكاً لا يرقى إليه الشك أن المقاومة لن تجديه شيئاً، فبسط يده فأمسكت نانسي بها في إحكام.

ـ «أعطني يدك الأخرى!» قال سايكس ذلك وأمسك بيد أوليفر الشاغرة. اسمع، يا عين الثور!»

فرفع الكلب بصره وأنشأ يهرّ.

وقال سايكس واضعاً يده الأخرى على عنق أوليفر، مخاطباً الكلب: «انظر هنا، أيها الغلام! إذا نطق بكلمة وحدة، ولو همساً، سارعْ إلى الانقضاض عليه. مفهوم؟»

فهرّ الكلب مرّة أخرى. وراح يحدج أوليفر بنظرة قاسية، لاعقاً شفتيه، وكأنه متلهف لأن يمسك بقصبة رئته في غير إبطاء.

ـ «إنه شديد الحماسة مثل رجل مسيحي. . . فلأصب بالعمى إن لم يكن كما أقول»، كذلك قال سايكس ناظراً إلى الكلب في ضرب من الموافقة الكالحة الضارية. «والآن أنت تدري ما الذي ينتظرك، أيها المعلِّم. وهكذا فإن في إمكانك أن تطلق صيحات النجدة بأسرع ما يحلو لك، ولسوف يتولى الكلب في الحال وضع حد لهذه اللعبة. تقدّم، يا صغيري!»

وبصبص «عين الثور» بذنبه تعبيراً عن اعترافه بجميل سيده الذي تلطَّف فخاطبه بهذه اللهجة التودّدية غير المألوفة. ثم إنه أطلق عواء إنذارياً آخر موجهاً إلى أوليفر، وتقدّم ليسير على رأس الموكب.

كانوا يجتازون الآن حيّ سميثفيلد. ومن يدري، فلعلهم كانوا يجتازون ساحة غروسفينور، فقد التبس الأمر على أوليفر فهو لا يميز ما بين شارع وشارع. وكان الليل دامساً. ولم توفق أضواء الدكاكين، إلا بشق النفس، إلى اختراق الضباب الكثيف الذي كان يتعاظم لحظة بعد لحظة، والذي لفَّ الشوارع والبيوت بغطاء من الظلام، زاد المكان في عيني أوليفر غرابة على غرابة، وجعل شكَّهُ أشدّ وحشةً وأدعى إلى الغم.

وكانوا قد مشوا بضع خطى حثيثة عندما قُرِع ناقوس إحدى الكنائس معلناً الساعة في جرْس عميق. ولم يكد قائدا أوليفر يسمعان أولى دقات الناقوس حتى كفّا عن السير والتفتا إلى الجهة التي انبعث منها الصوت.

وقالت نانسي عندما صمت الجرس: «الساعة الثامنة، يا بيل.»

فأجابها سايكس: «ما الفائدة من إنبائي بهذا؟ إن في إمكاني أن أسمعه. أليس في إمكاني ذلك؟»

فقالت نانسي: «إني لأتساءل: تُرى هل يستطيعون هم أن يسمعوه؟»

فأجابها سايكس: «إنهم يستطيعون ذلك من غير ريب. لقد كان معرض بارتليمي قائماً عندما احتجزوني. ولم يكن في المعرض بوق

صغير واحد، إذ إني لم أسمع زعيقه البتة. وبعد أن حُبِست تلك الليلة، أدّى الضجيج المنبعث من الخارج إلى إغراق السجن العتيق الراعد في بحر من الصمت أغراني بأن أنطح برأسي صفائح الباب الحديدية.»

فقالت نانسي، وكانت لا تزال ترهف الأذن نحو مُنْطلَقِ دقات الناقوس: «يا لهم من فتية بائسين! أوه، يا بيل، ما أروعهم من غلمان حسان!»

فأجابها سايكس: «أجل، هذا ما تفكرن به، أنتن معشر النساء، كلّكن. غلمان حسان! حسن، إنهم أموات أو كالأموات، وهكذا فإنهم لا يقدِّمون، في المسألة، ولا يؤخرون.»

بهذا الضرب من العزاء حاول مستر سايكس، في ما يبدو، أن يكبح جماح غَيْرة كانت على وشك أن تثور في ذات نفسه. ثم إنه ضغط على معصم أوليفر ضغطاً أشد إحكاماً، وأمره بالسير من جديد.

فقالت الفتاة: «انتظر دقيقة! أنا لن أغذّ السير حتى ولو كنت أنت الذي يتعلَّق على أعواد المشنقة عندما تدق الساعةُ الثامنة مرّة أخرى، يا بيل. إني أفضل أن أطوف بالمكان وأطوف حتى أسقط على الأرض، ولو كانت مكسوة بالثلج وليس لديّ شالٌ أتدثر به.»

فتساءل مستر سايكس المتحجر العاطفة: «وأية فائدة تجنينها من ذلك؟ إنكِ إن لم تعثري على مبرد وعشرين ياردة من الحبال القوية الغليظة فقد تحسنين صنعاً بالتنزه على مبعدة خمسين ميلاً، أو بعدم التنزه البتة. إلى الأمام، ولا تقفي هنا للتبشير والوعظ!»

فانفجرت الفتاة بالضحك، وأحكمت شدّ الشال حول كتفيها، وانطلقوا في سبيلهم، ولكن أوليفر أحسّ بيدها ترتعش، وإذ رفع بصره ليرى إلى وجهها عندما مرّوا بأحد المصابيح الغازيَّة لمح أنه قد استحال شاحباً شحوب الموت.

وواصلوا سيرهم، مجتازين طرقاً مهجورة قذرة، طوال ثلاثين دقيقة كاملات، غير مُلْتقين إلا قلة قليلة من الناس ـ قلة قليلة بدت وكأنها تحتل

في الهيئة الاجتماعية مثل المركز الذي كان مستر سايكس نفسه يحتله. وأخيراً انعطفوا نحو زقاق بالغ القذارة يكاد يغصّ بدكاكين بيع الملابس العتيقة. وبعد أن انطلق الكلب يعدو أمامهم، وكأنه وعى أنه لم تبق ثمة حاجة لالتزام الحذر والاحتراس، وقف تجاه باب دكان كان موصداً وكان في ما يبدو شاغراً غير مستأجَر. كان المنزل متداعياً إلى السقوط، وعلى الباب سُمِّرت لوحة من الورق المقوى تفيد أنه برسم الإيجار. . لوحة بدت وكأنها عُلِّقت هناك منذ سنوات عديدة.

وصاح سايكس، وهو يجيل طرفه في ما حوله في حذر: «لا بأس».

وانحنت نانسي تحت مصاريع النوافذ، وسمع أوليفر رنين جرس. وانتقلوا إلى الجانب الآخر من الطريق، ووقفوا بضع لحظات تحت مصباح. وسُمِعت ضجة شبيهة بضجة نافذة مؤطَّرة تُرفع في رفق. عندئذ أخذ مستر سايكس، من غير ما كياسة البتة، بخناق الغلام المروَّع. وسرعان ما أمسى الثلاثة داخل جدران المنزل.

كان المجاز مظلماً بالكلية. وانتظروا ريثما عمد الشخص الذي فتح لهم الباب إلى إيصاده بالسلسلة والمزلاج.

وتساءل سايكس: «هل يوجد أحد هنا؟»

ـ «لا!» كذلك أجابه صوت خُيِّل لأوليفر أنه سمعه من قبل.

وسأل اللصّ: «هل العجوز هنا؟»

فأجابه الصوت: «نعم، ولقد كان قلقاً مضطرب الأفكار إلى أبعد الحدود. ولشدّ ما سوف يسرّ برؤيتكم.»

وبدا أسلوب هذا الجواب، والصوتُ الذي نطق به، مألوفَيْن في أذني أوليفر. بيد أنه كان من المتعذر عليه أن يتبيَّن حتى شكل المتحدث في الظلام.

فقال سايكس: «ايتنا بمصباح، وإلا دُقَّت أعناقنا أو دُسنا الكلب. وفي مثل هذه الحال يحسن بكم أن تصونوا أرجلكم من الأذى!»

ـ «قفوا لحظة، ولسوف آتيكم بمصباح،» كذلك أجاب الصوت. وسُمِعت خطى المتكلم المتراجعة، وما هي غير دقيقة واحدة حتى برز شخص مستر جون داوكنز، الملقب بـ «المراوغ الماكر». كان يحمل بيده اليمنى شمعة من الشحم مغروسة في طرف عصا مشقوقة.

ولم يتمهل السيد الشاب ليوجه إلى أوليفر أيما إمارة من الإمارات المؤذنة بأنه يعرفه، باستثناء بسمة ساخرة افترت عنها شفتاه. ولكنه انعطف وأخذ يهبط درجات السلم، داعياً زائريه إلى اللحاق به. وعبروا مطبخاً فارغاً. حتى إذا فتحوا باب حجرة خفيضة تفوح منها رائحة الرطوبة البالغة، حجرة بدت وكأنها بُنيت في فناء خلفي صغير، استقبلتهم عاصفة من الضحك.

وصاح المعلم تشارلز بايتس، الذي انبثق ذلك الضحك من رئتيه: «أوه، يا شعري المستعار، يا شعري المستعار! ها هو ذا! أوه، ها هو ذا، أوه، يا فاجين، أنظر إليه! فاجين أتوسل إليك أن تنظر إليه! أنا لا أحتمل ذلك! إنها لصيدة ظريفة حقاً. أنا لا أستطيع احتمال ذلك. فليسندني واحدٌ منكم ريثما أروّح عن نفسي بشيء من الضحك.»

وأطلق المعلم بايتس العنان لفورة مرحه التي لا تُكبح، فانطرح متمدداً على الأرض، وراح يرفسها بقدميه طوال خمس دقائق رفساً تشنجياً، في نشوة من الابتهاج والطرب. ثم إنه انتصب واقفاً على قدميه، وانتزع العصا المشقوقة من يد «المراوغ» وتقدم نحو أوليفر وأنشأ يتأمله من أطرافه جميعاً، في حين نزع اليهودي قلنسوة نومه، وانحنى للغلام المشدوه انحناءات خفيضة لا تكاد تحصى. وفي غضون ذلك راح «المراوغ الماكر»، الذي كان أميل إلى الكآبة والذي نادراً ما كان يستسلم للمرح حين تكون المسألة مسألة عمل، أقول وفي غضون ذلك راح «المراوغ الماكر» ينهب جيوب أوليفر في مثابرة لا تعرف الكلل.

وقال تشارلي، مقرباً المصباح إلى سترة أوليفر الجديدة حتى كاد أن يضرم فيها النار: «انظر إلى ملابسه، يا فاجين! انظر إلى ملابسه! إنها

مخيطة من جوخ ممتاز، وإن تفصيلها غاية في الأناقة. أوه، يا سلام! يا له من صيد سمين!» وهو يحمل كتباً أيضاً. إن الناظر إليه ليحسبه «جنتلمان» حقيقياً، يا فاجين!»

فقال اليهودي منحنياً في اتضاع مصطنع: «أنا سعيد بأن أراك حسن البزة إلى هذا الحد، يا عزيزي. إن «المراوغ» سوف يعطيك بذلة أخرى، يا عزيزي، خشية أن تفسد بذلة الأحد هذه. لماذا لم تكتب إليّ، يا عزيزي، وتخبرني أنك قادم؟ إنك لو فعلت لأعددنا لك عشاء ساخناً.»

وهنا ضجَّ المعلم بايتس بضحك هادر... هادر إلى درجة جعلت اليهودي يسترخي، وجعلت «المراوغ» نفسه يبتسم. ولكن لما كان «المراوغ» قد أخرج في تلك اللحظة بالذات ورقة الخمسة جنيهات فإن من حقنا أن نتساءل ما الذي أيقظ مرحه في الواقع: نكتة اليهودي أم اكتشافه الورقة النقدية؟

وقال سايكس وهو يثب إلى أمام عندما اختطف اليهودي تلك الورقة: «هالو! ما هذا؟ هذه لي، يا فاجين.»

فقال اليهودي: «لا، لا، يا عزيزي، إنها لي، يا بيل، إنها لي. أما أنت فستكون الكتب نصيبك.»

فقال بيل سايكس معتمراً قبعته في سيماء العازم المصمم: «إذا لم تكن لي... أعني إذا لم تكن لي ولنانسي فسوف أعيد الغلام إلى حيث كان.»

وهنا أجفل اليهودي. وأجفل أوليفر أيضاً، ولكن لسبب مختلف جداً. ذلك بأن الأمل راوده مصوّراً له أن النزاع قد يفضي فعلاً إلى إعادته من جديد.

وقال سايكس: «هيَّا! أرْجِع الورقة النقدية إليَّ، ارجعها بسرعة!»

فتساءل اليهودي: «هذا بعيداً جداً عن العدل، يا بيل، بعيد جداً عن العدل، أليس كذلك يا نانسي؟»

فأجابه سايكس: «أرجِعْها إليَّ، أقول لك، سواء أكان هذا عدلاً أم لم يكن. هل تحسب أنني ونانسي ليس لدينا من عمل غير إنفاق وقتنا الثمين في مطاردة واختطاف كل غلام صغير يُلتقط بواسطتك؟ أعطني إياها، أيها الهيكل العظمي العجوز الطماع! أعطني إياها!»

بهذا الاحتجاج الرقيق اختطف مستر سايكس الورقة النقدية من بين سبابة اليهودي وإبهامه. ثم إنه طواها عدة مرّات، ناظراً إلى العجوز في وجهه ببرود، وعقد منديله عليها.

فقال سايكس: «هذه الورقة بمثابة تعويض عما تحمَّلناه من متاعب، وهي لا تفي بنصفه، على أية حال. في إمكانك أنت أن تحتفظ بالكتب، إذا كنت مولعاً بالمطالعة. وإذا لم تكن، فليس عليك إلا أن تبيعها.»

ـ «إنها قيِّمة جداً،» كذلك قال تشارلي بايتس، الذي كان يتظاهر بقراءة واحد من تلك المجلدات، محرّفاً معالم وجهه تحريفات شتى. «إنها مكتوبة بأسلوب جميل، أليس كذلك، يا أوليفر؟» وإذ لمح النظرات المذعورة التي وجهها أوليفر إلى معذّبيه استغرق المعلم بايتس ـ الذي كان يتمتع بحس مرهف لكل ما هو فكاهيّ ـ في نشوة من الابتهاج أخرى، أشد صخباً من نشوته الأولى.

وهنا قال أوليفر وهو يعتصر يديه: «إنها للسيد العجوز. للسيد العجوز الصالح، الكريم، الذي آواني وعالجني عندما كنت على وشك الموت من الحمَّى. أوه، أرجوكم أن تعيدوها إليه... أعيدوا إليه الكتب والمال. أبقوني هنا طوال عمري، ولكن أرجوكم... أرجوكم أن تعيدوا هذه الأشياء كلها إليه. إنه سوف يظن أني سرقتها. والسيدة العجوز، وجميع الذين أحسنوا إليّ، سوف يظنون أني سرقتها. أوه، أشفقوا عليَّ، وأعيدوها إليه!»

قال أوليفر هذه الكلمات بكل ما ينطوي عليه الأسى المشبوب من قوة، وجثا عند قدمي اليهودي، وراح يضرب إحدى يديه بالأخرى في يأس عظيم.

وأعلن فاجين وهو يختلس النظر إلى ما حوله، عاقداً حاجبيه الكثيفين في كتلة واحدة قاسية: «الغلام على حق. أنت على حق، يا أوليفر، أنت على حق. إنهم سوف يظنون أنك سرقتها. ها! ها!» وضحك اليهودي في فتور، فاركاً يديه. «إن ذلك ما كان ليحدث على نحو أفضل لو أننا اخترنا نحن ميقات حدوثه!»

فأجابه سايكس: «أجل، إنه ما كان ليحدث على نحو أفضل. لقد عرفت ذلك، حالما رأيته يصل إلى كليركينويل، متأبطاً تلك الكتب. كل هذا حسن. إنهم قوم أصحاب قلوب رقيقة، وإلا لما آووه البتة، وهم لن يطرحوا أي سؤال عن مكان وجوده، خشية أن يُكرههم ذلك على الادعاء، وأن يعرّضه الادعاء لخطر السجن مع الأشغال الشاقة. إن في إمكانكم أن تطمئنوا إلى أنه آمنٌ إلى حدّ بعيد.»

وكان أوليفر قد نقّل بصره من واحد إلى آخر، بينا كان ذلك الحوار دائراً، وكأن الانشداه قد غلب عليه، ولم يكد يفهم شيئاً مما جرى. ولكن ما إن ختم بيل سايكس كلامه حتى انتصب أوليفر واقفاً وغادر الغرفة في اهتياج ضار، مرسلاً صيحات استنجاد تردَّد صداها في أرجاء البيت العتيق العاري حتى بلغ السقف نفسه.

وصاحت نانسي، واثبة أمام الباب، مغلقة إياه بعد أن اندفع اليهودي وتلميذاه في أثر الغلام: «اكبح جماح الكلب، يا بيل! اكبح جماح الكلب! إنه سوف يمزق الغلام إرباً إرباً.»

وصاح سايكس باذلاً أقصى جهده للإفلات من قبضة الفتاة: «إن ذلك سوف يعطيه درساً مفيداً. حيدي عن طريقي، وإلا ضربت رأسك بالجدار ففلقتُهُ.»

فصاحت الفتاة مصارعة الرجل في عنف: «لست أبالي بذلك، يا بيل! لست أبالي بذلك! إن الكلب لن يمزق ذلك الغلام إلا إذا قتلتَني أولاً.»

فقال سايكس وهو يحكم إطباق أسنانه: «تقولين لن يمزقه؟! سوف

أفعل ذلك في الحال إذا لم تحيدي عن طريقي.»

وأبعد اللص الفتاة بعيداً عنه قاذفاً بها إلى أقصى الحجرة عندما رجع اليهودي والغلامان جارّاً أوليفر بينهما.

وقال فاجين مجيلاً الطرف في ما حوله: «ما المسألة هنا؟»

فأجابه سايكس في وحشية: «لقد أصاب الفتاة مسٌّ من جنون.»

فقالت نانسي شاحبة الوجه منقطعة النفَس من أثر الصراع: «لا، لم يصبها مسٌّ من الجنون. لا، لم يصبها، يا فاجين، لا تصدّق ذلك.»

فقال اليهودي حادجاً إياها بنظرة متوعدة: «إذن فالزمي الهدوء. هل لك أن تلزمي الهدوء؟»

فأجابت نانسي متكلمة بصوت مرتفع جداً: «لا. ولن أفعل ذلك أيضاً. هيه! ما رأيك في ذلك؟»

وكان فاجين يألف عادات هذه الجماعة البشرية الغريبة التي تنتسب إليها نانسي إلفة كافية لجعله على مثل اليقين من أن إطالة المناقشة معها، في الوقت الحاضر، أمرٌ غير مأمون. وهكذا التفت إلى أوليفر، ابتغاء تحويل أنظار الجماعة، وقال له رافعاً قضيباً مشقوقاً ذا عُقَد كان مطروحاً في زاوية المستوقد:

ـ «وهكذا أردت أن تفرّ، يا عزيزي، أليس كذلك؟»

فلم يُجب أوليفر بشيء. ولكنه راقب حركات اليهودي، وأنشأ يلهث.

وتابع اليهودي كلامه في نبرة ساخرة ممسكاً بالغلام من ذراعه: «أردتَ أن تلتمس النجدة... أن تدعو رجال الشرطة، أليس كذلك؟ إننا سوف نشفيك من ذلك، يا معلمي الصغير.»

وسدَّد اليهودي إلى كتفي أوليفر ضربة بالقضيب عنيفة. ولم يكد يرفعه ليسدد إليهما ضربة أخرى، حتى اندفعت الفتاة إلى الأمام وانتزعت القضيب من يده، وقذفت به إلى النار في قوة جعلت بعض الجمرات المتوهجة تتدحرج وسط الحجرة.

وصاحت الفتاة: «أنا لن أقف من أعمالك هذه مكتوفة اليدين، يا فاجين! لقد فزت بالغلام.. فما الذي تطمع فيه بعدُ؟ دعه وشأنه... دعه وشأنه... وإلا تركت على جسد بعضكم تلك الآثار التي يجدر بها أن تسوقني إلى المشنقة قبل أن يجيء دوري.»

وضربت الأرض بقدمها، وهي تطلق هذا الوعيد، ضربة عنيفة. وراحت تنظر إلى اليهودي حيناً وإلى اللص الآخر حيناً، وهي مطبقَة الشفتين، مقبوضة اليدين. كان وجهها شاحباً شحوب الموت من أثر الغيظ الذي استبدّ بها شيئاً بعد شيء.

وقال اليهودي، في لهجة مهدّئة: «كفى، كفى، يا نانسي! وبعد صمت يسير تبادل خلاله هو ومستر سايكس نظرات حادة مرتبكة أضاف: «أنت... أنت الليلة أبرع منكِ في أيما وقت مضى. ها! ها! يا عزيزتي. أنت تمثلين دورك على نحو رائع!»

فقالت الفتاة: «صحيح؟ حذار أن تكرهني على تجاوز كل حدّ! إنك إن فعلت كنت أنت الجاني على نفسك، يا فاجين. وهكذا أقول لك، قبل فوات الأوان، أن تجتنب غضبي!»

إن لدى المرأة المستثارة (وبخاصة إذا أضافت إلى جميع عواطفها العنيفة الأخرى حافزيْ التهور واليأس الضاريَيْن) شيئاً لا يرغب في تحدِّيه غير قلّة قليلة من الرجال. ورأى اليهودي أن من العبث الذي لا طائل تحته أن يمعن في تجاهل حقيقة الثورة التي عصفت بالآنسة نانسي. فارتد ـ على نحو لا شعوري ـ بضع خطوات إلى الوراء، وسدَّد إلى سايكس نظرة نصف متوسلة ونصف مذعورة، وكأنما كان يريد أن يفهمه من طرف خفي أنه هو الشخص الأكثر أهلية لمتابعة هذا الحوار.

ولم يكد مستر سايكس يتلقى هذا التوسل الأبكم ـ ولعله استشعر في الوقت نفسه أن غروره ونفوذه الشخصيين يفرضان عليه أن يُعْنى بإعادة الآنسة نانسي إلى جادة الصواب ـ حتى أطلق بضع عشرات من اللعنات والتهديدات التي كان في تعاقبها السريع ما أعطى فكرة مشرّفة عن خصب

ملكة الخيال عنده. وإذ لم تحدِث هذه أيما أثر في نفس الشخص الذي استهدفته فقد لجأ إلى حجج أشد بلاغة وقوة.

ـ «ماذا تعنين بهذا كله؟» كذلك قال سايكس، مُرْدفاً تساؤله بلعنة تتصل بأجمل جزء من أجزاء الطلعة البشرية(*)، لعنة لو سُمِعت في السماء مرة واحدة من أصل كل خمسين ألف مرة من جريان الألسنة بها هنا في الأرض إذن لأمسى العمى بلاء لا يقل تفشياً عن الحصبة. «ماذا تعنين بهذا كله؟ أحرقوا جسدي! هل تعلمين من أنت، وما أنت؟»

ـ «أجل، أنا أعلم كل شيء عن هذا،» كذلك أجابت الفتاة وهي تضحك على نحو هستيري، هازّة رأسها يمنة ويسرة في محاولة يائسة للتظاهر باللامبالاة.

فأجابها سايكس، وهو يهرّ هريراً شبيهاً بذلك الذي كان من عادته أن يستخدمه كلما خاطب كلبه: «حسن، فالزمي الهدوء إذن، وإلا عمدت أنا إلى إلزامك إياه دهراً طويلاً.»

فضحكت الفتاة من جديد. ولكن على نحو أقلّ اطمئناناً من ذي قبل ثم إنها ألقت نظرة خاطفة على سايكس، وأشاحت بوجهها عنه، وعضت على شفتها حتى أسالت منها الدم.

وأضاف سايكس وهو ينظر إليها في ازدراء: «أنت أجدر من يتخذ مظهر المخلوق اللطيف الرقيق القلب! إنك النموذج الصالح الذي يستطيع هذا الطفل، كما تسمِّينه، أن يتخذ منه صديقاً!»

فصاحت الفتاة في انفعال مشبوب: «إني لكذلك، وليساعدني الرب الكليّ القدرة! وإني لآسفة لأني لم أسقط في الشارع جثة هامدة، ولم أتبادل الأماكن مع أولئك الذين مررنا على مقربة دانية منهم هذه الليلة، قبل أن أشارك في سَوْقِهِ إلى هنا. لقد أمسى، منذ الليلة، لصاً، وكذاباً،

(*) يقصد أنه أردف سؤاله بقوله: «فلأصب بالعمى!». (المعرب)

وشيطاناً، وكل ما هو سيئ. أليس في هذا ما يكفي النذل العجوز حتى يضيف إليه الضرب والصفع؟»

ـ «كفى، كفى، يا سايكس،» كذلك قال اليهودي في لهجة معاتبة، وهو يومئ إلى الغلامين اللذين كانا يراقبان كل ما يجري في اهتمام بالغ. «يتعيَّن علينا أن نستعمل كلمات مهذبة، كلمات مهذبة يا بيل.»

فصاحت الفتاة التي كان غضبها رهيباً في عين الناظر: «كلمات مهذبة! كلمات مهذبة، أيها النذل! أجل، أنت تستحق مني هذه الكلمات. لقد سرقت لحسابك وأنا بعدُ طفلة لم أبلغ من العمر نصف ما بلغه هذا!» وأشارت إلى أوليفر. «ومنذ ذلك الحين سلخت في هذه الصناعة نفسها، وفي هذه الخدمة نفسها، اثني عشر عاماً. ألا تعرف ذلك؟ تكلم! ألا تعرف ذلك؟»

فأجابها اليهودي محاولاً تهدئتها: «حسن، حسن. وعلى أية حال، فهذا هو مورد رزقك!»

فقالت الفتاة في صيحة واحدة موصولة عنيفة: «أجل، هذا صحيح. إنه مورد رزقي. والشوارع القذرة الرطبة الباردة هي مأواي. وإنك أنت ذلك الوغد الذي ساقني إليها منذ عهد طويل، والذي سوف يكرهني على البقاء فيها، ليل نهار، وليل نهار، حتى أموت!»

فقاطعها اليهودي وقد استفزه ذلك التعنيف: «سوف أنزِل بك بلاء أسوأ من ذلك، إذا أسرفت في الكلام أكثر مما فعلت!»

ولم تقل الفتاة أيما شيء بعد ذلك. ولكنها راحت تشدّ شعرها وتمزق ثيابها في سَورة من الانفعال وانقضَّت على اليهودي انقضاضاً كان يمكن أن يخلف في جسده آثاراً جليَّة تنمّ عن انتقامها، لو لم يمسك سايكس بمعصميها في اللحظة المناسبة. وعندئذ ناضلت، فترة يسيرة، للتملص من بين يديه ولكنها لم توفق إلى ذلك، وسقطت مغشيّاً عليها.

وقال سايكس بعد أن حملها ومدّدها في إحدى الزوايا: «إنها الآن بخير وإن ذراعيها قويتان جداً حين تثور على هذه الصورة.»

ومسح اليهودي جبينه: وابتسم، وكأن انقضاء ذلك الشغَب قد أوقع الطمأنينة في نفسه. ولكن لا هو، ولا سايكس، ولا الكلب، ولا الغلامان بدا على وجوههم ما يفيد أنهم اعتبروا ما وقع أكثر من حادث عاديّ مألوف في حياتهم المهنية.

وقال اليهودي وهو يعيد هراوته إلى مكانها: «أسوأ ما يصاب به الإنسان أن يجد نفسه مضطراً إلى التعامل مع النساء. ولكنهن بارعات، وليس في ميسورنا، في صناعتنا هذه، أن نتقدم خطوة واحدة بدونهن. تشارلي، إذهب بأوليفر إلى فراشه.»

وتساءل تشارلي بايتس: «أعتقد أن من الخير أن لا يرتدي ملابسه الفضلى غداً، يا فاجين، أليس كذلك؟»

ـ «من غير ريب،» كذلك أجابه اليهودي رادّاً على الابتسامة العريضة التي رافقت سؤال تشارلي مع ابتسامة مثلها.

وأخذ المعلم بايتس، الذي بدا شديد الابتهاج بالمهمة التي كُلِّف أداءها، وقاد أوليفر إلى مطبخ متاخم حيث كان سريران أو ثلاثة سرر من تلك التي سبق له أن نام فيها. وهناك عمد، في كثير من نوبات الضحك الممتنعة على الكبح، إلى إخراج تلك البذلة العتيقة ذاتها التي كان أوليفر قد هنأ نفسه كثيراً على تركها في منزل مستر براونلو، والتي كان عرضها على فاجين، مصادفة، من قِبل اليهودي الذي اشتراها هو الدليل الأول الذي أرشد العصابة إلى مقرّ أوليفر.

وقال تشارلي: «اخلع ملابسك الأنيقة، ولسوف أدفعها إلى فاجين لكي يُعنى بها. يا لها من مهزلة!»

وامتثل أوليفر المسكين أمره على كره. وطوى المعلم بايتس الملابس الجديدة وتأبطها، ثم غادر الحجرة تاركاً أوليفر في الظلام، مغلقاً الباب خلفه بالمفتاح.

وكان لدويّ ضحِكِ تشارلي، وصوت الآنسة بتسي التي وصلت في

الوقت المناسب لكي تنضح الماء على وجه صديقها وتقوم بالمهام الأنثوية الأخرى التي تعجل في استعادته وعيَهُ، أن يذودا النوم عن أعين أناس كثيرين في ظروف أسعد من تلك التي أحيط بها أوليفر. ولكنه كان مريضاً مرهقاً، وسرعان ما استغرق في نوم عميق.

الفصل السابع عشر

قدر أوليفر لا يزال مشؤوماً، وهو يقود إلى لندن رجلاً عظيماً ليسيء إلى سمعته

تقضي العادة المألوفة في المسرح، في جميع التمثيليات الميلودرامية الدامية الجيدة، بأن تقدَّم المشاهد التراجيدية والكوميدية في تعاقب نظاميّ أشبه بتعاقب الطبقات الحمراء والبيضاء في قطعة من لحم الخنزير المقدَّد. فبينما ينطرح البطل، في بعض المشاهد، فوق فراشه القشِّي مثقلاً بأصفاده وبلاياه يعمد خادمه الأمين، ولكنْ غير المطَّلع على حقيقة الأمور، إلى إتحاف النظارة بأغنية هزلية. إننا نرى، بقلوب واجفة، إلى البطلة في قبضة بارون متكبر قاسي الفؤاد، وقد تعرضت عفتها وحياتها معاً لخطر شديد، واستلت خنجرها لتصون إحداهما على حساب الأخرى. ولا تكاد مخاوفنا تبلغ ذروتها حتى نسمع صفرة مفاجئة، وحتى نُنْقَل على التو إلى قاعة القصر الكبرى حيث ينشد رئيس خدم أشيب أنشودة فكاهية بالاشتراك مع مجموعة من الأرقاء أشد إثارة للضحك، لها حق الدخول إلى مختلف المواطن ابتداء من سراديب الكنائس حتى أروقة القصور، وحيث يروحون ويجيئون معاً مطلقين الأغاني المرحة على نحو موصول.

وقد تبدو هذه التغيّرات أمراً غير معقول، ولكنها ليست مناقضة للطبيعة بقدر ما تتراءى لنا للوهلة الأولى. والانتقالات في الحياة الواقعية من موائد الطعام الفخمة إلى فُرُش الاحتضار، ومن ثياب الحداد إلى ملابس العيد ليست أقلّ ترويعاً البتة، ولكن ثمة فارقاً واحداً هو أننا في

هذه الحالة الأخيرة ممثلون منهمكون في أداء أدوارنا لا مجرد نظارة سلبيين. . . وهو فارق يغيِّر الصورة تغييراً كبيراً. إن الممثلين في حياة المسرح المبنية على المحاكاة ليغْمَوْن عن التحولات العنيفة المفاجئة في العاطفة أو الشعور، تلك التحولات التي لا تكاد تُعرض أمام أعين النظارة حتى يحكموا عليها بقولهم إنها فاضحة لا مُحالة.

ولما كان تغيير المشهد على نحو مفاجئ والانتقال السريع من زمان إلى زمان ومن مكان إلى مكان أموراً جائزة في الأدب بحكم العرف وتطاول الأعمال جيلاً بعد جيل، ولما كان كثير من النقاد يعدّونهما ـ فوق ذلك غاية الغايات في الفن القصصي (على اعتبار أنهم يقيسون براعة الكاتب، في المقام الأول، بمقياس المآزق التي يترك فيها شخوص روايته عند نهاية كل فصل) فقد تُعتبر هذه المقدمة الوجيزة التي نتوج بها هذا الفصل غير ضرورية البتة. فإذا كان ذلك كذلك فلتُعْتبَر إلماعاً رقيقاً، من جانب القاص، إلى أنه سوف يرجع إلى البلدة التي وُلِد فيها أوليفر، وفي ميسور القارئ أن يكون على أتم اليقين من أن ثمة أسباباً وجيهة وجوهرية للقيام بهذه الرحلة، وإلا لما دُعِي إلى تجشُّم عنائها.

اجتاز مستر بامبل، ذات صباح باكر، بوابة الملجأ الخارجية وراح يصعّد في الطريق العام في مشية وقورة وخطى مهيبة. كان في ذروة نضارة الشماس وازدهائه؛ وكانت قبعته ذات القرنين وسترته تلتمعان تحت شمس الصباح، ولقد أمسك بعصاه بكل العافية والقوة. وإنما كان من دأب مستر بامبل، دائماً، أن يرفع رأسه عالياً، ولكنه رفعه هذا الصباح أعلى من مألوف عادته. كان ثمة شرود في عينيه، وجلالٌ على محيَّاه يمكن أن ينبِّها الغريب ذا الملاحظة الدقيقة إلى أن بعض الأفكار كانت تراود عقل الشماس، وأنها كانت أجلَّ وأعظم من أن يعبّر عنها.

ولم يتوقف مستر بامبل ليتجاذب أطراف الحديث مع أصحاب الدكاكين الصغيرة وغيرهم ممن خاطبوه، في احترام، وهو ماض في سبيله. لقد اجتزأ بأن ردَّ تحياتهم بالتلويح بيده، ولم يخفف من صرامة

مشيته الوقور إلا بعد أن بلغ الملجأ الفرعي حيث أسبغت مسز مانّ على الفقراء الأطفال عنايتها الأبرشانية.

وقالت مسز مان وقد تناهت إلى سمعها هِزّةُ باب الحديقة المشهورةُ: «ألا لعنة اللّه على ذلك الشماس! إني أراهن أنه هو القادم، وفي مثل هذه الساعة من الصباح الباكر! يا إلهي، أمن الممكن أن تكون أنت القادم، يا مستر بامبل؟ حسناً، وحقّ ربي، أني لجد سعيدة بتشريفك! تفضل إلى حجرة الاستقبال، يا سيدي، أرجوك.»

لقد وُجِهت الجملة الأولى إلى سوزان. أما هتافات الابتهاج فقد وجَّهتها السيدة الصالحة إلى مستر بامبل وهي تفتح له باب الحديقة وتقوده إلى الدار في كثير من الاحتفال والاحترام.

ـ «مسز مان!» كذلك قال مستر بامبل غير جالس أو طارح نفسه على مقعد كما يجدر بأيما رجل تافه متكلف للعظمة أن يفعل. ولكنه استوى في أناة وتؤدة على أحد الكراسي. ثم أضاف: «مسز مان، سيدتي، طاب صباحك.»

فأجابت مسز مان في ابتسامات متلاحقة: «أهلاً، وطاب صباحك أنت أيضاً، يا سيدي! وأرجو أن تكون في خير، يا سيدي!»

فأجابها الشماس: «بين بين، يا مسز مان. إن الحياة الأبرشانية ليست فراشاً من ورود، يا مسز مان.»

ـ «آه، هذا صحيح من غير ريب، يا مستر بامبل.» كذلك أجابت السيدة. ولو قد سمع الأطفال الفقراء جوابها ذاك إذن لكان من الجائز أن يردّدوه كلهم، على أثرها، في أدب بالغ.

وتابع مستر بامبل، ضارباً الطاولة بعصاه: «الحياة الأبرشانية، يا سيدتي، حياة قلق ومضايقة ومشقة. ولكن جميع العاملين في الحقل العام يجب، في ما أرى، أن يحتملوا متاعب المواظبة.»

وإذ لم تفهم مسز مان ما عناه الشماس فهماً حسناً جداً فقد رفعت يديها، وعلى محياها سيماء المشاركة الوجدانية، وتنهَّدت.

فقال الشماس: «آه، أن من حقك أن تتنهدي، يا مسز مان!»

وحين وجدت مسز مان أنها أحسنت صنعاً تنهدت مرّة أخرى، على نحو أرضى، من غير ريب، الرجل العامل في الحقل العام: الذي كبح بسمة ارتياحٍ مغرور بأن حدّق إلى قبعته ذات القرنين تحديقاً متجهماً، وأعلن قائلاً:

ـ «مسز مان، أنا مرتحلٌ إلى لندن.»

فصاحت مسز مان مجفلة: «ماذا تقول، يا مستر بامبل!»

فاستأنف الشماس العنيد كلامه قائلاً: «إلى لندن، يا سيدتي، في مركبة من المركبات. أنا واثنين من الفقراء، يا مسز بامبل. إن القضاء سوف ينظر قريباً في دعوى متصلة بحق الانفاق على المعوزين. ولقد عهدت إليّ لجنة الملجأ ـ إليّ أنا، يا مسز بامبل ـ في أن أدلي بشهادتي في تلك الدعوى أمام محكمة كليركينويل الفصلية. وإني لأتساءل تساؤلاً شديداً...» كذلك أضاف مستر بامبل وهو يتصدر في زهوّ، «ما إذا كان أعضاء محكمة كليركينويل الفصلية سوف يجدون أنفسهم في وضع حرج قبل أن يفرغوا مني.»

فقالت مسز مان في لهجة ملاطفة: «أوه! يجب أن لا تقسو عليهم أكثر مما ينبغي، يا سيدي.»

فأجاب مستر بامبل: «إن أعضاء محكمة كليركينويل هم الذين جَنوْا على أنفسهم. وإذا ما وجدوا غداً أنهم انتهوا إلى أسوأ بعض الشيء مما توقَّعوه فلا يلومُنَّ إلا أنفسهم.»

وكان في اللهجة المتوعدة لمستر بامبل بهذه الكلمات قدرٌ عظيم من التصميم وصدق العزم حتى لقد بدت مسز مان وكأنها قد رُوِّعت بها ترويعاً بالغاً. وأخيراً قالت:

ـ «أنت مرتحل في مركبة من المركبات، يا سيدي؟ لقد كنت أحسب أن العادة جرت، دائماً، بإرسال أولئك الفقراء على متن عربة من عربات النقل.»

فقال الشماس: «إنما يتم ذلك حين يكونون منحرفي الصحة. إننا نضع المرضى من الفقراء في عربات نقل مكشوفة حين تسوء الأحوال الجوية لكي نحول بينهم وبين الإصابة بالزكام.»

فقالت مسز مان: «أوه!»

وقال مستر بامبل: «إن مركبة الشركة الجديدة هي التي ستنقل هذين الفقيرين تنفيذاً لعقد موقَّع بيننا وبينها، وهي تفعل ذلك بثمن بخس أيضاً. إنهما كليهما في حال من الوهن الشديد، وقد أجرينا حساباً تبيَّن لنا منه أننا إذا نقلناهما، بدلاً من أن ندفنهما، نقتصد جنيهين اثنين. أعني إذا استطعنا أن نلقيهما على عاتق أبرشية أخرى، وهو شيء يتراءى لي أننا سنوفَّق إليه، إلا إذا ماتا على الطريق ابتغاء إغاظتنا. ها! ها! ها!»

حتى إذا استرسل مستر بامبل في الضحك فترة يسيرة، وقعت عيناه مرّة أخرى على القبعة ذات القرنين، فاستعاد سيماءه الصارمة.

وقال: «لقد كدنا ننسى أعمالنا، يا سيدتي. هوذا راتبك الأبرشانيّ الشهري.»

وأخرج مستر بامبل من حافظة نقوده بعض القطع الفضية الملفوفة بورقة، وسأل السيدة مان أن توقع له إيصالاً، ففعلت.

فقالت منشِّئة الأطفال: «إنه مليء بالبُقَع، ولكنْ يخيَّل إليّ أنه رسميّ إلى حد كاف، شكراً لك، يا سيدي مستر بامبل. إني واثقة من أني مدينة لمعروفك كثيراً، وكثيراً جداً.»

فهز مستر بامبل رأسه، في لطف، رداً على مجاملة مسز مان. ثم سألها كيف حال الأطفال.

فقالت مسز مان في انفعال: «فليبارك اللّه قلوبهم الصغيرة الحبيبة! إنهم، فديتهم بنفسي، في أحسن حال يستطيعون أن يكونوا فيها! طبعاً، باستثناء الاثنين اللذين ماتا في الأسبوع الماضي. و«دِك» الصغير.»

فتساءل مستر بامبل: «ألم تتحسن صحة ذلك الغلام البتة؟»

فهزت مسز مان رأسها.

فقال مستر بامبل مغضباً: «إنه طفل أبرشاني خبيث، فاسد، سيئ النيّة. أين هو؟»

- «سوف آتيك به في دقيقة واحدة، يا سيدي.» كذلك أجابت مسز مان. «هاي، تعال يا دِك!»

وبعد بضعة نداءات اكتُشِف مكان «دِك». حتى إذا وُضع رأسه تحت المضخة ونُشِّف فوق ثوب مسز مان اقتيد إلى حجرة الاستقبال ليمثل في حضرة مستر بامبل، الشماس، الرهيبة.

وكان الطفل شاحباً مهزولاً، وكان خداه غائرين، وكانت عيناه واسعتين متألقتين. لقد تهدّل الثوب الأبرشاني الضئيل - كسوة بؤسه الخاصة - فضفاضاً على جسده الواهن، وفارقت النضارة أوصاله الفتيَّة، فهي أشبه بأوصال رجل طاعن في السن.

تلك كانت حال ذلك المخلوق الصغير الذي وقف مرتعداً تحت نظرات مستر بامبل، غير متجاسر على أن يرفع عينيه عن الأرض، بل خائفاً أن يسمع صوت الشماسِ نفسَه.

وقالت مسز مان: «ألا تستطيع أن تنظر إلى السيد الماجد، أيها الغلام العنيد؟»

فرفع الطفل عينيه في وداعة، فالتقتا عينَيْ مستر بامبل.

وسأله مستر بامبل في مزاح حسن التوقيت: «ما بك، يا دِك الأبرشاني؟»

فأجابه الطفل في صوت واهن: «لا شيء، يا سيدي.»

فقالت مسز مان التي استغرقت في الضحك، طبعاً، لنكتة مستر بامبل: «أحسب ذلك. فليس يعوزك شيء. . . أنا واثقة من هذا!»

فغمغم الطفل: «أتمنى. . .»

فقاطعته مسز مان: «عجباً! أحسب أنك تريد أن تقول لنا إنك محتاج إلى شيء ما، الآن. . . يا لك من صعلوك صغير!. . .»

فقال الشماس، رافعاً يده في تظاهر بالسلطان: «كفي عن ذلك، يا مسز مان، كفي عن ذلك. تتمنى ماذا، يا سيدي؟»

فتلعثم الطفل بالقول: «أتمنى لو أجد شخصاً يستطيع أن يكتب، فيخطّ لي بضع كلمات على ورقة ثم يطويها ويختمها ويحتفظ لي بها، بعد أن أمدّد في القبر.»

ـ «ولكن ما الذي يعنيه الغلام؟» كذلك هتف مستر بامبل الذي كانت لهجة الطفل الصادقة ووجهه الشاحب قد تركا في نفسه أثراً ما، على الرغم من إلفته الشديدة لهذه المشاهد. «ما الذي تعنيه، يا سيدي؟»

فقال الطفل: «أحب أن أترك رسالة حب لأوليفر تويست المسكين، وأن أخبره كم من مرة خلوت إلى نفسي وبكيت كلما فكرتُ في هيامه على وجهه في الليالي المظلمة وليس ثمة من يُنجده. وأحب أن أخبره»، كذلك أضاف الطفل ضاغطاً إحدى يديه الصغيرتين على الأخرى، ومتكلماً في حماسة بالغة، «إني كنت سعيداً بأن أموت وأنا بعدُ صبيّ صغير، لأني خشيت ـ إذا ما امتدَّ بي العمر لأصبح شاباً ثم شيخاً طاعناً في السن ـ أن تنساني أختي الصغيرة في السماء، أو أن تمسي مخلوقاً مختلفاً عني. وخليق بنا أن نكون أسعد بكثير إذا ما كنا كلانا هناك طفلين مترافقين.»

واستعرض مستر بامبل المتكلم الصغير من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، في دهشة تمتنع على الوصف. ثم إنه التفت إلى رفيقته، وقال: «إنهم كلهم من طينة واحدة، يا مسز مان. إن أوليفر الخليع ذاك قد أفسد أخلاقهم كلهم!»

فقالت مسز مان رافعة يديها، ناظرة إلى «دِك» في حقد: «أنا لا أستطيع أن أصدق ذلك، يا سيدي! أنا لم أرَ قط مثل هذا الصعلوك الصغير المتحجر القلب!»

عندئذ قال مستر بامبل في لهجة آمرة: «أخرجيه من هنا، يا سيدتي! هذه الحادثة يجب أن تُرفع إلى لجنة الملجأ، يا مسز مان.»

فقالت مسز مان ناشجة على نحو مؤثر: «أرجو أن يفهم السادة الأماجد أن الغلطة ليست غلطتي يا سيدي.»

فقال مستر بامبل: «إنهم سوف يفهمون ذلك، يا سيدتي. إنهم سوف يحاطون علماً بحقيقة ما جرى. هيا، أخرجيه من هنا. أنا لا أطيق رؤيته.»

وأخرج «دِك» في الحال، وحُبِس في قبو الفحم. وما هي إلا فترة يسيرة حتى غادر مستر بامبل الحجرة لكي يستعد للقيام برحلته.

وفي الساعة السادسة من صباح اليوم التالي ـ بعد أن استبدل مستر بامبل بقبعته ذات القرنين قبعة مستديرة وغلّف نفسه في معطف أزرق ذي دثار للكتفين ـ اتخذ مقعده على ظاهر المركبة يرافقه المجرمان اللذان كانت مسألة إعالتهما والإنفاق عليهما موضع نزاع، واللذان وصل معهما في نهاية المطاف إلى لندن، ولم يواجه في طريقه أية محنة، غير تلك التي نشأت عن سوء سلوك الفقيرين اللذين لم يكفّا لحظة عن الارتعاد وعن تشكّي البرد، على نحو جعل أسنان مستر بامبل، كما أعلن هو نفسه، تصطك في رأسه، وأورثه انزعاجاً شديداً، برغم أنه كان يرتدي معطفاً.

حتى إذا تخلّص من هذين الشخصين الشريرين، طوال ساعات الليل على الأقل، نزل مستر بامبل في الفندق الذي وقفت عنده المركبة، وتناول عشاء معتدلاً مؤلفاً من شرائح لحم بقر، وصلصة المحار، وجعة من صنف دون. وبعد أن وضع كأساً مترعة بشراب الـ «جن» الساخن على رف المدفأة قرّب كرسيه إلى النار، مستغرقاً في تأملات أخلاقية شتى حول رذيلة السخط والتشكي المتفشية أكثر مما ينبغي، وتأهب لقراءة الجريدة.

وكانت أول فقرة وقعت عليها عينا مستر بامبل هي الإعلان التالي:

مكافأة مقدارها خمسة جنيهات

«هرب صبي صغير، يدعى أوليفر تويست، من بيته في بينتونفيل، أو أغري بالهرب منه، مساء يوم الخميس الماضي، ثم لم يعثر له بعد ذلك على أثر. إن المكافأة المذكورة أعلاه سوف تدفع إلى أيما شخص يقدِّم

معلومات تفضي إلى اكتشاف مكان أوليفر تويست المشار إليه، أو تلقي أيما ضوء على ماضيه، هذا الماضي الذي يوليه المعلن، لأسباب كثيرة، عناية بالغة.»

ثم تلا ذلك وصف ضاف لملابس أوليفر، وهيئته، ومظهره، وظروف اختفائه، بالإضافة إلى اسم مستر براونلو وعنوانه الكامل.

وفتح مستر بامبل عينيه، وقرأ الإعلان في اناة وروية، مثنى وثُلاث. وما هي غير خمس دقائق ونيف حتى كان في طريقه إلى بينتونفيل، بعد أن جعله اهتياجه البالغ يترك كأس الـ «جن» الحار مترعة كما هي لم تُذق.

وسأل مستر بامبل الفتاة التي فتحت له الباب: «هل مستر براونلو هنا؟»

وعن هذا السؤال أجابت الفتاة بالجواب غير النادر، ولكن المراوغ بعض الشيء، الذي يقول: «لست أدري. من أين أنت قادم؟»

ولم يكد مستر بامبل يلفظ اسم أوليفر، توضيحاً لمهمته، حتى هرعت مسز بيدوين، التي كانت تصغي عند باب حجرة الاستقبال، إلى المدخل على نحو لاهث.

وقالت السيدة العجوز: «ادخل! ادخل! كنت أعلم أننا لا بدَّ أن نسمع شيئاً من أخباره. يا للحبيب المسكين! أجل كنت أعلم أننا لا بدَّ أن نسمع شيئاً من أخباره! بل، لقد كنت واثقة من ذلك. فليبارك اللّه قلبه! لقد عبرت عن رأيي هذا طيلة الأيام الماضية.»

حتى إذا قالت السيدة الجليلة هذا، انقلبت مسرعة إلى حجرة القعود مرّة أخرى، وهناك انطرحت على إحدى الأرائك، وانفجرت بالبكاء. أما الفتاة، ولم تكن على مثل هذه الحساسية كلها، فكانت قد صعدت في غضون ذلك إلى الدور العلوي، ثم رجعت لتسأل مستر بامبل أن يتبعها على التوّ. ففعل.

لقد أدخل إلى المكتب الخلفي الصغير حيث جلس مستر براونلو وصديقه مستر غريمويغ وأمامهما زجاجات وأقداح. وفي الحال انفجر السيد الأخير بالهتاف:

ـ «شماس! إذا لم يكن هذا شماس أبرشية أكلت رأسي!»

فقال مستر براونلو: «أرجوك أن لا تقاطعني في هذه اللحظة. تفضل واجلس.»

فجلس مستر بامبل، وقد أربكته غرابة موقف مستر غريمويغ إرباكاً عظيماً. وغيَّر مستر براونلو موضع المصباح لكي يوفَّق في تأمُّل محيّا الشماس على نحو لا يعكِّر صفوه شيء. ثم قال في شيء من نفاد الصبر:

ـ «وإذن، يا سيدي، فقد أقبلت بعد اطلاعك على الإعلان؟»

فقال الشماس: «نعم، سيدي.»

وسأل مستر غريمويغ: «وأنت شماس حقاً، أليس كذلك يا سيدي؟»

فأجابه مستر بامبل في اعتزاز: «أنا شماس أبرشاني، أيها السيدان.»

فهمس مستر غريمويغ في إذن صديقه: «طبعاً. لقد عرفت أنه كذلك. شماس حتى رؤوس أصابعه!»

عندئذ هز مستر براونلو رأسه في رفق لكي يفرض على صديقه الصمت، ثم استأنف كلامه قائلاً:

ـ «هل تعرف أين مقر ذلك الغلام البائس، الآن؟»

فأجابه الشماس: «أنا لا أعرف عن ذلك أكثر مما يعرفه أي امرئ آخر.»

فسأله السيد العجوز: «حسن، وما الذي تعرفه عنه؟ تكلم بصراحة، إذا كان لديك ما تقوله؟ ما الذي تعرفه عنه؟»

ـ «أنت لا تعرف، بحكم المصادفة، أيما شيء صالح عنه، أليس هذا صحيحاً؟» قال مستر غريمويغ ذلك في سخرية، بعد أن أمعن النظر في أسارير مستر بامبل.

فهز مستر بامبل رأسه ـ وقد ابتهج بالفرصة التي أتاحها السؤال له ـ في وقار منذر بالسوء.

وقال مستر غريمويغ ناظراً إلى مستر براونلو نظرة المنتصر: «أرأيت؟»

ونظر مستر براونلو، في هلع، إلى وجه مستر بامبل المكفهرّ، وسأله أن يفضي بما يعرفه عن أوليفر في أقل قدر ممكن من الكلمات.

ووضع مستر بامبل قبعته أمامه، وفك أزرار سترته، وطوى ذراعيه، وحنى رأسه كمن يستعرض الماضي ويتأمله، وبعد بضع لحظات من التفكير أخذ يروي قصته.

وخليق بتلك القصة أن تكون مضجرة إذا ما رُويت بلغة الشماس، إذ استغرقت روايتها ـ على لسانه ـ نحواً من عشرين دقيقة. ولكن زبدتها كانت أن أوليفر لقيط، متحدر من أبوين وضيعين أثيمين. وأنه لم يتكشَّف منذ ولادته عن أيما صفات غير الغدر، والخبث، ونكران الجميل. وأنه ختم حياته القصيرة في مسقط رأسه بهجوم دمويّ جبان شنه على صبيٍّ وديع، وبالفرار تحت جنح الظلام من بيت سيده. ولكي يقيم الدليل على أنه هو فعلاً الشخص الذي يمثِّله وضع مستر بامبل على الطاولة تلك الأوراق التي كان قد حملها إلى البلدة. ثم إنه طوى ذراعه من جديد، وأنشأ ينتظر ملاحظات مستر براونلو.

وقال السيد العجوز في أسى. بعد أن قلَّب النظر في الأوراق: «أخشى أن يكون كل ذلك صحيحاً أكثر مما ينبغي. وليس هذا بمستكثر على ذكائك. بيد أنه كان يمكن أن أهبَك ثلاثة أضعاف المال لو كانت روايتك في مصلحة الغلام.»

ومن يدري فلعلّ مستر بامبل، لو عرف هذه الحقيقة قبل تلك المقابلة، كان سيضفي على قصته القصيرة لوناً مختلفاً جداً. وعلى أية حال فقد كان الأوان قد فات الآن. وهكذا هز رأسه في كآبه، ودسّ الجنيهات الخمسة في جيبه، وانسحب.

وأنشأ مستر براونلو يذرع الحجرة جيئة وذهاباً طوال بضع دقائق، وقد

أقلقته قصة الشماس، من غير ريب، إقلاقاً بالغاً جعل مستر غريمويغ نفسه يمسك عن إغاظته أكثر مما فعل.

وأخيراً توقف وقرع الجرس في عنف.

وقال مستر براونلو عندما برزت مدبِّرة المنزل: «مسز بيدوين، إن ذلك الغلام ـ أوليفر ـ محتال.»

فقالت السيدة العجوز في قوة: «هذا مستحيل، يا سيدي! هذا مستحيل!»

فعاد السيد العجوز يؤكد: «أقول لك إنه محتال. ماذا تعنين بقولك إن هذا مستحيل؟ لقد سمعنا، اللحظة، رواية كاملة عنه صوّرت حياته منذ ولادته. ولقد تجلى لنا أنه كان طوال عمره نذلاً صغيراً.»

فأجابته السيدة العجوز في حزم: «أنا لن أصدق ذلك أبداً، يا سيدي. أبداً، يا سيدي. أبداً!»

فهَرَّ مستر غريمويغ: «أنتن معشر النسوة العجائز لا تصدِّقن غير الدجالين من الأطباء، وغير الكتب القصصية المحشوّة بالأكاذيب. لقد كنت دائماً على ثقة من ذلك. لماذا لم تقبلي نصيحتي منذ البدء. ولعلك كنت تقبلينها لو لم يُصَبْ بالحمَّى، في ما أظن، أليس كذلك؟ لقد كان ممتعاً، أليس هذا صحيحاً؟ كان ممتعاً! بوه!» وراح مستر غريمويغ يثير نار الموقد.

فلم يكن من مسز بيدوين إلا أن قالت في حنق: «لقد كان غلاماً لطيفاً، قريباً من القلب، معترفاً بالجميل، يا سيدي. أنا أعرف الأطفال، يا سيدي... ولقد عرفتهم طوال السنوات الأربعين الأخيرة. هذا هو رأيي!»

وكانت هذه ضربة قاسية وُجِّهت إلى مستر غريمويغ، وكان أعزب. وإذ لم تنتزع من ذلك السيد الماجد غير ابتسامة فقد ردّت السيدة العجوز رأسها إلى الوراء، وسوَّت مئزرها استعداداً لإلقاء خطبة أخرى، ولكن مستر براونلو صدها عن سبيلها فجأة.

فقد قال السيد العجوز، متظاهراً بغضب كان جدّ بعيد عن الإحساس به: «لا تدعيني أسمع اسم ذلك الغلام بعد اليوم. لقد قرعت الجرس لكي أقول لك ذلك. لا، لا تدعيني أسمع اسمه أبداً، أبداً، مهما يكن السبب، أفهمتِ؟ في استطاعتك أن تغادري الحجرة الآن، يا مسز بيدوين. تذكري! أنا جادّ في ما أقول!»

لقد كانت في منزل مستر براونلو، تلك الليلة، قلوبٌ محزونة.

وغار فؤاد أوليفر في صدره عندما فكَّر في أصدقائه الكرام الطيبين. ولقد كان من حسن طالعه أن يكون عاجزاً عن معرفة ما رُوي على مسامعهم، وإلا لكان من الجائز أن يتفطَّر قلبه في الحال.

الفصل الثامن عشر

كيف قضى أوليفر وقته في مجتمع أصدقائه حميدي السمعة، ذلك المجتمع الذي يغري بالاتعاظ والاعتبار

وحوالى الظهيرة من اليوم التالي، بعد أن انطلق «المراوغ» والمعلم بايتس ابتغاء أداء مهامهما المعتادة، انتهز مستر فاجين الفرصة وأنشأ يلقي على أوليفر محاضرة طويلة حول خطيئة نكران الجميل، الفظيعة، هذه الخطيئة التي أظهر أوليفر في وضوح أنه لم يكن منها براء، البتة، عندما نأى بنفسه عامداً متعمداً عن مجتمع أصدقائه القلقين عليه، وعندما حاول، فوق ذلك، أن ينجو بنفسه منهم بعد الذي بذلوه من جهد عظيم ومال وافر في سبيل استرداده. ووضع مستر فاجين توكيداً شديداً على هذه الحقيقة، وهي أنه آوى أوليفر، ودلّله يوم أوشك ـ لو لم يمدّ إليه يعد العون في الوقت المناسب ـ على الموت جوعاً. وقصّ عليه قصة محزنة مؤثرة عن فتى صغير كان قد أنقذه اليهودي، مدفوعاً بحبه البالغ للإحسان إلى البشر، في ظروف مماثلة، ولكنه أثبت عدم جدارته بتلك الثقة بأن أظهر رغبةً في الاتصال برجال الشرطة، فانتهى به الأمر، ويا لسوء الطالع! إلى الموت،

ذات صباح، على أعواد المشنقة في أولد بايلي(*). ولم ينزع مستر فاجين إلى إخفاء الدور الذي مثَّله في هذه الكارثة ولكنه قال متحسِّراً، والدموع تترقرق في عينيه، إن مسلك الفتى المتسم بالعناد والخيانة قد أوجب أن يذهب ضحية شهادة تدينه بالجريمة، وهي شهادة قد لا تكون صحيحة مئة بالمئة ولكنها كانت ضرورية، على نحو لا مناص منه، لسلامته هو (مستر فاجين) وسلامة نفر من أصدقائه المختارين. وختم مستر فاجين محاضرته برسم صورة بغيضة بعض الشيء لمكارِهِ الشنق، وعبَّر في لهجة راشحة بالود والكياسة عن أمله العظيم أن لا يضطر أبداً إلى إخضاع أوليفر تويست لتلك العملية الكريهة.

وجرى الدم مثلوجاً في عروق أوليفر تويست وهو يصغي إلى كلمات اليهودي، وفهم على نحو غير واضح ما اشتملت عليه من تهديدات قاتمة. لقد سبق له أن عرف أن من الجائز، حتى للعدالة نفسها، أن تخلط ما بين البريء والمذنب حين يتفق لهما أن يترافقا مصادفة. وبدا له أن من المحتمل جداً أن يكون اليهودي العجوز قد رسم فعلاً ونفَّذ، غير مرة، خططاً سرّية بارعة للقضاء على بعض الأشخاص المطلعين على أشياء لا تشرّف أو على بعض الأشخاص النزاعين إلى الإفضاء بما يعلمون... عندما تذكَّر الصفة العامة التي غلبت على المهاترات الناشبة بين ذلك السيد الماجد ومستر سايكس، والتي كانت تشير، في ما يبدو، إلى مؤامرة من هذا الضرب حيكت في الأيام السالفة. حتى إذا رفع عينيه في وجل فالتقَتا نظرات اليهودي الثاقبة، استشعر أن وجهه الشاحب وأوصاله المرتعدة لم تفت ذلك العجوز اليقظ وأنها أوقعت في نفسه مسرّة واضحة.

وابتسم اليهودي ابتسامة رهيبة، وربَّت على رأس أوليفر، وقال إنه إذا ما التزم السكينة وأخذ نفسَه باتقان «الصناعة» فليس ثمة ما يحول حتى الآن، في ما يخيَّل إليه، دون ارتباطهما برباط الصداقة. ثم إنه اعتمر بقبعته

(*) Old Bailey هي المحكمة الجنائية الرئيسية في لندن. (المعرب)

وغطى نفسه بمعطف عتيق مرقَّع، وانصرف وأقفل باب الحجرة وراءه.

وهكذا ظل أوليفر طوال ذلك اليوم، والجزء الأعظم من أيام كثيرة تالية، لا يرى أحداً ـ من الصباح الباكر حتى منتصف الليل ـ فليس له من رفيق يحاوره خلال تلك الساعات الطويلة غير أفكاره. وهي أفكار كانت لا تفتأ ترتدّ إلى أصدقائه الكرام وإلى الفكرة السيئة التي لا بد أنهم قد كوّنوها عنه منذ فترة طويلة. ومن هنا كانت أفكاراً حزينة حقاً.

وبعد انقضاء أسبوع أو نحوه ترك اليهودي باب الحجرة غير مقفل. فكان لأوليفر ملء الحرية في أن يطوّف في أرجاء البيت.

كان منزلاً قذراً جداً. وكانت للحجرات في الدور العلوي أبواب عريضة ومواقد ضخمة عالية تحيط بها أُطُرٌ خشبية، وكانت ذات جدران مكسوّة بألواح من خشب وسقوف مزدانة بأفاريز... أفاريز كانت برغم إسودادها من جراء الإهمال والغبار مزخرفة بطرائق مختلفات. ومن هذه الإمارات كلها استنتج أوليفر أن ذلك البيت كان منذ عهد بعيد، وقبل أن يُولد اليهودي العجوز، مِلْكاً لأناس أفضل، ومن يدري فلعله كان موطناً جميلاً جداً وبهيجاً جداً برغم كل ما يكتنفه الآن من إكفهرار ووحشة.

كانت العناكب قد نسجت بيوتها في زوايا الجدران والسقوف. وكانت الجرذان تولي هاربة، كلما اجتاز أوليفر إحدى الحجرات في خطى وئيدة، وترتدّ إلى أحجارها مذعورة مروّعة. وباستثناء ذلك لم يكن ثمة ما يُشعر العين أو الأذن بوجود أي كائن حي. وكثيراً ما كان أوليفر يجثم ـ بعد أن يهبط الليل ويستبد به السأم من الطواف من جحرة إلى حجرة ـ في زاوية المجاز عند الباب المفضي إلى الشارع، لكي يكون على مقربة من الأحياء ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وكان من دأبه أن يلبث هناك، مرهفاً السمع مُحْصياً الساعات، حتى يرجع اليهودي أو يرجع الغلمان.

وفي جميع الحجرات كانت مصاريع النوافذ العفنة محكمة الإيصاد، وكانت القضبان الحديدية التي تدعمها مثبّتة تثبيتاً مكيناً. وكان النور الوحيد الذي تمكَّن من النفاذ يتسرّب خلال ثقوب مستديرة في أعلى الحجرات،

مما جعلها أشد ظلمة وملأها بظلال عجيبة. وكان في مؤخرة المنزل علِّيَّة ذات نافذة تحيط بها من الخارج قضبان حديدية صدئة، ولم يكن لتلك النافذة مصراع ما. ومن خلالها كان أوليفر يسرّح الطرف، بوجه كئيب، طوال ساعات موصولة. بيد أنه ما كان ليطَّلع منها إلا على كتلة من رؤوس المنازل مزدحمة مشوّشة، وإلا على مداخن مُسْودَّة وقمم سقوف هرمية. صحيح أن رأساً أشيب كان يُرى، في بعض الأحيان، وهو يطل من وراء سور مُقام فوق سطح أحد البيوت النائية، ولكن هذا الرأس كان لا يلبث أن يتوارى. وإذْ كانت نافذة مَرْقب أوليفر مسمَّرة غبَّشها المطر ودخان السنين المتعاقبة، فقد كان ذلك كل ما استطاع أن يفعله ليتبيَّن أشكال الأشياء المختلفة القائمة وراءها من غير أن يأتي بأيما عمل يمكِّن أحداً من رؤيته أو سماعه ـ وهو أمرٌ كان ممكن الحدوث إلى أبعد حد، فكأنَّ أوليفر كان يحيا ضمن برج كاتدرائية القديس بولس.

وذات أصيل، وكان قد عُهِد «للمراوغ» وللمعلم بايتس في مهمة يقومان بها خارج البيت، خطر لأول هذين الفتيَيْن أن يولي مظهره الخارجي شيئاً من العناية (ويقتضينا الإنصاف أن نقول إن ذلك لم يكن بأية حال موطناً مألوفاً من مواطن الضعف عنده). وهكذا تنازل فأصدر أمره إلى أوليفر بأن يساعده في اتخاذ زينته.

وسُرّ أوليفر أعظم السرور بأن يجد نفسَهُ في وضع يمكِّنه من إسداء خدمة ما، وبأن تتاح له وجوه يستطيع أن ينظر إليها، مهما تكون تلك الوجوه شريرة. وكان شديد التوق إلى استرضاء مَنْ حوله ما دام قادراً على ذلك من غير أن يقترف إثماً، ومن هنا لم يقدّم أيما اعتراض على ذلك الطلب، بل عمد في الحال إلى التعبير عن استعداده لأداء تلك المهمة، وركع على الأرض ـ بينا جلس «المراوغ» على الطاولة بحيث يكون في ميسوره أن يريح قدمه على ركبة أوليفر ـ وباشر عملية وَصَفها مستر داوكنز بأنها عملية «صقل غلافيْ رجله». وهي عبارة تعني، إذا ما ترجمت إلى إنكليزية واضحة، تنظيف حذائه العالي الساقين.

وسواء أكان الإحساس بالحرية والاستقلال الذي يُفترض في الحيوان العاقل أن يستشعره حين يجلس مسترخياً على طاولة وهو يدخن غليوناً ويؤرجح إحدى رجليه في لامبالاة إلى أمام وإلى وراء بينا يقوم شخص آخر بتنظيف حذائه على نحو موصول من غير أن تكدر تأملاته لا ذكرى ألم أصابه عند نزعهما ولا شقاءُ التفكير في انتعالهما. . . أقول سواء أكان هذا هو الذي رقق مشاعر «المراوغ» ولطّف أفكاره أم كان الذي رققها ولطّفها هو جودة التبغ أو سلاسة الجعة فالشيء الذي لا ريب فيه أن صبغة من الحماسة الرومانسية قد غلبت عليه، في تلك اللحظات، وهي صبغة غريبة عن طبيعته العامة. لقد خفض بصره، وقد بدت إمارات التفكير على محياه، نحو أوليفر الصغير، وأنشأ يتأمله فترة يسيرة. ثم إنه رفع رأسه بعد ذلك، وأطلق زفرة رقيقة وقال نصف ذاهل ونصف مخاطب المعلم بايتس:

ـ «أليس مما يؤسف له أشد الأسف أن لا يكون طويل اليد؟»

فقال المعلم تشارلز بايتس: «آه، إنه لا يعرف مصلحته.»

وأطلق «المراوغ» زفرة أخرى واستأنف تدخين غليونه، وكذلك فعل تشارلي بايتس. لقد دخنا، كلاهما، في صمت، طوال بضع ثوان. ثم قال المراوغ في لهجة فاجعة:

ـ «أحسب أنك لا تعرف حتى معنى «طويل اليد»؟»

فأجاب أوليفر، رافعاً بصره: «أحسب أني أعرف ذلك. إنه يعني من كانت مهنته اللصـ. . .» وكبح نفسه ثم أضاف متسائلاً: «أنت طويل اليد، أليس كذلك؟»

فأجابه «المراوغ»: «نعم. وجدير بي أن أزدري نفسي لو كنت أي شيء آخر». حتى إذا أطلق مستر داوكنز هذا التصريح، ردّ قبعته إلى الوراء على نحو عنيف، ونظر إلى المعلم بايتس وكأنه يقول إن مما يسعده أن يسمع صديقه يصرّح بنقيض ذلك.

وكرّر «المراوغ»: «أنا طويل اليد. وكذلك حال تشارلي. وكذلك

حال فاجين. وكذلك حال سايكس. وكذلك حال نانسي. وكذلك حال بت. أجل، كذلك نحن جميعاً، بما فينا الكلب. إنه هو أشد أعضاء العصابة خبثاً ومكراً.»

فأضاف تشارلي بايتس: «وأقلهم نزوعاً إلى التبشير!»

فقال «المراوغ»: «إنه يمتنع حتى عن العواء في قفص الشهود خشية أن يبدر منه أيما شيء يورِّطه في المتاعب. لا، إنه يمتنع عن ذلك حتى ولو أوثقته في أحد تلك الأقفاص وحرمته الطعام طوال أسبوعين.»

فأعلن تشارلي: «أجل، إنه لا ينطق بشيء البتة.»

وتابع «المراوغ» حديثه: «هو كلب غريب. ألم تره كيف ينظر في ضراوة إلى كل شخص غريب يضحك أو يغني حين يكون منطلقاً في رفقتنا؟! ألم تره كيف يمسك عن العواء كلما سمع عزفاً على الكمان؟! وكيف أنه لا يكره الكلاب الأخرى التي لا تتحدر من سلالته؟!»

فقال تشارلي: «إنه مسيحي مئة بالمئة.»

وقد قُصد بهذا الحكم إلى أن يكون مدحاً خالصاً لمواهب الكلب، ولكنها كانت ملاحظة ملائمة بمعنى آخر. على الرغم من أن المعلم بايتس لم يفطن لهذا المعنى. ذلك أن ثمة عدداً كبيراً جداً من السيدات والسادة الذين يزعمون أنهم مسيحيون مئة بالمئة والذين تجمع ما بينهم وبين كلب مستر سايكس وجوه شبه قوية وفريدة.

ـ «حسن، حسن،» كذلك قال «المراوغ» مرتداً إلى الموضوع الذي كان قد انحرف عنه، بمثل الاهتمام البالغ الجدير بعمله والذي كان يسيطر على تصرفاته جميعاً. «ليس لذاك أية علاقة بصديقنا الساذج الصغير هذا.»

فقال تشارلي: «ذلك صحيح. لماذا لا تضع نفسك في خدمة فاجين، يا أوليفر؟»

وأضاف «المراوغ» في ابتسامة عريضة: «وتكوّن ثروتك في غير إبطاء؟»

فقال تشارلي بايتس: «وبذلك تصبح قادراً على الانسحاب إلى أملاكك، وتحيا حياة مترفة أنيقة، كما أعتزم أنا أن أفعل عند أول سنة كبيسة تحلّ بعد أن تنقضي قبلها أربعٌ من ذلك النوع من السنوات، وفي الخميس الثاني والأربعين من أسبوع الثالوث الأقدس.»

فأجاب أوليفر في استحياء: «أنا لا أحب ذلك. إني أتمنى لو يدعونني أذهب. أنا... أنا أفضّل الذهاب على أي شيء آخر.»

فردّ تشارلي: «أما فاجين فيفضِّل أن لا تفعل.»

وكان أوليفر يعلم ذلك علم اليقين، ولكنه أعتقد أن الإسراف في التعبير عن مشاعره قد يعرِّضه للخطر، فاكتفى بزفرة أطلقها وواصل تنظيف الحذاء.

وهتف «المراوغ»: «اذهَبْ! ولكن، أليس لك من الآمال في شيء أكثر من الذهاب؟ ألا تستشعر أيّ اعتزاز بالنفس؟ أتريد أن تذهب وتحيا عالة على أصدقائك؟»

فقال المعلم بايتس، مخرجاً من جيبه منديلين حريريين أو ثلاثة مناديل حريرية، وقذف بها إلى إحدى الخزائن: «أوه، يا للشيطان! ذلك عملٌ حقير جداً.»

وقال «المراوغ» في تقزّز متشامخ: «أنا لا أستطيع أن أطيق شيئاً مثل هذا!»

فقال أوليفر بنصف ابتسامة: «ومع ذلك فأنت تستطيع أن تتخلى عن أصدقائك وتدعهم يعاقبون على ما جنتْهُ يداك.»

فأجاب «المراوغ» ملوّحاً بغليونه: «لقد كان ذلك حرصاً مني على سلامة فاجين ليس غير. لأن رجال الشرطة يعرفون أننا نعمل معاً، ولقد كان من الجائز أن يقع هو في بلاء لو لم نولِّ الإدبار. كان هذا هو الحافز، أليس كذلك يا تشارلي؟»

فهز المعلم بايتس رأسه هزة تدل على الموافقة، واستعد للكلام.

ولكن ذكرى هروب أوليفر تمثَّلت له تمثلاً مفاجئاً إلى درجة جعلت الدخان الذي كان يتنشَّقه آنذاك يتشابك مع إحدى الضحكات، فيصعد عالياً إلى رأسه ويهبط نازلاً إلى حنجرته، لتكون ثمرة ذلك نوبة سعال وضرباً للأرض بالقدمين استمر نحواً من خمس دقائق.

وقال «المراوغ» مخرجاً حفنة من الشلنات وأنصاف البنسات: «أنظر! هذه حياةٌ طروب! وهل يضيرها أن تكون قد جاءت من هذه الطريق أو تلك؟ هيَّا، أغرف. فلا يزال في المكان الذي أخِذت منه مقدار وافر. أنت تأبى ذلك، أليس هذا صحيحاً؟ أوه، أيها الأحمق النفيس!»

فتساءل تشارلي بايتس: «هذا إثم، أليس كذلك يا أوليفر؟ إن أنفاسه سوف تُخْمد، أليس كذلك؟»

فقال أوليفر: «لست أفهم ما تقوله.»

فقال تشارلي: «شيء مثل هذا، أيها الحاطب العجوز» وأمسك المعلم بايتس بطرف منديله، ورفعه في الهواء على نحو مستقيم، وأسقط رأسه على كتفه، وأطلق من بين أسنانه صوتاً غريباً، ملمعاً بذلك، من طريق التمثيل الصامت المعبِّر، إلى أن إخماد الأنفاس والشنق شيء واحد.

وقال تشارلي: «هذا ما أعنيه. انظر كيف يحدِّق، يا جاك! أنا لم أرَ قط من قبل رفيقاً ممتازاً مثل هذا الغلام. إنه سوف يُميتني من الضحك... أنا واثق من ذلك.» وبعد أن أطلق المعلم تشارلز بايتس ضحكة صادرة من القلب، استأنف تدخين غليونه والدموع تترقرق في عينيه.

وهنا قال «المراوغ»، وهو يتأمل حذاءه ذا الساق العالي، في كثير من الارتياح، عندما أتمّ أوليفر صقله: «إنك لم تفز بثقافة جيدة، ومع ذلك فإن فاجين سوف يجعل منك شيئاً ذا شأن، وإلا كنت أول من وقع بين يديه وأثبتت الأيام أنه عنصر لا فائدة فيه. من الخير لك أن تبدأ في الحال، لأنك سوف تمارس الصناعة في وقت أبكر مما تظن بكثير. أنت تضيع وقتك ليس غير، يا أوليفر.»

وأردف المعلم بايتس هذه النصيحة بمواعظ أخلاقية شتَّى من عنديَّاته. حتى إذا استبد به الإرهاق اندفع هو وصديقه مستر داوكنز إلى رسم صورة وهاجة للمسرات المتعددة التي تصاحب، عادة، ذلك الضرب من الحياة التي يعيشانها... صورة موشحة بصنوف من التلميح لأوليفر بأن خير ما يستطيع أن يعمله هو التماس رضا فاجين في غير إبطاء، وذلك بسلوك الطريق التي سلكاها هما لاكتساب رضاه.

وقال «المراوغ» عندما سمع اليهوديَّ يفتح الباب في الدور العلوي: «وعليك دائماً أن تضع هذا في غليونك، يا نولِّي، إذا أبيت أن تأخذ المحارم والتكَّاكات...»

فقاطعه المعلم بايتس: «ما الفائدة من الكلام بهذه الطريقة؟ إنه لا يعرف ما تعني.»

فلم يكن من «المراوغ» إلا أن قال، منحدراً بحديثه إلى مستوى مقدرة أوليفر على الفهم: «إذا أبيت أن تأخذ المناديل الحريرية والساعات أخذها شخص آخر. وهكذا يصبح الذين يخسرونها في حال سيئة، وتصبح أنت في حال أسوأ، ولا يربح من هذا الوضع أحد غير الذين يشترونها... ولا تنس أن حقك فيها لا يقل عن حقهم!»

ـ «من غير شك! من غير شك!» كذلك قال اليهودي الذي كان قد دخل الحجرة من غير أن يراه أوليفر. «لقد قِيلت تلك الحقيقة بأقل قدر من الكلمات، يا عزيزي، بأقل قدر من الكلمات! في استطاعتك أن تثق بما قاله «المراوغ». ها! ها! ها! إنه يفهم أسرار صناعته ويحفظها عن ظهر قلب.»

وفرك العجوز يديه في جذل، وهو يؤيد منطق «المراوغ» على هذا النحو. وضحك في فتور ابتهاجاً بما تكشَّف عنه تلميذه من مهارة بالغة.

ووقف الحديث عند هذا الحد، موقتاً. ذلك بأن اليهودي كان قد رجع إلى البيت برفقة الآنسة بتسي وشخص آخر لم يسبق لأوليفر أن رآه من قبل، ولكنه سمع «المراوغ» يخاطبه باسم «توم تشيتلينغ»... شخص

كان قد تلكأ على السلَّم بعض الشيء ليتبادل بعض كلمات غزلية مع السيدة، ثم ظهر للعيان.

وكان مستر تشيتلينغ أكبر من «المراوغ» سناً، إذ كان قد بلغ، في ما يبدو، شتاءه الثامن عشر. بيد أنه كان في مواقفه من ذلك السيد الفتى قَدْرٌ من الاحترام يؤذن بأنه يعي نحوه دونيَّة طفيفة من ناحية العبقرية والبراعة المهنية. كانت له عينان صغيرتان متألقتان، ووجه مجدور. وكان يرتدي قلنسوة فرْوية، وسترة داكنة من مخمل مضلَّع، وبنطالاً قطنياً ذا وبر انتشرت فيه البقع الدهنية، ومئزراً. كانت ملابسه، في الحق، بالية إلى حدّ بعيد، ولكنه اعتذر عن ذلك للجماعة بقوله إن «مدَّته» انقضت منذ ساعة ليس غير، وإن اضطراره إلى ارتداء كسوة السجن الرسمية طوال الأسابيع الستة الماضية لم يدع له متسعاً من الوقت للعناية بملابسه الشخصية. وأضاف مستر تشيتلينغ، في اهتياج بالغ، قائلاً إن الطريقة الجديدة المتبعة، هناك، في تطهير الملابس من طريق التبخير طريقة جهنمية تتنافى مع الدستور، ذلك بأنها كانت تحدث فيها ثقوباً، ولم يكن ثمة سبيل لطلب التعويض من سلطات الإقليم. وذهب إلى أن الملاحظة نفسها تنطبق على الأسلوب المتبع هناك في حلاقة شعر الرأس، وهو أسلوب أكدّ مستر تشيتلينغ أنه غير قانوني قولاً واحداً. ثم إنه ختم ملاحظاته بالقول إنه لم يذق قطرة من أي شيء منذ اثنين وأربعين يوماً طويلاً مميتاً مثقلاً بالأشغال الشاقة، وأنه «مستعد لأن يُنْسَف إن لم يكن جاف الحلق مثل سلة ليمون حامض.»

وتساءل اليهودي، في ابتسامة عريضة، بينا كان الغلمان الآخرون يضعون زجاجة من خمر على المائدة: «من أين تحسب هذا الرجل آتياً، يا أوليفر؟»

فأجابه أوليفر: «أنا... أنا... لا أدري، يا سيدي.»

وتساءل توم تشيتلينغ وهو يلقي على أوليفر نظرة ترشح بالازدراء: «من هذا؟»

فأجابه اليهودي: «صديقٌ لي صغير، يا عزيزي.»

فقال الشاب وهو ينظر إلى فاجين نظرة ذات مغزى: «إنه محظوظ، إذن. لا تشغل بالك بمعرفة المكان الذي أقبلتُ منه، أيها الفتى. إنك سوف تشق طريقك إلى هناك، في يوم قريب جداً. إني أراهنك على ريال!»

وضحك الغلمان لهذه النكتة. وبعد نكات أخرى في الموضوع نفسه تبادلوا مع فاجين بضع همسات، وانسحبوا.

حتى إذا تحدث الوافد الأخير وفاجين، على انفراد، حديثاً موجزاً، قرّبا كرسيَّيْهما من المدفأة. وبعد أن طلب اليهودي إلى أوليفر أن يتقدم ويجلس على مقربة منه وجَّه الحديث نحو الموضوعات المراد بها أن تثير اهتمام مستمعيه أكثر ما تكون الإثارة. وكانت تلك الموضوعات هي حسنات «الصناعة» العظيمة، ومواهب «المراوغ»، وظَرْف تشارلي بايتس، وسخاء اليهودي نفسه. وأخيراً تكشَّفت تلك الموضوعات عن إمارات تؤذن بأنها قد استُنْفِدت استنفاداً كاملاً، وتكشَّف مستر تشيتلينغ عن الشيء نفسه، ذلك بأن إصلاحية المجرمين تصبح مُرْهِقة بعد أسبوع أو أسبوعين. وهكذا انسحبت الآنسة بتسي، وتركت الجماعة الصغيرة تخلد للراحة.

ومنذ ذلك اليوم أمسى أوليفر لا يُتْرك وحده إلا نادراً. لقد وُضِع على اتصال يكاد يكون غير منقطع البتة مع الغلامين اللذين كانا يلعبان مع اليهودي، كل يوم، لعبتهما القديمة. وليس يدري أحد غير اليهودي هل فعلا ذلك التماساً لمزيد من البراعة في تلك الصناعة أم تبصيراً لأوليفر بأسرارها. وفي أحيان أخرى كان من دأب العجوز أن يروي لهم قصصاً عن سرقات ارتكبها في صباه الأول، ومزج تلك القصص بكثير من الأشياء المضحكة والغريبة حتى لقد تعذر على أوليفر أن يتمالك نفسه عن الضحك، وعن الظهور بمظهر المستمتع الطرِب برغم مشاعره الفضلى كلها.

وبكلمة موجزة، فقد أخضع اليهودي العجوزُ المكَّارُ ذلك الغلام

الصغير لسلطان سحره. حتى إذا هيأ ذهنه، من طريق العزلة والكآبة، لتفضيل أيما رفقة على رفقة أفكاره الحزينة في مثل ذلك الموطن الموحش، راح الآن يَقْطُر في روحه السمَّ الذي كان يرجو أن يُسَوِّدها، وأن يغيِّر صبغتها إلى الأبد.

الفصل التاسع عشر

فيه تدرس خطة هامة ويتم الاتفاق عليها

كانت ليلة باردة، رطبة، عاصفة تلك التي غادر فيها اليهودي وكْرِه، بعد أن أحكم تزرير معطفه حول جسمه المتغضن، ورفع قبَّته حتى أذنيه لكي تخفي الجزء الأدنى من وجهه إخفاء كاملاً، وتمهَّل لحظة على العتبة بينا كان الباب يُقفل خلْفَهُ ويدعَّم بالسلاسل. حتى إذا أصغى ريثما اتخذ الغلمان مختلف التدابير التي تكفل لهم الأمن والسلامة، وإلى أن أمسى من المتعذر عليه سماع وقع أقدامهم المتراجعة، انسلَّ هابطاً الشارع على أسرع وجه استطاعه.

وكان المنزل الذي سبق لأوليفر أن نُقِل إليه يقوم على مقربة من حيّ هوايتشابل، ووقف اليهودي لحظة عند زاوية الشارع. وبعد أن أجال طرفه في ما حوله على نحو مريب عبر الطريق، وانطلق في اتجاه سبيتالفيلدز.

كان الوحل كثيفاً على حصباء الشوارع، وكان الضباب الأسود يتدلّى فوقها. وهطل المطر على نحو متوان، وكان كل شيء بارد الملمس دبِقاً. لقد بدت تلك الليلةُ وكأنها أكثر الليالي ملاءمة لخروج مخلوق كاليهودي العجوز من بيته. وفيما كان العجوز البشع ينسل خلسة إلى أمام، زاحفاً في محاذاة الجدران والأبواب، بدا أشبه شيء بزحَّافة كريهة انبثقت من الوحل والظلمات التي كان يخوض فيها... زحافة أخذت تدب في الظلام بحثاً عن قاذورة عامرة تصيب منها عشاءها.

وواصل سيره، خلال كثير من الأزقة الملتوية الضيقة، حتى بلغ

«بيثنال غرين». ثم إنه انعطف فجأة نحو اليسار، فإذا به يغوص وسط متاهة من الطرق الحقيرة القذرة التي تكثر في ذلك الحيّ الكثيف السكان.

كان واضحاً أن اليهودي يعرف البقعة التي اجتازها معرفة جعلته أبعد ما يكون عن أن يضل سبيله من جراء ظلمة الليل الدامسة أو من جراء تعقد الطريق. لقد سار خلال كثير من الأزقة والشوارع، وأخيراً انتهى إلى شارع لم يكن ينيره غير مصباح فَرْد منصوب في طرفه الأقصى. وفي ذلك الشارع وقف عند أحد المنازل وقرع بابه. وبعد أن تبادل بضع كلمات مهموسة مع الشخص الذي فتح له ارتقى السلَّم صاعداً إلى الطابق الأول.

وهرّ كلبٌ عندما مسَّ مقبض باب من أبواب الغرف. وتساءل صوت رجل: «مَنْ هناك؟»

فقال اليهودي مطلاً برأسه من وراء الباب: «أنا، يا بيل. أنا وليس أحداً غيري، يا عزيزي.»

عندئذ قال سايكس: «أدْخِل جسدك إذن، إلزم الأرض، أيها الوحش الأبله. ألست تعرف الشيطان حين يرتدي معطفاً؟»

ويبدو أن الكلب كان قد خُدع بعض الشيء بثوب مستر فاجين الخارجي إذ لم يكد اليهودي يفك أزرار معطفه ويلقيه على ظهر أحد الكراسي حتى ارتدّ إلى الزاوية التي كان قد فارقها، مُبَصْبصاً بذنبه طوال الطريق، لكي يُظهر أنه كان راضياً بقدر ما تجيز له طبيعته أن يرضى.

وقال سايكس: «حسناً؟»

فأجابه اليهودي: «خير، يا عزيزي... آه! نانسي!»

وإنما أطلِقت هذه التحية الأخيرة في إرتباك كاف لأن يجعله يشك في أنها قد سُمِعت. ذلك بأن مستر فاجين وصديقته الفتيَّة لم يكونا قد اجتمعا منذ ذلك اليوم الذي انتصرت فيه لأوليفر. ولكن سلوك السيدة الصغيرة ما لبث أن بدّد جميع شكوكه في الموضوع، إن صحَّ أنه عرف مثل تلك الشكوك. فقد أنزلت قدميها عن حاجز نار الموقد، وردّت كرسيها إلى

وراء، وسألت فاجين أن يُدني كرسيه من غير أن تنبس بأية كلمة أخرى: ذلك بأن الليلة كانت باردة، ما في هذا ريب.

فقال اليهودي وهو يدفئ يديه المعروقتين فوق النار: «الليلة باردة حقاً، يا عزيزتي نانسي.» ثم أضاف وهو يمسّ أجد جنبيه: «ويبدو لي وكأنَّ البرد يخترق جسم المرء اختراقاً.»

فقال مستر سايكس: «إذا استطاع أن يشق طريقه إلى فؤادك فمعنى ذلك أنه بردٌ ثاقبٌ إلى حد بعيد. أعطِهِ شيئاً من الشراب، يا نانسي. يا للشيطان، عجلي! إن مجرد النظر إلى جثته المهزولة العجوز ترتعد على هذا النحو، وكأنه شبح بشع خرج من القبر منذ لحظات، كاف لنقل المرء من عالم الأصحاء إلى عالم المرضى.»

وسارعت نانسي فجاءت بزجاجة من خزانة حافلة بالزجاجات. وكانت هذه الزجاجات ـ إذا كان لنا أن نحكم على أساس من تنوّع مظهرها ـ ملأى بضروب من السوائل مختلفة. وصبّ سايكس «البراندي» في قدح، وسأل اليهوديَّ أن يحتسيه.

ـ «هذا كاف، كاف وزيادة. شكراً، يا بيل،» كذلك قال اليهودي، وهو يضع الكأس على الطاولة بعد أن مسَّها بشفتيه مجرد مسّ.

فتساءل سايكس، مسدّداً نظراته إلى اليهودي: «ماذا؟! أنت تخشى أن تغلبك، أليس كذلك؟»

ونخر سايكس نخرة ازدراء، واختطف الكأس، وأفرغ بقية محتوياتها في الرماد كإجراء تمهيدي لإعادة مَلْئها لنفسه. وهو ما فعله في الحال.

وأجال اليهودي بصره في ما حوله، بينا التهم رفيقه الكأس الثانية. ولم يفعل اليهودي ذلك بدافع من الفضول، إذ كان قد رأى الحجرة من قبل غير مرة، ولكنه فعل ذلك في قلق وارتياب وفقا لمألوف عادته. كانت حجرة حقيرة الأثاث، ليس فيها مما يوحي بأن شاغلها أكثر من عامل من العمال، إضافة إلى بعض الأدوات المريبة الظاهرة للعيان شيء: هراوتين

أو ثلاث هراوات غليظة قائمة في إحدى الزوايا، وعصا قصيرة في رأسها رصاص معلقة فوق إطار المدفأة.

وقال سايكس متمطِّقاً بشفتيه: «هيا! أنا مستعد الآن!»

فسأله اليهودي: «للعمل؟»

فأجابه سايكس: «للعمل. قل، إذن، ما تريد أن تقوله.»

فقال اليهودي ساحباً كرسيه إلى أمام، متحدثاً في صوت خفيض جداً: «عن البيت الحقير الذي في تشيرتسي، يا بيل؟»

فسأله سايكس: «نعم. وماذا عنه؟»

فقال اليهودي: «آه! أنت تعرف ما أعني، يا عزيزي. إنه يعرف ما أعني، يا نانسي، أليس كذلك؟»

فقال سايكس، ساخراً: «لا، إنه لا يعرف. أو إنه لا يريد أن يعرف، ولا فرق بين الحالين. تكلم بصراحة، وسمِّ الأشياء بمسمَّياتها. لا تجلس هناك، غامزاً مختلساً النظر، وتتحدث إليَّ بلغة التلميح الخفيّ وكأنك لم تكن أول من فكَّر في الإقدام على تلك السرقة. ما الذي تعنيه؟»

فقال اليهودي الذي كان قد حاول، على غير طائل، أن يوقف ثورة الحنق تلك: «هش، يا بيل، هش. قد يسمعنا بعض الناس، يا عزيزي. إن بعض الناس قد يسمعوننا.»

فقال سايكس: «دعهم يسمعون! أنا لا أبالي بذلك!» ولكن لما كان مستر سايكس يبالي بذلك في الواقع، فقد استنسب بعد شيء من التفكير في الأمر، أن يخفض صوته عند النطق بهذه الكلمات، وأن يهدئ من ثورته بعض الشيء.

فقال اليهودي بلهجة متملقة: «حسن، حسن، لقد أردت أن أصطنع الحذر، على مألوف عادتي، ليس غير. والآن، يا عزيزي، فلنعد إلى ذلك البيت الحقير الذي في تشيرتسي. متى سيُصار إلى التنفيذ، يا بيل، متى سيصار إلى التنفيذ؟ يا لها من آنية مائدة نفيسة، يا عزيزي، يا لها من

آنية مائدة نفيسة!» وفرك اليهودي يديه، ورفع حاجبيه في موجة غامرة من التوقع البهيج.

فأجابه سايكس في برود: «إن ذلك لن يتم أبداً.»

فكرر اليهودي بمثل رجع الصدى: «لن يتم أبداً!» وارتد إلى الوراء مسنداً ظهره إلى ظهر كرسيه.

فعاد سايكس إلى القول: «لا، لن يتم أبداً. إنه لن يكون، على الأقل، عملية سهلة كما توقعنا.»

فقال اليهودي وقد شحب وجهه من شدة الغضب: «وإذن فمعنى ذلك أنكم لم تحسنوا التحضير للأمر. لا تقل لي ذلك!»

فأجابه سايكس: «بل سأقوله لك. ومن أنت حتى لا يُقال لك ذلك؟ سوف أقول لك أن توبي كراكيت قد حام حول المنزل طوال أسبوعين فلم يستطع أن يقنع أحد الخادمين بالتعاون معه.»

فقال اليهودي ملطفاً لهجته بعد أن رأى الحدّة تغلب على سايكس: «هل تقصد أن تقول لي، يا بيل، إن من المتعذر أن نذلل أياً من الرجلين اللذين في ذلك البيت؟»

فأجابه سايكس: «أجل، أنا أقصد أن أقول لك ذلك. لقد استخدمتهما السيدة العجوز منذ عشرين سنة. ولو أنك أعطيتهما خمسمئة جنيه لما وُفِّقت إلى استمالتهما.»

فاحتج اليهودي قائلاً: «ولكن هل تريد أن تقول لي، يا عزيزي، أنه لا سبيل إلى التغلب على النساء؟»

فأجابه سايكس: «أجل، لا سبيل إلى ذلك البتة.»

فقال اليهودي غير مصدِّق: «ولو عهدنا إلى توبي كراكيت المرح بهذه المهمة؟ فكِّر قليلاً في طبيعة النساء، يا بيل.»

فأجابه بيل: «لا. حتى ولو عهدنا بذلك إلى توبي كراكيت المرح. لقد قال إنه استخدم سالفين زائفين، وصدرة صفراء زاهية طوال ذلك

الوقت الذي سلخه في التسكع هناك. ولكن هذا كله لم يكن ذا جدوى.»

فقال اليهودي: «كان يتعيَّن عليه أن يجرِّب شاربين زائفين وبنطال عسكري، يا عزيزي.»

فأجابه سايكس: «لقد جرب ذلك أيضاً. فلم تكن تلك الحيلة أكثر نجاحاً من الحيلة الأولى.»

فغلب الشحوب على اليهودي عند سماعه هذا النبأ. وبعد أن استغرق في التأمل بضع دقائق وذقنه غائرة في صدره، رفع رأسه وقال، وهو يطلق زفرة عميقة: «إذا كان توبي كراكيت المرح صادقاً في الذي رواه فعندئذ تكون اللعبة، في ما يخيَّل إليّ، قد خُتِمت.»

فقال الرجل العجوز وهو يرخي يديه على ركبتيه: «ومع ذلك، فمن المحزن، يا عزيزي، أن نخسر هذا كله بعد أن علَّلنا قلوبنا به.»

فقال سايكس: «هذا صحيح. حظ سيئ.»

وتلت ذلك فترة صمت طويلة، استغرق اليهودي خلالها في تفكير عميق، وقد تغضَّن وجهه في انطباعة تنم عن لؤم عفريتيّ كامل. وأخذ سايكس يختلس النظر إليه بين الفينة والفينة. أما نانسي، وكانت في ما يبدو تخشى أن تثير غضب لصّ المنازل، فقد جلست وعيناها مركَّزتان على النار وكأن بها صمماً عن كل ما يجري.

ثم إن سايكس قال قاطعاً، فجأة، ذلك السكون السائد: «فاجين، هل تستحق هذه المسألة خمسين لطمة إضافية تزرقّ منها العين إذا ما استطعنا أن ننفِّذها من الخارج بنجاح؟»

فقال اليهودي وهو يتصدّر في جلسته فجأة: «نعم، تستحق!»

فتساءل سايكس: «أهي صفقة رابحة؟»

ـ «نعم، يا عزيزي، نعم!» كذلك أجاب اليهودي، وقد تألقت عيناه وارتعدت كل عضلة من عضلات وجهه من جراء الاهتياج الذي أثاره ذلك السؤال.

وقال سايكس وهو يردّ يد اليهودي في شيء من ازدراء: «إذن فلنقم بذلك ساعة تشاء، لقد تسلّقت أنا و«توبي» سور الحديقة الليلة التي قبل البارحة، لنسبر غور ألواح الباب ومصاريع النوافذ. إن ذلك البيت مدعَّم، في الليل، بالمزاليج مثل سجن من السجون. ولكن ثمة نقطة نستطيع أن نحطِّمها في رفق ومن غير خطر.»

فسأله اليهودي في لهفة: «وأين تقع تلك النقطة، يا بيل؟»

فهمس سايكس: «أرأيت وأنت تعبر المرج...»

ـ «نعم؟» كذلك قال اليهودي، حانياً رأسه إلى أمام، وعيناه تكادان تقفزان من محجريهما.

ـ «أفّ!» هكذا صاح سايكس، وكفَّ عن الكلام، عندما نظرت الفتاة فجأة إلى ما حولها، من غير أن تحرك رأسها تقريباً، وأشارت لحظة إلى وجه اليهودي. «لا داعي لأن تعرف أين تقع تلك النقطة. أنا أعرف جيداً أنك لا تستطيع القيام بهذه العملية بدوني. ولكن من الأفضل للمرء أن يلزم الجانب الآمن حين يتعامل معك.»

فأجابه اليهودي: «كما تحبّ، يا عزيزي، كما تحب. ألن نحتاج إلى معونة أحد غيرك وغير توبي؟»

فقال سايكس: «لا. باستثناء مثقاب نجَّار، وغلام، فأما الأول فموجود عندنا كلينا، وأما الثاني فيتعين عليك أنت أن تأتينا به.»

فهتف اليهودي: «غلام! وإذن فهي صفيحة خشبية صغيرة، أليس كذلك؟»

فأجابه سايكس: «لا تشغل نفسك بماهيَّتها. أنا أريد غلاماً، وهذا الغلام يجب أن لا يكون كبيراً.» وهنا غلبت على محيَّاه سيماء الاستغراق في التفكير: «يا إلهي! ليتني أستطيع الاستعانة بغلام «نيد» الصغير، غلام منظِّف المداخن! لقد أبقاه هزيلاً، عن عمد، وكان يؤجِّره بطريقة الالتزام والمقاولة. ولكن ها هو الأب يُحكم عليه بالأشغال الشاقة، ثم تجيء

«جمعية العناية بالغلمان الآثمين»، وتنتزع الفتى من الصناعة التي كان يكسب منها المال، وتعلِّمه القراءة والكتابة لتجعل منه بعد ذلك غلاماً ممهَّناً. وهكذا دواليك.» وهنا استبد الغيظ بمستر سايكس لدى تذكّره ضروب الظلم المُنْزلَة به، «وهكذا دواليك. ولو كان لديهم مال كاف (ولكن العناية الإلهية تشاء أن يكون الواقع غير ذلك) إذن لما تركوا لصناعتنا غير نصف دزينة من الغلمان في مدى عام أو عامين.»

ـ «هذا صحيح كل الصحة» كذلك أقرّه اليهودي على ما ذهب إليه، وكان مستغرقاً في التفكير خلال ذلك الحديث فلم يسمع غير الجملة الأخيرة. «بيل!»

فسأله سايكس: «ماذا؟»

فأومأ اليهودي برأسه نحو نانسي، التي كانت لا تزال تحدق إلى نار المدفأة. وألمع، بإشارة ما، إلى أنه يتمنى لو يُطلب إليها مغادرة الحجرة. فهز سايكس كتفيه في نفاد صبر، وكأنه اعتبر أن لا ضرورة لذلك الحذر البتة. ومع ذلك فقد استجاب لرغبة اليهودي وسأل الآنسة نانسي أن تأتيه بإبريق جعة.

ـ «أنت في غير حاجة إلى شيء من الجعة!» كذلك قالت نانسي، طاوية ذراعيها، لازمة مقعدها في رباطة جأش بالغة.

فأجابها سايكس: «قلت لك ايتيني بإبريق جعة!»

فردّت الفتاة في برود: «هراء! تابع كلامك، يا فاجين. أنا أعرف ما يريد أن يقوله، يا بيل. فلا داعي لأن يزعجه وجودي.»

وضل اليهودي متردداً. ونقَّل سايكس بصره من أحدهما إلى الآخر في شيء من الدهش.

وأخيراً سأله: «ولكني أحسب أن وجود الفتاة العجوز لا يزعجك. لقد عرفتها منذ عهد طويل معرفة كافية لحملك على الثقة بها، وحق الشيطان! إنها ليست فتاة من ذلك النوع الذي يشي بأصحابه. ألستِ كذلك، يا نانسي؟»

فأجابت السيدة الصغيرة، مُدنية كرسيها حتى الطاولة، مسندة مرفقيها إليها: «يخيَّل إليَّ أني لست من ذلك النوع!»

فقال اليهودي: «لا، لا، يا عزيزتي. أنا واثق من ذلك. ولكن. . .» وأمسك العجوز مرّة أخرى عن الكلام.

فسأله سايكس: «ولكن ماذا؟»

فأجابه اليهودي: «أنا أخشى أن تخرج عن طورها، أفهمت؟، يا عزيزي، مثلما فعلت تلك الليلة.»

عند هذا الاعتراف انفجرت الآنسة نانسي في ضحك مدوٍّ، ثم إنها التهمت كأساً من البراندي وهزّت رأسها في سِيْما من التحدي، وراحت تطلق هتافات شتى من مثل «تابع اللعبة!» و«لا تستسلم!» وغير ذلك. وبدا وكأن تلك الهتافات قد أعادت الطمأنينة إلى قلبَيْ السيدين الماجدين. ذلك بأن اليهودي أنشأ يهز رأسه في ارتياح، وعاود الاستواء في مقعده. وكذلك فعل مستر سايكس.

وقالت نانسي: «والآن، يا فاجين، حدّث بيل، في الحال، عن أوليفر!»

فقال اليهودي، مربِّتاً على عنقها: «ها! أنت فتاة بارعة، يا عزيزتي! أنت أبرع فتاة رأيتها في حياتي! لقد كنت أعتزم أن أتحدث فعلاً عن أوليفر هذا شيء لا ريب فيه. ها! ها! ها!»

فسأله سايكس: «ما باله؟»

ـ «إنه الغلام الذي تبحث عنه، يا عزيزي!» كذلك أجابه اليهودي في صوت أجشّ، واضعاً إصبعه على جانب أنفه، وضاحكاً على نحو رهيب.»

فصاح سايكس: «هو!»

فقالت نانسي: «خذه، يا بيل. لو كنت في مكانك لأخذته! إنه قد لا يتمتع بمثل كفاءة أيٍّ من الآخرين، ولكنْ ليس هذا ما تريد، إن كان كل الذي تريده هو أن يفتح لك باباً. ثِق أنه غلامٌ مأمون، يا بيل.»

فقال فاجين: «أنا أعرف ذلك. لقد نَعِم بتدريب حسن خلال الأسابيع القليلة الماضية. ولقد آن له أن يشتغل من أجل الفوز بخبزه اليومي وإلى هذا، فجميع الآخرين أكبر جسماً مما ينبغي.»

فقال مستر سايكس مستغرقاً في التفكير: «حسن، إن حجمه هو عين الحجم الذي أريد.»

فقاطعه اليهودي: «ولسوف يفعل أيما شيء تريده، يا عزيزي بيل! إنه أعجز من أن يفعل غير ذلك. أعني إذا روَّعته ترويعاً كافياً.»

فكرَّر سايكس: «إذا روّعتُه! انتبه، إنه لن يكون ترويعاً كاذباً. إذا ما تكشَّف عن أيما شيء غريب بمجرد مباشرتنا العمل! إن عليه أن يُتمّ ما أكلفه به حالما يشرع في ذلك، وإلا فلن تراه محتفظاً بحياته، يا فاجين. فكِّر في هذا قبل أن ترسله. انتبه جيداً لما أقول!» كذلك قال اللص وهو يوازن مُخلاً كان قد سحبه من تحت السرير.

فقال اليهودي في حزم: «لقد فكَّرت في ذلك كله. لقد... لقد راقبته عن كثب، يا عزيزيّ، عن كثب. فلنُشعِرْه مرة أنه واحد منا، فلنملأ ذهنه بهذه الفكرة وهي أنه ارتكب سرقة، وعندئذ يصبح مِلْكنا. يصبح مِلْكنا طوال حياته. هوه هوه! أنا ما كنت أطمع في أن تجري الأمور على نحو أفضل!» وصالب العجوز ذراعيه على صدره، ثم جمع رأسه وكتفيه في كتلة واحدة واهتزّ طرباً بالمعنى الحرفي للتعبير.

وقال سايكس: «مِلْكنا! أنت تعني مِلْكك، يا فاجين!»

فقال اليهودي مرسلاً ضحكة حادة: «ربما عنيتُ ذلك، يا عزيزي. حسناً، ملكي أنا، إذا شئت، يا بيل.»

فقال سايكس مقطباً بضراوة في وجه صديقه القريب إلى القلب: «وما الذي يجعلك تهتم هذا الاهتمام كله بغلام شاحب الوجه في حين أنك تعلم أن هناك خمسين غلاماً يتسكعون حول «كومون غاردن» كل يوم، أجل خمسين غلاماً تستطيع أن تختار منهم من تشاء؟»

فأجابه اليهودي في شيء من الاضطراب: «لأنهم لا يفيدونني، يا عزيزي. إنهم لا يستحقون عناء أخذهم. إن لهم وجوهاً تدينهم عندما يقعون في متاعب، وعندئذ أخسرهم كلهم. أما هذا الغلام، إذا ما دُرِّب كما ينبغي له أن يدرَّب، ففي استطاعتي يا عزيزيّ أن أفعل ما لا أستطيع أن أفعله عن طريق عشرين من أولئك. وإلى هذا،» وهنا استرد اليهودي رباطة جأشه، «فإنه يملكنا الآن إذا ما استطاع أن يهرب من جديد، وأن عليه أن يكون معنا في قارب واحد. وليس ينبغي أن نتساءل كثيراً عن الطريقة التي استخدمتها لربط مصيره بمصيرنا، فحسبي سلطاناً عليه أني وُفقت إلى حمله على الاشتراك في هذه الغارة. ذلك كل ما أريده. والآن أليس هذا أفضل ألف مرة من اضطرارنا إلى إزاحة الغلام الصغير البائس من الطريق ـ ولا تنسَ أن ذلك شيء خطر ـ وأنه يعود علينا بالخسارة.»

ـ «ومتى ستقومون بهذه الغارة؟» كذلك تساءلت نانسي، مقاطعة صيحة هائلة أطلقها مستر سايكس تعبيراً عن الاشمئزاز الذي استقبل به تظاهر فاجين بالعطف على الإنسانية.

فقال اليهودي: «آه، من غير ريب، متى سيتم القيام بهذه الغارة، يا بيل؟»

فأجابه سايكس في صوت فظ: «لقد تفاهمت مع توبي على أن يتم ذلك بعد غد ليلاً، إذا لم أبعث إليه أمراً مخالفاً.»

فقال اليهودي: «حسن. سوف تكون ليلة غير قمراء.»

فأجابه سايكس: «هذا صحيح.»

فسأله اليهودي: «لقد اتُخِذت جميع الترتيبات لأجل نقل البضائع المسروقة، أليس كذلك؟»

فهز سايكس رأسه أن نعم.

ـ «ولأجل...»

فقال سايكس مقاطعاً إياه: «أوه، نعم، لقد اتُخِذت جميع الترتيبات. دعنا الآن من التفاصيل. من الأفضل لك أن تجيء بالغلام إلى هنا ليل

غد. ولسوف أغادر البيت بعد ساعة من شروق الشمس. وعندئذ يتعيَّن عليك أن تمسك لسانك، وتُعِدّ البوتقة. هذا كل ما يجب عليك أن تفعله.»

وبعد مناقشة وجيزة اشترك فيها ثلاثتهم اشتراكاً فعلياً تم الاتفاق على أن تذهب نانسي إلى منزل اليهودي مساء اليوم التالي، بعد أن يهبط الليل، وتعود بصحبة أوليفر. وكان فاجين قد لاحظ، في كثير من المكر، أن أوليفر خليقٌ به ـ إذا ما أبدى معارضة للاشتراك في الغارة ـ أن يأنس إلى رفقة الفتاة التي انتصرت له منذ قريب أكثر من أنسه إلى أي امرئ آخر. وقد تم الاتفاق أيضاً، في وقار وجلال، على أن يُعهد بأوليفر المسكين ـ ابتغاء إنجاح الغارة المبيَّتة ـ إلى عناية مستر سايكس ورعايته في غير ما تحفُّظ ولا احتياط. وفوق هذا، فقد كان على سايكس المذكور أن يعامله بالطريقة التي يراها مناسبة، من غير أن يكون مسؤولاً تجاه اليهودي عن أيما مصيبة أو شر قد يحلان به، أو عن أيما عقوبة قد تقضي الضرورة بإنزالها به. شريطة أن يكون مفهوماً، لجعل أحكام هذا العقد مُلزِمة من هذه الناحية، أن جميع المزاعم التي قد يتقدم بها سايكس بدوْره يجب أن تؤيَّد وتُعَزَّز، في النقاط الهامة كلها، بشهادة من توبي كراكيت المرح.

حتى إذا سُوِّيت هذه المسائل التمهيدية راح مستر سايكس يحتسي البراندي، ويلوّح بالمُخْل تلويحاً خطيراً. مترنماً في الوقت نفسه بمقاطع من بعض الأغاني ليس ثمة ما هو أكثر منها نشازاً، مازجاً تلك المقاطع بشتائم رهيبة. وأخيراً أصرّ، في نوبة من حماسة مهنية، على إخراج صندوق أدواته الخاصة باقتحام المنازل. فلم يكد يحمله مترنحاً في مشيته ويفتحه لشرح طبيعة الأدوات المختلفة التي اشتمل عليها وخصائصها، وجمالات تكوينها الخاصة، حتى سقط على الأرض، فوق صندوقه، واستغرق في النوم حيث سقط.

وقال اليهودي، ملتفعاً بردائه شأنَهُ من قبل: «طاب مساؤك، يا نانسي.»

ـ «طاب مساؤك.»

والتقت نظراتهما. ودرس اليهودي وجه الفتاة في كثير من التدقيق، فلم يجد فيه ما يبعث على الريبة. لقد كانت جادّة في تلك المسألة راغبة في نجاحها بقدر ما كان خليقاً بتوبي كراكيت نفسه أن يكون.

وتمنى لها اليهودي، مرّة أخرى، ليلة طيبة. ثم إنه هبط السلم متلمساً طريقه فوق درجاتها، بعد أن رفس جسد مستر سايكس المطروح على الأرض ـ فيما كانت مديرة ظهرها ـ رفسة خفيَّة.

وغمغم اليهودي بينه وبين نفسه وهو يتخذ سبيله إلى منزله: «تلك هي الحال دائماً. أسوأ ما في النساء هو أن حادثاً صغيراً يكفي لإيقاظ بعض مشاعرهن الهاجعة منذ عهد بعيد. وخير ما فيهن هو أن ذلك لا يدوم البتة. ها! ها! الرجل ضد الطفل، في سبيل كيس من الذهب!»

وهكذا تلهَّى مستر فاجين بهذه التأملات المستعذبة وهو يتابع طريقه، خلال الوحل والطين، إلى مأواه المظلم حيث كان «المراوغ» ساهراً، منتظراً عودته بفروغ صبر.

ـ «هل نام أوليفر؟ أريد أن أتحدث إليه!» تلك كانت الكلمات الأولى التي فاه بها وهما يهبطان السلم.

فأجابه «المراوغ» وهو يفتح أحد الأبواب بحركة رشيقة: «منذ عدة ساعات. ها هو ذا.»

كان الغلام مستغرقاً في الرقاد فوق فراش خشن ممدّد على الأرض. وكان القلق والحزن وضيق المحبس قد أحالا لونه إلى شحوب يشبه صُفرة الموت. لا الموت كما يظهر في الكفن والتابوت، ولكن في القناع الذي يلبسه حين تفارق الحياة الجسد. . . عندما تكون الروح الفتية اللطيفة قد فرّت منذ لحظة ليس غير إلى السماء، وقبل أن يجد هواء هذا العالم الفظُ متسعاً من الوقت للتراب الفاني الذي كرّسته تلك الروح بحلولها فيه.

وقال اليهودي، وهو يبتعد عنه في رفق: «ليس الآن. غداً. غداً.»

الفصل العشرون

وفيه يسلم أوليفر إلى مستر وليم سايكس

حتى إذا استيقظ أوليفر صباحاً خامره دهش عظيم إذ وجد إلى جانب فراشه حذاء جديداً ذا نعل متين سميك، وإذ وجد أن حذاءه العتيق قد اختفى. وأبهجه الاكتشاف بادئ الأمر، ذلك بأنه رجا أن يكون هذا إيذاناً بوشك إطلاق سراحه. ولكن تلك الأفكار سرعان ما بُدِّدت، عندما جلس لتناول طعام الصباح مع اليهودي الذي أنبأه، في لهجة زادت في أساه، أنه سوف يُنقل تلك الليلة إلى مقر بيل سايكس.

وسأله أوليفر في قلق: «لكي... لكي... أبقى هناك، يا سيدي؟»

فأجابه اليهودي: «لا. لا، يا عزيزي. لا لكي تبقى هناك. نحن لا نحب أن نخسرك. لا تخف، يا أوليفر، فلسوف ترجع إلينا مرّة أخرى. ها! ها! ها! إننا لن نكون من القسوة بحيث نطردك، يا عزيزي. أوه، لا، لا!»

وأجال العجوز ـ الذي كان منحنياً فوق النار يحمِّص قطعة من خبز ـ بصره في ما حوله، وهو يسخر من أوليفر على ذلك النحو. وضحك ضحكة فاترة وكأنه أراد أن يُظهر تأكده من أن الغلام لا يزال يأمل في الفرار إذا ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

وقال اليهودي مركِّزاً عينيه على أوليفر: «أحسب أنك تريد أن تعرف لأيّ غرض ستذهب إلى منزل سايكس... أليس كذلك، يا عزيزي؟»

فتضرّج وجه أوليفر، على نحو لاإرادي، إذ اكتشف أن اللص العجوز كان يقرأ أفكاره. ولكنه قال، في جسارة: «نعم، أريد أن أعرف.»

فسأله فاجين متفادياً الجواب: «ماذا تظن أنت؟»

فأجابه أوليفر: «الواقع أني لا أعلم، يا سيدي..»

ـ «باه!» كذلك قال اليهودي وهو يشيح بوجه مُخيَّب الرجاء بعد أن

أنعم النظر في ملامح الغلام: «انتظر، إذن، حتى يخبرك بيل.»

وبدا اليهودي جدَّ مَغيظ لعدم تكشُّف أوليفر عن قدر من القلق أعظم، حول هذا الموضوع. ولكن الواقع أن أوليفر كان، برغم قلقه البالغ، مرتبكاً أشد الارتباك من جراء ملامح فاجين الراشحة بأمكر المكر ومن جراء تأملاته الخاصة، فلم يكن في ميسوره، آنذاك، أن يوجه أيما سؤال إضافي. ولم تتح له، بعدُ، أية فرصة أخرى. ذلك أن اليهودي ظل مسرفاً في العبوس والصمت، حتى هبوط العتمة. وعندئذ أخذ الإهبة لمغادرة مأواه.

ـ «في إمكانك أن تضيء شمعة» قال اليهودي ذلك وهو يضع واحدة على الطاولة. «وهو ذا كتاب تستطيع أن تقرأه، ريثما يأتون لأخذك. طاب مساؤك!»

فأجاب أوليفر في رقة: «طاب مساؤك!»

ومضى اليهودي إلى الباب، وهو ينظر من فوق كتفه إلى الغلام. وفجأة كفّ عن السير، وناداه باسمه.

ورفع أوليفر بصره. فأشار اليهودي إلى الشمعة آمراً إياه بأن يضيئها. وامتثل أوليفر أمره، وفيما هو يضع الشمعدان على الطاولة لاحظ أن اليهودي كان يحدّق إليه على نحو موصول، وقد انخفض حاجباه وتقلَّصا، من طرف الحجرة المظلم.

ـ «خذ حذرك، يا أوليفر! خذ حذرك!» كذلك قال العجوز وهو يهز يده اليمنى أمامه على نحو إنذاريّ. «إنه رجل فظ، وهو لا يُبالي البتة بالدم، حين يغلي دمه هو في دماغه. لا تقل شيئاً، مهما حدث، وافعل ما يأمرك به. انتبه!» ووضع توكيداً قوياً على اللفظة الأخيرة، وأجاز لأساريره أن تحلّ عقدتها، تدريجياً، لتتخذ شكل ابتسامة رهيبة. ثم إنه هز رأسه، وغادر الحجرة.

وأسند أوليفر رأسه إلى يده عندما توارى الرجل العجوز، وأنشأ يفكِّر، بقلب واجف، في الكلمات التي سمعها منذ لحظة. وكلما أنعم

التفكير في تحذير اليهودي ازداد ارتيابه في حقيقة غرضه ومعناه. إنه لم يستطع أن يفكِّر في أيما غرض شرير يمكن تحقيقه بإرساله إلى سايكس على نحو أفضل من تحقيقه بإبقائه في بيت فاجين. وبعد تأمل دام فترة طويلة خَلُص إلى الاعتقاد بأنه اختير لأداء بعض الخدمات العادية الحقيرة لسارق البيوت، ريثما يوفق إلى استخدام غلام آخر أليق بأداء تلك المهام. كان قد أَلِفَ العذاب أكثر مما ينبغي. وكان قد قاسى من ضروب العذاب، حيث هو، شيئاً كثيراً، فليس في ميسوره، بعدُ، أن يخشى أيّ تغيُّر مفاجئ، خشية عنيفة جداً. وظل بضع دقائق حائراً شارد الفكر، ثم أطلق زفرة عميقة، وأطفأ الشمعة، وتناول الكتاب الذي دفعه اليهودي إليه، وأنشأ يقرأ.

لقد قلَّب الصفحات. في غير مبالاة بادئ الأمر. حتى إذا وقع نظره على فقرة اجتذبت انتباهه انكبَّ في الحال على مطالعة ذلك المجلد. كان قصة حياة ومحاكمات عدد من المجرمين الكبار، وكانت الصفحات متسخة ملوَّثة الأطراف بالأصابع من جراء طول الاستعمال. وهنا قرأ كلاماً يدور على جرائم رهيبة تجعل الدم يجري بارداً في العروق. على أعمال قتل سرّية ارتُكبت في بعض الطرق القفرة. على جثث أخفيت في حفر وآبار عميقة أبت أن تحتفظ بها في قعرها، على الرغم من عمقها البالغ، فلفظَتْها آخر الأمر، بعد سنين عديدة، مثيرة جنون القتلة بمشهدها حتى لقد أقرّوا بجريمتهم، وزعقوا متوسلين أن تضع المشنقة حداً لآلامهم. وهنا، أيضاً، قرأ كلاماً يدور على رجال كانوا مستلقين في فُرُشهم، في جوف الليل البهيم، فسوّلت لهم أنفسهم الإثم (هكذا زعموا) وقادتهم أفكارهم الشريرة نفسُها إلى سفك للدماء تقشعر لهوله الأبدان، وترتعد الأوصال. وكانت الأوصاف الرهيبة واقعية نابضة بالحياة إلى درجة جعلت الصفحات الشاحبة تبدو وكأنها قد تضرجت بالدم. وجعلت الكلمات المسطورة عليها تتردد في أذنيه وكأن أرواح القتلى كانت تهمس بها في وشوشات غائرة.

وفي نوبة ذعر طوى الغلام الكتاب، وطرحه بعيداً عنه. ثم إنه جثا على ركبتيه وتضرَّع إلى السماء أن تعصمه عن القيام بأمثال تلك الأعمال، وأن تقدِّر له أن يموت في الحال بدلاً من أن يبقى على قيد الحياة لارتكاب جرائم رهيبة مرعبة إلى ذلك الحد. وشيئاً بعد شيء، استعاد هدوءه، وتضرع إلى اللَّه، في صوت خفيض منكسر، أن ينقذه من الأفكار التي كانت تحدق به آنذاك. راجياً ـ إذا ما كان لأيما عون أن يُسْدى إلى غلام بائس منبوذ لم يعرف قط حب الأصدقاء أو الأنسباء ـ أن يُسْدى إليه هو، الآن، إذ يقف وحده، من غير ما نصير، وسط الإثم والجريمة.

وكان قد ختم صلاته، ولكن رأسه كان لا يزال دفيناً بين يديه، عندما أيقظته من استغراقه ضجة مدوّية.

ـ «ما هذا؟» كذلك صاح وهو يثب مجفلاً، لامحا شبحاً على مقربة من الباب. «من هناك؟»

فأجابه صوت متهدج: «أنا. وليس أحداً غيري.»

ورفع أوليفر الشمعة فوق رأسه، ونظر نحو الباب. كانت هي نانسي.

وقالت الفتاة مشيحة بوجهها: «أخفِض الضوء! إنه يؤذي عينيّ.»

ولاحظ أوليفر أنها كانت شديدة الشحوب، وسألها في لطف هل تشكو مرضاً. فارتمت الفتاة على أحد الكراسي، مولِّية إياه ظهرها، وأنشأت تعتصر يديها في توجُّع، ولكنها لم تجب بشيء.

وصاحت بعد برهة: «فليغفر اللَّه لي! أنا لم أفكِّر بذلك قط».

وتساءل أوليفر: «هل حدث شيء؟ هل أستطيع أن أساعدك؟ سوف أفعل إذا استطعت. سوف أفعل، من غير ريب.»

فهزت جسدها إلى أمام وإلى وراء، وأمسكتْ بحنجرتها. ثم إنها أطلقت صوتاً أشبه بخرير الماء، وأنشأت تلهث.

فصاح أوليفر: «نانسي! ما بالك؟»

وراحت الفتاة تضرب ركبتيها بيديها، وتضرب الأرض بقدميها.

وفجأة، كفَّت عن ذلك، وأحكمت شدّ شالها حول كتفيها، وارتعدت من شدة البرد.

وأثار أوليفر نار الموقد. فأدنت كرسيها إليها، وقعدت هناك، برهة قصيرة، من غير أن تنطق بكلمة. بيد أنها رفعت رأسها، آخر الأمر، وأجالت طرفها في ما حولها.

وقالت، متشاغلة بتسوية ثوبها: «لست أدري ما الذي يُلمّ بي في بعض الأحيان. إنها هذه الحجرة القذرة، الرطبة، في ما أعتقد. والآن، يا عزيزي نوللي، أمستعدٌ أنت؟»

فسألها أوليفر: «أمن المفروض فيّ أن أذهب معك؟»

فأجابته الفتاة: «نعم. لقد أقبلت من بيت بيل. وعليك أن تذهب معي.»

فسألها أوليفر مجفلاً: «ولأيّ غرض؟»

فكررت الفتاة، رافعة عينيها، ثم مشيحة بهما عن وجه الغلام من جديد لحظة وقعتا عليه: «لأي غرض؟ أوه، لغرض غير شرير.»

فقال أوليفر، وكان قد راقبها عن كثب: «لست أصدّق ذلك.»

فأجابته الفتاة متكلفة الضحك: «كما تشاء. لغرض غير صالح، إذن.»

وكان في ميسور أوليفر أن يرى أنه كانت له بعض السيطرة على مشاعر الفتاة الفضلى، فبدا له لحظة أن يفزع إلى إشفاقها على وضعه البائس. ولكنه سرعان ما تذكَّر أن الساعة لم تكد تبلغ الحادية عشرة، وأن كثيراً من الناس لا يزالون في الشوارع، وأنه لا بدَّ واجدٌ بينهم نفراً يصدّقون حكايته. ولم تكد هذه الفكرة تخطر له حتى وثب إلى أمام، وقال ـ في شيء من الاهتياج ـ إنه على استعداد للذهاب.

ولم يخْفَ تفكيرُهُ الخاطُف، ولا موضوع ذلك التفكير، على رفيقته. لقد حدجته بعين ثاقبة، فيما كان يتكلم، ووجهت إليه نظرة ذكية أظهرت إظهاراً واضحاً أنها حزرت ما كان يدور في خَلده.

وقالت الفتاة وهي تميل على الغلام وتشير إلى الباب فيما هي تجيل البصر حولها في حذر: «هش! أنت أعجز من أنت تفعل شيئاً للنجاة بنفسك. لقد بذلت قصارى جهدي في سبيلك، ولكنّ محاولاتي ذهبت كلها أدراج الرياح. أنت مطوَّق من نواحيك جميعاً. وإذا كان لا بدَّ لك ذات يوم من الفرار من هنا فليس هذا اليوم، على أية حال، هو الوقت المناسب لذلك.»

وأذهلته قوة لهجتها، فراح ينظر إلى وجهها مندهشاً. لقد بدت وكأنها تنطق بالحقيقة. كان محياها شاحباً مهتاجاً، وكانت أوصالها ترتعد ارتعاداً صادقاً إلى أبعد الحدود.

وتابعت الفتاة كلامها في صوت عال: «لقد أنقذتك من سوء العذاب، يوماً، ولسوف أنقذك مرّة أخرى، وإني لأفعل ذلك الآن، لأن أولئك الذين كان من المتوقع أن يجيئوا لأخذك، لو لم أجئ أنا بنفسي، أقسى مني بكثير. لقد تعهدت لهم بأنك سوف تلزم السكينة والصمت. فإن لم تفعل جلبت على نفسك الأذى وجلبته عليَّ أنا أيضاً. ومن يدري، فقد يفضي صنيعك إلى موتي. اسمع إذن! لقد تحملت هذا من أجلك، وفي استطاعتك أن تثق بصحة قولي ثقتك بأن اللّه يراني وأنا أكشف عنها.»

وأشارت، في تعجُّل، إلى آثار بعض اللطمات المزرقَّة على عنقها وذراعيها. ثم تابعت كلامها في سرعة بالغة:

ـ «تذكَّر هذا! ولا تدعني أقاسي من أجلك أكثر مما قاسيت، مؤقتاً على الأقل. لو كان في ميسوري أن أساعدك، لفعلت. ولكني لا أملك القوة على ذلك. إنهم لا يعتزمون إيقاع الأذى بك. وأياً ما كان العمل الذي يكرهونك على أدائه فإن الذنب ليس ذنبك. هش! إن كل كلمة تنطق بها هي طعنة لي. أعطني يدك. عجِّل! أعطني يدك!»

وأمسكت باليد التي وضعها أوليفر، دون تردّد، في يدها. وأطفأت الشمعة، وجرَّته خلفها وهي ترتقي درجات السلم. وسرعان ما فتح الباب شخص متلفِّع برداء الظلمة، ثم أوصد على عجل بعد أن أمسوا خارج

الدار. كانت مركبة أجرة في انتظارهم. وبمثل العنف الذي تكشَّفت عنه في مخاطبتها أوليفر، حملته الفتاة على الجلوس في المركبة إلى جانبها، وأحكمت إسدال الستارة. ولم يكن الحوذي في حاجة إلى أية تعليمات، فألهب جواده بالسوط فانطلق بأقصى سرعته، غير مُضيع لحظة واحدة.

وظلَّت الفتاة ممسكة بيد أوليفر إمساكاً قوياً، وواصلتْ صبَّ التحذيرات والتوكيدات ـ التي سبق لها أن أبلغته إياها ـ في أذنه. وكان كل شيء متَّسماً بالسرعة والتعجُّل البالغين، فلم يجد متسعاً من الوقت لتذكُّر المكان الذي انتهوا إليه، أو الطريقة التي جيء به إليه. حتى وقفت المركبة عند البيت الذي سبق لقدميْ اليهودي أن قادتاه إليه الليلة البارحة.

ألقى أوليفر نظرة خاطفة على الشارع، وكادت أن تنطلق من بين شفتيه صيحة استنجاد، ولكن صوت الفتاة تردد في أذنه، متوسلاً إليه في نبرة ألم مبرّح أن يتذكَّرها، فإذا به عاجز عن إرسال تلك الصيحة. وفيما هو يتردَّد في اتجاه موقف بعينه، أفلتت الفرصة من يديه. كان قد أمسى ضمن جدران المنزل، وكان الباب قد أوصد.

وقالت الفتاة وهي تفلت يد أوليفر للمرة الأولى: «مِنْ هنا. بيل!»

ـ «هالو!» كذلك أجاب سايكس، وقد ظهر عند رأس السلم حاملاً شمعة: «أوه، أهلاً وسهلاً، ادخلي!»

وكان هذا، من رجل في مثل مزاج مستر سايكس، تعبيراً قوياً عن الرضا، وترحيباً قلبياً غير مألوف. وسُرّت نانسي، في ما يبدو، بهذه الحفاوة سروراً عظيماً، فحيَّته تحية حارّة.

ـ «لقد رجع «عين الثور» إلى البيت مع توم» كذلك أعلن سايكس وهو ينير لهما السلَّم. «ولو بقي هنا لضايقنا.»

فأجابته نانسي: «هذا صحيح.»

وقال سايكس عندما بلغوا الحجرة، موصداً الباب وهو يتكلم:

ـ «وهكذا فقد جئتِ بالغلام.»

فأجابته نانسي: «نعم، ها هو ذا.»

فسألها سايكس: «هل أقبل في وداعة؟»

فأجابته نانسي: «مثل حمل من الحملان.»

فقال سايكس وهو ينظر إلى أوليفر في عبوس: «يسرني أن أسمع ذلك. من أجل جثته الصغيرة، إذ لو لم يفعل إذن لحمَّلها ما لا تطيق. تعال، أيها الغلام، ودعني أسْمِعك محاضرة... محاضرة يحسن أن ألقيها في الحال.»

وجَّه مستر سايكس هذه الكلمات إلى تلميذه الجديد ونزع قبعة أوليفر عن رأسه وقذف بها إلى إحدى الزوايا. ثم إنه أمسك به من كتفه وجلس على مقربة من الطاولة، وأوقف الغلام تجاهه.

وسأله سايكس وهو يتناول غدارة جيب كانت على الطاولة: «والآن، قبل كل شيء، هل تعرف ما هذه؟»

فأجابه أوليفر: «نعم».

وتابع سايكس: «حسن، إذن، انظر! هذا بارود! وهذه رصاصة! وهذه قطعة صغيرة من قبعة عتيقة لكي تقوم مقام الحشوة للعيار الناري.»

وغمغم أوليفر معبراً عن معرفته بمختلف الأدوات المشار إليها.

وباشر مستر سايكس شحَنْ الغدارة في عناية بالغة وروية مغالى فيها.

وقال مستر سايكس حين أنجز ذلك: «والآن، لقد أمست مشحونة.»

فأجابه أوليفر: «أجل. أنا أرى أنها كذلك، يا سيدي.»

ـ «حسن،» هكذا قال اللص، ممسكاً بمعصم أوليفر، مدنياً أنبوب الغدارة إلى صدغه إدناء جعلهما يتماسَّان. وعندئذ لم يتمالك الغلام من الإجفال. «إذا نطقت بكلمة واحدة عندما تخرج معي، إلا حين أوجِّه إليك الخطاب، أفرغ هذه الشحنة في رأسك من غير إنذار. وهكذا، فليس عليك، إذا عقدت العزم على الكلام من غير إذن، إلا أن تتلو صلواتك الأخيرة أولاً.»

حتى إذا ألقى على أوليفر نظرة وحشيّة، ليضاعف من أثر التهديد في نفسه، تابع مستر سايكس حديثه:

ـ «وعلى ما أعلم فليس ثمة أي شخص مستعد للمغامرة بالسؤال عن مصيرك، إذا ما قضيتُ عليك. من أجل ذلك لا أجد أيما داع لأن أتجشم عناء شرح الأشياء لك. وإذا كنت أفعل هذا فلمصلحتك ليس غير. أسمعت؟»

فقالت نانسي، متكلمة في حدة بالغة، عابسة بعض الشيء في وجه أوليفر وكأنها تدعوه إلى إيلاء كلماتها اهتماماً عظيماً: «زبدة ما تعنيه وخلاصته أنه إذا ما وضع لك العصي في الدّواليب عند القيام بهذه المهمة التي تتأهب لها فعندئذ ستعمد إلى منعه من الإفضاء بعد ذلك بمختلف القصص والحكايات بأن تسدد إلى رأسه رصاصة تقتله، وهكذا تعرّض نفسك لخطر الموت على أعواد المشنقة كما تعرّضها من أجل أشياء كثيرة، في صناعتك هذه، كل شهر من شهور حياتك.»

فقال سايكس موافقاً إياها على هذا التفسير: «تماماً! النسوة قادرات دائماً على قول الأشياء بأقل عدد من الكلمات. إلا إذا ثارت ثائرتهن، فعندئذ يعمدن إلى مطِّها وتطويلها. والآن وقد أدرك كل شيء إدراكاً كاملاً فلنتناول بعض العشاء، ولنغف غفوة قصيرة قبل الانطلاق.»

ونزولاً عند هذه الرغبة سارعت نانسي إلى نشر غطاء الطاولة، ثم غابت بضع دقائق لتعود بعدها حاملة إبريقاً من الجعة وطبقاً عليه رؤوس خرفان، وهو ما أتاح لمستر سايكس فرصة لإطلاق عدد من النكات المستملحة المبنيَّة على مصادفة فريدة، وهي أن لفظة JEMMY التي تُطْلق على تلك الرؤوس عادة كانت تطلق أيضاً على أداة بارعة كثيرة الاستخدام في مهنته(*). والواقع أن هذا الرجل الفاضل ـ ولعل مردّ ذلك إلى ارتقابه مباشرة الخدمة الفعلية بعد لحظات يسيرة ـ كان آنذاك عظيم المرح شديد

(*) من معاني JEMMY أيضاً. في الإنكليزية: المخل أو العتلة. (المعرب)

الطرب. وقد يكون من الخير أن نلاحظ هنا، إثباتاً لذلك، أنه أتى على الجعة كلها في جرعة واحدة، على نحو مضحك، وأنه لم يطلق، وهذا مجرد تقدير تقريبيّ، أكثر من ثمانين شتيمة خلال فترة العشاء بطولها.

حتى إذا فرغوا من العشاء ـ ويستطيع المرء أن يتصور في سهولة ويسر أن شهوة أوليفر إلى الطعام لم تكن قوية ـ التهَم مستر سايكس كأسين من خمر وماء، وارتمى على السرير، آمراً نانسي بأن توقظه في الساعة الخامسة تماماً، مغرقاً إياها بضروب اللعنات والشتائم إن فاتها أن تفعل ذلك. وتمدَّد أوليفر بثيابه، بأمر من تلك السلطة نفسها، على حَشِيَّة مبسوطة فوق الأرض. أما الفتاة فأذكت النار الخامدة وجلست تجاهها لكي تكون على استعداد لإيقاظهما في الميقات المعيَّن.

وظل أوليفر يقظان فترة طويلة، قائلاً بينه وبين نفسه أنه من غير المتعذر أن تغتنم نانسي تلك الفرصة لتهمس في أذنه نصيحة إضافية. ولكن الفتاة انحنت فوق النار مستغرقة في التفكير، غير متحركة إلا بين الفينة والفينة لكي تشذّب فتيل الشمعة. حتى إذا أرهقه السهر والقلق استسلم آخر الأمر للرقاد.

وحين أفاق من رقاده ألفى المائدة مغطاة بآنية الشاي، وألفى سايكس يقحم أشياء مختلفة في جيوب معطفه، الذي تدلَّى فوق ظهر كرسي من الكراسي. وكانت نانسي منهمكة في إعداد الفطور. لم يكن الصبح قد تنفَّس بعد، إذ كانت الشمعة لا تزال مضاءة، وكانت الظلمة الدامسة تخيِّم خارج المنزل. وكان مطر غزير يضرب، أيضاً، بحبَّاته الكبيرة زجاج النوافذ وبدت السماء سوداء غائمة.

وهرّ سايكس عندما نهض أوليفر بغتة: «والآن. . الآن. . . الساعة الخامسة والنصف! عجِّل، وإلا حُرِمت الفطور. لقد تأخرنا.»

ولم يقضِ أوليفر وقتاً طويلاً في غسل وجهه وتسريح شعره. حتى إذا تناول بضع لُقَيمات أجاب عن سؤال فظ وجَّههُ إليه سايكس بقوله إنه على أتم الاستعداد. وقذفت نانسي إلى الغلام، من غير أن تنظر إليه تقريباً،

منديلا يطوّق به عنقه. وأعطاه سايكس دثاراً كبيراً خشناً لكي يزرّره فوق كتفيه. حتى إذا اتخذ هذا الزيّ، بسط يده إلى اللص الذي أمسك بها في إحكام مكتفياً بالتمهُّل لحظة ليُري أوليفر بإيماءة متوعدة إن تلك الغدارة نفسها قابعة في جيب جانبيّ من جيوب معطفه. ثم إن اللص تبادل مع نانسي كلمات الوداع، واتخذ سبيله وهو يسوق الغلام سوقاً.

والتفت أوليفر، لحظة، عندما انتهى إلى الباب، رجاة أن تلتقي عيناه نظرة من نظرات الفتاة. ولكنها كانت قد انقلبت إلى مقعدها القديم تجاه النار، وقعدت هناك من غير حراك البتة.

الفصل الحادي والعشرون

الحملة

كان الصباح قد تنفَّس، كئيباً، عندما انطلقا إلى الشارع. كانت الريح تهب في قوة وكان المطر يهطل في عنف، وكانت السحب تبدو قاتمة عاصفة. لقد هطلت خلال الليل أمطار غزيرة، فحفلت الطرق ببرك من الماء واسعة، وفاضت القنوات، وتراءت في السماء أشعةٌ واهنةٌ تؤذن بوشك طلوع النهار، ولكنها ضاعفت قتام المشهد بدلاً من أن تخفف منه: ذلك أن تلك الأشعة لم توفَّق إلى أكثر من إبهات تلك التي أرسلتها مصابيح الطرق، من غير أن ترسل أي حررة، أو تشرق، على رؤوس المنازل الندية والشوارع الموحشة. لقد بدا وكأن أحداً لمَّا ينهض من فراشه في ذلك الحي: كانت نوافذ المنازل كلها محكمة الإغلاق، وكانت الشوارع التي سلكاها ساكنة خاوية.

ولم يكادا ينعطفان إلى طريق «بيثنال غرين» حتى كان النهار قد ارتفع. كان عدد كبير من مصابيح الشوارع قد انطفأ، وكانت بضع عربات ريفية تكدح، متمهّلة، متجهة نحو لندن. وبين الفينة والفينة كانت مركبة سفر عمومية يكسوها الوحل تجتاز الشارع في سرعة، محدثة جلبة بالغة.

وكان حوذيَّها يلهب بسوطه، على سبيل التحذير، سائق العربة البطيء الذي عرّضه ـ بالتزامه الجانب المغلوط من الطريق ـ للتأخر ربع دقيقة عن ميقات وصوله إلى المحطة. وكانت المقاهي، وقد أضيئت مصابيح الغاز في داخلها، قد فتحت. وشيئاً بعد شيء بدأت الدكاكين الأخرى تُشْرِع أبوابها، وأصبح في ميسور المرء أن يلتقي نفراً من السابلة المتناثرين هنا وهناك. وبعد ذلك برزت جماعات من الرجال والنساء على رؤوسهم سلال السمك، وعربات تجرها الحمير مثقلةٌ بالخُضَر، وعربات من ذوات الدولابين ملأى بالمواشي أو بأجساد الحيوانات المذبوحة للبيع في سوق اللحم، وبائعات لبن يحملن دلاءهن: سيلٌ غير منقطع من الناس، الآخذين سبيلهم في وهَن وبطء ـ مزوّدين بمختلف ضروب المؤن ـ نحو ضواحي المدينة الشرقية. حتى إذا اقتربا من لندن، تعاظمت الضجة واشتدت حركة المرور شيئاً بعد شيء. ولم يكادا يشقان طريقهما في الشوارع القائمة بين شورديتش وسميثفيلد حتى استحالت الضجة إلى هدير واستحالت الحركة إلى صخب. كان نور النهار قد تسلّل، وكان الصباح الناشط قد بدأ بالنسبة إلى نصف سكان لندن.

وانعطفا نحو «صَنْ ستريت» و«كراون ستريت»، ثم عبرا ساحة فينزبوري. وهنا اندفع سايكس، مجتازاً شارع تشيزويل، إلى باربيكان، ومن ثم إلى «لونغ لين» وبعد ذلك إلى سميثفيلد حيث انبثقت جلَبة من أصوات متنافرة ملأت نفس أوليفر تويست بالدهش والذهول.

إنه صباح يوم من أيام الأسواق الأسبوعية. وكانت الأرض مغطاة، حتى الركبة تقريباً، بالقذر والوحل. وكان الهواء مثقلاً ببخار كثيف ينطلق على نحو موصول من أجساد الماشية النتنة ويمتزج بالضباب الذي بدا وكأنه استقر على رؤوس المداخن. كانت جميع الزرائب التي في وسط البقعة الكبيرة، وجميع الزرائب الموقتة التي استطاع القوم حشرها في الرقعة الشاغرة، ملأى بالخراف. وعلى طول الساقية كانت صفوف طويلة من الثيران وغيرها من البهائم ـ تبلغ عدّتها ثلاثة صفوف أو أربعة صفوف ـ

مشدودة إلى بعض الأعمدة. وتمازج القرويون، والجزارون، والرعاة، والباعة المتجولون، والغلمان، واللصوص، المتبطِّلون، والمتشردون من أحطّ الدرجات وأدناها، في كتلة واحدة. وكان صفير الرعاة، ونباح الكلاب، وخوار الثيران، وثغاء الغنم، وقباع الخنازير وزعيقها، وصيحات الباعة المتجولين، والنداءات، والشتائم، والمشاجرات من كل صوب، وقرع الأجراس وهدير الأصوات المنبعثة من جميع المقاهي، والازدحام والتدافع والسَّوْق وضرب السياط والهتاف والصراخ، والضوضاء الرهيبة المتنافرة المنطلقة من كل زاوية من زوايا السوق، والوجوه القذرة غير المغسولة وغير الحليقة المندفعة جيئة وذهاباً والمقحِمة نفسها وسط الحشد والمنبثقة من خلاله في خفة... كان كل أولئك قد جعل المشهد مذهلاً صاعقاً إلى حد يُربك الحواس ويبلبلها.

وشق مستر سايكس طريقه، جارّاً أوليفر خلفَهُ، خلال الحشود الأشد كثافة، غير مبال إلا قليلاً بمختلف المشاهد والأصوات التي أدهشت الغلام إدهاشاً بالغاً. لقد حنى رأسه بالتحية، مرتين أو ثلاث مرّات، لصديق من عابري السبيل. وإذْ اعتذر عن تلبية كثير من الدعوات لاحتساء كأس صباحية صغيرة أغذّ الخطى في غير توان حتى خَلُصا بنفسيهما من الهرْج والمرْج، وشقَّا طريقهما خلال «هوزيير لين» إلى هولبورن.

وقال سايكس، ناظراً إلى ساعة كنيسة القديس أندراوس: «والآن، أيها الغلام، لقد كادت الساعة تصبح السابعة! يجب أن توسع الخطى. هيَّا، لا تتلكأ منذ الآن، يا ذا الرجلين الكسولين!»

وأرفق مستر سايكس هذا الخطاب بنترة لمعصم رفيقه الصغير. فلم يكن من أوليفر إلا أن أسرع هرولة بين السير السريع وبين العَدْو، وبذلك ساير خطوات اللص السريعة على أحسن وجه استطاعَهُ.

وتابعا سبيلهما على هذه السرعة حتى اجتازا زاوية هايد بارك، وأمسيا في طريقهما إلى كينينغستون: حيث خفَّف سايكس من سرعة خطوتِهِ ريثما أقبلت عربة فارغة كانت تجري خلفهما على مَبْعدة يسيرة. وإذ وجد هذه

اللفظة HOUNSLOW مسطورة عليها سأل الحوذي بأكبر قَدْر من الكياسة وُفِّق إليه ما إذا كان في ميسوره أن يقلَّهما حتى آيلوورث.

فقال الرجل: «اصعد بسرعة. أهذا ولدك؟»

ـ «نعم، هذا ولدي،» كذلك أجابه سايكس، وهو يحدق النظر إلى أوليفر، ويضع يده ـ من غير أن يفكِّر بذلك ـ في الجيب المشتمل على الغدارة.

وسأل الحوذي الغلام وقد رآه يلهث: «إن والدك يمشي في سرعة تجعلك عاجزاً عن اللحاق به، أليس كذلك، يا بُنيّ؟»

فأجابه سايكس مقاطعاً: «لا، لا على الإطلاق، إنه متعوّدٌ هذه السرعة. هات يدك، يا «نيد». واصعد إلى العربة.»

وجَّه إلى أوليفر هذه الكلمات، وساعده على امتطاء متن العربة. فلم يكن من الحوذي إلا أن أشار إلى ركام من الأكياس وسأله أن يتمدد فوقها ويأخذ نصيبه من الراحة.

وفيما هم يمرون بمختلف الصُّوى (اللوحات) والمعالم تساءل أوليفر، أكثر فأكثر، إلى أين اعتزم رفيقه أن يأخذه. لقد اجتازوا كينينغستون، وهامر سميث، وتشيزويك، وكيو بريدج، وبرينتفورد كلها. ومع ذلك فقد تابعا رحلتهما في غير انقطاع وكأنهما لم يستهلاّها إلا منذ لحظة. وأخيراً انتهيا إلى حانة تدعى «العربة وخيولها»، وعلى مسافة يسيرة وراءها بدا وكأن طريقاً أخرى قد انعطفت. وهناك كفت العربة عن الجري.

وترجَّل سايكس في سرعة بالغة، من غير أن يُفلت يد أوليفر لحظة واحدة. حتى إذا أنزله من العربة في الحال سدَّد إليه نظرة ضارية، ولطم جيبه الجانبي بجُمع كفه، لطمة ذات مغزى.

وقال الرجل: «إلى اللقاء، أيها الغلام.»

فأجابه سايكس وهو يهز أوليفر: «إنه نكِد الطبع. جروٌ من الجراء! لا تلمْهُ على ذلك!»

ـ «لا، است أنا من يلومه!» كذلك قال الحوذي، ممتطياً متن عربته. «الجو جميل اليوم، على أية حال.» وانطلق في سبيله.

وتريَّث سايكس حتى توارت العربة عن الأنظار. ثم إنه قال لأوليفر إن في إمكانه أن يجيل الطرف في ما حوله إذا شاء، وأنشأ يجره من جديد مستأنفاً رحلته.

وانعطفا إلى اليسار، بعيد اجتيازهما بالحانة، ثم إنهما سلكا طريقاً قائمة إلى يمينهما، وواصلا السير فترة طويلة من الزمان، مارَّين بكثير من الحدائق الواسعة ومنازل الأثرياء على جانبي الطريق، غير متوقفين لشيء سوى قليل من الجعة، حتى بلغا بلدة ما. وهنا، على جدار أحد البيوت، رأى أوليفر هذا الاسم «هامبتون» مكتوباً بأحرف كبيرة جداً. وتسكَّعا، بضع ساعات، في الحقول، وأخيراً انقلبا عائدين إلى البلدة. ثم انعطفا فدخلا حانة عتيقة ذات لافتة أمَّحت كلماتها، وطلبا طعاماً يأكلانه على مقربة من نار المطبخ. وكان المطبخ حجرة عتيقة ذات سقف خفيض تعترض وسَطه عارضة خشبية ضخمة، وقد انتثرت فيها ـ على مقربة من نار المستوقد ـ مقاعد عالية الظهور، كان يستوي عليها عدة رجال جفاة مرتدين قمصاناً فضفاضة، رجال انكبُّوا على الشراب والتدخين. ولم يُلقوا أيّ بال إلى أوليفر، في حين ألقوا نظرة على سايكس. ولم يُوْلِهم سايكس غير اهتمام ضئيل جداً، وقعد هو ورفيقه الصغير في زاوية دانية منهم من غير أن تزعجه صحبتهم إزعاجاً كثيراً.

وأصابا بعض اللحم البارد على سبيل العشاء، وأطالا القعود بعده ـ وقد انغمس سايكس خلال ذلك في تدخين ثلاث بيبات أو أربع بيبات ـ إطالة بات أوليفر موقناً معها أقوى ما يكون اليقين من أنهما لن يمضيا إلى أبعد مما فعلا. وإذ أضناه طول السير، وهو الذي نهض من فراشه في ساعة جد مبكرة، فقد غلبه النعاس بادئ الأمر. وبعد ذلك قهَرهُ الإعياء وأدخنة التبغ، فاستسلم للرقاد.

وكان الظلام دامساً عندما أيقظته وكزةٌ من سايكس. ونفض النعاس

عن عينيه نفضاً مكّنه من أن يجلس ويجيل الطرف في ما حوله، فألفى ذلك الرجل الفاضل يتبادل حديثاً حميماً مع عامل من العمال، وقد جلسا إلى زجاجة من جعة. وسأله سايكس: «إذن فأنت منطلق إلى «لاور هاليفورد»، أليس كذلك؟»

فأجابه الرجل، الذي بدا وكأن الشراب قد أنعشه بعض الشيء، أو ربما أخمد نشاطه بعض الشيء: «ولن تتَّسم رحلتي بالبطء أيضاً. فلن يكون خلف فرسي في طريق العودة حملٌ ثقيل كالذي تعين عليه أن يجرّه في طريق الذهاب، هذا الصباح. ولن يقتضيه الوصول إلى هناك وقتاً طويلاً. ذلك من حسن حظه! وحقّ الشيطان! إنه فرس طيب!»

ـ «هل تستطيع أن تنقلني وتنقل ولدي حتى ذلك المكان؟» كذلك تساءل سايكس، وهو يدفع الجعة نحو صديقه الجديد.»

فأجابه الرجل ناظراً من فوق إبريق الجعة: «إذا كنت منطلقاً على التوّ، استطعت ذلك. أذاهب أنت إلى هاليفورد؟»

فقال سايكس: «أنا ذاهب إلى أبعد من ذلك، إلى شيبرتون.»

فأجابه الرجل: «سوف أكون في خدمتك حين أبلغ المكان الذي أقصده. هل دُفِع كل شيء، يا بيكي؟»

فأجابت الفتاة: «نعم، إن السيد الآخر قد دفع.»

فقال الرجل، في وقار الثمِل: «ولكن... هذا لا يجوز، كما تعلم.»

فردّ سايكس بقوله: «ولِمَ لا؟ إنك سوف تسدي إلينا خدمة. فعلام تحاول أن تحرمني متعة دعوتك، مقابل ذلك، إلى كأس من الجعة؟»

وفكَّر الغريب في تلك الحجة تفكيراً عميقاً، ثم أمسك بيد سايكس، وأعلن أنه صديق طيب حقاً. فلم يكن من مستر سايكس إلا أن أجاب بقوله إنه كان يمزح. وهو شيء كان من حق المرء أن يفترضه لو كان ذلك الرجل الفاضل صاحياً غير سكران.

وبعد أن تبادل الرجلان بضع مجاملات أخرى، تمنيا للجماعة ليلة

طيبة، ومضيا لسبيلهما. عندئذ جمعت الفتاة الأباريق والكؤوس، ومضت متباطئة نحو الباب لكي تودّعهما.

وكان الفرس، الذي شُرِب نخبُهُ في غيابه، ينتظر خارج الحانة، وقد شُدّ إلى العربة. وامتطى أوليفر وسايكس متنها في بساطة بالغة، على حين تلكأ الحوذي دقيقة أو دقيقتين «لكي يستنهض همة» الفرس، ولكي يتحدى سائس الخيل والعالم أجمع أن يأتوا بمثله. حتى إذا تم له ذلك امتطى بدوره متن العربة. ثم إن الحوذي أمر سائس الخيل بأن يطلق العنان للفرس، فلم يكد يفعل حتى أساء ذلك الحيوان استخدام الحرية التي مُنِحها، بأن أخذ ينتر رأسه في الهواء، في ازدراء عظيم، ويثب إلى نوافذ حجرة الاستقبال من البيت المحاذي له. وبعد أن أنجز الفرس هذه المآثر الحميدة، وانتصب واقفاً على قائمتيه الخلفيتين برهة قصيرة، انطلق في سرعة خاطفة، إلى خارج البلدة، في صخب وجلال.

كان الليل حالكاً جداً. ومن النهر ومن الأرض السبخة المجاورة ارتفع ضباب رطب وانتشر فوق الحقول الموحشة. وكان البرد لاذعاً، أيضاً. وكل شيء كان أسود مظلماً. ولم يُنْطَق بأيما كلمة. ذلك أن النعاس كان قد استبد بالحوذي، ولم يكن سايكس آنذاك على مزاج يغريه بحمل الحوذي على الخوض في حديث ما. أما أوليفر فتجمَّع على نفسه في زاوية من العربة، وقد أذهله التوجس والرعب، وتوهم أنه يرى أشياء غريبة في الأشجار المهزولة التي تمايلت أغصانها جيئة وذهاباً على نحو كالح، وكأنها مبتهجة ابتهاجاً غريباً بالوحشة التي غلبت على المشهد.

وفيما هم يمرُّون بكنيسة صانبوري أعلنت الساعةُ السابعة مساء. كان ثمة ضوء في النافذة المقابلة، ضوء تدفق عبر الطريق. فغمر إحدى شجرات السدر الجبلية السوداء القائم تحتها بعض القبور بظلٍّ أشدّ قتاماً. لقد كان ثمة، على مقربة، صوت خافت منبعث من مَسْقط من مساقط المياه، وحفيفٌ رفيقٌ منبعث من أوراق الشجرة العتيقة المتمايلة مع ريح المساء. لقد بدا هذان أشبه شيء بموسيقى هادئة تُعزف لراحة نفوس الموتى.

واجتازوا صانبوري، فانتهوا من جديد إلى الطريق الموحشة. وبعد ميلين آخرين أو ثلاثة أميال أخرى كفَّت العربة عن الجري. وترجَّل سايكس، وأمسك بيد أوليفر، واستأنفا السير من جديد.

وفي شيبرتون لم يدخلا أيّ منزل من المنازل، كما توقَّع الطفل المرهق، ولكنهما واصلا السير، في الوحل والدجنَّة، وخلال الأزقة المظلمة وعبر الأرض غير المأهولة، حتى بدت لهما أضواء بلدة غير قصيَّة. وحدَّق أوليفر النظر أمامه، فرأى أن الماء كان تحتهما مباشرة، وأنهما كانا قد بلغا رأس جسر من الجسور.

وتابع سايكس سبيله حتى شارفا الجسر. ثم إنهما انعطفا، فجأة، هابطين الضفة اليسرى.

وقال أوليفر في ما بينه وبين نفسه، وقد هدَّ الذعر قواه: «الماء! لقد ساقني إلى هذا المكان الموحش لكي يقتلني!»

وكان على وشك أن ينطرح على الأرض، وأن يخوض صراعاً لإنقاذ حياته الغضة، عندما رأى أنهما توقفا أمام منزل معزول متداع إلى السقوط. كان ثمة نافذة في كل جانب من جانبي المدخل المقوَّض. ودورٌ واحدٌ فوقه. ولكن العين لم تلمح أيَّ ضوء. كان المنزل مظلماً، مجرداً من مقوّمات المنازل كلها. وكان ـ على ما يُستفاد من جميع الدلائل ـ غير آهل.

وفي رفق تقدَّم سايكس، ويدُ أوليفر لا تزال في يده، نحو المدخل الخفيض، ورفع المزلاج. وأذعن الباب للضغط، فدخلا المنزل معاً.

الفصل الثاني والعشرون

السطو

ـ «هالو!» كذلك صاح صوت عال أجشّ، لحظة وطئا الرواق.

فقال سايكس وهو يحكم إغلاق الباب بالرتاج: «لا تُحْدث مثل هذه الضجة. أضىء شمعة، يا توبي!»

فصاح الصوت نفسه: «آها، أيها الزميل! يا بارني، شمعة! أدخِلِ السيد، يا بارني. استيقِظْ أولاً، إذا كان هذا لا يضايقك!»

وبدا المتحدث وكأنه رشق مخاطبَهُ بخالعة أحذية (Boot - Jack)، أو بأداة مماثلة، ليوقظه من رقاده. ذلك بأن صوت جسم خشبي، ساقط في عنف، سرعان ما سُمِع. وعلى الأثر سُمِعت غمغمة مبهمة، أشبه بغمغمة رجل يترجَّج بين النوم واليقظة.

وصاح الصوت نفسه: «هل تسمع؟ بيل في الرواق وليس ثمة من يقوم بواجب الترحيب به، وأنت تنام هناك، وكأنك تناولت مع وجبة طعامك صبغة الأفيون، وليس شيئاً أقوى. ألست أدنى إلى الصحو الآن، أم تريد أن آتي بالشمعدان الحديدي لكي أوقظك إيقاظاً كاملاً؟»

وما إن طُرح هذا السؤال حتى دلفت(*) قدمان منتعلتان حذاء قصيراً عبر أرضية الحجرة الجرداء. وبعد ذلك انبثقت من الباب الأيمن، أولاً، شمعة واهنةٌ ثم خيال ذلك الشخص عينه الذي وُصِف من قبلُ بأنه يتكلم من أنفه، والذي رأيناه يعمل نادلاً في الحانة القائمة في «كثيب صافرون»(**).

وهتف بارني، في ابتهاج صادق أو زائف: «المعلم سايكس! أدخل، يا سيدي. أدخل!»

فقال سايكس، وهو يُدْخل أوليفر قبله: «هيَّا! أسرِع أكثر، وإلا دسْت على عقبيك!»

وشتمه سايكس لتمهُّلِهِ، ودفعه أمامه. فدخلا حجرة خفيضة مظلمة حيث وجَدا ناراً داخنة وكرسيين أو ثلاثة كراسٍ محطمة، وطاولة، ومتَّكأ عتيقاً جداً تمدّد عليه ـ ورجلاه أعلى من رأسه بكثير ـ رجلٌ مسترخ يدخِّن بيبة فخارية طويلة. كان يرتدي سترة أنيقة التفصيل سُعوطيَّة اللون ذات

(*) دلف: مشى مشية المقيد. (المعرب)

(**) راجع الفصل الخامس عشر من الرواية. (المعرب)

أزرار نحاسية ضخمة، ومنديل عنق برتقالياً، وصدرة خشنة منتصبة الوبر مزدانة برسوم كالتي تميِّز الشالات عادة، وبنطالاً عسلياً قصيراً. ولم يكن لمستر كراكيت (فقد كان صاحبنا هذا هو مستر كراكيت نفسه) شعر غزير، لا في رأسه ولا في وجهه. ولكن ذلك النزر اليسير من الشعر الذي نعِم به كان ذا صبغة ضاربة إلى الحمرة، وكان معقوصاً على شكل حُلَيقات طويلة شبيهة بالمبرام اللولبيّ الخاص بنزع فلِّين الزجاجات، فهو يقحم فيه بين الفينة والفينة بعض أصابعه القذرة إلى أبعد حد، والمزدانة بخواتم كبيرة رخيصة. كان أميل إلى الطول شيئاً ما، وكان مهزول الساقين، في ما يبدو، بعض الشيء، ولكن هذه الواقعة لم تنتقص من إعجابه الشخصي بحذائه العالي الساق، ذلك الحذاء الذي راح صاحبنا يتأمله ـ وكان كما قلنا في وضع جعله أعلى من رأسه بكثير ـ في ارتياح غامر.

وقال هذا الشخص، ملتفتاً نحو الباب: «بيل، يا بنيّ! أنا سعيد بأن أراك. لقد كدْت أعتقد أنك تخليت عن المشروع. وفي مثل هذه الحال يتعيَّن عليَّ أن أقوم بمغامرة شخصية. هالو!»

أطلق مستر توبي كراكيت هذا الهتاف، في لهجة راشحة بالدهش العظيم عندما وقعت عينه على أوليفر، ثم استوى جالساً، وتساءل: «من هذا؟»

فأجابه سايكس مُدنيا أحد الكراسي إلى النار: «الغلام! الغلام ليس غير!»

فهتف بارني في ابتسامة عريضة: «أحد أولاد مستر فاجين.»

فصاح توبي، ناظراً إلى أوليفر: «فاجين، آه! أيّ غلام نفيس سوف يكون بالنسبة إلى جيوب السيدات العجائز المعتكفات في الكنائس! إن وجهه هو ثروة له.»

ـ «كفى، كفى!» كذلك قاطعه سايكس في صبر نافد. ثم إنه مال على صديقه المتكئ، وهمس في أذنه بضع كلمات، ضحك لها مستر كراكيت ضحكاً مدوّياً وشرَّف أوليفر بتحديقة دهش طويلة.

ـ «والآن،» كذلك قال سايكس وهو يعاود الجلوس، «إذا قدمت إلينا شيئاً نأكله ونشربه خلال انتظارنا تنفخ فينا بعض الشجاعة، أو فيَّ أنا على أية حال. أجلس قرب النار، أيها الصغير. وخذ راحتك، لأن عليك أن تنطلق معنا الليلة أيضاً، ولكن رحلتنا لن تكون هذه المرة طويلة جداً.»

ونظر أوليفر إلى سايكس في دهش أبكم خجول. ثم أدنى إلى النار مقعداً خفيضاً لا ظهر له، وجلس منكِّساً رأسه الموْجع بين يديه، وهو لا يكاد يدري أين كان، أو ما الذي كان يجري من حوله.

فقال توبي، فيما كان اليهودي الصغير يضع على المائدة بعض فضلات الطعام وزجاجة: «هيَّا، فلنشرب نخب نجاح عملية السطو!» ونهض على شرف النخب. وبعد أن وضع بيبته الفارغة، بتؤدة واحتراس، في إحدى الزوايا تقدم إلى المائدة وملأ إحدى الكؤوس خمراً وأفرغ محتواها في جوفه دفعة واحدة. وفعل مستر سايكس مثله.

وقال توبي، وهو يملأ نصف كأس خمراً: «جرعة للغلام. فلتسقط البراءة!»

فقال أوليفر، وهو يرفع بصره إلى وجه الرجل على نحو يدعو للرثاء: «الواقع . . . الواقع إني . . .»

فكرر توبي: «فلتسقط البراءة! أتحسب أني لا أعلم ما الذي يفيدك؟ قل له أن يشربها، يا بيل!»

قال سايكس، وهو يلطم جيبه بيده: «هذا أفضل له! أحرقوا جسدي إن لم يكن أكثر إزعاجاً من أسرة كاملة من «المراوغين». اشربها، أيها الشيطان الصغير العنيد، اشربها!»

وإذ رُوِّع أوليفر بإيماءات الرجلين المتوعدة، فقد سارع إلى ابتلاع محتويات الكأس. واستبدت به، على التوّ، نوبة عنيفة من سعال أبهجت توبي كراكيت وبارني، بل انتزعت بسمة من مستر سايكس الفظ نفسه.

حتى إذا تمّ ذلك، وأشبع سايكس شهوته إلى الطعام (لم يستطع

أوليفر أن يأكل غير كسرة من خبز أكرهوه على ازدرادها) استوى الرجلان في كرسيين ليأخذا سِنَة من النوم. ولزم أوليفر كرسيه الخفيض على مقربة من النار، أما بارني فتلفَّع ببطانية، وتمدَّد على الأرض، في محاذاة حاجز الموقد مباشرة.

وناموا، أو تظاهروا بالنوم، فترة من الزمان. ولم يتحرك أيّ منهم غير بارني، الذي نهض مرة أو مرتين لكي يذكي النار ببعض الفحم. وكان أوليفر قد استسلم لرقاد عميق، وقد تخيَّل نفسه تائهاً في الأزقة المظلمة أو مطوِّفاً في الجبّانة القاتمة، أو مستحضراً في ذاكرته هذا المشهد أو ذاك من مشاهد اليوم السابق، عندما أيقظه وثوب توبي كراكيت وإعلانه أن الساعة أمست الواحدة والنصف.

وما هي غير لحظة حتى نهض الآخران واقفين على أقدامهما. وشُغِل القوم كلهم باستعدادات ناشطة. ولفَّ سايكس ورفيقه عنقيهما وذقنيهما بشالين عريضين داكنين، ولبسا معطفيهما. وفتح بارني خزانة وأخرج منها أدوات متعددة، وسارع إلى حَشْرها في الجيوب.

وقال توبي كراكيت: «النبَّاحتان لي، يا بارني.»

ـ «ها هما!» كذلك أجاب بارني، مخرجاً من جيبه غدَّارتين اثنتين. «لقد شحنتهما بنفسك.»

فقال توبي وهو يدسهما في بعض جيوبه: «حسن! والمُقْنِعات؟»

فأجاب سايكس: «إنها معي.»

ـ «والكريب الأسود، والمفاتيح، والمثاقيب والمصابيح القاتمة؟ ألم تَنْس شيئاً؟» تساءل توبي مثبِّتاً مُخْلاً صغيراً في عروة بأدنى معطفه.

فقال رفيقه: «حسن جداً. أحضِرْ قطع الخشب، هذا ممتاز!»

ولم يكد ينطق بهذه الكلمات حتى تناول عصا غليظة من يدي بارني، الذي تشاغل ـ بعد أن قدَّم عصا أخرى إلى توبي ـ بتثبيت دثار أوليفر على كتفيه. وقال سايكس، باسطاً يده: «تفضَّل!»

وكان أوليفر قد شُدِهَ انشداهاً كاملاً بهذه الاستعدادات غير المألوفة، وبتلك السيماء الغريبة، وبالشراب الذي حُمِل على احتسائه حملاً، فوضع يده ـ على نحو آليّ ـ في تلك التي بسطها سايكس لهذا الغرض.

فقال سايكس: «أمسك بيده الأخرى، يا توبي. ألقِ نظرة، يا بارني.»

فمضى الرجل إلى الباب، ثم عاد ليعلن أن كل شيء هادئ. فانطلق اللصان وهما يتوسَّطان أوليفر. وبعد أن أحكم بارني إيصاد كل شيء، تدثَّر بالبطانية واستغرق في النوم من جديد.

كان الظلام قد أمسى، الآن، حالكاً إلى أبعد مدى وكان الضباب أكثف مما بدا في الهزيع الأول من الليل. وكان الجو بالغ الرطوبة حتى لقد تصلب شعر أوليفر وحاجباه من النداوة نصف المتجمدة الطافية حوله ـ على الرغم من أن شيئاً من المطر لم يهطل ـ خلال الدقائق القليلة التي انقضت على مغادرته البيت. وعبروا الجسر، ومضوا في اتجاه الأضواء التي كان قد رآها من قبل. إنها لم تكن بعيدة، وإذ كانوا يغذّون الخطى فإنهم سرعان ما بلغوا تشيرتسي.

وهمس سايكس: «فلنندفع عبر البلدة مباشرة. لن يكون في الطريق، هذه الليلة، مخلوق واحد يستطيع أن يرانا.»

ونزل توبي عند رغبته، وأوسعوا الخطى خلال شارع البلدة الرئيسي، الذي كان مهجوراً بالكلية في تلك الساعة المتأخرة من الليل. كان ضوء باهت يومض بين الفينة والفينة من نافذة مَهْجع ما، وكان نباح الكلاب الأجشّ يعكّر أحياناً سكينة الليل. ولكن لم يكن في الشوارع أحد. كان القوم قد أخلوْا البلدة عندما قرع ناقوس الكنيسة معلناً الساعة الثانية.

وانعطفوا يساراً نحو إحدى الطرق وهم يزيدون سرعة خطاهم. وبعد أن اجتازوا نحواً من ربع ميل وقفوا تجاه بيت معزول يطوّقه سور، تسلَقه توبي كراكيت، من غير أن يتمهل حتى يأخذ نفساً، فانتهى إلى ذروته بمثل لمح البصر.

وقال توبي: «والآن جاء دور الغلام. ارفعْهُ. إني سوف أتناوله منك.»

وقبل أن يجد أوليفر متسعاً من الوقت للنظر في ما حوله كان سايكس قد أمسك به من إبطيه. وما هي غير ثوان ثلاث أو أربع حتى كان هو وتوبي مستلقيين على العشب في الجانب الآخر من السور. وتبعهما سايكس على الأثر. وانسلّوا في احتراس نحو المنزل.

والآن، وللمرة الأولى، أدرك أوليفر ـ وقد ذهب الأسى والرعب بعقله أو كادا ـ إن السطو والسرقة، إن لم يكن القتل، كانا هدفَيْ تلك الحملة. فشبك يديه، وأطلق على نحو لا إراديٍّ صيحة ذعر مكبوحة. ورانت على عينيه غشاوة، وتفصَّد العرق البارد من وجهه الرماديّ الشحوب. وخانته قدماه، فخرَّ على ركبتيه.

وغمغم سايكس، مرتعداً من شدة الغيظ، ساحباً غدارته من جيبه: «انهض، وإلا نثرتُ دماغك على العشب.»

فصاح أوليفر: «أوه! دعني أرجع إكراماً للّه! دعني أفرّ وأموت في الحقول. أنا لن أقترب من لندن، أبداً، أبداً! أوه، أتوسل إليك أن ترحمني، وأن لا تكرهني على السرقة! استحلفك بجميع الملائكة البهية المستقرة في السماء أن ترحمني!»

فلم يكن من الرجل الذي وجِّه إليه هذا التوسل إلا أن أطلق شتيمة رهيبة، ورفع زند الغدارة. ولكن توبي سارع إلى انتزاعها من قبضته، ثم وضع يده على فم الغلام وجرّه إلى المنزل.

وصاح الرجل: «هش! لا فائدة، هنا، من المقاومة. أنطِقْ بكلمة أخرى أسارعْ إلى تصفية حسابك بضربة على أمّ رأسك. إن هذا لا يُحْدث ضجة، وهو مكفولُ النتيجة مثل رصاص الغدارة، وأكثر رقة وتهذيباً. والآن، فلنخلع مصراع النافذة. إن الشجاعة لن تعوزه الآن، أؤكد لك. لقد رأيت غلماناً آخرين في مثل سنِّهِ يسلكون مسلكه، طوال دقيقة أو دقيقتين، في الليالي الباردة.»

وأنزل سايكس شتائم رهيبة على رأس فاجين لإرساله أوليفر في هذه المهمة، واستعمل مُخله في قوة، ولكنْ في قليل من الضجة. وما هي إلا فترة يسيرة، وبعد مساعدة ما من توبي، انفتح المصراع المذكور على مِفْصلاتِهِ.

كانت نافذةً صغيرةً ذات شعرية في مؤخرة البيت، يبلغ ارتفاعها عن الأرض نحواً من خمسة أقدام ونصف، نافذة مطبخ خلفي، أو موضع صغير لتخمير الجعة، قائم عند أقصى المجاز. كانت فتحة صغيرة إلى درجة جعلت أصحاب البيت يعتبرونها، في ما يبدو، غير جديرة بأن تُدعَّم تدعيماً أشد إحكاماً. ولكنها كانت تتسع مع ذلك لدخول غلام في مثل حجم أوليفر. فلم يكد سايكس يستخدم فنَّه في الكسر والخلع حتى تغلب على مقاومة الشعرية، وسرعان ما انفتحت هي الأخرى بدوْرها.

وهمس سايكس، مخرجاً من جيبه مصباحاً قاتماً ومُلقياً كامل شعاعه على وجه أوليفر: «والآن، اسمع أيها النصاب الصغير. سوف أدْخِلك إلى هناك. خذ هذا المصباح. اصعد درجات السلم التي أمامك في هدوء، واجتَزْ الرواق الصغير إلى الباب المطلّ على الشارع. ارفع مزلاجه، وافتحه لنا.»

فقاطعه توبي: «يوجد مزلاج في أعلى الباب لن تستطيع بلوغه. قف على أحد كراسي الرواق. هناك ثلاثة منها، يا بيل، تعلوها أفراس مقرَّنة زرقاء ضخمة ظريفة، ومَذارٍ مذهبة. تلك هي كراسي السيدة العجوز.»

فقال سايكس، وهو يحدج رفيقه بنظرة متوعدة: «إلزم الهدوء، ألا تستطيع؟ باب الغرفة مفتوح، أليس كذلك؟»

فأجابه توبي، بعد أن ألقى نظرة على الداخل زيادة في التأكيد: «على مصراعيه. المضحك في المسألة هو أنهم يتركونه مفتوحاً، بعد أن يثبِّتوه بقطعة خشب، لكي يكون في ميسور الكلب ـ الذي ينام هنا ـ أن يذرع مدخل البيت جيئة وذهاباً حين يستبدّ به الأرق. ها! ها! لقد أقصاه بارني، هذه الليلة، عن مقره. هكذا، هكذا يكون الشغل!»

وعلى الرغم من أن مستر كراكيت تكلم في همس لا يكاد يُسْمع، وضحك ضحكة مكبوتة، فقد أمره سايكس بلهجة ذي السلطان أن يصمت وينصرف إلى العمل. وامتثل توبي فأخرج بادئ الأمر مصباحه فوضعه على الأرض، ثم أقحم نفسه في قوة مسْنداً رأسه إلى الجدار تحت النافذة واضعاً يديه على ركبتيه بحيث يجعل من ظهره مَوْطئاً. ولم يكد يفعل ذلك حتى امتطى سايكس متنه، وأدخل أوليفر في تؤدة، من خلال النافذة، مبتدئاً بقدميه. ثم أقامه سالماً، على الأرضية الداخلية، من غير أن يرخي قبضته عن قبة قميصه.

وقال سايكس، وهو ينظر إلى الغرفة: «خذ هذا المصباح. هل ترى السلم التي أمامك؟»

فلهث أوليفر، وهو إلى الموت أقرب منه إلى الحياة: «نعم.» وعندئذ أشار سايكس بأنبوب غدارته إلى الباب المطلّ على الشارع، ونصحه في إيجاز أن يتذكر أنه سوف يكون دائماً على مدى طلقة نارية من غدارته، وإنه إذا ما تردد أرداه قتيلاً في الحال.

وأضاف سايكس همساً: «لن يقتضيك القيام بذلك غير دقيقة واحدة. إن عليك أن تبادر إلى العمل حالما أفْلِتُك. أسامع أنت؟»

فهمس الرجل الآخر: «ما هذا؟»

وأرهفا السمع.

وقال سايكس وهو يُفلت أوليفر: «لا شيء. امضِ!»

وخلال الفترة الوجيزة التي أتيحت له لاستجماع حواسه كان الغلام قد عقد العزم، سواء أقضى نحبه في هذه المحاولة أم لم يقضِ، على أن يبذل جهداً مُفرداً يُمكِّنه، لحظة بلوغه الرواق، من أن يرتقي السلم بأقصى السرعة ويوقظ الأسرة النائمة. فلم يكن منه، وقد استحوذت عليه تلك الفكرة، إلا أن تقدّم في الحال، ولكن في خطى مُخْتَلسة.

فصاح سايكس فجأة بصوت عال: «ارجع! ارجع!»

ورُوِّع أوليفر بهذا التعكير المفاجئ لسكينة البيت المطلقة، وبصيحة

عالية عقِبَتْهُ، فهوى المصباح من يده، ولم يدرِ أيتعيَّن عليه أن يتقدم أم أن يطلق ساقيه للريح.

وتكررت الصيحة... وبرز ضوء... وطاف أمام ناظريه على نحو مُبْهم مشهد رجلين مروَّعين نصف عاريين عند أعلى السلم... وتلا ذلك وميض... وضجة مُدوِّية... ودخان... وقرقعة في مكان ما، ولكنه لم يدرِ أين. وارتدّ أوليفر على عقبيه مترنحاً.

وكان سايكس قد اختفى لحظة، ولكنه سرعان ما نهض من جديد، وأمسك به من قبة قميصه قبل أن يتبدّد الدخان. وأطلق نار غدَّارتِهِ في أعقاب الرجلين اللذين كانا قد ارتدّا منسحبَيْن، ورفع الغلام ثم سحبه من خلال النافذة.

وقال سايكس وهو يفعل ذلك: «اضغط على ذراعك ضغطاً أشدّ. أعطني شالاً. لقد أصابوه. عجِّل! ما أغزر الدماء التي تنزف من الغلام!»

وتلا ذلك رنينُ جرس داو امتزج بضجيج الأسلحة النارية، وصيحاتُ رجال: وشعورٌ بأنه يحمل فوق أرض وعرة في خطى حثيثة. ثم إن الإبهام والاختلاط غلبا على تلك الأصوات في المدى البعيد، ودبّ إلى فؤاد الغلام إحساس ببرودة قاتلة، ولم يعد يرى شيئاً، أو يسمع شيئاً.

الفصل الثالث والعشرون

وهو يشتمل على مادة حديث عذب دار بين مستر بامبل وإحدى السيدات. ويظهر أن الشمامسة أنفسهم قد يكونون سريعي التأثر في بعض الأمور.

كان الليل قارس البرد. وكان الثلج يكسر الأرض مُتجمداً في قشرة قاسية كثيفة جعلت أكداسه التي سيقت إلى الزوايا والطرق الفرعية تتأثر هي وحدها بالريح العاتية التي زأرت خارج الأبواب. تلك الريح التي بدت وكأن حنقها تعاظم فصبَّته على الفرائس القليلة الماثلة أمامها، ممسكة

بخناقها في وحشية قاذفة بها إلى السحب، محيلة إياها إلى ألف من الدرادير الملَّفعة بالضباب، ناثرة تلك الدرادير بعد ذلك في الهواء. وفي مثل هذه الليالي العاصفة، الدامسة، القارسة، لا يجد المتخمون من نزلاء البيوت المزوّدة بأسباب الراحة ما يفعلونه خيراً من التحلُّق حول نار الموقد وإزجاء الشكر للَّه على نعمة المبيت في منازلهم، ولا يجد البؤساء من المشردين الجائعين ما يفعلونه أكثر من الانطراح على الأرض ارتقاباً للموت. إن كثيراً من المنبوذين الذين أبلاهم الجوع ليغمضون أعينهم في شوارعنا العارية، في أمثال هذه المناسبات. وهم، مهما تكن الجرائم التي اقترفوها، أعجز من أن يفتحوها على عالم أشدّ قسوة وغلظة.

تلك كانت هي الحال في الخارج عندما قعدت مسز كورني ـ مدبرة الملجأ الذي سبق لنا أن قدَّمناه إلى قرائنا بوصفه مسقط رأس أوليفر تويست ـ أمام نار بهيجة في حجرتها الصغيرة، وأنشأت تنظر، في قَدْر من الرضا غير يسير، إلى مائدة صغيرة مستديرة، استقرت عليها صينية ذات حجم مماثل حفلت بجميع المواد الضرورية لتأليف وجبة من أشهى وجبات الطعام التي تُؤثرها المديرات. والواقع أن مسز كورني كانت على وشك أن تتسلى عن همومها بكوب من الشاي. حتى إذا نقلت طرْفها من المائدة إلى المستوقَد، حيث كانت أصغر ركوة تغنِّي أغنية صغيرة في صوت واهن، تعاظم ارتياحها الباطني على نحو واضح. أجل، على نحو واضح إلى درجة أن مسز كورني نفسها لم تتمالك عن الابتسام.

وقالت المديرة، وهي تُسند مرفقها إلى المائدة، وترنو إلى النار مستغرقة في التفكير: «حسن! أنا واثقة من أن لدينا كلنا أسباباً تدعونا إلى الرضا وإزجاء الشكر! بل إن لدينا أسباباً كثيرة، لو كنا نعلم ذلك. آه!»

وهزت مسز كورني رأسها على نحو فاجع، وكأنها تأسَى للعمى العقلي الذي يتكشف عنه أولئك الفقراء الذين لا يعرفون هذه الحقيقة. ثم إنها أقحمت ملعقة فضية (من ممتلكاتها الخاصة) في أعمق أعماق علبة من علب الشاي التي تزن أوقيتين اثنتين، وشرعت في إعداد الشاي.

ولكن ما أضأل الأشياء التي تفسد رصانة عقولنا الهشَّة! فقد فاضت الركوة السوداء الصغيرة، السهلة الامتلاء، بينا كانت مسز كورني مستغرقة في التأمل في شؤون الأخلاق، وأحرق الماء يد مسز كورني إحراقاً طفيفاً.

ـ «ألا لعنة اللَّه على الركوة!» كذلك قالت المديرة الفاضلة، مسارعة إلى وضعها على رف الموقد. «شيء صغير أبله لا يتسع لأكثر من كوبين اثنين! أيّ فائدة تُرتَجى منه لأي إنسان!» وتمهلت مسز كورني لحظة ثم أضافت: «إلا إذا كان مخلوقة مسكينة كئيبة مثلي. أوه، واحسرتاه!»

نطقت المديرة بهذه الكلمات وارتمت على كرسيّها. ثم إنها أسندت مرفقها إلى المائدة مرّة أخرى، وأنشأت تفكّر في قَدرها المعزول. كانت الركوة الصغيرة والكوب المفرد قد أيقظا في ذهنها ذكريات حزينة عن مستر كورني (الذي توفي منذ خمس وعشرين سنة ونيف) وكانت الكآبة قد غلبت عليها.

ـ «أنا لن أفوز أبداً بآخر!» كذلك قالت مسز كورني في نكد: «أنا لن أفوز أبداً بآخر . . . مثله.»

ولسنا نعلم علم اليقين من الذي قصدته مسز كورني بهذه الملاحظة: زوجها أم إبريق الشاي. ومن الجائز أن يكون الإبريق هو المقصود. ذلك بأن مسز كورني نظرت إليه وهي تتكلم، ثم رفعته بعد ذلك. ولم تكد تذوق كوبها الأول حتى أزعجت بنقرة رفيقة على باب الحجرة.

فقالت مسز كورني في حدّة: «أوه، أدخل عليك اللعنة! أحسب أن إحدى النسوة العجائز تُحْتضر. إنهن لا يمتن إلا وقت تناول الطعام! لا تقف هناك، تاركاً الهواء البارد يتسرب إلى الحجرة! هل من مشكلة جديدة؟»

فأجابها صوت رجل: «لا، ليس ثمة شيء البتة، يا سيدتي!»

فهتفت المديرة في لهجة أرق بكثير من لهجتها السابقة: «يا إلهي! أهذا مستر بامبل؟»

ـ «في خدمتك، يا سيدتي!» كذلك قال مستر بامبل، الذي كان واقفاً

بالباب لكي ينظف حذاءه وينفض الثلج عن معطفه، والذي ما لبث أن دخل عليها حاملاً القبعة ذات القرنين بإحدى يديه، ورزمة ما بالأخرى. «هل أوصد الباب، يا سيدتي؟»

فترددت السيدة، باستحياء، في الإجابة عن هذا السؤال، خشية أن يكون ثمة أيّ حرج في الاجتماع إلى مستر بامبل في حجرة مقفلة. وأفاد مستر بامبل من هذا التردد، وإذ كان هو نفسه يستشعر لذع البرد فقد أوصد الباب من غير إذن.

وقالت المديرة: «الجوّ رديء، يا مستر بامبل.»

فأجابها الشماس: «رديء، حقاً، يا سيدتي. هذا جوّ غير أبرشاني، يا سيدتي. لقد وزعنا، يا مسز كورني، لقد وزّعنا نحواً من عشرين رغيفاً وزن كل منها أربعُ ليبرات، وقالباً ونصف قالب من الجبن في هذا الأصيل المبارك، ومع ذلك فالفقراء غير راضين.»

ـ «هذا شيء طبيعي جداً. وما الذي يستطيع أن يرضيهم، يا مستر بامبل؟» كذلك قالت المديرة، وهي ترشف شايها.

فأجابها مستر بامبل: «أجل، ما الذي يستطيع أن يرضيهم، يا سيدتي؟ اسمعي، هناك رجل تلقَّى، بسبب من زوجته وأسرته الكبيرة، رغيفاً وزنه أربع ليبرات ورطلاً كاملاً من الجبن، ومع ذلك فهل تحسبينه شاكراً، يا سيدتي؟ هل تحسبينه شاكراً؟ لا، ولا مثقال ذرة. وما الذي يفعله غير المطالبة ببضع قطع من الفحم الحجري... ولو ملء منديل جيب من هذا الفحم، كما يقول! فحم حجري! وما الذي سوف يفعله بالفحم الحجري؟ يحمِّص الجبن عليه، ثم يعود ليطالب بقدْر إضافي. تلك هي حالنا، مع هؤلاء الناس، يا سيدتي. أعطيهم اليوم ملء مئزر من الفحم الحجري يرجعوا إليكِ بعد يومين طالبين مقداراً مماثلاً، في وقاحة كوقاحة الرخام المعرَّق.»

وعبَّرت المديرة عن موافقتها التامة على هذا التشبيه الجليّ. وتابع الشماس حديثه قائلاً:

ـ «أنا لم أرَ في حياتي شيئاً في مثل فظاعة ما يحدث الآن. أمس الأول جاء رجل ـ لقد كنتِ امرأة متزوجة، يا سيدتي، فلست أجد حرجاً في أن أروي ذلك لك ـ رجل ليس على ظهره غير أسمال بالية (وهنا خفضت مسز كورني بصرها إلى الأرض) وطرق باب ناظِرنا، وكان قد دعا نفراً من الأصدقاء إلى العشاء، وقال إن عليه أن يمدّ إليه يد الإسعاف، يا مسز كورني. حتى إذا أبى أن ينصرف، وروَّع الضيف ترويعاً بالغاً، بعث إليه الناظر برطل من البطاطا وربع ليتر من دقيق الشوفان. فقال الوغد العقوق: «يا إلهي! وأي فائدة أستطيع أن أجنيها من هذا؟ لكأنك تعطيني نظارتين حديديتين!» فقال ناظرنا، وهو يستردّ ما وهبه: «حسن جداً. إننا لن نعطيك، هنا، أي شيء آخر!» فقال المتشرد: «إذن، فسوف أموت في الشوارع!» فقال ناظرنا: «أوه، لا، إنك لن تفعل!»

فقاطعته المديرة: «ها! ها! لقد كان ذلك كلاماً بليغاً! إنك لتجد فيه روح مستر غرانيت كلها، أليس كذلك؟ حسن، ثم ماذا، يا مستر بامبل؟»

فأجابها الشماس: «حسن، يا سيدتي، لقد انصرف. ولقد مات، فعلاً، في الشوارع. كان شحاذاً عنيداً إلى أبعد الحدود!»

فلاحظت المديرة في قوة: «هذا يفوق أيما شيء استطعت أن أتخيله. ولكن ألا تعتقد أن هذا النوع من الإسعاف خارج الملاجئ رديء جداً على أية حال، يا مستر بامبل؟ أنت رجلُ خبرة، ولا بد أنك تعلم. قل.»

فقال الشماس، متبسِّماً كما يتبسَّم الرجال الذين يَعُوْن أنهم أوسع علماً من غيرهم: «مسز كورني، إن الإسعاف خارج الملاجئ إذا ما أحسنَّا تدبيره، أقول إذا ما أحسنَّا تدبيره يا سيدتي، ينطوي على وقاية للجنة الأبرشانية. والمبدأ الأساسي الذي يقوم عليه الإسعاف خارج الملاجئ هو إعطاء الفقراء ـ على وجه الضبط ـ ما لا يحتاجون إليه، وعندئذ يسأمون المجيء والإلحاح في الطلب.»

فهتفت مسز كورني: «يا إلهي! حسن، وهذا كلام بليغ أيضاً!»

فقال مستر بامبل: «أجل، بيني وبينك يا سيدتي، هذا هو المبدأ

الأساسي. وهذا هو السبب الذي من أجله ـ إذا نظرتِ إلى بعض القضايا التي تتسرّب إلى هذه الصحف الوقحة ـ تجدين دائماً أن العائلات المريضة قد أسعِفت برقاقات من الجبن. تلك هي القاعدة الآن، يا مسز كورني، في طول البلاد وعرضها. ولكن مهما يكن من أمر..» وهنا كف الشماس عن الكلام ليحلّ عقدة رزمته، «فهذه أسرار رسمية، يا سيدتي، لا يجوز التحدث عنها إلا، إذا جاز لي أن أقول ذلك، بين الموظفين الأبرشانيين، من أمثالنا نحن. هذه هي، يا سيدتي خمر «بورت» التي أمرت اللجنة بإرسالها إلى الملجأ. إنها خمر بورت حقيقية، جديدة، أصيلة، لم تستخرج من البرميل إلا هذا الأصيل. وهي صافية مثل عين الديك، وليس فيها رواسب.»

حتى إذا رفع مستر بامبل الزجاجة الأولى نحو الضوء، وخضَّها جيداً إثباتاً لجودتها الفائقة وضع كلتا الزجاجتين فوق خزانة ذات أدراج، وطوى المنديل الذي كان يغلّفهما، ثم دسَّه في جيبه برفق بالغ، وتناول قبعته وكأنه يهمّ بالانصرف.

فقالت المديرة: «سوف تستشعر البرد القارس في طريق عودتك، يا مستر بامبل.»

فأجابها الشماس وهو يرفع قبة معطفه: «الريح تعصف، يا سيدتي، على نحو يصْلِمُ أذنَيْ المرء صلْماً.»

ونقلت المديرة بصرها من الركوة الصغيرة إلى الشماس. الذي كان يمضي نحو الباب. ولم يكد الشماس يسعل، استعداداً لتوديعها، حتى سألته في استحياء ما إذا كان يحب أن يحتسي كوباً من الشاي.

فلم يكن من مستر بامبل إلا أن ردّ قبة معطفه إلى وضعها الأول، ووضع قبعته وعصاه على أحد الكراسي، وأدنى كرسياً آخر إلى المائدة. وفيما هو يجلس في تؤدة، رنا إلى السيدة، فركَّزت عينيها على ركوة الشاي الصغيرة وسعل مستر بامبل من جديد، وابتسم ابتسامة ضئيلة.

ونهضت مسز كورني لتأتي من الخزانة بكوب وصحن آخرين. وفيما

هي تعاود الجلوس التقت عيناها عيني الشماس الشهم. واحمرّ وجهها، وانكبَّت على إعداد الشاي له. وسعل مستر بامبل مرّة أخرى. . . وكان سعاله هذه المرة أقوى من سعاله في المرتين السابقتين.

ـ «أتحبّه حلواً، يا مستر بامبل؟» كذلك سألته المديرة، وهي ترفع السكرية.

فأجابها مستر بامبل: «أحبه حلواً جداً، يا سيدتي.» وثبَّت عينيه على مسز كورني فيما كان ينطق بتلك الكلمات. ولو قُدِّر لشماس ما أن يبدو في أيّ يوم من الأيام لطيفاً رقيق السمات إذن لكان مستر بامبل هو ذلك الشماس في تلك اللحظة.

وأنجز إعداد الشاي، وقدّم في صمت. حتى إذا نشر مستر بامبل فوق ركبتيه منديلاً يحول بين فُتات الخبز وبين تلويث بهاء بنطاله القصير، شرع يأكل ويشرب، موشِّحاً هاتين المتعتين بين الفينة والفينة بإطلاق زفرة عميقة لم تفسد عليه ـ بأية حال ـ شهوته إلى الطعام، بل بدت ـ على عكس ذلك ـ وكأنها تيسِّر نشاطه في حقل الشاي والخبز المحمص.

ـ «إن عندك هرة، يا سيدتي، في ما أرى.» هكذا قال مستر بامبل، وهو يرنو إلى هرة كانت تصطلي بالنار وسط أفراد أسرتها. «واعجبا! وعندك هريرات أيضاً!»

فأجابته المديرة: «أنا مولعة بها، يا مستر بامبل، إلى درجة يتعذر عليك أن تتخيَّلها. إنها من السعادة، والظرف، والبهجة بحيث اتخذت منها رفاقاً بكل ما في الكلمة من معنى.»

فأجابها مستر بامبل بلهجة ترشح بالموافقة: «إنها حيوانات ظريفة جداً، يا سيدتي. إنها مستأنسة إلى أبعد الحدود.»

فقالت المديرة في حماسة: «أوه، نعم! وهي مولعة ببيتها أيضاً إلى درجة تجعل العيش معها متعة بالغة، أؤكد لك!»

فقال مستر بامبل، في تؤدة، وهو يحدث بملعقة الشاي بعض الإيقاعات الموسيقية: «مسز كورني، أريد أن أقول لك شيئاً، يا سيدتي.

وهو أن أيما هرة، أو هَريرة، تعيش معك، يا سيدتي، ولا تُوْلعُ ببيتها لا بدَّ أن تكون حماراً، يا سيدتي.»

فصاحت مسز كورني: «أوه، يا مستر بامبل!»

فقال مستر بامبل، موازناً ملعقة الشاي في ضرب من الوقار الغَزِل زاده جلالاً على جلال. «من العبث الذي لا طائل تحته أن نخفي الحقائق، يا سيدتي. إني لأتوق إلى إغراق مثل هذا الحيوان بيديّ الاثنتين، وفي سرور بالغ.»

فقالت المديرة في حرارة، وهي تبسط يدها لكي تتناول كوب الشماس: «وإذن فأنت رجل قاس، وإلى هذا فأنت رجل متحجر القلب أيضاً.»

فقال مستر بامبل: «متحجر القلب، يا سيدتي؟ متحجر؟» وأفلت مستر بامبل كوبه من غير أن ينطق بأية كلمة إضافية. وضغط على خنصر مسز كورني فيما كانت تتناول الكوب منه. وبعد أن ربَّت براحة يده على صدرته الموشاة تربيتتين اثنتين أطلق زفرة عميقة، وأبعد كرسيه عن نار المستوقد.

كانت مائدة مستديرة. وإذْ كانت مسز كورني ومستر بامبل جالسين على نحو متقابل وليست تفصل بينهما غير شِقة يسيرة، وإذ كان مجلِسهما على مقربة من النار ففي ميسور القارئ أن يرى أن مستر بامبل، في ابتعاده عن النار ولكن من غير أن يفارق المائدة، إنما وسَّع الشقة الفاصلة بينه وبين مسز كورني. وهو صنيع لا بدَّ أن يميل بعض القُراء المتميزين بالحصافة إلى الإعجاب به واعتباره عملاً ينطوي على بطولة عظيمة من جانب مستر بامبل: الذي ألفى نفسه مُغْرى على نحو ما، بحكم الزمان والمكان والفرصة المتاحة، بأن ينطق ببعض السفاسف الرقيقة التي مهما تكن لائقة بشفاه الخُلَعاء الطياشين فإنها تبدو متنافرة مع وقار القضاة، وأعضاء البرلمان، ووزراء الدولة، ومحافظي المدن، وغيرهم من كبار الرجال الرسميين، وتبدو أشدَّ تنافراً على نحو أخص مع مهابة الشمامسة

ورزانتهم، الشمامسة الذين يتعيَّن عليهم (كما هو معروف) أن يكونوا أكثر أولئك الرجال تجهُّماً وحُروناً.

بيد أنه أياً ما كانت نيات مستر بامبل (وليس من ريب في أنها كانت من النوع الأفضل) فقد اتفق لسوء الطالع، كما لاحظنا مرتين من قبل، أن المائدة كانت مستديرة. وهكذا فإن مستر بامبل، بإقصائه كرسيَّه شيئاً فشيئاً، سرعان ما بدأ في تقصير المسافة الفاصلة بينه وبين المديرة. وإذْ واصَل الرحلة حول حافة الدائرة الخارجية فقد انتهى بكرسيه آخر الأمر إلى مقربة من تلك التي استوت عليها المديرة. والواقع أن الكرسيين تماسَّا. حتى إذا تمَّ ذلك كفَّ مستر بامبل عن الدوران.

والآن، لو أن المديرة اتجهت بكرسيها يمنة إذن للذعتها النار. ولو أنها اتجهت به يسرة إذن لسقطت في ذراعي مستر بامبل. وهكذا (ولما كانت مديرة حصيفة، ولما كانت قد أدركت، بثاقب رأيها، هذه العواقب، للوهلة الأولى) فقد لزمت مكانها لا تريم، وقدمت إلى مستر بامبل كوب شاي آخر.

ـ «متحجر القلب، يا مسز كورني؟» قال مستر بامبل ذلك، وهو يحرك الشاي ويرنو إلى وجه المديرة. «هل أنتِ متحجرة القلب، يا مسز كورني؟»

فهتفت المديرة: «يا إلهي! يا له من سؤال جدّ غريب من رجل عَزب! لماذا تريد أن تعرف، يا مستر بامبل؟»

وشرب الشماس شايَه حتى الثمالة. وأتى على قطعة من الخبز المحمَّص. ونفض الفتات عن ركبتيه، ومسح شفتيه. وفي كثير من الروية، قبَّل المديرة.

ـ «مستر بامبل!» كذلك قالت السيدة الحصيفة، في نبرة مهموسة. فقد كان الذعر الذي استبد بها عظيماً إلى حدّ غار معه صوتها فهو لا يكاد يُسْمع. «مستر بامبل، سوف أصرخ!» ولم يُجِب مستر بامبل بشيء، بل طوّق خصر المديرة بذراعيه، على نحو متَّئد مفعم بالوقار.

وإذ كانت السيدة قد عبَّرت عن اعتزامها أن تفزع للصراخ، فقد كان خليقاً بها طبعاً أن تصرخ إزاء هذه الوقاحة الإضافية، ولكن قرعاً متعجلاً على الباب سرعان ما جعل ذلك الجهد أمراً غير ضروري البتة. والواقع أن مستر بامبل لم يكد يسمع ذلك القرع حتى وثب في خفة بالغة إلى زجاجتي الخمر، وشرع ينفض عنهما الغبار في عنف بالغ، بينا تساءلت المديرة في صوت حادّ: «مَنْ بالباب؟» وجديرٌ بالملاحظة، كمثل ماديّ غريب على فعالية المباغتة العنيفة في الحدِّ من آثار الخوف المتطرف وموازنتها، أن صوت مسز كورني كان قد استعاد كامل خشونته الرسمية استعادة تامة.

وقالت فقيرة عجوز ذاوية، ذات وجه بشع إلى حد مخيف، وهي تطل برأسها من وراء الباب: «عفواً يا سيدتي. إن «سالي» العجوز تسير نحو الموت في خطى حثيثة.»

فسألتها المديرة في غضب: «حسن، وما علاقتي بذلك؟ أنا لا أستطيع إبقاءها على قيد الحياة، هل أستطيع؟»

فأجابتها العجوز: «لا، لا، يا سيدتي. ليس في مستطاع أحد أن يفعل ذلك. لقد فات أوان إسداء العون إليها. إني قد رأيت كثيراً من الناس يموتون ـ وفيهم أطفال صغار ورجال كبار أشدّاء ـ وأنا أعرف متى يدنو الموت معرفة جيدة. ولكنها مهتاجة النفس. وحين تزايلها النوبات ـ وهو أمرٌ نادر جداً، لأن الموت يجور عليها في قسوة ـ تقول إن لديها شيئاً تريد أن تفضي به، ويجب أن تسمعيه أنت. إنها لن تموت مطمئنة النفس ما لم تذهبي لسماع ما ترغب في قوله، يا سيدتي.»

وبعد هذا النبأ، أطلقت مسز كورني الفاضلة، في غمغمة مبهمة، صنوفاً من الشتائم الموجهة إلى أولئك النسوة العجائز اللواتي لا يستطعن أن يمتن، أجل أن يمتن، من غير أن يزعجوا، عامدين متعمدين، مَنْ يفوقونهم قدْراً ومكانة. ثم إنها تدثرت بشال غليظ تناولته في تعجُّل بالغ، وسألت مستر بامبل، في إيجاز، أن يلبث ريثما تعود، خشية أن يحدث أيما شيء استثنائيّ. وأصدرت أمرها إلى المرأة العجوز بأن توسع الخطى،

وأن لا تتعثر طوال الليل فوق درجات السلم، وغادرت الحجرة خلفها، مكفهرة الوجه، وهي تدمدم معنِّفة على نحو موصول.

والواقع أن سلوك مستر بامبل حين خُلِّف وحيداً ممتنع على التفسير أو يكاد. لقد فتح الخزانة، وعدّ ملاعق الشاي، ووراز ملاقط السكَّر، وأنعم النظر في آنية حليب فضية ليستوثق أنها مصنوعة من المعدن الأصيل. حتى إذا أشبع فضوله في ما يتصل بهذه الأشياء، اعتمر بقبعته المقرنة اعتماراً منحرفاً بعض الشيء، ورقص حول المائدة، في كثير من الوقار، مطوِّفاً بها أربع مرات متميِّزات. وبعد أن تم له أداء هذا الصنيع الاستثنائي إلى أبعد الحدود، نزع قبعته المقرَّنة من جديد، واضطجع على مقربة من النار، مُولِّياً إياها ظهره، وبدا وكأنه مستغرق، عقلياً، في القيام بجَرْد دقيق لأثاث الحجرة.

الفصل الرابع والعشرون

وهو يعالج موضوعاً هزيلاً جداً. ولكنه فصل قصير، وقد يجده القارىء ذا شأن في هذه القصة

إن المرأة التي عكَّرت صفو حجرة المديرة لم تكن نعيّاً(*) غير مؤهلة لأداء هذه الرسالة. كان ظهرها محنياً بالشيخوخة، وكانت أوصالها ترتعد بالفالج الجزئي، وكان وجهها ـ الملتوي بابتسامة بلهاء مُتمتمة ـ يشبه صورة من الصور القبيحة المرسومة بريشة تائهة أكثر مما يشبه وجهاً من صنع يد الطبيعة.

واأسفا! ما أندر وجوه البشر الطبيعية التي تُتْرك وشأنها لكي تبهجنا بجمالها! إن هموم العالم وأحزانه وميوله لتغيِّرها كما تغيِّر الأفئدة. ولا تنجاب هذه السحائب المضطربة الكدِرة لينجلي وجه السماء إلا بعد أن

(*) النعي: من يأتي بخبر الموت.

ترقد تلك الانفعالات وتفقد سلطانها إلى الأبد. وإنه لمن عادة أسارير الموتى، حتى في تلك الحالة الثابتة المتصلبة، أن تستعيد انطباعة الطفولة الغافية، هذه الانطباعة المنسية منذ عهد بعيد، وتستقرّ على طَلْعة الصبا الأول. إنها تعود من جديد هادئة جداً، وادعة جداً، بحيث لا يتمالك أولئك الذين عرفوها في طفولتها السعيدة عن الركوع إلى جانب النعش في ذعر، متوهمين أنهم يرون الملاك على الأرض نفسها.

واتخذت العجوز سبيلها، مترنحة، عبر الأروقة، وفوق درجات السلم، مغمغمة بردود مبهمة على تعنيفات رفيقتها. حتى إذا اضطرت آخر الأمر إلى التريُّث ريثما تسترد أنفاسها، ناولتها الشمعة وتخلَّفت لتعاود اللحاق بها عندما تقوى على ذلك. في حين مضت تلك الرفيقة الأسمى منها مكانة، والأرشق خطى، إلى حجرة المرأة المحتضرة.

كانت تلك الحجرة عِلِّية عارية، أضيء في طرفها الأقصى مصباحٌ باهت النور. وكانت عجوز أخرى تحيي الليل إلى جانب السرير. على حين كان غلام الصيدلية الأبرشانية الممهَّن يقف على مقربة من النار، وفي يده ريشة طير كبيرة راح يصنع منها عوداً لنكش الأسنان.

ـ «إنها ليلة باردة، يا مسز كورني،» كذلك قال هذا السيد الشاب عندما وفدت المديرة.

فأجابته رئيسة الملجأ بلهجتها الأشد كياسة، وهي تحني رأسها في احترام: «إنها جدّ باردة، حقاً، يا سيدي.»

وقال ممثل الصيدلية، كاسراً بالمحراك الصدئ جمرة كانت في أعلى النار: «يتعيَّن عليكم أن تطلبوا من متعهِّديكم فحماً حجرياً أفضل. إن هذا النوع من الفحم لا يصلح البتة لهذه الليالي الباردة.»

فأجابت المديرة: «إن اللجنة اختارته. إن أقل ما يستطيع هؤلاء السادة أن يفعلوه هو أن يتيحوا لنا تدفئة حسنة، لأن جوّ إقليمنا قاس جداً.»

وهنا قطعت المرأة المحتضرة ذلك الحديث بأنَّة أطلقتها.

وقال الفتى ملتفتاً نحو السرير، وكأنه كان قد نسي المريضة نسياناً كاملاً: «أوه! لقد انتهى كل شيء، هنا، يا مسز كورني!»

فسألته المديرة: «أحقّ ما تقول، يا سيديّ؟»

فقال غلام الصيدلية الممهَّن، وهو يحدِّق إلى رأس عُوْد الأسنان: «إذا عاشت ساعتين أخريين فعندئذ يكون من حقي أن أدهش. ذلك انهيارٌ للجهاز برمَّته. هل هي نائمة، أيتها السيدة العجوز؟»

فانحنت العجوز الملازِمة للمحتضَرة فوق السرير لكي تتأكد من ذلك. ثم هزت رأسها بالإيجاب.

فقال الشاب: «إذن، فربما لفظت أنفاسها على هذا النحو، إذا لم تُحْدثا أية ضجة. ضعي المصباح على الأرض. إنها لن تراه هناك.»

وفعلت العجوز الملازِمةُ ما أمرتْ به، هازّة رأسها خلال ذلك وكأنها تُلمع إلى أن المرأة لن تموت بمثل هذه السهولة كلها. حتى إذا تمّ لها ذلك استعادت مقعدها إلى جانب الممرضة الأخرى التي كانت الآن قد عادت. أما رئيسة الملجأ فتدثرت بشالها، وعلى وجهها إمارات الضيق ونفاد الصبر، وقعدت عند قدم السرير.

حتى إذا أنجز غلام الصيدلية الممهَّن صنع عود الأسنان تَمرْكز تجاه النار، وأفاد من تلك الأداة إفادة صالحة دامت عشر دقائق أو نحوها. وعندما داخلَهُ السأم، في ما يبدو، بعض الشيء، تمنى لمسز كورني الاستمتاع بمهمتها، وانسحب على رؤوس أصابعه.

وبعد أن قعدت العجوزان معتصمتين بالصمت فترة من الزمان نهضتا ونأتا بنفسيهما عن السرير، وجثمتا قرب نار المستوقد، ثم بسطتا أيديهما الذاوية التماساً للحرارة. وألقت النار على وجهيهما المتغضنين سيماء شبَحية، وجعلت بشاعتَهما رهيبة المظهر، بينا راحتا ـ وهما في ذلك الوضع ـ تتحادثان في صوت خفيض.

وسألتها العجوز التي حملت الرسالة إلى مسز كورني: «هل قالت شيئاً إضافياً، يا عزيزتي آني، في أثناء غيابي؟»

فأجابتها الأخرى: «لم تقل أية كلمة. لقد خدشت ذراعيها وحاولت تمزيقهما فترة قصيرة من الزمان. ولكني أمسكت بيديها، وسرعان ما أخلدت إلى السكينة. إنها خائرة القوى، وهكذا استطعت السيطرة عليها في سهولة. أنا لست أضعف من أن أتغلب على امرأة عجوز، برغم أني أعيش على جراية الأبريشية، لا، لا.»

فسألتها الأولى: «هل شَرِبتْ الخمر الحارة التي قال الطبيب إن عليها أن تعالج بها؟»

فأجابتها الأخرى: «لقد حاولتُ أن أجرّعها إياها. ولكن أسنانها كانت مُحْكَمة الإطباق، ولقد تشبَّثت بالكوز بيد متشنجة تشبثاً شديداً إلى درجة اضطررتُ معها إلى استعمال كامل قوتي لانتزاعه منها. وهكذا كرعت أنا تلك الخمر. ولقد عادت عليّ بفائدة كبيرة!»

وبعد أن أجالت الشمطاوان بصريهما في ما حولهما، باحتراس وحذر، لكي تستوثقا أن أحداً لم يسمعهما، اقتربتا من نار المستوقد أكثر فأكثر، وضحكتا من صميم القلب ضحكاً مكبوتاً.

وقالت المتكلمة الأولى: «أنا أذكر ذلك العهد الذي كانت، في أثنائه، تفعل الشيء نفسه، ثم تسترسل في الضحك ساخرة.»

فقالت الأخرى: «آه، هذا صحيح. لقد كانت ذات فؤاد مرح. وما أكثر الجثث الجميلة التي كفَّنتها، فخرجت من بين يديها رائعة أنيقة مثل دمى من شمع. لقد رأت عيناي العجوزان تلك الجثث... أجل، ولقد لمستها هاتان اليدان العجوزان أيضاً. ذلك أني ساعدتها عشرات المرات.»

وفيما كانت تلك المخلوقة العجوز تتحدث بسطت أصابعها المرتعشة وهزتها أمام وجهها في ابتهاج وتهلل. ثم بحثت في بعض جيوبها وأخرجت علبة سعوط صفيحية عتيقة غيَّر تقادم العهد لونَها، وأخذت منها قبْصة وضعتها في راحة رفيقتها المبسوطة، وقبصة أخرى وضعتها في راحتها هي. وبينا كانتا منهمكتين في ذلك عادت المديرة ـ التي كانت تنتظر بفارغ صبر ريثما تفيق المرأة المحتضَرة من سباتها ـ فالتحقت بهنّ،

على مقربة من النار، وسألت في حدِّة حتَّام يتعيَّن عليها أن تنتظر.

فأجابتها المرأة الثانية وهي ترفع بصرها إلى وجهها: «فترة قصيرة ليس غير، أيتها الرئيسة. إن أياً منا لن ينتظر الموت طويلاً. صبراً! صبراً! إنه يفِدُ إلى هنا، وشيكاً، لزيارتنا جميعاً.»

فقالت المديرة في تجهم: «اخرسي، أيتها البلهاء الخرِفة! ولكن قولي لي أنتِ، يا مارتا، هل ألمّ بها شيء مثل هذا السبات من قبل؟»

فأجابتها المرأة الأولى: «أجل، مرات عديدة.»

فأضافت الأخرى: «ولكنه لن يلمّ بها مرّة أخرى أبداً. يعني أنها لن تفيق غير مرة واحدة... وانتبهي، أيتها الرئيسة، إن ذلك لن يدوم طويلاً!»

فقالت المديرة في فظاظة: «سواء أدام ذلك طويلاً أم قصيراً فإنها لن تجدني هنا عندما تفيق. ولتحاذر كل منكما بعد اليوم أن تزعجني لغير ما داع. فليس جزءاً من واجبي أن أشهد وفاة جميع عجائز الملجأ، وفوق هذا فإني أرفض ذلك. أسمعتما ما أقول، أيتها الشمطاوان الشريرتان الوقحتان؟ إذا حاولتما أن تخدعاني بعد اليوم سارعت إلى شفائكما من هذا الداء. كونا من ذلك على ثقة.»

وكانت تَطْفر مغادرة الحجرة عندما أطلقت المرأتان اللتان كانتا قد ارتدّتا نحو السرير، صيحة دَعَتْها إلى الالتفات. كانت المحتضرة قد انتصبت جالسة في سريرها، وكانت تبسط ذراعيها نحوهما.

لقد صاحت، في صوت غائر: «مَنْ هذه؟»

فقالت إحدى المرأتين، وقد انحنت فوقها: «هش! هش! اضطجعي، اضطجعي!»

فقالت المرأة مناضلة: «أنا لن أضطجع بعدُ، مرّة أخرى، وأنا على قيد الحياة! إني أريد أن أخبرها! تعاليْ إلى هنا! اقتربي أكثر! دعيني أهمس في أذنك.»

وأنشبت أصابعها في ذراع المديرة، وأكرهتها على الاستواء في كرسي على مقربة من السرير. وكانت على وشك أن تتكلم عندما أجالت طرفها في ما حولها فلمحت العجوزين الاثنتين منحنيتين في وضع كوضع من يُرْهف السمع.

وقالت المرأة على نحو ناعس: «أخرجيهما من هنا! عجِّلي! عجِّلي!»

وشرعت الشمطاوان تصبّان، في صوت واحد، ضروباً من كلمات اللوم المؤثِّرة، قائلتين إن العزيزة المسكينة كانت في حال من الذهول جعلتها أجْهَل من أن تعرف صديقاتها الفضليات. وكانتا تطلقان شتَّى الاحتجاجات زاعمتين أنهما لن تفارقاها البتة عندما دفعتهما الرئيسة إلى خارج الحجرة، وأوصدت الباب، وانقلبت إلى جانب السرير. وحين وجدت العجوزان أنهما أبعدتا، غيّرت كلتاهما لهجتها، وصاحت من ثقب الباب قائلة إن «سالي» العجوز نشوى. وهو شيء لم يكن في الواقع بعيد الاحتمال. إذ بالإضافة إلى جرعة معتدلة من الأفيون وصفَها لها الصيدلي، كانت رازحة تحت آثار جرعة نهائية من شراب الـ «جِن» قدَّمتها إليها العجوزان الفاضلتان، سرّاً، بدافع من سلامة نيَّتهما.

وقالت المرأة المحتضرة، في صوت عال، وكأنها تبذل جهداً كبيراً لنفخ الحياة في شرارة من الطاقة كامنة: «والآن، أصغي إليَّ. في هذه الحجرة بالذات... في هذا السرير بالذات... مرَّضت مرة مخلوقة صغيرة بهية الطلعة جيء بها ذات يوم إلى الملجأ وقد تقرحت قدماها وجُرحتا من طول المشي، ولُوِّث جسدها كله بالدم والغبار. لقد وضعت غلاماً ثم أسلمت الروح. دعيني أفكِّر... في أيّ عام كان ذلك؟»

فقالت المستمعة النافدة الصبر: «لا تشغلي نفسك بتذكُّر السنة. ماذا تريدين أن تخبريني عن تلك المخلوقة؟»

فغمغمت المرأة المحتضرة، عائدة سيرتها الأولى المتسمة بالنعاس والخدر: «آي، ماذا أريد أن أخبرك عنها؟ ماذا... أنا أدري» وهنا

صاحت، وقد وثبت في ضراوة، وشاع الدم في وجهها وكادت عيناها تخرجان من محجريهما: «لقد سلَبْتُها... أجل سلبتها! ولم تكن قد أمست جثة هامدة... أقول لك إنها لم تكن قد أمست جثة هامدة، عندما سرقت ذلك الشيء منها!»

فصاحت المديرة، وهي تومئ إيماءة من يعتزم أن يلتمس النجدة: «سرقتِ ماذا؟.. قولي إكراماً للَّه!»

ـ «ذلك الشيء!» هكذا أجابت المرأة، واضعة يدها على فم الأخرى: «الشيء الوحيد الذي كانت تملكه. لقد أرادت ثياباً تدفئها، وطعاماً تأكله. ولكنها حرصت على الاحتفاظ بذلك الشيء... على الاحتفاظ به في صدرها. لقد كان من ذهب، أقول لك! من ذهب خالص كان خليقاً به أن ينقذ حياتها!»

ـ «ذهب!» كذلك كررت المديرة منحنية في لهفة فوق المرأة التي استلقت على ظهرها. «تابعي... تابعي... نعم... ثم ماذا؟ من كانت الأم؟ متى كان ذلك؟»

فأجابت المرأة وهي تطلق أنَّة: «لقد عهدت إليّ في المحافظة عليها، ووثقت بي بوصفي المرأة الوحيدة التي وجدتها حولها. ولكني سرقتها بعقلي عندما أرتني إياها متدلية من عنقها. ومن يدري، فلعلي مسؤولة بالإضافة إلى ذلك عن موت الطفل! لقد كان خليقاً بهم أن يعاملوه معاملة أفضل، لو أنهم عرفوا كل شيء!»

فسألتها الأخرى: «لو عرفوا ماذا؟ تكلمي!»

فاسترسلت المرأة في حديثها، من غير أن تنتبه للسؤال: «وترعرع الطفل مُشْبهاً أمه شبهاً بعيداً إلى درجة جعلتني عاجزة عن أن أنساها كلما رأيت وجهه. يا للفتاة البائسة! يا للفتاة البائسة! لقد كانت ناضرة العود، أيضاً! كانت حملاً وديعاً إلى أبعد الحدود! انتظري، عندي مزيد من القول. أنا لم أخبرك بكل شيء، أليس كذلك؟»

ـ «لا، لا.» هكذا أجابت المديرة وهي تحني رأسها لكي تتلقَّف

الكلمات، فيما كانت تنطلق من شفتي المحتضَرة على نحو أشدّ ضعفاً ووهناً. «عجِّلي، وإلا فات الأوان!»

فقالت المرأة باذلة جهداً أعنف من ذي قبل: «إن الأم. . . إن الأم همست في أذني ـ عندما عانت أولى سكرات الموت ـ قائلة لي: «إذا قُدِّر لطفلي أن يولد حياً، وأن يعيش فقد يأتي يومٌ لن يستشعر فيه كثيراً من الخزي والعار كلما سمع اسم أمه الفتيَّة البائسة.» ثم أضافت طاوية ذراعيها المهزولتين: «أوه، أيتها السماء الكريمة! سواء أكان صبياً أم بنتاً أحيطيه ببعض الأصدقاء في هذا العالم المضطرب، ولتأخُذكِ الرأفة بطفل متوحِّد بائس أسلمته الأقدار لرحمة ذلك العالم!»

فسألتها المديرة: «وما اسم الغلام؟»

فأجابتها المرأة في وهن: «لقد سمَّوه أوليفر. إن الحلية الذهبية التي سرقتُها كانت. . .»

فصاحت الأخرى: «أجل، أجل، كانت ماذا؟»

كانت قد مالت على المرأة، في لهفة بالغة، لكي تسمع جوابها. ولكنها انكفأت، عندما نهضت المحتضرة من جديد، نهوضاً بطيئاً متصلباً، واتخذت وضْعاً قاعداً، ثم تشبثت بغطاء السرير بكلتا يديها، وغمغمت بأصوات مبهمة تردّدت في حنجرتها، وسقطت على الفراش ميتة.

* * *

وقالت إحدى العجوزين وقد هرعتا حالما فُتح الباب: «جثة هامدة!»

فلم يكن من المديرة إلا أن قالت وهي تنصرف في غير مبالاة: «ولم يكن لديها ما تقوله، على أية حال.»

وكانت الشمطاوان منهمكتين، في ما يبدو، في الاستعداد لواجباتهما الرهيبة، فلم تجيبا بأية كلمة. وهكذا خُلِّفتا وحدهما، وأنشأتا تحومان حول الجثمان.

الفصل الخامس والعشرون

حيث ترتد هذه القصة إلى مستر فاجين وجماعته

فيما كانت هذه الأحداث تجري في الملجأ الريفي، جلس مستر فاجين في الوكر العتيق ـ ذلك الوكر نفسه الذي سبق للفتاة أن نقلت أوليفر منه ـ وراح يتأمل بإزاء نار كليلة داخنة. كان قد وضع على ركبته منفاخاً حاول به، في ما يبدو، أن يذكي تلك النار. ولكنه كان قد استغرق في تفكير عميق: لقد طوى ذراعيه فوق المنفاخ. مسنداً ذقنه إلى ابهامَيْه، وثبَّت عينيه ـ في ذهول ـ على قضبان الموقد الصدئة.

وإلى مائدة خلفه جلس «المراوغ الماكر»، والمعلم تشارلي بايتس، ومستر تشيتلينغ، منكبِّين على لعب الورق. وكان «المراوغ الماكر» يلعب بالاشتراك مع زميل له موهوم ضد المعلم بايتس ومستر تشيتلينغ. وكان محيّا السيد الذي ذكرنا اسمه أولاً ـ وهو محيًّا يتسم دائماً بذكاء فريد ـ قد اكتسب مزيداً من الجاذبية بسبب من استغراقه البالغ في اللعبة، ومراقبته الواعية ليد مستر تشيتلينغ، هذه اليد التي راح يلقي عليها بين الفينة والفينة، تبعاً للفرصة المتاحة، ضروباً من النظرات الثاقبة، معدّلاً لعِبَهُ على أساس من ملاحظاته الخاصة بأوراق جاره. وإذ كانت الليلة قارسة، فقد اعتمر «المراوغ» بقبعته، جرياً على مألوف عادته داخل جدران المنزل. وكان فوق هذا يضغط بأسنانه على بيبة خزفية لم يكن ينزعها من موضعها ذاك إلا ريثما يبسط يده ـ كلما وجد ذلك ضرورياً ـ إلى حُقّ مليء بشراب الـ «جن» موضوع على المائدة ابتغاء الترفيه عن الجماعة.

وكان المعلم بايتس يولي اللعبة عنايته أيضاً. بيد أنه كان ذا مزاج أشدّ حدة من صديقه الموهوب، ومن هنا كان في ميسور المرء أن يلاحظ أن لجوءه إلى الشراب تواتَر على نحو بزّ فيه ذلك الصديق، وأنه كثيراً ما كان يعمد إلى إرسال النكات والملاحظات غير المتصلة بموضوع اللعب، وكلها أشياء لا تليق بسارق متمرس بقواعد الصناعة. والواقع أن «المراوغ

الماكر» اغتنم الفرصة غير مرة ـ استناداً إلى ما بينهما من مودّة وثيقة ـ فناقش صديقَهُ محتجاً على هذه الأعمال غير اللائقة. فكان المعلم بايتس يتلقى هذه الاحتجاجات كلها في ارتياح وطِيْب نفس، مكتفياً بمجرد دعوة صديقه للذهاب إلى حيث «يُطَيِّر» دماغه من رأسه، أو لوضع ذلك الرأس في كيس. أو كان يردّ عليها بمُلَح مماثلة مصوغة في قالب أنيق... مُلح كان اصطناعها البهيج يثير في نفس مستر تشيتلينغ إعجاباً عظيماً. ومن الطريف أن نلاحظ أن مستر تشيتلينغ هذا وشريكه خسرا على نحو موصول. ولم تُغْضب هذه الواقعة المعلم بايتس، بل بدت وكأنها تزوّده بمتعة ما بعدها متعة، إذ كان ينفجر في ضحك مدوٍّ عند نهاية كل دور، ويعلن أنه لم يشهد ـ طول الأيام التي عاشها حتى تلك اللحظة ـ لعباً أدعى إلى إبهاج النفس من هذا اللعب.

وأخيراً أعلن مستر تشيتلينغ، مكفهرّ الوجه، هزيمته، وأخرج من جيب صدرته نصف ريال، وقال: «أنا لم أرَ في حياتي فتى مثلك، يا جاك. أنت تكسب كل شيء. وحتى حين يكون معي ومع تشارلي ورق جيد فإننا نعجز عن الإفادة منه.»

وابتهج تشارلي بايتس بهذه الملاحظة ـ سواء أكان مردّ ذلك إلى مادتها أو إلى لهجتها ـ ابتهاجاً بالغاً إلى درجة جعلت انفجاره التالي بالضحك يُوقظ اليهودي من شروده الذهني، وأغرته بالتساؤل عما يجري.

فصاح تشارلي: «ما يجري، يا فاجين؟! لشدّ ما أتمنى لو استطعت أن تشاهد اللعب. إن تومي تشيتلينغ لم يكسب نقطة واحدة، وكنت أنا شريكه في اللعب ضد «المراوغ» وشريك موهوم.»

فقال اليهودي، في ابتسامة عريضة أظهرت في وضوح أنه لم يَغْفل عن فهم السبب: «أجل، أجل! جرِّب مرّة أخرى، يا توم، جرِّب مرّة أخرى.»

فأجابه مستر تشيتلينغ: «أما أنا فلن أجرب مرّة أخرى. أقول ذلك مع تقديم شكري إليك، يا فاجين. لقد لعبت لعباً كافياً. إن هذا «المراوغ»

يملك من الحظ السعيد ما يجعل الصمود في وجهه أمراً مستحيلاً.»

فقال اليهودي: «ها! ها! يا عزيزي. إن عليك أن تفيق في ساعة جِدّ مبكرة من الصباح لكي تغلب المراوغ.»

فقال تشارلي بايتس: «الصباح! إن عليك أن تنتعل حذاءك العالي الساق طوال الليل، وتزوّد كل عين من عينيك بتلسكوب، وتضع منظار أوبِّرا بين كتفيك إذا أردت أن تغلبه.»

وتلقى مستر داوكنز هذا المديح السخي في كثير من الفلسفة، وأعلن لأفراد الجماعة أنه مستعد لملاعبتهم لعبة تمكِّن كل من يسحب أول ورقة مصوّرة من الفوز في كل مرة بشلن واحد. ولم يقبل أحدٌ هذا التحدي. وإذا كان قد استهلك، الآن، تبغ بيبته كله فقد راح يسلّي نفسه برسم مخطط أرضي لسجن نيو غايت على الطاولة، بقطعة الطباشير التي كانت قد خدمته بدلاً من العدّادات، صافراً في غضون ذلك بمرح فريد.

ـ «ما أروع الكآبة التي ترين على وجهك، يا تومي!» كذلك قال «المراوغ» منقطعاً عن رسمه وصفيره فجأة بعد أن ساد صمت طويل، وموجهاً الخطاب إلى مستر تشيتلينغ. «بأي شيء تحسبه يفكِّر، يا فاجين؟»

فأجابه اليهودي، ملتفتاً من غير أن يكف عن أعمال المنفاخ: «ومن أين لي أن أعلم، يا عزيزي. لعله يفكِّر في خسائره، أو في الخلوة الريفية الصغيرة التي فارقها منذ قريب، إيه؟ ها! ها! أليس هذا صحيحاً، يا عزيزي؟»

ـ «لا، ليس فيه ذرة من الصحة،» كذلك أجابه «المراوغ» وغيَّر موضوع الحديث فجأة، فيما كان مستر تشيتلينغ على وشك أن يجيب. «ما قولك أنت، يا تشارلي؟»

فأجابه المعلم بايتس في ابتسامة عريضة: «أنا أقول إنه مغرم بـ «بيتسي». انظر إلى وجهه كيف يشيع الدم فيه! أوه، يا إلهي! ههنا متسكِّع مرح هائم على وجهه! تصوّرْ تومي تشيتلينغ وقد تيَّمه الحب! أوه، يا فاجين، هذا مضحك حقاً!»

ولم يستطع المعلم بايتس أن يتصور مستر تشيتلينغ ضحية عواطف رقيقة فاستبدت به نوبة من الضحك جعلته يستلقي في كرسيه في عنف عظيم أفقده توازنه فانطرح على الأرض، حيث تمدّد (من غير أن ينقص ذلك الحادث من مرحه مثقال ذرة) على طوله حتى خمدت نوبة ضحكِهِ، وحيث استعاد وضعه السابق واستغرق في الضحك من جديد.

وقال اليهودي وهو يغمز مستر داوكنز وينقر المعلم بايتس نقرة تأنيبية بخطْم منفاخه: «لا تأبه لما يقول، يا عزيزي. بيتسي فتاة رائعة. فتعلَّق بها، يا توم! تعلّق بها!»

فأجابه مستر تشيتلينغ وقد تضرج وجهه بالدم: «ما أريد أن أقوله، يا فاجين، هو أن هذا كلام لا يصدقه أحدٌ هنا.»

فقال اليهودي: «تلك هي الحقيقة. إن تشارلي فتى ثرثار. فلا تأبه لقوله. بيتسي فتاة رائعة. افعل ما تأمرك به، يا توم، تصبح ذا ثروة طائلة.»

فأجابه مستر تشيتلينغ وقد تضرج وجهه بالدم: «ما أريد أن أقوله، يا فاجين، هو أن هذا كلام لا يصدقه أحدٌ هنا.»

فقال مستر تشيتلينغ: «وإني لأفعل كل ما تأمرني به حقاً. لقد كنت سأدخل السجن لو تصاممت عن نصائحها. ولكن ذلك كان في صالحك آخر الأمر، أليس كذلك يا فاجين! وأية قيمة لأسابيع ستة يقضيها المرء في السجن؟ لقد كانت أمراً محتوماً إن لم يقع اليوم وقع غداً، فلم لا يكون ذلك في فصل الشتاء حين يكره الواحد منا الإسراف في الانطلاق إلى الشوارع والتسكع فيها. أليس كذلك، يا فاجين؟»

فأجابه اليهودي: «آه، من غير ريب، يا عزيزي.»

فسأله «المراوغ» غامزاً تشارلي واليهودي: «وأنت لن تجد في ذلك أي بأس، يا توم، إذا ما حدث مرّة أخرى، وكانت «بيت» راضية عنك؟»

فأجابه توم مغضباً: «تماماً، أنا أريد أن أعلن أني لن أجد في ذلك أي بأس. ثم ماذا؟ إني أحب أن أعرف من منكم يستطيع أن يقف مثل هذا الموقف، يا فاجين!»

فأجابه اليهودي: «ليس فيهم من يقف مثل موقفك ذاك، يا عزيزي. أقول لك، يا توم، إني لا أعرف أن فيهم من يقف مثل هذا الموقف غيرك. كن على ثقة من هذا، يا عزيزي.»

فتابع الفتى الغِر الأبله المسكين كلامه مغضباً: «لقد كان الأجدر أن أنقذ نفسي لو خنتُ عهدها، أليس كذلك يا فاجين؟ كلمة واحدة مني كانت كافية لذلك، أليس هذا صحيحاً يا فاجين؟»

فأجابه اليهودي: «إنه صحيح من غير ريب، يا عزيزي.»

فسأله توم، مردفاً السؤال بالسؤال في ذلاقة لسان بالغة: «ولكني لم أش بها، أليس كذلك يا فاجين؟»

فأجابه اليهودي: «لا، لا، من غير ريب، لقد كان فؤادك مفعماً بالشجاعة إلى حدّ لم يسمح لك بذلك. أجل، كان مفعماً بالشجاعة أكثر مما ينبغي، يا عزيزي!»

فقال توم مجيلاً طرفه في ما حوله: «ربما كنت كذلك. وحتى لو صحّ هذا فهل تجد فيه ما يدعو إلى الضحك، يا فاجين؟»

كان اليهودي قد لاحظ أن الحنق استبدّ بمستر تشيتلينغ، فراح يؤكد له، في غير إبطاء، إن أحداً لم يكن يضحك. ولكي يقيم الدليل على وقار الجماعة التمس شهادة المعلم بايتس، المذنب الرئيسي. ومن أسف أن تشارلي لم يكد يفتح فمه ليقول إن الجِد لم يغلب عليه أكثر مما غلب في تلك اللحظات عتى عجز عن كبح جماح ضحكة هادرة انطلقت من بين شفتيه، فإذا بمستر تشيتلينغ المضطهد يندفع عبر الحجرة، على نحو مباغت بالكلِّية، ويسدِّد لكمة إلى المجرم. ولكن هذا الأخير، وكان بارعاً في فن التملص، حنى رأسه ليجتنبها. والواقع أنه اختار أنسب اللحظات المساعدة على تحقيق غايته تلك فاستقرت اللكمة على صدر العجوز المرح فارتدّ مترنِّحاً حتى الجدار، حيث وقف لاهثاً لهاثاً شديداً، فيما كان مستر تشيتلينغ يرى هذا المشهد في ذعر شديد.

فصاح «المراوغ» في تلك اللحظة: «هش! لقد سمعت صوت الجرس.» وأمسك بالشمعة ورفعها عالياً، ثم انسلّ مرتقياً السلم في رفق.

وقُرع الجرس مرّة أخرى، في شيء من نفاد الصبر، فيما كانت الجماعة في غمرة من الظلام. وبعد فترة قصيرة، رجع «المراوغ»، وهمس في أذن اليهودي في سرّية بالغة.

فصاح اليهودي: «ماذا! وحده؟»

وهزّ «المراوغ» رأسه أن نعم. ثم ظلل ضوء الشمعة بيده، وألمع إلى تشارلي بايتس إلماعة خصوصية، من طريق الإيماء الأبكم، أن من الخير له أن يكفّ عن المزاح الآن على الأقل. حتى إذا أدَّى هذه المهمة الودية ركَّز عينيه على وجه اليهودي، وانتظر أوامره وتعليماته.

وعض العجوز أصابعه الصفر واستغرق في التفكير بضع لحظات. كان وجهه يرتعد، من جراء الاهتياج، على نحو موصول، وكأنه خشي شيئاً وخاف أن يعرف الأسوأ. وأخيراً رفع رأسه وسأل: «أين هو؟»

فأشار «المراوغ» إلى الطابق العلوي، وأومأ إيماءة تساءل بها، في ما يبدو، هل في استطاعته أن يغادر الحجرة.

فقال اليهودي، جواباً عن السؤال الصامت: «نعم، أنزله إلى هنا، هش، إلزم الهدوء يا تشارلي! برفق، يا توم! اذْهبا! اذْهبا!»

وسرعان ما نُفِّذ هذا الأمر الموجه إلى تشارلي بايتس وإلى خصمه السابق، في هدوء بالغ. ولم يكن ثمة أيما صوت ينمّ عن مكانهما عندما هبط «المراوغ» السلم، حاملاً الشمعة في يده، يتبعه رجل مُرتد قميصاً قطنياً فضفاضاً خشناً... رجلٌ لم يكد يلقي نظرة عجلى حول الحجرة حتى نزع شالاً ضخماً كان يخفي الجزء الأدنى من وجهه، كاشفاً عن ملامح شاحبة، وسخة، غير محلوقة... هي ملامح توبي كراكيت بالذات.

وقال هذا الفاضل وهو ينحني احتراماً لليهودي: «كيف حالك، يا فاجي؟ أرهُنْ، أيها «المراوغ» هذا الشال في قبعتي المصنوعة من جلد

السمُّور، لكي أعرف أين أجده حين أغيب. هذا رائع! سوف تصبح لصاً صغيراً حاذقاً، ولسوف تتفوق على الماكر العجوز في يوم من الأيام.»

قال هذا ورفع ذيل قميصه القطني الفضفاض، وعقده حول خصره، ثم استوى في كرسي على مقربة من النار، ووضع قدميه على رف الموقد.

ـ «انظر، يا فاجي،» كذلك قال وهو يشير في اكتئاب إلى حذائه العالي الساق. «إنه لم يذق قطرة واحدة من دهن التلميع منذ اليوم الذي تعرف، ولم يعرف ذرة من الصقل، وحق الرب! ولكنْ لا تنظر إليّ هكذا، أيها الرجل. لكل شيء أوانه. أنا لا أستطيع أن أتحدث عن شؤون العمل إلا بعد أن آكل وأشرب. أحضِرْ، إذن، الغداء، ودعني أملأ معدتي بالطعام، في كثير من الهدوء، للمرة الأولى خلال هذه الأيام الثلاثة.»

وأومأ اليهودي إلى «المراوغ» بأن يضع على المائدة ما لديه من أشياء صالحة للأكل، وقعد قبالة سارق البيوت، وانتظره حتى يفرغ.

ولم يكن توبي ـ على ما يُستفاد من المظاهر كلها ـ راغباً في استهلاك الحديث على جناح السرعة. واجتزأ اليهودي بادئ الأمر بتأمُّل وجهه، وكأنه أراد أن يستطلع من انطباعاته ماهيَّة النبأ الذي كان يحمله. ولكن محاولته تلك كانت عبثاً لا طائل تحته. لقد بدا متعباً منهوك القوى، ولكن ملامحه اتَّسمت بتلك الرصانة اللطيفة التي غلبت عليها دائماً. ومن خلال الوسخ، واللحية، والسالفين أشرقت ابتسامة توبي كراكيت، المرح، المعهودة الراضيةُ نفسُها، سليمة لم تُصَب بأذى. عندئذ أخذ اليهودي، وقد مزقه نفاد الصبر، يراقب كل لقمة أقحمها فمَهُ، وهو يذرع الحجرة في غضون ذلك جيئة وذهاباً باهتياج ممتنع على الكبح. ولكن ذلك كله لم يُجدِه شيئاً، فقد واصل توبي الأكل في لامبالاة كليَّة ظاهرة حتى أتْخِم. وعندئذ أمر «المراوغ» بمغادرة الحجرة، وأوصد الباب، ومزج شيئاً من الماء والخمر، وتأهب للكلام.

وقال توبي: «قبل كل شيء يا فاجي...»

فقاطعه اليهودي وهو يُدني كرسيه: «أجل! أجل!»

وكفّ مستر كراكيت عن الكلام ليأخذ جرعة من الخمر، وليعلن أن الـ «جن» كان ممتازاً. ثم أسند قدميه إلى رف المدفأة الخفيض، بحيث رفع حذاءه إلى مستوى عينيه، واستأنف حديثه في هدوء:

ـ «قبل كل شيء، يا فاجي، كيف بيل؟»

فصاح اليهودي واثباً من كرسيه: «ماذا؟»

وقال توبي وقد ران الشحوب على وجهه: «ولكنك لا تقصد أن تقول...»

ـ «أن أقول ماذا؟» كذلك صاح اليهودي وهو يضرب الأرض بقدمه في ضراوة. «أين هما؟ سايكس والغلام؟ أين هما؟ أين كانا؟ أين يختبئان؟ لماذا لم يرجعا إلى هنا؟»

فقال توبي في وهن: «لقد أخفقت عملية السطو.»

فأجابه اليهودي، وهو ينتزع من جيبه جريدة ويشير إليها: «أنا أعرف ذلك. وماذا بعد؟»

ـ «لقد أطلقوا النار فأصابوا الغلام. واجتزنا الحقول الواقعة خلف البيت، وهو يجري بيننا ـ في خط مستقيم ـ عبر الأسيجة والحُفَر. لقد تعقَّبونا. يا للشيطان! واستفاق أهل المنطقة كلهم، وأطلقوا الكلاب في أعقابنا.»

ـ «والغلام؟»

ـ «لقد حمله بيل على ظهره، وانطلق انطلاق الريح. ووقفنا لكي نحمله بين كتفينا نحن الاثنين، وكان رأسه متدلياً، وكان جسده كله بارداً. وكان المطاردون قد اقتربوا منا، كلٌ لمصلحته الشخصية، وكلٌ من أجل المشنقة! وانفصلت عن بيل، وتركنا الغلام ملقى في حفرة. أهو حيّ أم ميت؟ ذلك ما لا أدريه.»

ولم ينتظر اليهودي لكي يسمع شيئاً إضافياً. بل أطلق صيحة مدوِّية، وراح يشد شعره بيديه، ثم اندفع كالمجنون مغادراً الحجرة والبيت جميعاً.

الفصل السادس والعشرون

وفيه تظهر على المسرح شخصية تكتنفها الأسرار، وتتم أشياء وتنجز أعمال ذات صلة وثيقة بهذه القصة.

كان الرجل العجوز قد بلغ زاوية الشارع قبل أن يشرع في التحرر من الأثر الذي خلَّفه في نفسه حديث توبي كراكيت. ولم يكن قد خفف سرعته الاستثنائية البتة، بل كان يواصل اندفاعه، على النحو المجنون المضطرب نفسه، عندما مرّت به ـ فجأة ـ عربة منطلقة بأقصى سرعتها. ورأى المشاة الخطر المحدق به، فأرسلوا صيحة صاخبة ردّته إلى الرصيف. لقد اجتنب، جهد طاقته، الشوارع الرئيسية، وراح ينسلّ خلال الأزقة والطرق الفرعية ليس غير، فانتهى آخر الأمر إلى «سنو هيل». وهنا أغذَّ السير، في خطى أوسع حتى من خطواته السابقة، ولم يتمهل إلا بعد أن انعطف نحو زقاق ضيق. لكأنه استشعر أنه أمسى الآن في بيئته، فعاود السير بخطاه المتثاقلة المألوفة، وبدا وكأنه يتنفس في حرية أعظم.

وعلى مقربة من البقعة التي يلتقي عندها «سنو هيل» و«هولبورن هيل» يمتد على يمينك وأنت خارج من لندن زقاق ضيق موحش يفضي إلى «صافرون هيل». هناك في الدكاكين القذرة تعرض للبيع رزم ضخمة من المناديل الحريرية المستعملة من مختلف القياسات والأنماط. فهناك كان يقيم التجار الذين يشترونها من النشالين. كانت مئات من هذه المناديل تتدلى من أوتاد قائمة خارج الواجهات أو تُعْرض في وقاحة على جوانب الأبواب، وكانت مئات أخرى مكدّسة على الرفوف في داخل الدكاكين. وعلى الرغم من ضيق مساحة «فيلد لين» فقد كان له حلاقُهُ، ومقهاه، وحانتُهُ، ودكانه الخاص ببيع السمك المقليّ. إنه مستعمرة تجارية مستقلة بذاتها، وبكلمة أخرى سوقٌ للسلع الصغيرة المسروقة يقصدها في الصباح الباكر وعند هبوط العتمة تجار صامتون يبيعون ويشترون في حجرات خلفية مظلمة. وينصرفون على نحو مريب كما أقبلوا. هنا يعرض بائع

الأقمشة، والأسكاف، وتاجر الخرق بضائعهم لكي يلفتوا انتباه اللصوص الصغار. وهنا كانت أكداس من الحديد العتيق والعظام العتيقة، وأكوام من مِزق المنسوجات الصوفية والكتانية العفِنة تصدأ وتفسُدُ في الأقبية القذرة.

إلى هذا الموطن انعطف اليهودي. ولقد كان معروفاً لدى قاطني ذلك الزقاق الشاحبي الوجوه، بدليل أن كثيراً من أولئك القاطنين المترصدين لكل بائع أو مشترٍ حنوا رؤوسهم تحية له، في إلفة، عندما مرّ بهم، فردَّ لهم تحياتهم بمثلها، ولكنه لم يَجُدْ بمزيد من آيات المجاملة الدالّة على معرفة أوثق إلا عندما بلغ الطرف الأقصى من الزقاق، حيث وقف ليخاطب تاجراً قصير القامة كان قد حشر من جسمه في كرسيّ الأطفال كل ما استطاع الكرسي أن يستوعبه، وكان يدخن البيبة عند باب دكانه.

ـ «الواقع أن رؤيتك، يا مستر فاجين، لتشفي الرمد!» كذلك أجاب هذا التاجر الجليل على سبيل الشكر لليهودي الذي سأله عن صحته.

فقال فاجين رافعاً عينيه، ومصالباً يديه على كتفيه: «لقد كان الجو في حيكم حاراً أكثر مما ينبغي بعض الشيء، يا لايفلي.»

فأجاب التاجر: «حسناً، لقد سمعت هذه الشكوى من الجو مرة أو مرتين من قبل. ولكنه سرعان ما يأخذ في الطراوة. ألست تجده كذلك؟»

وهزّ فاجين رأسه أن نعم. ثم إنه أشار إلى ناحية «صافرون هيل» وتساءل ما إذا كان أحد مستيقظاً، هناك، الليلة.

فسأله الرجل: «في حانة المُقْعدين؟»

فهزّ اليهودي رأسه بالإيجاب.

فتابع الرجل، متفكراً: «دعني أرى. أجل، لقد دخل نصف دزينة منهم تقريباً، هذا ما أعرفه. أنا لا أظن أن صاحبك هناك.»

فسأله اليهودي مكفهر الوجه: «وسايكس ليس هناك، في ما أظن؟»

ـ «مجهول محل الإقامة، كما يقول المحامون» هكذا أجاب الرجل القصير، هازاً رأسه، وقد بدت إمارات المكر على وجهه إلى حدّ مذهل.

هل عندك، الليلة، شيء من الأصناف التي أشتغل بها؟»

فأجابه اليهودي وهو يبتعد: «لا، ليس عندي شيء الليلة.»

فصاح الرجل القصير، منادياً إياه: «أذاهب أنت إلى «حانة المُقْعدين»، يا فاجين؟ قف، إني لا أعترض على ترطيب جوفي بقطرة من الخمر أشربها معك!»

ولكن اليهودي لوّح بيده، وهو يلتفت إلى الوراء، وكأنه يقول إنه يؤثر الذهاب وحده. وإذْ عجز الرجل القصير، فوق ذلك، عن التملص من كرسيه في كثير من اليُسْر فقد حُرِمت لافتة «حانة المُقْعدين»، مؤقتاً، من تشريف مستر لايفلي. وما إن نهض على قدميه، حتى كان اليهودي قد توارى عن النظر. وهكذا، بعد أن وقف على رؤوس أصابعه في غير ما عَناء، رجاة أن يُدركه ببصره عاود إقحام نفسه في الكرسي الصغير، ثم تبادل هزّة رأس مع سيدة في الدكان المقابل ـ هزة رأس امتزج فيها الشك وسوء الظن امتزاجاً واضحاً ـ واستأنف تدخين بيبته وعلى وجهه كآبة.

وكانت حانة «المُقْعدين الثلاثة»، أو بالأحرى «حانة المقعدين» ـ وهو الاسم الذي اشتهرت به تلك المؤسسة عند زبائنها ـ هي الحانة التي سبق لنا أن رأينا فيها مستر سايكس وكلبه. وتقدّم فاجين نحو السلّم مباشرة، مجتزئاً بإيماءة وجَّهها إلى الساقي، ثم فتح باب إحدى الحجرات، وتسلَّل إليها، وراح يجيل طرفه في أرجائها، مظللاً ناظريه بيده، وكأنه يبحث عن شخص بعَيْنِهِ.

كانت الحجرة مضاءة بمصباحين من مصابيح الغاز. وكانت المصاريع المدعَّمة بمزاليج، والستائر الحمراء الناصلة المُسْدلة إسدالاً محكماً، تحول دون تسرّب ذلك الضوء إلى الخارج فليس في ميسور أحد أن يراه من هناك. وكان السقف قد دُهن بلون أسود لكي يصان من التلوث بلهب المصابيح. وكان المكان مفعماً بدخان تبغ كثيف إلى درجة تجعل الرائي لا يكاد يتبيَّن، بادئ الأمر، أيما شيء آخر. حتى إذا تسرّب بعض ذلك الدخان من خلال الباب المفتوح، أمسى في إمكانِهِ، شيئاً بعد شيء، أن

يلمح مجموعة من الرؤوس، مختلطة اختلاط الأصوات التي تستقبل أذنيه. وبعد أن تألف العين ذلك المشهد إلفة أكبر يصبح في ميسور الرائي أن يعي، على نحو تدريجي، وجود جماعة من الذكور والإناث تحلَّقت حول مائدة طويلة، جلس عند أقصاها الأعلى رئيس يحمل في يده مطرقة لحفظ النظام، بينا كان فنان ذو أنف ضارب إلى الزرقة، ووجه معصوب إكراماً لألم ضرس، جالساً إلى بيانو مُجلْجِل في زاوية قصيَّة.

ولم يكد فاجين يطأ أرض الحجرة في رفق حتى أمرَّ الفنان أصابعه على مفاتيح البيانو، على سبيل الاستهلال، وأطلق صيحة نظام عامة إيذاناً بأن أغنية سوف تُنْشَد. حتى إذا خمدت تلك الصيحة شرعت سيدة غضة الاهاب تطرب الجماعة بأغنية قصصية ذات أربعة مقاطع، كان مُصاحبها على البيانو يعزف، بين المقطع والمقطع، اللحن من أوله إلى آخره، وبأعلى نبرة وُفِّق إليها. وحين تمَّ ذلك شرب الرئيس نخباً تطوَّع الفنانون الجالسون إلى يمين الرئيس وشماله لغناء أنشودة من ذلك الضرب الذي ينشده فريقان، ولقد فعلا ذلك بنجاح كبير.

وكان من الطريف أن يلاحظ المرء بعض تلك الوجوه التي برزت على نحو يلفت النظر بين تلك الجماعة. كان ثمة الرئيس نفسه (صاحب المؤسسة) وهو رجل ضخم الجثة جلْفٌ خشنٌ كان يدير عينيه، خلال الغناء، هنا وهناك. وعلى الرغم من استسلامه الظاهريّ للهو والمرح فقد كانت عينه تراقب كل ما يحصل، وأذنه تتلقَّف كل ما يُقال ـ وعلى نحو ثاقب ومرهف أيضاً. وعلى مقربة منه كان المغنون، الذين كانوا يتلقُّون في لامبالاة آيات الإعجاب التي أغدقتها الجماعة عليهم، وينكبُّون ـ كل بدوره ـ على دزينة من كؤوس الخمر قدّمها إليهم أشدُّ المعجبين بهم صخباً، أولئك الذين كانت أساريرهم تنم عن كل رذيلة تقريباً، في كل درجة من درجاتها تقريباً، فهي تلفت النظر على نحو لا يقاوم، بمظهرها المنفِّر نفسِهِ. كان المكر، والشراسة، والثَّمل ماثلة هناك، بمختلف مراحلها، وفي أقوى مظاهرها. وكانت النسوة ـ وبعضهن لا يزلن يتمتعن

بأثر من آثار نضارتهن الأولى، وهو أثر يكاد يتلاشى حالما تقع عليه العين، وبعضهن مُحِيَت من وجوههن كل إمارات جنسهن محواً كاملاً فهن لا يُبْدين غير فراغ كريه من الفسوق والجريمة، وبعضهن مجرد فتيات، وبعضهن مجرد نساء صغيرات، وكلهن لم يتجاوزن ربيع الحياة ـ أقول إن هاته النسوة كنّ يشكِّلن أشد أجزاء هذه الصورة الكئيبة قتاماً وأدعاها إلى الرثاء.

ونقَّل فاجين، غير المُزْعَج بأيّ انفعال جدِّي، طرْفه في لهفة من وجه إلى وجه فيما كانت تلك الأعمال قائمة على قدم وساق، ولكن من غير أن يعثر ـ في ما يبدو ـ على مَنْ كان يبحث عنه. حتى إذا وفِّق آخر الأمر إلى لفت انتباه الرجل المستوي في كرسي الرئاسة أومأ إليه إيماءة طفيفة، وغادر الحجرة بمثل الهدوء الذي غلب عليه عند دخولها.

وسأله الرجل وهو يتبعه إلى مُنْبَسط السلم: «هل أستطيع أن أقدم إليك خدمة ما، يا مستر فاجين؟ ألن تنضمّ إلينا؟ إن ذلك سوف يبهجهم، سوف يُبهج كل واحد منهم.»

وهز اليهودي رأسه في نفاد صبر، وقال هامساً: «أهُو هنا؟»

فأجابه الرجل: «لا.»

فسأله اليهودي: «وليس ثمة أنباء عن بارني؟»

فأجاب صاحب «حانة المقعدين»، إذا كان المتحدث هو صاحبها: «على الإطلاق. إنه لن يتحرك حتى يزول كل أثر للخطر. وفي استطاعتك أن تثق أنهم يتعقبونه في غير هوادة، وإنه إذا تحرك فلا بد أن يبوح بالسرّ في الحال. لا داعي للقلق عليه، على بارني أعني، وإلا لجاءتني عنه بعض الأنباء. في استطاعتي أن أؤكد لك أن بارني يتصرف تصرّفاً حسناً. ومن أجل ذلك نستطيع أن ندعه وشأنه.»

ـ «هي سيجيء إلى هنا الليلة؟» كذلك سأله اليهودي، واضعاً على الضمير توكيداً مماثلاً للذي وضعه عليه من قبل.

فسأله صاحب الحانة، في تردد: «أنت تعني مونكس، أليس كذلك؟»

فقال اليهودي: «هش! أجل!»

فأجابه الرجل وهو يسحب من جيب صدرته ساعة ذهبية: «من غير شك. لقد توقعت أن يجيء منذ فترة. وإذا انتظرت عشر دقائق فسوف...»

ـ «لا، لا،» كذلك قال اليهودي متعجلاً. وكأنه، على الرغم من رغبته البالغة في رؤية الرجلِ موضوعِ الحديث، قد اطمأن لغيابه وارتاح. «قل له إني جئت إلى هنا لأراه، وأن عليه أن يهبط عليّ الليلة. لا، قل له أن يفد عليّ غداً. إن ذلك سوف يتيح له وقتاً كافياً، ما دام غير موجود هنا.»

فقال الرجل: «حسن. هل هناك شيء آخر؟»

فأجابه اليهودي، وهو يهبط السلم: «هذا كل شيء في الوقت الحاضر.»

فقال الآخر، مطلاً من وراء الدرابزون، ومتكلماً في همس أجشّ: «أقول ما أنسبه من وقت للمكر والخديعة. إن عندي «فيل باركر». وهو ثملٌ بحيث يستطيع غلام أن يتغلب عليه.»

فقال اليهودي رافعاً بصره: «آها! ولكن ساعة «فيل» لم تحن بعد، فلا تزال ثمة أشياء يتعيَّن على «فيل» أن يؤديها قبل أن يكون في وسعنا أن نتخلى عنه. فارجع إلى الجماعة، يا عزيزي، وقل لهم أن يحيوا حياة مرحة... ما داموا على قيد الحياة. ها! ها! ها!»

وشاركه صاحب الحانة ضحِكَهُ، وانقلب إلى ضيوفه. وما إن خُلِّف اليهودي وحيداً حتى استعاد وجهه سِيْماه السابقة الراشحة بالقلق والتفكير. وبعد لحظة من التردد استدعى عربة أجرة وأمر الحوذي بأن يقوده إلى «بيثنال غرين». ثم إنه صرفه عندما أمسى على مبعدة ربع ميل تقريباً من مقرّ مستر سايكس، واجتاز المسافة القصيرة الباقية سيراً على القدمين.

وغمغم اليهودي وهو يقرع الباب: «والآن، إذا كان وراء المسألة أيّ سرّ دفين، فسوف أنتزعه منك، يا فتاتي، على الرغم من مكرك كله!»

وقالت له امرأة إن نانسي في حجرتها. فارتقى فاجين السلم في خطى محترسة، ودخل في غير استئذان. كانت الفتاة وحدها، وكان رأسها مُسْنداً إلى الطاولة، وقد غطّاه شعرها الأشعث.

وقال اليهودي لنفسه في برود: «كانت تشرب الخمر، أو لعلها تستشعر الغمّ والشقاء ليس غير.»

وفيما كان الرجل العجوز يفكّر في ذلك استدار لكي يوصد الباب، فأدّت الضجة التي أحدثها إلى إيقاظ الفتاة. وحدّقت النظر إلى وجهه الماكر، متسائلة عما يحمل من أنباء، ومصغية إلى روايته لقصة توبي كراكيت. حتى إذا انتهى إلى خاتمتها اتخذت وضعها السابق مرّة أخرى، ولكنها لم تنبس ببنت شفة. لقد دفعت الشمعة جانباً، في نفاد صبر، ومرة أو مرتين غيَّرت جلستها تغييراً محموماً، وعدّلت وضع قدميها على الأرض، ولكنها لم تذهب إلى أبعد من ذلك.

وخلال فترة الصمت أجال اليهودي بصره في الحجرة على نحو قلق، وكأنه يريد أن يستيقن من انعدام أيما دليل يشير إلى أن سايكس قد عاد خلسة. حتى إذا ارتاح، ظاهرياً، لنتائج استطلاعه سعل مثنى وثلاث، وبذل محاولات عديدة للخوض في حديث ما. ولكن الفتاة لم تولِهِ من الانتباه أكثر مما لو أنها كانت مقدودة من صخر. وأخيراً بذل محاولة أخرى، وفرك يديه وقال في نبرة تفيض بالاسترضاء:

- «وأين بيل الآن، في ما تظنين، يا عزيزتي؟»

وأنَّت الفتاة مجيبة بكلام لا يكاد يُفهم. أرادت أن تقول إنها لا تدري. وبدا، من الأصوات المخنوقة التي عجزت عن كبحها، أنها كانت تبكي.

وقال اليهودي، مُجهداً عينيه لكي يلمح وجهها: «والغلام أيضاً. يا له من غلام صغير مسكين! لقد تُركَ في حفرة، يا نانْسْ! حَسْبك أن تفكري في ذلك!»

فقالت الفتاة وهي ترفع بصرها فجأة: «الطفل؟ لأن يكون حيث هو

خيرٌ له من أن يكون بيننا. وإذا لم يَعُدْ ذلك على «بيل» بأي أذى فإني أرجو أن يكون الآن ميتاً في تلك الحفرة، وأن تفنى عظامه الطرية هناك.»

فصاح اليهودي في انشداه: «ماذا؟»

فأجابت الفتاة وهي تنظر إليه في وجهه: «أجل، أنا أعني ما أقول. إني لأتمنى أن لا تقع عيناي عليه بعد اليوم، وأن أعلم أنه نجا مما هو أسوأ. أنا لا أطيق أن أراه من حولي. فمجرد النظر إليه يثير نقمتي على نفسي، وعليكم جميعاً.»

ـ «بوه!» كذلك قال اليهودي في ازدراء: «أنت سكرانة!»

فصاحت الفتاة في مرارة: «أأنا سكرانة حقاً؟ وعلى أية حال، فليس الذنب ذنبك إن لم أكن سكرانة! ولو تُرك الأمر لك لما رضيت لي حالاً غير هذه الحال... إلا هذه الليلة. إن المزاج المرح لا يلائمك هذه الليلة، أليس كذلك؟»

فأجابها اليهودي: «لا. إنه لا يلائمني.»

فقالت الفتاة، وهي ترسل ضحكة: «غيِّرهُ، إذن!»

فصاح اليهودي وقد غاظه عنادُ رفيقته غير المتوقع، ومضايقاتُ تلك الليلة غيظاً تجاوز كل حد: «تريدين أن أغيِّره؟ سوف أعمد إلى تغييره فعلاً! أصغي إليّ، أيتها البغي! أصغي إليَّ أنا، إذ في استطاعتي بستِّ كلمات ليس غير أن أسوق سايكس إلى المشنقة سوقاً لا ريب فيه وكأنني أمسك الآن بأصابعي هذه حنجرته الشبيهة بحناجر الثيران. لو رجع سايكس، وخلَّف الغلام وراءه... لو نجا بنفسه ولم يردَّ إليَّ الغلام حياً كان أو ميتاً فاقتليه بنفسك. إذا كنت راغبة في أن لا تري وجه المشنقة. وافعلي ذلك حالما تطأ قدماه هذه الحجرة، وإلا ـ أسامعة أنت؟ ـ يكون الأوان قد فات!»

فصاحت الفتاة على نحو غير إرادي: «ماذا تعني بهذا كله؟»

فتابع فاجين وقد ذهب الغيظ بصوابه: «ماذا أعني بهذا كله؟ حين يساوي الغلام، عندي، مئات من الجنيهات فهل تنتظرين مني أن أخسر ما

أتاحت لي المصادفة إمكانية ربحه، بسبب من أهواء عصابة من السكيرين أستطيع أن أقضي على حياة كل فرد من أفرادها في غير ما عناء؟! أنا، أنا المُوْثَق إلى عفريت نفريت يملك جميع الوسائل، ولا تنقصه غير الإرادة، التي تؤدي إلى... إلى...»

وتلعثم العجوز لاهثاً، فيما كان يبحث عن كلمة. وفي تلك اللحظة كبح جماح غيظه وغيَّر مسلكه تغييراً كاملاً. قبل لحظة، كانت أصابعه المتشنجة تقبض على الهواء، وكانت عيناه قد اتَّسعتا، وكان وجهه قد شحب من أثر الانفعال. أما الآن، فقد انكمش في كرسي، وتجمَّع على نفسه، وأنشأ يرتعد خشية أن يكون هو نفسه قد كشف عن سرّ لعين. وبعد صمت قصير، غامر بالالتفات إلى رفيقته. وعاودته الطمأنينة، بعض الشيء، في ما يبدو، عندما رأى أنها لا تزال مستسلمة لبلادتها التي حاول إيقاظها منها بادئ الأمر.

ولعب اليهودي بصوته المألوف: «يا عزيزتي نانسي! هل كنت تصغين إليّ، يا عزيزتي؟»

ـ «دعني وشأني الآن، يا فاجين!» كذلك أجابت الفتاة، رافعة رأسها في وهن. «إذا كان التوفيق قد خان «بيل» هذه المرة فلا ريب في أنه سيحالفه في مرة قادمة. لقد أدَّى لك حتى الآن خدمات كثيرة، ولسوف يؤدي لك خدمات كثيرة أخرى حين يقدر على ذلك. فإن لم يقدر لم يفعل. فلنكف، إذن، عن الخوض في هذا الموضوع.»

فقال اليهودي وهو يفرك راحتيه في عصبية: «في موضوع هذا الغلام، يا عزيزتي؟»

فقاطعته نانسي متعجِّلة: «على الغلام أن يتعرض للأخطار مع الآخرين. ومرّة أخرى أقول إني لأرجو أن يكون قد مات، وأن يكون قد تنكَّب طريق الأذى، وطريقك أيضاً... أعني إذا لم يصبْ «بيل» بأيّ أذى. وإذا كان توبي قد نجا بنفسه فلا ريب في أن «بيل» في أمان. لأن «بيل» يساوي على أية حال اثنين من مثل توبي.»

فلاحظ اليهودي، مركِّزاً عينيه الملتمعتين على وجهها: «وفي ما يتصل بالذي كنت أقوله لك، يا عزيزتي؟»

فأجابت نانسي: «عليك أن تعيد ما قلته من أوله إلى آخره، إذا كان ثمة ما تريد أن تكلفني القيام به، وفي مثل هذه الحالة يكون من الخير لك أن تنتظر حتى غد. لقد أثرت غضبي لحظة. ولكني عدتُ الآن إلى خبَلي.»

وطرح فاجين عدة أسئلة أخرى، وكلها تهدف إلى غرض واحد، هو التأكد من أن الفتاة انتفعت بتلميحاته غير المتحفظة. ولكنها أجابت عن تلك الأسئلة في غير تردد، وكانت برغم ذلك كله ممتنعة عن التأثر بنظراته الفاحصة، إلى درجة أكّدت انطباعته السابقة، وهي أنها كانت سكرانة على نحو مغالى فيه. والواقع أن نانسي لم تكن مبرَّأة من نقيصة جدّ متفشِّية بين تلميذات اليهودي العجوز، وهي نقيصة كُنَّ يشجَّعْن عليها، في سنواتهن الأشدّ غضارة، بدلاً من أن يُنْهَيْن عنها. كان مظهرها الأشعث، وروائح عطر جنيف القوية المنتشرة في الحجرة، تزكِّي نظرية اليهودي وتؤيدها. حتى إذا هدأت ـ بعد تلك الثورة المؤقتة التي عصفت بها ـ واستسلمت للفتور، ثم لمزيج من المشاعر دفعتها حيناً إلى سفح الدموع، وحيناً إلى إطلاق هتافات مختلفة من مثل «لا تقنط!» وغيرها من العبارات التي تعني: أية أهمية لهذا أو ذاك ما دامت المرأة، أو الرجل، سعيدة... أقول حتى إذا تمّ لها ذلك أدرك مستر فاجين في رضا بالغ، وكان قد خبر هذه الأمور في زمانه خبرة واسعة، أن السكر كان قد تعتعها فعلاً.

وبعد أن أراح باله بهذا الاكتشاف، وأتمَّ أداء رسالته الأخيرة ـ أعني إبلاغ الفتاة ما كان قد سمعه تلك الليلة، والتيقُّن بعيني رأسه أن سايكس لم يعد ـ وجّه مستر فاجين وجهه نحو البيت مرّة أخرى، تاركاً صديقته الصغيرة مستسلمة للرقاد، ورأسها منكَّس فوق الطاولة.

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة. وإذ كان الجو غائماً والبرد لاذعاً فلم يجد ما يُغْريه بالتلكؤ والتباطؤ. كانت الريح قد أخلت الشوارع

من السابلة، كما أخلتها من الغبار والوحل، إذ لم يكن ثمة غير نفر قليل من الناس، وكانوا كلهم يتعجلون العودة إلى بيوتهم، بيد أنها هبّت من الناحية الملائمة، بالنسبة إلى اليهودي، فمضى في سبيله تدفعه الريح من الخلف، مرتعداً مرتجفاً كلما ساقته عَصفةٌ منها جديدةٌ نحو غايته.

وكان قد بلغ زاوية الشارع الذي يقع فيه بيته، وقد شرع يبحث في جيبه عن مفتاح الباب الخارجي، عندما انبثق من مدخل ناتئ قائم في ظلم كثيف وجهٌ قاتم، وعبر الطريق وانسلّ نحوه خلسة.

وهمس في أذنه صوت: «فاجين!»

ـ «آه!» كذلك قال اليهودي وهو يستدير في سرعة: «أهذا...»

فقاطعه الغريب: «نعم! لقد أمضيت هاتين الساعتين وأنا أتسكع هنا. أين كنت أنت، بحق الشيطان؟»

ـ «كنت منهمكاً في أشغالك، يا عزيزي»، هكذا أجاب اليهودي، وهو ينظر إلى رفيقه في شيء من قلق، ويخفف من سرعة خطوه في أثناء الكلام. «كنت منهمكاً في أشغالك طوال الليل.»

فقال الغريب في سخرية: «أوه، طبعاً! حسناً، وعمّ أسفر نشاطك؟»

فقال اليهودي: «لم يسفر عن أي شيء حسن.»

ـ «ولا عن شيء رديء، في ما أرجو؟» كذلك قال الغريب، وهو يكفّ فجأة عن السير، ويلقي على رفيقه نظرة جازعة.

فهز اليهودي رأسه، وكان على وشك أن يتكلم، عندما قاطعه الغريب وأومأ إلى البيت الذي كانا الآن قد بلغاه، قائلاً إن من الخير له أن يقول ما يريد أن يقوله تحت سقف المنزل، لأن دمه كان قد تجمَّد بسبب من وقوفه هناك، في مهبّ الريح، فترة طويلة.

وبدا فاجين وكأنه راغب في الاعتذار عن الترحيب في بيته بأيما زائر يفِدُ إليه في تلك الساعة غير الملائمة. ولقد غمغم، في الحق، بكلام ما عن خلوّ بيته من النار. ولكن رفيقه كرر طلبه على نحو حاسم، فاضطر

إلى فتح الباب، وسأله أن يغلقه خلفه في رفق، ريثما يلتمس هو شمعة.

فقال الرجل وهو يتلمَّس طريقه متقدماً بضع خطوات ليس غير: «هذه ظلمة أشبه بظلمة القبر. عجِّلْ!»

ـ «اغلق الباب!» كذلك همس فاجين من أقصى الرواق. وفيما هو يتحدث انغلق الباب محدثاً ضجة مدوّية.

فقال الرجل الآخر متلمِّساً طريقه تلمُّساً: «هذه ليست غلطتي. لقد صفقته الريح، أو أنه انغلق من تلقاء ذاته، ولا ثالث لهذين الاحتمالين. أَحضِرْ الشمعة على عجل، وإلا تحطم رأسي نتيجة للارتطام بشيء ما في هذا الجُحْر اللعين.»

وهبط فاجين سلم المطبخ خلسة. وبعد صمت وجيز عاد حاملاً شمعة مضاءة، وأعلن أن توبي كراكيت يرقد تحت، في الحجرة الخلفية، وأن الغلمان يرقدون في الحجرة الأمامية. ثم إنه أشار إلى الرجل بأن يتبعه. وارتقى السلم. إلى فوق.

وقال اليهودي وهو يفتح باباً في الدور الأول: «في استطاعتنا، يا عزيزي، أن نقول هنا تلك الكلمات القليلة التي نرغب في قولها. ولما كانت مصاريع النوافذ ملأى بالثقوب، ولما كنا نحاذر دائماً أن يرى جيراننا أي ضوء من أضوائنا فسوف نضع الشمعة على السلم.»

نطق اليهودي بهذه الكلمات وانحنى، ووضع الشمعة فوق جزء مرتفع من أجزاء السلم. تجاه باب الحجرة مباشرة. حتى إذا تم له ذلك تقدّم رفيقهُ إلى تلك الحجرة التي كانت خالية من الأثاث، باستثناء كرسي محطم ذي ذراعين، وأريكة أو مُتَّكأ عتيق لا غطاء له قائم خلف الباب. على قطعة الأثاث هذه جلس الغريب جلسة الرجل المرهق، في حين وضع اليهودي الكرسي ذا الذراعين قبالتَهُ، فجلسا وجهاً لوجه. لم يكن الظلام دامساً. وكان الباب مفتوحاً على نحو جزئيّ. وألقت الشمعة التي في الخارج ظلا ضعيفاً على الجدار المقابل.

وتحدثا فترة حديثاً مهموساً. وعلى الرغم من أن أيما شيء من

كلامهما ـ ما خلا بضع كلمات متناثرة هنا وهناك ـ لم يكن ليُسْمع أو يُفْهم فقد كان في ميسور المصغي إليهما أن يلاحظ، في سهولة، أن فاجين بدا وكأنه يدافع عن نفسه محاولاً دحض ملاحظة الرجل الغريب، وأن هذا الأخير كان في حال من الانفعال شديدة. ولعلهما كانا قد سلخا في التحدث على هذا النحو ربع ساعة أو أكثر عندما قال مونكس ـ وهو الاسم الذي خلعه اليهودي على الرجل الغريب مرّات عديدة خلال هذه المحاورة ـ رافعاً صوته بعض الشيء: «أقول لك مرّة أخرى إن العملية خططت على نحو رديء. لماذا لم تُبْقِهِ هنا مع سائر الغلمان، وتجعل منه في الحال نشالاً مرائياً بكَّاء؟»

فهتف اليهودي وهو يهز كتفيه: «ليس ثمة ما هو أسهل من الكلام!»

فسأله مونكس في تجهم: «أتريد أن تفهمني أنه لم يكن في ميسورك أن تفعل هذا لو قصدت؟ ألم تعمله عشرات المرات مع فتية آخرين؟ لو تذرعت بالصبر اثني عشر شهراً على الأقل أما كان في إمكانك أن تنتهي به إلى المحكمة حيث يُدان، ويُبعد في هدوء إلى خارج المملكة، وربما مدى الحياة؟»

فسأله اليهودي في تذلل: «وهل يخدم هذا أغراض أحد؟»

فأجابه مونكس: «إنه يخدم أغراضي أنا.»

فقال اليهودي: «ولكنه لا يخدم أغراضي أنا، إنه قد يصبح ذا نفع لي. وعندما يتنازع فريقان حول صفقة ما، يكون من المعقول أن تؤخذ مصالح الفريقين بعين الاعتبار. أليس هذا صحيحاً، يا صديقي الطيب؟»

فسأله مونكس: «ثم ماذا؟»

فأجابه اليهودي: «لم يكن من اليسير عليّ أن أمرِّسه بالصناعة. إنه لم يكن مثل الغلمان الآخرين الذين تكتنفهم ظروف شبيهة بظروفه.»

فغمغم الرجل: «لا، لم يكن مثلهم عليه اللعنة! وإلا لأصبح لصاً منذ عهد بعيد.»

فتابع اليهودي كلامه، مراقباً سيماء رفيقه في قلق: «لم يكن لي

سلطان عليه يمكّنني من أن أحيله إلى أسوأ. فهو لم يشارك في أية عملية من عملياتنا. ولم يكن لديّ ما أخيفه به، وهو ما يتعيَّن علينا دائماً أن نملكه في أول الأمر، وإلا ذهبت جهودنا كلها أدراج الرياح. واحترت ماذا أفعل. أأبعث به مع «المراوغ» وتشارلي؟ لقد تحملنا من مغبة ذلك، بادئ الأمر، ما فيه الكفاية يا عزيزي. وارتعدت بالنيابة عنا جميعاً.»

فلاحظ مونكس: «لم تكن تلك الغلطة غلطتي.»

فقال اليهودي: «لا، لا، يا عزيزي. وأنا لا أعترض على هذا الآن. إذ لو لم يحدث ذلك إذن لكان من الجائز أن لا تقع عيناك على الغلام البتة، ولما اكتشفت أنه هو الشخص الذي تبحث عنه. حسناً، لقد أعدتُهُ إليك بواسطة الفتاة. وها هي ذي قد شرعت تحابيه وتنتصر له.»

فقال مونكس في صبر نافد: «اشنُقْ تلك الفتاة!»

فأجابه اليهودي باسماً: «ولكننا لا نستطيع الذهاب إلى هذا الحد، في الوقت الحاضر على الأقل، يا عزيزي. وفوق هذا، فذلك النوع من العمل لا يقع ضمن نطاق اختصاصنا. وعلى أية حال، فقد يسعدني في يوم من الأيام أن أوعز بالإقدام على ذلك. أنا أعرف هاته الفتيات جيداً، يا مونكس. فما إن يأخذ قلب الغلام في التحجر حتى يقلعن عن التفكير فيه، فهنّ بعدُ لا يبالين به أكثر مما يبالين بقطعة ضخمة من الحطب. أنت تريد أن أجعل منه لصاً. إذا كان لا يزال حياً، استطعت أن أجعله ذلك اللص منذ هذه الساعة. وإذا... وإذا...» وهنا أدنى اليهودي كرسيه إلى مخاطبه وأضاف: «إنه احتمال ضعيف، كما ينبغي أن تلاحظ، ولكن إذا بلغت الأمور غاية الغايات من الرداءة والسوء، وإذا اتفق أن مات...»

فقاطعه الرجل الآخر، وقد عصف الذعر بوجهه وأمسك بذراع اليهودي بيدين مرتعدتين: «ليست الغلطة غلطتي إن مات... انتبه إلى ذلك جيداً يا فاجين! فلم تكن لي في تلك المسألة يد. لقد قلت لك منذ البدء: كل شيء ما عدا الموت. أنا لا أحب إراقة الدم. فذلك أمرٌ لا بد أن يُكتشف في النهاية، وإلى هذا فمرتكب جريمة كهذه يظل دائماً فريسة

الخوف. إذا كانوا قد أردوه قتيلاً فلست أنا السبب. هل تسمعني؟ فليأخذ الشيطان هذا الجحر الجهنمي! ما هذا؟»

فصاح اليهودي وهو يطوّق جسد الجبان بذراعيه الاثنتين بعد أن رآه يثب واقفاً على قدميه: «ماذا؟ أين؟»

فأجابه الرجل محدّقاً إلى الجدار المقابل: «هناك! الظل! لقد رأيت ظل امرأة، في معطف وقلنسوة، يمرّ عبر الأخشاب التي تكسو الجدار في مثل سرعة النفس!»

وأرخى اليهودي ذراعيه المطوّقتين جسد مونكس، واندفعا إلى خارج الحجرة في اضطراب بالغ. كانت الشمعة لا تزال قائمة حيث وُضعت، ولكن التيار الهوائي كان قد أتى عليها كلها، فلم تُنِرْ لهما غير السلم الفارغة وغير وجهيهما الشاحبين نفسيهما. وأرهفا السمع؛ كان صمت عميق يسود المنزل كله.

وقال اليهودي وهو يرفع الشمعة ويستدير نحو رفيقه: «إن الوهم هو الذي صوّر لك ذلك.»

فقال مونكس مرتعداً: «أقسم لك إني رأيتها. كانت منحنية إلى أمام عندما رأيتها بادئ الأمر. وعندما تكلمتُ فرّت هاربة.»

ونظر اليهودي في ازدراء، إلى وجه رفيقه الشاحب. ثم إنه قال له إن في استطاعته أن يتبعه إذا شاء، وأنشأ يرتقي السلم، وبحثا في جميع الغرف: كانت باردة، عارية، خالية. وهبطا إلى الرواق، ومن ثم إلى الأقبية. كنت الرطوبة الخضراء تتدلى من الجدران الخفيضة، وكانت آثار الحلازين والبزاق تلتمع في ضوء الشمعة، ولكن كل شيء كان ساكناً كالموت.

وقال اليهودي عندما انقلبا إلى الرواق مرّة أخرى: «ما رأيك الآن؟ ليس في هذا البيت، بالإضافة إلينا، أيّ مخلوق غير توبي والغلمان. وهؤلاء ليس منهم خطر. انظر!»

وإثباتاً لهذه الواقعة أخرج اليهودي من جيبه مفتاحين. وأوضح قائلاً

إنه حين هبط السلم أول مرة أقفل الباب عليهم لكي يحول دون كل تطفُّل على الاجتماع الذي عقداه هناك.

وأذهلت هذه البيِّنات المتراكمة مستر مونكس. وكانت اعتراضاته قد أمست شيئاً فشيئاً أقل حدة، بعد أن طافا في الغرف باحثَيْن من غير أن يكتشفا أيما شيء. فإذا به يطلق الآن ضحكات متعددة جدّ متجهمة، واعترف بأن خياله المضطرب هو الذي صوّر له ذلك، من غير ريب. وأياً ما كان. فقد أبى أن يستأنف الحديث، تلك الليلة، إذ تذكَّر فجأة أن الساعة كانت قد تجاوزت الواحدة. وهكذا افترق الرفيقان الظريفان.

الفصل السابع والعشرون

وفيه تكفير عن قلة لياقة فصل سابق كان قد تخلى عن إحدى السيدات تخلياً تعوزه الكياسة إلى أبعد الحدود

لما كان من غير الجميل بمؤلف متواضع أن يبقي شخصية بارزة جداً كشخصية شماس كنيسة في حالة انتظار وظهرُهُ إلى النار، وذيول معطفه مرفوعة تحت ذراعيه حتى اللحظة التي يحلو له فيها أن يحرِّره، ولما كان مما لا يتفق ومنزلته الاجتماعية وشهامته، أكثر من ذلك أيضاً، أن يتورّط في إثم الإهمال نفسه لسيدة كان قد نظر إليها ذلك الشماس بعين العطف والمحبة، وهمس في أذنها بعض الكلمات العذبة التي يمكن، وقد انبعثت من مثل ذلك المقام الرفيع، أن تثلج صدر عذراء أو مديرة أياً كانت مرتبتها، فإن المؤرخ الذي يدون قلمه هذه الكلمات (يقيناً منه أنه يعرف حده، ويكنّ احتراماً غير يسير لأولئك الذين أنيطت بهم في هذه الأرض سلطة سامية وخطيرة) ليسارعُ الآن إلى إحاطتهم بذلك الاحترام الذي يقتضيه مركزهم، وإلى معاملتهم بكامل الكياسة البارّة التي يفرضها عليه مقامهم الرفيع (وبالتالي) فضائلهم العظيمة. فالشمامسة ذوي التكوين الصحيح، يعني الشمامسة الأبرشانيين، الملحقين بملجأ أبرشاني،

والناهضين بمختلف المهام الرسمية في كنيسة الأبرشية متمتعون بفضل مناصبهم بجميع كمالات الجنس البشري وخصاله الفضلى، وهي صفات لا يستطيع أن يدّعي أياً منها، مهما يكن ذلك الادعاء مخالفاً للواقع، الشمامسة العاديون الملحقون بالشركات أو بالمحاكم أو حتى شمامسة الكنائس المساعِدة (باستثناء هؤلاء الأخيرين، ربما، وإلى درجة أضعف بكثير وأدنى بكثير).

* * *

كان مستر بامبل قد أعاد إحصاء ملاعق الشاي، وأعاد وزن ملاقط السكر، وفحص إبريق الحليب فحصاً أدقّ، واستوثق استيثاقاً دقيقاً من حالة الأثاث على حقيقتها، ذاهباً في ذلك إلى حد التأمل في مساند الكراسي، وكان قد كرر كلاً من هذه العمليات ست مرات كاملات قبل أن يشرع في التفكير في أن أوان عودة مسز كورني قد آن. والتفكير يولِّد التفكير. وإذ لم تنبعث أية ضجة مُؤذنة بدنوّ مسز كورني فقد خطر لمستر بامبل أن يشبع فضوله أكثر فأكثر بطريقة أخرى بريئة وفاضلة.. فاختار أن يلقي نظرة خاطفة على الجزء الداخلي من خزانة ملابس مسز كورني ذات الأدراج.

وبعد أن وضع أذنه على ثقب الباب لكي يستيقن أن أحداً لم يكن في سبيله إلى الحجرة، انقلب مستر بامبل إلى تلك الخزانة وشرع يتعرّف، مبتدئاً من الأسفل، إلى محتويات الأدراج الثلاثة الطويلة، التي استطاعت ـ بوصفها مليئة بمختلف الملابس الحسنة الزيّ والنسيج، والمصونة في عناية بين طبقتين من الجرائد العتيقة، والمنثور عليها ذرات من الخزامى العطرية المجففة ـ أن توقع في نفسه، على ما بدا، ارتياحاً بالغاً. حتى إذا انتهى آخر الأمر إلى الدرج الواقع عند الزاوية اليمنى (والذي كان فيه مفتاحه)، ووقع نظره ثمة على صندوق صغير مقفل لم يكد يهزه حتى انبعث منه صوت بهيج، كرنين القطع النقدية، رجع مستر بامبل في خطى مهيبة إلى المستوقد. وبعد أن استعاد وضعه السابق، قال في نبرة رزينة

مصمِّمة: «سوف أقدم على ذلك!» ثم إنه أتبع هذا التصريح الرائع بهزة رأس مضحكة استمرت عشر دقائق، وكأنه يؤنب نفسه على هذا المرح الشديد الذي يغلب عليه. وبعد ذلك ألقى نظرة على رجليه، في مظهرهما الجانبي، وكنت نظرته تلك مفعمة بالبشر والاهتمام.

وكان لا يزال منهمكاً، على نحو وادع، في هذا الاستعراض الأخير عندما هرعت مسز كورني إلى الحجرة، وارتمت لاهثة منقطعة النَفس، على كرسي قائم على مقربة من المستوقد، وحجبت عينيها بيد، ووضعت الأخرى على قلبها، وأنشأت تشهق.

وقال مستر بامبل وقد انحنى فوق المديرة: «مسز كورني! ما بالك، يا سيدتي؟ هل حدث شيء، يا سيدتي؟ أجيبيني، أتوسل إليك! أنا على... على...» ولم يوفق مستر بامبل، وهو في تلك الحال من الرعب، إلى العثور على عبارة «أحرّ من الجمر»، وهكذا قال: «زجاجات محطمة!»

فصاحت السيدة: «أوه، يا مستر بامبل، لقد أُقلِقْتُ إقلاقاً رهيباً!»

فهتف مستر بامبل: «أقلِقْتِ، يا سيدتي! ومن الذي جرؤ على أن...؟ أدري!» كذلك قال مستر بامبل كابحاً نفسه في جلال فطريّ: «أولئك هم الفقراء الأشرار!»

فقالت السيدة وهي ترتعد: «من الرهيب أن أفكِّر في ذلك!»

فقال مستر بامبل: «إذن لا تفكري فيه، يا سيدتي.»

فنشجت السيدة قائلة: «لست أتمالك نفسي عن ذلك.»

فقال مستر بامبل في لهجة مهدّئة: «إذن تناولي شيئاً، يا سيدتي. هل ترغبين في قليل من الخمر؟»

فأجابته مسز كورني: «بأي ثمن!... أوه! على الرف الأعلى في الزاوية اليمنى... أوه!» وفيما كانت السيدة الصالحة تنطق بهذه الكلمات، أومأت إلى الخزانة في شرود، واعترتها هزةٌ من تشنجات باطنية. واندفع مستر بامبل إلى الخزانة، وانتزع من الرف المشار إليه على ذلك النحو غير

الواضح زجاجة خضراء تتسع لنصف ليتر تقريباً، وملأ بمحتوياتها كوباً من أكواب الشاي وأدناه إلى شفتي السيدة.

ـ «أنا الآن أفضل من ذي قبل.» كذلك قالت مسز كورني، مسترخية في كرسيها، بعد أن شربت نصف ذلك الكوب.

ورفع مستر بامبل عينيه إلى السقف في شُكران ورِع. ثم إنه خفضهما من جديد نحو حافة الكوب، ورفعه إلى أنفه.

وهتفت مسز كورني، في صوت واهن مبتسمة للشماس ابتسامة لطيفة فيما كانت تتكلم: «روح النعناع. جرّبه! إن فيه قليلاً... قليلاً من شيء آخر.»

وذاق مستر بامبل الدواء في ارتياب، وتمطَّق. وأخذ جرعة أخرى، ثم وضع الكوب على المائدة فارغاً.

وقالت مسز كورني: «إنه منعش جداً.»

ـ «منعش إلى حد بعيد، حقاً، يا سيدتي.» كذلك قال الشماس. وفيما هو يتكلم أدنى أحد الكراسي إلى المديرة، وسألها في رقة ما الذي حدث فأورثها هذا البلاء كله؟

فأجابته مسز كورني: «لا شيء. أنا مخلوقة ضعيفة، حمقاء، سريعة الاهتياج.»

ـ «لستِ ضعيفة، يا سيدتي.» كذلك قال مستر بامبل وهو يدني كرسيه إدناءً أشدّ. «أأنت مخلوقة ضعيفة، يا مسز كورني؟»

فقالت مسز كورني واضعة مبدأً عاماً: «نحن كلنا مخلوقات ضعيفة.»

فقال الشماس: «أجل، هكذا نحن.»

ولم ينبس أي منهما، بعد ذلك، ببنت شفة طوال دقيقة أو دقيقتين. حتى إذا انقضت تلك الفترة، أوضح مستر بامبل صحة هذا المبدأ بأن رفع يده اليسرى عن ظهر كرسي مسز كورني، حيث استقرت من قبل، ليضعها على زنَّار مئزر مسز كورني. وما هي غير لحظات حتى طوّقت خصرها شيئاً بعد شيء.

وقال الشماس: «نحن كلنا مخلوقات ضعيفة.»

وتنهدت مسز كورني.

فقال مستر بامبل: «لا تتنهدي، يا مسز كورني!»

ـ «لست أتمالك نفسي عن ذلك!» قالت مسز كورني هذا، وتنهدت مرّة أخرى.

وقال مستر بامبل وهو يجيل طرفه في ما حوله: «هذه حجرة جدّ مريحة، يا سيدتي. ولو ضمَّت إليها حجرة أخرى، يا سيدتي، إذن لتكوّن منهما شيء يتسم بالكمال.»

فغمغمت السيدة: «ولكن ذلك سيكون أكثر مما ينبغي لشخص واحد.»

فأجاب مستر بامبل في نبرات رقيقة: «ولكنْ ليس لشخصين اثنين. ألا ترين ذلك، يا مسز كورني؟»

وخفضت مسز كورني رأسها حين قال الشماس ذلك كما خفض الشماس رأسه أيضاً لكي يستطيع أن يرى إلى وجه مسز كورني. وأشاحت مسز كورني بوجهها في كثير من الاحتشام، وحرَّرت يدها لكي تتناول منديلها من جيبها. ولكنها عادت فوضعتها، على نحو لاشعوريّ، في يد مستر بامبل.

وسألها الشماس، وهو يضغط على يدها في محبة: «إن اللجنة تزوّدك بالفحم الحجري، أليس كذلك يا مسز كورني؟»

فأجابت مسز كورني وهي تردّ على ذلك الضغط بضغط واهن: «والشموع أيضاً.»

فقال مستر بامبل: «فحم حجري، وشموع، ومسكن مجاني! أوه، يا مسز كورني، أيّ ملاك أنتِ!»

ولم يكن للسيدة قِبَلٌ بالامتناع عن التأثر إزاء هذه العاطفة المتفجرة. فارتمت بين ذراعي مستر بامبل. وفي غمرة من الاهتياج طبع ذلك السيد الماجد قبلة ملتهبة على أنفها الطاهر.

وهتف مستر بامبل في ابتهاج غامر: «يا للكمال الأبرشاني! هل تعلمين، يا فاتنتي، إن مستر سلاوت هو الليلة أسوأ حالاً؟»

فأجابت مسز كورني في استحياء: «نعم.»

وتابع مستر بامبل قائلاً: «إنه لن يعيش أكثر من أسبوع، على ما يقول الأطباء. وهو رئيس هذه المؤسسة. ولا ريب في أن موته سوف يُحدث فراغاً. وهذا الفراغ يجب أن يُملأ. أوه، يا مسز كورني، أيّ أمل سوف ينفسح نتيجة لذلك! أية فرصة سوف تتاح لنا لتوحيد قلبينا وميزانيتينا البيتيَّتين!»

وتنهدت مسز كورني.

وأضاف مستر بامبل: «والكلمة الصغيرة؟ قولي الكلمة الصغيرة، الصغيرة، الصغيرة، يا كورني الحبيبة!»

فزفرت المديرة: «نـ... نـ... نعم!»

وتابع الشماس: «كلمة أخرى. هدئي مشاعرك العزيزة لكي تقولي كلمة أخرى ليس غير. متى سيتمّ ذلك؟»

ومرتين حاولت مسز كورني أن تتكلم، ومرتين عجزت عن الكلام. وأخيراً استجمعت شجاعتها وطوّقت عنق مستر بامبل بذراعيها، وقالت إن ذلك سوف يتم على أسرع وجه يريده، وأنه «محبوب لا سبيل إلى مقاومته».

حتى إذا سُوّي الأمر عى هذا النحو الودي المرضي أقِرّ العقد، في كثير من المهابة، بكوب آخر من خمر النعناع، وهو إجراء قوّى الحاجة إليه ما غلب على السيدة من اضطراب واهتياج. وفيما هما يحتسيان الشراب، أعلمت مستر بامبل بوفاة المرأة العجوز.

وقال ذلك السيد الماجد، وهو يأخذ جرعة صغيرة من خمر النعناع: «حسن جداً. سوف أمرّ في طريق عودتي ببيت مستر ساواربيري، وأطلب إليه أن يبعث شخصاً من قِبله صباح غد. هل كان هذا هو الذي روّعك، يا حبيبتي؟»

فقالت السيدة في تملُّص: «لم يكن في ذلك أيّ شيء خصوصي، يا عزيزي.»

فألحف مستر بامبل: «لا بدّ أن يكون في ذلك شيء، أيتها الحبيبة. ألن تفضي بحقيقة الأمر إلى «ب»، حبيبك؟»

فأجابته السيدة: «ليس الآن. سوف أخبرك بذلك في يوم من الأيام. بعد أن نتزوج، يا عزيزي.»

فصاح مستر بامبل: «بعد أن نتزوج؟ هل كان ما روّعك وقاحة بدرت من أحد أولئك الفقراء الذكور...؟»

فقاطعته السيدة متعجِّلة: «لا، لا، يا حبيبي!»

فتابع مستر بامبل: «إذا اعتقدتُ أن ذلك هو السبب... إذا اعتقدتُ أن أياً منهم قد رفع عينيه المبتذلتين إلى هذا المحيَّا الحلو...»

فأجابته السيدة: «إنهم لا يجرؤون على مثل هذا، أيها الحبيب!»

فقال مستر بامبل جامعاً أصابعهُ على نحو تشنجي: «من الخير لهم أن لا يجرؤوا! دعيني أرى أيما رجل، أبرشانياً كان أو غير أبرشانيّ، يحاول الإقدام على ذلك، وعندئذ أستطيع أن أقول له إنه لن يعاود صنيعه ذاك مرّة أخرى!»

ولو لم يجمَّل هذا بأي إيماءة عنيفة لما كان فيه ما يجعله إطراء عظيماً جداً لمحاسن السيدة، ولكن مستر بامبل أرفق التهديد بكثير من الإيماءات الحربية، فتأثرت تأثراً بعيداً بهذا البرهان القاطع على تعلُّقه وإخلاصه، وأعلنت في كثير من الإعجاب أنه رجل رقيق الفؤاد حقاً.

عندئذ قلب الرجل الرقيق الفؤاد قبة معطفه، واعتمر بقبعته ذات القرنين. وبعد أن تبادل مع شريكة حياته المقبلة عناقاً طويلاً مشبوباً، تحدّى ريح الليل القارسة مرّة أخرى، غير متوقف إلا بضع دقائق في مهجع المعوزين الذكور، لكي يشتمهم قليلاً، رجاة أن يقنع نفسه بأن في ميسوره أن ينهض بعبء رئاسة الملجأ بالفظاظة المطلوبة. حتى إذا استيقن

مستر بامبل من كفاءاته غادر المبنى بقلب بهيج ورؤيا مشرقة عن ترقيته المقبلة، وهي رؤيا استطاعت أن تملأ تفكيره حتى انتهى إلى دكان الدفّان.

وإذ كان مستر ومسز ساواربيري قد مضيا لتناول الشاي والعشاء، وإذ كان نوح كلايبول غير مستعد في أيما وقت لأن يرهق نفسه بقدر من الإجهاد الجسدي أكبر من ذلك الذي يحتاج إليه لأداء وظيفتي الأكل والشرب أداء ملائماً، فقد بقيت الدكان غير مقفلة، برغم انقضاء موعد إقفالها المعتاد. وربَّت مستر بامبل بعصاه على المنضدة مرات عديدة، ولكن ذلك لم يلفِتْ إليه انتباه أحد. حتى إذا لمح ضوءاً مشعاً من زجاج نافذة حجرة القعود الصغيرة القائمة خلف الدكان، غامر باختلاس النظر إلى هناك ليرى ما الذي كان يجري. وعندما رأى ما الذي كان يجري فعلاً استبدّ به دهش غير يسير.

كان غطاء المائدة قد نُشِر للعشاء، وكانت المائدة مغطاة بالخبز والزبدة، والأطباق والكؤوس، وبزجاجتي جعة وخمر. وعند طرف المائدة الأعلى كان مستر نوح كلايبول يسترخي متكاسلاً في كرسي ذي ذراعين، وقد بسط رجليه على إحدى الذراعين، وأمسك مطواة كبيرة مفتوحة بِيَد، وكتلة من الخبز المفروش بالزبدة بالأخرى. وعلى مقربة دانية منه وقفت شارلوت وأنشأت تتناول المحار من أحد البراميل وتفتحه، وهو غذاء تنازل مستر كلايبول فابتلعه في نهم استثنائي. وكان في منطقة أنف الشاب احمرار أقوى من المعتاد، وكانت عينه اليمنى تَطْرف على نحو موصول، وهما ظاهرتان دلّتا على أنه كان مخموراً بعض الشيء. وقد أيد هذه الأعراض تلك الاستساغة البالغة التي التهم بها محاراتِهِ، والتي لا يفسِّرها على نحو واف أيما شيء غير الإعجاب القوي بميزاتها المبرِّدة في حالات الحمَّى الباطنية.

وقالت شارلوت: «هي ذي محارة سمينة لذيذة، يا عزيزي نوح! ذقها، أرجوك. ذق هذه فحسب.»

فلاحظ مستر كلايبول بعد أن ازدردها: «ما ألذّ المحار! أليس من

المحزن أن يكون الإسراف في التهام المحار مدعاة إلى الانزعاج، يا شارلوت؟»

فقالت شارلوت: «هذا فظيع حقاً.»

فأقرّها مستر كلايبول على ذلك قائلاً: «إنه لكذلك. ألستِ مولعة بالمحار؟»

فأجابته شارلوت: «ليس كثيراً جداً. أنا أحب أن أراك تلتهم المحار، يا عزيزي نوح، أكثر مما أحب أن ألتهمه بنفسي.»

فقال نوح وإمارات التفكير بادية على وجهه: «يا إلهي. ما أغرب ذلك!»

وقالت شارلوت: «خذ محارة أخرى. هي ذي واحدة ذات لحية ليس أجمل منها ولا أرقّ!»

فقال نوح: «لم أعد أستطيع. أنا آسف جداً. تعالي إلى هنا، يا شارلوت، لكي أقبّلك.»

ـ «ماذا؟» كذلك قال مستر بامبل، وهو يقتحم الحجرة: «قل ذلك مرة أخرى، يا سيدي!»

فأطلقت شارلوت صيحة، وحجبت وجهها بذيل مئزرها. أما مستر كلايبول فلزِم جلسته وعدّلها بإنزال رجليه عن ذراع الكرسي حتى مسّتا الأرض، وحدّق إلى الشماس في ذعر مخمور.

وقال مستر بامبل: «قلها مرة أخرى، أيها الغلام الوغد الوقح! كيف تجرؤ على النطق بشيء كهذا، يا سيدي؟ وكيف تجرؤين على تشجيعه، أيتها الخليعة السفيهة؟ تريد أن تقبّلها؟» هكذا هتف مستر بامبل في غيظ شديد. «تفو!»

فقال نوح وهو ينشج بالبكاء: «لم أكن أعتزم الإقدام على ذلك! إنها لا تكفّ عن تقبيلي، سواء أردت هذا أم لم أرد.»

فصاحت شارلوت في لهجة ترشح باللوم: «أوه، يا نوح!»

فردّ نوح قائلاً: «هذا صحيح، وأنت تعرفينه جيداً! إنها لا تكف عن ذلك، يا سيدي مستر بامبل. إنها تربِّت على أسفل ذقني في لطف، يا سيدي، وتراودني عن نفسي بمختلف الأساليب!»

فصاح مستر بامبل في لهجة قاسية: «اخرس! أما أنت، أيتها الآنسة فاهبطي السلم. هيَّا أغلق الدكان، يا نوح، وحذار أن تقول كلمة أخرى من الآن إلى أن يعود سيدك، وإلا عرضت نفسك لخطر عظيم. وعندما يعود، قل له إن عليه أن يرسل تابوت امرأة عجوز غداً صباحاً، بعد الفطور. هل تسمع، يا سيدي؟ تريد أن تقبِّلها!» كذلك صاح مستر بامبل رافعاً يديه. «إن فجور الطبقات الدنيا في هذه الأبرشية فظيع! وإذا لم يُعْنَ البرلمان بأمر سلوكهم الشنيع حلّ الخراب بالبلاد، وفسدت أخلاق الفلاحين إلى الأبد. قال الشماس تلك الكلمات، وأوسع الخطى ـ في سِيماء متشامخة كئيبة ـ وغادر دكان الدفَّان.

والآن وقد رافقناه حتى هذه المرحلة من طريق عودته إلى بيته، وبعد أن اتخذنا كل الاستعدادات لدفن المرأة العجوز، فلنقم باستطلاع بسيط على أوليفر تويست الفتى، لنعرف ما إذا كان لا يزال منطرحاً في الحفرة حيث تركه توبي كراكيت.

الفصل الثامن والعشرون

وهو يعنى بمصير أوليفر ويتابع الكلام على مغامراته

ـ «فلتمزق الذئاب حنجرتك!» هكذا غمغم سايكس وهو يصر بأسنانه. «لشدّ ما أتمنى لو كنت مع نفر منكم، إذن لجعلت عواءكم أجشَّ بما لا يقاس.»

وفيما كان سايكس ينبح بهذه الشتيمة، بشراسة يائسة إلى أقصى حد وُفِّقت إليه طبيعته اليائسة، وضع جسد الغلام الجريح فوق ركبته الملوية، والتفت لحظة لكي يلقي نظرة على مطارديه.

ولم يستطع أن يتبيَّن شيئاً كثيراً بسبب من الضباب والظلمة. ولكن صياح الرجال المدوّي تذبذب عبر الهواء، وتردَّد نباح الكلاب المجاورة في كل اتجاه بعد أن أثارها قرع ناقوس الخطر.

ـ «قف، أنت أيها الكلب المخلوع الفؤاد!» كذلك صاح اللص، منادياً توبي كراكيت الذي انتفع بساقيه الطويلتين أحسن انتفاع فتقدمه مسافة ما. «قف!»

وكان في تكرار هذه اللفظة ما جمَّد توبي في أرضه. ذلك بأنه لم يكن واثقاً من ابتعاده عن مدى رصاص الغدارة. ولم يكن سايكس في حالة نفسية تجيز المزاح والهزل.

وصاح سايكس مشيراً إلى زميله في ضراوة: «ساعدني على حمل الغلام! ارجع!»

وتظاهر توبي بالرجوع. ولكنه غامر فعبَّر، في صوت خفيض قطَّعَهُ اللهاث، عن أن رجوعه البطيء ذاك لم يكن بطَوْعه.

ـ «مزيداً من السرعة!»

كذلك صاح سايكس وهو يضع الغلام في حفرة جافة عند قدميه، ويسحب من جيبه غدارة. «حذار أن تخونني!»

وفي تلك اللحظة تعاظمت الضجة. وأجال سايكس بصره في ما حوله مرّة أخرى، فاستطاع أن يتبيَّن أن الرجال الذين يطاردونه كانوا يتسلقون بوابة الحقل الذي لجأ هو إليه، وأن كلبين اثنين كانا يتقدمانهم بعض الشيء.

وصاح توبي: «قضي الأمر، يا بيل! اطرح الغلام، وأطلق ساقيك للريح!» حتى إذا أطلق هذه النصيحة الوداعية آثر مستر كراكيت التعرض لاحتمال الموت برصاص صديقه على الوقوع بين أيدي أعدائه وقوعاً لا ريب فيه البتة. فولى الإدبار، واندفع ناجياً بنفسه بأقصى ما استطاع من سرعة. وصر سايكس بأسنانه، وألقى نظرة على ما حوله، وحجب جسم

أوليفر الممدّد بذلك الدثار الذي كان قد تلفَّع به على نحو متعجل، وانطلق يعدو حتى نهاية السياج، وكأنه أراد بذلك أن يصرف انتباه من هم وراءه عن البقعة التي رقد فيها الغلام، وتمهل ثانية واحدة أمام سياج آخر التقى هو وسابقهُ على زاوية قائمة. وبعد أن جعل غدارته تدور على نفسها عالياً في الهواء، تخطى السياج بوثبة، وتوارى عن الأنظار.

وصاح صوت مرتعش من ورائه: «هاي! هناك! بينتشر! نبتون! تعال إلى هنا! تعال إلى هنا!»

وامتثل الكلبان الأمر، فقد بدا أنهما كانا ـ مثل سيديهما ـ غير راغبين رغبة بالغة في ذلك الطِراد الذي خاضا غماره، وتوقَّف الرجال الثلاثة، الذين كانوا قد اجتازوا الآن مسافة ما من الحقل، لكي يتبادلوا الرأي.

وقال أكثرهم بدانة: «نصيحتي، أو بالأحرى أوامري، هي أن نرجع ـ في الحال ـ من حيث أتينا.»

ـ «أنا موافق على كل ما يوافق عليه مستر جيلز،» كذلك قال رجل أقصر قامة، ليس بالهزيل البتة، ذو وجه شديد الشحوب وسلوك شديد اللطف، كما يكون المروَّعون من الناس عادة.

وقال ثالثهم الذي كان قد دعا الكلبين إلى العودة «أنا لا أريد أن أظهر، أيها السيدان، بمظهر الرجل الجلف. ومستر جيلز يعرف ذلك من غير ريب.»

فأجاب الرجل الأقصر قامة: «من غير ريب. ومهما يقل مستر جيلز فليس من واجبنا أن نعارضه. لا، لا، أنا أعرف وضعي! حمداً للّه، أنا أعرف وضعي!» والحق أن الرجل القصير كان يعرف، على ما بدا، وضعه، ويعرف أحسن المعرفة أنه لم يكن وضعاً مرغوباً فيه بأية حال، بدليل أن أسنانه اصطكت فيما كان يتكلم.

وقال مستر جيلز: «أنت خائف، يا بريتلز.»

فقال بريتلز: «لا، لست خائفاً.»

فقال جيلز: «بل أنت خائف.»

فقال بريتلز: «أنت تقول كلاماً يخالف الحقيقة، يا مستر جيلز.»

فقال مستر جيلز: «أنت تكذب، يا بريتلز.»

وكان في هذه الأجوبة الأربعة اللاذعة ما أثار نزعة مستر جيلز إلى التحدي. وإنما تمَّ ذلك في الواقع بسبب من حنقه على زميله الذي حمَّله تبعة العودة إلى البيت، تحت ستار عبارة من عبارات المجاملة. ولكن الرجل الثالث وضع حداً للنزاع، في كثير من الفلسفة.

لقد قال: «سوف أقول لكم الحقيقة، أيها السادة. نحن كلنا خائفون.»

فقال جيلز الذي كان أكثر الثلاثة شحوباً: «تكلم عن نفسك ليس غير، يا سيدي.»

فأجابه الرجل: «هذا ما أفعله. من الطبيعي والمعقول أن يصاب الناس بالخوف في ظروف كهذه. وأنا أعلن أني خائف.»

فقال بريتلز: «وكذلك أنا. ولكن لا داعي لأن يقول المرء لزميله، بمثل هذه الجلافة، أنت خائف.»

وهدَّأ هذان الاعترافان من ثائرة مستر جيلز، الذي سارع في الحال إلى الإقرار بأنه هو خائف أيضاً. وهنا استدار الثلاثة جميعاً، وانقلبوا راكضين على نحو ليس ما هو أكثر منه انسجاماً وتوافقاً. إلى أن أصرّ مستر جيلز (الذي كان أقصر الثلاثة نفَساً والذي كانت تعوقه عن الإسراع مذراة يحملها) على الوقوف إصراراً مغالياً في اللطف، لكي يعتذر عن تهوره في الكلام.

ـ «ولكن ما أغرب الأعمال،» كذلك قال مستر جيلز حين وُفِّق إلى الشرح، «التي يندفع المرء للقيام بها حين يغلي دمه ويفور. لقد كان يمكن أن أرتكب جريمة قتل ـ وأني لواثق من ذلك ـ لو أننا أمسكنا بواحد من أولئك الأوغاد.»

وإذ كان الرجلان الآخران واقعين تحت تأثير هاجس مماثل، وإذا كان

دم كل منهما، كدمه هو، قد راق بعد الفوران، فقد تلا ذلك شيء من التفكير في السبب الذي أدى إلى هذا التغيُّر المفاجئ في مزاجهم.

فقال مستر جيلز: «أنا أعرف السبب. السبب هو البوابة.»

فهتف بريتلز، متعلقاً بتلك الفكرة: «لن أعجب إذا صح ذلك.»

فقال جيلز: «في استطاعتك أن تثق أن البوابة وضعت حداً لتدفق اهتياجنا. لقد استشعرت هياجي كله يخمد وأنا أتسلقها.»

وشاءت مصادفة عجيبة أن يلمّ بالرجلين الآخرين، في تلك اللحظة بالذات، عينُ ذلك الإحساس البغيض. وهكذا كان من الواضح أن البوابة هي التي أدّت إلى ذلك التغير المفاجئ. خاصة وأنه لم يكن ثمة أيّ شك في ما يتصل بالوقت الذي حدث فيه التغير، لأن الثلاثة جميعاً تذكروا أنهم بَصُروا باللصوص لحظة حدوثِهِ تماماً.

وإنما دار هذا الحوار بين الرجلين اللذين كانا قد فاجآ اللصين، وبين سمكري متجول كان نائماً في سقيفة ما، فأوقظ من نومه ـ مع كلبَيْه الهجينين، لكي يشارك في المطاردة. وكان مستر جيلز يمارس وظيفة مزدوجة: فهو ساقِي ربة البيت العجوز ووكيل أعمالها. وكان بريتلز خادماً مكلفاً بأداء الخدمات لها. وإذ كان هذا الأخير قد التحق بخدمتها وهو بعدُ صبيّ فقد ظلّت تعامله وكأنه غلام ينتظره مستقبل باهر على الرغم من أنه كان تجاوز الثلاثين شيئاً ما.

وفيما هم يتبادلون التشجيع بمثل هذا الحديث، ولكن من غير أن يبتعد أي منهم عن الآخر قيد شعرة، وفيما هم يجيلون طرفهم في ما حولهم بكثير من الذعر كلما عبثت بأغصان الشجر عصفة ريح جديدة، هُرِع الرجال الثلاثة عائدين إلى شجرة كانوا قد خلّفوا وراءها مصباحهم خشية أن يهدي ضوؤه اللصوص إلى الجهة التي يتعيَّن عليهم إطلاق النار نحوها. حتى إذا أخذوا المصباح، انقلبوا إلى بيوتهم مسرعين في خطى حثيثة. وبعد فترة طويلة انقضت على غياب شخوصهم القاتمة عن الأنظار كان في ميسور المرء أن يرى ذلك المصباح يومض ويرقص في المدى

البعيد، وكأنه زفير ذلك الجو الرطب المظلم الذي كان المصباح يُحْمل عَبْرهُ في سرعة بالغة.

ومع ارتفاع الضحى أصبح الهواء أشد برداً، وتدحرج الضباب على الأرض مثل سحابة من الدخان كثيفة. كان العشب ندياً، وكانت الدروب والأغوار ملأى بالوحل والماء، وأطلقت ريحٌ غير صحية أنفاسها الرطبة، على نحو واهن، مُرْدفة بأنين غائر. ومع ذلك ظل أوليفر جامداً لا يتحرك ولا يعي في البقعة التي كان سايكس قد غادره فيها.

ودنا الصبح في خطى سريعة. وغدا الهواء أكثر لذعاً، فيما كانت صبغته الباهتة الأولى (كان ذلك هو موت الليل أكثر مما كان ميلاد النهار) تلتمع واهنة في السماء. كانت الأشياء التي سبق لها أن بدت أشد قتاماً وهولاً في الظلام قد غدت أكثر وضوحاً شيئاً بعد شيء، وكانت قد استعادت أشكالها المألوفة على نحو تدريجي. وهطل المطر، غزيراً مدراراً، مدمدماً في صخب خلال الآجام العارية من الورق. ولكن أوليفر لم يحسّ به وهو يصفع وجهه. ذلك بأنه كان لا يزال ممدّداً، فاقد الرشد والقوة، فوق فراشه المصنوع من وحل وطين.

وأخيراً قطعت صيحة ألم خفيضة ذلك السكون الذي ساد المكان. وأفاق الغلام فيما هو يطلق تلك الصيحة. كانت ذراعه اليسرى، المعصوبة بشال عَصْباً أخرق، تتدلى إلى جنبه ثقيلة لا يمكن استخدامها، وكانت الضمادة مشبعة بالدم. وكان هو من الضعف بحيث عجز، أو كاد، عن أن يرفع نفسه ويجلس. حتى إذا وُفِّق إلى ذلك أجال بصره في ما حوله على نحو واهن التماساً للنجدة، وأنّ أنيناً يرشح بالألم. وفيما كانت أوصاله كلها ترتعد من شدة البرد والإجهاد، بذل جهداً للوقوف على رجليه. ولكنه سرعان ما ارتجف من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وخرَّ على الأرض.

وبعد استغراق وجيز في الخدر الذي كان قد استحوذ عليه من قبل فترة طويلة، نهض أوليفر واقفاً ـ يحدوه إلى ذلك شعور موجع ألمّ بفؤاده

وبدا وكأنه يحذره من موت محقق إن بقي منطرحاً على طوله في ذلك المكان ـ وحاول أن يمشي. كان الدوار يعصف برأسه، فترنح ذات اليمين وذات الشمال مثل رجل مخمور. ولكنه واصل السير، برغم ذلك، متعثِّراً وقد تدلَّى رأسه فوق صدره في وهن، ومضى غير دار إلى أين.

عندئذ تدفقت على ذهنه جمهرة من الأفكار المحيِّرة المشوَّشة، لقد بدا له أنه لا يزال يمشي بين سايكس وكراكيت، اللذين كانا يتنازعان على نحو مغضب ـ ذلك أن عين الكلمات التي قالاها ترددت في أذنيه. حتى إذا وُفِّق إذا جاز التعبير، إلى لَفْت نظر نفسه إلى نفسه، من طريق جهد عنيف بذله لوقاية ذاته من السقوط، خيل إليه أنه كان يتحدث إليهما. ثم خيل إليه بعد ذلك أنه كان وحده مع سايكس يجرّر ساقيه في كلال، شأنَهُ بالأمس. وفيما كان الناس يجتازون بهما وكأنهم أشباح أحس بقبضة اللص تضغط على رسغه. وفجأة ارتدّ مجفلاً لدى سماعه طلقات الأسلحة النارية. لقد ارتفعت في الهواء صيحات وصرخات عالية، والتمعت أمام عينيه أضواء. لم يكن ثمة غير الضجة والجلبة، فيما كانت يد غير منظورة تحمله منطلقة في خطى واسعة. وخلال هذه الرؤى السريعة كلها أضناه وعذّبه، على نحو موصول، شعور بالألم عامضٌ مُقلق.

وهكذا تابع طريقه، مترنحاً، زاحفاً على نحو يكاد يكون آلياً بين قضبان البوابات أو خلال فجوات الأسيجة كلما اعترضت سبيله، حتى انتهى إلى إحدى الطرق. وهنا شرع المطر يهطل على نحو غزير إلى درجة انتزعته من حالة الحذر الغالبة عليه.

وأجال الطرف في ما حوله، فرأى أن ثمة، على مبعدة غير نائية منه، بيتاً ربما كان في ميسوره أن يبلغه. ومن يدري، فلعل سكانه أن يرثوا له إذا ما اطَّلعوا على حاله. وحتى لو لم يفعلوا فخير له ـ كذلك قال في ذات نفسه ـ أن يموت على مقربة من بعض المخلوقات البشرية من أن يموت متوحداً في أرض عراء. وحشد كامل قوته للقيام بهذه المحاولة الأخيرة، ووجَّه خطاه المضطربة في ذلك الاتجاه.

وفيما كان يدنو من المنزل، خامره شعور بأنه سبق له أن رآه من قبل. لم يتذكر شيئاً من تفاصيله، ولكن شكل المبنى ومظهره بَدوا مألوفين عنده.

يا لسور الجنينة ذاك! كان قد ركع على العشب داخل تلك الجنينة بالذات، تلك الليلة، متضرعاً إلى الرجلين أن يرحماه. كان ذلك المنزل هو عين المنزل الذي حاولا سرقته.

وعصف بأوليفر، حين عرف المكان، خوف عظيم أنساه، مؤقتاً على الأقل، أوجاع جرحه، فلم يفكِّر في شيء غير الفرار، الفرار؟! كان عاجزاً عن الوقوف على قدميه إلا بشق النفس، وحتى لو أنه كان يتمتع بكافة قوى جسده المهزول الفتيّ فإلى أين يستطيع أن يفر؟ ودفع بوابة الجنينة بكفيه، فإذا بها غير مقفلة، وإذا بها تستدير منفتحة على مِفْصلاتها. واجتاز المرج مترنحاً، وارتقى درجات السلم، وطرق الباب طرقاً واهناً. وإذ خذلته قوته كلها، فقد سقط بإزاء أحد قضبان الرواق الصغير.

واتفق حوالى ذلك الوقت أن كان مستر جيلز وبريتلز والسمكري يجددون قواهم بعد إجهاد الليل وأهواله، بتناول الشاي وأشياء شتَّى، في المطبخ. وليس معنى هذا أنه كان من عادة مستر جيلز أن يمنح الخدم الثانويين حرية بالغة في حضرته، إذْ كان من دأبه في الواقع أن يعاملهم في بشاشة متشامخة... بشاشة ترضيهم ولكنها لا تفتأ تذكِّرهم بمركزه الأسمى في المجتمع. ولكن الموت، وإطلاق النار، والسطو على المنازل بالليل، تجعل الناس كلهم سواسية، وهكذا جلس مستر جيلز ورجلاه ممدودتان أمام حاجز نار الموقد الذي في المطبخ، مُسنداً ذراعه اليسرى إلى المائدة، بينما راح يقدِّم بذراعه اليمنى شرحاً للسَّرقة دقيقاً مفصلاً أصغى إليه سامعوه (وبخاصة الطاهية والخادمة، اللتين كانتا بينهم) في شوق مبهور منقطع النَفس.

قال مستر جيلز: «كانت الساعة حوالى الثانية والنصف، ولكني لا أقسم أنها لم تكن ـ ربَّما ـ أقرب إلى الثالثة بعض الشيء، عندما استيقظت

واستدرت على هذا النحو تقريباً (وهنا استدار مستر جيلز في كرسيه وجذب زاوية غطاء المائدة فوقه لكي يقلّد بذلك غطاء السرير) وتوهمت أني سمعت ضجة.»

حتى إذا بلغ هذه المرحلة من القصة ران الشحوب على وجه الطاهية، فسألت الخادمة أن توصد الباب، فلم يكن من هذه إلا أن كلفت بذلك بريتلز، الذي كلّف به السمكري، الذي تظاهر بأنه لم يسمع.

وتابع مستر جيلز حديثه قائلاً: «... سمعت ضجة. وقلت بادئ الأمر إن هذا لا يعدو أن يكون وهماً. وكنت أتأهب للرقاد من جديد عندما سمعت الضجة مرّة أخرى، على نحو جليّ هذه المرة.»

وسألته الطاهية: «أيّ نوع من الضجة؟»

فأجابها مستر جيلز وهو يجيل الطرف في ما حوله: «ضربٌ من ضجة انفجارية.»

فاقترح بريتلز: «أقرب شيء إلى صوت قضيب حديدي يُبْردُ على مِبرشة جوز الطِيْب.»

فردّ عليه مستر جيلز قائلاً: «كانت كذلك عندما سمعتَها أنت، يا سيدي. أما في تلك اللحظة التي أتحدث أنا عنها فقد كانت الضجة انفجارية. وهكذا رددت الغطاء عن جسدي (وهنا ردَّ مستر جيلز غطاء المائدة عن وجهه) واستويت قاعداً في الفراش، وأنشأت أصغي.»

وفي آن معاً صاحت الطاهية والخادمة «يا إلهي!» وأدْنت كل منهما كرسيها إلى كرسي الأخرى.

واستأنف مستر جيلز كلامه: «لقد سمعتها الآن، كانت جد واضحة. وقلت في ذات نفسي: إن بعضهم يحاول أن يخلع باباً أو نافذة. فما الذي يتعيَّن عليّ أن أفعله؟ سوف أوقظ ذلك الغلام المسكين، بريتلز، وأنقذه من الموت قتلاً في فراشه، وإلا فقد تُحْتَزّ عنقه من أذنه اليمنى إلى أذنه اليسرى من غير أن يحسّ بذلك البتة.»

وهنا اتجهت العيون كلها نحو بريتلز، الذي ثبَّت عينيه على المتكلم، وحدق إليه، فاغر الفم، وقد نمَّ وجهه عن ذعر ليس ثمة ما هو أشد منه.

وقال جيلز، وهو يطرح غطاء المائدة ويركِّز نظراته على الطاهية والخادمة: «واطَّرحت غطاء السرير، ونهضت من فراشي في تؤدة وأخرجت...»

فغمغم السمكري: «بيننا سيدات، يا مستر جيلز.»

فقال جيلز، مستديراً نحوه، واضعاً توكيداً شديداً على تلك الكلمة: «أخرجت حذاء، يا سيدي، وتناولت الغدارة المشحونة التي تصعد السلَّم دائماً مع سلة الأطباق الفضية، ومضيت على رؤوس أصابعي إلى حجرته، وقلت بعد أن أيقظته: «بريتلز، لا يأخذْك الخوف!»

فأعلن بريتلز، في صوت خفيض: «نعم، نعم.»

وتابع جيلز كلامه: «وقلت له: لقد حانت منيَّتنا، على ما يخيِّل إليّ، يا بريتلز. ولكن لا يأخذنَّك الرّوع.»

فسألته الطاهية: «وهل كان مروَّعاً؟»

فأجابها مستر جيلز: «لا، على الإطلاق. لقد كان ثابت الجنان... آه! كان ثابت الجنان بقدْر ما كنت أنا تقريباً.»

فأعلنت الخادمة: «لو كنت مكانكما إذن لمتُّ في الحال. أنا واثقة من ذلك؟»

فأجابها بريتلز متشجعاً بعض الشيء: «أنتِ امرأة.»

فقال مستر جيلز، وهو يهز رأسه موافقاً: «بريتلز على حق. فليس يُنتظر من جماعة النساء شيء غير ذلك. أما نحن الرجال فقد تناولنا مصباحاً قاتماً كان موضوعاً فوق رف الموقد في حجرة بريتلز، وتلمَّسنا طريقنا هابطَيْن درجات السلم في الظلام الحالك... على هذا النحو تقريباً.»

وكان مستر جيلز قد نهض عن كرسيه، وخطا خطوتين وهو مغمض

العينين، لكي يُرْفق وصفه بحركات ملائمة، عندما أجفل إجفالاً عنيفاً، شاركه فيه سائر الجماعة، وهرع راجعاً إلى كرسيه. وأطلقت الطاهية والخادمة صيحة مدوّية.

وقال مستر جيلز، متظاهراً بالهدوء المطلق: «لقد قرع الباب، فليفتحه واحد منكم.»

ولم يتحرك أحد.

ـ «شيء عجيب حقاً أن يُقرع الباب في مثل هذه الساعة من الصباح!» كذلك قال مستر جيلز وهو يستعرض الوجوه الشاحبة المحيطة به، وقد بدا الشحوب الشديد على وجهه هو أيضاً. «ولكن الباب يجب أن يُفتح على أية حال. ألم يسمعني أحد؟»

ونظر مستر جيلز، فيما هو يتكلم، إلى بريتلز. ولكن ذلك الفتى، المتواضع بالفطرة، لم يعتبر نفسه في أغلب الظن واحداً من القوم، وهكذا اعتقد أن ذلك السؤال لا يمكن أن يكون موجهاً إليه. وأياً ما كان، فإنه لم ينطق بأي جواب. وهنا وجَّه مستر جيلز إلى السمكري نظرة ضارعة، ولكنه كان قد استسلم فجأة للرقاد. أما المرأتان فكان تكليفهما بهذه المهمة أمراً غير وارد.

وقال مستر جيلز بعد صمت قصير: «إذا آثر بريتلز أن يفتح الباب في حضرة شهود أعلنت استعدادي لأن أكون واحداً منهم.»

فقال السمكري، وقد استيقظ بمثل السرعة التي نام بها: «وكذلك أنا!»

واستسلم بريتلز على أساس من هذه الشروط. وبعد أن استعاد القوم بعض شجاعتهم اكتشفوا (عند فتحهم مصاريع النوافذ) أن أشعة الشمس كانت الآن تملأ الأرجاء، راحوا يرتقون درجات السلم تتقدمهم الكلاب. ولم تجرؤ المرأتان على البقاء وحدهما في الدور السفلي، فلحقتا بهم، وعملاً بنصيحة مستر جيلز أخذ القوم كلهم يتكلمون بصوت عال جداً لكي

بنبهوا أيما شخص سيئ النية قد يكون متربصاً في الخارج إلى أنهم كثرة. وبفضل ومضة من ومضات العبقرية السياسية التي التمعت في ذهن ذلك السيد البارع نفسه قُرِصت أذناب الكلاب قرصاً موجعاً، في الردهة، لكي تُحمَل على النباح في ضراوة.

حتى إذا اتُخِذت هذه الاحتياطات تشبَّث مستر جيلز بذراع السمكري (لكي يحول بينه وبين الفرار، كما قال على سبيل المزاح) وأصدر أمره بفتح الباب. وامتثل بريتلز الأمر. وراح كل من أفراد الجماعة يختلس النظر في تهيُّب من فوق أكتاف رفاقه فلم يرَ شيئاً مخيفاً غير أوليفر تويست الصغير المسكين، صامتاً منهوك القوى... أوليفر تويست الذي رفع عينيه الكئيبتين، والتمس منهم العطف على نحو أبكم.

وهتف مستر جيلز، راداً السمكري، في بسالة، إلى المؤخرة: «غلام! ماذا دهى الـ... إيه؟.. ولكنْ، يا بريتلز، انظر هنا.. ألست تعرفه؟»

ولم يكد بريتلز ـ الذي كان قد مضى إلى الباب ليفتحه ـ يرى أوليفر حتى أطلق صيحة داوية. وأمسك مستر جيلز بالغلام من إحدى رجليه وإحدى ذراعيه (ومن حسن الطالع أنه لم يمسك به من ذراعه المكسورة) وجرَّه إلى الردهة مباشرة، وتركه ممدّداً على أرضها.

وهرَّ جيلز، موجهاً صيحاته في اهتياج بالغ نحو أعلى السلم: «ها هو ذا! ها هو أحد اللصوص، يا سيدتي! هوذا لصّ، أيتها الآنسة! إنه جريح، أيتها الآنسة! لقد أطلقت أنا النار عليه، أيتها الآنسة، في حين أن بريتلز حمل الضوء.»

«... لقد كان ذلك الضوء مصباحاً، أيتها الآنسة!» كذلك صاح بريتلز واضعاً إحدى يديه جنب فمه لكي يكون في ميسور صوته أن يمضي إلى أقصى ما يستطيع أن يمضي.

وهرعت الخادمتان ترتقيان السلم لكي تعلنا أن مستر جيلز قد ألقى القبض على لص. وشغل السمكري نفسهُ بمحاولة إنعاش أوليفر خشية أن

يموت قبل أن يعلَّق على أعواد المشنقة. وفي غمرة من هذه الجلبة كلها وذلك الهياج كله سُمِع صوت أنثوي عذب أخمدهم في الحال.

ـ «جيلز!» كذلك همس الصوت من أعلى السلَّم.

فأجاب جيلز: «أنا هنا، أيتها الآنسة. لا تخافي، أيتها الآنسة. أنا لم أصب بكبير أذى. إنه لم يبد مقاومة يائسة جداً، أيتها الآنسة! لقد استطعت إخضاعه في سرعة.»

فقالت السيدة الصغيرة: «هش! إنك تخيف عمتي بقدر ما أخافها اللصوص. هل أصيب المخلوق البائس بأذى كبير؟»

فأجابها جيلز في زهْو لا سبيل إلى وصفه: «إنه مصاب بجرح بليغ يائس.»

فزعق بريتلز، بمثل نبرته السابقة: «يبدو أنه على وشك أن يلفظ الروح، أيتها الآنسة. ألست تريدين أن تجيئي وتنظري إليه، أيتها الآنسة، إذا لفظها فعلاً؟»

فأجابت السيدة: «هش، أرجوك! هناك رجل صالح! إلزم الهدوء لحظة واحدة، ريثما أتحدث إلى عمتي.»

وبخطى رقيقة لطيفة كصوتها انطلقت المتكلمة في خفة ورشاقة. وسرعان ما رجعت لتصدر أوامرها بنقل الجريح، في عناية، إلى فوق، ووضعه في حجرة مستر جيلز، ولتطلب إلى بريتلز أن يُسرج الفرس القصير ويشخص في الحال إلى تشيرتسي، لكي يُرسل من هناك ـ على جناح السرعة ـ دركياً وطبيباً.

ـ «ولكن ألن تلقي نظرة واحدة عليه، أولاً، أيتها الآنسة؟» كذلك سألها مستر جيلز، في اعتزاز بالغ، وكأن أوليفر كان طيراً ذا ريش نادر استطاع ببراعته هو أن يُسقطه. «حتى ولو نظرة خاطفة، أيتها الآنسة؟»

فأجابته السيدة الصغيرة: «ليس الآن، أياً ما كانت الدوافع. يا للفتى المسكين! أوه! عامله في رفق، يا جيلز، إكراماً لي!»

ورفع الخادم العجوز بصره إلى المتكلمة، فيما كانت تستدير

منصرفة، وأنشأ يتأملها في اعتزاز وإعجاب وكأنها كانت طفلته المتحدرة من صلبه. ثم إنه مال على أوليفر وساعد على نقله إلى الطابق الأول، بعناية وقلق شبيهين بعناية النساء وقلقهنّ.

الفصل التاسع والعشرون

وفيه تعريف بنزلاء البيت الذي لجأ إليه أوليفر

في حجرة مريحة، يوحي أثاثها برِفْهِ الأيام السالفة أكثر مما يوحي بالأناقة العصرية، جلست سيدتان إلى مائدة إفطار عامرة. وكان مستر جيلز، المكسوّ في عناية مغالى فيها ببذلة سوداء كاملة، ملازماً إياهما على قدم الاستعداد لأداء أيما خدمة يطلبان منه أداءها. لقد تمركز في موضع وسَط بين الخوان والمائدة، حيث انتصب في وقفته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وردّ رأسه إلى وراء ومال ميلاً طفيفاً جداً إلى جانب، مقدِّماً رجله اليسرى إلى أمام، مقحماً يده اليمنى في صدرته، فيما تدلَّت يده اليسرى على جنبه ممسكة بصينية، فبدا لعين الناظر وكأنه رجلٌ بعيد الثقة بكفاءاته وأهميته.

كانت إحدى السيدتين طاعنة في السن، ولكن الكرسي السندياني العالي الظهر الذي استوت عليه لم يكن أحسن حالاً. كانت ملابسها تتميَّز بأناقة وإحكام متطرفين، وكانت تجمع في مزيج غريب بين الزي القديم وبين بعض التنازلات الطفيفة لذوق العصر، وهو جمعٌ أفضى إلى توكيد الزي العتيق. وكان مظهرها جليلاً، وكانت يداها متصالبتين على المائدة، وعيناها (اللتان عجزت السن عن إخماد بريقهما) مركزتين في انتباه على رفيقتها الشابة. أما السيدة الصغيرة فكانت في ربيع الحياة وفي ريعان الجمال الأنثوي الفاتن. وكانت في تلك السن التي لو قُدِّر فيها لملائكة السماء أن تتجسَّد، تنفيذاً لأغراض اللّٰه الصالحة، في أشكال بشرية إذن لحسِبَ المرء من غير أن يجانب التقوى أنها حلَّت في جسد مثل جسدها.

كانت في السابعة عشرة من العمر لم تتجاوزها. قالب من الرقة والنعومة، والعذوبة واللطف، والطهارة والجمال بحيث بدت وكأن التراب لم يكن عنصرها، وكأن المخلوقات البشرية الجافية لم تكن جديرة برفقتها. وكان الذكاء نفسه الذي التمع في عينيها الزرقاوين العميقتين والذي انطبع على جبينها النبيل، يبدو شيئاً لم يُخْلق لسنّها، أو لعالمنا هذا. ومع ذلك فإن انطباعة العذوبة والبِشر المتغيرة، وآلاف الأضواء التي تألقت على محيَّاها من غير أن تترك ثمة أثراً، وفوق هذا كله تلك الابتسامة السعيدة المبتهجة، كل أولئك كان مخلوقاً للحياة البيتية الوادعة، ولإشاعة الأمن والسعادة في الجلسة العائلية حول المستوقد.

كانت منهمكة في مهامّ المائدة الصغيرة. وإذ اتفق لها أن رفعت بصرها فيما كانت السيدة العجوز تتأملها فقد عمدت، على نحو عابث، إلى ردّ شعرها إلى وراء، ذلك الشعر الذي كان معقوصاً عقصاً بسيطاً فوق جبينها. وعبَّرت في نظرتها المشرقة عن حنان وفتنة ساذجة كان خليقاً بالأرواح السماوية أن تبتسم لرؤيتهما.

وبعد لحظة صمت تساءلت السيدة العجوز: «وإذن فقد انقضى على ذهاب بريتلز أكثر من ساعة، أليس كذلك؟»

ـ «ساعة واثنتا عشرة دقيقة، يا سيدتي.» كذلك أجابها مستر جيلز، بعد أن راجع ساعة فضية سحبها من جيبه بشريط أسود.

فلاحظت السيدة العجوز: «إنه بليد دائماً.»

فأجابها مستر جيلز: «لقد كان بريتلز، دائماً، غلاماً بليداً، يا سيدتي.» وإذ كان بريتلز، بالمناسبة، قد أمضى أكثر من ثلاثين عاماً وهو غلام بليدٌ فقد بدا أن ليس ثمة كبير احتمال لصيرورته غلاماً نشيطاً.

فقالت السيدة العجوز: «وأحسب أنه، بدلاً من أن يتحسَّن، يزداد كل يوم سوءاً.»

وهنا قالت السيدة الصغيرة، متبسِّمة: «لن يكون له عذر البتة إذا توقف ليلعب مع بعض الغلمان الآخرين.»

وكان مستر جيلز في ما يبدو يتساءل بينهُ وبين نفسه أمن اللائق أن يطلق هو ذاته ابتسامة رصينة أم لا، عندما تقدمت عربة ذات جواد واحد نحو بوابة الحديقة وترجَّل منها سيدٌ بدين هُرِع إلى الباب مباشرة. حتى إذا دخل البيت على عجل بطريقة سرّية ما، اقتحم الحجرة وكاد أن يطيح بمستر جيلز وبمائدة الإفطار معاً.

وهتف السيد البدين: «أنا لم أسمع قط في حياتي بشيء مثل هذا! يا عزيزتي مسز مايلي ـ وحق الإله! ـ وفي سكون الليل، أيضاً! أنا لم أسمع قط بشيء مثل هذا!»

وبعد أن أرسل السيد البدين هذه العبارات الراشحة بالمؤاساة صافح كلا من السيدتين، ثم أدنى كرسياً، وسألهما عن حالهما.

ـ «لقد كان محتملاً أن تموتا من الرعب، أن تموتا بالمعنى الحقيقي!» كذلك قال السيد البدين: «لِمَ لم تبعثا في طلبي؟ وحق الإله، لو فعلتما إذن لجاء خادمي في دقيقة واحدة، ولجئت أنا أيضاً. ولابتهج مساعدي، أو أي شخص آخر، بالوفود عليكما في هذه الظروف. أنا واثق من ذلك. يا إلهي! يا إلهي! كيف حدث هذا على هذا النحو غير المتوقع البتة! وفي سكون الليل، أيضاً!»

لقد بدا الطبيب شديد الانزعاج، بخاصة، لكون السطو قد حدث على نحو غير متوقع، ولكونه قد تم في موهن من الليل. كأن من مألوف عادة السادة المشتغلين في حقل السطو على المنازل أن ينهضوا بمهامهم والشمسُ في كبد السماء، وكأن من القواعد المقررة عندهم أن يأخذوا لذلك موعداً، من طريق البريد، قبل يوم أو يومين.

وقال الطبيب، ملتفتاً إلى السيدة الصغيرة: «وأنتِ، يا مس روز؟ أنا. . .»

فقالت روز، مقاطعة إياه: «أوه، من غير ريب، حقاً. أن ثمة في الطابق الأعلى مخلوقاً بائساً تريد عمتي منك أن تراه.»

فأجابها الطبيب: «آه، طبعاً. هذا صحيح. لقد كان ذلك من صنع يديك، يا جيلز، على ما فهمت.»

وشاع الدم في وجه مستر جيلز، الذي كان منهمكاً على نحو محموم في ترتيب أكواب الشاي وصفّها. وقال إنه حظي بذلك الشرف فعلاً.

فقال الطبيب: «شرف، ايه؟ حسناً، لست أدري. ربما على إطلاقك النار على لص في المطبخ الخلفي مشرّفاً بقدر ما هو مشرّف إطلاقك النار على خادمك الذي لا يبعد عنك أكثر من اثنتي عشرة خطوة. تصوَّر لو أن ذلك اللص أطلق النار في الهواء، وأنك اضطررت إلى مبارزته، يا جيلز.»

وإذا اعتبر جيلز أن الاستخفاف بالمسألة على هذا النحو كان محاولة ظالمة للانتقاص من مجده، فقد أجاب في احترام بقوله إنه ليس من شأن أمثاله أن يعطوا الرأي القاطع في هذه المسألة، ولكنه يميل إلى الاعتقاد بأن ذلك لم يكن مزحة بالنسبة إلى الخصم.

فقال الطبيب: «هذا صحيح، وحق السماء! أين هو؟ دلَّني على الطريق! سوف أمرّ عليك، مرّة أخرى، يا مسز مايلي، بعد أن أهبط من الدور العلوي. هذه هي النافذة الصغيرة التي نفذ منها، أليس كذلك؟ حسناً، لقد كان خليقاً بي أن أعجز عن تصديق ذلك أبد الدهر!»

وارتقى السلم، لاحقاً بمستر جيلز، وهو لا يكفّ عن الكلام طوال الطريق. وفيما هو يرتقيها يحسن بي أن أحيط القارئ علماً بأن مستر لوزبيرن ـ وهو رجل كان يمارس الجراحة في تلك المنطقة من طريق المران، ويُعْرف في نطاق دائرة قطرها عشرة أميال بـ «الطبيب» ـ قد ترهل وأمسى بديناً نتيجة للحبور والبشاشة أكثر مما أمسى كذلك نتيجة للترف ورغد العيش. وإنه كان أعزب عجوزاً يتمتع من كرم النفس وصادق الودّ، ومن غرابة الأطوار في الوقت نفسه، بقَدْر لا يستطيع أن يعثر على نظيره ـ في بقعة من الأرض تبلغ مساحتها خمسة أضعاف تلك البقعة ـ أيما رائد جوّاب لا يزال على قيد الحياة.

وطالت غيبة الطبيب أكثر مما توقَّع هو أو توقعت السيدتان أن تطول

بكثير. وجيء من العربة ذات الجواد الواحد بصندوق مسطَّح ضخم، وقرِع جرس أحد المهاجع على نحو يكاد يكون متواتراً، وارتقى الخدم درجات السلم وهبطوها في غير انقطاع. وهي قرائن استُنتج منها بحقّ أن شيئاً هاماً كان يجري فوق. وأخيراً رجع الطبيب. وجواباً عن سؤال متلهّف عن صحة مريضِهِ، اتخذ سيماء ملفَّعة بالأسرار وأوصد الباب خلفه في كثير من الاحتراس.

ـ «هذا شيء استثنائي، إلى أبعد حدّ، يا مسز مايلي.» كذلك قال الطبيب، مسنداً ظهره إلى الباب وكأنه يريد أن يحول دون فتحه.

وقالت السيدة العجوز: «إن حالته ليست خطرة، في ما أرجو. أليس كذلك؟»

فأجابها الطبيب: «يا إلهي! لو كان الأمر كذلك لما كان ثمة أي شيء استثنائي البتة. برغم أني لا أعتقد أن حالته جد خطيرة. هل رأيتِ هذا اللص؟»

فأجابته السيدة: «لا.»

ـ «ولم يقولوا لك أيما شيء عنه؟»

ـ «لا.»

وهنا اندفع مستر جيلز إلى الكلام: «عفواً، يا سيدتي. ولكني كنت على وشك أن أحدثكِ عنه عندما أقبل الدكتور لوزبيرن.»

والحق أن مستر جيلز لم يستطع، بادئ الأمر، أن يحمل نفسه على الإقرار بأنه لم يصب برصاصه غير غلام صغير. كانت المدائح التي أغدقت على بسالته من الوفرة وطيب الأرج بحيث لم يتمالك، ولو كلفه ذلك حياته نفسها، عن إرجاء هذا التوضيح بضع دقائق لذيذة تهلَّل خلالها، في أوج شهرة قصيرة صوّرته بطلاً لا يعرف الخوف إلى قلبه سبيلاً.

وقالت مسز مايلي: «لقد سألتني روز أن أرى إلى ذلك الرجل. ولكني أبيت أن أسمع كلامها.»

فقال الطبيب: «عجيب! ليس في منظره ما يوقع في نفس المرء رعباً شديداً. هل لديك أي اعتراض على رؤيته في حضوري؟»

فأجابته السيدة العجوز: «لا، من غير ريب، إذا كان ذلك ضرورياً.»

فقال الطبيب: «إذن فأنا أعتقد أنه ضروري. وأنا على تمام الثقة من أنك لا بد أن تندمي أعظم الندم، إذا ما أرجأتِ ذلك فترة أخرى. إنه يتمتع الآن بهدوء وراحة مطلقين. من فضلك، أيتها الآنسة روز، هل تسمحين لي؟ لن يأخذك منه أقل رعب، أتعهد لك بشرفي!»

الفصل الثلاثون

وهو يصور رأي زائرتي أوليفر الجديدتين فيه

ومن غير أن يكفَّ الطبيب، على نحو مهذار، عن التوكيد على أن مشهد المجرم سوف يكون مفاجأة سارة لهما، وضع ذراع السيدة الصغيرة تحت ذراعه، وبسط ذراعه الحرة لمسز مايلي، فقادهما في كثير من الجلال والوقار إلى الطابق الأعلى.

وقال الطبيب هامساً، فيما كان يدير مقبض باب من أبواب المهاجع: «والآن، فلنسمع رأيكما فيه. إن شعره لم يحلق منذ فترة ما، ولكنه لا يبدو برغم ذلك متوحشاً البتة. ومع هذا، قفا لحظة! فلأتأكد أولاً أنه في وضع يساعده على استقبال الزائرين.»

وتقدم السيدتين، وألقى نظرة على الحجرة. ثم أومأ إليهما بأن تتقدَّما، وأوصد الباب خلفهما بعد أن دخلتا، وردَّ ستائر السرير في رفق. كان مضطجعاً فيه ـ بدلاً من ذلك الوغد الشرس القاتم الوجه، الذي توقعتا أن ترياه ـ مجرد غلام صغير، أضناه الألم والإجهاد، واستغرق في نوم عميق، كانت ذراعه الجريحة معصوبة مجبَّرة، وكانت موضوعة على نحو مستعرض فوق صدره. أما رأسه فكان مستقراً على الذراع الأخرى، التي كانت نصف محجوبة بشعره الطويل المتموّج على الوسادة.

وأمسك الطبيب بالستارة بإحدى يديه، وأنفق دقيقة أو نحوها في تأمل صامت. وفيما هو يراقب المريض على هذه الشاكلة، انسلّت السيدة الصغرى إلى أمامه، واستوت في كرسي قائم عند جانب السرير، وأنشأت تذود شعر أوليفر عن وجهه. وفيما هي منحنية فوقه تساقطت عبراتها على جبينه.

وتحرك الغلام، وابتسم وهو نائم، وكأن إمارات الرأفة والحنان هذه قد أيقظت فيه حلم حبٍّ ووداد لم يعرفه قط من قبل. وهكذا، فإن مقطعاً من معزوفة موسيقية لطيفة، أو ترقرُق الماء في موطن صامت، أو شذا ريحانة، أو التلفظ بكلمة مألوفة، يستطيع في بعض الأحيان أن يثير فجأة ذكريات غامضة عن مشاهد لم تكن قط، في هذا العالم، ذكريات لا تلبث أن تتلاشى تلاشي النفَس. لكأنّ الذي أيقظها تذكُّرٌ عابرٌ لوجود أسعد في عهد غابر، فليس في ميسور أيما جهد إراديّ يبذله العقل أن يستحضرها بعدُ أبداً.

وهتفت السيدة العجوز: «ما معنى هذا؟ إن هذا الطفل البائس لا يمكن أن يكون تلميذاً من تلاميذ اللصوص!»

وتنهد الجراح وهو يعيد الستارة إلى وضعها الأول: «الرذيلة تقيم في هياكل عديدة. ومن ذا الذي يستطيع أن يؤكد أن بعض المظاهر الخارجية الجميلة لا تؤويها في داخلها؟»

فقالت روز في استغراب: «ولكنْ في مثل هذه السنّ الغضّة؟»

فردَّ الجراح، هازّاً رأسه على نحو فاجع: «يا سيدتي الصغيرة العزيزة. الجريمة ـ كالموت ـ ليست وقفاً على الكبار والذابلين. إن أنضر الناس عوداً وأبهاهم طلعة كثيراً ما يكونون ضحاياها المختارة.»

فقالت روز: «ولكن، هل تستطيع... أوه! هل تستطيع فعلاً أن تصدّق أن هذا الغلام الرقيق كان شريكاً طَوْعياً لأسوأ طريدي المجتمع؟»

فهزّ الجراح رأسه وكأنه يريد أن يقول إنه يخشى أن يكون ذلك ممكناً

جداً. ثم إنه لاحظ أنهم قد يزعجون المريض بمثل هذا الحديث، فتقدم السيدتين إلى حجرة مجاورة.

وتابعت روز تقول: «ولكن فكِّرْ، حتى لو سلَّمنا بأنه كان آثماً، في مدى طراوة عوده. فكِّر أنه ربما لم يعرف قط حب الأم، أو رِفْه البيت. فكِّر أن المعاملة السيئة واللكمات، أو الحاجة إلى الخبز، ربما كانت هي التي دفعته إلى معاشرة رجال أكرهوه على ارتكاب الجريمة. فكري، يا عمتي العزيزة، فكِّري في هذا، إكراماً للَّه، قبل أن تجيزي لهم أن يسوقوه إلى السجن، السجن الذي لا بد أن يكون على أية حال، قبراً تُدفن فيه جميع آماله في التوبة والإصلاح. أوه! كما تحبينني، وتعرفين أنني لم أستشعر اليتم قط في ظل طِيبتك وحنانك، وتعرفين في الوقت نفسه أنه كان من الجائز أن أستشعر ذلك وأن أحيا حياة لا تقلّ بؤساً وحرماناً من الصون والحماية عن حياة هذا الغلام المسكين، أتوسل إليك أن تشفقي عليه قبل فوات الأوان!»

فقالت السيدة العجوز: «لا، من غير ريب. إن أيامي تتقدم نحو نهايتها. وإني لأسأل اللَّه أن يسبغ عليّ الرحمة كما أسبِغها أنا على الآخرين! ما الذي أستطيع أن أفعله لإنقاذه، يا سيدي؟»

فقال الطبيب: «دعيني أفكِّر، يا سيدتي، دعيني أفكِّر.»

وأقحم مستر لوزبيرن يديه في جيوبه، وأنشأ يذرع الحجرة جيئة وذهاباً، متوقفاً غير مرة، موازناً نفسه على رؤوس أصابعه، محوِلاً عينيه على نحو رهيب. وبعد هتافات مختلفة من مثل «وأخيراً وجدتُها!» و«لا، لم أجدها!» وتجديد متعدد للتذريع في الحجرة وللعبوس وقف آخر الأمر، وتكلم على النحو الآتي:

ـ «أحسب أنك إن أعطيتِني تفويضاً كاملاً غير مقيَّد لتقريع جيلز، وذلك الغلام الصغير بريتلز، استطعت التأتّي لذلك. إن جيلز رجل مخلص وخادم قديم. أنا أعرف هذا، ولكن في استطاعتك أن تعوضيه من

ذلك بألف طريقة، وأن تكافئيه فوق ذلك على إجادته الرماية. هل تعترضين على هذا؟»

فأجابت مسز مايلي: «إلا إذا كانت ثمة طريقة أخرى للاحتفاظ بالغلام.»

فقال الطبيب: «ليس ثمة طريقة أخرى. لا، ليس ثمة أية طريقة أخرى. في استطاعتك أن تثقي بكلامي.»

فقالت روز، متبسِّمة من خلال عبراتها: «وإذن فإن عمتي تمنحك سلطة كاملة. ولكن أرجوك أن لا تقسو على الرجلين المسكينين أكثر مما تقضي الضرورة.»

فقال الطبيب: «يبدو أنك تحسبين، أيتها الآنسة، روز، أن كل امرئ نزّاع اليوم إلى أن يكون قاسي الفؤاد، ما عداكِ. ولست أتمنى، لمصلحة الذكور من أبناء الجيل الصاعد، إلا أن يكون مزاجك رقيق القلب سريع التأثر حين يلتمس عطفك أول فتى مناسب. وآسف أن لا أكون أنا ذلك الفتى لكي أفيد، في الحال، من فرصة لا تقلّ سخاء وملاءمة عن الفرصة الحالية.»

فأجابته روز وقد شاع الدم في وجهها: «أنت غلام كبير مثل بريتلز المسكين نفسه!»

فقال الطبيب ضاحكاً من صميم قلبه: «حسناً، هذه ليست مسألة عسيرة. ولكن فلنرجع إلى الغلام. إننا لم نعالج بعد النقطة الأساسية في اتفاقنا. إنه سوف يفيق، على ما يخيل إليّ، بعد ساعة أو نحوها. وعلى الرغم من أنني قلت لذلك الدركي العنيد أن الغلام في حال لا تجيز لنا نقله أو مخاطبته، من غير أن تتعرّض حياته للخطر، فإني أعتقد أن في ميسورنا أن نتحدث إليه دون أن نخشى شيئاً من ذلك. والآن، إني أشترط هذا الشرط: سوف أستجوبه في حضرتكما، فإذا استنتجنا مما يقول ـ أو إذا استطعت أنا أن أظهر لكما على نحو مُقنع ـ إنه غلام رديء حقاً، غلام

رديء مئة بالمئة، (وهو شيء محتمل جداً) تركناه عندئذ لقَدره، من غير أن نقوم نحن من ناحيتنا بأي تدخُّل إضافي، بأية حال من الأحوال.»

فتضرعت روز: «أوه لا، يا عمتي!»

فقال الطبيب: «بل نعم، يا عمتي! هل عُقِدت الصفقة؟»

فقالت روز: «من المتعذر أن تكون الرذيلة قد حجَّرت فؤاده. هذا مستحيل.»

فأجابها الطبيب: «حسن جداً. إن هذا سبب إضافي يجب أن يدعوك إلى الموافقة على اقتراحي.»

وأخيراً عُقِدت المعاهدة، وجلس الفريقان ينتظران، في شيء من نفاد الصبر، ريثما يفيق أوليفر من رقاده.

وقدِّر لصبر السيدتين أن يُمْتَحن فترة أطول من تلك التي كان مستر لوزبيرن قد قدّرها. إذ انقضت الساعة إثر الساعة وأوليفر لا يزال غارقاً في نوم عميق. والواقع أن الليل كان قد هبط عندما أعلمهما الطبيب الطيِّب أن الغلام قد استعاد وعيه، آخر الأمر، إلى حدّ يمكنهم من التحدث إليه. لقد قال إن وطأة المرض كانت شديدة على الغلام، وأن نزف الدم كان قد أنهك قواه. ولكن عقله كان قلِقاً على نحو بالغ، وكانت تحدوه رغبة ملحّة في أن يفضي بشيء ما، إلى درجة جعلته ـ أعني الطبيب ـ يرى أن من الخير له أن يتيح له فرصة ذلك الآن، بدلاً من الإصرار على ضرورة التزامه الهدوء حتى صباح غد. كما كان ينبغي له أن يفعل لولا ذلك الداعي الملحّ.

وكان المؤتمر مؤتمراً طويلاً. لقد روى أوليفر لهم قصته البسيطة كلها، وكثيراً ما اضطر إلى الانقطاع عن الكلام من جراء الألم ووهن القوى. وكان مؤثراً أن يسمع المرء، في تلك الحجرة المظلمة، صوت الطفل المريض الضعيف وهو يقدّم لائحة مُضنية بالشرور والبلايا التي أنزلها به رجالٌ قُدَّت قُلوبهم من حجارة. أوه! لو قُدِّر لنا، حين نظلم

إخواننا في الإنسانية ونضطهدهم، أن نفكِّر ولو لحظة واحدة في بيِّنات الخطأ البشري القاتمة التي ترتفع مثل سحب كثيفة ثقيلة (قد يكون هذا الارتفاع بطيئاً ولكنه ليس أقلّ يقينية) نحو السماء لكي تعود بعدُ فتصبّ انتقامها على رؤوسنا. ولو قُدِّر لنا أن نسمع ولو لحظة واحدة، في الخيال، تلك الشهادة الصامتة التي تطلقها أصوات الموتى... أصوات الموتى التي لا تستطيع أيما قوة أن تخنقها ولا تقوى أيما كبرياء على حَجْبها... أقول لو قدِّر لنا ذلك لحظة واحدة فما الذي يبقى من الأذى، والظلم، والألم، والشقاء، والوحشية، والآثام التي يحملها إلينا كلُّ يوم من أيام الحياة؟

تلك الليلة ملَّست وسادة أوليفر أيد لطيفة، وسهر على راحته حين نام كلٌّ من الجمال والفضيلة. لقد استشعر الهدوء والسعادة، وكان في إمكانه أن يموت من غير أي تذمر أو شكوى.

وما إن خُتمت المقابلة الخطيرة واستسلم أوليفر للرقاد مرّة أخرى، حتى مسح الطبيب عينيه متهماً إياهما بالضَّعف المفاجئ، وهبط السلم ليشنّ هجومه على مستر جيلز. حتى إذا لم يجد أحداً في حجرات القعود خطرت له فكرة جديدة، وهي أنه ربما كان في ميسوره أن يستهل إجراءاته في المطبخ على نحو أفضل وأبعد أثراً. وهكذا شخص إلى المطبخ.

وهناك، في هذا المجلس الأدنى من البرلمان المنزلي، انتظم شمل الخادمات، ومستر بريتلز، ومستر جيلز، والسمكري (الذي كان قد تلقَّى دعوة خاصة لقضاء بقية اليوم، وأحيط بمختلف أسباب الرعاية والتكريم، نظراً لما قدّمه من خدمات) والدركي. وكان لهذا السيد الأخير هراوة ضخمة، ورأس ضخم، وتقاطيع وجه ضخمة، وحذاء ضخم ترتفع ساقاه إلى منتصف الرِجل ليس غير. ولقد بدا وكأنه كان قد أحتسى قدراً من الجعة متناسباً وحجم هراوته ورأسه وتقاطيعه وحذائه... بل لقد كان هذا هو ما حدث في الواقع.

كانت مغامرات الليلة البارحة مطروحة على بساط البحث ما تزال.

ذلك بأن مستر جيلز كان يطنب في الكلام على حضور ذهنه، عندما دخل الطبيب عليهم. وكان مستر بريتلز، وفي يده كوز من الجعة، يزكي كل جملة، قبل أن ينطق بها زميله الذي يفوقه رتبة.

وقال الطبيب، ملوّحاً بيده: «ابقوا حيث أنتم!»

فقال مستر جيلز: «شكراً لك، يا سيدي. لقد أبدت السيدة رغبتها في أن أوزّع شيئاً من الجعة، يا سيدي. وإذ لم أكن ميالاً إلى البقاء في حجرتي الصغيرة، يا سيدي، وتاقت نفسي إلى الرفقة، فقد عمدت إلى احتساء نصيبي معهم، في هذا المكان.»

وبادر بريتلز إلى إطلاق همهمة خفيضة فهم منها السادة والسيدات أن عليهم جميعاً أن يعبِّروا عن المتعة البالغة التي استمدوها من تنازل مستر جيلز وتفضُّله. وأجال مستر جيلز بصره في ما حوله، وعلى وجهه سيماء رعائية، وكأنه يريد أن يقول إنهم ما داموا يسلكون مسلكاً صالحاً فإنه لن يتخلى عنهم أبداً.

وسأل مستر جيلز: «كيف حال المريض، الليلة، يا سيدي؟»

فأجابه الطبيب: «بين بين. أخشى أن تكون قد أوقعت نفسك في مأزق حرج، يا مستر جيلز.»

فقال مستر جيلز وهو يرتد: «أرجو أن لا تكون قد عنيت أنه قد أشرف على الموت. إن مجرد التفكير في ذلك يحرمني السعادة أبد الدهر. أنا لا أريد أن أقضي على أيما غلام... لا، حتى على بريتلز نفسه، ولو من أجل جميع الأطباق الفضية التي في البلاد، يا سيدي.»

فقال الطبيب بنبرة تكتنفها الأسرار: «ليس هذا جوهر المسألة. هل أنت بروتستانتي، يا مستر جيلز؟»

فتلعثم مستر جيلز، وكان وجهه قد شحب شحوباً بالغاً: «نعم، يا سيدي، أرجو أن أكون كذلك.»

فقال الطبيب، وهو يستدير نحو بريتلز فجأة: «وأنت، أيها الغلام، ما مذهبك؟»

فأجابه بريتلز مجفلاً إجفالاً عنيفاً: «فليباركني الرب! أنا. . . أنا مثل مستر جيلز، يا سيدي.»

فقال الطبيب: «إذن، قولا لي كلاكما، كلاكما! هل أنتما مستعدان لأن تُقسما اليمين على أن الغلام الذي في الطابق العلوي هو الغلام الذي أدْخِل من النافذة الليلة البارحة؟ انطِقا! هيَّا! نحن مستعدون لكما!»

وإنما أصدر الطبيب ـ الذي كان الناس كلهم يعتبرونه واحداً من أرضى المخلوقات نفساً على سطح الأرض ـ أمره هذا في لهجة مغضبَة رهيبة إلى حدّ حمل جيلز وبريتلز (اللذين خبَّلتهما الجعة والاهتياج تخبيلاً بعيداً) على تبادل النظرات المحدِّقة في سيماء من الدهش والانشداه.

ـ «انتبه إلى الجواب، أيها الدركي، من فضلك!» قال الطبيب ذلك وهو يهز سبابته في وقار عظيم، مربِّتاً بها على قصبة أنفه، لكي يدعو ذلك الرجل الفاضل إلى استخدام أقصى النباهة والفطنة. «إن شيئاً ما قد ينشأ عن هذا في وقت قريب.»

وخلع الدركي على وجهه سيماء من الحصافة والحكمة، وتناول هراوته الرسمية التي كان قد تركها مستندة، على نحو كسول، إلى زاوية الموقد.

قال الطبيب: «إنه سؤال بسيط عن الهوية، كما سوف تلاحظ.»

ـ «أجل، ذلك هو، على وجه الضبط، يا سيدي،» كذلك أجاب الدركي، وهو يسعل في عنف بالغ. ذلك بأنه كان قد أفرغ في حلقه آخر نقطة من جعته إفراغاً متعجلاً، وكان بعض هذه الجعة قد ضلَّ السبيل.

وقال الطبيب: «ههنا بيتٌ يُقتحم اقتحاماً، ويلمح رجلان اثنان، لحظة واحدة، غلاماً. أجل، يلمحانه وسط دخان العيارات النارية، وفي غمرة من الذهول الشديد الذي يوقعه الخوف والظلام في نفس المرء.

وههنا غلام يجيء إلى ذلك البيت نفسه، صباح اليوم التالي. ويتفق أن تكون ذراعه معصوبة، فيلقي هذان الرجلان أيديهما القاسية عليه ـ معرّضَيْن بذلك حياته للخطر ـ ويُقسمان أنه هو اللص. والآن هذا هو السؤال: هل تبرِّر الوقائع صنيع هذين الرجلين؟ وإذا كان الجواب نفياً، ففي أيّ موضع يكونان قد وضعا نفسيهما؟»

وهز الدركي رأسه هزة تنمّ عن تفكُّر عميق. وأعلن قائلاً إن لم يكن هذا كلاماً قانونياً فعندئذ يكون سعيداً بأن يعلم ما هو.

ورعد الطبيب: «إني أسألكما من جديد هل تستطيعان أن تقسِما يميناً غليظة أنكما تعرفان ذلك الغلام؟»

ونظر بريتلز إلى مستر جيلز في ارتياب. ونظر مستر جيلز إلى بريتلز في ارتياب. ووضع الدركي يده خلف أذنه لكي يتلقَّف الجواب. وانحنت المرأتان والسمكري إلى أمام لكي يسمعوا. وأجال الطبيب بصره في ما حوله على نحو ثاقب. وفجأة سمعوا جرس البوابة يرنّ، وسمعوا في الوقت نفسه صوت عجلات.

وصاح بريتلز، وقد سُرِّي عنه في ما يبدو: «لقد أقبَل رجال الشرطة!»

فهتف الطبيب مشدوهاً بدوره: «مَنْ؟»

فأجابه بريتلز وهو يرفع الشمعة: «شرطة باوْ ستريت، يا سيدي. لقد استدعيتهم أنا وجيلز هذا الصباح.»

فصاح الطبيب: «ماذا؟»

فأجابه بريتلز: «أجل، لقد بعثت إليهم رسالة مع حوذي عربة البريد. وإني لأعجب لعدم مجيئهم قبل الآن.»

ـ «أنت فعلت هذا، أليس كذلك؟ فليأخذ الشيطان رجالك البُلَداء الذين أقبلوا إلى هنا. هذا كل ما هنالك!» قال الطبيب ذلك، ومضى لسبيله.

الفصل الحادي والثلاثون

وهو ينطوي على موقف حرج

ـ «مَنْ هناك؟» كذلك تساءل بريتلز، وهو يفتح الباب فتحاً جزئياً من غير أن يرفع السلسلة، وألقى نظرة على الخارج مظللاً الشمعة بيده.

فصاح رجل من الخارج: «افتح الباب. نحن شرطة باوْ ستريت الذين استدعيتمونا اليوم.»

وشجَّعه هذا التوكيد تشجيعاً بالغاً، ففتح الباب على مداه، فألفى نفسه وجهاً لوجه مع رجل ضخم الجسم مُرْتد معطفاً، رجل سرعان ما دخل، من غير أن ينبس ببنت شفة، ومسح حذاءه على الحصير في برود وكأنه أحد نزلاء ذلك البيت.

وقال الضابط: «أرسل أحداً إلى الخارج لكي يحلّ محل رفيقي، من فضلك، أيها الفتى، إنه في العربة ذات الجواد الواحد. لقد بقي هناك لكي يعنى بأمر العربة، هل لديكم محطّ للعربات هنا لكي نبيّتها فيه مدة خمس دقائق أو عشر؟»

وأجابه بريتلز أن نعم، ودلَّه على المبنى، فلم يكن من الرجل الضخم إلا أن ارتدَّ نحو بوابة الحديقة وساعد رفيقه على تبييت العربة، فيما كان بريتلز ينير لهما الطريق، في حال من الإعجاب العظيم. حتى إذا تمّ ذلك انقلبا إلى المنزل. وبعد أن أدخِلا إلى قاعة استقبال، نزعا معطفيهما وقبعتيهما، وظهرا بمظهرهما الحقيقي.

وكان الرجل الذي قرع الباب ممتلئ الجسم، متوسط القامة، في نحو الخمسين. وكان ذا شعر أسود لمَّاع جُزّ جزاً مغالى فيه، ولحية نصفية Whiskers، ووجه مستدير، وعينين حادتين. أما الآخر فكان رجلاً أحمر الشعر مهزولاً، ينتعل حذاء عالي الساق. وكان ذا وجه دميم وأنف مرتفع الأرنبة مشؤوم المظهر.

ـ «قل لسيدك أن «بلاذرز» و«داف» قد أقبلا» كذلك قال الرجل البدين

وهو يملِّس شعره، ويضع على الطاولة زوجاً من الأغلال. «أوه! طاب مساؤك، أيها السيد. هل أستطيع أن أقول لك كلمة أو كلمتين على انفراد، إذا سمحت؟»

وإنما وُجِّه هذا الكلام إلى مستر لوزبيرن، وكان قد أطلّ الآن بطلعته. فأومأ هذا السيد إلى بريتلز بالانصراف، ثم أدخل السيدتين على رجُلَيْ الأمن، وأوصد الباب خلفه. وقال مستر لوزبيرن وهو يشير إلى مسز مايلي: «هذه هي سيدة البيت.»

فانحنى مستر بلاذرز تحية احترام. حتى إذا دُعي للجلوس، وضع قبعته على أرض الحجرة، واستوى على كرسي، مشيراً إلى «دافّ» بأن يفعل مثلما فعل. فلم يكن من هذا السيد الأخير، الذي كان في ما يبدو إما قليل الإلفة للبيوت الموسرة وإما بعيداً عن الشعور بالارتياح في جوّها، إلا أن جلس، بعد أن عانى عدداً من العلل العضلية في الأطراف، وأقحم رأس هراوته في فمه، بشيء من الارتباك.

وقال بلاذرز: «والآن، في ما يتصل بمسألة السرقة هذه، أيها السيد، هل لك أن تحدثني كيف كان ذلك؟»

فلم يكن من مستر لوزبيرن، الذي بدا راغباً في كسب الوقت، إلا أن قصّ عليه الحكاية في إسهاب شديد، ودوران حول المعنى كثير. وخلال ذلك اتخذ كل من السيدين «بلاذرز» و«دافّ» مظهر الرجل الذكي ذي الخبرة والدراية البالغتين، وراحا يتبادلان هزّات الرأس بين الفينة والفينة.

وقال بلاذرز: «لست أستطيع أن أقطع برأي، إلا أن أدرس العمل، طبعاً، ولكن رأيي لأول وهلة هو ـ ولا مانع عندي من الذهاب، في ميدان التصريح، إلى هذا المدى ـ إن هذا العمل لم يقم به جلف من الأجلاف. أليس كذلك يا دافّ؟»

فأجابه دافّ: «طبعاً لا!»

وهنا قال مستر لوزبيرن في ابتسامة: «وإذا ترجمتُ لفظة «جلف» هذه

لكي تفهمها السيدتان استطعت القول إنك تعني أن هذه المحاولة لم يقم بها رجل من أهل الريف. . . »

فأجابه بلاذرز: «تماماً، أيها السيد، هذا كل ما هنالك عن السرقة، أليس كذلك؟»

فأجاب الطبيب: «أجل، هذا كل ما هنالك.»

فقال بلاذرز: «والآن، ما خطبُ هذا الغلام الذي يتحدث عنه الخدم؟»

فأجابه الطبيب: «لا شيء على الإطلاق. لقد شاء أحد الخدم المروَّعين أن يتوهم أن له ضلعاً في محاولة اقتحام المنزل هذه. ولكن ذلك هراء. . . مجرد سخف.»

فأعلن دافّ: «إذا صح ذلك ففي الإمكان تسوية الأمر بسهولة بالغة.»

فقال بلاذرز، هازاً رأسه هزة تأييد، عابثاً بالقَيْدين وكأنهما صنْجان(*): «إن ما يقوله صحيح مئة بالمئة. من هو هذا الغلام؟ ما الذي يرويه عن نفسه؟ من أين أقبل؟ إنه لم يسقط من بين السحب، أليس كذلك، أيها السيد؟»

فأجابه الطبيب، وهو يلقي على السيدتين نظرة عصبية: «طبعاً، لا. أنا أعرف قصته من أولها إلى آخرها، ولكن في استطاعتنا أن نتحدث عن ذلك في الحال. أنتما تريدان أن تريا أولاً، في ما أحسب، الموضع الذي حاول اللصوص اقتحام المنزل منه؟»

فأجابه مستر بلاذرز: «من غير ريب. إن علينا أن نفحص المكان أولاً، ثم نحقق مع الخدم بعد ذلك. هذه هي الطريقة المألوفة في أداء العمل المنوط بنا.»

وجيء، عندئذ، بالشموع. ومضى السيدان «بلاذرز» و«دافّ» ـ يواكبهما الدركي المحليّ، وبريتلز، وجيلز، وبكلمة موجزة سائر القوم ـ

(*) مثنى صنج، وهو صفيحة مدورة من النحاس الأصفر تضرب على أخرى مثلها للطرب.

إلى الحجرة الصغيرة القائمة في أقصى الرواق، وألقيا نظرة على النافذة. وبعد ذلك انطلقا إلى المرج وطافا خلاله حتى انتهيا إلى تلك النافذة فألقيا عليها نظرة من الخارج. ثم قُدِّمت إليهما شمعة لكي يفحصا على ضوئها مصراع النافذة، ثم مصباحٌ لكي يدرسا آثار الأقدام، فمذراةٌ لكي يسبرا غور شجيرات العليق. حتى إذا تمّ لهما ذلك، في غمرة من اهتمام النظارة اللاهث، دخلا المنزل من جديد. ودُعي مستر جيلز وبريتلز إلى تمثيل دورهما في مغامرات الليلة البارحة، فقاما بذلك، على نحو ميلودراميّ، نحواً من ست مرّات، مناقضَيْن أحدهما الآخر في ما لا يزيد على نقطة هامة واحدة، في المرة الأولى، وفي ما لا يزيد على اثنتي عشرة نقطة هامة في المرة الأخيرة. حتى إذا تمّ الوصول إلى هذه النتيجة، غادر «بلاذرز» و«دافّ» الحجرة، وعقدا مؤتمراً طويلاً لو قورن به ـ من حيث السرّية والجلال ـ مؤتمرٌ لعظماء الأطباء حول أعقد مسألة طبية إذن لبدا هذا المؤتمر الطبي مجرد لعِبِ أطفال.

وفي غضون ذلك ذرَع الطبيب الحجرة المجاورة، جيئة وذهاباً، في قلق بالغ. وراحت السيدة مايلي والآنسة روز تنظران إليه وقد بدت إمارات الجزع على وجهيهما.

وقال، وقد كفَّ عن السير، بعد عدة جولات خاطفة: «صدِقاني إذا قلت لكما إني لا أكاد أعرف ما الذي يتعيَّن عليّ أن أفعله!»

فقالت روز: «أنا واثقة من أن قصة الغلام البائس، إذا ما رُويت لهذين الرجلين مرّة أخرى، في أمانة، سوف تكون كافية لتبرئته.»

فقال الطبيب وهو يهزّ رأسه: «أنا أشك في ذلك، يا سيدتي الصغيرة العزيزة. أنا لا أحسب أنها سوف تبرِّئهُ، لا في نظرهما، ولا في نظر رجال العدالة الأعلى مقاماً ورتبة. إنهم سوف يسألون: ومن هو هذا الغلام، على أية حال؟ غلام متشرد آبق! إن قصته، إذا ما نُظِر إليها على ضوء الاعتبارات والاحتمالات الواقعية ليس غير، لهي قصةٌ مُريبة جداً.»

فقاطعته رزو: «ولكنك مؤمن بصحتها من غير ريب، أليس كذلك؟»

فأجابها الطبيب: «أنا مؤمن بصحتها، برغم غرابتها كلها. ومن يدري فقد يكون مردّ ذلك إلى أنني رجل عجوز أبله. ولكني مع هذا لا أعتقد أنها من ذلك النوع الذي يستطيع تصديقه ضابط شرطة ذو خبرة.»

فسألته روز: «ولِمَ لا؟»

فأجابها الطبيب: «حسناً، يا مستجوبتي الحسناء، لأن هذه القصة يكتنفها من وجهة نظرهم، كثير من النقاط البشعة. إنه لن يستطيع أن يُثبت إلا الأجزاء التي هي في غير مصلحته. ولسوف يعجز عن إثبات أيٍّ من تلك الأجزاء التي هي في مصلحته. لعنهم اللَّه! إنهم سوف يتعلّقون بلماذا وكيف، ولن يقبلوا أيما شيء من غير بيِّنة ودليل. ولقد اعترف هو نفسه، كما تعلمان، بأنه كان رفيقاً لبعض اللصوص طوال فترة من الزمان. لقد سِيق ذات مرة إلى مخفر من مخافر الشرطة بتهمة نشل شيء ما من جيب رجل ما. ولقد انتُزع عنوة من بيت ذلك الرجل إلى منزل لا يستطيع أن يصفه أو يدلّ عليه، وليس لديه أقلّ فكرة عن موقعه. لقد اقتاده إلى تشيرتسي رجال يبدو أنهم مولعون به ولوعاً عنيفاً، سواء شاء هو ذلك أم لم يشأ. وأكرهوه على انتهاك حرمة منزل ما، عبر إحدى النوافذ، لكي يسرقه. وفي اللحظة التي اعتزم فيها تنبيه أهل البيت، مقدِماً بذلك على أداء العمل الوحيد الذي يُظهر براءته، يعترضه كبيرُ خدم هجينٌ هو أشبه ما يكون بكلب أبله، ويطلق النار عليه! لكأنه تعمَّد ذلك لكي يحول بين الغلام وبين إسداء أيما خدمة لنفسه، ألا ترين هذا كله؟»

فأجابته روز، ساخرة من حدة الطبيب وتهوّره: «أنا أراه، من غير ريب. ومع ذلك، فلست أجد فيه أيما شيء يجرّم الطفل البائس.»

فقال الطبيب: «لا. طبعاً لا! فليبارك اللَّه عيون بنات جنسك المتألقة! إنها لا ترى أبداً غير جانب واحد من أية مسألة. وأيّ جانب؟ إنه دائماً الجانب الذي يتمثَّل لها قبل غيره!»

حتى إذا أطلق الطبيب ثمرة تجاربه هذه، وضع يديه في جيبيه، وراح يذرع الحجرة بأسرع مما ذرَعها حتى في المرة السابقة.

وقال الطبيب: «إني كلما فكَّرت في الأمر ازددت يقيناً بأننا إذا أطلعنا رجال الشرطة على قصة الغلام الحقيقية أورثناه ضروباً من البلاء والمتاعب لا نهاية لها. أنا واثق من أنهم لن يصدقوها. وحتى لو عجزوا آخر الأمر عن أن يسيئوا إليه، فإن مجرد إبرازها للنور وإظهار الناس جميعاً على الشكوك التي تثيرها سوف يعوق، على نحو خطر، خطتك الخيِّرة لإنقاذه من البؤس.»

فصاحت رزو: «أوه، ما الذي يتعيَّن علينا أن نفعله؟ يا إلهي! يا إلهي! لماذا استدعوا هذين الرجلين؟»

فهتفت مسز مايلي: «حقاً! لقد كنت أؤثر أن لا يجيئوا مهما كلفني ذلك من ثمن.»

وأخيراً قال مستر لوزبيرن، وهو يجلس في ضرب من الهدوء اليائس: «كل ما أعرفه هو أن علينا أن نحاول مواجهة النتائج في جرأة. إن هدفنا نبيل، وهذا يجب أن يكون عُذْرنا. ثم إن أعراض حمَّى قوية لتبدو على الغلام، وهو في حال لا تمكِّنه من احتمال أية محادثة جديدة، وفي هذا بعض العزاء. وإن علينا أن نفيد من هذا الوضع أفضل ما تكون الإفادة. وإذا اتفق أن كان هذا الأفضل شيئاً رديئاً فليست الغلطة غلطتنا. أدْخلا!»

ـ «حسناً، يا سيدي،» قال بلاذرز ذلك وهو يدخل الحجرة يتبعه زميله، ويُحكِم إيصاد الباب قبل أن يضيف أية كلمة أخرى، «هذه السرقة لم تكن عملاً مبيَّتاً.»

فسأله الطبيب نافذ الصبر: «وما هو، بحقّ الشيطان، العمل المبيَّت؟»

ـ «نحن ندعو السرقة سرقة مبيَّتة، أيتها السيدتان،» كذلك قال بلاذرز وهو يلتفت نحوهما، وكأنه يرثي لجهلهما ولكنه ينظر إلى جهل الطبيب نظرة ازدراء: «عندما يكون للخدم ضلع فيها.»

فقالت السيدة مايلي: «ولكن أحداً لم يَرْتبْ فيهم، أو يزعم أن لهم ضلعاً في هذه السرقة.»

فأجابها بلاذرز: «هذا صحيح في أغلب الظن. ولكنهم ربما كانت لهم، برغم ذلك، مشاركة فيها.»

فقال دافّ: «بل إن هذا عينه هو الذي يقوّي ذلك الاحتمال.»

فقال بلاذرز، متابعاً تقريره: «نحن نعتقد أنها من وضع خبير لندنيّ. لأن أسلوب العمل هو من الطراز الأول.»

فلاحظ دافّ في همس: «الواقع أن ذلك الأسلوب يدل على براعة فائقة.»

وتابع بلاذرز قائلاً: «لقد شارك فيها لصان اثنان، وكان معهما غلام. ذلك واضح من حجم النافذة. إن هذا كل ما يمكن قوله في الوقت الحاضر. ولسوف نرى ذلك الغلام الذي عندكم في الطابق العلوي، على التوّ، إذا سمحتم.»

ـ «لعلهما يرغبان في شيء من الشراب، أولاً، يا مسز مايلي؟» كذلك قال الطبيب، وقد أشرق وجهه، وكأن فكرة جديدة كانت قد خطرت له.

فصاحت روز في لهفة: «أوه! من غير ريب! سوف نقدم إليكما ذلك في الحال، إذا شئتما.»

فقال بلاذرز، ماسحاً فمه برُدْن سترته: «أوه، شكراً لك، أيتها الآنسة! إن هذا الضرب من العمل الذي نقوم به يجفِّف الحلق. هاتِ أيما شيء في متناولك، أيتها الآنسة. ولكن لا تزعجي نفسك من أجلنا.»

وسألهما الطبيب، وهو يتبع السيدة الصغيرة إلى الخوان: «ما الذي تفضلانه؟»

فأجابه بلاذرز: «قطرة صغيرة من الخمر، أيها السيد، إن لم يكن لديك مانع. إن الرحلة من لندن إلى هنا توقع البرد في أوصال المرء، يا سيدتي، ولقد وجدتُ دائماً أنه ليس كالخمر يدفئ الفؤاد.»

وإنما وُجِّه هذا التصريح الماتع إلى مسز مايلي، التي تقبَّلته في سماحة بالغة. وفيما كان بلاذرز يوجهه إليها انسلَّ الطبيب من الحجرة.

فقال مستر بلاذرز، غير ممسك بكأسه من جزئها المهزول ولكنْ ممسكاً بها من كعبها بين إبهام يده اليسرى وسبَّابتها، وواضعاً إياها قبالة صدره: «آه! لقد شهدتُ جرائم كثيرة كهذه، في زماني، أيتها السيدتان.»

فقال دافّ مساعداً ذاكرة زميله: «كعملية السطو التي حدثت في الزقاق الخلفيّ في أيدمونتون، يا بلاذرز.»

فعلَّق مستر بلاذرز: «لقد كانت تلك العملية شبيهة بهذه بعض الشيء، أليس كذلك؟ ولقد قام بها كونكي تشيكويد.»

فأجابه دافّ: «أنت لا تنفكّ تنسب تلك العملية إليه. لقد كانت من عمل الـ «فاميلي بِت» أقول لك. أما كونكي فلم تكن علاقته بها لتزيد على علاقتي أنا...»

فقال مستر بلاذرز: «أقلِع عن هذا. أنا أعلم منك. ومع ذلك، فقد تذكر ذلك اليوم الذي سُلِبت فيه أموالَهُ؟ يا لها من بداية! إنها أروع من أية رواية قدِّر لي أن أقرأها!»

فسألته روز، حريصة على تشجيع كل عَرض من أعراض الحبور وطلاقة الوجه يتكشَّف عنه الزائران غير المرغوب فيهما: «وما هي؟»

فقال بلاذرز: «إنها، يا سيدتي، سرقة لا يستطيع أحدٌ أن يقوم بمثلها إلا في شق النفس. إن كونكي تشيكويد هذا...»

فقاطعه دافّ: «كونكي تعني كبير الأنف، يا سيدتي.»

ـ «طبعاً، السيدة تعرف ذلك. أليس ما أقوله صحيحاً؟» كذلك تساءل مستر بلاذرز. «أنت تقاطعني، دائماً، أيها الزميل! إن كونكي تشيكويد هذا، أيتها الآنسة، كان يملك حانة في طريق «باتل بريدج»، وكان لديه قبو يقصده كثير من النبلاء لكي يشهدوا صراع الديوك، ومطاردة الغُريرات(*) وما إلى ذلك. ولقد كانت هذه الألعاب تدار على نحو فلسفي، فقد شهدتها بنفسي مرات عديدة. إنه لم يكن واحداً من أسرة

(*) جمع غرير: وهو حيوان بين الكلب والسنور.

اللصوص، في ذلك العهد. وذات ليلة سُلِب ثلاثمئة وسبعة وعشرين جنيهاً كانت في كيس من الخيش، سرقها من حجرة نومه ـ في جوف الليل ـ رجل فارع الطول على إحدى عينيه عصابة سوداء. رجل كان قد أخفى نفسه تحت السرير، وبعد أن ارتكب جريمة السرقة، مباشرة، وثب من النافذة التي كان ارتفاعها عن الأرض لا يزيد على ارتفاع الطابق الأول. ولقد فعل ذلك في سرعة بالغة، ولكن كونكي كان سريعاً أيضاً. ذلك بأن الضجة أيقظته، فنهض من فراشه واثباً، وأطلق النار في اتجاهه من بندقية صغيرة، وأيقظ أبناء الحي كلهم. فأرسلوا صيحة المطاردة، في الحال، وحين أجالوا الطرف في ما حولهم وجدوا أن كونكي قد أصاب اللص بعياره الناري. إذ كان ثمة آثار دماء على طول الطريق حتى أحد الأسيجة القائمة على مسافة غير قصيرة. وهناك انقطعت هذه الآثار. وعلى أية حال، فقد فرَّ صاحبنا بالمال المسروق. وبعد ذلك، ظهر اسم مستر تشيكويد، وهو تاجر بالمفرّق مرخَّص له بالعمل، في صحيفة الـ «غازيت» بين المفلسين الآخرين. ونظِّمت حملة اكتتابات وتبرعات من أجل الرجل المسكين، الذي كانت خسارته تلك قد ذهبت بصوابه، فراح يذرع الشوارع جيئة وذهاباً، طوال أيام ثلاثة أو أربعة، وهو يشدّ شعره على نحو يائس جعل كثيراً من الناس يخشَوْن أن يقضي على نفسه. وذات يوم، وفد على مفوضية الشرطة متعجلاً، واختلى بالمفوض الذي قرع الجرس ـ بعد محادثة طويلة ـ واستدعى جيم سبايرز (وكان جيم شرطياً بالغ النشاط) وطلب إليه أن يذهب ويساعد مستر تشيكويد في إلقاء القبض على الرجل الذي سرق منزله. وقال تشيكويد: «لقد رأيته، يا سبايرز، يمرّ بمنزلي صباح أمس». فقال سبايرز: «لِمَ لم تثب عليه وتأخذ بخناقه؟» فأجاب الرجل المسكين: «لقد صُعِقت إلى درجة بعيدة حتى لقد كان في إمكانك أن تفجَّ جمجمتي بعود من أعواد الأسنان. ولكنني واثق من أننا سوف نلقي القبض عليه، ذلك بأنه مرّ بالمنزل مرّة أخرى بين الساعة العاشرة والساعة الحادية عشرة ليلاً.» ولم يكد سبايرز يسمع هذا حتى وضع في

جيبه قميصاً نظيفاً ومشطاً، خشية أن يضطر إلى التغيُّب يوماً أو يومين. ثم انطلق، وتمركز عند نافذة من نوافذ الحانة خلف ستارة حمراء صغيرة، معتمراً بقبعته، مستعداً لإطلاق النار عند أول إشارة. وكان يدخن بيبته هناك، في ساعة متأخرة من الليل، عندما هدر تشيكويد، فجأة، قائلاً: «ها هو ذا! أوقفِ اللص! اقتُلْهُ!» فوثب جيم سبايرز إلى الشارع، وهناك بَصُر بتشيكويد ينهب الأرض ـ في أثر اللص ـ نهباً. ويندفع سبايرز كالسهم، ويواصل تشيكويد انطلاقه، ويلتفت الناس إلى وراء، ويصيح كل امرئ «اللصوص!»، ويستمر تشيكويد نفسُهُ في الصياح، على نحو موصول، مثل رجل أصابه مسّ من جنون. ويتوارى الرجل عن ناظري سبايرز لحظة عندما انعطف حول زاوية الشارع، ويندفع سبايرز خلفه لكي يدركه، ويلتقي جمعاً من الناس، ويشق طريقه وسطهم. ويصيح: «من هو غريمك؟» فيجيبه تشيكويد: «عليّ لعنة اللّه! لقد أضعته من جديد!» لقد كانت مصادفة غريبة، ولكنهم لم يهتدوا إليه في أي مكان، وهكذا انقلبوا إلى الحانة. وفي صباح اليوم التالي انتصب سبايرز في مكانه القديم، وراح يترصد ـ من وراء الستارة ـ رجلاً فارع الطول على إحدى عينيه عصابة سوداء، حتى كلَّت عيناه هو واستبدَّ بهما الألم مرّة أخرى. وأخيراً لم يتمالك عن إغماضهما، لكي يريحهما ولو دقيقة واحدة. ولم يكد يفعل ذلك حتى سمع تشيكويد يهدر: «ها هو ذا!» فيندفع واثباً، مرّة أخرى، وقد تقدّمه تشيكويد مسافة تبلغ نصف طول الشارع تقريباً. وبعد أن ركضا ضِعف المسافة التي اجتازاها بالأمس توارى الرجل عن أنظارهما من جديد! وتكرر ذلك مرة أو مرتين حتى زعم نصف الجيران أن الذي سرق مستر تشيكويد لم يكن غير الشيطان. وأن هذا الشيطان أخذ يعابثه ويحتال عليه بعد ذلك. أما نصفهم الآخر فزعم أن الأسى كان قد ذهب بعقل مستر تشيكويد المسكين.»

ـ «وماذا قال جيم سبايرز؟» كذلك تساءل الطبيب، الذي كان قد رجع إلى الحجرة بُعَيْد البدء في سرد القصة.

فاستأنف الشرطي حديثه قائلاً: «لقد اعتصم جيم سبايرز بالصمت المطلق، فترة من الزمان طويلة، ولم ينطق بكلمة واحدة. وراح يصغي لكل شيء من غير أن تبدو على وجهة أية إمارة تنمّ عن ذلك، مما أظهر أنه يتقن صناعته ويحسن فهمها. ولكنه تقدّم، ذات صباح، نحو المشرب، وأخرج علبة سعوطه وقال: «تشيكويد، لقد اكتشفت مرتكب هذه السرقة.» فقال تشيكويد: «حقاً؟ أوه، يا عزيزي سبايرز، دعني أنتقم لنفسي وعندئذ فقط يصبح في ميسوري أن أموت قرير العين! أوه، يا عزيزي سبايرز، أين ذلك الوغد؟» فقال سبايرز، وهو يقدم إليه قبضة من سعوط: «كفى! أقلع عن هذا الهذيان! إنك أنت السارق!» ولقد كان هذا صحيحاً. ولقد أفاد من ذلك قدراً غير يسير من المال، أيضاً. والواقع أنه ما كان خليقاً بأي أمرئ أن يكتشف حقيقة الأمر لو لم يتكشَّف تشيكويد عن حرص بالغ على إنقاذ المظاهر!» قال مستر بلاذرز ذلك، ووضع كأسه على المائدة، وأنشأ يُصَلْصِلُ بالقيدين.

وقال الطبيب: «تلك قصة جدّ غريبة حقاً. والآن، تستطيعان أن تصعدا إلى الطابق العلوي، إذا شئتما.»

ـ «إذا شئت أنت، يا سيدي،» كذلك أجابه مستر بلاذرز. ومضى الشرطيان في أعقاب مستر لوزبيرن، مرتقيين السلَّم إلى مهجع أوليفر. وتقدَّم مستر جيلز الجماعة، وفي يده شمعة مضاءة.

كان أوليفر قد نام نوماً خفيفاً. ولكنه بدا أسوأ حالاً من ذي قبل، وكانت وطأة الحمى قد اشتدت عليه أكثر مما اشتدت في أية لحظة مضت. وبعون من الطبيب وُفق إلى الجلوس في سريره دقيقة أو نحوها. ونظر إلى الشخصين الغريبين من غير أن يَفْقه ما الذي يجري. بل من غير أن يبدو أنه يذكر أين كان، وما الذي حدث قبل ذلك.

وقال مستر لوزبيرن، في رفق، ولكنْ في كثير من الانفعال: «هذا هو الغلام الذي شاءت المصادفة أن تجرحه بندقية نابضيَّة خلال انتهاك صبياني

لحرمة أرضي مستر لا أدري ما تدعونه غير بعيد من هنا، فوفد على هذا البيت التماساً للمساعدة، صباح اليوم، فلم يكن من هذا الرجل الحاذق الذي يحمل الشمعة بيده إلا أن أمسك به، في الحال، وأساء معاملته، معرِّضاً حياته بذلك لخطر عظيم، كما أستطيع أن أشهد بوصفي طبيباً».

ونظر السيدان «بلاذرز» و«دافّ» إلى مستر جيلز، بعد أن لُفِتَ انتباههما إليه. ونقَّل كبير الخدم المشدوه طرفه منهما إلى أوليفر، ومن أوليفر إلى مستر لوزبيرن في مزيج من الخوف والارتباك يغري بالضحك إلى أبعد الحدود.

وقال الطبيب، وهو يُمدِّد أوليفر في سريره، مرّة أخرى، بأناة ورفق: «أنت لا تعزم إنكار ذلك فيما أحسب، أليس كذلك؟»

فأجاب مستر جيلز: «لقد قمت بذلك كله وأنا أعتقد أن عاقبته سوف تكون حسنة، يا سيدي! أنا واثق من أني حسبت أنه الغلام نفسه، وإلا لما تعرّضت له. أنا لست ذا ميول غير إنسانية، يا سيدي.»

فسأله الشرطي الأعلى رتبة: «أيَّ غلام حسبتَهُ؟»

فأجابه جيلز: «غلام اللص، يا سيدي! لقد... لقد كان معهم غلام من غير شك.»

عندئذ سأله بلاذرز: «حسن. هل تعتقد ذلك الآن؟»

فأجابه جيلز ناظراً إلى مستجوبه نظرة شاردة: «أعتقد ماذا، الآن؟»

فقال بلاذرز في نفاد صبر: «تعتقد أنه الغلام نفسه، أيها الأبله؟»

فأجاب جيلز في سيماء تدعو إلى الرثاء: «لست أدري. أنا لست أدري، حقاً. إني لم أستطع أن أقسم اليمين على ذلك.»

فسأله مستر بلاذرز: «ما رأيك؟»

فأجابه جيلز المسكين: «لست أعرف لي رأياً. أنا لا أظن أنه الغلام نفسه. الواقع أني شبه واثق من أنه ليس هو. أنت تعلم جيداً أن ذلك غير ممكن.»

وهنا تساءل بلاذرز: ملتفتاً إلى الطبيب: «هل كان هذا الرجل يعاقر الخمر، يا سيدي؟»

فقال «دافّ»، موجهاً الكلام إلى مستر جيلز في ازدراء عظيم: «يا لك من رجل مشوّش العقل إلى حد التطرف!»

كان مستر لوزبيرن يجسّ، خلال هذا الحوار الوجيز، نبض مريضه. ولكنه نهض عن الكرسي المحاذي للسرير، وأعلن قائلاً إنه إذا ساورت رجلَيْ الشرطة شكوك في هذا الموضوع فقد يكون من الخير لهما أن ينتقلا إلى الحجرة المجاورة حيث يُدعى بريتلز للمثول بين أيديهما.

وعملاً بهذا الاقتراح انتقلا إلى حجرة مجاورة. حتى إذا دُعي إليها مستر بريتلز ورّط نفسه وزميله المحترم، الأعلى منه رتبة، في متاهة هائلة من التناقضات والاستحالات الجديدة لم تُفضِ إلى إلقاء أيّ نور خاص على أيما شيء، باستثناء حالة التشوش والاختلاط التي سيطرت عليه هو. وباستثناء تصريحاته، من غير ريب، بأنه لن يكون في ميسوره أن يعرف الغلام الحقيقي لو وُضِع تحت بصره في تلك اللحظة، وإنه لم يحسب أوليفر ذلك الغلام إلا لأن مستر جيلز قال إنه هو، وأن مستر جيلز كان قد اعترف في المطبخ، قبل خمس دقائق ليس غير، بأنه شرع يخشى أن يكون قد تهوّر بعض الشيء.

وبين الظنون والأحداس البارعة الأخرى طُرِح عندئذ هذا السؤال: هل أصاب مستر جيلز برصاصه أيما شخص حقاً؟ وعند فحص الغدارة الأخرى المماثل طرازُها لطراز الغدارة التي أطلَق منها النار تبيَّن أنه لم يبق لها من الشحنة المدمرة غير البارود والورق الأسمر: وهو اكتشاف خلَّف أثراً بعيداً في نفوس القوم جميعاً، ما عدا الطبيب، الذي كان قد انتزع الرصاصة قبل عشر دقائق تقريباً. بيد أن الأثر الذي خلَّفه في نفس مستر جيلز ذاته كان أعظم تلك الآثار على الإطلاق ـ مستر جيلز، الذي تعلَّق بهذه الفكرة الجديدة في لهفة ودعمها بكامل قواه بعد أن استبدّ به طوال بضع ساعات خوفٌ شديد من أن يكون قد جرح على نحو قاتل

أخاً من إخوانه في الإنسانية. وأخيراً غادر رجلا الشرطة دركيَّ تشيرتسي في المنزل، من غير أن يزعجا نفسيهما كثيراً بأمر أوليفر، ومضيا لقضاء الليل في المدينة، واعدين بالعودة صباح اليوم التالي.

ومع صباح اليوم التالي أقبلت إشاعة تقول بأن في سجن كينغستون رجلين وغلاماً كان قد أُلقِي القبض عليهم في الليلة البارحة في ظروف مريبة. وهكذا ارتحل السيدان «بلاذرز» و«دافّ» إلى كينغستون. بيد أن تلك الظروف المريبة سرعان ما ذابت، بعد التحقيق، لتؤلف حقيقة واحدة وهي أنهم وُجدوا نائمين تحت كَدْس من العشب اليابس. وهي من غير ريب جريمة نكراء، ولكن عقوبتها لا تعدو السجن وهي تُعتبر ـ في عين القانون الإنكليزي الرحيمة وحبَّه الشامل لجميع رعايا الملك ـ برهاناً غير كاف، في غيبة سائر البيِّنات الأخرى، لإثبات ارتكاب النائم، أو النائمين، جرم السطو على المنازل ليلاً، مع اللجوء إلى العنف، معرِّضين أنفسهم بذلك لعقوبة الموت. وهكذا رجع السيدان «بلاذرز» و«دافّ» من غير أن يعرفا أيما شيء لم يكونا يعرفانه من قبل.

وبالاختصار، وبعد استجواب إضافي وكثير من المحادثات الجديدة، أقنِـع أحد قضاة التحقيق المحليين، في غير عُسْر، بقبول كفَالة مسز مايلي ومستر لوزبيرن اللذين تعهَّدا بأن يَمْثُل أوليفر بين يدي رجال القضاء إذا ما دُعي إلى ذلك. وانقلب «بلاذرز» و«دافّ» إلى العاصمة، بعد أن كوفئا بجنيهين اثنين، وقد اختلف رأياهما في موضوع الحملة التي كُلِّفا القيام بها. فأما «دافّ» فمال بعد تفكير مليٍّ في جميع الظروف والوقائع إلى الاعتقاد بأن محاولة السطو كانت من عمل الـ «فاميلي بِت»، وأما بلاذرز فمال إلى الاعتقاد بأن شرف تلك المحاولة إنما يحتكره مستر كونكي تشيكويد العظيم وحده.

وفي غضون ذلك يسترد أوليفر الصحة والعافية، على نحو تدريجي، بفضل عناية مشتركة أحاطته بها مسز مايلي، وروز، ومستر لوزبيرن الرقيق الفؤاد. وإذا كانت الدعوات المتقدة، المنبثقة من قلوب مثقلة بالشُّكران

مستجابة في السماء ـ وإذا لم تكن تلك الدعوات مستجابة فأيها المستجاب؟! ـ إن البركات التي استنزلها الطفل اليتيم عليهم نفذت إلى أفئدتهم مُشيعة فيها الأمن والسعادة.

الفصل الثاني والثلاثون

وهو يصور الحياة السعيدة التي شرع أوليفر يحياها مع أصدقائه الكرام

والواقع أن آلام أوليفر لم تكن لا ضئيلة ولا قليلة. فبالإضافة إلى الأوجاع والمصاعب التي تصاحب، عادة، الأطراف المصابة بكسر ما كان التعرض للبلل والبرد قد أورثه حمى وبُرداء لازمَتاه عدة أسابيع وأنهكتا قواه على نحو يدعو إلى الرثاء. ولكنه شرع، آخر الأمر، يسترد عافيته شيئاً بعد شيء، فصار في استطاعته أن يعبِّر، بكلمات قليلة دامعة، عن تقديره العميق لطِيْبة السيدتين العزيزتين، وعن رجائه أن يُوفَّق، حين يستعيد قوته ونشاطه، إلى القيام بعمل ما يُظهر مبلغ اعترافه بالجميل... عمل يُشعرهما بالحب والشكران اللذين يفعمان فؤاده... عمل مهما يكن ضئيلاً فإنه قادرٌ على أن يُثبت لهما أن كرمهما الرقيق لم يذهب أدراج الرياح، وأن الغلام البائس الذي أنقذه إحسانهما من الشقاء، أو من الموت، متلهف على خدمتهما من كل قلبه وروحه.

وقالت روز حين حاول أوليفر، ذات يوم، في ضعف واضح ـ أن ينطق بكلمات الشُّكران التي ارتفعت إلى شفتيه الشاحبتين: «يا لك من فتى مسكين! سوف تتاح لك فرص كثيرة لخدمتنا إذا شئت ذلك. إننا سوف نرتحل إلى الريف، وعمتي تعتزم أن تصحبك معنا. ولا ريب في أن الجو الهادئ، والهواء العليل، وجميع مباهج الربيع وجمالاته، سوف تردّ إليك عافيتك كاملة خلال أيام قليلة. ولسوف نستخدمك بمئة طريقة حين تصبح قادراً على تجشُّم ذلك العناء.»

فصاح أوليفر: «العناء! أوه، يا آنستي العزيزة، ليتني أستطيع فقط أن أعمل في خدمتك! ليتني أستطيع فقط أن أوقع البهجة في نفسك بسقاية رياحينك، أو العناية بطيورك، أو السعي في مناكب الأرض طوال النهار لإدخال السعادة على قلبك! إني مستعدٌ لأن أقدم حياتي نفسها من أجل تحقيق هذه الأماني!»

فقالت الآنسة مايلي، متبسِّمة: «إنك لن تضطر إلى تقديم أيما شيء على الإطلاق! ذلك بأننا سوف نستخدمك، كما قلت لك من قبل، بمئة طريقة. وإذا ما تجشَّمت نصف ما تعدني الآن بأدائه جعلتَني بذلك جدّ سعيدة حقاً.»

فصاح أوليفر: «سعيدة، يا آنستي! إنه لكرم منك أن تقولي هذا.»

فأجابته السيدة الصغيرة: «إذا تجشمت ذلك جعلتني سعيدة إلى حدّ لا أستطيع أن أصفه لك. إن مجرد التفكير في أن عمتي العزيزة الطيبة قدِّر لها أن تنقذ امرئ من شقاء محزن كذلك الذي صوَّرته لنا سيُسعدني على نحو لا سبيل إلى التعبير عنه. أما التأكد من أن الشخص الذي أسبغَتْ عليه حنانها وطيبتها أثبت بعدُ أنه معترف بالجميل حقاً، سيبهجني أكثر مما تستطيع أن تتخيل. هل تفهمني؟. كذلك تساءلَتْ وهي تتأمل وجه أوليفر المستغرق في التفكير.

فأجابها أوليفر في لهفة: «أوه، نعم، يا سيدتي، نعم! ولكني كنت أقول في ما بيني وبين نفسي إني منكرٌ الآن للجميل.»

فسألته السيدة الصغيرة: «نحو من؟»

فأجابها أوليفر: «نحو السيد الكريم، والمربية العجوز العزيزة، اللذين عُنِيا بي، من قبل، عناية بالغة جداً. ولست أشك في أنهما سوف يبتهجان إذا ما عرفا مبلغ السعادة التي أتمتع بها.»

فأجابت الآنسة المحسنة إلى أوليفر: «وأنا أيضاً لا أشك في ذلك. ولقد تفضل مستر لوزبيرن فوعد باصطحابك لرؤيتهم حالما تمكِّنك صحتك من احتمال عناء الرحلة.»

فصاح أوليفر وقد أشرق وجهه بالحبور: «صحيح يا سيدتي؟ أنا لا أدري، بسبب من الابتهاج الغامر، ما الذي سوف أفعله حين أرى وجهيهما الكريمين مرّة أخرى!»

وما هي إلا فترة يسيرة حتى أمسى أوليفر في حال تساعده على احتمال عناء هذه الرحلة. وهكذا انطلق هو ومستر لوزبيرن، ذات صباح، في عربة صغيرة تملكها مسز مايلي. حتى إذا بلغا جسر تشيرتسي، غلب الشحوب الشديد على وجه أوليفر، وأطلق صيحة عالية.

فصاح الطبيب، في صَخب واضطراب، كشأنه دائماً: «ماذا دهى الغلام؟ هل ترى شيئاً... تسمع شيئاً... تستشعر شيئاً.. ايه؟»

ـ «هناك، يا سيدي،» هكذا صاح أوليفر، مشيراً بإصبعه من نافذة العربة. «ذلك المنزل»!»

فصاح الطبيب: «أجل، ما بال ذلك المنزل؟ تمهَّل، أيها الحوذي. أوقف العربة هنا. ما بال ذلك المنزل، يا صديقي، قل!»

فهمس أوليفر: «اللصوص... البيت الذي ساقوني إليه!»

فصاح الطبيب: «فليأخذه الشيطان! هاي، أنت! ساعدني على الترجُّل.»

ولكن قبل أن يُوفَّق الحوذي إلى النزول عن مقعده كان هو قد غادر العربة، بطريقة أو بأخرى، واندفع إلى البيت المهجور، وشرع يرفس الباب مثل رجل مجنون.

ـ «هاي!» كذلك قال رجل أحدب بشع ضئيل الجسم وهو يفتح الباب على نحو مفاجئ إلى درجة جعلت الطبيب، بسبب من عنف رفسته الأخيرة نفسِهِ، يكاد يسقط على طوله في الرواق. «ما المسألة؟»

فهتف الطبيب، آخذاً بخناقه من غير أن يفكِّر لحظة واحدة: ««المسألة؟! المسألة ليست بالقليلة، إنها مسألة سرقة.»

فأجابه الأحدب في برود: «ولسوف تكون المسألة مسألة قتل، أيضاً، إن لم ترفع يديك عني. هل تسمعني؟»

فقال الطبيب، هازاً أسيرهُ هزة عنيفة: «أجل، أنا أسمعك. أين هو ـ لعن اللّه ذلك الرجل، ما الاسم اللئيم الذي تطلقونه عليه؟ ـ أين هو سايكس. أجل هذا هو اسمه. أين سايكس، أيها اللص؟»

فحدّق الأحدب إليه، وكأنه بلغ قمة الدهش والسخط. ثم إنه تملّص على نحو بارع من قبضة الطبيب، وأطلق وابلاً من الشتائم الرهيبة، وارتد منسحباً إلى المنزل. إلا أنه قبل أن يوفق إلى إغلاق الباب كان الطبيب قد اتخذ سبيله إلى حجرة الاستقبال، من غير أن يضيع أية لحظة في المداولة والمفاوضة. لقد أجال بصره في ما حوله، في قلق، فلم يجد أية قطعة من الأثاث، أو أيّ أثر من شيء ما، حياً كان ذلك الشيء أو غير حي، بل لم يجد أن موضع الخزائن نفسه ينسجم مع وصف أوليفر للمكان.

ـ «والآن؟» كذلك صاح الرجل الأحدب الذي كان قد راقبه مراقبة دقيقة، «ما الذي تعنيه بدخولك منزلي على هذه الصورة العنيفة؟ هل تريد أن تسرقني أم أن تغتالني؟ قل، أيهما تقصد، هذا أم ذلك؟»

فقال الطبيب النزق: «هل رأيت في حياتك كلها رجلاً يخرج للقيام بواحد من هذين الغرضين في مركبة خاصة ذات جوادين، يا مصاص الدماء العجوز المضحك؟»

فسأله الأحدب: «ماذا تريد إذن؟ هل تعتزم أن ترجع من حيث أتيت قبل أن أنزِل بك بعض الأذى؟ اذهب عليك اللعنة!»

فقال مستر لوزبيرن، وهو يلقي نظرة على حجرة الاستقبال الأخرى، التي كانت مثل الأولى ليس بينها وبين وصف أوليفر لها أيّ شبَه البتة: «ما إن أصبح قادراً على التفكير السليم حتى اكتشف مقرّك من جديد، في يوم من الأيام، يا صديقي!»

فقال الأحدب الدميم ساخراً: «أحق ما تقول؟ إذا ما احتجت إليّ في يوم من الأيام فإني هنا. أنا لم أسكن هنا على نحو مجنون ومتوحِّد ـ طوال خمس وعشرين سنة ـ لكي أرتجف منك رعباً. إنك سوف تدفع ثمن سلوكك هذا، أجل، إنك سوف تدفع ثمن سلوكك هذا.» قال

الشيطان الضئيل الشائه ذلك وأطلق صيحة داوية، وأنشأ يرقص على الأرض وكأن الغيظ قد ذهب بصوابه.

فغمغم الطبيب لنفسه: «هذه حماقة بالغة. لا ريب في أن الغلام قد أخطأ المنزل. اسمع! ضع هذه في جيبك، وارجع إلى جُحْرك! نطق الطبيب بهذه الكلمات وألقى إلى الأحدب بقطعة نقدية، وعاد إلى المركبة.

وتبعه الرجل حتى باب المركبة، مطلقاً أقذع الشتائم واللعنات في غير انقطاع. حتى إذا التفت مستر لوزبيرن ليتحدث إلى الحوذي، أقحم رأسه في داخل العربة وحدج أوليفر، لحظة من الزمن، بنظرة حادة ضارية، نظرة رهيبة حقود في الوقت نفسه، لا يمكن للطفل أن ينساها، طوال شهور عديدة، سواء في يقظته أو منامه، ثم إنه واصل إطلاق الشتائم الرهيبة حتى استوى الحوذي، من جديد، في مقعد القيادة. وحين انطلقت بهم المركبة مرّة أخرى، كان في ميسورهم أن يروه على مسافة ما خلفهم، فاحصاً الأرض بقدميه، شاداً بشعره، في نوبة من الغيظ حقيقية أو مفتعلة.

وقال الطبيب بعد صمت طويل: «أنا حمار! هل عرفت ذلك من قبل، يا أوليفر؟»

ـ «لا، يا سيدي.»

ـ «إذن، فلا تنسَ ذلك مرة أخرى.»

ـ «أجل، أنا حمار،» كذلك كرر الطبيب، بعد صمت إضافي استغرق بضع دقائق. «حتى لو لم يخطئ الغلام المنزل، وحتى لو كان الأشخاص أنفسهم هناك ما الذي كان في استطاعتي أن أفعله بمفردي؟ وحتى لو كان معي أيما مساعد فلست أرى أي فائدة كان يمكن أن أجنيها من هذا الصنيع، غير فضح نفسي والاعتراف المحتَّم بالطريقة التي خنقتُ بها تلك المسألة. ولقد كنت أستحقّ ذلك على أية حال. فأنا لا أفتأ أورِّط نفسي في مآزق مختلفة، من طريق الاستسلام لحوافزي الباطنية.»

والواقع أن ذلك الطبيب الممتاز لم يستسلم طوال حياته لشيء غير حوافزه الباطنية. ولسوف يكون في ميسورنا أن نقدر هذه الحوافز التي

تحكَّمت بمسلكه حق قدرها إذا عرفنا أنها لم تسبِّب له حتى ذلك الحين أية متاعب أو بلايا استثنائية، وإنما أكسبته احترام جميع من عرفوه وإجلالهم إلى حد بعيد جداً. وإذا أردنا قول الحقيقة تعيَّن علينا أن نذكر أنه كان قد خرج عن طوره بعض الشيء، دقيقة أو دقيقتين، نتيجة لإخفاقه في العثور على بيِّنة تعزِّز رواية أوليفر، في أول مناسبة أتيح له فيها أن يفوز بتلك البيِّنة. بيد أنه سرعان ما ثاب إلى رشده، حتى إذا وجد أن أجوبة أوليفر عن أسئلته كانت لا تزال مستقيمة متساوية، وأنها كانت لا تزال تُرسَلُ بإخلاص وصدق جليّيْن لا يقلاّن عن ذينك اللذين وسَماها من قبل، عقد العزم على تصديقها تصديقاً كاملاً منذ تلك اللحظة فصاعداً.

وإذ كان أوليفر يعرف اسم الشارع الذي يقيم فيه مستر براونلو، فقد استطاعا أن يتجها إلى هناك مباشرة. حتى إذا انعطفت المركبة نحو ذلك الشارع أنشأ فؤاده يخفق خفقاناً شديداً حتى لقد انقطعت أنفاسه أو كادت.

وسأله مستر لوزبيرن: «والآن، يا بنيّ، في أي هذه المنازل يقطن صاحبك؟»

فأجابه أوليفر، وهو يشير بإصبعه، في لهفة، من نافذة المركبة: «ذاك! ذاك! المنزل الأبيض! أوه، أسرع! أسرع أتوسل إليك! يخيَّل إليّ أني سأموت! أنا أرتجف ارتجافاً شديداً!»

فقال الطبيب وهو يربت على كتف أوليفر: «هدّئ من روعك! هدّئ من روعك! إنك ستراهم في الحال، ولسوف يُسعدهم أن يجدوك سالماً معافى.»

فصاح أوليفر: «أوه، أنا أرجو ذلك! لقد أحسنوا إليّ إحساناً بالغاً. لقد أحسنوا إليَّ إحساناً لا أقوى على وصفه.»

وواصلت المركبة جريها. ثم وقفت. لا، ليس هذا هو المنزل المنشود. لعله أن يكون المنزل التالي. وتقدمت المركبة بضعة ياردات أخرى. ورفع أوليفر عينيه إلى النوافذ، وقد تحدّرت على وجهه عبرات التوقُّع السعيد.

وا أسفاه! لقد كان المنزل الأبيض خالياً، وكانت على النافذة لوحة مسطور عليها: «للإيجار.»

ـ «أطرق الباب التالي!» كذلك صاح مستر لوزبيرن واضعاً ذراعه في ذراع أوليفر: «ما ألذي حلَّ بمستر براونلو، الذي كان يقيم في المنزل المجاور، هل تعلمين؟»

كانت الخادمة لا تعلم. ولكنها أبدت استعدادها للمضيّ ابتغاء الاستطلاع. وما هي إلا فترة يسيرة حتى رجعت وأعلنت أن مستر براونلو باع ممتلكاته كلها، وارتحل إلى جزائر الهند الغربية، قبل أسابيع ستة. وشبك أوليفر يديه، وارتدّ إلى الوراء موهون القوى.

وسألها مستر لوزبيرن بعد لحظة من الصمت: «وهل ارتحلت مدبِّرة منزله أيضاً؟»

فأجابته الخادمة: «نعم، يا سيدي. لقد ارتحل السيد العجوز، ومدبِّرة المنزل، وسيدٌ كان صديقاً لمستر براونلو... ارتحلوا كلهم معاً.»

فقال مستر لوزبيرن للحوذي: «إذن، عد بنا إلى البيت. ولا تقف لكي تعلف الجوادين إلا بعد أن تخرج من لندن اللعينة هذه!»

ـ «فلنذهب إلى الكتبيّ، يا سيدي!» كذلك قال أوليفر. «أنا أعرف الطريق المؤدية إلى هناك. فلنذهب لنراه، أرجوك يا سيدي! أوه! فلنذهب لنراه من فضلك!»

فقال الطبيب: «حسبنا، اليوم، خيبة أمل واحدة، يا بنيّ المسكين. إنها تكفينا نحن الاثنين وزيادة. إذا نحن مضينا إلى بيت الكتبيّ فلا بدَّ أن نجد إنه قد مات، أو أضرم النار في منزله، أو ولى هارباً. لا، لا، فلنرجع إلى البيت مباشرة!»

وأوقعت خيبة الأمل المريرة تلك أسى بالغاً في نفس أوليفر حتى في تلك اللحظات التي نعِمَ خلالها بأعظم السعادة. ذلك بأنه كان قد أبهج نفسه مرات عديدة، خلال مَرْضتِهِ، بالتفكير بكل ما سوف يقوله له مستر

براونلو ومسز بيدوين، وبالحبور الذي سوف يغمره حين يحدّثهما حديث الأيام والليالي الطويلة التي سلخها وهو يفكّر في ما صنعاه من أجله، ويندب سوء حظه الذي قضى بأن يُفْصَل عنهما فصلاً وحشياً. وفوق هذا، فإن الأمل في تبرير نفسه تجاههما، وإيضاح الطريقة التي أكرِه بها على الابتعاد عنهما كان قد قوّى من معنوياته وثبَّت عزيمته في وجه كثير من المحن الأخيرة التي ابتُلي بها. فإذا به الآن لا يكاد يستطيع احتمال التفكير بأنهما قد ارتحلا إلى تلك الديار النائية وقد ساورهما الاعتقاد بأنه محتال ولصّ... وهو اعتقاد قد لا يجد ما يكذّبه حتى اليومِ الذي يلفظ فيه أنفاسه الأخيرة...

بيد أن هذه الحادثة لم تُفْضِ إلى أيما تعديل في مسلك المحسنين إليه. فبعد أسبوعين اثنين، عندما استحال الجو دافئاً جميلاً، وشرعت كل شجرة وكل ريحانة تُطْلع وريقاتها الغضة وزهراتها الغنية، اتخذوا الاستعدادات للابتعاد عن بيتهم في تشيرتسي بضعة أشهر. لقد بعثوا إلى أحد المصارف بتلك الأطباق الفضية التي أثارت جشع فاجين إثارة عارمة، وعهدوا إلى جيلز وخادم آخر في البقاء للعناية بأمر المنزل، ثم ارتحلوا إلى بيت صغير قائم في الريف، على مسافة غير بعيدة من تشيرتسي، واصطحبوا أوليفر معهم.

من ذا الذي يستطيع أن يصوّر الهناءة والبهجة، والطمأنينة والسكينة العذبة التي استشعرها الغلام السقيم في الهواء العليل وبين النجاد الخضر والغابات الملتفة في قرية من قُرى الريف؟! من ذا الذي يستطيع أن يصف كيف تنفذ مشاهد الأمن والسكينة في نفوس مَنْ هدَّهم الألم مِن أبناء المدن المزدحمة الصاخبة، وتغرس نضارتها عميقاً عميقاً في قلوبهم المرهَقة؟ وحتى أولئك الذين قدِّر لهم أن يعيشوا في شوارع مكتظة محصورة، طوال أعمار من الكدح، والذين لم يتوقوا إلى التغيير قط... أولئك الذين أصبحت العادة طبيعة ثانية عندهم والذين انتهوا، أو كادوا، إلى أن يحبوا كل آجرة وكل حجر يشكلان تخوم نزهاتهم اليومية

الضيقة. . . حتى هؤلاء حنُّوا آخر الأمر، بعد أن بسط الموت يده نحوهم، إلى نظرة قصيرة إلى وجه الطبيعة. فما إن أبْعِدوا عن مسارح آلامهم ومسراتهم القديمة حتى بَدَوا وكأنهم انتقلوا على التوّ إلى حال من الوجود جديدة. لقد دبُّوا دبيباً، يوماً بعد يوم، إلى بقعة ما، خضراء مشمسة؛ ولقد أيقظ مشهد السماء والنجد والسهل والمياه المتألقة ذكريات في نفوسهم وذكريات، بحيث إن تذوّقاً سَبْقياً للسماء نفسها قد لطَّف انحدارهم السريع، فغابوا في قبورهم بمثل طمأنينة الشمس التي شهدوا غروبها من نوافذ حجراتهم الموحشة قبل بضع ساعات ليس غير، وبمثل الوداعة التي احتجبت بها عن أبصارهم الكليلة الواهنة! إن الذكريات التي تبعثها مشاهد الريف السَّاجية ليست من هذا العالم، وليست من أفكاره وأمانيه. وإن أثرها اللطيف قد يعلِّمنا كيف تضفر أكاليل جديدة لقبور من أحببناهم، وقد يطهِّر أفكارنا، ويقهر أمامها قديم العداوة والبغضاء، بيد أنه يتخلَّف تحت هذا كله، في أقلّ العقول نزوعاً إلى التأمل، وعيٌ سديمي مبهم يذكِّر المرء بأنه عرف منذ فترة بعيدة، في عهد ناء قصيّ، مثل هذه المشاعر مما يثير عنده أفكاراً كئيبة عن مستقبل بعيد، ويَثْني تحت ثقله الكبرياء والتكالب على المنافع الدنيوية.

كانت بقعة فاتنة تلك التي ذهبوا إليها. وهناك بدا أوليفر، الذي أمضى أيام حياته بين الحشود القذرة ووسط الجلبة والشغَب، وكأنه استهل وجوداً جديداً. كانت شجرات الورد والياسمين البري تتسلق جدران البيت البسيط، وكان اللبلاب يتعرّش حول جذوع الأشجار، وكانت رياحين الحديقة تعطِّر الهواء بضروب من الشذى. وعلى مقربة من البيت كانت جبانة صغيرة، غير مزدحمة بشواهد القبور الطويلة السمجة، ولكنها غاصة بالرموس المتواضعة المكسوّة بالكلأ والطحالب الطريَّة، الرموس التي يرقد تحتها عجائز القرية رقدتهم الأخيرة. وكثيراً ما طوّف أوليفر بذلك المكان. وإذ كان يفكِّر في القبر الحقير الذي رقدت فيه أمه، فإنه كان يقعد هناك، أحياناً، وينتحب وحده. ولكنه ما إن يرفع بصره إلى السماء المترامية

الأطراف فوق رأسه حتى يكف عن التفكير فيها بوصفها راقدة تحت الثرى، ويشرع في البكاء من أجلها، على نحو محزون، ولكنْ من غير ألم.

كانت فترة سعيدة. فالنهارات آمنةٌ رائعة، والليالي لم تحمل معها لا خوفاً ولا هماً، ولا ذبولاً في سجن بائس ولا تشاركاً مع رجال بائسين إنها لم تحمل معها غير فكرات عذبة سعيدة. وكل صباح، كان أوليفر يمضي إلى سيد عجوز أشيب مقيم على مقربة من الكنيسة الصغيرة وكان هذا الشيخ يعلِّمه القراءة على نحو أفضل، ويعلمه الكتابة، وكان يخاطبه في لطف بالغ ويبذل قصارى جهده في تعليمه مما جعل أوليفر لا يني يعمل على اكتساب رضاه وإعجابه. وكان من دأب أوليفر، بعد ذلك، أن يتمشّى مع مسز مايلي وروز، ويسمع إليهما تتحدثان حديث الكتب. وكان يجلس أحياناً على مقربة منهما في مكان ظليل ويصغي فيما تكون السيدة الصغيرة ماضية في القراءة، وهو عمل كان في إمكانه أن يؤديه، حتى تهبط العتمة ويتعذر عليه أن يتبيَّن الحروف. وبعد ذلك كان عليه أن يدرس دروس الغد، فينكبّ على ذلك في همة ونشاط، ضمن جدران حجرة صغيرة تطلّ على الحديقة، حتى يدنو الليل في تؤدة، عندما كان دأب السيدتين أن تغادرا البيت مرّة أخرى للنزهة، مصطحبتين أوليفر معهما، فهو يصغي في ابتهاج بالغ إلى كل ما تقولانه. وكان يستشعر أعظم السعادة إذا ما رغبتا في زهرة يستطيع أن يتسلق لبلوغها، أو إذا ما نسيتا أيما شيء يستطيع هو أن يعدو التماساً له: لقد كان يتصرّف في مثل هذه الحال بأقصى سرعة قدِّرت له في أيما يوم. حتى إذا احلولك الظلام، وانقلبوا إلى البيت، كانت السيدة الصغيرة تجلس إلى البيانو، وتعزف لحناً من الألحان اللطيفة، أو تغني في صوت خفيض عذب أغنية قديمة كانت عمتها تطرب لسماعها. ولم تكن الشموع تضاء في أمثال هذه المناسبات، وكان أوليفر يقعد قرب إحدى النوافذ، مصغياً إلى الموسيقى العذبة وقد استخفه الطرب.

فإذا كان يومُ الأحد أنفقوه على نحو مختلف جداً عن بقية الأيام! لقد كان يوماً جدّ سعيد أيضاً، كجميع الأيام الأخرى في ذلك العهد الموغل في السعادة! كان ثمة، في الصباح، تلك الكنيسة الصغيرة، وقد صفَّقت الأوراق الخضر عند نوافذها وغردت الأطيار خارجها، وتسرّب الهواء الأرِج عبر الرواق الخفيض فملأ المبنى الساذج بشذاه. كان الفقراء بالغي الأناقة والنظافة وكانوا يركعون للصلاة في خشوع عميق بحيث بدا اجتماعهم هناك متعة لا واجباً شاقاً مضجراً. وبرغم أن الترانيم لم تكن جدّ مصقولة إلا أنها كانت طبيعية ولقد بدت أحفل بالموسيقى (في أذني أوليفر على الأقل) من أيّ من الترانيم التي قدِّر له أن يسمعها في الكنيسة من قبل. وبعد ذلك كان يجيء دور النزهات سيراً على الأقدام، كالمعتاد، ثم زيارات كثيرة للمنازل النظيفة التي يقطنها العمال الكادحون. حتى إذا هبط الليل تلا أوليفر، إصحاحاً أو إصحاحين من التوراة، الذي كان يدرسه طوال الأسبوع، واجداً في أداء هذه المهمة اعتزازاً ومتعة يفوقان الاعتزاز والمتعة اللذين كان خليقاً به أن يستشعرهما لو كان هو القسّ نفسه.

وفي الصباح، كان من دأب أوليفر أن ينهض على قدميه في الساعة السادسة، ويطوّف في الحقول ليجمع باقات من الزهور البرية يعود، بعدُ، مثقلاً بها إلى البيت حيث كان تنسيقها على أفضل وجه ممكن لتزيين مائدة الإفطار يقتضيه عناية بالغة وتفكيراً طويلاً. وأخيراً كان ثمة بابونج الطير الغضّ، أيضاً، لعصافير الآنسة مايلي، ذلك البابونج الذي كان أوليفر (بعد أن درس الموضوع على يديْ كاهن القرية البارع) يزين به الأقفاص وفقاً لمقتضيات الذوق التقليدي إلى أبعد الحدود. حتى إذا أحيطت العصافير، ذلك اليوم، بجوٍّ من النظافة والأناقة، مضَوْا في رحلة صغيرة يؤدون خلالها عملاً من أعمال الخير والصدقة في القرية. ذلك كان دأبهم كل يوم، فإذا اتفق لهم أن لا يمضوا لسبب ما فقد كان ثمة دائماً عمل يؤدَّى في الحديقة. وكان أوليفر (الذي درس هذا العلم على الأستاذ نفسه، وكان بستانياً بالحرفة) ينكبّ على ذلك العمل في حماسة بالغة، ريثما تُقْبل

الآنسة روز. وعندئذ كان أوليفر يُغمر بالإطراء لما جشَّم نفسه من عناء.

وهكذا انقضت شهور ثلاثة: شهور ثلاثة كانت ـ حتى في حياة أكثر الناس هناءة وأوفرهم حظاً من العطف والمحاباة ـ سعادة صرفة، وكانت في حياة أوليفر غبطة حقيقية. وبالكَرم الأصفى والأحفل بالودّ، من جانب، وبعرفان الجميل الأشد إمعاناً في الصدق والحماسة والإتقاد من جانب، دُجِّن أوليفر، ولا عجب، بعد فترة من الزمان وجيزة، تدجيناً كاملاً، على أيدي السيدة العجوز وابنة أخيها. ولقد قابلتا مودة قلبه الغضّ الحسَّاس المتقدة، باعتزازهما به وتعلقهما بشخصه.

الفصل الثالث والثلاثون

وفيه تصاب سعادة أوليفر وأصدقائه بصدمة مفاجئة

وولّى الربيع في خفة ورشاقة، وأقبل الصيف. ولئن كانت القرية جميلة أول الأمر فقد أصبحت الآن في ذروة خصبها الرَّغْد. فالأشجار، التي بدت في الشهور السابقة منكمشة جرداء، قد تفجَّرت الآن بحياة قوية وعافية موفورة. وبأذرعها الخضراء المبسوطة فوق الأرض الظمأى حوَّلت البقاع المكشوفة العارية إلى زوايا من الطراز الأول، زوايا ذات ظل كثيف عذب كان يساعد المرء على تسريح طرفه في البرية الواسعة المنبسطة أمامه والمستحمة بأشعة الشمس. كانت الأرض قد اكتست بوشاحها الأخضر الأشدّ إشراقاً، وسفحت في الأرجاء عطورها الأشدّ ذكاء. ذلك كان ربيع العمر، بالنسبة إلى السنة، وأوج قوَّتها. وكان كل شيء بهيجاً زاهراً.

ومع ذلك، اتصلت الحياة وادعة في البيت الصغير، وخيَّم الصفاء البهيج نفسُهُ على نزلائه. وكان أوليفر قد غدا، قبل ذلك بفترة غير يسيرة، قويَّ البِنْية موفور الصحة. ولكن العافية أو المرض لم تغيِّر من مشاعره الحارة نحو من كانوا حوله، برغم أنهما يغيِّران من مشاعر أقوام كثيرين. كان لا يزال عين ذلك المخلوق اللطيف، المحبّ.

وتطاولت نزهتهم، ذات ليلة جميلة، أكثر من المعتاد. ذلك بأن الجو كان دافئاً على نحو استثنائي، وكان القمر ساطعاً، وكانت النسمات العليلة قد هبَّت فأنعشت النفوس إنعاشاً بالغاً. والواقع أن روز كانت في جذل عظيم، وقد واصلوا سيرهم، متجاذبين أطراف حديث مرح، حتى تجاوزوا المسافة التي تعوّدوا اجتيازها. وما لبث التعب أن ألمَّ بمسز مايلي، فانقلبوا عائدين إلى البيت في أناة. واكتفت السيدة الصغيرة بخلع قلنسوتها البسيطة، وجلست إلى البيانو جرياً على مألوف عادتها. وبعد أن أمرّت أصابعها، في ذهول على مفاتيح البيانو بضع دقائق، شرعت تعزف لحناً خفيضاً مغرقاً في الكآبة، وفيما هي تعزف ذلك اللحن سمعا صوتاً أوقع في نفسيهما أنها كانت تبكي.

فقالت السيدة العجوز: «روز، عزيزتي!»

فلم تجبها روز بشيء، بل أسرعت في عزفها بعض الشيء، وكأن تينك الكلمتين كانتا قد أيقظتاها من غمرة أفكار كئيبة.

وصاحت مسز مايلي، وقد نهضت في اهتياج وانحنت فوقها: «روز، حبيبتي! ما بالك؟ أتذرفين الدموع؟ ما الذي يحزنك، يا فتاتي العزيزة؟»

فأجابت السيدة الصغيرة: «لا شيء، يا عمتي، لا شيء. لست أدري ما بي. أنا لا أستطيع أن أصفه. ولكني أشعر...»

فقاطعتها مسز مايلي: «أنت لستِ مريضة، أليس كذلك يا منية قلبي؟»

فأجابتها روز وهي ترتعد وكأن قشعريرة قاتلة سرت في جسمها وهي تتكلم: «لا، لا! أنا لست مريضة! ولسوف أصبح أحسن حالاً بعد لحظات قليلة. أغلقِ النافذة، أرجوك!»

وأسرع أوليفر لتلبية رغبتها. وبذلت السيدة الصغيرة شيئاً من الجهد لاستعادة بِشرها، وناضلت لكي تعزف لحناً أكثر بهجة. ولكن أصابعها سقطت خائرة فوق مفاتيح البيانو، فحجبت وجهها بكلتا يديها، ثم ارتمت

على إحدى الأرائك، وأطلقت العنان للعبرات بعد أن أمست الآن عاجزة عن كبحها.

وقالت السيدة العجوز وهي تطوق روز بذراعيها: «يا بُنيَّتي! أنا لم أرك في مثل هذه الحال قط من قبل.»

فأجابتها روز: «لو استطعت اجتنابها لما روّعتك البتة. ولقد حاولت ذلك، باذلة قصارى جهدي، فلم أستطع، يخيَّل إليَّ، يا عمتي، إني مريضة فعلاً.»

ولقد كانت كذلك من غير ريب. إذا ما إن جيء بالشموع حتى تبيَّنا أن لون محياها كان قد استحال، خلال الفترة القصيرة التي مضت على عودتهم من النزهة، إلى بياض رخاميّ. إن ملامحها لم تفقد شيئاً من جمالها، ولكنها كنت قد تغيّرت، ولقد رانت على وجهها اللطيف سيماء قلقة شاردة لم تُلمَّ به قطّ من قبل. وما هي غير دقيقة حتى خضَّبه إحمرار قرمزي، وغلب على عينيها الزرقاوين الرقيقتين شرود ثقيل. ولكن هذا الخضاب سرعان ما تلاشى، مثل ظلٍّ ألقته سحابة عابرة، وإذا بشحوب كشحوب الموتى يستبدّ بها مرّة أخرى.

ولاحظ أوليفر ـ الذي راقب السيدة العجوز في قلق ـ إن تلك الأعراض قد روَّعتها، ولقد كانت مروَّعة بها حقاً. ولكنه رأى في الوقت نفسه أنها تظاهرت بالاستخفاف بتلك الأعراض، فحاول هو أن يحذو في ذلك حذوها، ولقد نجحا في ذلك، فإذا بمعنويات روز ترتفع بعض الشيء عندما أقنعتها عمتها بالإيواء إلى الفراش. بل لقد بدت في حال صحية أفضل، وأكدت لهما أنها سوف تنهض في الصباح موفورة العافية.

وقال أوليفر حين رجعت مسز مايلي: «أرجو أن لا يكون ثمة ما يشغل البال. إنها لا تبدو في صحة جيدة هذه الليلة. ولكن...»

فأومأت السيدة العجوز إليه بأن لا يتكلم. ثم إنها قعدت في زاوية مظلمة من زوايا الحجرة، واعتصمت بالصمت فترة. وأخيراً، قالت في صوت مرتعش:

«أرجو أن لا يكون، يا أوليفر. لقد كنت سعيدة معها أعظم السعادة طوال بضع سنوات. ومن يدري، فلعلي كنت سعيدة معها أكثر مما ينبغي. وجائز أن يكون أوان إصابتي ببلية من البلايا قد آن. ولكني أرجو أن يدفع اللّه عني تلك المصيبة.»

فسألها أوليفر: «أية مصيبة؟»

فقالت السيدة العجوز: «مصيبة فقداني هذه الفتاة العزيزة التي طالما كانت مصدر راحتي وسعادتي. وإنها لمصيبة قاصمة للظهر.»

فهتف أوليفر في اهتياج: «أوه! لا سمح اللّه!»

فقالت السيدة العجوز وهي تفرك يديها في توجُّع: «أرجو أن يستجيب اللّه دعاءك، يا ولدي!»

فقال أوليفر: «أنا واثق من أنه ليس ثمة خطر من أيّ شيء رهيب إلى هذا الحدّ. لقد كانت، قبل ساعتين اثنتين، في أحسن حال.»

فأجابته مسز مايلي: «ولكنها جد مريضة الآن، وأنا واثقة من أن حالها سوف تزداد سوءاً. يا عزيزتي روز! يا عزيزتي روز! أوه، ما الذي سأفعله إن فقدتها!»

وأطلقت العنان لحزن شديد إلى درجة جرّأت أوليفر، الذي راح يكبح عواطفه، والتوسل إليها أن تعتصم بالهدوء إكراماً للسيدة الصغيرة العزيزة نفسها.

وقال أوليفر، فيما اندفعت العبرات إلى عينيه، برغم ما بذل من جهد لكبحها: «وفكِّري، يا سيدتي... فكِّري كم هي صغيرة وطيِّبة، وبأي قَدْر من السعادة والراحة تحيط كل مَنْ هم حولها. أنا واثق... بل أنا موقن... موقن جداً... أنها لن تموت... أجل، لن تموت، من أجلك أنتِ ـ أنتِ المرأة الصالحة إلى أبعد الحدود ـ ومن أجل كل من تُسْعدهم. إن اللّه لن يدعها تموت في مثل هذه السنّ الغضة، أبداً.»

فقالت السيدة مايلي، واضعة يدها على رأس أوليفر: «صه! أنت

تفكِّر مثل غلام طفل، أيها الغلام المسكين. ومع ذلك فأنت تعلِّمني واجبي. لقد نسيت ذلك الواجب لحظة، يا أوليفر، ولكني أرجو أن يُغفر لي هذا، فأنا امرأة طاعنة في السن، ولقد شهدت من مشاهد المرض والموت ما يجعلني أدرك لوعة الانفصال عمَّن نحبّ. وأن لي من الخبرة بأمور الدهر أيضاً ما يمكِّنني من أن أعرف أن أصغرنا سناً وخيرنا نفساً ليسوا دائماً الذين يبقيهم الموت لمحبِّيهم. ولكن هذا يجب أن يوقع في نفوسنا العزاء، ذلك بأن السماء عادلة. وأشياء من مثل هذه لتعلِّمنا، على نحو مؤثر، أن ثمة عالماً أعظم إشراقاً من هذا العالم، وأن الانتقال إليه قريب. فلتكن مشيئة اللَّه! أنا أحبها، وهو يعرف إلى أي مدى!»

ودُهش أوليفر إذ رأى أن مسز مايلي استطاعت، وهي تنطق بتلك الكلمات، أن تكبح أشجانها بجهد وحيد، أو هكذا خيِّل له على الأقل، ثم إنها استعادت رباطة جأشها وصدق عزيمتها. وتعاظم دهشُهُ عندما اكتشف أن تلك العزيمة الصادقة لم تعرف الوهن، وأن مسز مايلي ظلت أبداً ناشطة مطمئنة النفس برغم كل ما بذلته من عناية بالمريضة وسهر على راحتها، فهي تؤدي جميع المهام التي آلت إليها أداء موصولاً، بل أداء يتسم بالابتهاج ـ إذا كان لنا أن نحكم وفقاً للمظاهر الخارجية كلها. ولكنه كان فتى، ولم يكن يدري أيّ معجزة تستطيع العقول الراجحة أن تجترحها في غمرات المحنة، وأنَّى له أن يدري، ما دام أصحاب تلك العقول لا يعرفون أنفسهم إلا نادراً نادراً؟..

وكان الليل الذي تلا، ليلاً مفعماً بالقلق. حتى إذا تنفس الصبح تحققت نبوءات مسز مايلي تحققاً كبيراً. كانت روز تجتاز المرحلة الأولى من مراحل حمَّى رهيبة خطرة.

ـ «يتعيَّن علينا أن ننشط، يا أوليفر، وأن لا نستسلم للأسى العقيم،» كذلك قالت مسز مايلي واضعة إصبعها على شفتها، فيما كانت تحدق إلى وجهه تحديقاً موصولاً. «هذه الرسالة يجب أن يُبْعث بها، بأقصى سرعة ممكنة، إلى مستر لوزبيرن. يجب أن تحمل إلى البلدة التي تقام فيها

السوق، والتي لا تبعد أكثر من أربعة أميال، من الطريق القصيرة الممتدة عبر الحقول، لتُرْسَل من ثم بواسطة رسول خصوصي يمتطي متن فرس، إلى تشيرتسي مباشرة. إن رجال النُزل سوف ينهضون بهذه المهمة، وأنا أعلم أن في استطاعتي أن أتكل عليك في القيام بالواجب.»

ولم يوفق أوليفر إلى النطق بأي جواب. ولكن أساريره عبرت عن رغبته الملحة في الانطلاق في الحال.

ـ «هي ذي رسالة أخرى،» كذلك قالت مسز مايلي وتمهلت لحظة لتفكِّر. «ولكني لا أكاد أدري هل يتعين عليّ أن أبعث بها الآن أو أن أنتظر حتى أرى على أي صورة سوف تتطور حالُ روز. أنا لن أبعث بها إلا إذا خشيتُ أسوأ الأشياء.»

فسألها أوليفر، متلهفاً لأداء مهمته، باسطاً يده لتسلُّم الرسالة: «أهي موجهة إلى تشيرتسي أيضاً، يا سيدتي؟»

ـ «لا!» كذلك أجابت السيدة العجوز وهي تدفع الرسالة إليه على نحو آليّ. وألقى أوليفر نظرة عليها، فرأى أنها معنونة باسم السيد المحترم هاري مايلي، المقيم في قصر إقطاعي كبير من قصور الريف. ولكنه لم يفهم أين يقع ذلك القصر على وجه التحديد.

وسألها أوليفر وهو يرفع بصره نحوها نافد الصبر: «هل أعمل على إيصالها، يا سيدتي؟»

فأجابته مسز مايلي، وهي تستردها منه: «لست أعتقد ذلك. سوف أنتظر حتى غد.»

ولم تكد تنطق بهذه الكلمات حتى قدّمت كيس نقودها إلى أوليفر. فانطلق في غير إبطاء، وبأسرع ما أمكنه.

لقد عدا، في خفة، عبر الحقول، وهبط الدروب الضيقة التي كانت تخترقها في بعض الأحيان. كانت سنابل القمح تحجبه من كلتا الناحيتين، ليعود بعدُ فيبرز وسط حقل مكشوف، انصرف الحصادون وناشرو العشب المجفف إلى أداء عملهم فيه بهمة ونشاط. ولم يكف عن العدو مرة

واحدة، إلا لبضع ثوان ليس غير لكي يسترد أنفاسه، حتى انتهى آخر الأمر ـ وقد تفصَّد العرق من جسمه وكساه الغبار، إلى موضع السوق الصغيرة القائمة في البلدة التي عيَّنتها السيدة العجوز.

وهنا تمهَّل، وأجال طرفه في ما حوله بحثاً عن النُزل. كان ثمة مصرف أبيض، ومعمل جعة أحمر، ودار بلدية صفراء. وفي إحدى الزوايا كان يقوم مبنى كبير، دُهنت جميع أجزائه الخشبية الخارجية باللون الأخضر، ونصِبت أمامه لافتة مسطور عليها: «نُزل الملك جورج». فهرِع إلى ذلك المكان، حالما وقعت عينه على اللافتة.

وتحدث إلى حوذي كان النعاس غالباً عليه تحت البوّابة، فأحاله هذا، بعد أن عرف ما يبتغيه، إلى سائس الخيل، الذي أحاله بعد أن سمع بدوره لما يريد أن يقوله ـ إلى صاحب النزل نفسه، الذي كان سيداً فارع الطول، ذا ربطة عنق زرقاء، وقبعة بيضاء، وبنطال قصير عسليّ، وحذاء عالي الساق متناغم مع ذلك كله. وكان صاحب النزل هذا مستنداً إلى مضخَّة قائمة على مقربة من باب الاصطبل، مستغرقاً في تنظيف أسنانه.

عندئذ مضى هذا السيد، في أناة بالغة، إلى المشرب لكي يعدّ الفاتورة، وهو عمل استغرق وقتاً غير قصير. حتى إذا أنجِزت الفاتورة، ودُفعت، كان لا بدَّ من اسراج جواد من الجياد، وإلباس رجل من الرجال، وهما عملان استغرقا عشر دقائق إضافية. وفي غضون ذلك استبدّت بأوليفر حالة يائسة من القلق ونفاد الصبر حتى لقد استشعر أن في استطاعته أن يثب هو نفسه إلى ظهر الجواد، وينطلق به بأقصى سرعة ممكنة، إلى المحطة التالية. وأخيراً أمسى كل شيء جاهزاً، فدفع أوليفر الرزمة الصغيرة إلى الرجل، متوسلاً إليه غير مرة أن يوصلها إلى صاحبها على جناح السرعة. عندئذ لكز الرجل جواده بالمهماز، وانطلق به محدثاً فوق أرض السوق غير المستوية جلبة كبيرة. وما هي إلا دقيقتان أخريان حتى أمسى خارج البلدة واندفع بأقصى السرعة نحو الطريق المفضية إلى بوابة المكوس.

والواقع أن التأكد من أن التماس النجدة قد أرْسِل وأن أيما وقت لم يُضَعْ لم يكن بالشيء القليل، وهكذا اجتاز أوليفر فِناء النُزُل في خطى سريعة وقد خفت وطأة الغم عن نفسه بعض الشيء. وكان ينعطف خارجاً من بوابة النزل عندما اصطدم برجل طويل متلفع بشبه عباءة كان يدخل النزل في تلك اللحظة ذاتها.

وصاح الرجل وقد ثبَّت عينيه على أوليفر، وارتدّ إلى الوراء فجأة: «هاه! ما هذا بحق الشيطان؟!»

فقال أوليفر: «ألتمس عفوك، يا سيدي. لقد كنت أتعجل العودة إلى البيت، ولم أر أنك قادم.»

ـ «الموت لك!» كذلك غمغم الرجل في ذات نفسه، محدقاً إلى الغلام بعينيه السوداوين الواسعتين. «من كان يصدق هذا؟! فليُسْحَقْ حتى يصير رماداً! لقد وثب من تابوت حجري لكي يعترض سبيلي!»

فتلعثم أوليفر، وقد روّعته نظرة الرجل الغريب المتوحشة، وقال: «متأسف! أرجو أن لا أكون قد سببت لك أيّ أذى!»

فغمغم الرجل، في اهتياج رهيب، مرسلاً الكلمات من بين أسنانه المطبقة: «فليأخذك الشيطان! إني لو وجدت الشجاعة على قول كلمة واحدة لكان من الجائز أن أتخلص منك في ليلة واحدة ليس غير. فلتنصبّ اللعنات على رأسك، ولينزل الموت الأسود على قلبك، أيها العفريت الصغير! ما الذي تفعله هنا؟»

وهزّ الرجل جُمع كفه، فيما كان ينطق بهذه الكلمات على نحو متقطع. وتقدَّم نحو أوليفر وكأنه يعتزم أن يسدد إليه لكمة، ولكنه سقط على الأرض في عنف، وأنشأ يتلوى ويُزبد، في نوبة من نوبات الصرع.

وتأمل أوليفر، لحظة، حركات الرجل المجنون المهتاجة (ذلك بأنه حسبه كذلك فعلاً)، ثم اندفع إلى النزل التماساً للنجدة. حتى إذا رأى

أنهم نقلوه إلى موضع من الفندق مأمون، وجَّه وجهه نحو البيت وانطلق بأسرع مما مكَّنته قدماه أن ينطلق، لكي يعوّض عن الوقت المضيَّع، وهو يستحضر في ذهنه، بكثير من الدهشة وشيء من الخوف، سلوك الرجل الذي انفصل عنه منذ لحظات، ولقد كان سلوكاً عجيباً حقاً.

بيد أن الحادثة لم تبق ماثلة في ذاكرته فترة طويلة. إذ ما إن وصل إلى البيت الريفي البسيط حتى وجد أشياء كثيرة شغلت تفكيره وطردت من ذاكرته كل ما يتصل بشخصه هو.

كانت صحة روز مايلي قد تدهورت في سرعة. وقبيل منتصف الليل شرعت تهذي. ولقد سهر على العناية بها سهراً موصولاً طبيب متمرن مقيم في تلك البقعة. والواقع أن هذا الطبيب لم يكد يفحص المريضة أول مرة حتى انتحى بمسز مايلي زاوية وأسرّ إليها أن مرض روز هو من النوع المخيف. وأضاف قائلاً: «الحق أن شفاءها لن يتمّ إلا بمعجزة.»

ما أكثر ما نهض أوليفر واثباً من فراشه تلك الليلة، وانسلَّ على رؤوس أصابعه إلى السلم، وأصغى محاولاً أن يتلقَّف أضأل صوت منبثق من حجرة الفتاة المريضة! وكم من مرة سرت في أوصاله رعدة، وتفصَّد عرق الرعب البارد على جبينه، عندما أوهمه وقع الأقدام المفاجئ أن شيئاً أفظع من أن يستطيع التفكير فيه كان قد حدث حتى في تلك اللحظات! وما كان أفتر جميع الصلوات التي سبق له أن أطلقها إذا ما قيست بحرارة تلك التي أطلقها الآن، في تضرعه الموجع المنفعل من أجل حياة وصحة المخلوقة اللطيفة التي كانت تترنح عند حافة القبر العميقة!

أوه! يا للترقب الرهيب القلِق الذي تُحْبَسُ له أنفاسنا عندما نقف جامدين بينا تتأرجح في كفة الميزان حياةُ مَنْ نؤثره بالحب! أوه، يا للأفكار المعذِّبة التي تزدحم في الذهن، فتجعل القلب ينبض في قوة وعنف، والأنفاس تتقاصر، بسبب من الصور التي تبعثها أمامه! ويا للتوق اليائس إلى القيام بعمل ما لتخفيف الألم، أو تقليل الخطر اللذين لا نستطيع لهما تلطيفاً! ويا لكآبة النفس والروح التي تعصف بنا كلما تذكرنا،

في حزن، عجزنا وقلة حيلتنا! أيّ تعذيب يمكن أن يَعْدِل هذه الكروب؟! وأي تفكير أو جهد يستطيع ـ في أوج حمَّى الزمان هذه ـ أن يسكّنها ويلطِّفها؟!

وارتفع الضحى، وكان البيت الصغير موحشاً ساكناً. لقد تكلم القوم في همس، وبرزت لدى الباب، بين الفينة والفينة، وجوهٌ جازعة، ورجعت النسوة والأطفال والدموع تترقرق في عيونهم. وطوال النهار، وخلال ساعات أخرى تقضَّت بعد هبوط العتمة، ذرع أوليفر الحديقة جيئة وذهاباً، في أناة ورفق، رافعاً بصره كل لحظة إلى حجرة المريضة، مرتعداً لرؤية الستائر المسدلة على النافذة، إذ كانت توقع في النفس أن المنيَّة ممدَّدةٌ خلفها. وفي ساعة متأخرة من الليل، وصل مستر لوزبيرن. وقال الطبيب الطيِّب مشيحاً بوجهه فيما كان يتكلم: «شيء مؤلم! فتاة طرية العود إلى هذا الحد، حبيبة إلى النفس إلى هذا الحد.... ولكن الأمل في نجاتها ضعيف جداً.»

وتنفس صباح آخر. وأشرقت الشمس في بهاء بالغ وكأنها لم تَطْلُعْ لا على بؤس ولا على همّ. وهكذا، وسط جميع الأوراق والرياحين المنوِّرة من حولها، وعلى مقربة من الحياة والصحة وأصداء الابتهاج ومشاهده التي أحاطت بها من كل جانب ظلت المخلوقة الغضة الجميلة ممدَّدة في فراشها، متلاشية نفَساً في نفس. وانسلَّ أوليفر إلى المقبرة العتيقة، حيث قعد على رمس من الرموس الخضراء، وأنشأ يبكي ويصلي من أجلها، في صمت.

كان المشهد مفعماً بالسكينة والجمال، وكانت البرية المغمورة بأشعة الشمس ترفل بالإشراق والفرح، وكان شدو طيور الصيف طافحاً بالموسيقى المبهجة، وكان طيران الغراب السريع المندفع في أرجاء السماء يرشح بالحرية المطلقة، وكان كل شيء يضج بالحياة وبالحبور إلى درجة أوقعت في نفس الغلام ـ حين رفع عينيه الموجعتين وأجالهما في ما حوله ـ أن ذلك الموسم لم يكن موسم موت، وأن روز لا يمكن أن

تموت، من غير ريب، بينما تنعم تلك الكائنات الحقيرة بكل ذلك الابتهاج وتلك السعادة، وأن القبور خلِقت للشتاء البارد الكئيب، لا لضياء الشمس وأرج الرياحين. بل لقد كان يراوده الظن أن الأكفان جُعلت للعجائز والطاعنين في السن، وأن ثناياها المأتمية لم تغلِّف في يوم من الأيام أيما جسد غضٍّ جميل.

وقُرع ناقوس الكنيسة بلحن الموت، فقطع هذه الأفكار الصبيانية في كثير من القسوة. وقرع ثانية! وثالثة! كان يدعو القوم إلى الجنازة. ودخل المقبرة جمعٌ من المشيعين البسطاء وقد اتشحوا بشارات بيضاء، ذلك بأن الجثمان كان جثمان فتاة شابة. لقد وقفوا، حاسري الرؤوس، حول قبر. وكانت ثمة بين موكب الباكين أمّ. . . امرأة كانت ذات يوم أماً. ومع ذلك، فقد أشرقت الشمس في بهاء، وواصلت الطير تغريدها.

ووجَّه أوليفر وجهه شطر البيت، وهو يفكِّر في كل ما أسبغته السيدة الصغيرة عليه من ضروب العطف، ويتمنى لو يعود الزمان فيتيح له فرصة جديدة يظهر لها فيها، على غير انقطاع، مدى تعلقه بها واعترافه بجميلها. والواقع أنه لم يستطع أن يجد سبباً يدعو إلى تقريع الذات بسبب من الإهمال، أو اللامبالاة، إذ كان قد تفانى في خدمتها. ومع ذلك فقد تمثَّلت في ذاكرته مئاتُ المناسبات الصغيرة، وخيِّل إليه أنه كان في إمكانه أن يتكشَّف خلال تلك المناسبات عن قدر من الحماسة والإخلاص أعظم وأقوى، وتحسَّر لأنه لم يوفَّق إلى مثل ذلك. إن علينا أن نعامل بانتباه أولئك الذين يحيطون بنا، ما دامت كل وفاة تغري مجموعة صغيرة من الأحياء بالتفكير في الأشياء العديدة التي أهمِلت، والأشياء القليلة التي أنجزت، وتغريها بالتفكير في الكثير مما نسِيت أداءه، وفي الكثير الكثير من الأمور التي كان في الإمكان تداركها! والحق أنه ليس من ندم أشد مضاضة من ذلك الندم الذي لا طائل تحته. فإذا شئنا أن نُجَنَّب عذاباته فليس علينا إلا أن نتذكَّر هذا، قبل فوات الأوان.

وحين بلغ البيت ألفى مسز مايلي جالسة في حجرة الاستقبال. وغار

فؤاد أوليفر حين وقع بصره عليها، ذلك بأنها لم تكفّ لحظة عن القعود إلى جانب سرير ابنة أخيها. وارتعد لمجرد التفكير في التغير الذي أقصاها عن ذلك السرير. وقِيل له إن روز كانت قد استغرقت في نوم عميق لا يفيق المرء منه إلا على الشفاء والحياة، أو على الوداع والموت.

وجلسا مصغيَيْن، طوال ساعات، خائفين أن يتكلما. ورُفِعت المائدة التي لم تُمَسّ. وبنظرات أظهرت أن أفكارهما كانت سارحة في مكان آخر راقبا الشمس وهي تغوص عند الأفق أدنى فأدنى وتسفح، آخر الأمر، على السماء وعلى الأرض تلك الأصباغ اللامعة التي تعلن رحيلها. وتلقَّفت آذانهما المرهفة وقع خطى تتقدم. واندفعا كلاهما إلى الباب فيما كان مستر لوزبيرن يدخل.

وصاحت السيدة العجوز: «طمئنّي عن روز! قل لي في الحال! أنا أستطيع احتمال كل شيء ما عدا الترقب الذي يحبس الأنفاس! أوه، قل لي! قل لي بحق السماء!»

فقال الطبيب وهو يسندها: «يجب أن تتجلدي. هدّئي روعك، يا سيدتي العزيزة، أتوسل إليك!»

ـ «دعني أذهب، أستحلفك بالله! يا لبُنيَّتي العزيزة! لقد ماتت! إنها تموت!»

فصاح الطبيب في انفعال: «لا! أنا واثق، ثقتي من كرم الله ورحمته، إنها سوف تحيا لتُسْعدنا كلنا طوال سنوات وسنوات!»

وخرّت السيدة راكعة على ركبتيها، وحاولت أن تشابك ذراعيها. ولكن طاقة الاحتمال التي كانت قد شددت من عزيمتها تلك الفترة كلها انطلقت إلى السماء مع أول صلاة من صلوات الشكر رفَعْتها إليه تعالى. ثم إنها ترامت بين الذراعين الودودين اللتين امتدتا لتلقِّيها.

الفصل الرابع والثلاثون

ويحتوي تفاصيل تمهيدية تتصل بشاب يبرز الآن على المسرح، ومصيبة جديدة نزلت بأوليفر

كانت هذه السعادة أضخم من أن تُحْتمل، تقريباً. واستشعر أوليفر أن النبأ غير المتوقع قد صعقه وشدهَهُ، فلم يستطع أن يبكي، أو يتكلم، أو يستقر في مكان. وعجز، أو كاد، عن فهم أيّ شيء مما حدث، إلى أن قام بجولة طويلة متنسِّماً هواء المساء العليل، فإذا بفيض من العبرات يهرع لنجدته والترويح عنه. وعندئذ فقط بدا وكأنه أفاق، دفعة واحدة، على وعي كامل للتغير السعيد الذي كان قد حدث.

وكان الليل قد أخذ يحلولك في سرعة عندما انقلب أوليفر إلى البيت، مثقلاً بالرياحين التي كان قد انتقاها في عناية بالغة لتزيين حجرة الفتاة المريضة. وفيما هو يعدو، برشاقة، في طريق العودة سمع خلفه صوت عربة تقترب في اندفاع مجنون. والتفت إلى وراء، فرأى أنها مركبة بريد تُساق بسرعة عظيمة. وإذا كانت خيلها منطلقة بأقصى قدرتها على الانطلاق، والطريق ضيقة، فقد وقف مستنداً إلى إحدى البوابات لكي يفسح المجال للمركبة.

وفيما المركبة تندفع ماضية في سبيلها لمح أوليفر رجلاً يعتمر بقلنسوة نوم بيضاء.. رجلاً بدا له أن وجهه مألوف عنده، برغم أن رؤيته إياه كانت خاطفة إلى درجة جعلته يعجز عن تبيُّن هويته. وبعد ثانية أو ثانيتين أطلت تلك القلنسوة من نافذة المركبة، وهدر صوت جهوري سائلاً الحوذي أن يكف عن الانطلاق. وامتثل الحوذي الأمر حالما وُفق إلى كبح جماح الخيل. وعندئذ برزت قلنسوة النوم من جديد، ونادى الصوت نفسه أوليفر باسمِهِ:

ـ «هاي! أوليفر! ما الأنباء؟ والآنسة روز؟ أيها السيد أو ـ ليـ ـ فر!»

فصاح أوليفر مندفعاً نحو باب المركبة: «أهذا أنت يا جيلز؟»

فأبرز جيلز قلنسوته الليلية مرّة أخرى، استعداداً للنطق بجواب ما، وإذا بيد تشدّه فجأة إلى الوراء، وكانت يد شاب احتل الزاوية الأخرى من المركبة وتساءل، في لهفة، ما الأخبار؟

وصاح ذلك السيد الماجد: «قل لي بكلمة واحدة. أهي أحسن أم أسوأ؟»

فأجابه أوليفر في انفعال: «أحسن. . . أحسن بكثير!»

فهتف السيد: «شكراً للّه! أواثق أنت؟!»

فأجاب أوليفر: «كل الثقة، يا سيدي. لقد حدث التحول منذ بضع ساعات ليس غير. ومستر لوزبيرن يقول إن الخطر قد زال نهائياً.»

ولم ينطق السيد بأية كلمة أخرى، ولكنه فتح باب المركبة، وترجّل منها، وسارع إلى الأخذ بذراع أوليفر وساعده على الركوب.

وسأله السيد الماجد في صوت مرتعش: «أنت واثق كل الثقة؟ وليس ثمة أيما احتمال خطأ من جانبك، يا بنيّ. . . أليس كذلك؟ لا تخدعني بإحياء آمال لن يقدَّر لها أن تتحقق.»

فأجابه أوليفر: «لن أفعل ذلك ولو أعطيتُ أيما شيء في هذا العالم. إن في استطاعتك أن تصدقني حقاً. لقد قال مستر لوزبيرن، بالحرف الواحد، إنها سوف تحيا لتسعدنا كلنا طوال سنوات وسنوات. ولقد سمعته يقول ذلك.»

وترددت العبرات في عيني أوليفر وهو يستحضر في ذاكرته ذلك المشهد الذي كان فاتحة هذه السعادة كلها. وأشاح السيد الماجد بوجهه، واعتصم بالصمت بضع دقائق. وخيِّل إلى أوليفر أنه سمعه ينتحب، غير مرة. ولكنه خشي أن يقاطعه بأية ملاحظة جديدة ـ ذلك بأنه كان في ميسوره أن يحزر حقيقة مشاعره ـ وهكذا انزوى منكمشاً على نفسه، وتظاهر بالانشغال.

وطوال هذه الفترة كان مستر جيلز، المعتمر بقلنسوته الليلية البيضاء،

قاعداً على موطئ المركبة، مُسنداً كلا مرفقيه على كلتا ركبتيه، مكفكفاً عبراته بمنديل قطني أزرق مُنَقَّط بنقط بيضاء. ولم يكن ثمة ريب في أن ذلك الرجل الوفي كان صادق التأثر. يؤيد ذلك احتقان بالغ في تينك العينين اللتين نظر بهما إلى السيد الشاب عندما استدار ووجه إليه الخطاب قائلاً:

ـ «أرى أن من الأفضل أن تنطلق بالمركبة إلى بيت أمي، يا جيلز. أما أنا فأؤثر أن أمشي في أناة، لكي أكسب قليلاً من الوقت قبل أن أراها. وفي استطاعتك أن تقول لها إني آت.»

فقال جيلز، وهو يجلو وجهَهُ المضطرب، بالمنديل، جلاء أخيراً: «ألتمس عفوك، يا مستر هاري، ولكن إذا عهدت إلى مساعد الحوذي في أداء هذه الرسالة كنت شاكراً لك أعظم الشكر، فليس من اللائق أن أبرز أمام أعين الخادمات وأنا على هذه الصورة، يا سيدي، إني لو فعلت إذن لفقدتُ كل سلطة لي عليهن في المستقبل.»

فأجابه هاري متبسِّماً: «حسناً، افعل ما يحلو لك. دعه يذهب بالأمتعة، إذا شئت ذلك، وامضِ أنت معنا. كل ما أريده منك هو أن تستعيض عن قلنسوة النوم هذه بغطاء للرأس أكثر لياقة، وإلا حسِبنا القوم مجانين.»

ولم يكد مستر جيلز يذكَّر بقلنسوته غير اللائقة حتى نزعها عن رأسه وأقحمها في جيبه، واستعاض عنها بقبعة ذات شكل رصين وقور، تناولها من مركبة البريد. حتى إذا تم له ذلك، مضى مساعد الحوذي لسبيله. وتبعه جيلز، ومستر مايلي، في أناة وتمهُّل.

وفي طريقهم إلى البيت كان أوليفر يلقي بين الفينة والفينة نظرة على الوافد الجديد كلها شوق وفضول. لقد بدا في نحو الخامسة والعشرين من العمر، وكان ربعة في الطول، ذا محيًّا صريح مليح، وكانت تصرّفاته ترشح بالرشاقة والجاذبية. وعلى الرغم من الفرق بين الشباب والشيخوخة كان الشبه بينه وبين السيدة العجوز كبيراً إلى درجة كان خليقاً بها أن تمكِّن

أوليفر من اكتشاف ما بينهما من قرابة، في سهولة ويسر، ولو لم يكن قد سمع الرجل يشير إليها من قبل بوصفها أمه.

وكانت مسز مايلي تنتظر ابنها في لهفة وشوق عندما وصل هو إلى البيت الصغير. ولم يتم اللقاء من غير ما انفعال بالغ تكشَّف عنه الفريقان.

وهمس الشاب: «أمي! لماذا لم تكتبي إليّ من قبل؟»

فأجابته مسز مايلي: «لقد فعلت. ولكني بعد شيء من التفكير عقدت العزم على الاحتفاظ بالرسالة ريثما أسمع رأي مستر لوزبيرن.»

فقال الشاب: «ولكن لماذا... لماذا غامرتِ فعرّضت نفسك لمواجهة ما كان على قاب قوسين من الحدوث؟ لو قدِّر على روز أن... ـ أنا لا أستطيع أن ألفظ هذه الكلمة الآن ـ لو أن مرضها انتهى على صورة غير هذه الصورة، كيف كان في مستطاعك أن تغفري لنفسك هذه الفعلة أبد الدهر!؟ كيف كان في مستطاعي أنا أن أعرف السعادة بقية أيام حياتي؟!»

فقالت مسز مايلي: «لو أن ذلك حدث فعلاً، يا هاري، لن يكون لوصولك إلى هنا، قبل يوم من الساعة المشؤومة أو بعد يوم منها، غير أهمية ضئيلة إلى أبعد الحدود.»

فأجابها الشاب: «ومن ذا الذي يستطيع أن يعجب لو حدث ذلك، يا أماه؟ ولماذا تقولين «لو»؟ إن الأمر لكذلك. هذا صحيح، وأنت تعرفين ذلك. إنك لا تستطيعين إنكاره!»

فقالت مسز مايلي: «أنا أعرف أنها تستحق أصدق وأطهر حب يستطيع قلب رجل أن يمنحه. وأعلم أن ما تمتاز به طبيعتها من إخلاص وحنان جديرٌ بأن يقابل لا بعاطفة عادية، بل بعاطفة عميقة سرمدية، ولو لم أستشعر هذا، ولو لم أدرِ، فوق ذلك، أن أيما تغيُّر يطرأ على سلوك من تهوى لا بدَّ أن يحطم فؤادها لما وجدت عسراً بالغاً في أداء مهمتي، أو لما تعيَّن عليّ أن أكبح ضروباً من المقاومة المعتملة في صدري حين أسلك ما يبدو لي أنه السبيل المتلائم مع واجبي.»

فقال هاري: «هذه قسوة، يا أماه. ألا تزالين تحسبين أنني غلام لا يدري ما يريد... غلام يخطئ فهم حوافز روحه نفسها؟»

فأجابته مسز مايلي، واضعة يدها على كتفه: «أنا أحسب، يا ولدي العزيز، أن للشباب كثيراً من الحوافز الكريمة التي لا تدوم، وأن من بينها بعضاً لا يزيده الإشباع إلا سرعة زوال. ويخيل إليّ قبل كل شيء،» وهنا ركّزت بصرها على وجه ابنها، «إنه حين يتزوج رجلٌ طموح مفعم بالحماسة والنشاط من فتاة تشين اسمَها لطخة... قد لا تكون هي مسؤولة عنها ولكن ذوي النفوس الخسيسة والقلوب المتحجرة لا بدَّ أن يأخذوها بجريرتها، ويأخذوا أولاده بها أيضاً... لطخة لا بدَّ أن يعيِّروه هو بها، ويسرفوا في ذلك بقدر ما ينجح في الحياة متخذين منها وسيلة للسخرية به... أقول حين يتزوج مثل هذا الرجل من مثل هذه الفتاة فقد يأتي يوم يندم فيه ـ مهما يكن كريم النفس طيِّب الطوية ـ على العلاقة التي أنشأها في صدر شبابه. وقد تأسَى زوجته وتلتاع حين تعلم بالذي يخامره من ندم.»

فقال الشاب نافد الصبر: «إن من يتصرف على هذا النحو يكون وحشاً أنانياً لا يستحق أن يسمَّى رجلاً، ولا يستحق المرأة التي تصفينها.»

فأجابته أمه: «أنت تؤمن بذلك، الآن، يا هاري.»

فقال الشاب: «ولسوف أظل أؤمن به أبد الدهر! إن الآلام النفسية التي قاسيتها خلال اليومين الماضيين لتكرهني على الاعتراف لك بعاطفة ليست، كما تعرفين، بنت الأمس، عاطفة لم تنشأ عندي نشوءاً هيِّناً. إن نياط قلبي لمشدودة إلى روز دون سائر الفتيات، روز العذبة اللطيفة، كما لم تشدّ نياط قلب أيما رجل إلى امرأة. أنا لا أفكر في أيما فتاة غيرها، وليس لي من مطمع في الحياة ولا أمل غير الفوز بها. وإذا ما عارضتِني في ما أسعى إليه من فوز عظيم فعندئذ تكونين قد وضعتِ يديك على سعادتي وطمأنينتي وألقيتِ بهما في مهبّ الرياح. أماه، فكِّري في هذا مليّاً، وفكِّري فيَّ أنا، ولا تنسَيْ هذه السعادة التي يبدو أنك لا تبالين بها إلا قليلاً.»

فقالت مسز مايلي: «إن تفكيري الدائم في القلوب المتَّقدة الحساسة هو الذي يدعوني إلى تجنيبها جراحاً هي عنها في غنى. ولكننا تحدثنا في هذا الموضوع حديثاً كافياً، بل أكثر من كاف، هذه الليلة. . .»

فقاطعها هاري: «فلنترك الأمر، إذن، لروز. . . إنك لن تصرّي على آرائك المتطرفة هذه لكي تقيمي العراقيل في طريقي؟»

ففأجابته مسز مايلي: «لا، لن أفعل. ولكني أريد منك أن تفكِّر. . .»

فأجابها في نفاد صبر: «لقد فكّرت! أماه، لقد فكّرت سنوات وسنوات. لقد فكرت، منذ اللحظة الأولى التي أمسيتُ فيها قادراً على التفكير الجديّ. ومشاعري لا تزال هي هي لم تتغير، ولن تتغير أبد الدهر. ولماذا أقاسي الآلام الناشئة عن إرجاء التعبير عنها، وأنا أعلم أن هذا الإرجاء لن يفضي إلى أيما خير؟ لا! سوف أبثّ روز ما في صدري قبل أن أغادر هذا المكان!»

فقالت مسز مايلي: «إذا شئت ذلك.»

فقال الشاب: «إن في لهجتك، يا أماه، ما يكاد يفهم منه أنها سوف تستمع إليّ في برود.»

فأجابته السيدة العجوز: «في برود؟ لا، ما أبعد ذلك عن الصواب!»

فقال الشاب في إلحاح: «كيف إذن؟ إن فؤادها غير مشغول بغيري، أليس كذلك؟»

فأجابت أمه: «لا، لا! إن لك، إن لم أكن مخطئة، سلطاناً على عواطفها أشدّ مما ينبغي. إن ما أريد أن أقوله،» كذلك استأنفت السيدة العجوز كلامها مقاطعة ابنها الذي كان على وشك أن يتكلم، «هو هذا. قبل أن تخاطر بكل ما عندك في هذه المغامرة، وقبل أن تجيز لنفسك أن تُحْمَل إلى ذروة الأمل، فكِّر بضع لحظات، يا ولدي العزيز، في تاريخ روز، وتساءلْ أيّ أثر قد يكون لمعرفتها مولدها المريب في قرارها، وهي الفتاة المخلصة لنا بكامل رجاحة عقلها النبيل، وبكامل تضحيتها بالنفس

في جميع الشؤون، كبيرها وصغيرها. . . هذه التضحية التي كانت دائماً هي السِّمة الغالبة عليها.»

ـ «ماذا تعنين؟»

فأجابت مسز مايلي: «هذا ما أترك لك اكتشافه. إن عليّ أن أعود إلى حجرتها. فليباركك اللّه!»

فقال الشاب في لهفة: «سأراك الليلة مرّة أخرى، أليس كذلك؟»

فأجابته مسز مايلي: «بعد قليل. عندما أفارق روز.»

فقال هاري: «هل ستخبرينها أني هنا؟»

فأجابت مسز مايلي: «من غير ريب.»

ـ «إذن قولي لها كم قاسيت، وكم تُقْتُ إلى رؤيتها. إنك لن ترفضي أداء هذه الرسالة، أليس كذلك؟»

فقالت السيدة العجوز: «لا. سوف أقول لها كل شيء.» وضغطت على يد ابنها في حنان، وغادرت الحجرة، مسرعة.»

وكان مستر لوزبيرن وأوليفر قد لبثا في طرف آخر من الحجرة فيما كان هذا الحوار دائراً. وبسط أولهما يده، إلى هاري مايلي، فتبادلا تحيات قلبية. وعندئذ قدّم الطبيب، جواباً عن أسئلة صديقه الشاب المتنوعة، وصفاً دقيقاً لحالة المريضة كان ما فيه من العزاء والرجاء البالغين مصداقاً لتوكيدات أوليفر الراشحة بالأمل. ولقد أصغى مستر جيلز بأذنين نهمتين لهذا الوصف كله، متظاهراً بالانهماك في ترتيب الأمتعة.

ـ «هل أطلقت النار على أيّ شيء بارز، في الأيام الأخيرة، يا جيلز؟» كذلك سأله الطبيب حين أتمّ حديثه عن حالة روز.

فأجابه مستر جيلز وقد تضرّج وجهه بالدم حتى عينيه: «لا، ليس على أي شيء بارز.»

فقال الطبيب: «ولم تلقِ القبض على لص من اللصوص أو تكتشف أحداً ممن تعوّدوا السطو على المنازل؟»

فأجابه مستر جيلز في وقار بالغ: «لا، على الإطلاق، يا سيدي.»

فقال الطبيب: «حسناً، يؤسفني أن أسمع ذلك، لأنك تجيد هذا الضرب من العمل إجادة رائعة. قل لي، ما أنباء بريتلز؟»

فأجابه مستر جيلز، وقد استردّ لهجته المألوفة، الراشحة بالرعاية: «الغلام في حال حسنة جداً، يا سيدي. وهو يبعث باحتراماته الموقّرة، يا سيدي.»

فقال الطبيب: «حسن جداً. إن رؤيتك هنا تذكرني، يا مستر جيلز، بأني قبل أربع وعشرين ساعة من اليوم الذي استُدعيتُ فيه بمثل هذه السرعة كلها قمتُ ـ بناء على طلب من سيدتك الصالحة ـ بمهمة صغيرة لمصلحتك. تقدّم إلى هذه الزاوية لحظة، من فضلك.»

فمضى مستر جيلز إلى الزاوية في كثير من العظمة وشيء من الدهشة، وشُرِّف بحديث دار بينه وبين الطبيب. . . حديث قصير مهموس لم يكد يُختم حتى انحنى عدة انحناءات مغالى فيها، وانصرف بخطى ترشح بأبهة غير معهودة. ولم يُفْصح عن مادة هذا الحديث في حجرة الاستقبال، ولكن المطبخ سرعان ما أُطْلِع على كل ما يتصل به. ذلك بأن مستر جيلز مضى إلى هناك مباشرة، وبعد أن طلب كوزاً من الجعة أعلن، في سيماء من الجلال كان لها تأثير بعيد جداً، أن سيدته تفضلت، تقديراً منها لمسلكه الباسل يوم محاولة السطو تلك، فأودعت في بنك التوفير المحليّ، باسمه الشخصي ولاستعماله ولمنفعته هو، مبلغاً من المال مقداره خمسة وعشرون جنيهاً. وهنا رفعت الخادمتان أيديهما وعيونهما وافترضتا أن مستر جيلز سوف يأخذ منذ اليوم بأسباب الكِبْر والغرور. فما كان من مستر جيلز إلا أن أجاب وهو يسحب هدب قميصه: «لا، لا!» ليضيف بعد ذلك قوله أنهما إذا آنستا منه أيما تكبُّر على من هم دونه فليلفتا نظره إلى ذلك مشكورتين. ثم إنه أبدى عدداً كبيراً جداً من الملاحظات الأخرى التي لم تكن أقلّ تصويراً لتواضعه، والتي استقبِلت بقَدْر مماثل من التحبيذ والحماسة، والتي كانت في الوقت نفسه أصيلة ومطابقة لمقتضى الحال شأن ملاحظات عظماء الرجال عادة.

وفي الطابق العلوي كانت بقية الليل قد تقضَّتْ في بِشر. ذلك بأن الطبيب كان بالغ المرح. وعلى الرغم من النزوع التأملي الذي غلب على هاري مايلي بادئ الأمر فإنه لم يستطع أن يقاوم مرح الرجل الفاضل، الذي تجلَّى في تشكيلة كبيرة من النوادر والذكريات المهنية وفي فيض من النكات الصغيرة التي نالت إعجاب أوليفر بوصفها أغرب ما قُدِّر له أن يسمعه وأدعاه إلى الضحك. ولقد ضحك أوليفر، فعلاً، على نحو يتكافأ وذلك الإعجاب، وهو ضحك أثار ارتياح الطبيب بصورة جلية فضحك على نفسه في غير ما اعتدال، ودعا هاري إلى إرسال ضحكات لا تقل صدقاً وحرارة عن ضحكات أوليفر نفسها، بدافع من المشاركة الوجدانية ليس غير. وهكذا نعموا بأبهج حال ممكن في ظرف مثل ذلك الظرف، ولم ينفضَّ سامرهم إلا في ساعة متأخرة من الليل، فآووا إلى سُررهم، بقلوب مبتهجة شاكرة، لينعموا بتلك الراحة التي كانوا في أمسّ الحاجة إليها بعد فترة الشك والترقب القاسية التي مرّت بهم منذ قريب.

واستيقظ أوليفر صباح اليوم التالي وهو أبهج نفساً، وشرع يؤدي مهامه الصباحية المعتادة وقد أفعِم صدرُه بأمل وحبور لم يعرف لهما مثيلاً منذ أيام عديدة. كانت الطيور قد عُلِّقت مرّة أخرى لتشدو وتغرّد في مواطنها القديمة. وجُمِعت أزكى الرياحين البرية التي كان في إمكان المرء أن يعثر عليها لتُبهج روز بجمالها مرّة أخرى. وتبدَّدت بمثل السحر تلك الكآبةُ التي كان قد بدا لعيني الغلام القلق المحزونتين أنها رانت، طوال أيام خلت، على الأشياء كلها، مهما كانت بهية الطلعة جميلة. لقد بدا الندى وكأنه يتلألأ على نحو أشدّ تألقاً فوق الأوراق الخضر، والهواء وكأنه ينساب بينهما بموسيقى أعذب، وحتى السماء نفسها بدت وكأنها أشد زرقة وإشراقاً. ذلك هو السلطان الذي تمارسه طبيعة أفكارنا الشخصية حتى على مظهر الأشياء الخارجية. إن أولئك الذين يرون إلى الطبيعة وإلى إخوانهم في الإنسانية ثم يصرخون قائلين إن كل شيء مظلم وكئيب ليسوا بمخطئين. ولكن الألوان القاتمة هي انعكاسات لعيونهم وقلوبهم المُصابة

باليرقان. أما الألوان الحقيقية فرقيقة، وهي تحتاج إلى بصر أشد صفاء.

وجدير بالذكر، وهو أمر لم يغِب عن فطنة أوليفر في الحال، أن رحلاته الصباحية لم تعد تجري على نحو متوحِّد. فمنذ ذلك الصباح الذي لقي هاري مايلي خلاله أوليفر، أول ما لقيه، عائداً إلى البيت وهو مثقل بالرياحين استبدّ به هوى للزهور عارمٌ وتكشَّف عن ذوق رفيع في تنسيقها إلى درجة جعلته يتفوق على رفيقه ويسبقه بمراحل. بيد أن أوليفر، على الرغم من تخلُّفِهِ في هذا الميدان، كان يعرف أن يجد الأفضل والأحسن. وهكذا جالا في الريف معاً، صباحاً بعد صباح، وحملا إلى البيت أجمل الرياحين المفتَّحة الأكمام. وكانت نافذة حجرة السيدة الصغيرة قد فُتِحت الآن، ذلك بأنها أحبت أن تستشعر نسيم الصيف العليل يتسرب إلى حجرتها، فينعشها بطراوته. ولكن كان ثمة دائماً وسط الماء، خلف الشعرية مباشرة، باقة صغيرة مخصوصة كانت تُسَوّى وتُصلح، في عناية بالغة، كل صباح. ولم يستطع أوليفر إلا أن يلاحظ أن الرياحين الذابلة لم تُطْرح قط، برغم أن ماء الزهرية الصغيرة كان يُبَدَّل على نحو نظامي. ولم يستطع إلا أن يلاحظ أيضاً أن الطبيب كان كلما مضى إلى الحديقة يرفع بصره إلى تلك الزاوية بعينها، ويهز برأسه على نحو ذي مغزى إلى أبعد الحدود قبل أن ينطلق في نزهته الصباحية سيراً على القدمين. وفي غضون ذلك كانت الأيام تكرّ سراعاً، وكانت روز تسترد عافيتها سريعاً.

وأوليفر نفسه لم تتباطأ به أيامه، على الرغم من أن السيدة الصغيرة لم تكن قد غادرت حجرتها بعد، ولم يكن ثمة أية نزهات مسائية سيراً على الأقدام إلا بين الفينة والفينة، ولمسافات قصيرة، مع مسز مايلي. لقد انكبّ، في مواظبة مضاعفة، على الاستفادة من دروس السيد العجوز الأشيب، وكدح كدحاً حقق له نجاحاً سريعاً. وفيما هو منهمك في هذه المطالب حدثت له واقعة غير مرتقبة فأذهلته وأفزعته على نحو شديد.

كانت الحجرة الصغيرة التي تعوّد أن يقعد فيها، حين يستغرق في قراءة كتبه، قائمة في الدور الأرضي في الجزء الخلفي من البيت. والواقع

أنها كانت حجرة ريفية بكل ما في اللفظة من معنى، وكانت نافذتها ذات شعرية تحلَّقت حولها عناقيد من الياسمين والياسمين البري انسلَّت من فوق الإطار فملأت الحجرة بعبير أرِج. كانت تلك النافذة تطل على حديقة تتصل، من طريق باب صغير، بحظيرة صغيرة. ووراء هذه الحظيرة انبسطت أرض خضِرة معشوشبة وغابة. ولم يكن ثمة، في ذلك الاتجاه، أيما مبنى آخر مجاور. فكان المشهد الذي تقع عليه العين من تلك النافذة مترامي الأطراف.

وذات مساء جميل، فيما كانت أولى ظلال الغسق قد شرعت تستقر على الأرض، جلس أوليفر إلى هذه النافذة مستغرقاً في قراءة كتبه. وكان قد أنعم النظر في تلك الكتب فترة من الزمان. وإذ كان ذلك اليوم حاراً رطباً إلى حد غير مألوف، وكان أوليفر قد أرهق نفسه إرهاقاً بالغاً فلن يكون في قولنا أنه استسلم للنوم تدريجياً، وعلى نحو بطيء، أيما انتقاص من قدْر مؤلفي تلك الكتب، أياً من كان هؤلاء المؤلفون.

إن ثمة نوعاً من الرقاد ينسلّ إلينا بعض الأحيان ولا يحرر العقل ـ برغم أنه يأسر الجسد ـ من الشعور بالأشياء المحيطة به... إنه نوم يمكِّن ذلك العقل من أن يهيم على وجهه ما حلا له الهيام. وبقدْر ما نستطيع أن نعتبر الاسترخاء القاهر، وإجهاد القوى حتى الإنهاك، والعجز المطلق عن السيطرة على أفكارنا أو قدرتنا على الحركة.. أقول بقَدْر ما نستطيع اعتبار هذا كله نوماً، يكون ذلك الضرب من الرقاد نوماً أيضاً. ومع ذلك، فإننا نعي كل ما يجري من حولنا. وإذا ما حلمنا في وقت كهذا فإن بعض الكلمات الملفوظة فعلاً، أو بعض الأصوات المنبعثة فعلاً في تلك اللحظة، تكيِّف نفسها ـ في سهولة مدهشة ـ وفقاً لرؤانا حتى لتندمج الحقيقة بالخيال اندماجاً غريباً يتعذر معه، بعد ذلك، أو يكاد، فصلُ أحدهما عن الآخر. وهذه الظاهرة ليست بأعجب الظواهر التي تلازم تلك الحالة وأمثالها. فمن الحقائق التي لا ريب فيها أنه على الرغم من هجوع حاستَيْ اللمس والبصر عندنا هجوعاً مؤقتاً فإن أفكارنا النائمة والمشاهد

الخيالية التي تتعاقب أمامنا سوف تتأثر، وبطريقة محسوسة، بمجرد الوجود الصامت لشيء خارجيّ ما. . . شيء خارجي ربما لم يكن على مقربة منا عندما أغمضنا أعيننا، ولم نكن نعي مجاورته لنا.

لقد علم أوليفر علم اليقين أنه كان في حجرته الصغيرة، وأن كتبه كانت على الطاولة أمامه، وأن النسيم العليل كان يضطرب بين النباتات المتعرشة على النافذة في الخارج. ومع ذلك، فقد كان نائماً. وفجأة، تغيّر المشهد، وغدا الهواء فاسداً حبيساً، وخيِّل إليه ـ في ذعر مشبوب ـ إنه عاد إلى بيت اليهودي. وهناك، في زاويته المعهودة، قعد العجوز الرهيب، مشيراً إليه، هامساً، وقد أشاح بوجهه، في أذن رجل آخر كان جالساً إلى جانبه.

ـ «صه، يا عزيزي!» كذلك خيِّل إليه أنه سمع اليهودي يقول. «إنه هو، أنا واثق من ذلك. فلننصرف.»

وبدا الرجل الآخر وكأنه يقول: «هو! وهل تحسب أن من الممكن أن لا أعرفه؟ لو أن مجموعة من الأشباح اتخذت شكله تماماً ووقف هو بينها، لكان ثمة شيء يهديني إلى تمييزه. ولو دفنته على عمق خمسين قدماً وقدتني عبر قبره لعرفت، في ما يخيِّل إليّ، على الرغم من عدم وجود أيما إشارة فوق ذلك القبر، إنه يرقد هناك!»

ولقد بدا وكأن الرجل قال هذا الكلام في حقد رهيب إلى درجة جعلت أوليفر يستيقظ مذعوراً، وينتصب على قدميه مجفلاً.

يا للسماء الرحيمة! أي شيء كان ذلك الذي ردّ الدم خدِراً إلى فؤاده، وأفقده صوته، وقدرُته على الحركة! هناك. . . هناك. . . عند النافذة. . . على مقربة منه، بحيث كان في ميسوره، تقريباً، أن يمسَّه قبل أن يرتد فجأة إلى الوراء، وعيناه تحدقان إلى الحجرة وتلتقيان عينيه هو. . . كان ينتصب اليهودي! وإلى جانبه كانت أسارير متجهمة شاحبة من جراء الغيظ أو الخوف، هي أسارير ذلك الرجل نفسه الذي بادره بالكلام في فناء النزل.

لقد مرّ هذا كله أمام ناظريه في لحظة واحدة. كان أشبه بلمحة، أو

ومضة. واختفى الرجلان في الحال. ولكنهما كانا قد عرفاه، وكان هو قد عرفهما. وكانت نظرتهما قد انطبعت في ذاكرته، فكأنها نُقِشت على الحجر نقشاً عميقاً وتمثَّلت له منذ ولادته. ووقف لحظة جامداً. ثم إنه وثب من النافذة إلى الحديقة، وهو يصرخ ملتمساً النجدة.

الفصل الخامس والثلاثون

ويشتمل على النتجية غير السارة التي آلت إليها مغامرة أوليفر، وعلى محاورة لا تخلو من الأهمية دارت بين هاري مايلي وروز

وعندما هُرِع نزلاء البيت، استجابة لصيحات أوليفر، إلى الموضع الذي انبعثت منه وجدوه شاحباً مهتاجاً، يشير نحو الأرض الخضراء المنبسطة خلف المنزل ويحاول بشق النفس أن ينطق بهاتين اللفظتين: «اليهودي! اليهودي!»

ولم يهتدِ مستر جيلز إلى فهم المعنى الذي انطوت عليه هذه الصرخة. أما هاري مالي، الذي كان أكثر فطنة وأحدّ إدراكاً، والذي كان قد سمع من أمه قصة أوليفر، ففهمه في الحال.

وسأله متناولاً عصا غليظة كانت قائمة في إحدى الزوايا: «في أيّ اتجاه ذهب؟»

ـ «هذا!» كذلك أجاب أوليفر وهو يشير إلى الوجهة التي كان الرجلان قد اتخذاها. «لقد اختفيا عن ناظري في لحظة واحدة.»

فقال هاري: «إذن فهما في الخندق. اتبعوني! وابقَوْا على مقربة مني ما استطعتم ذلك.» قال ذلك ووثب فوق السياج وانطلق مندفعاً في سرعة جعلت من أعسر العسير على الآخرين أن يظلوا على مقربة منه.

ولحق به جيلز على أحسن وجه استطاعه، وتبعه أوليفر أيضاً. وما هي غير دقيقة أو دقيقتين حتى وثب مستر لوزبيرن ـ الذي كان قد تمشى

ثم انقلب راجعاً في تلك اللحظة ـ فوق السياج على نحو أخرق متعثر، وسرعان ما نهض من كبوته في خفة ورشاقة لم يكن أحد ليظن أنه يملك نظيرهما، واندفع منطلقاً في السبيل نفسها بسرعة، وهو يصيح على نحو موصول، وفي صوت مدوٍّ إلى أبعد الحدود، ليعرف ما المسألة.

لقد مضوا كلهم قُدُماً غير متوقفين مرة واحدة لكي يستردوا أنفاسهم، حتى انعطف قائدهم حول زاوية من زوايا الحقل أشار إليها أوليفر، وشرع ينعم النظر. بكثير من التدقيق، في الخندق والسياج المحاذيين بحثاً عن الرجلين الفارين، وهذا ما أتاح لبقية الجماعة فرصة الالتحاق به، ولأوليفر فرصة إطلاع مستر لوزبيرن على الأحداث التي قادت إلى هذه المطاردة البالغة العنف.

وذهب البحث كله أدراج الرياح. فلم يكن ثمة حتى آثار أقدام حديثة منظورة. وكانوا قد وقفوا الآن على قمة هضبة صغيرة تطلّ على الحقول المكشوفة المنبسطة في كل ناحية على امتداد ثلاثة أميال أو أربعة أميال. كانت القرية قائمة في الغَوْر الذي إلى يسارهم، ولكن كان عليهم لكي يصلوا إلى هناك ـ بعد أن سلكوا الطريق التي أشار إليها أوليفر ـ أن يقوموا بدورة واسعة، وهو عمل لم يكن من الممكن إتمامه في وقت قصير إلى ذلك الحد. وكانت إحدى الغابات الملتفة تكتنف الأرض الخضِرة ولكنهم ما كانوا بقادرين على بلوغ ذلك المكمن للسبب عينه.

وقال هاري مايلي: «لا ريب في أن ما رأيته كان أضغاث أحلام.»

فأجابه أوليفر وهو يرتعد لمجرد تذكُّره وجه الوغد العجوز: «أوه لا، لا، يا سيدي. لقد رأيته في وضوح شديد يجعلني أؤكد أن ذلك لم يكن مناماً. لقد رأيتهما معاً بمثل الوضوح الذي أراك به الآن.»

وسأله هاري ومستر لوزبيرن معاً: «ومن كان الآخر؟»

فقال أوليفر: «ذلك الرجل عينه الذي حدثتك عنه، والذي برز أمامي في النزل على نحو مفاجئ جداً. لقد حدّقت إليه وحدَّق إليَّ. وفي استطاعتي أن أحلف أنه هو.»

فسأله هاري: «لقد ذهبا من هنا؟ أواثق أنت من ذلك؟»

فأجابه أوليفر، مشيراً إلى السياج الذي يفصل حديقة البيت الصغير عن الأرض الخضِرة: «بقدْر وثوقي من أن الرجلين كانا عند النافذة. لقد وثب الرجل الطويل فوق السياج، هنا تماماً، وخطا اليهودي بضع خطوات إلى اليمين ثم انسلّ من خلال تلك الفجوة.»

ونظر السيدان إلى وجه أوليفر الصادق، فيما هو يتكلم، ثم تبادلا النظرات، وبدا وكأنهما مطمئنان إلى صدق روايته. ومع ذلك فلم يكن ثمة في أيما ناحية أيّ أثر يدل على اندفاع رجلين لائذين بالفرار. كان العشب طويلاً، ولكنه لم يكن مَدُوْساً في أيّ مكان، إلا حيثما سحقته أقدامهم هم. وكانت جوانب الخنادق وحافاتها رطبة موحلة، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتبيَّنوا في أي موضع منها آثار أحذية رجالية، أو أضأل علامة تدل على أن أقداماً ما قد وطئت الأرض قبل ساعات قليلة.

وقال هاري: «هذا غريب!»

فكرر الطبيب: «أجل، هذا غريب. إن «بلاذرز» و«داف» نفسيهما لا يستطيعان أن يفهما من ذلك شيئاً.»

وعلى الرغم من العبثيَّة الواضحة التي اتَّسم بها بحثهم فإنهم لم يكفُّوا عن متابعته إلا بعد أن هبط الليل جاعلاً الاستمرار في ذلك عملاً يائساً. بل إنهم لم يكفُّوا عن ذلك إلا على مضض. وأرسِل جيلز إلى مختلف الحانات في القرية، مزوّداً بأدق وصف استطاع أوليفر أن يقدِّمه لمظهر الرجلين الغريبين وملابسهما. ولقد كان أحدهما ـ وهو اليهودي ـ ذا مظهر يلفت النظر، على أية حال، بحيث يستطيع المرء أن يتذكره، على افتراض أنه رآه يعاقر الخمر أو يتسكع ههنا وههناك. ولكن جيلز عاد من غير أن يحمل أي نبأ من شأنه أن يبدد اللغز أو يساعد على حله.

وفي اليوم التالي استؤنف البحث، وجدِّدت محاولات الاستطلاع، ولكن حظّ هذه المحاولات من النجاح لم يكن أوفر من ذي قبل. وفي اليوم الذي بعده ذهب أوليفر ومستر مايلي إلى البلدة التي تقام فيها

السوق، رجاةَ أن يريا أو يسمعا أيما شيء عن الرجلين، هناك. ولكن هذا الجهد كان عقيماً أيضاً. وبعد بضعة أيام بدأ القوم ينسون المسألة، كما ينسى الناس معظم المسائل، حين لا يظهر أي جديد.

وفي غضون ذلك كانت روز تتقدم في طريق العافية بخطى حثيثة. كانت قد فارقت حجرتها، وأمست قادرة على الخروج للنزهة. والواقع أنها لم تكد تختلط بأفراد الأسرة مرّة أخرى حتى حملت البهجة إلى أفئدتهم جميعاً.

ولكن على الرغم من أن هذا التغيّر السعيد ترك أثره الملحوظ في الحلقة الصغيرة، وعلى الرغم من أن الأصوات البهيجة والضحكات المرحة أمست تُسْمع مرّة أخرى في ذلك البيت الصغير، فقد كان كبح غير مألوف يسيطر على تصرفات بعض نزلائه، وحتى على تصرفات روز نفسها، وهو كبح لم يكن في ميسور أوليفر إلا أن يلاحظه. وكثيراً ما كانت مسز مايلي تخلو إلى ابنها فترة طويلة، وأكثر من مرة برزت روز وعلى محياها آثار عبرات. وبعد أن حدد مستر لوزبيرن موعداً لارتحاله اس فحلت هذه الأعراض. وبدا جلياً أن شيئاً كان يحدث، وأن ذلك الشيء عكّر طمأنينة السيدة الصغيرة، وطمأنينة شخص آخر أيضاً.

وأخيراً دخل هاري مايلي، ذات يوم، إلى حجرة القعود، وكانت روز وحدها فيها. وفي شيء من التردد استأذنها في التحدث إليها.

لقد قال السيد الشاب وهو يُدني كرسيه إليها: «بضع كلمات قليلة... بضع كلمات قليلة جداً سوف تكفي. إن ما يتعيّن عليّ أن أقوله قد تمثَّل من غير شك في ذهنك. فآمال قلبي الأثيرة لدي ليست مجهولة عندك، على الرغم من أنك لم تسمعيها بعد من شفتيّ.»

وكان الشحوب البالغ قد ران على محيا روز منذ اللحظة التي دخل فيها الحجرة، ولكن ذلك ربما كان أثراً من آثار مرضتها الأخيرة. واجتزأت بالانحناء له، ثم مالت على بعض النباتات الناهدة على مقربة منها، وانتظرت صامتة أن يستهل حديثه.

وقال هاري: «كان... كان... يتعيَّن عليَّ أن أغادر هذا المكان منذ أيام.»

فأجابته روز: «أجل، كان يتعيَّن عليك ذلك، حقاً. اغفر لي صراحتي هذه، ولكني كنت أفضِّل أن أراك تمضي لسبيلك.»

فقال الشاب: «لقد ساقني إلى هنا أفظع نوع من أنواع المخاوف كلها وأدعاها إلى سحق الفؤاد... هو خوفُ فقداني المخلوقة العزيزة التي تركَّزت عليها آمالي وأمنياتي كلها. لقد كنتِ على فراش الاحتضار، تتأرجحين بين الأرض والسماء. ونحن نعلم أنه حين يلمّ الداء بالمخلوقات الغضة، الجميلة، الصالحة تتجه أرواحها الطاهرة، على نحو لاشعوري، نحو موطن رقادها الأبدي المشرق. نحن نعلم ـ ألا فلتساعدنا السماء! ـ إن خير الكائنات البشرية وأبهاها وجهاً كثيراً ما تذبل وهي في أوج تفتُّحها.»

كان في عيني الفتاة اللطيفة، حين نُطِق بهذه الكلمات، عبرات مترقرقة. حتى إذا سقطت إحداها على الزهرة التي مالت روز عليها، والتمعت متألقة على «كأس» تلك الزهرة، مضاعفة بذلك جمالها، وبدا وكأن بَوْحها يسرّ فؤادها الغض الطري كان يدّعي، تلقائياً، أن بينه وبين أجمل الأشياء في الوجود قرابة ونسَباً.

وتابع الشاب حديثه في انفعال: «كانت مخلوقةٌ لا تقل جمالاً وبراءة عن ملاك من ملائكة الرب تضطرب بين الحياة والموت. أوه! من ذا الذي كان يستطيع أن يطمع، بعد أن فُتحت لها أبواب العالم القصيّ الذي تنتسب إليه نصف فتحة، في عودتها إلى عالم الأحزان والأرزاء هذا؟! روز، روز، لقد كان الوثوق من أنك راحلة مثل ظل رقيق يسفحه ضوء علويّ على هذه الأرض، واليأس من إبقائك للمتخلفين هنا، وعدم معرفة أيما سبب وجيه يدعو إلى هذا الإبقاء، والشعور بأنك تنتسبين إلى ذلك الصقع النيِّر الذي حلقت إليه جمهرة من أعظم الكائنات جمالاً وأحفلهن بالطيبة، والرجاء مع ذلك، أن تُردّي إلى أولئك الذين آثروك بالحب... وأقول لقد كانت هذه كلها كروباً أثقل من أن تطاق. والحق أني أنا عانيت هذه

الكروب، ليل نهار، واجتاحني معها سيل جارف من المخاوف، والهواجس، وضروب من الأسف الأنانيّ عندما خطر لي أنك قد تموتين من غير أن تعرفي مبلغ إخلاصي في حبك. . . سيلٌ كان من العنف بحيث كاد أن يدك، في اندفاعه، عقلي وإحساسي. وأبللتِ من دائك. ويوماً بعد يوم، بل ساعة بعد ساعة، عادت قطرة من عافية؛ وامتزجت هذه القطرات بسيل الحياة الناضب الواهن الجاري في عروقك بفتور، فأرْبَتْهُ وأرْبَتْهُ حتى جعلته مداً عالياً متدفقاً. لقد راقبتك وأنت تنتقلين، أو تكادين، من الموت إلى الحياة، بعينين أعمتهما اللهفة والمحبة العميقة. لا تقولي لي إنك كنت تؤثرين أن لا أشهد هذا كله، ذلك بأنه قد رقَّق قلبي للإنسانية كلها.»

فقالت روز باكية: «أنا لم أعنِ ذلك. كل ما عنيته هو أني كنت أتمنى لو غادرت هذا المكان لكي تنصرف إلى همومك الرفيعة النبيلة مرّة أخرى. إلى تلك الهموم الجديرة بك حقاً.»

ـ «ليس ثمة همٌّ أجدر بي، بل أجدر بأسمى طبيعة في الوجود، من النضال في سبيل الفوز بقلب كقلبك.» كذلك قال الشاب وهو يمسك بيدها. «روز، يا حبيبة نفسي روز، منذ سنوات. . . منذ سنوات عديدة. . . وأنا متيَّم بحبك، راجياً أن أشق طريقي إلى الشهرة، لأعود بعد ذلك في اعتزاز فأنبئك أني لم أسعَ لاكتسابها إلا لكي تشاطريني إياها، مفكراً ـ في أحلام يقظتي ـ كيف سأعمد إلى تذكيرك، في تلك اللحظة السعيدة، بالأدلة الكثيرة الصامتة التي قدّمتها على حبي الصبياني، وأطلب يدك تنفيذاً لعقد أبكم وقَّعناه منذ عهد بعيد! إن تلك الساعة لم تحِنْ بعد. ولكن ها أنا ذا هنا، من غير ما شهرة كسِبتُها، ومن غير ما رؤيا غضة حقَّقتها، أعرض عليك القلب الذي طالما كان مِلْكاً لكِ، وأجعل كل ما أملك رهناً بالكلمات التي ستستقبلين بها ذلك العرض.»

فقالت روز وهي تحاول السيطرة على العواطف التي أثارتها: «لقد كان سلوكك. دائماً، سلوكاً كريماً نبيلاً. وما دمت تعتقد أني لست متحجرة الفؤاد ولا ناكرة للجميل فاسمع جوابي.»

ـ «إنك سوف تقولين إن في استطاعتي أن أسعى لكي أصبح أهلاً لك، أليس كذلك، يا عزيزتي روز؟»

فأجابته روز: «سوف أقول إن عليك أن تسعى لنسياني، لا بوصفي رفيقتك القديمة المتعلقة بك تعلقاً شديداً، لأن ذلك يجرحني جرحاً بليغاً، ولكن بوصفي فتاة أحلامك. سرّح بصرك في العالم. فكِّرْ كم فيه من قلب تفخر باكتسابه. أسبِغْ عليّ أيما عاطفة أخرى، إذا شئت، تجدني أخلص أصدقائك وأوفاهم وأكثرهم حماسة.»

وران صمتٌ أطلقت روز، خلاله، العنان لعبراتها، حاجبة وجهها بإحدى يديها. وظل هاري ممسكاً بالأخرى.

وأخيراً قال في صوت خفيض: «وما هي الأسباب، يا روز... ما هي الأسباب التي تدعوك إلى اتخاذ هذا القرار؟»

فأجابته روز: «إن لك حقاً في معرفتها. ولكن أيما شيء مما قد تقوله لن يستطيع أن يغيِّر قراري. إنه واجب يتعيَّن عليّ أداؤه. واجب تجاه الآخرين وتجاه نفسي أيضاً.»

ـ «تجاه نفسك؟»

ـ «أجل، يا هاري. من واجبي تجاه نفسي، أنا الفتاة التي لا أهل لها ولا بائنة ما والتي تشين اسمها لطخة، أن لا أتيح لأهلك أية فرصة للاعتقاد بأني استسلمت بدناءة لعاطفتك الأولى، وجعلت من نفسي قيداً غليظاً تتعثَّر به آمالك كلها ومشاريعك كلها. إن من واجبي تجاهك وتجاه ذويك أن أحول بينك وبين العمل، بحرارة طبيعتك الكريمة، على تذليل هذه العقبة الهائلة التي تعترض تقدمك في هذا العالم.»

فانبرى هاري إلى القول: «إذا كانت عواطفك متناغمة مع شعورك بالواجب...»

فأجابته روز وقد تضرّج وجهها بالدم: «لا، إنها ليست كذلك.»

فقال هاري: «وإذن فهذا يعني أنك ستبادلينني الحب؟ قولي ذلك ليس غير، يا عزيزتي روز. ولطِّفي من مرارة خيبة الأمل القاسية هذه.»

فأجابته روز: «لو استطعتُ أن أفعل ذلك، من غير أن أظلم من أحببتُهُ ظلماً عظيماً، إذن لكان في إمكاني. . .»

فقال هاري: «. . . لكان في إمكانك أن تستقبلي هذا البوح على نحو مختلف جداً. لا تخفي ذلك عني، على الأقل، يا روز.»

- «أجل!» قالت روز، ثم أضافت وهي تحرر يدها من قبضته: «رويدك! لماذا نعمد إلى إطالة هذه المقابلة الموجعة؟ الموجعة كثيراً بالنسبة إليّ، والمفضية مع ذلك إلى سعادة سرمدية. ذلك بأنه سوف يسعدني حقاً أن أعرف أني احتللت يوماً في نظرك هذه المنزلة الرفيعة التي أحتلها الآن، وكل نصر تحرزه في الحياة سوف يزودني بعزيمة جديدة وثبات جديد. وداعاً، يا هاري! إننا لن نجتمع بعد اليوم لمثل الغرض الذي اجتمعنا لأجله اليوم. أما في نطاق أيام صلة أخرى بيننا ففي استطاعتنا أن نظل متَّحديْن اتحاداً موصولاً وسعيداً. ولتُبْهِجك وتُنْجِحْك جميع البركات التي تستطيع صلوات أصدق القلوب وأخلصها أن تستمطرها من ينبوع الصدق كله!»

فقال هاري: «كلمة أخرى، يا روز. أعطيني السبب الذي يدعوك إلى هذا، بكلماتك أنت. دعيني اسمعه من شفتيك الاثنتين!»

فقالت روز في عزم: «إن المستقبل الذي ينتظرك مستقبل لامع. وجميع ضروب الشرف التي تساعد المواهبُ العظيمة وتساعد الأنسباء الأقوياء عادة، على إسباغها على الناس في الحياة العامة مدَّخرةٌ لك. ولكن هؤلاء الأنسباء متكبرون، وأنا لن أرضى لا الاختلاط بكل من قد يزدري منهم الأمّ التي منحتني الحياة، ولا إنزال الخزي أو الإخفاق بابن تلك التي حلَّت محلّ تلك الأم على الوجه الأفضل. وبكلمة موجزة،» كذلك أضافت السيدة الصغيرة، وهي تشيح بوجهها بعد أن خانتها رباطة جأشها المؤقتة، «إن ثمة لطخة تشين اسمي، لطخة من شأن الناس أن يعتبروا الأبرياء مسؤولين عن مثلها. إني أرفض أن أنقلها إلى أيما دم غير دمي، وهكذا يظل إثمها عليَّ أنا وحدي!»

فصاح هاري مرتمياً على قدميها: «كلمة أخرى يا روز. روز، يا أعز الناس، كلمة أخرى! لو كنت أقل حظاً... أجل أقلّ حظاً في نظر الناس... ولو كان مقدوراً عليّ أن أحيا حياة مغمورة هادئة... ولو كنت فقيراً، مريضاً، منبوذاً... فهل كنت تتخلّين عني في تلك الحال؟ وبكلمة أخرى، أيكون فوزي المحتمل بالغنى والشرف هو الذي أدى إلى نشوء هذا الوسواس؟»

فقالت روز: «لا تلحِفْ عليّ في إعطاء الجواب. إن هذا السؤال ليس وارداً الآن، ولن يَرِد أبد الدهر. وإنه لمن الظلم، بل إنه ليكاد يكون من القسوة الوحشية أن تصرّ على طرحه.»

فأجابها هاري: «إذا جاء جوابك وفْق ما أجرؤ، أو أكاد، على الطمع فيه فعندئذ يسفح بصيصاً من السعادة على طريقي الموحشة، وينير السبيل أمامي. وليس من غير المفيد أن تُسْدي هذه الخدمة العظيمة، من طريق النطق ببضع كلمات موجزة جداً، إلى الفتى الذي يحبُّك أكثر من حبه أيما شيء آخر. أوه، يا روز! أستحلفك باسم هيامي المتقد السرمدي، وباسم كل ما قاسيته من أجلك وكلّ ما تحكمين عليَّ بمكابدته، أن تجيبيني عن هذا السؤال الفَرْد!»

فأجابته روز: «حسناً، لو أن قَدرك كان مصوغاً على نحو مختلف، ولو كانت منزلتك الاجتماعية أسمى قليلاً من منزلتي لا أسمى منها إلى هذا الحد كله، ولو كان في إمكاني أن أكون لك عوناً وراحة في أيما وضع متواضع، هادئ مغمور، لا وصمة وعائقاً وسط قوم طمَّاحين بارزين إذن لوفرت عليّ الظروف هذه المحنة. إن لديّ الآن جميع الأسباب التي تؤهلني للسعادة، للسعادة البالغة. ولكني أقرّ، يا هاري، لو كان الحال كذلك لكنت أعظم سعادة.»

وازدحمت في ذهن روز، وهي ترسل هذا الاعتراف، ذكريات متلاحقة عن آمال قديمة راودتها في صباها الأول، منذ عهد بعيد. ولكنها حملت معها دموعاً، كشأن جميع الآمال حين ترجع إلينا ذابلة. ولقد

سرّت تلك الدموع عن نفس روز.

وقالت وهي تبسط يدها: «ليس لي قِبَلٌ بهذا الضعف، وإنه ليزيدني تشبثاً بموقفي. والآن، يتعيّن عليّ في الواقع أن أفارقك.»

فقال هاري: «إني أسألك أن تعديني وعداً واحداً. هو أن تسمحي لي بأن أحدثكِ مرة أخرى، مرة أخرى فحسب ـ ولنقُلْ في خلال عام واحد، ولكن ذلك قد يتم في موعد أشدّ قرباً ـ حديثاً يدور حول هذا الموضوع نفسه، وللمرة الأخيرة.»

فأجابته روز في ابتسامة كئيبة: «إنك لن تحاول إقناعي، عندئذ، بتعديل قراري الصائب. فهذه المحاولة سوف تكون عقيمة.»

فقال هاري: «لا! لا! كل ما أطمع فيه هو أن أسمعك تكررينه، إذا شئتِ ـ تكررينه نهائياً! إني سوف أنطرح على قدميك، أياً ما كانت المنزلة أو الثروة التي قد أتمتع بها آنذاك. وإذا ما أصررتِ على عزمك الحاليّ، فلن أسعى، سواء بالقول أو بالعمل، إلى تغييره.»

فأجابته روز: «إذن فليكن لك ما تريد. إن ذلك لن يكون غير غصّة جديدة بالنسبة إليّ، ولعلي أستطيع احتمالها، على نحو أفضل.»

وبسطت يدها إليه مرّة أخرى. ولكن الشاب ضغطها على صدره. وبعد أن طبع على جبينها الوسيم قبلة، غادر الحجرة متعجلاً.

الفصل السادس والثلاثون

وهو فصل جد قصير، وقد يبدو الآن غير ذي أهمية بالغة، ولكنه يجب أن يقرأ برغم ذلك، إذ إنه تتمة للفصل السابق ومفتاح لفصل سوف يجيء حين يئين أوانه.

ـ «وإذن فأنت عازم على الارتحال معي هذا الصباح، أليس كذلك؟» هكذا قال الطبيب عندما أقبل هاري مايلي وانضم إلى مائدة الإفطار التي

كان هو وأوليفر جالسين إليها. «الواقع أنك تغيِّر رأيك وعزمك مرة كل نصف ساعة!»

فقال هاري، وقد تضرّج وجهه لغير ما سبب ملحوظ: «سوف تخاطبني، في يوم من الأيام، بلهجة تختلف عن لهجتك هذه.»

فأجابه مستر لوزبيرن: «أرجو أن يكون لديّ سببٌ وجيه يدعوني إلى تغييرها، برغم أني أعترف بارتيابي في إمكان العثور على مثل ذلك السبب. فصباح أمس فقط كنت قد عقدت عزمك، في سرعة بالغة. على البقاء هنا، وعلى مرافقة أمك ـ مثل أي ولد بارّ ـ إلى شاطئ البحر. ولم تكد تمضي بضع ساعات، وقبل أن تبلغ الشمس كبد السماء، تجيئني لتعلن أنك تعتزم تشريفي بمرافقتك، حتى المكان الذي أقصد إليه، في طريقك إلى لندن. حتى إذا هبط الليل أقبلت لتطلب إليّ، في إلحاح ملفَّع بالأسرار، أن أرتحل قبل استيقاظ السيدتين من نومهما، مما أدى إلى تسمير صاحبنا أوليفر الصغير إلى مائدة الإفطار هذه، وكان من حقه في هذا الوقت أن يرود المروج بحثاً عن الظواهر النباتية من كل صنف ونوع. شيء مؤسف جداً، أليس كذلك يا أوليفر؟»

فأجابه أوليفر: «لقد كان خليقاً بي أن أحزن حزناً شديداً لو اتفق لي أن كنت خارج البيت عند ارتحالك مع مستر مايلي، يا سيدي.»

فقال الطبيب: «هذا فتى رائع. إني أدعوك إلى زيارتي بعد عودتك. ولكن، فلنتكلم جدياً، يا هاري. هل جاءتك أيما رسالة من الأعيان الكبار فأحدثت لديك هذا الحرص المفاجئ على الارتحال في الحال؟»

فأجابه هاري: «إن الأعيان الكبار ـ وهو تعبير أحسب أنه يشمل في رأيك شخص عمي المبجل إلى أبعد الحدود ـ لم يبعثوا إليّ بأية رسالة منذ أن جئت إلى هنا. وفوق هذا، فليس من المحتمل ـ في مثل هذه الفترة من السنة ـ أن يحدث أيما شيء يجعل التحاقي العاجل بهم أمراً ضرورياً.»

فقال الطبيب: «حسناً. أنت فتى غريب. ولكنهم سوف يحملونك إلى البرلمان في الانتخابات التي ستجري قبل عيد الميلاد، وهذه

التبديلات والتغييرات المفاجئة إعدادٌ غير رديء للحياة السياسية. إنها ليست فكرة سيئة. فالتدريب الحسن مرغوب فيه دائماً، سواء أكان التنافس في سبيل منصب، أو كأس، أو جائزة من جوائز السباق!»

وبدا هاري مايلي وكأنه يقول إنه كان في استطاعته أن يُتبع هذا الحوار القصير بملاحظة أو ملاحظتين جدير بهما أن تذهلا الطبيب إلى حد غير يسير. ولكنه اجتزأ بالقول: «سوف نرى.» ولم يعد للكلام في هذا الموضوع مرّة أخرى. وما هي إلا لحظات حتى تقدمت مركبة البريد نحو الباب. حتى إذا دخل جيلز لكي يتولى أمر العناية بالأمتعة، خرج الطبيب على نحو مضطرب، للإشراف على حزمها.

وقال هاري مايلي في صوت خفيض: «أوليفر، دعني أقول لك كلمة صغيرة.»

فمضى أوليفر إلى النافذة التي أومأ مستر مايلي إليه بالذهاب إليها، مندهشاً من ذلك المزيج من الحزن والصخب في سلوك هاري كله.

وقال هاري واضعاً يده على ذراع أوليفر: «أنت تستطيع الآن أن تكتب في يسر.»

فأجابه أوليفر: «أرجو ذلك، يا سيدي.»

ـ «إن غيبتي عن البيت ربما طالت بعض الشيء. وأنا أودّ أن تكتب إليَّ ـ مرة كل أسبوعين مثلاً، أيام الاثنين، بواسطة مكتب البريد العام في لندن. هل لك أن تفعل ذلك؟»

فهتف أوليفر وقد ابتهج ابتهاجاً عظيماً بتلك المهمة: «أوه، من غير ريب، يا سيدي. ولسوف أعتزّ بتلبية رغبتك هذه.»

وقال الشاب: «إني أود أن أعرف كيف. . . كيف حال أمي والآنسة مايلي. وفي استطاعتك أن تملأ صفحة بالكلام على النزهات التي تقومون بها، والأحاديث التي تدور بينكم، وما إذا كانت هي تبدو ـ أعني ما إذا كانتا تبدوان ـ سعيدتين وفي أحسن حال. هل تفهمني؟»

فأجابه أوليفر: «أوه، إني أفهمك فهماً حسناً، يا سيدي.»

فقال هاري متعجلاً النطق بكلماته: «وأنا أؤثر أن تكتم الأمر عنهما، لأنه قد يغري أمي بالكتابة إليّ في فترات أقلّ تباعداً، والكتابة تزعجها وتقلق بالها. ليكن هذا سراً بيني وبينك، وأوصيك أن تخبرني بكل شيء. إني سأتكل عليك.»

وغلب على أوليفر شعور بأهميته الشخصية، وازدهاه هذا التشريف، فوعد ـ صادقاً ـ بأن يصون السرّ وبأن يكتب إليه رسائل واضحة لا لبس فيها ولا غموض. واستأذنه مستر مايلي بالانصراف معبِّراً، في توكيد مكرور، عن احترامه له ورعايته إياه.

كان الطبيب قد امتطى متن المركبة، وكان جيلز (الذي قضى التدبير بأن يبقى مع السيدتين) ممسكاً ببابها لكي لا ينغلق، وكانت الخادمتان في الحديقة تشهدان ذلك كله. ثم إن هاري ألقى نظرة على النافذة ذات الشعرية، ووثب إلى داخل المركبة.

وصاح: «انطلق! انطلق في سرعة، في سرعة بالغة، بل بأقصى ما تستطيع الخيل أن تجري! فليس يرضي مزاجي اليوم أيما سرعة دون الطيران وانتهاب الأرض!»

ـ «هاي!» كذلك صاح الطبيب، منزلاً الزجاج الأمامي في عجلة بالغة، وصائحاً في وجه الحوذي: «أما أنا فلا يرضي مزاجي غير سرعة تكون دون الطيران وانتهاب الأرض بكثير.»

واتخذت المركبة سبيلها، مجلجلة مقرقعة، حتى خنقت المسافة ضجيجها وأمست العين وحدها هي القادرة على تتبُّع جريها الحثيث، وقد حجبتها أو كادت سحابة من غبار. كانت تحتجب عن النظر احتجاباً كاملاً حيناً، لتعود فتتبدّى له من جديد، تبعاً للاحتمالات التي فرضتها الأشياء المعترضة والتواءات الطريق وتعقيداتها. ولكن الناظرين إليها لم يتفرقوا إلا بعد أن غابت سحابة الغبار نفسُها عن البصر.

بيد أن مراقباً واحداً ظل مركَّز العينين على البقعة التي اختفت عندها

المركبة، ولم يرفعهما عنها إلا بعد أن اجتازت أميالاً عديدة، ذلك بأنه، خلْفَ السترة البيضاء التي حجبتها عن البصر عندما رفع هاري عينيه إلى النافذة، كانت تجلس روز نفسها!

وقالت آخر الأمر: «يبدو أنه مبتهج سعيد. لقد خشيت فترة من الزمان أن لا يكون كذلك. ولكني كنت مخطئة. أنا الآن سعيدة. . . سعيدة جداً.»

إن الدموع إمارات على البهجة بقدر ما هي إمارات على الأسى. ولكن تلك التي تحدرت على وجنتي روز، وهي مستسلمة للتفكير أمام النافذة، محدقة ما تزال في الاتجاه نفسه، بدت وكأنها تنبئ عن الأسى أكثر مما تنبئ عن البهجة.

الفصل السابع والثلاثون

وفيه يلمح القارىء تغايراً ليس نادر الحدوث في الحالات الزوجية

جلس مستر بامبل في صالون الملجأ، مركَّز العينين، في كآبة، على حاجز المستوقد غير البهيج، الذي لم ينبعث منه ـ إذْ كان الفصل صيفاً ـ أيما وميض غير انعكاس بضعة خيوط من أشعة الشمس الواهية المرتدّة عن سطحه البارد اللمَّاع. وتدلى من السقف شَرك ذباب ورقيّ، فكان مستر بامبل يرفع بصره إليه، بين الفينة والفينة، على نحو محزون. وإذ رأى إلى الحشرات الطيَّاشة تحوم حول الشرك المزوَّق، أطلق زفرة عميقة وران على وجهه ظلٌ أشد كآبة. كان مستر بامبل مستغرقاً في التأمل. ومن يدري، فلعل تلك الحشرات قد أعادت إلى ذهنه ذكرى حادثة أليمة ما من حوادث حياته الماضية.

ولكن كآبة مستر بامبل لم تكن هي وحدها الشيء المؤهل لإيقاع انقباض عذب في نفس الناظر المتوسِّم. فقد كانت ثمة مظاهر أخرى،

مظاهر وثيقة الصلة بشخصه هو، تؤذن بأن تغيراً كبيراً كان قد ألمّ بوضعه ومركزه. إذ أين كانت السترة الموشّاة والقبعة ذات القرنين؟ كان لا يزال يرتدي بنطالاً قصيراً ينتهي عند الركبتين، وجورباً قطنياً داكناً يكسو طرفيه الأسفلين، ولكن ذلك لم يكن هو البنطال المعهود. وكانت السترة عريضة الذيل، وكانت من هذه الناحية شبيهة بالسترة المعهودة، ولكن ـ أوه! ـ ما أعظم الفرق بين الاثنتين! ولقد استعيض عن القبعة الجبارة ذات القرنين بقعبة مستديرة متواضعة. إن مستر بامبل لم يعد شماس كنيسة!

إن ثمة في الحياة ترقيات تكتسب، بصرف النظر عن المكافآت المادية الإضافية التي تتيحها لأصحابها، قيمة ومقاماً خاصين من السترات والصُدْرات المتصلة بها. إن للمارشال ثوبه العسكري، وللأسقف مئزره الحريري، وللمحامي روبه الحريري، وللشماس قبعته ذات القرنين. جرِّد الأسقف من مئزره، أو الشماس من قبعته ووشيه فما الذي يبقى منهما؟ رجلان. مجرد رجلين. إن المقام ـ بل إن القداسة نفسها أيضاً ـ هما في بعض الأحيان مسألة سترة وصُدرة أكثر مما يحسب بعض الناس.

كان مستر بامبل قد تزوج مسز كورني، وكان قد أمسى مديراً للملجأ. كان شماس آخر قد تولى زمام السلطة، فانتقلت إليه القبعة ذات القرنين، والسترة الموشاة بالخيوط الذهبية، والعصا جميعاً.

ـ «غداً يكون قد انقضى على ذلك شهران!» كذلك قال مستر بامبل متنهداً «لكأنّ هذين الشهرين قرن من الزمان!»

وجائز أن يكون مستر بامبل قد عنى أنه ركَّز في تلك المدة الوجيزة المؤلفة من ثمانية أسابيع حياة كاملة طافحة بالسعادة... ولكن كان ثمة تلك التنيهدة... ولقد كان في تلك التنهيدة مغزى جد بعيد.

وقال مستر بامبل، متابعاً تأملاته في الموضوع ذاته: «لقد بعتُ نفسي بستّ ملاعق شاي، وملقطَيْ سكَّر، وإبريق حليب، ومقدار ضئيل من الأثاث المستعمل، وعشرين جنيهاً نقداً. لقد بعت نفسي بثمن بخس جداً. بثمن رخيص، أرخص من التراب!»

ـ «رخيص!» كذلك صاح صوت حادّ في أذن مستر بامبل. «لقد أثبتت الأيام أنك غالٍ ولو بأرخص ثمن! ولقد دفعت فيك ثمناً غالياً إلى حد كاف، والله الذي في السماوات يعرف ذلك!»

واستدار مستر بامبل، فوقع بصره على محيّا زوجته الفاتنة: كانت قد فهمت على نحو غامض تلك الكلمات القليلة التي تناهت إلى سمعها من شكواه، فغامرت بإطلاق الملاحظة السابقة مغامرة.

وقال مستر بامبل، في تجهُّم عاطفيّ: «مسز بامبل، سيدتي!»

فصاحت السيدة: «حسناً!»

ـ «تعطَّفي بالنظر إليّ،» قال مستر بامبل ذلك، مثبِّتاً عينيه عليها. «إذا صمدت لعين كهذه العين» ـ هكذا قال مستر بامبل في ذات نفسه ـ «فمعنى هذا أنها تستطيع الصمود لكل شيء. إنها عين لم تخذلني قط مع الفقراء والمعوزين. فإذا ما خذلتني عندها ضاعت سلطتي!»

هل صحيح أن اتساعاً في حدقة العين صغيراً جداً يكفي لكَبْت الفقراء الذين تجعلهم التغذية الرقيقة في وضع خسيس؟ وهل صحيح أن مسز كورني السابقة كانت ممتنعة على التأثر بنظرات النسر امتناعاً استثنائياً؟ هاتان مسألتان من المسائل التي تختلف فيها الآراء. ولكن المسألة التي لا خلاف فيها البتة هي أن تقطيب مستر بامبل لم يُرهب المديرة. على العكس، لقد تلقَّتْهُ المديرة في ازدراء عظيم، بل لقد وفِّقت إلى مقابلته بضحكة متكلفة بدت وكأنها صادرة من القلب.

حتى إذا سمع مستر بامبل هذا الصوت الذي لم يكن يتوقعه البتة، بدا غير مصدق، بادئ الأمر، مشدوهاً بعد ذلك. ثم إنه ارتدّ إلى حاله السابقة، ولم يأتِ بأيما حركة إلا بعد أن أثار انتباهه من جديد صوت شريكة حياته.

لقد سألته مسز بامبل: «أتعتزم أن تجلس، هنا، شاخراً طوال النهار؟»

فأجابها مستر بامبل: «سوف أجلس هنا ما وجدتُ ذلك ملائماً، يا سيدتي. وعلى الرغم من أني لست أشخر، فسوف أعمد إلى الشخير،

والتثاؤب، والعُطاس، والضحك أو البكاء، على هواي. لأن هذا امتياز من امتيازاتي.»

فشخرت مسز بامبل، في ازدراء لا سبيل إلى وصفه: «امتياز من امتيازاتك!؟»

فقال مستر بامبل: «أجل، هذه هي عين اللفظة التي نطقت بها. إن إصدار الأوامر هو امتياز الرجل.»

فصاحت أرملة المرحوم مستر كورني: «وما هو، بحقّ السماء، امتياز المرأة؟»

فهدر مستر بامبل: «أن تطيع، يا سيدتي. كان على زوجك الفقيد النكد الطالع أن يعلّمك ذلك. ولو فعل إذن لامتدّ به العمر، في أغلب الظن، حتى هذه الساعة. يا للرجل المسكين! لشدّ ما أتمنى لو ظل على قيد الحياة!»

وأدركت مسز بامبل أن اللحظة الحرجة قد حانت، وأن أيما ضربة يوجّهها هذا الفريق أو ذاك لإثبات سيطرته على الآخر لا بدَّ أن تكون نهائية وحاسمة. وهكذا فإنها لم تكد تسمع هذه الإشارة إلى الفقيد المأسوف عليه حتى ارتمت على كرسي وأطلقت صيحة مدوّية أعلنت فيها أن مستر بامبل وحش متحجر الفؤاد، ثم انخرطت في نوبة بكاء.

ولكن العبرات لم تكن هي الأشياء الخليق بها أن تعطف قلب مستر بامبل. فقد كان قلبه كتيماً لا ينفذ إليه الماء. ومثل القبعات المصنوعة من جلد السمور والقابلة للغسل، تلك القبعات التي لا يزيدها المطر إلا حسناً، غدت أعصابه أشد قوة وعزماً بعد أن أصابها وابل الدموع ذاك. لقد وجد في هذه الدموع دليلاً على ضعف امرأته، وبالتالي اعترافاً ضمنياً بقوّته هو، فأبهجه ذاك وازدهاه. لقد حدج سيدته الصالحة بنظرات ترشح ببالغ الرضا، وتوسل إليها في لهجة مشجعة، أن تبكي ما وسعها البكاء، على اعتبار أن الأطباء يرون في البكاء عاملاً من أقوى العوامل المساعدة على صيانة الصحة.

ـ «إنه يفتح الرئتين، ويغسل الوجه، ويدرّب العين، ويلطِّف الطبع.» كذلك قال مستر بامبل. «من أجل هذا يحسن بك أن تبكي ما وسعك البكاء!»

حتى إذا أطلق مستر بامبل هذه المزحة تناول قبعته عن أحد المشاجب، واعتمر بها، على نحو خليع بعض الشيء، مميلا إياها إلى جانب، كما يجدر بالرجل الذي استشعر أنه أثبت تفوقه بطريقة لائقة أن يفعل. ثم إنه أقحم يديه ببعض جيوبه، ومضى نحو الباب في أناة، وقد رشح الارتياح والمرح من حركاته كلها.

كانت مسز كورني السابقة، قد جرّبت الآن سفح الدموع لأن ذلك كان أقلّ إزعاجاً من استخدام القوة البدنية. ولكنها كانت على أتم الاستعداد لتجربة الوسيلة الأخيرة، كما اكتشف مستر بامبل بعد بضع لحظات.

وكان أول الأدلة التي أشعرته بهذه الحقيقة صوتاً غائراً سرعان ما أتبِع بطيران قبعته على نحو مفاجئ إلى الجانب الآخر من الحجرة. وبعد أن تركته هذه العملية التمهيدية حاسر الرأس، أخذت السيدة الخبيرة بخناقه بإحدى يديها، مسدّدة إليه بالأخرى وابلاً من اللكمات (في رشاقة وقوة فريدتين). حتى إذا تمّ لها ذلك عمدت إلى إحداث شيء من التغيير في أسلوب العمل فخدشت وجهه، وشدته من شعره. وإذ اعتبرت الآن أنها قد أنزلت به من العقاب ما يتكافأ والجريمة التي ارتكبها دفعته على الأرض من فوق كرسي كان لحسن الطالع في موضع يساعد على أداء هذه المهمة، وتحدّتْهُ أن يتحدث عن امتيازاته، مرّة أخرى، إذا آنس من نفسه الجرأة على ذلك.

وقالت مسز بامبل بلهجة آمرة: «انهض! واغرب من وجهي، إلا إذا أردتني أن أقدم على عمل يائس.»

ونهض مستر بامبل وعلى وجهه سيماء تدعو إلى الرثاء الشديد،

متسائلاً بينه وبين نفسه أيّ شيء يمكن لذلك «العمل اليائس» أن يكونه. ثم إنه رفع قبعته عن الأرض، ونظر إلى الباب.

فسألته مسز بامبل: «أذاهب أنت؟»

فأجابها مستر بامبل وهو يتقدم نحو الباب بخطى أسرع: «طبعاً، يا عزيزتي، طبعاً. لم أكن أقصد أن... أنا ذاهب، يا عزيزتي! إنك امرأة عنيفة إلى درجة تجعلني في الواقع...»

وفي هذه اللحظة وثبت مسز بامبل إلى الأمام لكي تعيد السجادة ـ التي قلبتها الرفسات خلال المعركة ـ إلى موضعها. وفي الحال غادر مستر بامبل الحجرة، من غير أن يضيع لحظة واحدة في التفكير بجملته التي لم تتمّ، تاركاً مسز كورني السابقة سيدة الموقف.

لقد أخِذ مستر بامبل على حين غرة، وهُزِم هزيمة كاملة. كانت تستحوذ عليه نزعة طاغية إلى الاستبداد بالضعفاء، وكان يستمد متعة غير يسيرة من إخضاع الآخرين لضروب من الأعمال الوحشية الصغيرة. وكان بالتالي (كما لا نحتاج إلى أن نقول) جباناً. وليس في هذا على أية حال أي انتقاص لقدره، ذلك بأن كثيراً من الشخصيات الرسمية، التي ينظر إليها الناس بوافر من الاحترام والإعجاب، هم في العادة ضحايا عاهات مماثلة. والواقع أننا إنما أطلقنا هذه الملاحظة لمصلحته هو، لا لأي غرض آخر، ولجعل قرائنا يقدرون كفاءاته لذلك المنصب حق قدرها.

ولكن كأس إذلاله لم تكن قد أترعت بعد. فبعد أن طاف بالمنزل، مفكِّراً للمرة الأولى في أن قوانين إسعاف الفقراء كانت في الواقع أقسى من أن يحتملها الناس، وفي أن الرجال الذين يفرون من زوجاتهم تاركين إياهنّ في عهدة سلطات الأبرشية يجب، في منطق العدل، أن لا يُنْزل بهم أيما عقاب البتة، بل يجب ـ على عكس ذلك ـ أن يكافأوا بوصفهم أفراداً يستحقون أعظم التقدير بسبب من الآلام الشديدة التي عانوها. انتهى مستر بامبل إلى حجرة كان نفر من الفقيرات يُستخدمن فيها، عادة، في غسل بياضات الأبرشية، حجرة كان ينبعث منها الآن أصوات متحاورة.

ـ «هممم!» كذلك قال مستر بامبل مستجمعاً كامل وقاره الفطري. «هؤلاء النسوة على الأقل سوف يواصلن احترام الامتيازات! هاي! أنتن اللواتي هناك! ماذا تعنين بهذه الضجة، أيتها الفاجرات!»

نطق مستر بامبل بهذه الكلمات وفتح الباب، ودخل الحجرة وعلى وجهه إمارات غضب ضار إلى أبعد الحدود، سرعان ما استبدل بها سيماء ليس أحفل منها بالذلة والذعر، حين استقرت عيناه ـ استقراراً غير متوقع ـ على شخص زوجته.

وقال مستر بامبل: «يا عزيزتي! لم أكن أدري أنك هنا.»

فكررت مسز بامبل: «لم تكن تدري أني هنا.» ما الذي جئت تفعله هنا؟»

ـ «لقد حسبت أنهما تسرفان في الكلام إلى حدّ يتعذر عليهما معه القيام بعملهما على وجه حسن، يا عزيزتي.» كذلك أجاب مستر بامبل، وهو يلقي نظرة شاردة على عجوزين اثنتين كانتا تتبادلان، عند حوض الغسيل، انطباعات الإعجاب بتواضع مدير الملجأ.

وقالت مسز بامبل: «لقد حسبتَ أنهما تسرفان في الكلام؟ ما شأنك أنت بهما؟»

فقال مستر بامبل في خضوع: «ولكن، يا عزيزتي...»

فسألته مسز بامبل مرّة أخرى: «ما شأنك أنت بهما؟»

ـ «هذا صحيح جداً. إنك أنت المديرة هنا، يا عزيزتي،» كذلك اعترف مستر بامبل. «ولكني ظننت أنك لن تكوني هنا، في هذه الآونة.»

فقالت السيدة: «سوف أقول لك شيئاً. إننا لا نريد أن تتدخل في شؤوننا البتة. إنك مولع أكثر مما ينبغي في إقحام أنفك في أشياء لا تعنيك، مثيراً بذلك كل امرئ في الملجأ، حالما تدير ظهرك، ومُظهِراً نفسك بمظهر الرجل المخبول كل ساعة من ساعات النهار. أخرج من هنا، عجِّل!»

وإذ رأى مستر بامبل، في غصة موجِعة، إلى ابتهاج العجوزين اللتين كانتا تكتمان ضحكهما في جذل بالغ، تردد لحظة في امتثال الأمر الصادر إليه. فلم يكن من مسز بامبل، التي كان صبرها النافد لا يطيق أيّ إبطاء، إلا أن أمسكت بوعاء مليء بغُسالة الصابون، وأومأت إلى الباب آمرة مستر بامبل بالانصراف في الحال، وإلا أفرغت محتويات ذلك الوعاء على شخصه الجليل.

ما الذي كان في مقدور مستر بامبل أن يفعله؟ لقد أجال بصره في ما حوله على نحو كئيب، وانسلّ من الحجرة. حتى إذا انتهى إلى الباب كان ضحك العجوزين المكتوم قد استحال إلى قهقهة مجلجلة تنضح بابتهاج لا سبيل إلى كبحه. ولم يكن يُعْوِز الموقف غير تلك القهقهة! لقد أذِلّ في أعينهما، ولقد خسر مركزه واعتباره على مشهد من الفقراء أنفسهم. كان قد سقط من قمة الأبهة الملازمة لوظيفة الشماس إلى الدرك الأسفل من استكانة الأزواج لزوجاتهم على نحو محفوف بأقسى الزجر والتعنيف.

وقال مستر بامبل مستغرقاً في الأفكار المشؤومة: «كل هذا في شهرين! شهرين اثنين! فقبل شهرين اثنين ليس غير لم أكن سيد نفسي فحسب، بل سيد كل ما يتعلق الأمر بالملجأ الأبرشاني. أما الآن! . . .»

كان ذلك فوق الطاقة والاحتمال. ولطم مستر بامبل أذني الغلام الذي فتح البوابة الخارجية له (ذلك بأنه كان قد بلغها وهو مستسلم لأحلام يقظته)، وانطلق شارد اللب إلى الشارع.

وراح يضرب في الأرض، يصعد هذا الشارع حيناً ويهبط ذاك حيناً، حتى أخمدت الرياضة سَوْرة أساه الأولى. وكان في التحول المفاجئ الذي طرأ على شعوره ما جفف حلقه فهو ظمئ. واجتاز بعدد كبير من الحانات، ولكنه مرّ آخر الأمر بواحدة قائمة في طريق فرعية، كانت حجرتها فارغة ـ كما أدرك من نظرة عاجلة ألقاها عليها من فوق مصاريع نوافذها ـ ليس فيها غير زبون متوحد. وفي تلك اللحظة شرع المطر يهطل مدراراً. فحمله ذلك على اتخاذ قرار نهائي. وهكذا دخل مستر بامبل

الحانة. وبعد أن طلب شيئاً من خمر، فيما كان يمرّ بالمشرب، تقدَّم نحو الحجرة التي كان قد اختلس النظر إليها من الشارع.

كان الرجل الجالس هناك فارع الطول، أسود الشعر، وكان يرتدي معطفاً واسعاً. لقد بدت عليه مخايل الغرباء، وبدا من نظرته الشاردة ومن الغبار الذي يعلو ثيابه أنه كان قد قام برحلة طويلة بعض الشيء. ولم يكد بامبل يدخل عليه حتى نظر إليه شزراً، ولكنه تلطَّف ـ وما كاد ـ فحنى رأسه جواباً عن تحيته له.

وغلب على مستر بامبل وقارٌ موفور يكفي رجلين اثنين، حتى على افتراض أن الغريب تكشَّف عن قَدْر من الإلفة أكبر. وهكذا احتسى شراب الـ «جن» في صمت، وطالع الجريدة في تظاهر بالغ بالعظمة والكياسة.

بيد أنه اتفق ـ كما يحدث في كثير من الأحيان حين يلتقي الناس في مثل تلك الظروف ـ أن استشعر مستر بامبل، بين الفينة والفينة، إغراء قوياً (لم يستطع له دفعاً) بأن يختلس نظرة إلى الرجل الغريب. وأنه كان كلما فعل ذلك يسارع إلى الغض من طرفه في شيء من الارتباك، ليجد أن الرجل الغريب كان في تلك اللحظة يختلس النظر، هو أيضاً، إليه. وكان مما زاد في ارتباك مستر بامبل ذلك التعبير الاستثنائي الذي غلب على عين الرجل الغريب، وكانت ثاقبة لامعة، ولكنها مُعَتَّمة بتجهم ارتياب وشكّ لم يسبق له أن رأى نظيره من قبل ـ تجهم يشمئز المرء من النظر إليه.

حتى إذا التقت نظراتهما على هذا النحو، عدة مرات، قطع الغريب الصمت في صوت أجشّ خفيض، فقال:

ـ «أكنت تبحث عني عندما اختلست النظر من تلك النافذة؟»

ـ «لا علم لي بذلك، إلا إذا كنت مستر. . .» وهنا كفَّ مستر بامبل عن الكلام. ذلك بأنه كان شديد التوق إلى معرفة اسم الرجل الغريب. ولقد ظن أن هذا الرجل سوف يعمد، في غمرة من نفاد صبره، إلى ملء الفراغ.

فقال الرجل الغريب، وقد حامت حول شفتيه انطباعة من سخرية هادئة: «أنا أرى أنك لم تفعل، وإلا لعرفت اسمي. أنت لا تعرفه. وإني لأنصحك بأن لا تسأل عنه.»

فأعلن مستر بامبل في جلال: «أنا لم أقصد الإساءة، أيها الفتى.»

فقال الرجل الغريب: «ولن تسيء البتة.»

وران بعد هذا الحوار القصير صمت آخر ما لبث الرجل الغريب أن قطعه مرّة أخرى.

لقد قال: «يخيل إليّ أني رأيتك من قبل. كنت ترتدي آنذاك ثوباً غير هذا الثوب، ولقد مررت بك في الشارع مجرد مرور، ولكني واثق من قدرتي على معرفتك مرّة أخرى. لقد كنت شماس هذه البلدة، في يوم من الأيام، أليس كذلك؟»

فقال مستر بامبل في شيء من الدهشة: «هذا صحيح. لقد كنت شماساً أبرشانياً.»

فقال الآخر، وهو يهز برأسه: «تماماً. وبذلك الوصف الشماسي رأيتك آنذاك. ما أنت الآن؟»

ـ «مدير الملجأ.» قال مستر بامبل ذلك في أناة ووقار لكي يكبح جماح أيما إلفة غير مشروعة قد يعمد الرجل الغريب إلى استخدامها. «أنا مدير الملجأ، أيها الفتى!»

ـ «إن لك دائماً نفس اهتمامك المعهود بمصالحك الخاصة، في ما يخيل إليّ؟» كذلك استأنف الرجل الغريب كلامه، محدّقاً في عيني مستر بامبل الذي رفعهما نحوه وقد أذهله هذا السؤال. «لا تتردّد في الإجابة بصراحة، أيها الرجل. أنا أعرفك معرفة جيدة، كما ترى.»

فأجابه مستر بامبل، حاجباً عينيه بيده، ومستعرضاً الرجل الغريب من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، في ارتباك ظاهر: «أحسب أن الرجل المتزوج ليس أشدّ عداء لاكتساب المال، حين يستطيعه، من الرجل

العزب، والموظفون الأبرشانيون لا يتقاضون رواتب عالية تمكّنهم من رفض أيما رسم إضافي صغير، حين يأتيهم ذلك على نحو مهذب وملائم.»

وابتسم الرجل الغريب وهز برأسه مرّة أخرى، وكأنه يقول إنه لم يخطئ صاحبَهُ. ثم إنه رن الجرس وقال وهو يقدم كأس مستر بامبل الفارغة إلى صاحب الحانة: «املأ هذا القدح مرّة أخرى. اجعله مركَّزاً وساخناً. أنت تحبه هكذا، على ما أحسب؟»

فأجابه مستر بامبل في سعال رقيق: «لست أحبه مركَّزاً أكثر مما ينبغي.»

فقال الرجل الغريب في جفاء: «أنت تفهم ما معنى ذلك، أيها الخمَّار!»

فابتسم المضيف، وتوارى عن الأبصار، ثم عاد بُعيد ذلك حاملاً طاسة ينبعث منها البخار. ولم يكد مستر بامبل يتجرع منها جرعة واحدة حتى فجَّرت الماء في عينيه.

وقال الرجل الغريب بعد أن أوصد الباب والنافذة: «والآن أصغِ إليّ. لقد جئت إلى هذا المكان اليوم بحثاً عنك. وشاءت إحدى تلك المصادفات التي يطرحها الشيطان في طريق أصدقائه أحياناً أن تدخل أنت إلى نفس الحجرة التي كنت أجلس فيها، في اللحظة التي استحوذت فيها على تفكيري كله. لقد أردت أن أسألك تزويدي ببعض المعلومات. ولست اعتزم أن أطلب إليك تزويدي بها مجاناً، على الرغم من تفاهتها. ضع هذين في جيبك، مبدئياً...»

قال ذلك ودفع إلى رفيقه بجنيهين ذهبيين، عبر المائدة، دفعاً حذراً، وكأنه كان غير راغب في أن يسمع رنين الذهب أحد في الخارج. حتى إذا فحص مستر بامبل القطعتين النقديتين فحصاً دقيقاً جداً لكي يستيقن من أنهما غير زائفتين، وبعد أن وضعهما بكثير من الارتياح في جيب صُدرته، تابع الرجل الغريب حديثه قائلاً:

ـ «ارجع بذاكرتك إلى الوراء. . . لنقل اثني عشر عاماً منذ الشتاء الماضي.»

فقال مستر بامبل: «ذلك عهد بعيد. حسن جداً. لقد رجعت بها.»

ـ «المكان: الملجأ.»

ـ «حسن.»

ـ «الزمان: ليلاً.»

ـ «نعم.»

ـ «المشهد يجري في ذلك الجحر العفن، الذي لا أدري أين يقع، والذي تمْنَحُ فيه البغايا الحياة والصحة اللتين كثيراً ما يُحرمن هنّ منهما. . . وبالاختصار، حيث يلدن الأطفال البكّائين ويتركن أمر تربيتهم للأبرشية، ثم يخفين عارهنّ، لا ردّهن اللّه، في القبر!»

ـ «تعني حجرة الولادة، في ما أحسب؟» كذلك قال مستر بامبل، واجداً بعض الصعوبة في تتبُّع الوصف المشبوب الذي استرسل فيه الرجل الغريب.

فقال الغريب: «أجل. لقد وُلِد هناك غلام.»

ـ «لقد وُلِد هناك غلمان كثيرون،» هكذا أعلن مستر بامبل، وهو يهز رأسه في قنوط.

فصاح الغريب: «فليأخذ الطاعون أولئك الأبالسة الصغار! أنا أتحدث عن واحد. عن غلام وديع المظهر، شاحب الوجه، مُهِّن هنا عند أحد صانعي التوابيت ـ كم أتمنى لو أنه صنع له نعشه، وسمَّر خشب ذلك النعش على جسده ـ ثم فرّ بعد ذلك إلى لندن، على ما يُظن.»

فقال مستر بامبل: «ولكنك تعني أوليفر! تويست الصغير! أنا أذكره، طبعاً. فلم يوجد قط وغد صغير أشد عناداً. . .»

فلم يكن من الرجل الغريب إلا أن قاطع مستر بامبل في مستهل خطبته عن رذائل أوليفر المسيكن، وقال: «ليس أوليفر هذا هو مَنْ أسعى

إلى سماع أنبائه. ولقد سمعت عنه ما فيه الكفاية. أنا أسعى إلى سماع أنباء إحدى النساء... تلك العجوز الشمطاء التي ولَّدت أمه. أين هي؟»

ـ «أين هي؟» كذلك قال مستر بامبل الذي كان شراب الـ «جن» قد جعله ظريفاً حلو النكتة: «من العسير على المرء أن يحزر. فليس ثمة، أياً ما كان المكان الذي ذهبت إليه، أيّ حاجة إلى القابلات. وهكذا فإني أعتقد أنها عاطلة ـ على أية حال ـ عن العمل.»

فسأله الرجل الغريب، في تجهم: «ماذا تعني؟»

فأجابه مستر بامبل: «أعني أنها ماتت في الشتاء الماضي.»

وحدق الرجل إليه عندما أدلى بذلك النبأ. وعلى الرغم من أنه لم يحوّل عينيه عنه إلا بعد فترة، فإن نظرته أمست ـ شيئاً بعد شيء ـ شاردة ذاهلة، وبدا هو مستغرقاً في تفكير عميق. وتراءى، طوال برهة، أنه كان في حيرة من أمره، أيبتهج لهذا النبأ أم يستاء. ولكنه تنفس الصعداء آخر الأمر. ثم إنه حوّل بصره عن مستر بامبل، وأعلن أن ذلك لم يكن أمراً ذا بال. وعندئذ نهض، وكأنه يريد أن يمضي لسبيله.

ولكن مستر بامبل لم يكن يعوزه المكر. ولقد رأى على التوّ أن فرصة قد أتيحت له للإتجار على نحو رابح بسرّ كانت زوجته ـ نصفه الأفضل ـ تحتفظ به. ذلك بأنه تذكر جيداً تلك الليلة التي ماتت فيها العجوز سالي، إذ كان في أحداث ذلك اليوم ما ساعده على تذكرها، بوصفه اليوم الذي طلب فيه الزواج من مسز كورني. وعلى الرغم من أن تلك السيدة لم تُطلعه قط على الاعترافات التي كانت هي الشاهدة الوحيدة عليها فقد سمع عنها ما يكفي لإعلامه أنها تتصل بشيء كان قد حدث عندما كانت المرأة العجوز تشرف، بوصفها قابلة الملجأ، على توليد أمّ أوليفر تويست الشابة. وإذْ تمثلت هذه الحادثة في ذهنه على ذلك النحو الخاطف فقد أعلم الرجل الغريب، في لهجة ملفعة بالأسرار، أن إحدى النساء اختلت بتلك العجوز الشريرة قبيل وفاتها. وأن في استطاعة تلك المرأة، في ما يخيل إليه على الأقل، أن تلقي بعض الضوء على المسألة التي تشغل باله.

ـ «كيف أستطيع أن ألقاها؟» كذلك قال الرجل الغريب، وقد أخِذ على حين غرة، وأظهر في وضوح أن جميع مخاوفه (أياً ما كانت طبيعتها) قد أثيرت من جديد إثر هذا النبأ.

فأجابه مستر بامبل: «لن تستطيع ذلك إلا بواسطتي.»

فصاح الغريب، في اهتياج: «متى؟»

فأجابه بامبل: «غداً.»

ـ «في الساعة التاسعة مساء.» كذلك قال الغريب، مخرجاً من جيبه قصاصة ورق، ومدوّناً عليها عنواناً غامضاً لبيت قائم على ضفة النهر، بحروف نمَّت عن اهتياجه البالغ. «جئني بها إلى هناك في الساعة التاسعة مساء. ولست أحتاج إلى توصيتك بضرورة الكتمان. فتلك هي مصلحتك.»

نطق بهذه الكلمات وتقدّم رفيقه إلى الباب، بعد أن توقف ليدفع ثمن الخمرة التي شرباها، وبعد أن أعلن في كلمات قليلة أن طريقيهما مختلفتان، انصرف من غير أن يتكشَّف عن أيما آية من آيات المجاملة المألوفة، مجتزئاً بتذكير مستر بامبل، في إلحاح، بموعد لقائهما في الليلة التالية.

وحين ألقى الموظف الأبرشاني نظرة على العنوان لاحظ أنه لا يشتمل على أيما اسم. ولم يكن الرجل الغريب قد أمعن في الابتعاد ـ فانطلق لاحقاً به لكي يسأله عنه.

وصاح الرجل وهو يلتفت على عجل، حين مسَّ مستر بامبل ذراعه: «ماذا تريد؟ أنت تتبعني؟»

فقال الآخر، مشيراً إلى قصاصة الورق: «لكي أسألك سؤالاً واحداً ليس غير. ما الاسم الذي يتعيَّن عليّ أن أسأل عنه؟»

ـ «مونكس!» كذلك أجابه الرجل، ومضى لسبيله، مهتاجاً، موسَعاً الخطى.

الفصل الثامن والثلاثون

ويشتمل على بسط لما دار بين مستر ومسز بامبل، ومستر مونكس في مقابلتهم الليلية.

كان مساء من مساءات الصيف الغائمة، الخانقة، المظلمة. وكانت السحب، التي غلبت عليها طوال النهار سيماء متوعِّدة، قد انتشرت على شكل كتلة من البخار كثيفة بطيئة، وشرعت ترسل قطرات كبيرة من المطر، وبدت وكأنها تنذر بعاصفة عنيفة، عندما غادر مستر ومسز بامبل شارع البلدة الرئيسي، واتجها نحو مجموعة صغيرة من البيوت الخربة، الباعدة عنه نحواً من ميل ونصف ميل، والمبنية في مستنقع خفيض غير صحِّي محاذ للنهر.

كانا كلاهما يرتديان معطفين عتيقين باليين ربما أدّيا غرضاً مزدوجاً، هو صيانة شخصيهما من المطر وحجبهما عن أنظار الناس. وكان الزوج يحمل مصباحاً لم يكن قد انبعث منه حتى ذلك الحين أيما ضياء، وكان يمشي متثاقلاً، متقدماً زوجته بضع خطوات، وكأنه قصد بذلك إلى أن يتيح لها ـ إذ كانت الطريق قذرة ـ فرصة السير على آثار قدميه الثقيلتين. وتقدّما على هذا النحو في صمت عميق. وبين الفينة والفينة كان مستر بامبل يخفف سرعة خطوه ويدير وجهه إلى الوراء وكأنه كان يبتغي أن يستيقن من أن زوجته كانت تتبعه. حتى إذا اكتشف أنها في أعقابه تماماً، ضاعف سرعته، واندفع مسرعاً نحو الموطن الذي كانا يقصدان إليه.

ولم يكن في ميسور المرء أن يرتاب البتة في صفة ذلك الموطن. إذ كان معروفاً منذ عهد بعيد بأنه مقر جماعة من الأوغاد السفلة الذين كانوا ـ برغم تظاهرهم باكتساب الرزق من مختلف الأعمال الشريفة ـ يعيشون في المقام الأول على النهب والجريمة. كان ذلك الموطن مجرد مجموعة من الزرائب، بُني بعضها على عجل من آجرّ غير متماسك، وبني بعضها الآخر من خشب السفن العتيق الذي أكله السوس، وخُلِطت كلها معاً من

غير ما محاولة إلى إحداث شيء من النظام أو الترتيب، وأقيمت في الأعم الأغلب على بضعة أقدام من ضفة النهر. كانت بعض المراكب المثقوبة، المسحوبة على الوحل، والمشدودة إلى السور القزم الذي يحيط بها تبدو ههنا وهناك، ويبدو معها مجذاف أو لفة حبال، وكأنها تعلن ـ للوهلة الأولى ـ أن سكان هذه الأكواخ الحقيرة يقومون ببعض الأعمال المهنية على سطح النهر. ولكن نظرة واحدة إلى حالة التلف واللاجدوى التي غلبت على تلك الأدوات المعروضة على ذلك النحو كانت كافية لأن تقود عابر السبيل، في غير ما عسر كبير، إلى الحدس بأنها إنما عُرِضت هناك لإنقاذ المظاهر أكثر مما عُرِضت بقصد استعمالها استعمالاً فعلياً.

وفي قلب عنقود الأكواخ هذا نهض مبنى كبير كان في ما مضى مصنعاً ما: لقد حاذى النهر، وأطلت أدواره العليا عليه. ولعله كان في أيام مجده يزوّد نزلاء المساكن المجاورة بالأعمال على اختلافها. ولكن الدمار كان قد نزل بساحته منذ عهد طويل. وكانت الجرذان والديدان وفعل الرطوبة قد أوهنت ركائزه الخشبية. وكان جزء غير يسير من المبنى قد غاص في النهر، على حين بدت بقيته، المترنحة المنحنية فوق المياه القاتمة، وكأنها تنتظر فرصة مناسبة للِّحاق بالمصير نفسه.

أمام هذا المبنى الخرب وقف الزوجان الفاضلان، عندما تردَّد في السماء أول صدى من أصداء الرعد، وشرع المطر ينهمر في عنف.

ـ «لا بد أن يكون المنزل في مكان ما غير بعيد من هنا.» كذلك قال بامبل وهو يراجع قصاصة ورق كان يمسك بها بيده.

فصاح صوت من أعلى المبنى: «هاي! هناك!»

ولم يكد بامبل يسمع هذا الصوت حتى رفع رأسه في اتجاهه، فتبيَّن عن بعد رجلاً مطلاً من باب مرتفع حتى الصدر، قائم في الدور الثاني.

وصاح الصوت: «قفا مكانكما، دقيقة، سوف أجيئكما في الحال.» وسرعان ما اختفى الرأس، وأوصِد الباب.

وتساءلت زوجة مستر بامبل الصالحة: «أهذا هو الرجل؟»

فهز مستر بامبل رأسه أن نعم.

عندئذ قالت المديرة: «إذن، تذكَّر ما قلته لك. واحرص على أن نقول أقل قدر من الكلام ممكن، وإلا فضحتنا في الحال.»

وكان مستر بامبل ـ الذي راح يلقي على المبنى نظرات جد محزونة ـ على وشك أن يعبِّر، في ما يبدو، عن شكوكه المتصلة بصوابية الذهاب في هذه المسألة إلى أبعد مما ذهبا، في اللحظة الحاضرة، عندما حال بينه وبين ذلك ظهور مونكس الذي فتح باباً صغيراً كانا يقفان على مقربة منه، وأومأ إليهما بأن يدخلا.

وصاح في نفاد صبر ضارباً الأرض بقدميه: «أدخلا! لا تبقياني هنا!»

فتقدمت المرأة، التي كانت قد ترددت بادئ الأمر، في خطى جسورة، من غير أن تنتظر أيما دعوة أخرى. وتبعها مستر بامبل، الذي كان خجلاً أو خائفاً من التخلف، وهو مرتبك على نحو واضح، عاطلٌ إلى حد بعيد عن ذلك الوقار الرائع الذي طالما كان إحدى سجاياه الرئيسية.

ـ «ما الذي جعلك تقف متلكئاً هناك، تحت المطر؟ أجبني بحق الشيطان!» كذلك قال مونكس وهو يستدير موجهاً الخطاب إلى بامبل، بعد أن أحكم إيصاد الباب خلفهما بالرتاج.

فتمتم بامبل، مجيلاً الطرف في ما حوله بجزع: «كنا... كنا نتبرّد ليس غير.»

فقال مونكس: «تتبرّدان! إن جميع الأمطار التي قدِّر لها أن تهطل والتي سوف يقدَّر لها أن تهطل لن تقوى على إطفاء جزء صغير من نار الجحيم كالذي يستطيع أن يحمله إنسان واحد. لا تتصورا أن في ميسوركما أن تتبرّدا بمثل هذه السهولة كلها.»

ألقى مونكس هذه الخطبة القريبة إلى القلب والتفت، فجأة، إلى

المديرة وركَّز نظراته عليها حتى لقد نزعت هي ـ أجل هي، التي لم تكن لتُرْهَب في سهولة ـ إلى الغض من طرفها وتصويبه نحو الأرض.

وسأله مونكس: «هذه هي المرأة، أليس كذلك؟»

فأجابه مستر بامبل، متذكراً وصية زوجته: «هممم! هذه هي المرأة.»

فقالت المديرة، مقاطِعة، وردّت ـ فيما هي تتكلم على نظرات مونكس بمثلها: «يخيَّل إليَّ أنك تحسب أن النساء لا يستطعن كتمان الأسرار البتة.»

فقال مونكس: «أنا أعلم أن من دأبهن أن يكتمن سراً واحداً إلى أن يُكتشف!»

فسألته المديرة: «وما ذلك السر؟»

فأجابها مونكس: «ضياع العفاف. وهكذا ـ وعلى أساس من القاعدة نفسها ـ فحين تكون امرأة ما فريقاً في سرّ قد يعرِّضها للشنق أو الترحيل من البلاد أراني مطمئناً إلى أنها لن تبوح به لأحد... لا، لست أنا الذي يخشى أن تبوح بذلك السر. هل تفهمين، يا سيدتي؟»

ـ «لا!» كذلك أجابته المديرة، وقد احمرّ وجهها بعض الشيء.

فقال مونكس: «أنت لا تفهمين طبعاً. وأنَّى لك أن تفهمي؟»

وتكرَّم على رفيقيه بشيء وسط بين البسمة والعبسة، وأومأ إليهما مرّة أخرى بأن يتبعاه، واجتاز بخطى سريعة تلك الحجرة التي كانت جد عريضة، ولكنها ذات سقف خفيض. كان يأخذ الإهبة لارتقاء سلَّم شديدة الانحدار، أو على الأصح مرقاة نقَّالة، تفضي إلى دور آخر من المخازن القائمة فوق، عندما شعّ من خلال الكوَّة وميض برق ساطع، وتبعه هزيم رعد هز المبنى المتصدع من أساسه.

وصاح وهو يرتدّ مجفلاً: «هل تسمعانه؟ هل تسمعانه؟ إنه يتدحرج ويفرقع وكأن صداه يرتجع خلال ألف كهف اختبأت فيها الشياطين فراراً بنفسها منه. أنا أكره هذا الصوت!»

واعتصم بالصمت بضع لحظات. ثم إنه رفع يديه فجأة عن وجهه، فبدا لهما ـ وهو ما أقلق مستر بامبل إلى حد لا سبيل إلى وصفه ـ أنه كان بالغ الاضطراب شديد الشحوب.

وقال مونكس وقد لاحظ ما ألمّ به من ذعر: «هذه النوبات تصيبني بين الفينة والفينة. وإن الرعد ليثيرها في بعض الأحيان. لا تقلقا عليَّ، الآن. فقد انحسرت النوبة الحالية انحساراً كاملاً.»

قال ذلك وشرع يصعد درجات المرقاة متقدماً إياهما. حتى إذا بلغ الحجرة التي أفضت إليها، سارع إلى إغلاق مصراع النافذة، وخفض مصباحاً كان يتدلى من طرف حبل وبكرة من إحدى روافد السقف الخشبية الثقيلة ـ مصباحاً كان يسفح ضوءاً باهتاً على طاولة عتيقة وثلاثة كراسٍ موضوعة تحته.

وقال مونكس بعد أن اتخذ كل منهم مقعداً: «والآن، كلما سارعنا إلى إنجاز ما اجتمعنا من أجله كان ذلك أفضل. إن السيدة تعرف ما نحن بصدده، أليس كذلك؟»

كان ذلك السؤال موجهاً إلى بامبل. ولكن زوجته سبقته إلى الإجابة بقولها إنها مُلِمَّة بكل شيء.

ـ «لقد كان يقول الحقيقة عندما زعم أنك كنتِ مع تلك العجوز ليلة لفظت أنفاسها الأخيرة، وأنها أفضت لك بشيء...»

فقاطعته المديرة: «عن أمّ الغلام الذي ذكرت اسمه. نعم.»

فقال مونكس: «السؤال الأول هو: ما طبيعة الكلام الذي باحت لك به؟»

فلاحظت المرأة في كثير من الهدوء: «هذا هو السؤال الثاني. أما السؤال الأول فهو: كم سيساوي، ذلك النبأ؟»

فقال مونكس: «ومن الذي يستطيع، بحق الشيطان، أن يحزر ذلك، من غير أن يعرف طبيعة أقوالها؟»

ـ «أنت الذي تستطيع ذلك أحسن من أي امرئ آخر. أنا واثقة من هذا.» كذلك أجابته السيدة بامبل، التي لم تعُزها القوة، كما كان في استطاعة رفيقها في النِيْر(*) أن يؤكد.

ـ «همهم!» كذلك قال مونكس في نبرة ذات مغزى، وبنظرة من فضول نهم. «قد يكون ثمة شيء نفيس يمكن الفوز به، شيء يساوي مالاً، أليس كذلك؟»

فكان جواب السيدة الرابطة الجأش: «ربما كان ثمة شيء كهذا.»

فقال مونكس: «شيء انتُزع منها. شيء كانت تطوق به عنقها. شيء...»

فقاطعته مسز بامبل: «من الأفضل لك أن تعرض الثمن الذي ستدفعه. لقد سمعت حتى الآن ما يؤكد لي أنك أنت الرجل الذي يتعيّن عليّ أن أتحدث إليه.»

وأصغى مستر بامبل ـ الذي لم تكن شريكة حياته قد أطلعته بعدُ عن ذلك السر على أكثر مما عرفه منذ البدء ـ أقول أصغى مستر بامبل إلى هذا الحوار بعنق مُتْلعة، وعينين جاحظتين، وجَّهها جميعاً إلى زوجته حيناً وإلى مونكس حيناً، في انشداه ما لبث أن تعاظم واستفحل ـ لو كان ذلك ممكناً ـ عندما تساءل هذا الأخير في سيماء متجهمة عن المبلغ المطلوب ثمناً لإطلاعه على السرّ.

وقالت المرأة في مثل رباطة جأشها الأولى: «كم يساوي هذا السرّ بالنسبة إليك؟»

فأجابها مونكس: «قد لا يساوي شيئاً. وقد يساوي عشرين جنيهاً.»

فقالت المرأة: «أضف خمسة جنيهات إلى المبلغ الذي ذكرته. أعطني خمسة وعشرين جنيهاً ذهباً أقل لك كل ما أعرف. ولكني لن أقول، قبل ذلك، كلمة واحدة.»

(*) يقصد: زوجها. والنير هو ما يوضع على رقاب الثيران أثناء الفلاحة.

فهتف مونكس مُجفلاً: «خمسة وعشرين جنيهاً؟»

فأجابته مسز بامبل: «لقد تحدثت بأوضح بيان أستطيعه. ثم إنه ليس بالمبلغ الضخم على أية حال.»

فصاح مونكس وقد نفد صبره: «ليس بالمبلغ الضخم ثمناً لسرّ هزيل... سرّ قد لا تكون له أية قيمة بعد أن يُباح به؟ سرٌّ مات ودُفِن منذ اثنتي عشرة سنة أو أكثر؟!»

ـ «إن هذه الأشياء وأمثالها لتحتفظ بجدتها دائماً. هي كالخمر المعتقة يتضاعف ثمنها بتقادم الزمان.» كذلك أجابته المديرة وهي محتفظة، ما تزال، بتلك اللامبالاة الراسخة التي تكشَّفت عنها منذ البداية. «وإذا كان ذلك السر قد مات ودُفِن فإن هناك، بقدْر ما أعرف أنا وتعرف أنت، مَنْ يبقون في أجداثهم اثني عشر ألف سنة، أو اثني عشر مليون سنة، لينتهوا بعد ذلك إلى القيام والإفضاء بمختلف الحكايات الغريبة.»

فقال مونكس متردداً: «وإذا اتفق أن دفعت هذا المبلغ للاشيء؟»

فأجابته المديرة: «في استطاعتك عندئذ أن تسترده. أنا لست إلا امرأة ضعيفة. وأنا هنا وحدي، ومن غير حماية.»

ـ «لست وحدكِ، يا عزيزتي، لا.. ولست من غير حماية أيضاً.» كذلك اعترض مستر بامبل في صوت مرتعد خوفاً. «أنا هنا، يا عزيزتي. وإلى هذا،» واصطكت أسنان مستر بامبل وهو يتكلم، «فإن مستر مونكس من الشهامة بحيث لا يحاول استخدام العنف مع الأشخاص الأبرشانيين. مستر مونكس يعلم جيداً أني لست شاباً، يا عزيزتي. وأني قد فقدتُ القوة والعزم بعض الشيء، إذا جاز التعبير. ولكنه قد سمع... أقول إن مستر مونكس قد سمع من غير ريب، يا عزيزتي، إني موظف عنيد، ذو قوة استثنائية، تتجلى حين يثيرني المرء. أنا لا أحتاج إلا إلى شيء من الاستثارة. هذا كل ما هنالك.»

وفيما كان مستر بامبل يتكلم تظاهر، على نحو محزون، برغبته في

تناول مصباحه بعزم ضار. وأظهر بالانطباعة المذعورة التي غلبت على ملامحه جميعاً ـ إظهاراً لا لبس فيه ـ أنه كان فعلاً في حاجة إلى شيء من الاستثارة، بل إلى كثير منها، قبل أن يقوم بأي عمل فيه رائحة الحرب، اللهم إلا ضدّ الفقراء أو أشخاص آخرين أعدُّوا خصيصاً لهذا الغرض.

وقالت مسز بامبل موجهة الخطاب إلى زوجها: «أنت معتوه. ولقد كان من الخير لك أن تمسك لسانك عن الكلام.»

قال مونكس في تجهم: «كان من الخير أن يقطعه قبل أن يجيء إذا كان غير قادر على الكلام بلهجة أشد انخفاضاً. إذن، فهو زوجك، إيه؟»

فضحكت المديرة ضحكاً مكبوحاً لكي تتفادى السؤال: «هو، زوجي!»

ـ «هذا ما خطر لي، عندما دخلتما.» كذلك أجاب مونكس، ملاحظاً النظرة الغضبى التي ألقتها السيدة على زوجها وهي تتكلم. وعلى أية حال، فهذا أفضل. إني أستشعر تردداً أقل، في التعامل مع شخصين اثنين، حين أجد أن إرادتهما واحدة. أنا أتكلم جاداً. أنظرا!»

وأقحم يده في إحدى جيوبه الجانبية، وأخرج منها كيساً قماشياً خشناً، وعدّ على الطاولة خمسة وعشرين جنيهاً ذهبياً، ودفعها في اتجاه المرأة.

وقال: «والآن، اجمعيها. وحين ينقضي هزيم هذا الرعد الملعون، الذي يخيّل إليّ أنه سوف ينقضّ على رأس البيت، تُسْمعينني قصتك.»

حتى إذا خمد الرعد، الذي بدا في الواقع أشدَّ قرباً بكثير، والذي تراءى وكأنه يقصف وينفجر فوق رؤوسهم، رفع مونكس وجهه عن الطاولة وانحنى إلى الأمام ليصغي إلى ما ستقوله المرأة. وكادت وجوه الثلاثة أن تتماسَّ، عندما انحنى الرجلان فوق الطاولة الصغيرة وقد استبد بهما شوق إلى السماع عارم، ومالت السيدة أيضاً إلى أمام لكي تجعل همسها مسموعاً. وكان في الأشعة المريضة المنبعثة من المصباح المدلَّى،

والمنصبَّة عليهم مباشرة، ما ضاعف في شحوب وجوههم وقلقها، تلك الوجوه التي غلب عليها، وقد طُوِّقت بالظلمة، سيماء شَبَحِيَّة رهيبة.

ـ «عندما ماتت تلك المرأة التي كنا ندعوها سالي العجوز،» كذلك استهلت المديرة كلامها، «كنت مُخْتلية بها.»

فسألها مونكس بذلك الهمس الغائر نفسه: «ألم يكن معكما أيما شخص آخر؟ ألم يكن ثمة أيما صعلوك أو معتوه في سرير آخر؟ ألم يكن ثمة أحد قادر على أن يسمع، وفي ميسوره ـ على سبيل الاحتمال ـ أن يفهم؟»

فأجابته السيدة: «لم يكن معنا أيّ مخلوق. كنا وحدنا. ولقد وقفت وحدي على مقربة من الجثة عندما حلّ الموت بساحتها.»

فقال مونكس وهو ينعم النظر إليها: «حسن. تابعي.»

فاستأنفت المديرة حديثها: «لقد تحدّثَتْ عن مخلوقة شابة كانت قد وضعت غلاماً قبل بضع سنوات. لا في الحجرة نفسها وحسب، بل في الفراش نفسه الذي كانت تلفظ أنفاسها آنذاك وهي ممدّدة عليه.»

ـ «إيه؟» كذلك قال مونكس مرتعش الشفة، ملقياً نظرة إلى الوراء «يا للشيطان! كيف تحدث الأشياء!»

ـ «وكان الغلام هو ذلك الذي سمَّيتَهُ له الليلة البارحة.» هكذا قالت المديرة، وهي تومئ برأسها، في ازدراء، نحو زوجها. «أما الأمّ فكانت هي تلك التي سلبتها هذه القابلة.»

فسألها مونكس: «وهي على قيد الحياة؟»

فأجابته المرأة بشبه رِعدة: «لا، وهي ميتة. لقد سرقت من تلك الجثة، بعد بضع لحظات من انتقالها إلى عالم الأموات، ذلك الشيء الذي كانت الأمّ المحتضَرة قد توسلت إليها، وهي تلفظ آخر أنفاسها، أن تحتفظ به لمصلحة الطفل.»

فصاح مونكس، في لهفة يائسة: «هل باعته؟ أقول هل باعته؟ أين؟ متى؟ ولمن؟ ومنذ أيّ عهد؟»

فقالت المديرة: «بينما كانت تخبرني، في كثير من العسر، أنها أقدمت على ذلك، انقلبت على ظهرها وماتت.»

فقال مونكس في صوت لم يزده الكبح ـ في ما بدا ـ إلا ضراوة: «من غير أن تقول أيّ شيء آخر؟ هذا كذب! أنا لن أجيز لأحد أن يخدعني. لقد قالت شيئاً إضافياً. إني سوف انتزع الحياة من صدريكما، أنتما الاثنين، إلا إذا عرفت ما قالته.»

ـ «إنها لم تنطق بأية كلمة أخرى،» كذلك قالت المرأة، غير متأثرة (وهو حكم لا يصحّ البتة في ما يتصل بمستر بامبل) بالعنف الذي تكشَّف عنه الرجل الغريب. «ولكنها تشبثت بثوبي، في عنف، بإحدى يديها، وكانت نصف مُطْبَقة. وحين وجدت أنها لفظت نفسها الأخير، أزلت يدها بالقوة، فوجدت أنها تنطوي على قصاصة من ورق وسخ.»

ـ «قصاصة تشتمل على. . .» كذلك قاطعها مونكس، منحنياً إلى أمام.

فأجابته المرأة: «على لا شيء. لقد كانت شهادة إيداع من أحد المرابين.»

فسألها مونكس: «إيداع ماذا؟»

فقالت المرأة: «سوف أخبرك في الوقت المناسب. الذي يخيَّل إليّ هو أنها احتفظت بالحلية، فترة من الزمن، آملة أن تجني منها بعض الربح. وبعد ذلك رهنتها. ثم إنها راحت تقتصد أو تجمع المال لكي تدفع الفائدة إلى المرابي عاماً بعد عام، وتحول دون ضياع الحلية نهائياً، رجاة أن تظل قادرة على استرجاعها إذا ما سنحت لها فرصة استغلالها في يوم من الأيام. ولكن تلك الفرصة لم تسنح. وكما قلت لك من قبل، فقد ماتت وقصاصة الورق في يدها بالية ممزقة. وكان أجَلُ إنقاذ الحلية ينتهي بعد يومين اثنين. وفكرتُ أنا أيضاً أن في استطاعتي أن أستغلَّها في يوم من الأيام، وهكذا فككت رهنها.»

فسارع مونكس إلى سؤالها: «وأين هي الآن؟»

ـ «هنا! كذلك أجابته المرأة. وطرحت على الطاولة في سرعة، وكأنها سعيدة بالتخلص منه، كيساً صغيراً من جلد الجدي لا يكاد يتسع لساعة مرصعة. كيساً انقضّ عليه مونكس، وفتحه بيدين مرتجفتين. كان يشتمل على عُلَيْبة ذهبية على شكل قلب. وكان في تلك العُلَيْبة خصلتان من الشعر، وخاتم خطبة من ذهب خالص.»

وقالت المرأة: «لقد نُقِشت في داخله كلمة «أغنيس»، وقد تُرِك بعدُ فراغ لاسم الأسرة. وبعد ذلك نُقِش التاريخ. وهو يرجع إلى ما قبل مولد الغلام بأقل من عام واحد. لقد اكتشفت ذلك بعد دراسة وبحث.»

ـ «أهذا كل شيء؟» كذلك قال مونكس بعد أن فحص محتويات العُلَيبة الصغيرة في عناية ولهفة.

فأجابته المرأة: «هذا كل شيء.»

وتنفس مستر بامبل، وكأنه كان سعيداً بأن يدرك أن القصة قد انتهت من غير أيما إشارة إلى استرداد الجنيهات الخمسة والعشرين. وعندئذ آنس من نفسه الجرأة على مسح قطرات العرق الذي تصبَّب على أنفه، دونما كبح، طوال الحوار السابق.

وقالت زوجته، مخاطبة مونكس، بعد صمت قصير: «أنا لا أعرف من هذه القصة شيئاً غير الذي مكّنني الحدس من معرفته: وأنا لا أريد أن أعرف شيئاً. فهذا أدعى إلى السلامة. ولكني أحب أن أطرح عليك سؤالين. فهل أستطيع؟»

فقال مونكس مندهشاً: «طبعاً، تستطيعين. أما ما إذا كنت سأجيب عنهما أم لا فتلك مسألة أخرى.»

فلاحظ مستر بامبل، محاولاً أن يمزح: «وهكذا يصبح المجموع ثلاثة.»

بعدئذ سألته المديرة: «أهذا ما كنت تتوقع أن تفوز به مني؟»

فأجابها مونكس: «ذلك هو. والسؤال الآخر؟»

ـ «ما الذي تعتزم أن تفعله به؟ أمن الجائز أن يُستعمل ضدي؟»

فأجابها مونكس: «معاذ اللّه! ولن يُستعمل ضدي أنا أيضاً. انظري! ولكن حذار أن تتقدمي خطوة واحدة إلى الأمام، وإلا لم تساوِ حياتك قصبة من قصب الماء!»

قال ذلك ودفع الطاولة، فجأة، إلى جانب، وسحب حلقة في أرضية الحجرة، وردّ إلى الوراء باباً مسحوراً كبيراً انفتح عند قدمي مستر بامبل نفسيهما على نحو جعل ذلك السيد الماجد يرتدّ بضع خطوات إلى الوراء في ذعر بالغ.

وقال مونكس وهو يخفض المصباح نحو الهوة: «انظري! لا يأخذنّكِ الخوف مني. لقد كان في إمكاني أن أسقِطك فيها، بكثير من الهدوء، حين كنت جالسة فوقها، لو راق لي ذلك ووجدت فيه تسلية لي.»

ودنت المديرة من شفير الهوة، بعد أن شُجِّعت على ذلك النحو. وحتى مستر بامبل نفسه غامَر فحذا حذوها، يحدوه على ذلك فضولٌ غامر. كانت المياه العكرة، المعزَّزة بالمطر الغزير، تندفع من تحتها في سرعة. وكانت جميع الأصوات الأخرى تضيع في خضم الضجة التي أحدثها ارتطامها بالركائز الخشبية الخضراء الموحلة وتدويمها حولها. لقد كان ثمة في تلك الهوة، ذات يوم، طاحونة مائية. وكان مدّ الماء المُزْبِد يصفع الأوتاد القليلة النخِرة. وبدت شظايا الآلات التي خلَّفتها الأيام هناك، وكأنها تندفع إلى أمام، بعزم جديد، حين حُرِّرت من العقبات التي حاولت على غير طائل أن تصد جَريها الدافق.

وقال مونكس وهو يؤرجح المصباح في البئر المظلمة: «إذا ما ألقينا جسم امرئ ما في هذه الهوة فإلى أين يصير غداً صباحاً؟»

فأجابه بامبل وهو يجفل مرتداً إلى الوراء لمجرد التفكير في ذلك: «على عمق اثني عشر ميلاً في قاع النهر، ولسوف يُقَطَّع ـ فوق هذا ـ إرباً إرباً.»

عندئذ أخرج مونكس العلبة الصغيرة من صدره، حيث كان قد أقحمها على عجل. وشدّها إلى ثِقل رصاصيٍّ (كان يشكّل في ما مضى بكرة ما، كانت مطروحة على الأرض) وأسقطها في مَسِيل الماء. فسقطت على نحو مستقيم، من غير أن ينحرف مقدار شعرة، وشقّت الماء غير محدثة ـ تقريباً ـ أيما صوت، واختفت عن البصر.

وتبادل ثلاثتهم النظرات، وبدوا وكأنهم يتنفسون على نحو أكثر حرية وانطلاقاً.

وقال مونكس، مغلقاً الباب المسحور الذي ارتدّ ثقيلاً إلى موضعه السابق: «والآن، إذا ما قُدِّر للبحر في يوم من الأيام أن يلفظ موتاه، كما تزعم الكتب، فإنه سوف يحتفظ بالذهب والفضة لنفسه، وفي جملتهما تلك الحلية الحقيرة. وإذ لم يبق لدينا الآن ما نقوله ففي استطاعتنا أن نفضّ جلستنا اللطيفة.»

ـ «من غير ريب!» كذلك أعلن مستر بامبل في حبور بالغ.

فقال مونكس ملقياً عليه نظرة متوعدة: «عليك أن تبقي لسانك الهادئ في فمك، أفهمت؟ أما زوجتك فأنا مطمئن من ناحيتها.»

فقال مستر بامبل، منحنياً شيئاً بعد شيء نحو المرقاة، في كياسة مسرفة: «في ميسورك أن تتكل عليَّ، أيها الشاب. لمصلحتنا جميعاً، أيها الشاب. ولمصلحتي أنا شخصياً، كما تعرف، يا مستر مونكس.»

فلاحظ مونكس قائلاً: «يسرّني، من أجلك، أن أسمع هذا. أشعِل مصباحك! واغرب من هنا، بأسرع ما تستطيع.»

وكان من حسن الطالع أن الحديث ختِم عند هذه النقطة، وإلا لكان مستر بامبل ـ الذي انتهى به انحناؤه بالتحية إلى مسافة لا تزيد على ستة إنشات من المرقاة ـ قد سقط من غير ريب، ورأسه يتقدمه، في الحجرة السفلية. لقد أشعل مصباحه من ذلك المصباح الذي كان مونكس قد فصله عن الحبل وحمله بيده. ومن غير أن يقوم بأية محاولة إلى إطالة الحديث، هبط المرقاة في صمت، تتبعه زوجته. ونزل مونكس في أعقابهما، بعد أن

تمهَّل على درجات المرقاة لكي يستيقن من أنه لم يكن ثمة أيما صوت مسموع غير هطول المطر في الخارج، وتدفق المياه.

واجتازوا الحجرة السفلية في أناة، وفي حذر. ذلك بأن مونكس كان يُجفل كلما وقعت عيناه على ظل، ومستر بامبل، الرافع مصباحَهُ مقدار قدم فوق أرضية الحجرة، لم يمش في حذر شديد فحسب، بل في خفة مذهلة بالنسبة إلى سيد في مثل بدانته، مدققاً في ما حوله، على نحو عصبيَ. خشية أن تكون ثمة أبواب مسحورة مخبوءة. وما هي إلا فترة حتى فتح مونكس الباب الذي كانوا قد دخلوا منه رافعاً مزلاجه في رفق. وقام الزوجان بانحناءة احترام لصديقهما الملَفَّع بالألغاز، وأدلجا تحت المطر.

وما إن انصرفا حتى نادى مونكس ـ الذي خامره، في ما بدا، نفورٌ من العزلة لا يُقْهَرُ ـ غلاماً كان مختبئاً في مكان ما تحت. وأصدر أمره إليه بأن يمضي، بادئ الأمر، ويأتي بالمصباح، ثم انقلب إلى الحجرة التي كان قد غادرها منذ لحظة.

الفصل التاسع والثلاثون

وهو يقدم إلى القارىء بعض الشخصيات المحترمة التي عرفها من قبل، ويظهر كيف تواطأ مونكس الفاضل واليهودي الجليل

وفي المساء الذي تلا تلك الليلة التي أنجز فيها الفضلاء الثلاثة المذكورون في الفصل السابق مهمتهم الصغيرة على الوجه الذي رأيناه أفاق مستر وليم سايكس من سِنة من الكرى، وغمغم على نحو وسنان متسائلاً كم الساعة.

ولم تكن الحجرة التي طرح مستر سايكس فيها هذا السؤال إحدى حجرات ذلك المنزل الذي كان يقطنه قبل حملة تشيرتسي، على الرغم من

أنها كانت تقع في الحي نفسه من المدينة نفسها، وعلى مبعدة غير نائية من منزله القديم. ولم تكن، في ما يبدو، مثوى مرغوباً فيه شأن مثواه السابق، إذ كانت حجرة حقيرة، رديئة الأثاث، ضئيلة المساحة، تنيرها نافذة صغيرة واحدة قائمة في السقف المنحدر، وتتاخم زقاقاً ضيقاً قذراً. وكانت إلى جانب هذه كلها دلائل أخرى تشير إلى أن الدهر كان قد انقلب على ذلك السيد الصالح. ذلك بأن ندرة الأثاث البالغة، وانعدام أسباب الراحة انعداماً كلياً، بالإضافة إلى اختفاء مختلف المنقولات الصغيرة، من مثل الملابس والبياضات الاحتياطية.. كل ذلك نمّ عن حال من الفقر المدقع. والواقع أن مظهر مستر سايكس نفسه الهزيل الموهون كان خليقاً به أن يؤيد هذه الأعراض، لو أنها احتاجت إلى أيما تعزيز.

كان سارق البيوت مستلقياً في الفراش، متدثراً بمعطفه متخذاً منه مبذلاً (روب دو شامبر)، مُبدياً عن أسارير لم تجمِّلها بأية حال صِبغة المرض الشبيهة بشحوب الموتى، ولا قلنسوة النوم التي أضيفت إليها هي ولحيةٌ خشنة سوداء لم تحلق منذ أسبوع كامل. وكان الكلب باسطاً ذراعيه في محاذاة السرير، فهو يحدج سيده بنظرة كئيبة حيناً، وهو يرهف أذنيه أو يطلق نباحاً خفيضاً كلما لفتت انتباهه ضجة في الشارع أو في الجزء الأدنى من المنزل، حيناً آخر. وكانت تجلس على مقربة من النافذة ـ وقد انهمكت في رتق صدرة عتيقة تشكل جزءاً من لباس اللص المعتاد ـ أنثى شديدة الشحوب مهزولة من جراء السهر والحرمان إلى حد جعل من أعسر العسير على المرء أن يعرف فيها نفس «نانسي» التي سبق لها أن ظهرت في هذه القصة لولا الصوت الذي أجابت به عن سؤال مستر سايكس.

قالت الفتاة: «إنها الساعة السابعة وبضع دقائق. كيف حالك الآن، يا بيل؟»

ـ «ضعيف كالماء،» هكذا أجاب مستر سايكس وهو يستنزل اللعنات على عينيه وأطرافه. «هيَّا، مدّي إليَّ يداً، وساعديني على مغادرة هذا السرير القذر، بطريقة ما.»

كان المرض قد عجز عن صقل طباع مستر سايكس. إذ إنه، فيما كانت الفتاة ترفعه وتقوده إلى أحد الكراسي، غمغم بضروب من اللعنات صبَّها على غبائها وقلة لباقتها.

وقال سايكس: «أنتِ تُعولين. أليس كذلك. تعالي! لا تقفي هناك وأنت تشرقين بالبكاء! إذا كنتِ عاجزة عن أن تفعلي أيما شيء أفضل من ذلك فضعي له حداً في الحال. هل تسمعينني؟»

فأجابته الفتاة، مشيحة بوجهها عنه، متكلِّفة الضحك: «أجل، أنا أسمعك. أية نزوة تطوف برأسك الآن؟»

فزمجر سايكس، وقد لاحظ الدمعة التي ترقرقت في عينها: «آه، لقد غيَّرت رأيك، أليس كذلك؟ لقد أحسنتِ صنعاً.»

فقالت الفتاة واضعة يدها على كتفه: «ولكنك لا تقصد إلى القول أنك سوف تقسو عليّ الليلة، يا بيل؟»

ـ «لا!» هكذا صاح سايكس ثم أضاف: «ولم لا؟»

فقالت الفتاة وقد غلبت عليها مسحة أنثوية أوقعت شيئاً كعذوبة النبرة حتى في صوتها هي: «لو فكرت في عدد الليالي التي تذرعت فيها بالصبر عليك، وانصرفت خلالها لتمريضك والعناية بك، وكأنك طفل صغير، لما عاملتني كما فعلت الآن، بعد أن رأيتك لأول مرة تستعيد ضائع صحتك. هيا، قل لي إنك لن تقسو عليّ!»

فأجابها مستر سايكس: «حسناً، إذن. لن أقسو عليك. يا للشيطان! ولكن الفتاة عادت إلى العويل!»

فقالت الفتاة مرتمية على كرسي: «ليس هذا بشيء، تصرّف وكأن شيئاً لم يحدث. إن هذه السحابة سوف تنقشع عما قريب.»

فسألها مستر سايكس في صوت وحشي: «أية سحابة هذه التي سوف تنقشع؟ أية حماقة تساورك الآن من جديد؟ انهضي وانصرفي إلى العمل. ولا تسمعيني هراءكِ النسوي.»

ولو أن هذا التقريع، واللهجة التي قيل فيها، حصلا في أيما وقت

آخر إذن لأحدثا الأثر المنشود. ولكن الفتاة كانت منهوكة القوى حقاً، فخفضت رأسها على ظهر الكرسي، وسقطت مغشياً عليها قبل أن يوفَّق مستر سايكس إلى إطلاق بعض اللعنات الملائمة التي تعوَّد تزيين تهديداته بها، في أحوال مماثلة. ولم يدر مستر سايكس ما الذي يتعيَّن عليه أن يفعله في هذه الورطة غير المألوفة، لأن نوبات الآنسة نانسي الهستيرية كانت في العادة من ذلك النوع العنيف الذي يقاومه المريض من غير ما حاجة إلى كبير مساعدة. وحاول اللجوء إلى شيء من التجديف، حتى إذا وجد أن هذه الوسيلة لم تجدِهِ البتة، صاح ملتمساً النجدة.

ـ «ما الذي يجري هنا، يا عزيزي؟» كذلك قال فاجين، وهو يطلّ من وراء الباب.

فأجابه سايكس نافد الصبر: «مدّ يد المساعدة إلى الفتاة، ألا تستطيع؟ لا تقف هناك مثرثراً مكشِّراً في وجهي!»

وفي صرخة دهش سارع فاجين لمساعدة الفتاة، فيما كان مستر داوكنز (الملقَّب بالمراوغ الماكر والذي كان قد لحق بصديقه المبجل إلى الحجرة) يضع على الأرض، متعجِّلاً، صرّة كان يحملها. وسرعان ما اختطف داوكنز هذا من قبضة المعلم تشارلز بايتس الذي أقبل في أعقابه، زجاجة فنزع سدادتها بأسنانه بغمضة عين، وأفرغ جزءاً من محتوياتها في حلق نانسي، بعد أن أخذ هو نفسه جرعة منها دفعاً للالتباس والخطأ.

وقال مستر داوكنز: «أعطها هبَّة من الهواء الطلق بواسطة المنفاخ، يا تشارلي. وأنت يا فاجين دلِّكْ يديها بقوة، بينمَا يحل «بيل» عقدة تنورتها.»

والواقع أن هذه المحاولات الإنعاشية المتحدة، المقدَّمة في نشاط بالغ (وخاصة ما كان منها مناطاً بالمعلم بايتس، الذي بدا وكأنه يعتبر حصته من الإجراءات دعابة يعزّ نظيرها) سرعان ما أحدثت أثرها المنشود. فشيئاً بعد شيء استعادت الفتاة وعيها، ومضت مترنحة إلى كرسي موضوع في محاذاة السرير، وحجبت وجهها بالوسادة، تاركة مستر سايكس يواجه الوافدين الجدد، مندهشاً لبروزهم اللامرتقب.

وسأل فاجين: «ولكن أية ريح شريرة قذفت بك إلى هنا؟»

ـ «ليست هذه ريحاً شريرة البتة، يا عزيزي، لأن الرياح الشريرة لا تحمل إلى أيما أمرئ أيّ خير. ولقد حملتُ إليك شيئاً صالحاً سوف يسعدك أن تراه. افتح الصرّة، يا عزيزي «المراوغ»، وقدِّم إلى «بيل» هذه السلع الحقيرة التي أنفقنا كل أموالنا عليها، هذا الصباح.»

ونزولاً عند رغبة مستر فاجين فك «المراوغ» صرّته، وكانت مؤلفة من غطاء مائدة عتيق، وقدَّم السلع التي احتوتها، واحدة إثر واحدة، إلى تشارلي بايتس الذي وضعها على الطاولة، مطرياً ندرتها ونفاستها إطراء بالغاً.

وهتف ذلك السيد الشاب وهو يعرض على الأبصار فطيرة بلحم ذات حجم كبير: «يا لها من فطيرة أرانب، يا بيل! مخلوقات صغيرة ناعمة تتمتع بقوائم رقيقة، يا بيل، إلى حدّ يجعل عظامها تذوب في فمك من غير أن تحتاج إلى التقاطها. نصف رطل من الشاي الأخضر الذي يُباع بستة شلنات ونصف، والذي هو من القوة بحيث لو مزجته بالماء الغالي يكاد يثب لينسف غطاء إبريق الشاي. رطل ونصف من السكر الرطب الذي لم تعمل فيه أيدي الزنوج البتة قبل أن يبلغوا به هذه المرتبة من الجودة. أوه، لا! رغيفان من أرغفة النخالة يزن كل منهما ليبرتان، رطل من أجود الزبدة الطازجة. وقطعة من الجبنة الفاخرة. وفوق هذا كله، قليلٌ من الشراب الذي لم يقدَّر لك أن تثمل بما هو أقوى منه.»

وفيما كان المعلم بايتس يرسل هذا المديح الأخير أخرج من إحدى جيوبه الواسعة زجاجة خمر ذات حجم طبيعي أحكِم سدّها في عناية، بينما عمد مستر داوكنز، في اللحظة نفسها، إلى إتراع إحدى الكؤوس بخمر صِرْف صبَّها من الزجاجة التي كان يحملها. فلم يكن من الرجل المريض إلا أن أفرغها في جوفه، دفعة واحدة في غير ما تردد البتة.

وقال فاجين وهو يفرك يديه في ارتياح بالغ: «آه! سوف تتحسن حالك، يا بيل. سوف تتحسن حالك الآن.»

فصاح مستر سايكس: «تتحسن حالي؟ لقد كان من الجائز أن أهلك عشرين مرة متوالية قبل أن تقوم بأيما عمل من أجل مساعدتي. ماذا تعني بتركك إياي في حال كهذه ثلاثة أسابيع ونيفاً، أيها المتشرد الخائن؟»

فقال فاجين هازاً كتفيه: «اسمعوا، اسمعوا، أيها الغلمان، ما يقول! ولمن؟ لنا نحن الذين حملنا إليه كل هذه الطيبات.»

ـ «إن الأمور أخذت تجري في مجراها الحسن.» كذلك أعلن مستر سايكس، وقد هدأت ثائرته بعض الشيء بعد أن ألقى نظرة على الطاولة. «ولكن ما الذي تستطيع أن تقوله دفاعاً عن نفسك، وقد تركتني هنا خائر العزم، معتل الصحة، موهون القوى، مصاباً بألف بليَّة وبليَّة، من غير أن تبالي بي، طوال هذا الوقت المديد، أكثر مما كُنْتَ ستبالي لو كُنْتُ هذا الكلب الذي هنا. أكرهه على النزول، يا تشارلي!»

فقال المعلم بايتس وهو ينزل عند رغبة مستر سايكس: «أنا لم أرَ قط كلباً ظريفاً كهذا الكلب. إنه يشم الطعام والشراب مثل سيدة عجوز ذاهبة إلى السوق! إن هذا الكلب سوف ينجح نجاحاً عظيماً على المسرح، وسوف يحيي بالإضافة إلى ذلك فنَّ الدراما.»

ـ «أقلع عن ضجيجك هذا!» كذلك صرخ سايكس عندما ارتد الكلب تحت السرير وهو لا يزال ينبح مغضباً. «ما الذي تستطيع أن تقوله دفاعاً عن نفسك، أيها اللص العجوز الذابل؟»

فأجابه اليهودي: «لقد غبت عن لندن، أسبوعاً أو أكثر، في شأن من الشؤون.»

فسأله سايكس: «والأسبوعان الآخرن؟ ماذا كنت تفعل خلال الأسبوعين الآخرين اللذين تركتني فيهما منطرحاً هنا، مثل جُرذ مريض في جُحره؟»

ـ «لم يكن في يدي حيلة، يا بيل. أنا لا أستطيع أن أخوض في شروح طويلة على مسمع من جميع الحاضرين. ولكني أقسم لك بشرفي أنه لم يكن لي في ذلك حيلة.»

فهرَّ سايكس في اشمئزاز مسرف: «تقسم بماذا؟ هاي! فليقطع لي واحدٌ منكم، أيها الغلمان من تلك الفطيرة لكي أزيل من فمي طعم هذه اللفظة، وإلا خنقتني ونقلتني إلى عالم الأموات.»

فألحّ فاجين في ذلة: «لا تغضب، يا عزيزي. أنا لم أنسك قط، يا بيل. لم أنسك مرة واحدة.»

فأجابه سايكس في ابتسامة ساخرة: «لا! إني أقسم أنك لم تنسني. لقد كنت تتآمر وتضع الخطط طوال انطراحي هنا مرتعداً محترقاً من الحمى. كنت تقول: بيل سوف يفعل هذا. بيل سوف يفعل ذاك. بيل سوف يفعل كل شيء، بأرخص من التراب، حالما يسترد صحته. فهو في حال من الفقر المدقع تجعله خير أداة لتنفيذ مشروعاتك. أتدري؟ «لولا الفتاة لكان من الجائز أن أكون في عداد الأموات.»

ـ «والآن لقد غلبتك!» كذلك قال فاجين وهو يتعلق بتلك الكلمة في لهفة. «تقول لولا تلك الفتاة! ولكن مَنْ غيرُ فاجين العجوز المسكين كان الوسيلة إلى تمكينك من الفوز بعناية فتاة بارعة رشيقة اليد مثل تلك الفتاة؟»

وهنا أقبلت نانسي مُعْجَلة وقالت: «إن ما يقوله هو الحق. دعه وشأنه! دعه وشأنه!»

والواقع أن ظهور نانسي وجَّه الحديث وجهة جديدة. ذلك بأن الغلمان، وقد تلقوا من اليهودي العجوز غمزة خفية ماكرة، شرعوا يلحون عليها في الشراب، ففعلت، ولكن في كثير من الاعتدال: وفي غضون ذلك، وُفق فاجين تدريجياً، مستخدماً مرحاً غير مألوف، إلى التلطيف من حدّة مستر سايكس من طريق التظاهر بأنه يعتبر تهديداته مجرد مزاح عذب. بل من طريق الضحك من صميم الفؤاد لنكتة خشنة أو نكتتين خشنتين تنازل سايكس فأطلقهما بعد لجوء متكرر إلى زجاجة الخمر.

وقال مستر سايكس: «كل هذا حسن جداً. ولكني يجب أن أفوز منك الليلة بشيء من المال المسروق.»

فأجابه اليهودي: «ليس في جيبي الآن قطعة نقد واحدة.»

فقال سايكس: «إذن فلديك منْ ذلك، في بيتك، مقادير كبيرة. ويتعيَّن عليك أن تعطيني شيئاً مما تدّخره هناك.»

فصاح فاجين، باسطاً يديه إلى السماء: «مقادير كبيرة! ليس لديّ حتى ما يكفيني لـ...»

فقال سايكس: «لست أدري مقدار ما تملك، وإني لأجرؤ على القول إنك أنت لا تكاد تعرف ذلك، لأن احصاءه يحتاج إلى وقت طويل جداً. ولكني يجب أن أفوز بشيء منه هذه الليلة. وهذا في ما أحسب كلام واضح.»

فقال فاجين وهو يرسل زفرة: «حسن، حسن. سوف أرسل «المراوغ» إلى هناك في الحال.»

فأجابه مستر سايكس: «أنت لن تفعل شيئاً من ذلك. فـ «المراوغ» مراوغ أكثر مما ينبغي، ولسوف ينسى أن يعود، أو يضلّ السبيل، أو يتعقّبه رجال البوليس وبذلك يحولون بينه وبين العودة، ومن يدري فقد يجد لنفسه أيضاً عذراً آخر، إذا ما عهدت إليه في هذه المهمة. إن نانسي هي التي ستذهب إلى الوكر وتبحث فيه، زيادة في اليقين. ولسوف أضطجع خلال ذلك وآخذ سِنة من النوم.»

وبعد مساومات ومناقشات طويلة خفض فاجين قيمة السلفة المطلوبة من خمسة جنيهات إلى ثلاثة جنيهات وأربعة شلنات ونصف، مؤكداً بكثير من الإيمان المغلَّظة إن ذلك لن يترك له غير ثمانية عشر بنساً لتغطية نفقات المنزل. وعندئذ أعلن مستر سايكس، في تجهم، أنه إذا لم يستطع الفوز بأكثر من ذلك فيتعيَّن عليه أن يقنع به. واتخذت نانسي الأهبة لمرافقته إلى المنزل، بينما راح «المراوغ» والمعلم بايتس يضعان المأكولات في الخزانة. ثم إن اليهودي استأذن صديقه الودود في الانصراف، وانقلب عائداً إلى بيته، ترافقه نانسي والغلمان. وفي غضون ذلك انطرح مستر سايكس على السرير، واستعد للنوم ريثما تعود السيدة الصغيرة.

وأخيراً انتهوا إلى منزل فاجين، حيث وجدوا توبي كراكيت ومستر تشيتلينغ منكبين على الجولة الخامسة عشرة من لعبة الورق المعروفة بـ «الكريبج»، تلك الجولة التي لا نحتاج إلى القول إن السيد المحترم الأخير خسرها، وخسر معها نصف شلنه الخامس عشر والأخير، وهو أمر أثار ابتهاج أصدقائه الشبان إثارة بالغة. وإذ استشعر مستر كراكيت، في ما يبدو، شيئاً من الخجل لأن يجده القوم يلاعب سيداً دونه في المنزلة وفي المواهب العقلية بكثير، فقد تثاءب، وسأل عن حال سايكس، ثم تناول قبعته ليمضي في سبيله. فسأله فاجين: «هل جاء أحد، يا توبي؟»

فأجابه مستر كراكيت وهو يرفع قبة قميصه: «لم تجئ أية رجل حيَّة. ولقد كان كل شيء مملاً مثل جعة رديئة خفيفة. وأن عليك أن تقدم إليّ شيئاً نفيساً، يا فاجين، مكافأة لي على حراسة البيت هذه المدة كلها. لعنني اللَّه! لقد استشعرت الضجر الشديد مثل محلَّف من المحلفين، وكان خليقاً بي أن أغرق في نوم عميق مثل زنزانات نيوغايت، لو لم تحملني طيبة قلبي على تسلية هذا الغلام. يا للسأم الرهيب! أكون ملعوناً إذا كان ما أقوله غير صحيح!»

بعد هذه الصرخات وغيرها من أمثالها جمع مستر توبي كراكيت أرباحه وأفرغها في جيب صدرته بشيء من الازدراء وكأن أشباه هذه القطع الفضية الصغيرة كانت غير جديرة باهتمام رجل في مثل مقامه. حتى إذا تم له ذلك، غادر الحجرة مختالاً فخوراً تقطر منه الأناقة والكياسة إلى درجة جعلت مستر تشيتلينغ يؤكد للجماعة ـ بعد أن ألقى عدداً من نظرات الإعجاب على رجليه وحذائه الطويل الساق حتى غابت عن البصر ـ أنه يعتبر القطع النقدية الخمس عشرة (وهي من فئة الستة بنسات) ثمناً زهيداً لصداقة رجل مثل توبي... ثمناً هو مستعد لدفعه كلما جمعته الأيام به. وأنه لم يبالِ بخسائره أكثر مما يبالي المرء بقلامة ظفره.

ـ «يا لك من فتى غريب، يا توم!» كذلك قال المعلم بايتس، وقد سره هذا التصريح سروراً عظيماً.

فأجابه مستر تشيتلينغ: «لست كذلك البتة. هل تجدني فتى غريباً يا فاجين؟»

فقال فاجين مربِّتاً على كتفه وغامزاً تلاميذه الآخرين: «أنت فتى بارع جداً. يا عزيزي.»

فسأله توم: «ومستر كراكيت فتى أنيق جداً، أليس كذلك يا فاجين؟»

ـ «ليس في هذا أيّ ريب، يا عزيزي.»

فتابع توم قائلاً: «وصداقته تشرِّف الإنسان، أليس كذلك يا فاجين؟»

ـ «إلى حد بعيد جداً من غير ريب، يا عزيزي. إنهم يغارون منك ليس أكثر، يا توم، لأنه يضنّ عليهم بهذه الصداقة.»

فصاح توم على نحو مُظَفَّر: «آه! هذا حسن جداً. لقد أفرغ جيوبي. ولكن في استطاعتي أن أذهب وأكسب مبلغاً إضافياً، عندما يحلو لي ذلك. ألست أستطيع، يا فاجين؟»

ـ «بلى، تستطيع من غير شك، وكلما عجلت في ذلك كان أفضل، يا توم. وهكذا عوِّضْ خسارتك في الحال، ولا تخسر أي وقت إضافي. أيها المراوغ! تشارلي! لقد آن لكما أن تشرعا في الصيد. هيَّا! كادت الساعة أن تمسي العاشرة ولم يُعْمل بعدُ أيّ شيء.»

ونزولاً عند هذا التلميح، انحنى الغلامان لنانسي، وتناولا قبعتيهما، وغادرا الحجرة، وهما (أي المراوغ وصديقه المرح) يطلقان النكات على حساب مستر تشيتلينغ الذي لم يكن في مسلكه ـ كما يقتضينا الإنصاف أن نقول ـ أيما شيء استثنائي أو غريب، باعتبار أن في لندن عدداً كبيراً من الشبان الأنيقين الذين يدفعون ثمناً أغلى من الذي دفعه لكي يُشاهَدوا مع رفاق من أبناء المجتمع الصالحين، وعدداً كبيراً من السادة المحترمين الممتازين (هم قوام ذلك المجتمع الصالح) الذين يَبْنون سمعتهم على أسس شبيهة جداً بتلك التي بنى عليها توبي كراكيت المرح شهرته.

وقال فاجين بعد أن غادرا الحجرة: «والآن، سوف أذهب وآتيك

بذلك المال، يا نانسي. وليس هذا غير مفتاح خزانة صغيرة أضع فيها بعض الأشياء الغريبة التي يجيء بها الغلمان، يا عزيزتي. أنا لا أقفل على أموالي أبداً، لأني لا أملك منها شيئاً أقفل عليه، يا عزيزتي ـ ها! ها! ها! ـ أجل لا أملك منها شيئاً أقفل عليه. إنها تجارة فقيرة، يا نانسي، وكلها عقوق وإنكار للجميل. ولكني مولع بأن أرى هؤلاء الشبان يحيطون بي، ومن أجل ذلك أصبر على هذا كله. . أصبر على هذا كله. صه!» قال ذلك في اضطراب، وهو يخبئ المفتاح في صدره. «مَن هناك؟ أصغي!»

وبدت الفتاة ـ التي كانت جالسة إلى الطاولة مطوية الذراعين ـ وكأنها غير مهتمة البتة بهذه الزيارة، وغير مبالية سواء أجاء الشخص ـ أياً من كان ـ أم ذهب: حتى اللحظة التي تناهت فيها إلى أذنيها همهمة رجل. وما إن تلقَّفت ذلك الصوت حتى خلعت قلنسوتها وشالها، بمثل سرعة البرق، وطرحتهما على الطاولة. وعندما استدار اليهودي بعد ذلك مباشرة غمغمت متشكِّية شدة الحر، في صوت واهن تغاير تغايراً جدّ ملحوظ مع السرعة والعنف البالغين اللذين اتَّسم بهما خلع القلنسوة والشال وطرحهما. . وهو صنيعٌ لم يُلاحظه، على أية حال، فاجين العجوز الذي كان مولِّياً الفتاة ظهره، طوال الوقت.

ـ «باه!» كذلك همس وكأن تلك الزيارة المفاجئة قد أغاظته. «إنه الرجل الذي توقعتُه من قبل. وهوذا يهبط السلم. حذار أن تنطقي بكلمة واحدة حول مسألة المال ما بقي هو هنا، يا نانسي. إنه لن يمكث طويلاً، على أية حال. عشر دقائق ـ على الأكثر ـ يا عزيزتي.»

ووضع اليهودي سبابته المعروقة على شفته، وحمل شمعة إلى الباب عندما سُمع على السلم الخارجي وقع قدمي رجُل. وبلغ الباب لحظة بلغة الزائر، الذي وجد نفسه ـ بحكم اندفاعه العاجل إلى الحجرة ـ وجهاً لوجه مع الفتاة قبل أن يعي وجودها.

كان الزائر هو مونكس.

ـ «إنها مجرد واحدة من أفراد زمرتي الشبان!» كذلك قال فاجين وقد

لاحظ أن مونكس ارتدّ مجفلاً حين وقعت عيناه على شخص غريب. «لا تتحركي، يا نانسي.»

فاقتربت الفتاة من الطاولة أكثر من ذي قبل، وبعد أن حدجت مونكس بنظرة ترشح بالطيش المستهتر غضَّت طرفها. ولكنه ما إن وجَّه بصره نحو فاجين حتى اختلست هي نظرة أخرى: نظرة كانت ثاقبة، فاحصة، مفعمة بالمقاصد إلى درجة بعيدة، بحيث لو قُدِّر لمراقب مجاور أن يرى ذلك التغيُّر إذن لتعذر عليه أن يصدق أن النظرتين انبعثتا من شخص واحد.

وسأله فاجين: «أعندك أنباء جديدة؟»

ـ «أنباء مثيرة!»

ـ «و. . . و. . . جيدة؟» كذلك سأله فاجين، متردداً وكأنه خشي أن يُغْضِب الرجل الآخر من طريق الإفراط في التفاؤل.

ومرّة أخرى اقتربت الفتاة من الطاولة أكثر من ذي قبل، ولم تتكشَّف عن أيما رغبة في مغادرة الحجرة، على الرغم من أنها رأت مونكس يومئ إليها بذلك. فلم يكن من اليهودي ـ ولعله خشي أن تقول شيئاً عن مسألة المال إذا ما حاول التخلص منها ـ إلا أن أشار بإصبعه إلى الطابق الأعلى. وأخرج مونكس من الحجرة.

ـ «ليس في هذا الجحر الجهنمي الذي كنا فيه من قبل.» هكذا سمعت الرجل يقول وهما يرتقيان السلم. وضحك فاجين، وأجاب بكلام لم تسمعه، وبدا من صريف خشب السلم أنه كان يقود رفيقه إلى الطابق الثاني.

وقبل أن يكفّ صدى وقع أقدامهما عن التردد في أرجاء المنزل كانت الفتاة قد خلعت حذاءها، ورفعت أدنى فستانها فغطت به رأسها ولفَّت ذراعيها، ووقفت بالباب مصغية في شوق لاهث. وما إن خمدت الضجة حتى انسلّت من الحجرة، وارتقت السلم في رفق وصمت لا يصدقان، وغابت عن النظر في ظلمات الدور الأعلى.

وظلت الحجرة مهجورة ربع ساعة أو أكثر. وانسلّت الفتاة عائدة بمثل خطوها الأثيري السابق. وبعد ذلك مباشرة سُمع الرجلان يهبطان. وفي الحال اندفع مونكس إلى الشارع، وعاود اليهودي ارتقاء السلم، بخطى ثقيلة، التماساً للمال. حتى إذا رجع كانت الفتاة تعتمر بقلنسوتها وتسوّي وضع شالها على كتفيها، وكأنها تستعد للانصراف.

وهتف اليهودي مجفلاً وهو يضع الشمعة على الطاولة: «ماذا دهاك يا نانسي؟ لشدّ ما أنت شاحبة!»

ـ «شاحبة!» كذلك كررت الفتاة، مظلِّلة عينيها بيديها، وكأنها تريد أن تركّز نظرها عليه.

ـ «هذا رهيب! ما الذي كنت تفعلينه بنفسك؟»

ـ « لا شيء، بقدر ما أعلم، غير القعود في هذا المكان ذي الهواء الفاسد فترة لا أعرف مداها.» كذلك أجابت الفتاة في لامبالاة. «هيّا! دعني أعود. إن ذلك سوف يكون لطفاً منك.»

ووضع فاجين القطع النقدية في يدها، وهو يعدّها واحدة إثر واحدة مطلقاً في إثر كل منها زفرة. وافترقا من غير أن يخوضا في أي حديث آخر، بعد أن تمنى كل منهما للآخر ليلة طيبة.

حتى إذا أمست الفتاة في عرض الطريق، قعدت على عتبة أحد الأبواب وبدت، خلال بضع لحظات، وكأنها منشدهة انشداهاً كاملاً، وعاجزةٌ عن مواصلة السير. ثم إنها نهضت فجأة، واندفعت في اتجاه معاكس لذلك الذي كان سايكس ينتظر عودتها فيه، وأوسعت الخطى، حتى استحال سيرها شيئاً بعد شيء إلى عدوٍ مجنون. وبعد أن خارت قواها، وقفت لكي تأخذ نَفَساً. وراحت تعتصر يديها ـ وكأنها استردّت صفاء ذهنها فجأة وتحسّرت لعجزها عن القيام بشيء كانت قد وطّنت العزم عليه ـ وانفجرت في البكاء.

وجائز أن تكون دموعها قد سرّت عن نفسها، أو أنها استشعرت وضعها اليائس إلى أبعد الحدود. ولكن الأمر الثابت هو أنها انقلبت على

عقبيها، واندفعت في الاتجاه المعاكس بسرعة كادت تَعدِل سرعتها السابقة، لكي تعوّض الوقت الضائع، من ناحية، ولكي تلحق بتيار أفكارها العنيف من ناحية أخرى. وسرعان ما بلغت المثوى الذي كانت قد خلَّفت سارق البيوت فيه.

هل نمّ وجهها عن أيما اضطراب عندما مثلت بين يدي مستر سايكس؟ لسنا ندري، ولكن الذي ندريه هو أن هذا السيد لم يلاحظ شيئاً من ذلك. إذ ما إن سألها هل جاءت بالمال وما إن تلقّى جواباً إيجابياً حتى اكتفى بإطلاق زمجرة ارتياح، وعاود وضع رأسه على الوسادة، واستغرق في غفوته التي كان وصول نانسي قد قطعها عليه.

وكان من حسن طالعها أن وجود المال بين يدي سايكس أتاح له في اليوم التالي فرصة القيام بنشاط كبير انحصر في تناول الطعام والشراب، وكان له في الوقت نفسه أثر صالح في تلطيف خشونة طبعه، حتى أنه لم يجد لا الوقت ولا الميل المساعدين على الإسراف في نقد سلوكها وتصرّفها. ولو قد وقعت عليها عينا فاجين الوشقيتان(*) إذن لما غاب عنهما ما غلب عليها من سيماء ذاهلة وعصبية كانت أشبه بسيماء من هو على عتبة القيام بخطوة جريئة خطرة لم يعقد نيَّته عليها إلا بعد صراع جد عنيف، وإذن لاستبدّ به الجزع، في أغلب الظن، على التوّ. ولكن مستر سايكس كانت تعوزه دقة الملاحظة، ولم تكن لتقلقه غير الهواجس الجافية التي تعبِّر عن نفسها بخشونة في السلوك شرسة تجاه الناس جميعاً. وإذ كان آنذاك، بالإضافة إلى هذا كله، في حال وديعة إلى حد استثنائي، كما لاحظنا من قبل، فإنه لم ير أيّ شيء غير عادي في سلوك الفتاة، ولم يكلّف نفسه عناء الاهتمام بأمرها. والحق أن في استطاعة المرء أن يقول إن اهتياجها كان خليقاً به ـ حتى ولو كان جلياً للعيان عشرة أضعاف جلائه في تلك الآونة ـ أن لا يوقظ ظنونه من سباتها العميق.

(*) نسبة إلى الوشق، وهو حيوان أصغر من الفهد قصير الذيل.

وما إن مالت الشمس إلى المغيب حتى تعاظم اهتياج الفتاة. حتى إذا هبط الليل، وجثمت مرتقبة أن يستسلم سارق البيوت للنوم من جراء الإسراف في الشراب، ران على خديها شحوب غير مألوف، واتقدت في عينيها نار لاحظها، حتى سايكس نفسه، في دهشة.

وكان مستر سايكس، الموهون القوى من جراء الحمى، مستلقياً في سريره، مضفياً الماء الحار إلى شراب الـ«جن» لكي يجعله أقل إلهاباً، وكان قد دفع كأسه نحو نانسي لتملأها للمرة الثالثة أو الرابعة، عندما لفتت هذه الأعراض نظره أول ما لفتته.

وقال الرجل رافعاً نفسه على يديه فيما يحدق إلى وجه الفتاة: «يا للشيطان! أنت تبدين مثل جثة عادت إلى الحياة من جديد. ما بالك؟»

فأجابته الفتاة: «ما بالي؟ لا شيء. لماذا تحدق إليّ هذا التحديق كله؟»

فسألها سايكس، ممسكاً بذراعها، هازاً إياها في خشونة: «ما هذه الحماقة؟ ما بك؟ ماذا تعنين؟ ما الذي تفكرين فيه؟»

ـ «في أشياء كثيرة، يا بيل.» كذلك أجابته الفتاة، مرتعدة، ضاغطة يديها على عينيها. «ولكن، يا إلَهي! أي غرابة في ذلك؟»

وبدت نبرة الابتهاج المصطنع التي لُفظت بها تلك الكلمات الأخيرة وكأنها أحدثت في نفس سايكس أثراً أعمق من ذلك الذي أحدثته نظرتها الشاردة الصارمة قبل بضع لحظات.

وقال سايكس: «سوف أقول لك ما بك. إما أنك قد أصبت بالحمى، فهي على وشك أن تنفجر في الحال، وإما أن يكون في الجوّ شيء غير اعتيادي... بل شيء خطِرٌ أيضاً. أنت لست على وشك أن... لا، لعنني اللّه! أنت لن تقدمي على مثل ذلك.»

فسألته الفتاة: «مثل ماذا؟»

ـ «ليس ثمة فتاة،» كذلك قال سايكس مسدّداً نظراته إليها، ومغمغماً

بالكلام وكأنه يخاطب نفسه. «ليس ثمة فتاة أشدّ وفاء من هذه الفتاة، وإلا لاحتزت حنجرتها منذ ثلاثة أشهر. إنها سوف تقع فريسة الحمى. هذا كل ما هنالك.»

حتى إذا حصَّن سايكس نفسه بهذا التفكير المطمْئِن شرب الكأس حتى الثمالة، ثم طلب إليها أن تأتيه بالدواء مطلقاً لعنات متذمِّرة. فما كان من الفتاة إلا أن وثبت على قدميها، في خفة بالغة. وصبَّت الدواء على نحو خاطف، ولكن بعد أن أولت سايكس ظهرها. ثم أدنت الكأس من شفتيه، فراح يتجرع محتوياتها.

وقال اللص: «والآن، تعالي واجلسي إلى جانبي، واخلعي على وجهك سيماءه الحقيقية. وإلا شوَّهته تشويهاً يجعلك لا تعرفينه بعدُ عندما تحتاجين إلى ذلك.»

وأطاعته الفتاة. وضغط سايكس بيده على يدها، وانقلب فوق الوسادة، مركِّزاً عينيه على وجهها. لقد أغمضهما، ثم فتحهما، ثم عاود إغماضهما من جديد، ثم فتحهما مرّة أخرى. وتقلَّب في فراشه على نحو قلق. وبعد أن غفا مرة ومرة، طوال دقيقتين أو ثلاث، واثباً في كل مرة وعلى وجهه إمارات الذعر، محدقاً إلى ما حوله تحديقاً ذاهلاً، استغرق فجأة ـ في ما بدا ـ وبينا كان يحاول النهوض ـ في سبات ثقيل عميق. وتراخت قبضة يده. وسقطت الذراع المرفوعة خدِرة إلى جنبه. وبدا منطرحاً في الفراش مثل امرئ في غيبوبة تنويم مغناطيسي.

وغمغمت الفتاة وهي تغادر جانب السرير: «لقد أحدثت صبغة الأفيون أثرها، آخر الأمر. ومن يدري، فلعلي قد تأخرت أكثر مما ينبغي، حتى في هذه الحال.»

وسارعت إلى الاعتمار بقلنسوتها وطرح شالها على كتفيها، مجيلة طرفها في ما حولها، بين الفينة والفينة، على نحو مذعور، وكأنها كانت تتوقع ـ برغم الجرعة المنوِّمة، أن تستشعر في كل لحظة ضغط يد سايكس الثقيلة على كتفها. ثم إنها مالت على الفراش، في رفق، وقبَّلت شفتي

اللص. وبعد أن فتحت باب الحجرة وأوصدته من غير أن تحدث أيما صوت، غادرت المنزل متعجِّلة.

وكان أحد الحراس يصيح معلناً الساعة التاسعة والنصف(*) في ممرّ مظلم كان عليها أن تجتازه لكي تبلغ الشارع الرئيسي.

فسألته الفتاة: «هل تجاوزت النصف منذ فترة طويلة؟»

ـ «بعد خمس عشرة دقيقة تصبح الساعةُ العاشرة.» كذلك أجابها الرجل، رافعاً مصباحه إلى وجهها.

ـ «ولست أستطيع الوصول إلى هناك قبل ساعة أو أكثر.» هكذا غمغمت نانسي، ومضت لسبيلها ماسَّة إياه في انطلاقها الخاطف، وأنشأت تهبط الشارع.

كانت دكاكين كثيرة قد شرعت تغلق أبوابها في الدروب والشوارع الخلفية التي سلكتها، في انطلاقها من سبيتالفيلدز إلى أحياء الجانب الغربي (وست اند) من لندن. ودقت الساعة العاشرة، مضاعفة بذلك قلق نانسي ونفاد صبرها. فاندفعت بأقصى سرعتها فوق الرصيف الضيق، دافعة السابلة بمنكبيها ذات اليمين وذات الشمال. بل لقد انطلقت تحت رؤوس الخيل تقريباً، مجتازة شوارع مكتظة، حيث كانت جموع الناس ترقب في لهفة أول فرصة تتاح لها للإقدام على الصنيع نفسه.

ـ «هذه المرأة مجنونة!» كذلك قال الناس، وقد التفتوا لكي يُتبعوها أنظارهم فيما كانت هي تمرق مروق السهم.

حتى إذا بلغت أحياء المدينة الأكثر غنى، وجدت الشوارع مهجورة نسبياً. وهنا أثار اطلاقها فضولاً أعظم لدى المتخلفين الذين مرت بهم في جريها. وأغذّ بعضهم الخطى خلفها، وكأنهم يريدون أن يروا إلى أين

(*) حتى إنشاء شرطة لندن، عام 1829، كان الحراس يجوبون الشوارع في الليل، ويعلنون الساعة ويصفون الأحوال الجوية بصوت عال، مؤكدين للناس أن كل شيء يجري على ما يرام. (المعرب)

كانت تندفع بهذه السرعة غير المألوفة. ووُفق بعضهم إلى سَبْقها، والتفتوا إلى الوراء مندهشين بسرعتها غير المتناقصة، ولكنهم ما لبثوا أن تخلّفوا عنها واحداً بعد واحد. فما إن شارفت المكان الذي استهدفته حتى أمست وحدها في الحلبة.

وكان ذلك المكان نُزلاً عائلياً قائماً في شارع هادئ ولكنه أنيق، على مقربة من هايد بارك. وفيما كان ضوء المصباح الساطع المعلق أمام باب ذلك النزل يهديها سبيلها إلى المكان دقت الساعة الحادية عشرة. وكانت قد خففت سرعتها قبل بضع خطوات وكأنها مترددة، تحاول أن تعقد العزم على التقدم. ولكن دقات الساعة وضعت حداً لترددها، فخطت نحو المدخل. كان مقعد البواب شاغراً. وأجالت بصرها في ما حولها في حيرة ظاهرة، ثم تقدمت نحو السلم.

وقالت أنثى أنيقة البزة، وقد أطلت من باب كانت نانسي قد تجاوزته: «هاي! أيتها الفتاة! ماذا تريدين؟»

فأجابتها الفتاة: «أريد أن أقابل سيدة تقطن في هذا البيت.»

ـ «سيدة؟» كذلك جاءها الجواب، مُرْفقاً بنظرة محتقِرة. «أية سيدة؟»

فقالت نانسي: «مس مايلي.»

فلم تجب السيدة الشابة، التي كانت الآن قد لاحظت مظهر الوافدة، بغير نظرة احتقار فاضل. ودعت رجلاً إلى إجابتها. وهنا كررت نانسي سؤالها.

فسألها النادل: «ما الاسم الذي يتعيَّن أن أذكره لها؟»

فأجابت نانسي: «لا فائدة من ذكر أيّ اسم.»

فقال الرجل: «ولا فائدة من ذكر هدف الزيارة أيضاً؟»

فأجابته الفتاة: «لا. لا فائدة من ذلك أيضاً. إن عليَّ أن أرى السيدة.»

ـ «هيا!» كذلك قال الرجل دافعاً إياها نحو الباب. «أقلعي عن هذا. واغربي من هنا!»

فقالت الفتاة في عنف: «أنا لن أذهب إلا أذا طُرِحت إلى الخارج طرحاً. وفي استطاعتي أن أجعل من ذلك مهمة تنفر من القيام بها حتى ولو أصبحت رجلين لا رجلاً واحداً.» ثم أضافت مجيلة طرفها في ما حولها: «ألا يوجد هنا شخص يريد أن ينقل رسالة من بائسة فقيرة مثلي؟»

وترك هذا النداء أثره في نفس طاه ذي مظهر رضيّ كان يشهد المشادة مع غيره من الخدم، فتقدم ابتغاء التدخل في الأمر.

لقد قال هذا الشخص: «احمل رسالتها، يا جو. ألا تستطيع؟»

فأجابه الرجل: «وأيّ فائدة ترجى من ذلك؟ هل تعتقد أن السيدة الصغيرة سوف توافق على مقابلة فتاة كهذه؟ قل!»

وكان في هذا التلميح لشخصية نانسي المريبة ما أثار قدراً بالغاً من الغيظ العفيف في صدور خادمات أربع لاحظن في حماسة عظيمة أن تلك المخلوقة كانت عاراً على بنات جنسها. فدعَوْن بقوة إلى الإلقاء بها، من غير ما رحمة، في وجار الكلب.

فقالت الفتاة ملتفتة إلى الرجال من جديد: «افعلوا بي ما شئتم. ولكن اعملوا ما أسألكم إياه أولاً. وأنا أسألكم أن تحملوا هذه الرسالة إكراماً للّه الكلي القدرة!»

وإلى هذا التوسل أضاف الطاهي الرقيق الفؤاد شفاعتَهُ، فكان من نتيجة ذلك أن تولى الرجل الذي برز لنانسي قبل غيره أداء المهمّة.

وقال الرجل وإحدى قدميه على السلم: «ما هي الرسالة التي تريدين إبلاغها؟»

فقالت نانسَي: «إن امرأة شابة ترجو، في حرارة، أن تتحدث إلى الآنسة مايلي على انفراد. وإنه إذا ما تكرمت السيدة بالاستماع إلى أول كلمة سأقولها فسوف تعرف في الحال ما إذا كان ينبغي لها أن تسمع لي حتى النهاية أو أن تطردني إلى خارج الأبواب كدجالة محتالة.»

فقال الرجل: «أنا أقول إنك تخرجين في تصرفك هذا على نطاق المألوف!»

فقالت الفتاة في عزم: «ليس عليك إلا أن تحمل الرسالة وتدعني أسمع الجواب.»

وارتقى الرجل السلم مسرعاً. ولزمت نانسي مكانها، شاحبة الوجه، لاهثة أو تكاد، مصغية، وقد ارتعدت شفتها، إلى تعابير الازدراء المسموعة في وضوح.. تلك التعابير التي أطلقتها الخادمات العفيفات على نحو خصيب، والتي أمست أكثر خصباً عندما رجع الرجل وأعلن أن على المرأة الشابة أن تصعد إلى الدور الأعلى.

وقالت الخادمة الأولى: «ليس من المجدي أن يكون المرء محترماً في هذا العالم.»

وقالت الثانية: «إن النحاس الأصفر ليحظى بالتقدير أكثر من الذهب الذي صمد للنار.»

أما الثالثة فاكتفت بالتساؤل «من أي شيء صُنِعت السيدات؟» وأما الرابعة فاستهلت لحناً لأربع مغنيات عنوانه «يا للعار!»... لحناً ما لبث «آلهات الصيد» أن ختمتهُ.

ومن غير أن تلقي بالاً إلى هذا كله، إذ كانت تُثقل فؤادها هموم أعظم خطراً، تبعت نانسي الرجل، مرتعدة الأوصال، إلى حجرة انتظار صغيرة، منارة بمصباح متدلٍّ من السقف. وهنا تركها الرجل، وانسحب.

الفصل الأربعون

ويشتمل على مقابلة غريبة لا تعدو أن تكون تتمة للفصل السابق

كانت الفتاة قد بدَّدت حياتها في الشوارع، وفي أوخم مواخير لندن وأوكارها، ولكنْ كان لا يزال فيها بقيةٌ من طبيعة المرأة الأصيلة. فما إن تناهت إلى سمعها خطى رفيقة تتقدم نحو الباب المواجه لذلك الذي كانت قد دخلت منه، وتمثَّلت التناقض العظيم الذي توشك تلك الحجرة

الصغيرة أن تشتمل عليه بعد لحظة أو لحظتين حتى ناءت بثِقل ما استشعرته من خجلها العميق، وارتدّت مجفلة وكأنها لا تكاد تطيق الاجتماع إلى تلك التي سعت إلى مقابلتها.

ولكن الكبرياء انبرت لمقاومة هذه المشاعر الفضلى... الكبرياء التي هي نقيصة من نقائص أحط المخلوقات وأذلّها بقدر ما هي نقيصة من نقائص أسمى المخلوقات وأشدّها ثقة بالنفس. فإذا بتلك الرفيقة البائسة للصوص والمتشردين، والساقطة المنبوذة المختلفة إلى المساكن الوضيعة المريبة، والزميلة الملازمة لنفايات السجون ومراكب المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، والعائشة في ظل المشنقة نفسها... إذا بتلك المخلوقة المجللة بالخزي والعار أشدّ كبرياء من أن تتكشّف عن أضأل ومضة من ومضات الشعور الأنثوي الذي اعتبرته ضعفاً، والذي كان هو وحده القادر على شدّها إلى تلك الإنسانية التي محت حياتُها الداعرة كثيراً من آثارها، منذ صباها الأول.

لقد رفعت بصرها رفعاً كافياً لأن يُريها أن الوجه الذي أقبل للقائها كان وجه فتاة جميلة مهزولة. ثم إنها خفضته إلى الأرض، ونترت رأسها في لامبالاة مصطنعة وقالت:

ـ «إن التمكن من مقابلتك ليس بالأمر اليسير، يا سيدتي. ولو قد أجزت لنفسي أن أغضب، ورجعت من حيث أتيت، كما كان يمكن لكثير من الناس أن يفعلوا، إذن لندمت على ذلك في يوم من الأيام، ولكان لندمك أسباب وجيهة تبرّره..»

فأجابتها روز: «إني أعلن لك عن أسفي الشديد إذا كان أحدٌ من نزلاء هذا البيت قد عاملك في قسوة. لا تحزني من جراء ذلك، وحدثيني عن السبب الذي جئت من أجله لمقابلتي. إني أنا الشخص الذي سألتِ عنه.»

وكان في لهجة جوابها الرقيقة، وفي صوتها العذب، وفي هيأتها اللطيفة، وغياب أيما نبرة من نبرات التعالي أو الاستياء في كلامها، ما أذهل الفتاة إذهالاً كاملاً، فانفجرت بالبكاء.

وقالت شابكة يديها، في انفعال، أمام وجهها: «أوه، أيتها السيدة، أيتها السيدة! لو كان عدد أمثالك أكثر لكان عدد أمثالي أقلّ. . . أنا واثقة من ذلك. . . أنا واثقة من ذلك. . »

فقالت روز في حرارة: «اجلسي. إذا كنت تعانين فقراً أو محنة فلسوف أكون سعيدة حقاً بإغاثتك إن استطعت. أجل سوف أكون سعيدة حقاً. اجلسي.»

فقالت الفتاة وهي لا تزال تذرف الدمع: «دعيني واقفة، ولا تتحدثي إليّ بمثل هذا اللطف إلا بعد أن تعرفيني معرفة أفضل. لقد أمسينا في ساعة متأخرة من الليل. هل. . . هل. . . ذلك الباب مغلق؟»

ـ «نعم.» كذلك قالت روز وهي ترتدّ بضع خطوات إلى الوراء لكي تكون أقدر على التماس النجدة إذا ما احتاجت إليها. «لماذا؟»

فقالت الفتاة: «لأني على وشك أن أضع حياتي وحيوات الآخرين في يديك. أنا الفتاة التي ساقت أوليفر الصغير عائدة به إلى بيت فاجين العجوز ليلة غادر البيت الذي في بينتونفيل.»

فقالت روز مايلي: «أنتِ؟»

فأجابتها الفتاة: «أنا، يا سيدتي! أنا المخلوقة المرذولة التي سمعت عنها، والتي تحيا مع اللصوص، والتي لم تعرف منذ تفتّحت عيناها وحواسها على شوارع لندن أية حياة أفضل ولم تسمع أية كلمة ألطف من تلك التي أسمعوني إياها، فليساعدني اللّه! لا تتحرّجي من الاشمئزاز مني على نحو صريح، يا سيدتي. أنا أصغر سناً مما يظن الناظر إليّ، ولكني متعودة ذلك منذ عهد بعيد. إن أفقر النساء ينأين بأنفسهن عني حين أشق طريقي فوق الأرصفة المزدحمة.»

فقالت روز وهي تنأى بنفسها، على نحو لاشعوري، عن زائرتها الغريبة: «أية أشياء رهيبة هذه؟!»

فصاحت الفتاة: «اسجدي واشكري اللّه على أن منحك أهلاً عُنوا بك

وأعالوك في صباك، وعلى أنك لم تجدي نفسك قط في غمرة البرد والجوع، والشغَب والسكْر و. . . و. . . شيء أسوأ من هذا كله ـ كما وجدت نفسي منذ أن كنت في مهدي. إن في استطاعتي أن أستعمل لفظة «المهد»، لأن الأزقة والمجارير كانت مهدي، ولسوف تكون هي الفراش الذي سألفظ أنفاسي عليه.»

فقالت روز في صوت متهدج: «أنا أرثي لك! إن قلبي يتفطر أسى وأنا أستمع إلى حديثك!»

فأجابتها الفتاة: «فلتباركك السماء جزاء طيبتك هذه! ولو قد عرفت أيّ شيء أنا في بعض الأحيان لرثيت لي حقاً. ولكني انسللت من بين أولئك الذين لا بدَّ أن يقتلوني، إذا ما عرفوا أني جئت إلى هنا، لكي أخبرك بما تناهى إلى سمعي. هل تعرفين رجلاً يدعى مونكس؟»

فقالت روز: «لا!»

فأجابتها الفتاة: «إنه يعرفك. ويعرف أنك هنا، إذ لم أعرف أين أجدكِ إلا بعد أن سمعته يذكر عنوانك.»

فقالت روز: «أنا لم أسمع بهذا الاسم قط من قبل.»

فأجابتها الفتاة: «إذن فمرد ذلك إلى أنه يُعرف بيننا باسم زائف، وهو ما استطعت أن أحزره من قبل. فمنذ فترة من الزمان، وبعد أن أدخِل أوليفر إلى منزلك ليلة السرقة مباشرة استرقت السمع، وقد ارتبت في أمر هذا الرجل. إلى حديث دار بينه وبين فاجين تحت جنح الظلام. لقد اكتشفت، مما سمعته، أن مونكس. . . الرجل الذي سألتك عنه. . . هل تفهمين ما أقول؟»

فقالت روز: «أجل. أفهم.»

فتابعت الفتاة كلامها: «. . . إن مونكس رآه مصادفة مع اثنين من غلمان عصابتنا في نفس اليوم الذي افتقدناه فيه أول مرة، وأنه عرف فيه على التوّ ذلك الغلام نفسه الذي كان يبحث عنه، برغم أني لم أفهم لماذا.

وعُقِدت مع فاجين صفقة تتلخص في أنه إذا ما استطاع اليهودي أن يستردّه أعطاه مونكس مبلغاً من المال، وأن هذا المبلغ سوف يُزاد إذا ما جعل منه لصاً، وهو شيء كان مونكس يحرص عليه لغاية في نفسه.»

فسألتها روز: «لأية غاية؟»

فقالت الفتاة: «لقد لمح ظلي على الجدار فيما كنت أصغي لكي أفهم ما دار بينهما. وليس هناك كثير من الناس الذين يستطيعون، بالإضافة إليّ، أن يختفوا من طريقهما في سرعة تجعلهم في نجوة من الافتضاح. ولكني استطعت ذلك. ولم يقع نظري عليه بعد ذلك إلا الليلة البارحة.»

ـ «وما الذي حدث عندئذ؟»

ـ «سوف أخبرك، يا سيدتي. لقد عاد، الليلة البارحة، ومرّة أخرى ارتقيا السلم، فوقفت بالباب وأصغيت من جديد بعد أن تدثرت لكي لا ينمّ ظلي عليّ. وكانت أولى الكلمات التي سمعت مونكس يقولها هي التالية: «وهكذا فإن الأدلة الوحيدة على هوية الغلام ملقاة في قاع النهر، والمرأة العجوز التي تلقتها من أمه توشك أن تبلى في نعشها.» وضحكا، وتحدثا عن نجاحه في تحقيق ذلك. وواصل مونكس حديثه عن الغلام، فقال ـ في اهتياج بالغ ـ إنه برغم اطمئنانه الآن على أموال ذلك الشيطان الصغير، كان يؤثر لو انتهى الأمر إلى عكس ما انتهى إليه. إذ كم كان يكون طريفاً لو استطاع أن يُذلّ تباهي وصية الوالد من طريق دفع الغلام إلى جميع سجون المدينة، ثم سوقه إلى المشنقة بتهمة ارتكاب خيانة عظمى يستطيع فاجين أن يدبِّرها في سهولة بعد أن يكون قد أفاد منه، فوق ذلك، إلى أقصى حدود الإفادة.»

فقالت روز: «ما هذا كله؟»

فأجابتها الفتاة: «إنها الحقيقة، يا سيدتي، برغم صدورها من شفتيّ أنا. ثم إنه قال ـ مرسلاً شتائم مألوفة على أذنيّ ولكنها غريبة على أذنيك ـ إنه إذا استطاع أن يشبع حقده بالقضاء على حياة الغلام من غير أن يعرض حياته هو للخطر، لما تخلَّف عن ذلك. ولكن لما كان هذا مستحيلاً، فإنه

سوف يترصده حتى يلقاه في جميع منعطفات الحياة. وإذا ما حاول الغلام أن يفيد من مولده وماضيه فعندئذ يُنزل به ضروب الأذى أيضاً. ثم قال: «وبالاختصار، يا فاجين فإنك، برغم يهوديتك كلها، لم تنصب في حياتك قط مثل تلك الأشراك التي سأحاول أن أنصبها لأخي أوليفر.»

فهتفت روز: «أخيه؟»

فقالت نانسي، وهي تجيل طرفها في ما حولها بقلق، وهو شيء لم تكفّ عنه البتة منذ أن شرعت في الكلام، إذ كان شبح سايكس يلمّ بها على نحو موصول: «لقد كانت تلك هي كلماته. ليس هذا فحسب. بل إنه حين تحدث عنك وعن السيدة الأخرى قال إن السماء، أو الشيطان، قد تآمرت عليه عندما دفعت بأوليفر إلى أيديكما. ثم ضحك وقال إن في هذا ما يسرّي عن النفس أيضاً، لأنه خليق بكما أن تدفعا آلاف الجنيهات ومئات ألوفها ـ لو ملكتما هذا كله ـ لكي تعرفا من هو كلبكما ذو القدمين الاثنتين.»

فقالت روز وقد غدا وجهها شديد الشحوب: «أنت لا تقصدين أن تخبريني أن هذا الكلام قِيل على نحو جديّ؟»

فأجابتها الفتاة وهي تهز رأسها: «إذا كان قد قُدِّر لرجل أن يتكلم على نحو جديّ، وفي غضب وقسوة، فليس من ريب في أن ذلك الرجل هو مونكس. إنه ينقلب، كلما استثير حقده، إلى رجل مخيف. وأنا أعرف أناساً كثيرين يفعلون ما هو أسوأ من ذلك. ولكني أؤثر أن أسمع إليهم كلهم اثنتي عشرة مرة على أن أسمع إلى مونكس ذاك مرة واحدة. لقد أمسينا في ساعة متأخرة من الليل، وأن عليّ أن أرجع إلى البيت من غير أن أثير أيما ظنون تتصل بالرسالة التي أديتها. يتعيَّن عليّ أن أرجع في سرعة بالغة.»

فقالت روز: «ولكن ما الذي أستطيع أن أفعله؟ وكيف أستطيع أن أفيد من هذه المعلومات من غير أن تساعديني على ذلك؟ ترجعين؟ لماذا تودين أن تعودي إلى رفاق ترسمينهم بمثل هذه الألوان الفظيعة؟ إنك إذا ما

كررت هذه المعلومات على مسمع رجل أستطيع أن استدعيه من الحجرة المجاورة فعندئذ تستطيعين أن تقادي إلى مكان أمين في أقل من نصف ساعة.»

فقالت الفتاة: «أنا أريد أن أعود. يتعيَّن عليّ أن أعود لأن ـ كيف أستطيع أن أقول أشياء كهذه لسيدة بريئة مثلك؟ ـ لأن بين الرجال الذين حدثتك عنهم رجلاً هو أشدهم تهوراً... رجلاً لا أستطيع أن أفارقه، لا، ولو أنقِذتُ من الحياة التي أعيشها الآن.»

فقالت روز: «إن تدخلك لمصلحة هذا الغلام العزيز من قبل. ومجيئك إلى هنا ـ رغم جميع المخاطر ـ لتخبريني بالذي سمعتِهِ، ومسلكك الذي يقنعني بصدق ما تقولين، وندامتك الواضحة وشعورك بالخجل... كل هذا يحملني على الاعتقاد بأن الفرصة لا تزال متاحة لإصلاحك. أوه!» كذلك قالت الفتاة في حرارة. طاوية ذراعيها فيما كانت الدموع تتحدر على وجهها. «لا تعيري أذناً صماء لتوسلات واحدة من بنات جنسك... واحدة هي أول أنثى، في ما أعتقد جازمة، قُدِّر لها أن تناشدك بصوت راشح بالرثاء والحنان. أرجوك أن تسمعي كلماتي، وأن تدعيني أنقذك لمستقبل أفضل.»

فصاحت الفتاة راكعة على ركبتيها: «أيتها السيدة، أيتها السيدة العزيزة الرقيقة الملائكية.. أنت في الواقع أول أنثى قُدِّر لها أن تجود عليَّ بكلمات مثل هذه، ولو قد سمعت تلك الكلمات قبل بضع سنوات إذن لكان من الجائز أن تحوّلني عن حياة الإثم والأسى. أما الآن فقد فات الأوان. لقد فات الأوان!»

فقالت روز: «هناك دائماً متسع من الوقت للتوبة والتفكير.»

فصاحت الفتاة وقد لوّعتها أفكارها الموجِعة: «لا، ليس ثمة متسع. أنا لا أستطيع أن أفارقه الآن! أنا لا أستطيع أن أكون السبب في موته.»

فسألتها روز: «كيف ذلك؟»

فصاحت الفتاة: «ليس ثمة ما يستطيع إنقاذه. ولو أني أخبرت أشخاصاً آخرين بالذي أخبرتك إياه، وأدى ذلك إلى إلقاء القبض عليهم، إذن لأدى ذلك إلى موته من غير ريب. إنه أشدهم جسارة، ولقد ارتكب كثيراً من الأعمال الوحشية!»

فصاحت روز: «أمن المعقول أن تتخلي، من أجل رجل كهذا، عن كل آمالك في مستقبل صالح، وعن النجاة الأكيدة؟ هذا جنون.»

فأجابتها الفتاة: «لست أدري ما هو. كل ما أدريه أن الأمر هو كذلك، لا بالنسبة إليَّ أنا وحدي، ولكن بالنسبة إلى مئات غيري، ممن لا يقلون عني رداءة وشقاء. إن عليَّ أن أرجع. ومن يدري، فلعل ذلك هو من غضب اللّه عليَّ للآثام التي ارتكبتها. ولكنني استشعر نفسي منجذبة إليه من خلال الآلام كلها وضروب التعذيب كلها. وأحسب أني سوف أظل هكذا حتى ولو علمت أني لا بدَّ سأموت بيده هو، آخر الأمر.»

فقالت روز: «ما الذي يتعيَّن عليَّ أن أفعله؟ عليَّ أن لا أدعك تفارقينني على هذا النحو.»

فأجابتها الفتاة ناهضة: «بلى، يتعيَّن عليك أن تفعلي، يا سيدتي، وأنا أعلم أنك ستفعلين. إنك لن تحولي دون ذهابي لمجرد أني وثقت بطِيبتك، ولم أنتزع منك أيّ عهد، وهو شيء كان في ميسوري أن أفعله..»

فقالت روز: «وأية فائدة تُرْجى إذن من المعلومات التي أدليت بها إليّ؟ إن علينا أن نحلّ هذا اللغز، وإلا فكيف تتوقعين أن يعود بوحك به إليَّ بالخير على أوليفر... أوليفر الذي تحرصين على خدمته؟»

فأجابتها الفتاة: «لا ريب في أن لك من أهلك رجلاً رقيق القلب يستطيع أن يستمع إلى ما حدثتك به كما يستمع المرء إلى سر من الأسرار، ويستطيع بعد ذلك أن يهديك إلى السبيل الواجب سلوكها.»

فسألتها روز: «ولكن أين أستطيع أن أجدك، مرّة أخرى، إذا ما

اضطررت إلى ذلك؟ أنا لا أحاول أن أعرف أين يعيش هؤلاء القوم المخيفون، ولكني أسأل في أي شارع أستطيع أن ألقاك تمشين أو تعبرين في ساعة متَّفَق عليها من الأيام القادمة؟»

فسألتها الفتاة: «هل تعاهدينني على صيانة سري بأقصى الحرص، وعلى المجيء وحدك أو مع الشخص الأوحد الذي ستطلعينه عليه، وهل تعدينني بأن لا أراقب وبأن لا يلحق بي أحد؟»

فأجابتها روز: «أقسم لك على ذلك يميناً مغلظة.»

فقالت الفتاة في غير تردد: «كل يوم أحد مساء، من الساعة الحادية عشرة حتى الثانية عشرة، سوف أتمشَّى على جسر لندن، إن بقيتُ على قيد الحياة.»

فقاطعتها روز، حين رأتها تندفع نحو الباب: «ابقَيْ لحظة أخرى. فكِّري مرة أخرى في وضعك وفي الفرصة المتاحة لك للخلاص منه. إن عليّ التزامات نحوك، لا لأنك قد أقبلت من تلقاء نفسك لتنقلي إليَّ هذه المعلومات فحسب، بل لأنك فتاة ضائعة يكاد إنقاذها أن يكون مستحيلاً. أترجعين إلى عصابة اللصوص تلك وإلى ذلك الرجل على حين أن في ميسور كلمة واحدة أن تنقذك؟ أيّ سحر ذاك الذي يستطيع أن يردَّك إليهم، ويحملك على التعلق بالإثم والشقاء؟ أوه! أليس في فؤادك وتر أستطيع أن أمسَّه! ألم يبق فيك ما أستطيع أن أستنصره على هذا الشغف الرهيب!؟»

فأجابتها الفتاة في رباطة جأش: «حين تمنح فتاةٌ ـ في مثل نضارتك وطيبتك وجمالك ـ قلبها فإن الحب يذهب بها إلى أبعد الحدود ـ حتى ولو كان لهذه الفتاة، كما هو شأنك، بيت وأصدقاء ومعجبون آخرون يملأون عليها فؤادها. فلما بالكِ بمن هي مثلي أنا ـ أنا التي لا تعرف سقفاً آمناً غير غطاء التابوت والتي لا صديق لها في المرض أو الموت غير ممرضة المستشفى ـ حين يتعلق قلبها العفِن بأي رجل من الرجال وتدعه يملأ المكان الذي كان شاغراً طوال حياتها البائسة؟!. من ذا الذي يستطيع أن يشفيها، في هذه الحال، مِنْ وجْدها؟ ارثي لنا، أيتها السيدة، ارثي لنا

لأنه لم يبقَ لنا غير شعور أنثوي واحد، ولأن ذلك الشعور قد حُوِّل بالنسبة إلينا ـ بقضاء قاس ـ من أداة رفه واعتزاز إلى أداة جديدة من أدوات العنف والعذاب.»

فقالت روز بعد صمت: «أرجو أن تقبلي مني بعض المال الذي قد يمكّنك من العيش على نحو شريف ـ على الأقل ريثما نلتقي مرّة أخرى.»

فأجابتها الفتاة، ملوّحة بيدها: «لن آخذ بنساً واحداً.»

فقالت روز متقدمة نحوها في رفق: «لا توصدي قلبك في وجه جميع الجهود التي تُبذل لمساعدتك. إني أريد أن أخدمك حقاً.»

فأجابتها الفتاة وهي تعتصر يديها: «إن أعظم خدمة تستطيعين أن تقدميها إليّ، يا سيدتي، هي أن تقضي على حياتي في الحال. ذلك لأنني استشعرت هذه الليلة من الأسى لحقيقة حالي أكثر مما استشعرت في أيما وقت مضى، وإنه لشيء عظيم أن لا أموت في الجحيم الذي عشت فيه حتى الآن. فليباركك اللّه، أيتها السيدة الرقيقة، وليُنْزل على رأسك من السعادة مقدار ما أنزلتُهُ أنا على رأسي من العار!»

قالت المخلوقة التعسة ذلك، وزفرت زفرة عميقة، ثم مضت لسبيلها. بينا ارتمت روز مايلي (وقد ناءت تحت وطأة تلك المقابلة الاستثنائية التي بدت أقرب إلى حلم خاطف منها إلى حادثة واقعية) على أحد الكراسي، وحاولت أن تجمع شتات أفكارها.

الفصل الحادي والأربعون

وينطوي على اكتشافات جديدة، ويظهر أن المفاجآت ــ كالمصائب ــ نادراً ما تأتي فرادى

لقد كانت، في الواقع، تُقاسي محنة غير عادية. فبينما استشعرت أعظم الرغبة اللاهفة المتقدة في النفاذ إلى أعماق اللغز الذي غُلِّف فيه تاريخ أوليفر، لم تستطع إلا أن تصون حرمة السر الذي كانت المرأة

البائسة التي تحدثت إليها منذ لحظات قد أودعتها إياه، إذ وجدت فيها فتاة صريحة صادقة. كانت كلماتها وسيماؤها قد عطفتا فؤاد روز ماري، ولقد امتزج بحبها لمحميها الصغير ـ ولم يكن ليقلّ عنه صدقاً وحرارة ـ توقها العارمُ إلى إنقاذ الفتاة المنبوذة وردّها إلى حظيرة التوبة والأمل.

وكانوا يعتزمون البقاء في لندن ثلاثة أيام ليس غير ينطلقون بعدها، في رحلة تدوم بضعة أسابيع، إلى جزء قصيّ من ساحل البحر. وكان ليلُ اليوم الأول قد انتصف الآن. فأيّ خطة يمكن أن تعقد عزمها على استخدامها خلال ثمان وأربعين ساعة؟ أو كيف تستطيع أن ترجئ الرحلة من غير أن تثير الشكوك والظنون؟

كان مستر لوزبيرن معهم، وكان يعتزم أن يمكث طوال اليومين التاليين. ولكن روز كانت تعرف تهور السيد الفاضل معرفة اليقين، فاستطاعت أن تتمثل الغيظ الذي سوف يصبه ـ عند أول انفجار من انفجارات سخطه ـ على رأس الفتاة التي كانت وسيلة القبض على أوليفر من جديد، وأن تتمثل ذلك في وضوح شديد إلى حد جعلها تحجم عن إطلاعه على السر، خاصة وأن دفاعها عن الفتاة لا يمكن أن يعزّزه أيما شخص ذي خبرة وحنكة. وكانت هذه الأسباب نفسها تفرض عليها اصطناع أعظم الحذر وأشد الاحتراس في الإفضاء بالسر إلى مسز مايلي لأنها لا بدَّ أن تسارع لأول وهلة إلى التشاور في الموضوع مع الطبيب الفاضل. أما اللجوء إلى مستشار قضائي، حتى ولو عرفت كيف تباشر ذلك، فلم يكن وارداً، لتلك الأسباب نفسها. وخطر لها مرة أن تلتمس العون من هاري. ولكن هذا أيقظ عندها ذكريات فراقهما الأخير، وبدا لها أنه لا يليق بها أن تدعوه إلى العودة، على حين ـ وهنا ترقرقت الدموع في عينيها وهي تواصل هذا النهج من التفكير ـ ربما يكون الآن قد وجد الوسيلة إلى نسيانها، وإلى التمتع بعيداً عنها بقدر من السعادة أوفر.

وأقلقتها هذه الخواطر المختلفة، فكانت تنزع إلى انتهاج إحدى السبل حيناً، وإلى انتهاج سبيل أخرى حيناً، لتعود بعد فتنكص عن السبيلين

جميعاً، كلما تراءى لها اعتبار جديد. وسلخت روز ليلة أرقة قلقة. وبعد مزيد من التروية في الأمر صباح اليوم التالي انتهت إلى أنها لا تستطيع أن تستشير أحداً غير هاري.

لقد قالت في ذات نفسها: «إذا كان في العودة إلى هنا ما يوجعه فكم سيكون ذلك موجِعاً بالنسبة لي! ومن يدري، فلعله أن لا يجيء. إنه قد يكتب إليّ رسالة، وقد يجيء بنفسه ويجتنب، في احتراس بالغ، الاجتماع إليَّ، كما فعل عند انصرافه آخر مرة. أنا لم أتوقع ذلك منه قط، ولكن ما حدث كان خيراً لنا نحن الاثنين.» وهنا طرحت روز القلم، واستدارت وكأنها أرادت بذلك أن تخفي عبراتها حتى عن الورق الذي سيكون رسولها.

وكانت قد عاودت الإمساك بالقلم نفسه ثم طرحته وكررت ذلك خمسين مرّة، وكانت قد فكَّرت وأعادت التفكير في أول سطر من سطور رسالتها من غير أن تخط الكلمة الأولى عندما دخل الحجرة أوليفر الذي كان قد تمشَّى قبل ذلك في الشوارع وقد قام مستر جيلز منه مقام الحرس. والواقع أنه دخلها على عجلة لاهثة واهتياج عنيف بدا وكأنهما ينذران بداعية جديدة من دواعي الرعب.

وسألته روز وهي تتقدم للقائه: «ما الذي يجعلك تبدو على هذا الاضطراب كله؟»

فأجابها الغلام: «أنا لا أكاد أدري كيف حدث لي ذلك. وأني لأحس وكأنني سأختنق. أوه، يا عزيزتي! أنا لا أصدق نفسي كلما فكّرت في أنني وُفقت إلى رؤيته آخر الأمر، وإنه سوف يكون في ميسورك أن تستيقني أني قلت لك الحقيقة كاملة!»

فقالت روز وهي تحاول أن تهدئ من روعه: «أنا لم أحسب في أيما يوم من الأيام أنك قلت لنا شيئاً غير الحقيقة. ولكن ما المسألة؟ عمَّن تتكلم؟»

فأجابها أوليفر وهو لا يكاد يُبين: «لقد رأيت السيد الماجد... السيد

المحترم الذي أحسن إليّ أعظم الإحسان ـ مستر براونلو، الذي طالما تحدثنا عنه.»

فسألته روز: «أين؟»

فأجابها أوليفر وهو يسفح دموع الفرح: «رأيته يغادر مركبة من المركبات، ويدخل بيتاً من البيوت. أنا لم أتحدث إليه ـ أنا لم أستطع أن أتحدث إليه، لأنه لم يرني، ولأني ارتعدت ارتعاداً جعلني أعجز من أن أتقدم نحوه. ولكن جيلز سأل، بالنيابة عني، ما إذا كان يقيم هناك، ولقد قالوا إن نعم. انظري!» وهنا نشر أوليفر قصاصة من ورق. «هوذا عنوانه.. هوذا المكان الذي يقيم فيه ـ إني سوف أمضي إلى هناك على التو! أوه، يا إلهي، يا إلهي! ما الذي يتعيَّن عليّ أن أفعله حين أراه وأسمع صوته من جديد!»

وكان في هذه الكلمات وفي كثير غيرها من هتافات الفرح غير المتماسكة ما شتت أفكار روز تشتيتاً غير يسير. ولكنها مع ذلك قرأت العنوان: كرايفن ستريت، في الـ «ستراند». وسرعان ما عقدت العزم على الإفادة من هذا الاكتشاف.

فقالت: «عجِّل! قل لهم أن يستدعوا لنا مركبة أجرة، واستعدّ، سوف آخذك إلى هناك مباشرة، من غير أن أضيع دقيقة واحدة. وسأمضي لمجرد إخبار عمتي بأننا سوف نغيب عن البيت ساعة واحدة، ولسوف أكون على أتم الاستعداد للانطلاق حالما تصبح أنت جاهزاً.

ولم يكن أوليفر في حاجة إلى من يستحثَّه على الإسراع. وما هي غير خمس دقائق، أو يزيد قليلاً، حتى كانا في طريقهما إلى كرايفن ستريت. وحين انتهيا إلى هناك، تركت روز أوليفر في المركبة، بدعوى «إعداد» الرجل العجوز لاستقباله، وأسلمت بطاقتها إلى الخادم طالبة الاجتماع إلى مستر براونلو لمباحثته في مسألة ملحة جداً، وسرعان ما رجع الخادم ورجاها أن ترتقي السلم. فتبعته الآنسة مايلي إلى حجرة من حجرات الدور الأعلى حيث قُدِّمت إلى سيد عجوز ذي مظهر ينمّ عن الرقة

والعطف، مُرْتد سترة ذات لون أخضر غامق. وعلى مقربة منه كان يجلس سيد عجوز آخر يرتدي بنطالاً قصيراً من نسيج متين أصفر، ويطوِّق ساقيه بجرموق(*)، سيد لم تبدُ على سيمائه إمارات رقة وعطف صارخة، وقد جلس شابكاً يديه عند قمة عصا غليظة، مسنداً ذقنه فوقهما.

وقال السيد ذو السترة الخضراء الغامقة وقد سارع إلى النهوض في كياسة بالغة: «يا إلهي! أنا ألتمس عفوك، أيتها السيدة الصغيرة... لقد توهمت أن الوافد شخص ملحاح... أتضرع إليك أن لا تؤاخذيني. اجلسي، أرجوك.»

فقالت روز ناقلة طرفها من السيد الآخر إلى السيد الذي كان قد تكلم: «مستر براونلو، كما أعتقد يا سيدي؟»

فقال السيد العجوز: «هذا هو اسمي. وهذا هو صديقي مستر غريمويغ. هل لك أن تتركنا وحدنا بضع دقائق، يا غريمويغ؟»

فقاطعته الآنسة مايلي: «أعتقد أن لا حاجة، في هذه المرحلة من مقابلتنا، إلى أن أجشِّم ذلك السيد عناء الانصراف. وإذا صحت معلوماتي كان هو من الملمِّين بالمسألة التي أرغب في التحدث إليك عنها.»

وحنى مستر براونلو رأسه. فلم يكن من مستر غريمويغ ـ الذي كان قد انحنى انحناءة شديدة التصلب ونهض عن كرسيه ـ إلا أن انحنى انحناءة أخرى شديدة التصلب أيضاً، ثم غاص في كرسيه من جديد.

وقالت روز، في ارتباك طبيعي: «ليس من ريب في أن حديثي سيكون مفاجأة لك، ولكنك أظهرت في يوم من الأيام عطفاً بالغاً وأحسنت إحساناً عظيماً إلى صديق لي طريّ العود أثير عندي إلى أبعد الحدود، وأنا على يقين من أنك سوف تعنى بالاستماع إليه من جديد.»

فقال مستر براونلو: «من غير ريب.»

فأجابته روز: «وأنت تعرفه باسم أوليفر تويست.»

(*) الجرموق ضرب من الجوارب ويعرف عند العامة بـ «الغيتر».

ولم تكد هذه الكلمات تفارق شفتيها حتى عمد مستر غريمويغ ـ وكان قد تظاهر بالانكباب على مطالعة كتاب ضخم موضوع على المائدة ـ إلى إطراح ذلك الكتاب محدثاً جلبة كبيرة، ثم ارتدَّ مسنداً ظهره إلى ظهر كرسيه، طارداً من ملامحه جميع الانطباعات ما خلا انطباعة الدهش البالغ، واستغرق في تحديق متطاول شارد. ويبدو أنه استحيا من التكشُّف عن ذلك الانفعال كله، فنتَر نفسه ـ إذا جاز التعبير ـ بانتفاضة، مستعيداً سيماءه السابقة، وحدَّق النظر أمامه على نحو مستقيم مطلقاً صفرة طويلة عميقة بدت آخر الأمر وكأنها لم تطلق في الهواء الفارغ، بل ماتت في تجاويف معدته الأبعد غوراً.

ولم يكن مستر براونلو أقل دهشاً، على الرغم من أن دهشته لم يعبِّر عنها على ذلك النحو الشاذّ. لقد أدنى كرسيه إلى الآنسة مايلي وقال:

ـ «تكرمي عليَّ، يا سيدتي الصغيرة العزيزة، بالإغضاء إغضاء كاملاً عن الطيبة والإحسان اللذين تتحدثين عنهما، واللذين لا يعرف أيما امرئ شيئاً عنهما. وإذا كان في مستطاعك أن تقدمي إليَّ أيّ بيِّنة تغيِّر الرأي الرديء الذي أغريتُ ذات يوم بتكوينه عن ذلك الغلام البائس فإني أستحلفك باللّه أن تضعيها في متناولي.»

ـ «إنها خبيثة! وإني على استعداد لأن آكل رأسي نفسه إن لم تكن خبيثة!» كذلك زمجر مستر غريمويغ، متحدثاً بعض الشيء على طريقة من يتكلمون من بطنهم، من غير أن يحرك أية عضلة في وجهه.

فقالت روز وقد تضرّج وجهها: «إنه طفل ذو فطرة نبيلة، وفؤاد ودود. وإن تلك القدرة(*) التي رأت من المناسب أن تبلوه بمحن أكبر من سنِّهِ قد غرست في صدره عواطف ومشاعر خليقاً بها أن تشرِّف كثيرين ممن يبلغ عمرهم ستة أضعاف عمره.»

فقال غريمويغ، بنفس تلك السيماء الممتنعة على التأثر: «إن عمري

(*) تقصد القدرة الإلهية. (المعرب)

لا يزيد على إحدى وستين. ولما كان سن أوليفر اثني عشر عاماً على الأقل، إن لم يتدخل الشيطان في ذلك، فإني لا أرى على من تنطبق هذه الملاحظة.»

فقال مستر براونلو: «لا تلقي بالاً إلى صديقي، أيتها الآنسة مايلي. إنه لا يعني ما يقول.»

فزمجر مستر غريمويغ: «بل إنه يعني ذلك.»

فقال مستر براونلو وقد تعاظم غيظه، بوضوح: «لا، إنه لا يعنيه.»

فزمجر مستر غريمويغ: «إنه سوف يأكل رأسه نفسه إن لم يكن يعنيه.»

فقال مستر براونلو: «إن رأسه ذاك سيكون جديراً بأن تسدّد إليه ضربة قاضية إن فعل.»

فأجابه مستر غريمويغ قارعاً الأرض بعصاه: «ولن يُغضبه البتة أن يرى من يحاول الإقدام على ذلك كائناً من كان.»

حتى إذا ذهب السيدان العجوزان إلى هذا الحد أخذ كل منهما، بدوْره، قبضة من سعوط، ثم تصافحا وفقاً لمألوف عادتهما التي لا تحول ولا تتبدّل.

فقال مستر براونلو: «والآن، أيتها الآنسة مايلي، فلنعد إلى الموضوع التي تهتم إنسانيتك به هذا الاهتمام كله. هل لك أن تفضي إليّ بالنبأ الذي تحملينه عن هذا الطفل المسكين. ولكن اسمحي لي أن أعلِمك أولاً بأني استنفدت كل وسيلة ممكنة للعثور عليه، وأني منذ أن غادرت إنكلترة زُعزِعت انطباعتي الأولى التي كانت قد صوّرت لي أنه خدعني وأن رفاقه القدماء أقنعوه بسرقتي.»

فلم يكن من روز، التي كانت قد وجدت متسعاً من الوقت لجمع شتات أفكارها، إلا أن روت، في بضع كلمات بسيطة، كل ما أصاب أوليفر منذ مغادرته بيت مستر براونلو، محتفظة بمعلومات نانسي لكي

تخص بها أذن ذلك السيد وحده، خاتمة حديثها بالتوكيد أن مبعث حزنه الأوحد كان، طوال بضعة شهور خلت، هو تعذُّر اتصاله بصديقه ووليّ نعمته القديم.

فقال السيد العجوز: «شكراً للَّه! إن هذا يوقع في نفسي أعظم السعادة. أجل. أعظم السعادة. ولكنك لم تخبريني أين هو الآن، أيتها الآنسة مايل. اغفري لي... ولكن لماذا لم تصطحبيه إلى هنا؟»

فأجابته روز: «إنه ينتظر في مركبة واقفة على مقربة من الباب.»

ـ «على مقربة من هذا الباب؟» كذلك صاح السيد العجوز، واندفع مغادراً الحجرة، هابطاً السلم، وارتقى موطئ المركبة، ودخلها، من غير أن يقول أية كلمة أخرى.

وحين انغلق باب الحجرة خلفه رفع مستر غريمويغ رأسه، وحوّل إحدى قائمتي كرسيه الخلفيتين إلى محور، ورسم بمساعدة عصاه ومساعدة الطاولة ثلاث دوائر متوالية، غير مغادر كرسيه البتة. وبعد أن قام بهذه المناورة نهض، وراح يذرع الحجرة جيئة وذهاباً، بأسرع ما استطاع أن يذرعها، اثنتي عشرة مرة على الأقل، ثم وقف فجأة أمام روز، وقبَّلها من غير ما تمهيد البتة.

ـ «صه!» كذلك قال عندما نهضت الفتاة مذعورة بعض الشيء من هذا الصنيع الشاذ. «لا تخافي. أنا في مثل سن جدك. أنت فتاة لطيفة جداً. وإنك لتروقين لي. ها قد أقبلا!»

والواقع أنه لم يكد يرتمي غائصاً في كرسيه على نحو بارع حتى عاد مستر براونلو، يصحبه أوليفر، الذي استقبله مستر غريمويغ بلطف شديد. ولو قد كان الارتياح الذي غلب على نفس روز مايلي آنذاك هو المكافأة الوحيدة لكل القلق الذي عانته من أجل أوليفر والعناية التي أحاطته بها إذن لاعتبرت أنها نالت عن ذلك تعويضاً كافياً.

وقال مستر براونلو وهو يقرع الجرس: «بالمناسبة، هناك شخص آخر يجب علينا أن لا ننساه. أدع مسز بيدوين إلى هنا، من فضلك.»

ولبَّت مدبِّرة البيت العجوز الدعوة على جناح السرعة. وانحنت لدى الباب انحناءة احترام مغالى فيها، وانتظرت أوامر السيد.

فقال مستر براونلو في شيء من الشكاسة: «عجيب! إن قِصر بصرك ليزداد يوماً بعد يوم، يا بيدوين.»

فأجابت السيدة العجوز: «هذا صحيح، يا سيدي. إن أعين الناس، الذين هم في سني، لا تتحسَّن بتقدم العمر، يا سيدي.»

فأجابها مستر براونلو: «هذا شيء أعرفه جيداً. ولكن ضعي نظارتيك، وحاولي أن تعرفي لماذا استدعيتك..»

فشرعت السيدة العجوز تنقِّب في جيوبها بحثاً عن نظارتيها. ولكن صبر أوليفر لم يكن من القوة بحيث يصمد لهذا الاختبار الجديد. وهكذا استسلم لغريزته وارتمى بين ذراعي السيدة.

فصاحت السيدة العجوز وهي تعانقه: «فليغفر اللَّه لي! إن هذا هو ولدي البريء!»

فصاح أوليفر: «مربيتي العجوز العزيزة!»

فقالت السيدة العجوز وهي تطوقه بذراعيها: «لقد عرفت جيداً أنه سيعود. لشدّ ما يبدو وسيماً، وما أحسن بزته التي تخلع عليه من جديد سيماء ولد من أولاد السادة! أين كنت، طوال هذه المدة المديدة؟ آه! إني لأرى الوجه الحلو نفسه، ولكنه ليس على مثل ذلك الشحوب كله. وإني لأرى العينين الرقيقتين نفسيهما، ولكنهما ليستا على مثل ذلك الحزن كله. أنا لم أنسهما قط، ولم أنس ابتسامته الوادعة، ولكني رأيتها كل يوم، جنباً إلى جنب مع عيون وابتسامات أولادي الأحبة، الذين تخطَّفهم الموت منذ أن كنت مخلوقة مشرقة الوجه ناضرة العود.» قالت ذلك وغيره، مبعدة أوليفر عنها بعض الشيء، حيناً، لكي تكحِّل العين بقامته وامتلاء جسمه، ضامة إياه إلى صدرها حيناً آخر ومُمِرّة أصابعها في محبَة غامرة، وخلال ذلك كله كانت الروح الكريمة تضحك تارة وتسفح العبرات طوراً.

وتركهما مستر براونلو يتبادلان العواطف والانطباعات، على رِسلهما، وقاد روز إلى حجرة أخرى، حيث استمع إليها تروي حكاية مقابلتها مع نانسي كاملة، وهي رواية أوقعت في نفسه دهشةً وارتباكاً غير قليلين. وأوضحت روز أيضاً الأسباب التي جعلتها تحجم عن الإفضاء بالسرّ إلى صديقها مستر لوزبيرن قبل أي امرئ آخر. فقال السيد العجوز إنها أحسنت بذلك صنعاً وتصرّفت تصرفاً حكيماً. وأعلن عن استعداده للتشاور العاجل مع الطبيب الفاضل نفسه. ولكي تتيح له فرصة مبكرة تمكِّنه من القيام بذلك تم الاتفاق في ما بينهما على أن يُلمّ مستر براونلو بالفندق في الساعة الثامنة من ذلك المساء، على أن تحاط مسز مايلي في شيء من الاحتراس بكل ما كان قد حدث. حتى إذا اتُخِذت هذه التدابير التمهيدية، رجعت روز وأوليفر معها إلى منزلهما.

والحق أن روز لم تبالغ قط في تقدير مدى الغضب الذي كان خليقاً به أن يعصف بالطبيب لدى سماعه قصة نانسي. فما إن رُويت هذه القصة له حتى صب على رأسها وابلاً من الشتائم الممزوجة بالتهديدات، وتوعَّد بأن يجعلها أول ضحية من ضحايا عبقرية السيدين «بلاذرز» و«داف» المشتركة. وذهب إلى حدّ الاعتمار بقبعته تمهيداً للانطلاق لكي يلتمس مساعدة ذينك الرجلين الفاضلين. وليس من ريب في أنه كان من الممكن ـ في سَوْرة هذا الغضب الأولى ـ أن يضع نيته تلك موضع التنفيذ من غير أيما تدبُّر للعواقب، لو لم يُصَدّ عن ذلك بعنف مقابل من ناحية مستر براونلو الذي كان هو نفسه ذا مزاج نزق، وبحجج واستدلالات بدت وكأنها وُضعت خصيصاً لثنيِهِ عن عزمه الأحمق.

وقال الطبيب المتهوّر، عندما مضيا والتحقا بالسيدتين: «والآن ما الذي ينبغي ـ بحق الشيطان ـ أن نفعله؟ أيتعين علينا أن نقدّم اقتراحاً يقضي بإزجاء الشكر إلى جميع هؤلاء المتشردين ـ ذكوراً وإناثاً ـ ونتوسل إليهم أن يقبل كل منهم مئة جنيه، كدلالة متواضعة على تقديرنا لهم، وعلى سبيل التعبير الرمزي عن اعترافنا بأفضالهم على أوليفر؟!»

فأجابه براونلو ضاحكاً: «لا، ليس هذا تماماً. ولكن علينا أن نعالج الأمر في رفق وفي كثير من الاحتراس.»

فهتف الطبيب: «رفق واحتراس! أما أنا فأفضل أن أبعث بهم كلهم إلى...»

فقاطعه مستر براونلو: «ابعث بهم إلى حيث شئت، ولكنْ فكِّرْ ما إذا كان إرسالهم إلى ذلك المكان يساعدنا على تحقيق الغرض الذي وضعناه نصب أعيننا.»

فسأله الطبيب: «أيّ غرض؟»

ـ «إنه، بكل بساطة، اكتشاف أبوي أوليفر، وإعادة حقه في الإرث إليه، ذلك الحق الذي حُرِم منه ـ إن صحت هذه القصة ـ بطريقة احتيالية.»

فقال مستر لوزبيرن، وهو يهوِّي بمنديله على وجهه: «آه! لقد كدت أنسى ذلك.»

فتابع مستر براونلو: «أترى؟ وحتى إذا لم نأخذ هذه الفتاة البائسة بعين الاعتبار البتة، وعلى افتراض أن في الإمكان سوق أولئك الأوغاد إلى العدالة من غير أن نعرّضها للخطر، فهل تستطيع أن تقول لي أي خير نجنيه من مثل خطتك؟»

فأعلن الطبيب قائلاً: «شنق بعضهم على الأقل، ونفي الباقين.»

فأجابه مستر براونلو مبتسماً: «حسن جداً. ولكنهم لا بدّ أن يحفروا قبورهم بأظلافهم عندما يحين الأوان. وإذا ما حاولنا أن نسبقهم إلى أداء هذه المهمة كان عملنا هذا، في رأيي، عملاً جدّ دونكيشوتي، يتعارض مع مصلحتنا الذاتية ـ أو على الأقل مع مصلحة أوليفر، والنتيجة واحدة على أية حال.»

فسأله الطبيب: «كيف؟»

ـ «هكذا: إنه لمن الواضح جداً أننا سوف نجد عسراً بالغاً في النفاذ

إلى أعماق هذا اللغز إلا إذا وُفِّقنا إلى وضع هذا الرجل، مونكس، تحت رحمتنا. وهذا لا يمكن أن يتمّ إلا بمناورة خادعة، وبإيقاعه في الشرك حين يكون متوحداً لا يحيط به أحد من أولئك القوم. إذ ليس لدينا، على افتراض أننا ألقينا القبض عليه، أيّ دليل ضده. بل إنه لم يشارك العصابة (بقَدْر ما نعلم، أو كما تبدو الوقائع لنا) في أيّ من سرقاتها. فإذا لم تبرأ ساحتُهُ فمن غير المحتمل إلى أبعد الحدود أن يحكم عليه بعقوبة أقسى من السجن بتهمة الغش والتشرد. وليس من ريب في أن فمهُ سوف يكون بعد ذلك مُطبقاً إطباقاً عنيداً إلى درجة قد تجعله ـ بالنسبة إلى أغراضنا نحن ـ أصمّ، أبكم، أعمى، ومعتوهاً.»

فقال الطبيب في تهوّر: «إذن فإني أعيد طرح السؤال عليك من جديد: هل ترى من المنطق أن نعتبر أنفسنا ملزمين بهذا الوعد الذي أعطيناه للفتاة، وهو وعدٌ أوحت به نيَّات ليس أحسن منها ولا أكرم، ولكنه في الواقع...»

ـ «لا تناقشي هذا السؤال، يا سيدتي الصغيرة العزيزة، أرجوك!» كذلك قال مستر براونلو مقاطعاً روز وقد رآها تأخذ الإهبة للكلام. «إننا سوف نفي بالوعد. ولست أحسب أنه سوف يعوق إجراءاتنا البتة. ولكن من الضروري، قبل أن نوطِّن النية على سلوك أيما خطة عمل دقيقة، أن نجتمع إلى الفتاة، وذلك لكي نستيقن منها إذا كانت ترضى بأن تدلنا على مونكس ذاك، مع العلم أننا سوف نتولى أمره بأنفسنا ولن نلجأ في ذلك إلى العدالة. أما إذا أبت أن تفعل، أو كانت غير قادرة على أن تفعل، فعندئذ يتعيَّن علينا أن نستطلع منها ظنونه ومخابئه وأوصافه بحيث نتمكن من تبيُّنه والاهتداء إلى شخصه. وليس في ميسورنا أن نراها قبل ليل الأحد القادم، واليوم هو الخميس. من أجل ذلك اقترح أن نعتصم في غضون هذا بالهدوء الكامل ونبقي هذه الأشياء سراً لا نبوح لأحد به حتى لأوليفر نفسه.»

وعلى الرغم من أن مستر لوزبيرن تلقَّى في كثير من النكد والاشمئزاز

هذا الاقتراح المنطوي على تأخير مقدارهُ خمسة أيام كاملة، فقد اضطرّ إلى التسليم بأن أيما سبيل أفضل لم يخطر له في تلك اللحظة. وإذ أيدت كلٌّ من روز ومسز مايلي وجهة نظر مستر براونلو تأييداً قوياً، فقد أقِرّ اقتراح ذلك السيد المحترم بالإجماع.

وقال: «أنا أود أن أستعين بصديقي غريمويغ. إنه مخلوق غريب، ولكنه ذكيّ، وقد تثبت التجربة أنه قادر على مساعدتنا. وفي استطاعتي أن أقول إنه قد أصاب بعض الثقافة الحقوقية، ولم يعتزل المحاماة إلا بسبب من السخط الذي عصف به لأنه لم يتولَّ الدفاع ـ خلال عشرين عاماً ـ إلا في قضية واحدة ولم يقدّم غير استدعاء واحد. وعلى الرغم من أني أترك لكم أن تقرروا بأنفسكم ما إذا كان هذا دليلاً طيباً أم لا.»

فقال الطبيب: «ليس لديَّ أي اعتراض على استعانتك بصديقك إذا ما أجزت لي الاستعانة بصديقي.»

فأجابه مستر براونلو: «يتعيَّن علينا أن نطرح ذلك على التصويت. من هو صديقك؟»

ـ «إنه ابن تلك السيدة، وصديق قديم جداً... لهذه السيدة الصغيرة.» قال الطبيب ذلك، وهو يومئ إلى مسز مايلي، ويختم كلامه بنظرة معبِّرة وجَّهها إلى ابنة أخيها.

وتضرّج وجه روز تضرجاً شديداً، ولكنها لم تبدِ أي اعتراض مسموع على هذا الاقتراع (ولعلها استشعرت أنها لن تشكل غير أقلية ضئيلة جداً). وهكذا ضُمّ هاري مايلي ومستر غريمويغ إلى اللجنة.

وقالت مسز مايلي: «سوف نبقى في لندن، طبعاً، ما بقي ثمة أقلّ أمل في متابعة هذا التحقيق بشيء من إمكانية النجاح. وأنا لن أدّخر جهداً ولا مالاً في سبيل الغاية التي نحرص كلنا على بلوغها حرصاً عظيماً. ولسوف أرتضي البقاء هنا ـ ولو تطاول ذلك اثني عشر شهراً ـ ما دمتم تؤكدون لي أنه لا يزال ثمة أمل ما.»

فقال مستر براونلو: «حسن! وإذ كنت أرى على الوجوه التي تحيط بي نزوعاً إلى التساؤل كيف جاز لي أن أتوارى عن المسرح فلا أحقق في قصة أوليفر وكيف غادرت المملكة على ذلك النحو المفاجئ إلى أبعد الحدود، فدعوني أشترط عليكم أن لا توجهوا إليّ أيما سؤال حتى يحين الوقت الذي قد أرى فيه أن من المناسب أن أستبق تلك الأسئلة بسرد قصتي الشخصية. وصدقوني إذا قلت لكم إني أتقدم بهذا الطلب لسبب وجيه، ذلك بأني قد أثير ـ إذا ما اتبعت سبيلاً آخر ـ آمالاً مقدَّراً لها أن لا تتحقق البتة، ولن أزيد المصاعب والخيبات ـ وما أكثرها حتى في هذه اللحظة! ـ إلا تشابكاً وتعقيداً. هيَّا! لقد أعلِن أن العشاء أمسى جاهزاً، ولا بدَّ أن يكون أوليفر ـ المتوحِّد في الحجرة المجاورة ـ قد اعتقد أننا مللنا صحبته وعمدنا إلى تبييت مؤامرة تهدف إلى التخلي عنه وتسليمه إلى صروف الحياة القاسية.»

نطق السيد العجوز بهذه الكلمات وبسط يده إلى مسز مايلي، وقادها إلى حجرة الطعام. وتبعهما مستر لوزبيرن، وهو يقود روز بيده، وبذلك انفضّ الاجتماع، مؤقتاً، على نحو مثمر.

الفصل الثاني والأربعون

وفيه يصبح أحد أصدقاء أوليفر القدماء ـ بعد أن تكشف عن إمارات نبوغ صارخة ـ شخصية رسمية في العاصمة

في نفس الليلة التي هرعت نانسي خلالها ـ بعد أن أغرت مستر سايكس بالاستسلام للنوم ـ لأداء مهمتها التي فرضتها على نفسها، مهمة اطلاع روز مايلي على السرّ المتصل بأوليفر، تقدَّم نحو لندن من طريق «الجادَّة الشمالية» شخصان أرى من المناسب أن تعنى هذه القصة بأمرهما بعض العناية.

كانا رجلاً وامرأة، أو لعلنا نصفهما وصفاً أفضل إذا قلنا إنهما كانا ذكراً وأنثى. ذلك بأن أولهما كان من أولئك الناس ذوي الأرجل الطويلة، والرُّكَب الصَّدَف(*)، والمشية المتثاقلة، والأجساد المعروقة، والذين يعسر على المرء أن يحزر عمرهم الحقيقي، إذ يبدون وهم بعدُ صِبيةٌ صغار وكأنهم رجالٌ تأخّر نموهم، ويبدون وقد شارفوا الرجولة وكأنهم صِبيْة عجَّل بهم النمو. أما المرأة فكانت صغيرة السن ولكنها ذات بنية قوية مكينة، كما كان ينبغي لها أن تكون لكي تحمل تلك الصرة الثقيلة المشدودة إلى ظهرها بسَيْر من السيور. ولم يكن رفيقها مثقلاً بعبء مماثل، إذ كان قد اكتفى بتعليق رزمة صغيرة بطرف عصا ملقاة على كتفه، وهي رزمة كانت ملفوفة بمنديل عادي وكان يتراءى للناظر أنها خفيفة جداً. وهذه الواقعة زادت في طول رجليه اللتين كانتا من قياس غير مألوف، ومكَّنته ـ في يسر كثير ـ من أن يتقدم رفيقته خمس أو ست خطوات، فهو يلتفت إليها بين الفينة والفينة ناتراً رأسه على نحو ينمّ عن فروغ الصبر، وكأنه يؤنبها على تخلُّفها، ويحثها على بذل مجهود أعظم.

وواصلا، على هذا النحو، سبيلهما، من غير أن يلقيا بالاً إلى أيما شيء واقع تحت نظرهما، إلا عندما توقفا لكي يفسحا مجالاً أوسع لمركبات البريد التي كانت تغادر لندن بأقصى السرعة. حتى إذا مرّا تحت قوس «هايغايت» وقف أول المترحليْن وصاح مخاطباً رفيقته في صبر نافد:

ـ «عجِّلي.. ألا تستطيعين؟ أية كسول أنتِ، يا شارلوت!»

ـ «إنها صرّة ثقيلة... في استطاعتي أن أؤكد لك ذلك.» قالت الأنثى هذه الكلمات، وهي تسرع الخطى لكي تدركه، لاهثة من أثر التعب.

ـ «ثقيلة! عمّ تتكلمين؟ لأي شيء خُلِقتِ إذن؟» كذلك أجابها المترحل الذكر وهو ينقل رزمته الصغيرة إلى الكتف الأخرى. «أوه، ها

(*) الصَدَف: بفتح الصاد والدال، إقبال إحدى الركبتين على الأخرى.

أنت تعودين إلى التوقف والتماس الراحة! حسناً، إذا لم تكوني أنتِ أقدر من يُخرج المرء عن طوره فعندئذ أكون أجهل الناس بأخلاق النساء!»

ـ «ألا يزال المكان بعيداً جداً؟» كذلك سألته المرأة وهي تجلس على أحد المقاعد الخشبية، رافعة بصرها وقد تفصَّد العرق من وجهها.

فقال الساري ذو الرجلين الطويلتين وهو يشير ببنانه إلى أمام: «بعيد جداً؟ انظري! ها هي ذي أضواء لندن!»

فقالت المرأة في قنوط: «إنها تقع على مسافة ميلين كاملين على الأقل.»

فقال نوح كلايبول، إذ كان ذلك المترحل هو نوح كلايبول نفسه: «قد تكون على مسافة ميلين وقد تكون على مسافة عشرين، فإن هذا لا يقدم ولا يؤخر. المهم أن تنهضي وتواصلي السير، وإلا رفستك بقدمي. وهكذا أكون قد أنذرتك.»

وإذا تعاظم إحمرار أنف نوح الأحمر من جراء الغضب، وعبر الطريق فيما هو يتكلم وكأنما هو على أتم الاستعداد لوضع تهديده موضع التنفيذ، نهضت المرأة من غير أن تنطق بأية كلمة إضافية، وراحت تجرر قدميها إلى جانبه. وسألته بعد أن قطعا بضع مئات من الياردات: «أين تعتزم أن تبيت هذه الليلة. يا نوح؟»

ـ «ومن أين أعلم؟» كذلك أجابها نوح، الذي كان قد أفسد مزاجه إفساداً شديداً.

فقالت شارلوت: «أرجو أن يكون قريباً من هنا.»

فأجابها مستر كلايبول: «لا، إنه غير قريب. أسمعتِ، إنه غير قريب، فلا تتوهميه قريباً.»

ـ «ولم لا؟»

فأجابها مستر كلايبول في عظمة: «عندما أقول لكِ إني لا أريد أن أعمل شيئاً ما فيجب أن يكون هذا كافياً، وأن لا يُرْدف بلماذا وكيف.»

فقالت رفيقته: «حسناً، لا داعي إلى الاستسلام للغضب على هذا النحو.»

فقال مستر كلايبول في لهجة ساخرة: «كم يكون جميلاً أن نذهب ونحطّ الرحال في أول حانة قائمة خارج المدينة بحيث يستطيع ساواربيري ـ إذا ما لحق بنا ـ أن يُقحم أنفه العجوز ويرجع بنا في عربة من العربات والأصفاد في أيدينا! لا، سوف أمضي وأغيِّب نفسي في أضيق الشوارع التي تقودني إليها قدماي، ولن أكفّ عن الضرب في الأرض حتى نصل إلى أنأى بيت تستطيع أن تقع عليه عيناي وأبعده عن عيون الناس. وعلى أية حال، في استطاعتك أن تشكري نجومك على أمر، وهو أن في رأسي مخاً. إذ لو لم نسلك منذ البدء ـ وعن سابق تصور وتصميم ـ الطريق المغلوط ونرجع مرّة أخرى عبر الريف إذن لكان خليقاً بك أن تجدي نفسك، منذ أسبوع، حبيسة في زنزانة ضيقة، يا سيدتي. وإذن لكان جديراً بهذا أن يعلِّمك كيف تتظاهرين بالبله.»

فأجابته شارلوت: «أنا أعرف أني لا أبلغ من الدهاء مبلغك. ولكن لا تلقِ اللوم كله عليّ، ولا تقل إنه كان أحرى بي أن أجد نفسي سجينة في زنزانة. ولكنت أنت ستنتهي إلى المكان نفسه لو قدِّر عليّ ذلك.»

فقال مستر كلايبول: «إنكِ أنتِ التي أخذت المال من الصندوق. وأنت تعرفين ذلك جيداً.»

فأجابته شارلوت: «لقد أخذته من أجلك، يا عزيزي نوح.»

فسألها مستر كلايبول: «وهل احتفظتُ به؟»

ـ «لا. لقد وثقت بي، وتركتني أحمله مثل رجل يؤثرني بالحب. وإنك لكذلك فعلاً.» هكذا قالت السيدة، وهي تربِّت على أدنى ذقنه، وتضع ذراعها في ذراعه.

وكان ذلك هو الواقع. ولكن لمَّا لم يكن من عادة مستر كلايبول أن يثق ثقة عمياء بأي إنسان فيتعيّن علينا أن نلاحظ، إنصافاً لذلك السيد

المحترم، إنه كان قد وثق بشارلوت إلى هذا الحد على سبيل الحذر والاحتياط، بحيث يعثر على المال ـ إذا ما تعقّبهما أحد ـ مع تلك المرأة لا معه هو، وهذا ما يتيح له فرصة التوكيد على براءته من أيما سرقة، ويسهل له إمكانية الفرار تسهيلاً كبيراً. وليس من ريب في أنه لم يحاول في تلك اللحظة أن يقدِّم أي تفسير لدوافعه. فواصلا السير معاً في مودّة بالغة.

وانسجاماً مع هذه الخطة الحذرة، تابع مستر كلايبول مسيره من غير ما توقف حتى وصلا إلى الـ «آينجيل» في «آيلينغتون» حيث قدر في حكمة بالغة ـ من حشود المشاة ومن عدد المركبات ـ إن لندن قد بدأت جدياً. ولم يكف عن السير إلا لحظة واحدة ليلقي نظرة على ما بدا له وكأنه أشد الشوارع ازدحاماً، وبالتالي أدعاها إلى التحفظ والاجتناب، ثم تقدم نحو طريق سانت جون، وسرعان ما خوض في ظلمة الدروب القذرة الملتوية التي جعلت هذا الحي ـ بوقوعها بين «غرايز إن لان» و«سميثفيلد» ـ واحداً من أحقر وأسوأ الأحياء التي تركها الرقيّ قائمة في قلب لندن.

خلال هذه الشوارع مشى نوح كلايبول، جاراً شارلوت خلفه. هابطاً حيناً إلى قناة الشارع لكي يحيط بنظرة واحدة بكامل المظهر الخارجي لأحد النُزل الصغيرة، مستأنفاً سيره المتثاقل حيناً آخر، إذا ما حملته بعض الدلائل المتوهَّمة على الاعتقاد بأن ذلك النُزل جدّ مطروق. بالنسبة إلى أغراضه هو. وأخيراً وقف قبالة نُزل أحقر مظهراً وأشد قذارة من جميع نظائره التي وقع بصره عليها حتى ذلك الحين. وبعد أن عبر الشارع وألقى عليه نظرة من جانب الرصيف المقابل تلطّف فأعلن عن اعتزامه المبيت هناك، تلك الليلة.

ـ «أعطيني الصرة إذن!» كذلك قال نوح وهو يحلّ عقدة سيرها عن كتفي المرأة، ويلقيه على كتفيه هو. «ولا تتكلمي البتة. إلا إذا وُجِّه إليك الخطاب. ما اسم هذا النزل؟... حانة الثـ... الثلاثة؟ ثلاثة ماذا؟»

فقالت شارلوت: «حانة المقعدين الثلاثة.»

فكرّر نوح: «حانة المقعدين الثلاثة. ولافتة ممتازة أيضاً. والآن، هيا! اتبعيني على الأثر، ولندخل.» حتى إذا أطلق هذا التنبيه دفع الباب المصلصل بضربة من كتفه، ودخل النزل تتبعه رفيقته.

لم يكن ثمة أحد عند المشرب غير يهودي شاب كان يقرأ ـ مُسْنداً مرفقيه إلى المنضدة ـ جريدة قذرة. فحدَّق إلى نوح تحديقاً شديداً، وحدق إليه نوح بدوره تحديقاً شديداً.

ولو قد كان نوح مرتدياً بزّته الخاصة بصِبْية مدارس الإحسان إذن لكان ثمة سبب يفسّر تحديق اليهودي إليه على ذلك النحو. ولكن نوحاً كان قد رمى السترة والشارة، وارتدى قميصاً فضفاضاً قصيراً فوق بنطاله الجلدي، ومن أجل ذلك لم يكن ثمة أي موجب لأن يثير ظهوره في نزل أو حانة كل هذا الاهتمام.

وسأل نوح: «أهذه حانة المقعدين الثلاثة؟»

فأجابه اليهودي: «أجل، هذا هو اسم الحانة.»

ـ «لقد نصحنا سيد لقيناه في الطريق، ونحن قادمون إلى لندن، بأن نجيء إلى هنا.» كذلك قال نوح، وهو يلكز شارلوت بمرفقه، إما لكي ينبِّهها إلى هذه الوسيلة البارعة لاكتساب الاحترام وإما لكي يحذّرها من التكشُّف عن أيما دهش. «إننا نريد أن نبيت هنا الليلة.»

فقال بارني ـ إذا كان هو اليهودي الصغير القائم عند المشرب: «لست واثقاً من أن في استطاعتك ذلك. ولكني سوف أسأل.»

فقال نوح: «قدْنا إلى حجرة الطعام وقدّم إلينا قطعة من اللحم البارد وقطرة من الجعة ريثما تسأل، أرجوك.»

فنزل بارني عند رغبته، فقادهما إلى حجرة خلفِّية صغيرة ووضع أمامهما حاجتهما من اللحم والجعة. حتى إذا تم له ذلك أعلم المسافرين أن في ميسورهما أن يبيتا في النزل تلك الليلة، وغادر الرفيقين الودودين لينعما بطعامهما وشرابهما.

وإنما كانت تلك الحجرة الخلفية قائمة وراء المشرب مباشرة، ولكنها أدنى منه ببضع درجات، بحيث كان في ميسور أيما شخص ذي صلة بالمؤسسة ـ بمجرد إزاحته ستارة صغيرة كانت تحجب لوحاً زجاجياً مفرداً مُثْبتاً في جدار الحجرة المشار إليها، على ارتفاع خمسة أقدام تقريباً من أرضيتها ـ أقول كان في ميسور أيما شخص ذي صلة بالمؤسسة أن يختلس النظر إلى نزلاء الحجرة الخلفية من غير أن يتعرض أمره للافتضاح. (إذ كان اللوح الزجاجي مثبتاً في زاوية من الجدار مُعتمة وكان المراقب يقحم نفسه بينها وبين عارضة خشبية ضخمة عمودية.) ليس هذا فحسب، بل لقد كان في ميسور ذلك الشخص، إذا ما وضع أذنه على الحاجز، أن يتبيَّن في شيء من الوضوح موضوع الحديث الدائر بينهم. والواقع أن صاحب النزل كان قد رفع بصره عن كوة التجسس تلك منذ خمس دقائق ليس غير، وأن بارني كان قد نقل ـ منذ لحظة أو لحظتين ـ ذلك النبأ الذي ذكرناه إلى الوافديّن الجديدين، عندما أقبل فاجين على المشرب ـ في سياق أعماله الليلية المعتادة ـ ليسأل عن بعض تلامذته الصغار.

وقال بارني: «صه! إن في الحجرة المجاورة بعض الغرباء.»

فكرر الرجل العجوز في همس: «غرباء!»

فأضاف بارني: «آه، غرباء من أهل الريف، ولكنهم من النوع الذي يهمك أمره، إلا إذا كنت مخطئاً.»

وتلقى فاجين هذا النبأ ـ في ما بدا ـ بكثير من الاهتمام. فوقف على كرسي خفيض لا ظهر له، واختلس النظر عبر اللوح الزجاجي، فإذا به يرى، من خلال ذلك الموقع السريّ، إلى مستر كلايبول وهو يأكل قطعة لحم بقري من الطبق، ويحتسي بعض الجعة الدُّون من الكوز، ويقدّم مقادير ضئيلة من هذه وجرعات طفيفة من تلك إلى شارلوت التي جلست إلى جانبه معتصمة بالصبر، فهي لا تأكل ولا تشرب إلا حين يشاء لها صاحبها أن تفعل.

وهمس ملتفتاً إلى بارني: «آها! إن ملامح ذلك الفتى تعجبني. ولا

ريب في أنه سوف يكون ذا نفع لنا، إنه يعرف كيف يروِّض تلك الفتاة. إلزم الصمت، كن صموتاً يا عزيزي، مثل فأرة، ودعني أسمعهما يتحدثان. . . دعني أسمعهما.»

وركَّز عينه على الزجاج مرّة أخرى، وأدار أذنه نحو الحاجز وأرهف السمع، وقد غلبت على وجهه سيماء خبيثة نهمة جديرة بعفريت عجوز.

ـ «وهكذا فإني أعتزم أن أصبح سيداً ممحترماً،» كذلك قال مستر كلايبول باسطاً ساقيه في قوة وعنف، مواصلاً محادثة فات «فاجين» سماعُ الجزء الأول منها. «لن يكون ثمة بعد اليوم أية توابيت عتيقة ظريفة، يا شارلوت، ذلك إني سوف أنعم بحياة كحياة السادة المحترمين. أما أنت، فسوف أجعل منك، إذا شئتِ، سيدة جليلة.»

فأجابته شارلوت: «إني لشديدة التوق إلى ذلك، يا عزيزي. ولكننا لا نقع كل يوم على خزائن مال نستطيع أن نُفْرِغها، وليس في ميسورنا أن ننفق عمرنا في محاولة الفرار بعد ذلك.»

فقال مستر كلايبول: «فليأخذ الشيطان خزائن المال تلك! إن ثمة أشياء أخرى، غير خزائن المال، يمكن أن تُفْرغ.»

فسألته رفيقته: «ماذا تعني؟»

فقال مستر كلايبول، وقد أهاجته الجعة الدُّون: «الجيوب، وأكياس النساء الشبكية، والبيوت، ومركبات البريد، والمصارف!»

فقالت شارلوت: «ولكنك لا تقدر على أداء ذلك كله، يا عزيزي.»

فأجابها نوح: «لن أعدم الوسيلة للاتصال بمن يقدرون. ولسوف يكون في ميسورهم أن يفيدوا من خدماتنا بطريقة أو بأخرى. ولا عجب، فأنت نفسكِ تساوين خمسين امرأة. فأنا لم أر في حياتي مخلوقة أقدر منكِ على اصطناع المكر والدهاء حين أجيز لك ذلك.»

فهتفت شارلوت وهي تطبع على وجهه البشع قبلة. «يا إلهي، كم هو جميل أن أسمعك تقول هذا الكلام!»

ـ «حسن، هذا يكفي. لا تكوني مسرفة في التودّد إذا ما ثارت ثائرتي عليك.» كذلك قال نوح متملصاً منها في رصانة بالغة. «إني لأتوق إلى أن أكون رئيس عصابة ما، أوسع أفرادها ضرباً، وأن أتبعهم إلى كل مكان من غير أن يدروا. إن ذلك العمل ليناسبني، إذا ما عاد عليّ بربح وفير. ولو وُفقنا إلى التفاوض مع أناس من هذا النوع لوجدتُ أن ذلك يستحق أن ندفع في سبيله ورقة العشرين جنيهاً التي معك... خاصة وإننا لا نكاد نعرف كيف نتخلص منها بوسائلنا الشخصية.»

عبَّر مستر كلايبول عن رأيه هذا وأنشأ يتأمل كوز الجعة الدُّون في سيماء ترشح بالحكمة البالغة. حتى إذا هزّ محتوياته هزاً قوياً، تلطَّف وأومأ برأسه إلى شارلوت، وأخذ جرعة بدا بعدها وقد انتعش انتعاشاً كبيراً. وكان يفكِّر في أخذ جرعة أخرى عندما حال بينه وبين ذلك انفتاح الباب على نحو مفاجئ، وظهور رجل غريب.

كان ذلك الغريب هو مستر فاجين. ولشدّ ما كان وجهه أنيساً متودداً! ولشدّ ما غالى في الانحناء تحية لهما! ثم إنه تقدم، وجلس عند أقرب مائدة، وسأل بارني المبتسم ابتسامة عريضة أن يأتيه بشيء من شراب.»

ـ «إنها ليلة لطيفة، يا سيدي، ولكنها باردة بعض الشيء بالنسبة إلى الفصل الذي نحن فيه من السنة.» كذلك قال فاجين وهو يفرك يديه. «لقد أقبلتما من الريف، في ما أرى، أليس كذلك يا سيدي؟»

فسأل نوح كلايبول: «وكيف عرفت ذلك؟»

فأجابه فاجين مشيراً إلى حذاء نوح وحذاء رفيقته، ثم إلى الصرَّتين الاثنتين: «ليس عندنا في لندن هذا المقدار كله من الغبار.»

فقال نوح: «إنك ذكي. ها! ها! اسمعي ما قاله، يا شارلوت!»

ـ «لا تعجب، فالمرء مضطر إلى أن يكون ذكياً في هذه المدينة، يا عزيزي.» كذلك أجابه اليهودي مخفِّضاً صوته حتى الهمس. «تلك هي الحقيقة.»

واتبع فاجين هذه الملاحظة بضرب جانب أنفه بسبابته اليمنى ـ وهي حركة حاول نوح أن يقلدها، وإن لم يوفق في ذلك إلى نجاح كامل، لأن أنفه لم يكن كبيراً إلى حدّ واف بذلك الغرض. وأياً ما كان، فقد بدا مستر فاجين وكأنه اعتبر تلك المحاولة تأييداً كاملاً لوجهة نظره، وقدَّم إليهما، على نحو ودِّي جداً، تلك الخمر التي كان بارني قد جاءه بها.

ولاحظ مستر كلايبول وهو يتمطَّق: «إنها من صنف ممتاز،»

فقال فاجين: «بل إنها غالية. وإن المرء ليحتاج إلى أن يقضي عمره وهو يفرغ خزانة من خزائن المال، أو جيباً من الجيوب، أو كيساً شبكياً من أكياس النساء، أو بيتاً، أو مركبة بريد، أو مصرفاً، إذا ما تعوّد أن يشربها على نحو نظاميّ.»

ولم يكد مستر كلايبول يسمع هذه النبذة المختارة من ملاحظاته الخاصة حتى ارتمى على ظهر كرسيه ونقل طرفه من اليهودي إلى شارلوت وعلى وجهه إمارات شحوب رمادي وذعر مفرط.

وقال فاجين وهو يدني كرسيه إدناء أشدّ: «لا يأخذنك الروع مني، يا عزيزي. ها! ها! لقد كان من حسن حظك أن أحداً لم يسمعك، مصادفة، غيري أنا. لقد كان هذا من حسن حظك حقاً.»

ـ «أنا لم آخذ المال.» كذلك غمغم نوح متلعثماً، من غير أن يبسط قدميه في قوة مثل رجل ثريّ من السادة المحترمين. والواقع أنه طواهما تحت كرسيه أحسن ما استطاع أن يطويهما. «إنها هي التي فعلت ذلك كله. والمال هو معك الآن، يا شارلوت... أنت تعرفين ذلك جيداً.»

فأجابه فاجين، ملقياً برغم هذا نظرة أشبه بنظرة الصقر على الفتاة والصرتين: «ليس يهمني أن أعرف من الذي يحمل المال ومن الذي أخذه، يا عزيزي! إني أنا نفسي من أهل هذه المهنة، وإني لأحبكما من أجل ذلك.»

فسأله مستر كلايبول وقد استردَّ شيئاً من طمأنينة النفس: «من أهل أية مهنة؟»

فأجابه فاجين: «من أهل تلك المهنة نفسها. وكذلك أصحاب هذا النزل. لقد أصبت المرمى، وإنك لآمنٌ هنا إلى أبعد الحدود. والواقع أنه ليس في هذه المدينة كلها مكان أكثر أمناً من حانة المقعدين الثلاثة، أعني حين يروق لي أن أجعلها كذلك. ولقد أولِعْتُ بك وبالسيدة الفتية. وهكذا أكون قد قلت كلمتي، وفي استطاعة قلبيكما الآن أن يطمئنا.»

وجائز أن يكون قلب نوح كلايبول قد اطمأن بعد هذا التوكيد، ولكن جسده لم يكن مطمئناً من غير ريب. ذلك بأنه اضطرب وتلوّى متخذاً أوضاعاً مرتبكة، فيما كان يحدج صديقه الجديد بنظرات امتزج فيها الخوف والشك.

وقال فاجين بعد أن طمأن الفتاة بإيماءات رأسه الودية وأنواع التشجيع التي أطلقها في صوت خفيض: «إن لي صديقاً يستطيع في ما أعتقد أن يشبع رغبتكما العزيزة على قلبيكما، ويعلّمكما مبادئ المهنة. وفي استطاعتكما بادئ الأمر أن تتخيَّرا الشعبة التي تعتقدان أنها تناسبكما أكثر من غيرها، على أن تمارسا العمل بعد ذلك في سائر الشُّعب.

فأجابه نوح: «أنت تتكلم وكأنك جادّ.»

فتساءل فاجين وهو يهز كتفيه: «وأية فائدة أجنيها من الكلام الذي يعوزه الجِدّ؟ هيَّا! دعني أقول لك كلمة في الخارج.»

فقال نوح وهو يسحب رجليه تدريجياً من تحت الطاولة: «ليس ثمة ما يحملنا على أن نجشِّم نفسينا عناء الحركة. إنها سوف تحمل الأمتعة، في خلال ذلك، إلى الدور الأعلى. شارلوت، انقلي الأمتعة إلى فوق.»

والواقع أنه أصدر إليها هذا الأمر في كثير من العظمة والجلال، فامتثلته شارلوت من غير اعتراض البتة. وانصرفت حاملة الأمتعة على أسرع وجه ممكن، بينا أبقى نوح الباب مفتوحاً وراقبها وهي تمضي لسبيلها.

ـ «إنها مروَّضة على الخضوع ترويضاً حسناً، أليس كذلك؟» هكذا

سأله، وهو يعاود الجلوس في كرسيه، بنبرة مروِّض وُفق إلى تدجين حيوان مفترس.

فأجابه فاجين وهو يربت على كتفه: «هذا صحيح، مئة بالمئة. أنت عبقري، يا عزيزي.»

فقال نوح: «لو لم أكن كذلك لما كنت هنا، في ما أحسب. ولكنها سوف ترجع إذا ما أضعنا الوقت.»

فقال فاجين: «والآن، ما رأيك؟ إذا ما أعجبك صديقي فهل تستطيع أن تعمل شيئاً خيراً من الانضمام إليه؟»

فأجابه نوح غامزاً بإحدى عينيه: «أهو ناجح في أعماله؟ هذا هو السؤال الأهم.»

ـ «إنه في قمة النجاح. وهو يستخدم عدداً ضخماً من المعاونين. وله صلات بأفضل المشتغلين في هذه المهنة.»

فسأله مستر كلايبول: «أهم لندنيون حقيقيون؟»

فأجابه فاجين: «ليس بينهم ريفيّ واحد. ولولا أنه يشكو في الوقت الحاضر نقصاً في المعاونين إذن لكان خليقاً به أن يعتذر عن قبولك، على الرغم من توصيتي أنا.»

فقال نوح وهو يضرب جيب بنطاله القصير براحة يده: «أيتعيَّن عليّ أن أدفع له؟»

فأجابه فاجين بلهجة حاسمة إلى أبعد مدى: «ليس في الإمكان تحقيق ذلك بأية وسيلة أخرى.»

ـ «هذه عشرون جنيهاً... ذلك مبلغ ضخم!»

فرد عليه فاجين: «ليس حين يكون المبلغ على شكل ورقة نقدية لا تستطيع التخلُّص منها. لقد أخِذ رقم الورقة وتاريخها، في ما أحسب؟ ولسوف يعارض البنك في صرفها! آه! إنها لن تكون ذات قيمة كبيرة بالنسبة إلى صديقي. إن عليه أن يبعث بها إلى ما وراء البحار، ولن يكون في استطاعته أن يبيعها هنا في السوق بثمن كبير.»

فسأله نوح في ارتياب: «ومتى أستطيع أن أراه؟»

ـ «غداً صباحاً.»

ـ «أين؟»

ـ «هنا.»

فقال نوح: «أمممم! وما الراتب؟»

فأجابه مستر فاجين: «أن تعيش مثل سيد محترم ـ الطعام والمبيت، والتبغ والخمر بالمجان ـ ونصف كل ما تكسبه أنت، ونصف كل ما تكسبه المرة الفتية.»

ولو قد كان نوح كلايبول، ذو الجشع المتطرف، مالكاً كامل الحرية في اتخاذ القرار الذي يشاء إذن لكان سيرفض في أغلب الظن الموافقة حتى على هذه الشروط المغرية. أما وقد تذكَّر أن في وسع هذا الصديق أن يُسلمه في الحال ـ إذا ما رفض الموافقة ـ إلى العدالة (ولقد حدثت من قبل أشياء أغرب من هذا) فسرعان ما لان على نحو تدريجي، وقال إن تلك الشروط تلائمه.

ولاحظ نوح: «ولكن لما كانت قادرة، كما ترى، على النهوض بأعباء كثيرة فإني أرغب في النهوض بعبء خفيف جداً.»

فاقترح فاجين: «بعض أشغال الإبرة الزخرفية مثلاً؟»

فأجابه نوح: «آه! شيء من هذا القبيل. ما الذي تحسبه ملائماً لي الآن؟ شيء غير مرهق جداً، للقوة البدنية، وغير خطِر جداً، كما تعلم. ذلك هو النوع الذي أريده.»

فقال فاجين: «لقد سمعتك تتكلم عن شيء ما في حقل التجسُّس على الآخرين، يا عزيزي. وإن صديقي لفي حاجة ماسَّة إلى من يحسن القيام بهذه المهمة.»

فأجابه مستر كلايبول في أناة: «يا إلهي! لقد ذكرت ذلك فعلاً. ولست أمانع في أن أقوم بهذه الخدمة بين حين وآخر. ولكن هذا لا يعود عليّ، وحده، بدخل كاف كما تعلم.»

فلاحظ اليهودي، متأملاً أو متظاهراً بالتأمل: «هذا صحيح. إنه قد لا يعود عليك بدخل كاف.»

فسأل نوح، ناظراً إليه في لهفة وقلق: «ما رأيك إذن؟ شيء من نوع النشل، حيث الربح مضمون، وحيث الخطر لا يزيد كثيراً على خطر البقاء في البيت.»

فقال فاجين: «ماذا تقول في السيدات العجائز؟ إن في إمكان المرء أن يكسب مالاً كثيراً من طريق انتزاع حقائبهم وصُررهن، والفرار إلى زاوية الشارع.»

فسأله نوح وهو يهز رأسه: «لا يُعولن كثيراً، ويَخْدِشْن في بعض الأحيان؟ لست أعتقد أن هذا يفي بأغراضي. أليس هناك طرائق أخرى يستطيع المرء أن يختارها؟»

فقال فاجين واضعاً يده على ركبة نوح: «انتظِر! سلب الأحداث.»

فسأله مستر كلايبول: «وما ذاك؟»

فقال فاجين: «الأحداث، يا عزيزي، هم الأطفال الصغار الذين تبعث بهم أمهاتهم في مهام معيَّنة، بعد أن يزوّدنهم بأنصاف الشلنات أو بالشلنات. والسلب هو مجرد انتزاع المال منهم ـ وهم يحملونه دائماً في أيديهم ـ وإيقاعهم في الساقية، ثم مواصلة السير في بطء وكأن كل ما حدث يتلخص في أن ولداً قد سقط في القناة فأصيب ببعض الأذى. ها! ها! ها!»

ـ «ها! ها!» كذلك هدر مستر كلايبول رافساً برجليه كمن استخفَّه الطرب. «يا إلهي! هذا ما كنت أبحث عنه على وجه الضبط.»

فأجابه فاجين: «أجل، هذا هو من غير ريب. وفي استطاعتك أن تقوم ببضع جولات في «كامدن تاون» و«باتل بريدج»، وأحياء أخرى مماثلة، حيث تجد دائماً أطفالاً بعثتهم أمهاتهم لأداء بعض المهام. هناك تستطيع أن توقع في الساقية أيّ عدد منهم تشاء، في أي ساعة من ساعات النهار. ها! ها! ها!»

قال فاجين هذا ووكز مستر كلايبول بمرفقه، فاشتركا في عاصفة من الضحك طويلة مدوّية.

وقال نوح وقد استرد رصانته بعد أن عادت شارلوت: «حسن، هذا ممتاز. غداً، في أية ساعة؟»

ـ «الساعة العاشرة، هل يناسبك هذا الموعد؟» كذلك سأله فاجين، ثم أضاف حين أومأ مستر كلايبول إيماءة الموافقة، «ما الاسم الذي يتعيَّن أن أقدّمه إلى صديقي الطيب؟»

فأجابه نوح، الذي كان قد أعدّ نفسه لمثل هذا الطارئ: «مستر بوتلر! مستر موريس بوتلر. وهذه مسز بوتلر.»

ـ «إني أعتبر نفسي الخادم الحقير لمسز بوتلر!» كذلك قال فاجين وهو ينحني في كياسة كاريكاتورية مضحكة. «وأرجو أن تتيح لي الأيام المقبلة أن أعرفها معرفة أحسن.»

فأرعَد مستر كلايبول: «أتسمعين ما يقوله السيد، يا شارلوت؟»

فأجابته مسز بوتلر، باسطة يدها: «أجل، يا عزيزي نوح!»

ـ «إنها تدعوني نوح، على سبيل التحبُّب،» كذلك قال مستر موريس بوتلر، كلايبول سابقاً، وهو يلتفت إلى فاجين. «هل فهمت؟»

فأجابه فاجين، ناطقاً بالصدق للمرة الأولى: «أوه، نعم، لقد فهمت... فهماً كاملاً. طاب مساؤك! طاب مساؤك!»

وبعد عبارات توديع كثيرة وتمنيات طيبة وافرة مضى مستر فاجين لسبيله. وهنا استرعى نوح كلايبول انتباه سيدته الصالحة، وشرع يطلعها على شروط الاتفاق الذي عقده مع فاجين، بلهجة متغطرسة راشحة بروح السيادة ـ لهجة جديرة لا بعضو من أعضاء الجنس الخشن فحسب، بل بسيد محترم يقدّر شرف التكليف الخاص بمهمة سلب الأحداث، في مدينة لندن وضواحيها.

الفصل الثالث والأربعون

وفيه يظهر كيف ألمت المتاعب بالمراوغ الماكر

ـ «وإذن فقد كنت أنت صديقك، أليس كذلك؟» هكذا تساءل مستر كلايبول، المتخذ اسم بوتلر المستعار، عندما شخص في اليوم التالي إلى منزل فاجين بفضل الاتفاق المعقود بينهما. «يا للشيطان! لقد كنت أفكِّر في ذلك الليلة البارحة!»

فأجابه فاجين، بابتسامته العريضة المعبّرة إلى حد بعيد: «كل امرئ هو صديق نفسه، يا عزيزي. وليس للمرء صديق، في أيما مكان، خيرٌ من نفسه.»

ـ «إلا في بعض الأحوال.» كذلك أجابه موريس بوتلر، متخذاً سيماء الرجل ذي الخبرة الواسعة. «إن بعض الناس ليسوا أعداء أحد إلا أنفسهم، كما تعلم.»

فقال فاجين: «لا تصدق ذلك. إذا اتفق إن كان المرء عدوّ نفسه فإنما يعود ذلك إلى أنه يحبّ نفسه ويصادقها أكثر مما ينبغي. لا إلى أنه يهتم بالناس ويحرص على مصالحهم أكثر من حرصه على مصلحته هو. فليس ثمة شيء مثل هذا في الطبيعة.»

فأجابه مستر بوتلر: «إذا كان ثمة شيء مثل هذا فيجب أن لا يكون.»

ـ «هذا كلام منطقي. إن بعض المشعوذين يزعمون أن الرقم السحري هو الرقم ثلاثة، وبعضهم يزعم أنه الرقم سبعة. ولكنه لا هذا ولا ذاك. إنه الرقم واحد.»

فصاح مستر بوتلر: «ها! ها! فليحيَ الرقم واحد.»

فقال فاجين، وقد استشعر الحاجة إلى تعديل هذا الحكم: «في مجتمع صغير كمجتمعنا يكون الرقم واحد جماعياً. يعني أنك لا تستطيع أن تعتبر نفسك رقم واحد من غير أن تعتبرني أنا رقم واحد، وأن تعتبر جميع أصدقائنا الشبان مثل ذلك.»

فهتف مستر بوتلر: «أوه، يا للشيطان!»

فتابع فاجين متظاهراً بأنه لم يسمع هذا الاعتراض: «أنت ترى أن تمازجنا هو من الشدة وأن مصالحنا هي من التماثل بحيث يصبح ذلك أمراً محتوماً. فغرضك هو أن تعنى برقم واحد. . . يعني بمصالحك الذاتية.»

فأجابه مستر بوتلر: «من غير ريب. أنت محق في هذا.»

ـ «حسناً! أنت لا تستطيع أن تعنى بمصالحك، بوصفك رقم واحد، من غير أن تعنى بمصالحي أنا، بوصفي رقم واحد.»

ـ «تعني بوصفك رقم اثنين.» كذلك قال مستر بوتلر الذي كان عظيم الحظ في الأنانية.

فأجابه فاجين: «لا، لست أعني ذلك. إن لي أهمية عندك لا تقلّ عن أهمية نفسك عند نفسك.»

فقاطعه مستر بوتلر: «أنا أقول أنك رجل ظريف جداً، وإني جدّ مولع بك، ولكننا لسنا، على أية حال، حميمَيْن إلى هذا الحد كله.»

فقال فاجين، هازاً كتفيه، باسطاً يديه: «فكِّر قليلاً! فكِّر قليلاً! لقد قمت بعمل رائع يدعوني إلى حبك، ولكن قد يطوّق عنقك ـ في الوقت نفسه ـ برباط الرقبة الذي يسهل عقده، ويصعب حلَّه. وبإنكليزية واضحة، قد يطوق عنقك بحبل المشنقة.»

ووضع مستر بوتلر يده على رباط عنقه، وكأنه استشعر أن ذلك الرباط محكم إلى حد غير ملائم، وأعلن موافقته على ذلك بغمغمة، فيها تحفظ في اللهجة ولكن ليس في المحتوى.

وتابع فاجين: «المشنقة، المشنقة يا عزيزي هي مَعْلم طريق بشعٌ ذو أصبع يشير إلى منعطف حادٍّ طالما اعترض حياة الجسورين من الناس على الطريق العمومية. ومهمتك رقم واحد هي التزام الطريق السهل والبقاء على مسافة معيَّنة من ذلك المَعْلم ذي الإصبع.»

فأجابه بوتلر: «هذا صحيح من غير ريب. ولكن لماذا تتحدث عن أشياء مثل هذه؟»

فقال اليهودي رافعاً حاجبيه: «لمجرد إفهامك ما أعنيه، على نحو واضح. ولكي تتمكن من ذلك يتعيَّن عليك أن تعتمد عليّ. ولكي أسيِّر أعمالي الصغيرة على نحو مُريح يتعيَّن عليّ أن أعتمد عليك. الأمر الأول هو رقم واحد بالنسبة إليك، والأمر الثاني هو رقم واحد بالنسبة إليَّ. وكلما ازددت تقديراً لرقمك تحتَّم عليك أن تزداد اهتماماً برقمي. وهكذا نصل آخر الأمر إلى ما قلتُهُ لك منذ البدء ـ وهو أن الحرص على رقم واحد يوحِّد ما بيننا جميعاً، ويجب أن يوحِّد ما بيننا جميعاً، وإلا مُزِّقنا كلنا ـ وفي آن معاً ـ إرباً إرباً.»

فأجابه مستر بوتلر وإمارات التفكير العميق بادية على وجهه: «هذا صحيح. أوه، أنت عجوزٌ غريب ماكر!»

ورأى مستر فاجين، في ابتهاج، أن هذا التقدير لمواهبه لم يكن مجرد مجاملة. ذلك بأنه قد كان أثار إعجاب مجنَّده الجديد فعلاً، وأوقع في نفسه أنه عبقري ماكر، وهي انطباعة يُعتبر نشوؤها عنده أمراً بالغ الأهمية في مطلع تعارفهما، ولتوكيد هذه الانطباعة المرجوة المفيدة إلى هذا الحد كله، أتبَع تلك الضربة بإعطائه فكرة مفصلة بعض الشيء عن ضخامة نشاطاته ومداها، مازجاً الحقيقة بالخيال على الوجه الذي يستطيع أن يخدم غرضه خدمة أفضل، مفيداً في كثير من البراعة، من تزايد احترام مستر بوتلر، ومن نزوعه إلى الاعتدال نتيجة لما ألمّ به من خوف نافع كانت إثارته عملاً مرغوباً فيه إلى حد بعيد.

وقال فاجين: «إن هذه الثقة المتبادلة التي يستشعرها كل منا نحو الآخر هي التي تعزيني عن أفدح الخسائر. فقد انتُزع مني، أمس صباحاً، خير أعواني.»

فصاح مستر بوتلر: «أنت لا تريد أن تقول إنه قد مات؟..»

فأجابه فاجين: «لا، لا، لم يصل الأمر إلى هذه الدرجة من السوء.. لا، لم يصل إلى هذه الدرجة من السوء.»

ـ «إذن، فأنا أحسب أنه قد...»

فقاطعه فاجين: «لقد ألقي القبض عليه. أجل، ألقي القبض عليه.»

فسأله مستر بوتلر: «في تهمة خطيرة؟»

فأجابه فاجين: «لا. إنها ليست خطيرة جداً. لقد اتهم بمحاولة نشل جيب من الجيوب، ولقد وجدوا معه علبة سعوط فضية ـ علبة هي ملكه هو، يا عزيزي، ملكه هو، ذلك بأنه يتنشق السعوط، وهو مولع به. ولقد أودعوه السجن الاحتياطي حتى اليوم، لأنهم اعتقدوا أنهم يعرفون المالك الحقيقي. آه! لقد كان يساوي خمسين علبة سعوط، وإني لمستعد لأن أدفع ثمن هذه الخمسين علبة لكي أسترده. لقد كان من واجبك أن تعرف «المراوغ»، يا عزيزي! لقد كان من واجبك أن تعرف «المراوغ!»

فقال مستر بوتلر: «حسناً، ولكني سوف أتعرف إليه، في ما أرجو. ألا تظن ذلك؟»

فأجابه فاجين وهو يتنهد: «إني أشك في ذلك. إذا لم يعثروا على دليل جديد، فإنهم سوف يحاكمونه محاكمة مستعجلة، ولسوف نسترده بعد ستة أسابيع أو نحوها. أما إذا عثروا على دليل جديد فسوف تكون القضية قضية «تأبيد». إنهم يعرفون أي فتى بارع هو، ولسوف يصبح «أشغالياً». أجل إنهم لن يرضوا بغير أن يصبح «المراوغ» أشغالياً.»

فسأله مستر بوتلر: «ولكن ماذا تعني بالتأبيد وبالأشغالي؟ وما الفائدة من التحدث إليّ بهذه الطريقة؟ لماذا لا تتحدث بطريقة أفهمها؟»

وكان فاجين على وشك أن يترجم هذين التعبيرين المُلْغزين إلى لغة عامية ـ ولو وفق إلى هذه الترجمة إذن لعرف مستر بوتلر أنهما يعنيان الأشغال الشاقة والنفي مدى الحياة ـ عندما قُطع هذا الحوار بدخول المعلم بايتس، واضعاً يديه في جيبي بنطاله القصير، لاوياً وجهه على نحو ينطق بأسى نصف هزلي.

ـ «قُضي الأمر، يا فاجين!» كذلك قال تشارلي، بعد أن عرّفه اليهودي إلى رفيقه الجديد.

ـ «ماذا تعني؟»

ـ «لقد وجدوا مالك علبة السعوط. ولسوف يأتي رجلان آخران أو ثلاثة رجال آخرين لإثبات هويته. إنهم سيشترون له تذكرة إبحار.» كذلك أجابه المعلم بايتس. «يجب أن أحصل على بذلة حداد كاملة، يا فاجين، وعلى عصابة قبعة لكي أقوم بزيارته، قبل أن ينطلق في رحلاته، أنا لا أتصور أن جاك داوكينز.. جاك المراوغ... المراوغ الماكر يحكم عليه بالإبعاد إلى ما وراء البحار بسبب علبة سعوط عادية تساوي بنسين ونصف. ولم يخطر ببالي قط أنه سوف يحكم عليه بمثل ذلك لشيء أقل من ساعة ذهبية، أو سلسلة ذهبية، أو أختام. أوه، لماذا لم يسلب أحد العجائز الأغنياء جميع نفائسه، ويُرَحَّل كسيد محترم، لا كلص عادي، من غير شرف أو مجد؟!»

وبعد أن عبّر المعلم بايتس عن عاطفته نحو صديقه السيئ الطالع، استوى على أقرب كرسي، وقد نم وجهه عن بعض الأسى والقنوط.

وصاح فاجين، ملقياً على تلميذه نظرة غضبى: «لماذا تقول إنه سوف يُرَحَّل من غير شرف أو مجد؟ ألم يكن دائماً يحتل المقام الأرفع بينكم جميعاً؟ هل كان بينكم من يجرؤ على مجاراته في أي ميدان؟ قُلْ!»

ـ «لا، لم يكن بيننا من يجرؤ على هذا.» كذلك أجابه المعلم بايتس في صوت جعلته الحسرة أجش. «لا! لا!»

فقال فاجين مغضباً: «إذن فعن أي شيء تتكلم؟ ولأجل أي شيء تنشج؟»

ـ «لأن ذلك غير مدون في سجله!» كذلك قال شارلي، وقد دفعه تيار الحسرات إلى حد التحدي الكامل لصديقه المبجل.. «لأن هذا لا يمكن أن يظهر في نصّ الحكم. لأن واحداً لن يعرف أبداً نصف الحقيقة عن عظمته. تُرى كيف سيتحدثون عنه في «تقويم نيوغايت»(*)؟ لعلهم لن يشيروا إليه هناك البتة. أوه، عيني! عيني! يا لها من ضربة قاصمة!»

(*) نشرة لندنية كانت تنشر أسماء المجرمين وتفصيلات عن جرائمهم. (المعرب)

فصاح فاجين باسطاً يده اليمنى لمستر بوتلر في نوبة من القهقهة هزَّته هزاً عنيفاً وكأنه مصاب بشلل نصفي: «أنظر إلى اعتزازهم بمهنتهم، يا عزيزي. أليس هذا جميلاً؟»

فهز مستر بوتلر رأسه بالموافقة. وبعد أن فكَّر فاجين في أسى تشارلي بايتس تفكيراً استغرق بضع ثوان، تقدم نحو ذلك الشاب وربت على كتفه.

لقد قال محاولاً أن يهدئ من روعه: «لا بأس، يا تشارلي. إنه سوف يظهر في نص الحكم. أنا واثق من أنه سوف يظهر. والناس كلهم يعرفون أي فتى بارع كان هو. ولسوف يظهر ذلك بنفسه، ولن يلبس رفاقه وأساتذته القدماء ثوب الخزي والعار. حسبك أن تفكر في حداثة سنه ونضارة عوده أيضاً! إنه لمما يشرف أي امرئ، يا تشارلي، أن يحكم عليه بالأشغال الشاقة في مثل تلك السن المبكرة!»

فقال تشارلي، وقد سرى ذلك عن نفسه بعض الشيء: «حسناً، أن ذلك لشرف عظيم حقاً.»

وتابع اليهودي كلامه: «إنه سوف يفوز بكل ما يحتاج إليه. ولسوف يضعونه في السجن الحجري، يا تشارلي، مثل سيد محترم. أجل، مثل سيد محترم! ويقدمون إليه الجعة كل يوم، وسيكون في جيبه مال. لكي يلعب به لعبة النقش والطرّة، إن لم يستطع أن ينفقه.»

فصاح بايتس: «لا! أصحيح ما تقول؟»

فأجابه فاجين: «من غير ريب. ولسوف نكلف محامياً كبيراً، يا تشارلي، واحداً من أولئك الذين وهبوا أعظم قدر من طلاقة اللسان، بالدفاع عنه، ولسوف يلقي هو بنفسه خطاباً أيضاً، إذا شاء، ولسوف نقرأه جميعاً في الصحف: «المراوغ الماكر.. عاصفة من الضحك... وفي هذه اللحظة ضحكت هيئة المحكمة في قوة وعنف، أليس كذلك، يا تشارلي، أليس كذلك؟»

فضحك المعلم بايتس: «ها! ها! إن ذلك سوف يكون شيئاً مسلياً

جداً، ألست من رأيي يا فاجين؟ أنا أقول إن «المراوغ» خليق به أن يزعجهم إزعاجاً كبيراً، ألست تعتقد ذلك؟»

فصاح فاجين: «تقول خليق به؟ قُلْ إنه سوف يزعجهم. . . . إنه سوف يزعجهم من غير ريب!»

فكرّر تشارلي فاركاً يديه: «آه، طبعاً. إنه سوف يزعجهم من غير ريب.»

فصاح اليهودي مصوباً عينيه على تلميذه: «يخيَّل إليَّ أني أراه في هذه اللحظة.»

ـ «وأنا أيضاً!» كذلك صاح تشارلي بايتس. «ها! ها! ها! وأنا أيضاً. أنا أرى ذلك كله أمامي ـ أقسم لك بروحي ـ يا فاجين. يا له من مشهد مضحك!. . مشهد مضحك إلى حد فظيع! إن جميع ذوي اللمم المستعارة(*) ليحاولون أن يظهروا بمظهر الجد والرصانة، وأن جاك داوكينز ليخاطبهم في لهجة حميمة مطمئنة وكأنه نجل القاضي نفسه يلقي خطبة بعد طعام الغداء. . ها! ها! ها!»

والواقع أن مستر فاجين كان قد دغدغ مزاج صديقه الصغير الغريب الأطوار دغدغة بارعة إلى حد جعل المعلم بايتس ـ الذي كان بادئ الأمر ميالاً إلى اعتبار «المراوغ» السجين ضحية بائسة ـ ينظر إليه الآن بوصفه الممثل الرئيسي في مشهد تمثيلي نابض بأروع الفكاهة وأغربها. فإذا به ينتظر بفارغ صبر ذلك الوقت الذي ستتاح فيه لصديقه القديم تلك الفرصة الملائمة، إلى أبعد حدود الملاءمة، لإظهار كفاءاته وإثباتها.

وقال فاجين: «يتعيَّن علينا أن نعرف، بطريقة رشيقة ما، كيف نستطلع أخباره وأحواله. دعني أفكِّر.»

فسأله تشارلي: «ما رأيك في أن أذهب أنا لأداء هذه المهمة؟»

فأجابه فاجين: «لا، لن أسمح بذلك ولو أعطيت العالم كله. أبلَغَ

(*) يقصد القضاة.

بك الجنون، الجنون المطبق، يا عزيزي، مبلغاً يجعلك تفكِّر في الذهاب إلى ذلك المكان بالذات حيث. . . لا، يا تشارلي، لا. يكفينا أن نخسر في المرة الواحدة رفيقاً واحداً.»

فقال تشارلي في ابتسامة ساخرة: «أنت لا تعني أنك تعتزم الذهاب بنفسك، في ما أحسب.»

فأجابه فاجين وهو يهز برأسه: «لن يكون ذلك ملائماً جداً.»

ـ «إذن فلماذا لا ترسل هذا الشخص اللطيف الجديد؟» كذلك سأله المعلم بايتس واضعاً يده على ذراع نوح. «إن أحداً من الناس لا يعرفه.»

فقال فاجين: «لا بأس في هذا إن لم يكن لديه أي اعتراض. . .»

فقاطعه تشارلي: «اعتراض! وعلى أي شيء يمكن أن يعترض؟»

ـ «ليس ثمة ما يمكنه أن يعترض عليه، يا عزيزي.» كذلك قال فاجين ملتفتاً إلى بوتلر: «أجل، ليس ثمة ـ حقاً ـ ما يمكن أن يعترض عليه.»

فلاحظ نوح، مرتداً نحو الباب، هازاً رأسه في جزع مشوب بالتفكير: «أوه إن لي ما أقوله في هذا الموضوع، كما تعلم. . . لا، لا، لست أريد شيئاً من ذلك. إنه لا يقع ضمن دائرة اختصاصي.»

فتساءل المعلم بايتس وهو ينظر إلى جسد نوح المهزول في كثير من الاشمئزاز: «وما دائرة اختصاصه، يا فاجين؟ الفرار حين يكون ثمة بلاء، والتهام جميع المآكل حين يجري كل شيء على ما يرام؟ أهذا هو اختصاصه؟»

فقال مستر بوتلر: «لا بأس. ولا تأخذ حريتك مع الذين يفوقونك رتبة، أيها الغلام الصغير، وإلا وجدت نفسك وقد ضللت الطريق.»

وضحك المعلم بايتس ضحكاً قوياً جداً لهذا التهديد الباهر حتى لقد انقضت فترة من الوقت قبل أن يوفق فاجين إلى الاعتراض لكي يظهر لمستر بوتلر أنه لن يتعرض لأيما خطر محتمل إذا ما ألم بمخفر الشرطة. لقد قال له إنه لما كان أيما تقرير لم يُرْفع بعد إلى العاصمة عن المسألة

الصغيرة التي سبق له أن تورط بها أو أيما وصف لشخصه فإن أحداً لن يذهب به الظن ـ في أرجح الرأي ـ حتى إلى القول بأنه قصد إلى هناك التماساً لملجأ يفيء إليه. وأنه إذا ما تنكر على نحو حسن فإن تلك البقعة لن تعرضه لأخطار أعظم من التي تعرضه لها أية زاوية أخرى من زوايا لندن قد يزورها، وهكذا تصبح تلك البقعة آخر بقعة يمكن للمرء أن يفترض أن من الممكن له أن يلجأ إليها بملء إرادته.

واقتنع مستر بوتلر بهذه الحجج بعض الشيء، ولكنه ناء في المقام الأول تحت وطأة خوفه من فاجين، فأعلن استعداده، آخر الأمر، على كُره منه شديد، للقيام بهذه المهمة. وبناء على توجيهات فاجين سارع إلى الاستعاضة عن ملابسه بجلباب سائق عربة، وبنطال قصير مخيط من مخمل قطني، وطماقين جلديين، وكانت كلها في متناول يد اليهودي. ليس هذا فحسب، بل لقد زُود بقبعة لبَّادية مزدانة ببطاقات اجتياز بوابة المكوس، وبسوط سائق عربة نقل. حتى إذا تزيّا بهذا الزي كان عليه أن يدخل إلى مخفر الشرطة على الوجه الذي يفترض بغلام ريفي مقبل من سوق «كونفنت غاردن» جاء إشباعاً لفضوله. وإذا كان من السذاجة، والخرق، والضمور بحيث يصلح لأداء هذا الدور أحسن ما يكون الأداء، فإن مستر فاجين لم يشك لحظة في أن التوفيق سوف يكون حليفه.

حتى إذا تمت هذه الترتيبات كلها أحيط علماً بالعلامات الضرورية التي يستطيع بواسطتها أن يتعرف إلى شخص «المراوغ الماكر»، ثم قاده المعلم بايتس، خلال سلسلة من الأزقة المظلمة الملتوية، إلى ما قبل «باو ستريت» بخطوات معدودات. وبعد أن وصف له موقع المخفر على وجه الضبط، وأرفق ذلك بتوجيهات مفصلة حول الطريقة التي يجب اتباعها في السير قُدُماً حتى يصل إلى الفناء ثم يدخل من الباب القائم في أعلى السلم اليمنى، ويرفع قبعته عند ولوجه الحجرة... بعد أن أنجز المعلم بايتس هذا كله سأله أن يتابع طريقه، بمفرده، على جناح السرعة، مؤكداً له أنه سوف ينتظر عودته عند نقطة افتراقهما.

وسرعان ما نفذ نوح كلايبول، أو مستر بوتلر ـ كما يشاء القارئ ـ تلك التعليمات التي تلقَّاها، والتي كانت ـ باعتبار معرفة المعلم بايتس بالمنطقة معرفة بعيدة ـ مضبوطة إلى درجة مكَّنته من الوصول إلى مخفر الشرطة من غير أن يسأل سؤالاً، أو يتوقف في بعض الطريق مرة واحدة. وهكذا ألفى نفسه وسط خضم من الناس، معظمهم نساء، حُشروا معاً في حجرة قذرة كريهة الهواء أقيم في طرفها الأقصى منبر يفصله حاجز خشبي، ووُضع في محاذاة جدارها، إلى اليسار، مقعد طويل خاص بالمتهمين، ونصب في وسطها قفص خاص بالشهود، في حين نهضت منضدة القضاة إلى اليمين. وكانت هذه البقعة الأخيرة، ويا لهولها ورهبتها، معزولة عن سائر أجزاء الحجرة بفاصل يحجب هيئة المحكمة عن أعين الغوغاء، ويترك لهؤلاء، أن يتخيلوا (إذا استطاعوا) جلال العدالة وأبهتها.

ولم يكن يجلس على المقعد الطويل غير امرأتين اثنتين كانتا تومئان برأسيهما لأصدقائهما المعجبين، بينما كان كاتب المحكمة يتلو بعض الإفادات لرجلين من رجال الشرطة ولرجل مدني كان منحنياً فوق المائدة. وكان يقف متكئاً على درابزون مقعد المتهمين سجان يقرع أنفه، في توان، بمفتاح ضخم، ولا يكف عن ذلك إلا حين يضطر إلى كبت المتبطلين كلما نزعوا، في غير ما مبرر، إلى تجاذب أطراف الأحاديث، داعياً إياهم إلى التزام الصمت، وإلا حين يرفع بصره في تجهم لكي يأمر امرأة ما «بأن تخرج ذلك الطفل من الحجرة» كلما كدر وقار العدالة بصيحات واهنة نصف مخنوقة بشال الأم، يطلقها طفل صغير مهزول. كانت الحجرة حبيسة الهواء فاسدته، وكانت الجدران ملوثة قذرة، وكان السقف مسوداً كله. وكان فوق رف المستوقد تمثال نصفي قديم يعلوه السخام، وكانت فوق مقعد المتهمين ساعة جدار يكسوها الغبار ـ وهي الشيء الوحيد الذي بدا هناك وكأنه يجري كما ينبغي له أن يجري. ذلك بأن الفجور أو الفقر، أو الإلفة لكل من الفجور والفقر، كانت قد خلفت على جميع الكائنات

الحية المجتمعة هناك صبغة ليست أقل إثارة للاشمئزاز من الطبقة الدهنية الغليظة التي كست كل شيء غير حي تأمله في عبوس.

وأجال نوح طرفه في ما حوله، بكثير من اللهفة والقلق، بحثاً عن «المراوغ». ولكن على الرغم من أنه كان ثمة عدة نساء يصلحن لأن يكنَّ أمهات أو أخوات لتلك الشخصية البارزة، وأكثر من رجل قد يظن المرء أنه يشبه أباها، فإن عيني نوح لم تقع على أيما امرئ ينطبق عليه الوصف الذي زود به لمستر داوكينز انطباقاً كاملاً. وانتظر في ترقب وقلق حتى أحيلت المرأتان إلى المحاكمة، فغادرتا الحجرة في زهو وافتخار. وسرعان ما سُري عنه بعد ذلك عند ظهور سجين آخر أحس نوح لأول وهلة بأنه لا يمكن أن يكون أحداً غير الشخص الذي استهدفه بزيارته تلك.

لقد كان هو، حقاً، مستر داوكينز الذي دخل الحجرة وردنا سترته الفضفاضة مردودان إلى أعلى كالعادة، ويده اليسرى في جيبه، وقبعته في يده اليمنى، وتقدم السجان في مشية متمايلة لا سبيل إلى وصفها البتة. وبعد أن استوى على مقعد المتهمين، تساءل بصوت مسموع ليعرف «لأي غرض وضع في ذلك المركز المخزي»...

فقال السجان: «إخرس! أتريد أن تخرس؟»

فأجابه المراوغ: «أنا رجل إنكليزي، ألست إنكليزياً؟ فأين هي امتيازاتي؟»

فرد عليه السجان قائلاً: «سوف تنال امتيازاتك في وقت قريب جداً. ولسوف تنال معها مرقاً منضوحاً بالفلفل أيضاً.»

فأجابه مستر داوكينز: «سنرى ما الذي سوف يقوله وزير الداخلية للقضاة إذا لم أنل امتيازاتي. والآن، ماذا؟ ما هذه القصة كلها؟ إني سوف أكون شاكراً للقضاة إذا ما بتوا في هذه القضية الصغيرة، ولم يكرهوني على الانتظار حتى يفرغوا من قراءة الصحف، ذلك إني مرتبط بموعد مع سيد محترم في المدينة. ولما كنت رجلاً وفيّاً بالوعد، حريصاً على اصطناع الدقة في شؤون العمل، فإنه سوف يمضي لسبيله إذا لم أصل في

الموعد المضروب، ومن يدري فقد تقام دعوى عطل وضرر على أولئك الذين حالوا بيني وبين الذهاب. لا، لا، أرجو أن لا نضطر إلى ذلك!»

حتى إذا انتهى إلى هذه النقطة، تظاهر بأن لديه تحفظات كبيرة في ما يتعلق بالمحاكمة التي ستجري بعد قليل، فسأل السجان أن يذكر له «اسمي الرجلين الماكرين اللذين تتألف منهما هيئة المحكمة.». وهو سؤال دغدغ النظارة إلى حد جعلهم يضحكون ضحكاً قلبياً كان خليقاً بالمعلم بايتس أن يستغرق فيه لو قدر له أن يسمع ذلك السؤال.

فصاح السَّجان: «اخرس!»

فتساءل أحد القاضيين: «ما هذه القضية؟»

ـ «قضية نشل، يا صاحب الفضيلة.»

ـ «هل سبق للغلام أن اقتيد إلى هنا قبل اليوم؟»

فأجابه السجان: «لا بد أنه قد فعل مرات عديدة. ولقد نزل، غير مرة، ضيفاً على أماكن أخرى. أنا أعرفه جيداً، يا صاحب الفضيلة.»

فصاح «المراوغ» وهو يدون هذه الملاحظة: «أوه، أنت تعرفني، أليس كذلك؟ حسن جداً، هذه قضية تشويه للشخصية، على أية حال!»

وهنا ضجت الحجرة بضحك داو، وبصيحة تدعو إلى الصمت.

وقال كاتب المحكمة: «والآن، أين الشهود؟»

فأضاف المراوغ: «آه، هذا صحيح. أين هم؟ إني أحب أن أراهم.»

وما هي غير لحظات حتى أجيب إلى سؤاله، إذ تقدم في الحال شرطي كان قد رأى السجين يقحم يده في جيب رجل مجهول، وسط حشد من الناس، بل وينتزع منها منديلاً. ولكن لما كان ذلك المنديل منديلاً قديماً جداً فقد أعاده إلى موضعه بعد أن جربه على تقاطيع وجهه. من أجل ذلك ألقى القبض على «المراوغ» حالما استطاع. حتى إذا فتش «المراوغ» المذكور وجدوا معه علبة سعوط فضية كان اسم صاحبها منقوشاً على غطائها. وبعد مراجعة «دليل القضاء» اكتشفوا عنوان صاحب العلبة ذاك، وإذ كان موجوداً هناك في تلك اللحظة فقد أقسم أن علبة السعوط

هي ملكه، وأنه كان قد افتقدها بالأمس، لحظة انفصل عن الحشد المشار إليه في السطور السابقة. وكان قد لاحظ أيضاً فتى يشق طريقه في قوة وعنف، وسط الحشد، وأن ذلك الفتى كان هو السجين الواقف أمامه.

فقال القاضي: «أعندك سؤال تحب أن تطرحه على الشاهد، أيها الغلام؟»

فأجابه المراوغ: «أنا لن أحط من قدر نفسي بالنزول إلى مستوى التحدث معه.»

ـ «أعندك ما تريد أن تقوله كائناً ما كان؟»

ـ «هل سمعت فضيلته يسألك ما إذا كان لديك ما تقوله؟» كذلك سأل السجان «المراوغ» الصامت وهو يكزه بمرفقه.

فقال المراوغ، وهو يرفع بصره في ذهول: «ألتمس عفوك، هل كنت تتحدث إليّ، يا صاحبي؟»

ـ «أنا لم أر في حياتي متشرداً شاباً بكل معنى الكلمة مثل هذا الغلام، يا صاحب الفضيلة.» كذلك لاحظ الشرطي بابتسامة عريضة. «هل تعتزم أن تقول أيما شيء، أيها المحتال الصغير؟»

فقال المراوغ: «لا، لأن هذا المكان ليس هو دكان العدالة. وإلى ذلك، فإن محامي يتناول هذا الصباح طعام الفطور مع نائب رئيس مجلس العموم، ولكني سوف أقول بعض الأشياء، في مكان آخر، وكذلك سيفعل هو أيضاً، وسيفعل عدد كبير جداً ومحترم جداً من معارفي، وبهذا سأجعل هذين القاضيين يتمنيان لو أنهما لم يولدا قط. أوه لو أنهما كلفا خادميهما أن يشنقاهما على مشجبي قبعاتهما قبل أن يتركاهما يجيئان إلى هنا هذا الصباح ليحاولا أن يفعلا مثل ذلك بي. إني سوف...»

فقاطعه الكاتب: «كفى! يحال المتهم إلى المحاكمة. في غير تردد. أخرجوه من هنا.»

فقال السجان: «هيا، تحرك!»

فأجابه المراوغ، وهو يمر براحة يده على قبعته: «حسن، حسن،

سوف أتحرك. آه (ووجه الخطاب إلى هيئة المحكمة)، لا تحاولوا أن تظهروا بمظهر المروع الخائف، فلن يفيدكم ذلك شيئاً. إني لن أرحمكم البتة، لن أرحمكم مقدار ذرة. ولسوف تدفعون الثمن غالياً، يا رفاقي الرائعين. أنا لن أرضى أن أكون محلكم ولو قدمتم إلي ثروات الأرض كلها! ولن أرضى أن أتمتع الآن بالحرية، حتى ولو ركعتم على قدمي وتوسلتم إليّ أن أفعل. هيا، انقلوني إلى السجن! أخرجوني من هنا!»

قال المراوغ هذه الكلمات، وأجاز لنفسه أن يقاد من قبة قميصه، متوعداً ـ حتى انتهى إلى الفِناء ـ بأن يعمل على إثارة هذه القضية في البرلمان. ثم تبسم في وجه الشرطي ابتسامة عريضة، في كثير من المرح والرضا عن النفس.

حتى إذا رآه نوح يُلْقى في زنزانة لا يشاركه فيها أحد، انقلب عائداً بأقصى سرعته إلى حيث كان قد فارق المعلم بايتس. وبعد أن انتظر هناك فترة يسيرة التحق به ذلك السيد الشاب، الذي كان قد استنكف، في تعقل وحكمة، عن الظهور إلا بعد أن أجال بصره في الشارع بحذر واحتراس، من ملاذ أمين كان قد اعتصم فيه، وإلا بعد أن استيقن أن أيما شخص وقح لم يكن يتبع صديقه الجديد.

وأسرع الشابان الخطى عائدين لكي ينبئا مستر فاجين بأن «المراوغ» قد وقف موقفاً يشرف نشأته وتربيته، وأنه على وشك أن يكتسب شهرة محترمة.

الفصل الرابع والأربعون

وفيه يحين وقت إيفاء نانسي بعهدها لروز مايلي ولكنها لا توفق إلى ذلك

وعجزت نانسي، برغم تمرسها البعيد بفنون المكر والرياء، عن أن تخفي الأثر الذي تركه في نفسها وعيها للخطوة التي قامت بها إخفاء

كاملاً. لقد تذكرت أن اليهودي الداهية وسايكس الوحشي قد أسرا إليها بخطط كانا قد كتماها عن سائر الرفاق، لثقتهما الكاملة بأنها أمينة لا ترقى إليها شكوكهما البتة. والواقع أن تلك الخطط كانت دنيئة إلى أبعد الحدود، وأن واضعيها كانا يائسين أعظم اليأس، وأن مشاعرها نحو فاجين كانت ترشح بأشد الحقد (إذ كان فاجين هذا هو الذي قادها، خطوة خطوة، إلى هاوية الجريمة والبؤس التي لا سبيل بعد إلى الفرار منها). ومع ذلك فقد كانت تمر بنانسي أوقات يرق فيها قلبها حتى على فاجين نفسه، خشية أن يفضي إدلاؤها بأي سر من تلك الأسرار إلى وقوعه في القبضة الحديدية التي طالما اجتنبها، وخشية أن يسقط آخر الأمر (برغم أنه يستحق مثل هذا المصير كل الاستحقاق) بسبب منها هي.

ولكن هذا لم يكن غير هذيان عقل عاجز عن الانفصال انفصالاً كلياً عن الرفاق القدماء والذكريات القديمة، برغم قدرته على التركيز، تركيزاً ثابتاً، على غرض واحد، وتصميمه على أن لا يُصرف عن ذلك أياً ما كان السبب. وكان خليقاً بمخاوفها على سايكس أن تغريها، إغراء أشد، بالتراجع ما بقي المجال متسعاً للتراجع. ولكن ألم تكن قد اشترطت أن يظل سرها مصوناً غاية الصيانة؟ ألم تكن قد أحجمت عن إعطاء أضأل الأدلة التي كان في ميسورها أن تؤدي إلى اكتشاف مخبئه؟ ألم تكن قد رفضت، حتى من أجله هو، ملاذاً من كل الجريمة وكل البؤس اللذين طوقاها من أقطارها؟.. وهل ثمة ما تستطيع أن تفعله أكثر من ذلك!؟ وهكذا وطَّدت عزمها واتخذت قرارها.

وعلى الرغم من أن جميع مناظراتها العقلية انتهت إلى هذه النتيجة نفسها، فقد فرضت نفسها عليها، مرة تلو مرة، وخلفت آثارها أيضاً. وما هي غير أيام معدودات حتى غدت أشد شحوباً وهزالاً. كانت في بعض الأحيان لا تلقي بالاً إلى ما يجري من حولها أو لا تشترك في أحاديث كانت من قبل تشارك فيها بصوت مدوٍّ يعلو على كل صوت. وكانت في بعضها الآخر تضحك في غير مرح، أو تضج من غير ما داع أو معنى. بل

لقد كانت في أحيان أخرى (وكثيراً ما يحدث ذلك بعد بضع لحظات) تجلس صامتة كئيبة النفس مستغرقة في التأمل والتفكير، ورأسها مسند بين يديها، بينا كان مجرد الجهد الذي توقظ به نفسها ينم، أكثر من هذه الدلائل، عن قلقها وعن أن أفكارها مشغولة بقضايا مختلفة جداً وبعيدة جداً عن تلك التي يبحثها رفاقها.

وكانت ليلة الأحد. وقرع جرس أقرب كنيسة معلناً الوقت. وكان سايكس وفاجين يتحدثان، ولكنهما تمهلا لكي يصغيا. ورفعت الفتاة بصرها من المقعد الخفيض الذي جثمت فوقه، وأصغت هي الأخرى أيضاً. كانت الساعة الحادية عشرة.

ـ «بعد ساعة واحدة ينتصف الليل!» كذلك قال سايكس، رافعاً حجاب النافذة الخشبي ليلقي نظرة إلى الخارج. ثم انقلب عائداً إلى مقعده وأضاف: «إنها ليلة دامسة الظلام، كثيرة الغيوم، ليلة صالحة للعمل!»

فأجابه فاجين: «آه! ومن المؤسف أن لا يكون لدينا، يا عزيزي بيل، عمل جاهز نقوم به.»

فقال سايكس في صوت أجش: «لقد أصبت للمرة الأولى في حياتك. الواقع أن هذا مؤسف، خاصة وأن مزاجي الليلة من النوع المساعد.»

وتنهد فاجين، وهز رأسه في قنوط.

فقال سايكس: «إن علينا أن نعوض الوقت الضائع حين يصبح كل شيء في وضعه الطبيعي. هذا كل ما أعرفه.»

ـ «تلك هي الطريقة التي يحسن بالمرء أن يتكلم بها.» كذلك أجابه فاجين، مغامراً بالتربيت على كتفه. «إن الاستماع إليك يُدخل البهجة على نفسي.»

فصاح سايكس: «يُدخل البهجة على نفسك، أليس كذلك!؟ حسناً، فليكن!»

فضحك فاجين، وكأن هذا التنازل البسيط قد سرَّى عنه: «ها! ها!

ها! إنك الليلة في أحسن أحوالك، يا بيل! أجل، في أحسن أحوالك!»

ـ «أنا لا أستشعر أني في أحسن أحوالي حين تضع براثنك الهرمة الذاوية على كتفي. فارفعها عني.» قال سايكس ذلك وأزاح يد اليهودي عن كتفه.

فقال فاجين عاقداً العزم على أن لا يستسلم للغضب: «إنها تثير أعصابك، يا بيل. إنها توحي إليك بفكرة الاعتقال، أليس كذلك؟»

فأجابه سايكس: «توحي إليّ بأن يد الشيطان تعتقلني! إن الأرض لم تحمل فوق سطحها رجلاً آخر له مثل وجهك هذا، إلا أن يكون ذلك الرجل أباك. وأحسب أنه يكون الآن شعر لحيته الحمراء الشائبة، إلا إذا كنت قد تحدرت من صلب الشيطان، مباشرة، من غير أن يكون بينكما أي أب. وهو شيء لن أستغربه البتة.»

فلم يجب فاجين عن هذه المجاملة بشيء ما. ولكنه جذب سايكس من ردن سترته، وأومأ بإصبعه إلى نانسي التي كانت قد انتهزت فرصة الحديث الذي أوردناه آنفاً فاعتمرت بقلنسوتها وأخذت أهبتها للانصراف.

فصاح سايكس: «هالو! نانس! إلى أين تمضي الفتاة في مثل هذه الساعة من الليل؟»

ـ «لن أذهب إلى مكان بعيد.»

فرد سايكس قائلاً: «أي جواب هذا؟ إلى أين أنت ذاهبة؟»

ـ «أقول لك أني لن أذهب إلى مكان بعيد.»

فرد سايكس مرّة أخرى: «وأنا أسألك إلى أين؟ هل تسمعينني؟»

فأجابته الفتاة: «لست أدري إلى أين؟»

ـ «إذن، فأنا أدري!» قال سايكس ذلك بدافع من العناد أكثر مما قاله بسبب من اعتراضه على ذهاب الفتاة إلى حيث يروق لها أن تذهب. «إنك سوف تذهبين إلى لا مكان. اجلسي!»

فأجابته الفتاة: «أنا أستشعر شيئاً من الضيق. وأريد أن أستنشق بعض الهواء الطلق.»

فقال سايكس: «اطلي برأسك من النافذة.»

فقالت الفتاة: «ليس ثمة هواء كاف هناك. أنا أريد هواء الشارع.»

ـ «إذن فلن يكون لك ذلك.» أطلق سايكس هذا التوكيد ونهض فأقفل الباب، وانتزع المفتاح منه، ونزع القلنسوة من رأس نانسي، وقذف بها إلى قمة خزانة عتيقة، ثم أضاف: «مكانك! في استطاعتك الآن أن تبقي حيث أنت، إيه؟»

فقالت الفتاة وقد غلب الشحوب على وجهها: «إن قذف القلنسوة إلى هناك ليس كافياً لحملي على البقاء. ماذا تعني يا بيل؟ أتدري ما الذي تفعله؟»

ـ «أعرف ما الذي أفـ. . . أوه!» كذلك صاح سايكس، ملتفتاً إلى فاجين: «إنها خارجة عن طورها، كما تعلم، وإلا لما جرؤت على التحدث إليّ هكذا.»

ـ «إنك سوف تدفعني إلى الإقدام على عمل يائس!» كذلك غمغمت الفتاة واضعة يديها على صدرها وكأنها تريد بذلك أن تكبح، عنوة، انفجاراً عنيفاً ما. «دعني أذهب، هل تنوي أن تدعني؟ في هذه الدقيقة. . . في هذه اللحظة!»

فقال سايكس: «لا!»

فصاحت نانسي، ضاربة الأرض بقدمها: «قل له أن يدعني أذهب، يا فاجين، من الخير له أن يفعل ذلك. من الخير له أن يفعل. هل تسمعان ما أقوله؟»

فكرر سايكس مستديراً في كرسيه لكي يواجهها: «هل نسمع ما تقولين! أجل! ولو قد سمعتك نصف دقيقة أخرى فعندئذ يأخذ الكلب بخناقك على نحو ينتزع منك ذلك الصوت الهاوي. ما الذي أصابك، أيتها السليطة؟ ما الذي أصابك؟»

فقالت الفتاة في حرارة بالغة: «دعني أذهب!» ثم إنها قعدت على الأرض، قرب الباب، وأضافت: «بيل، دعني أذهب! أنت لا تدري ما

الذي تفعله؟ أنت لا تدري من غير ريب. دعني أذهب ساعة واحدة ليس غير. دعني... دعني!»

فصاح سايكس ممسكاً بذراعها في خشونة: «اقطعوا أطرافي عضواً عضواً إن كنت لا أعتقد أن الفتاة قد أصابها مس من جنون. انهضي!»

ـ «لن أنهض حتى تدعني أذهب... لا، لا، لن أنهض أبداً!» كذلك صاحت الفتاة. فتأملها سايكس لحظة، منتظراً الفرصة الملائمة، ثم كتَّفها فجأة، وساقها وهي تناضل وتقاوم، إلى حجرة صغيرة مجاورة حيث جلس على مقعد خشبي طويل، وألقى بها على أحد الكراسي، وثبَّتها بالقوة. فراحت تقاومه حيناً، وتتوسل إليه حيناً، حتى أعلنت الساعة الثانية عشرة. وعندئذ كفَّت عن المقاومة، مرهقة منهوكة القوى. وبعد أن حذرها سايكس، مستعيناً بشتائم كثيرة، من أن تقوم بأية محاولة إضافية لمغادرة البيت تلك الليلة، تركها تسترد هدوءها على مهل. ومضى ليجتمع إلى فاجين.

ـ «أف!» كذلك قال سارق البيوت وهو يمسح العرق عن وجهه. «يا لها من فتاة غريبة إلى أبعد الحدود!»

فأجابه فاجين وإمارات التفكير العميق مرتسمة على وجهه: «في استطاعتك أن تقول ذلك، يا بيل. في استطاعتك أن تقول ذلك.»

فسأله سايكس: «ما الذي جعلها تتشبث بفكرة الخروج من البيت هذه الليلة، في ما تعتقد؟ قل! لا بد أنك تعرفها أكثر مني. ما الذي عَنته بذلك؟»

ـ «العناد. عناد المرأة، في ما أحسب يا عزيزي.»

فهر سايكس: «حسناً، أنا أحسب أنه العناد، أيضاً. لقد ظننت أني قد روضتها، ولكنها لا تزال ضارية كشأنها من قبل.»

فقال فاجين متفكِّراً: «بل إنها أشد ضراوة. أنا لم أشهدها قط على هذه الحال من قبل، ولمثل هذا السبب الواهي.»

فقال سايكس: «وأنا كذلك. ويخيل إليّ أنه لا يزال في دمها مسحة من تلك الحمى، وأن تلك المسحة لن تفارقها البتة، أليس كذلك؟»

ـ «محتمل جداً.»

فقال سايكس: «سوف أفصد عروقها وأستخرج منها بعض الدم، من غير أن أزعج الطبيب، إذا عادت إلى مثل هذا مرّة أخرى!»

فهز فاجين رأسه على نحو معبر، معلناً موافقته على ذلك.

وقال سايكس: «كانت تحوم حولي طوال النهار وطوال الليل أيضاً عندما كنت ممدداً على ظهري، في حين نأيت أنت بجانبك عني مثل ذئب شرير، وهل أنت غير ذئب شرير؟ ولقد كانت دائماً معسورة محرومة من المال، وأنا أعتقد أن ذلك قد أزعجها وأثار أعصابها بطريقة ما، وأن بقاءها حبيسة هنا، هذه المدة كلها، قد هاجها... ألست تقرني على هذا؟»

فأجابه اليهودي في همس: «ذلك عين الصواب، يا عزيزي. صه!»

ولم يكد يرسل هذه الكلمات حتى برزت الفتاة نفسها وجلست في مقعدها السابق. كانت عيناها حمراوين متورمتين، وكانت تتمايل إلى أمام وإلى وراء، وتهز برأسها. وبعد فترة يسيرة انفجرت بالضحك.

ـ «ها قد انقلبت الآن إلى الضفة الأخرى!» كذلك صاح سايكس، ملقياً على رفيقه نظرة تمور بدهش بالغ.

وأومأ فاجين برأسه إليه وكأنه يسأله أن يغض الطرف عنها مؤقتاً. وما هي غير دقائق معدودات حتى استعادت هدوءها المألوف. وبعد أن همس فاجين في أذن سايكس أنه ليس ثمة أيما خوف من انتكاسها تناول قبعته وتمنى له ليلة طيبة. حتى إذا بلغ باب الحجرة وقف متمهلاً، وأجال بصره في ما حوله ثم سأل ما إذا كان ثمة من سينير له الطريق وهو يهبط السلم.

فقال سايكس، الذي كان يحشو بيبته بالتبغ: «أنيروا له الطريق. فلسوف يكون من المؤسف جداً أن يدق عنقه على انفراد بدلاً من أن يُمتع بذلك جمهور المشاهدين. أنيروا له الطريق!»

فتبعت نانسي الرجل العجوز هابطة السلم وفي يدها شمعة. حتى إذا انتهيا إلى المدخل وضع إصبعه على شفتيه ثم دنا من الفتاة وقال في همس: «ما بك أيتها العزيزة نانسي؟»

فأجابته الفتاة في همس أيضاً: «ماذا تعني؟»

فقال فاجين: «السبب في ذلك كله.. إذا كان هو (وأشار بسبابته المعروقة إلى الطابق الأعلى) قاسياً عليك إلى هذا الحد (إنه وحش، يا نانسي، وحش ضار) فلماذا لا...»

ـ «ماذا؟» كذلك قالت الفتاة حين أمسك فاجين عن الكلام، وفمه يكاد يمس أذنها، وعيناه تحدقان في عينيها.

ـ «فلندع هذا الآن. إننا سوف نتحدث عنه في ما بعد. إن لك في شخصي صديقاً يا نانسي، صديقاً وفياً. وفي متناولي وسائل... وسائل هادئة ومأمونة. وإذا شئت الانتقام من أولئك الذين يعاملونك مثل كلب ـ ماذا؟ مثل كلب! بل أسوأ مما يعامل كلبه، لأنه يمازحه في بعض الأحيان ـ فتعالي إليّ. أقول تعالي إليّ. إنه مجرد كلب ابن يومه، أما أنا فتعرفينني منذ القدم، يا نانسي!»

ـ «أنا أعرفك جيداً!» كذلك أجابته الفتاة، من غير أن تظهر أقل انفعال. طاب مساؤك.»

وانكمشت مرتدة إلى الوراء حين حاول فاجين أن يضع يده على يديها، ولكنها أعادت قولها «طاب مساؤك» مرّة أخرى، في صوت ثابت، وردت على نظرته الوداعية بإيماءة ترشح بالفطنة والذكاء، وأوصدت الباب.

ومشى فاجين نحو منزله، مستغرقاً في الأفكار التي كانت تجول في ذهنه. لقد راودته ـ لا مما حدث منذ لحظات، برغم أن ذلك قد نزع إلى تأييده في ما ذهب إليه، ولكن في بطء وعلى نحو تدريجي ـ فكرة تقول بأن نانسي، التي أرهقتها وحشية سارق البيوت، قد أولعَتْ بصديق جديد. وكان في التغيُّر الذي طرأ على سلوكها، وفي غيباتها المتكررة عن البيت

من غير ما رفيق، واستهتارها النسبي بمصالح العصابة بعد أن كانت تبدي نحوها في يوم من الأيام اهتماماً حماسياً، مضافاً إلى ذلك إصرارها اليائس على مغادرة البيت تلك الليلة في ساعة بعينها. . أقول كان في هذا كله ما زكى ذلك الظن، وكاد أن يجعله، في نظره على الأقل، مسألة يقينية. وليس من ريب في أن هذا المحبوب الجديد لم يكن بين أتباعه وجنوده. وخليق به أن يكون، بمساعدة شخص مثل نانسي، كسباً ثميناً. وإذن فيجب (كذلك قال اليهودي في ذات نفسه) أن تُضمَن خدماته في غير إبطاء.

وكان ثمة هدف آخر، هدف أشد قتاماً، يجب أن يحقق. وتفصيل ذلك أن سايكس كان يعرف من الأسرار أكثر مما ينبغي، وإذا كانت سخرياته الفظة لم تجرح فاجين إلا جراحاً خفية فليس معنى هذا أن تلك الجراح لم تثر حنقه وسخطه. ويحسن بالفتاة أن تعلم أحسن العلم أنها إذا تخلت عن سايكس فلن تنجو البتة من جام غضبه الذي سينصب على رأس محبوبها الجديد، وقد يؤدي ذلك إلى تشويه بعض أعضائه بل إلى إزهاق روحه. وقال فاجين في نفسه: «أليس من أكثر الأمور احتمالاً أن توافق ـ بعد شيء من الإقناع ـ على دس السم له؟ فقد فعلت النساء من قبل، أشياء مماثلة، بل أشياء أسوأ، لتحقيق الهدف نفسه. وهكذا يتوارى الوغد الخطر، الرجل الذي أكرهه، وأضمن لنفسي رجلاً آخر يحل محله. ليس هذا فحسب، بل إن سلطاني على الفتاة، يدعمه علمي بجريمتها، لن يعرف حدوداً البتة.»

دارت هذه الخواطر في خَلَد فاجين خلال الفترة القصيرة التي قضاها، منفرداً، في حجرة سارق البيوت. وكانت تحتل المقام الأول من تفكيره عندما انتهز الفرصة التي أتيحت له، فجسّ استعداد الفتاة لمثل هذا بتلك التلميحات المتقطعة التي أطلقها عند توديعها. ولم يلاحظ آنذاك أي تعبير عن الدهش، أو أي تظاهر بالعجز عن فهم المعنى الذي قصد إليه. لقد فهمته فهماً واضحاً. كانت نظرتها الأخيرة تنبئ بذلك.

ولكن من يدري، فلعلها أن تأبى الاشتراك بمؤامرة تقضي على حياة سايكس، وكانت هذه إحدى الغايات الرئيسية التي يتعيَّن عليه بلوغها. وقال فاجين في ما بينه وبين نفسه، وهو ينقلب عائداً إلى بيته: «كيف أستطيع أن أضاعف سيطرتي عليها؟ أية قوة جديدة أستطيع أن أكتسبها؟»

إن أمثال هذه العقول لخصبة بالحيل. وسرعان ما بدا لفاجين رأي: إذا استطاع ـ من غير أن ينتزع منها أي اعتراف ـ أن يراقبها مراقبة شديدة، ويكتشف سر التغيّر الطارئ على عواطفها، يتهددها بإطلاع سايكس على القصة كلها (سايكس الذي كانت تهابه وتخشاه على نحو استثنائي) إذا لم ترضَ بالعمل وفقاً لخططه. . . ألا يكفل له هذا كله موافقتها وخضوعها؟

وقال فاجين بصوت عالٍ: «بلى، إنه سوف يكفله. إنها لن تجرؤ عندئذ على الرفض. لا، لن تجرؤ حين يتهدد الخطر حياتها نفسها. . . حياتها نفسها! لقد اتضحت السبيل أمام ناظري. لقد وجدت الوسيلة، ولسوف أضعها موضع الاستعمال. إني سأخضعك لسلطاني.»

وألقى إلى الوراء نظرة قاتمة وأومأ بيده إيماءة متوعدة نحو البقعة التي ترك فيها الوغد الوقح، ومضى لسبيله، شاغلاً يديه المعروقتين بثنايا ثوبه البالي: لقد تشبث بثنايا ثوبه بقبضة محكمة، وكأن عدواً بغيضاً كان يُسحق مع كل حركة من حركات أصابعه.

الفصل الخامس والأربعون

فاجين يكلف نوح كلايبول بمهمة سرية

وأفاق العجوز، صباح اليوم التالي، مبكراً، وأنشأ ينتظر بفارغ صبر ظهور رفيقه الجديد الذي أقبل آخر الأمر ـ بعد تأخر بدا وكأنه لانهائي ـ وشن على طعام الصباح غارة شرهة.

ـ «بوتلر» كذلك قال فاجين، وهو يُدني أحد الكراسي ويجلس قبالة موريس بوتلر.

فأجابه نوح قائلاً: «حسناً، ها أنا ذا. ما المسألة؟ لا تكلفني بأي عمل قبل أن أفرغ من الأكل. هذه علة كبيرة في هذا البيت. إن المرء لا يجد هنا، في أيما يوم من الأيام، وقتاً كافياً لتناول الطعام.»

ـ «في استطاعتك أن تتحدث وأنت تأكل، أليس في استطاعتك هذا؟» كذلك قال فاجين لاعناً نَهَم صديقه الصغير العزيز من أعمق أعماق قلبه.

فقال نوح وهو يقطع شَرْحة خبز هائلة: «أوه، طبعاً، في استطاعتي أن أتحدث. وإني أستمتع بالطعام أكثر حين أتحدث. أين شارلوت؟»

فقال فاجين: «لقد خرجت. لقد بعثت بها هذا الصباح مع الفتاة الأخرى، لأني أردت أن أخلو بك.»

فقال نوح: «أوه! كنت أتمنى لو أنك أمرتها بأن تعد لنا شيئاً من الخبز المحمص بالزبدة أولاً. حسناً، تحدث. إن حديثك لن يزعجني.»

لقد بدا، في الواقع، وكأنه لا يستشعر كبير خوف من أن يزعجه شيء. إذ كان واضحاً أنه قعد وقد وطن النية على أداء عمل جدي.

وقال فاجين: «لقد حالفك التوفيق أمس، يا عزيزي. جميل جداً! ستة شلنات وتسعة بنسات في اليوم الأول! إن سلب الأطفال سوف يعود عليك بثروة طائلة.»

فقال مستر بوتلر: «لا تنس أن تضيف إلى ذلك ثلاث قدور تتسع كل منها لنصف ليتر، وعلبة حليب واحدة.»

ـ «لا، لا، يا عزيزي. لقد كانت القدور الثلاث عملاً من أعمال العبقرية، ولكن علبة الحليب كانت رائعة من الروائع الكاملة.»

فلاحظ مستر بولتر في لهجة ملاطفة: «يخيّل إليّ أن ذلك يعتبر شيئاً حسناً بالنسبة إلى مبتدئ من المبتدئين. لقد أخذت القدور من فوق درابزون عال جداً، وكانت علبة الحليب واقفة وحدها خارج حانة من الحانات. ولقد تراءى لي أنها قد تصدأ بسبب من المطر، أو تصاب بزكام، كما تعلم جيداً. ايه؟ ها! ها!»

وتظاهر فاجين بالضحك من أعماق قلبه. وإذ كان مستر بوتلر قد

استنفد ضحكته فقد التهم سلسلة من اللقم الضخمة مجهزاً على رغيفه الأول المفروش بالزبدة، وشرع في التهام الآخر.

وقال فاجين منحنياً فوق الطاولة: «إني أريد أن أكلفك، يا بوتلر العزيز، بمهمة تحتاج إلى كثير من العناية والحذر.»

فأجابه بوتلر: «ولكن حذار أن تلقي بي إلى الخطر، أو ترسلني بعد اليوم إلى مخفر من مخافر البوليس. ذلك شيء لا يلائمني. أجل لا يلائمني. إني أحيطك علماً بهذا منذ البدء.»

فقال اليهودي: «ليس في ما سأكلفك به أقل خطر... لا، لا، على الإطلاق. كل ما سأسألك إياه هو أن تتجسس على امرأة.»

فسأله مستر بوتلر: «امرأة عجوز؟»

فأجابه فاجين: «امرأة شابة.»

فقال بوتلر: «في استطاعتي أن أفعل ذلك على أحسن وجه. ولقد كنت، أيام دراستي، مرائياً ماكراً من الدرجة الأولى. لماذا تريدني أن أتجسس عليها؟ ليس لكي....»

ـ «ليس لكي تفعل أي شيء. ولكن لكي تخبرني إلى أين تذهب، وبمن تجتمع، ـ وإذا كان ذلك ممكناً ـ ما الذي تقوله. عليك أن تتذكر الشارع، إذا تم ذلك في شارع، وتتذكر البيت إذا تم ذلك في البيت، وهكذا تعود حاملاً إليّ جميع المعلومات التي تستطيع جمعها.»

فسأله نوح، واضعاً كوبه على الطاولة، محدقاً النظر إلى وجه مستخدمه في لهفة: «ما الذي ستعطيني إياه لقاء ذلك؟»

فقال فاجين راغباً في إثارة شوقه إلى ذلك القنص: «إذا أجدت في أداء ذلك أعطيتك جنيهاً، يا عزيزي. أجل جنيهاً. وهذا ما لم يسبق لي أن دفعته قبل اليوم لقاء أية مهمة ليس فيها أي شيء مادي يمكن أن يُكسَب.»

وهنا سأله نوح: «ومن هي؟»

ـ «واحدة منا.»

فصاح نوح مغضناً أنفه: «يا إلهي! أنت ترتاب في أمرها، أليس كذلك؟»

فأجابه فاجين: «لقد وجدت أصدقاء جداً، يا عزيزي، وأن عليّ أن أعرف من هم هؤلاء الأصدقاء.»

فقال نوح: «فهمت. لمجرد الاستمتاع بمعرفتهم، إذا كانوا قوماً محترمين، إيه؟ ها! ها! ها! إني أنا الرجل الذي تستطيع الاتكال عليه.»

فصاح فاجين وقد ازدهاه نجاح اقتراحه: «لم أشك لحظة في أنك ذلك الرجل.»

فأجابه نوح: «طبعاً! طبعاً! أين هي؟ أين يتعيّن عليّ أن أنتظرها؟ إلى أين يتعيَّن عليّ أن أذهب؟»

فقال فاجين: «سوف أنبئك بهذا كله، يا عزيزي. ولسوف أقول لك، في الوقت المناسب، من هي تلك المرأة. كن أنت على قدم الاستعداد، وأترك الباقي لي.»

وتلك الليلة، والليلة التالية، والليلة التي عقبتهما، انتظر الجاسوس منتعلاً حذاء، عالي الساق، مرتدياً بزته الخاصة بحوذيي عربات النقل، وهو على أتم الاستعداد للانطلاق عند أول إشارة من فاجين. وانقضت ست ليال... ست ليال طويلة مضنية... وفي كل منها كان فاجين يرجع إلى البيت بوجه مكفهر، ويلمِّح في إيجاز إلى أن الأوان لما يحن بعد. حتى إذا كانت الليلة السابعة عاد إلى بيته في وقت مبكر أكثر من المعتاد، وعلى وجهه إمارات تهلل لم يوفق إلى إخفائها. وكان يوم أحد.

وقال فاجين: «إنها سوف تغادر البيت الليلة، وأنا واثق من أنها ستمضي لأداء المهمة التي نحن بصددها. فقد كانت وحدها طوال النهار، ولن يعود الرجل الذي تخشاه قبل انبلاج الصباح. تعال معي. عجل!»

ونهض نوح واثباً، من غير أن يقول كلمة ما. ذلك بأن اليهودي كان من الاهتياج البالغ بحيث أعداه، فإذا بالاهتياج يستبد به هو أيضاً. لقد غادرا البيت خلسة، وبعد أن اجتازا مسرعَين تيهاً في الشوارع الملتوية

انتهيا آخر الأمر إلى نزل أدرك نوح لأول وهلة أنه النزل الذي كان قد بات فيه ليلة وصوله إلى لندن.

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة، وكان الباب موصداً. وسرعان ما فتح على مفصلاته في رفق حين أطلق فاجين صَفرة خفيضة. ثم أنهما دخلا من غير ضجة، وأغلق الباب خلفهما.

وما لبث فاجين واليهودي الشاب الذي فتح الباب لهما أن وجها نظر نوح ـ من غير أن يغامرا حتى بالتهامس، مستعيضين عن الكلمات بإشارات خرساء ـ إلى اللوح الزجاجي، وأومآ إليه بأن يتسلق ويلقي نظرة على الشخص الذي في الحجرة المحاذية.

فسألهما في همس: «أهي المرأة؟»

فأومأ فاجين برأسه أن نعم.

فهمس نوح: «أنا لا أستطيع رؤية وجهها بوضوح. إنها منكِّسة رأسها، والشمعة من ورائها.»

ـ «ابق هناك.» كذلك همس فاجين. وأومأ إلى بارني فانصرف. وما هي غير لحظة حتى دخل الغلام الحجرة المحاذية، وبحجة إزالة الجزء المحترق من فتيل الشمعة نقلها إلى الوضع المنشود. ثم تحدث إلى الفتاة حاملاً إياها، بذلك، على رفع رأسها.

وصاح الجاسوس: «إني أراها الآن.»

ـ «في وضوح؟»

ـ «في وضوح يجعلني قادراً على معرفتها من بين ألف شخص.»

وسارع إلى الهبوط، عندما فُتح باب الحجرة، وخرجت الفتاة منها. وقاده فاجين نحو حاجز خشبي صغير، حيث اختبأ خلف ستارته، وحبسا أنفاسهما ريثما مرت على بضع خطوات من مخبئهما، وخرجت من الباب الذي كانا قد دخلا من خلاله.

ـ «هست! لقد ذهبت!» كذلك قال الغلام الذي كان يمسك بالباب.

وتبادل نوح النظرات مع فاجين، وانطلق لاحقاً بالفتاة.

وهمس الغلام: «إلى اليسار. انتقل إلى اليسار والزَمْ ذلك الجانب من الطريق.»

وفعل نوح ما طلب إليه. وعلى ضوء المصابيح رأى وجه الفتاة المبتعدة، وكانت تتقدمه مسافة ما. وتقدم مقترباً منها بقدر ما وجد الاقتراب حكيماً، ولزم الجانب المقابل من الشارع لكي يكون في ميسوره أن يراقب حركاتها على نحو أفضل. وتلفتت حولها في عصبية، مرتين أو ثلاث مرات، وكفت مرة عن الجري لكي تجيز لرجلين كانا يسيران في أثرها أن يتخطياها. لقد بدت وكأنها كانت كلما تقدمت استجمعت شتات شجاعتها، وأمست خطواتها أرسخ وأثبت. وحافظ الجاسوس على نفس المسافة النسبية الفاصلة بينهما، وتبعها، غير رافع عينيه عنها.

الفصل السادس والأربعون

اللقاء يتم في الموعد المضروب

دقت ساعات الكنائس الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والأربعين عندما برز شخصان فوق «جسر لندن». أما الأول، وكان يتقدم بخطى رشيقة سريعة، فكان شخص امرأة تجيل الطرف في ما حولها بقلق وكأنها تبحث عن مخلوق تتوقع أن تراه. وأما الآخر فكان شخص رجل اتخذ سبيله خلسة في أكثف الظلال التي وقع عليها، وعدل خطاه ـ على مسافة بعينها ـ وفقاً لخطاها: فهو يقف حين تقف، حتى إذا تحركت مرّة أخرى، استأنف السير خلسة، ولكن من غير أن يجيز لنفسه البتة، في حرارة مطاردته تلك، أن يتخطاها بأية حال. وهكذا اجتازا الجسر، من الـ «ميدلسيكس» إلى شاطئ «ساري»، وعندئذ التفتت المرأة إلى الوراء وقد خابت في ما يبدو جميع محاولاتها الملهوفة للاهتداء إلى من تبحث عنه بين السابلة. كانت الحركة مفاجئة، ولكن الشخص الذي كان يراقبها لم يأخذ بها على حين غرة، ذلك بأنه انكمش إلى أحد المنعزلات التي

تعلو دعائم الجسر، وانحنى فوق الحاجز لكي يخفي وجهه على نحو أفضل. بينا أجاز للمرأة أن تنتقل إلى الرصيف المقابل. حتى إذا أمست المسافة التي تفصلها عنه مساوية أو تكاد لتلك التي فصلتهما عنه من قبل، انزلق هابطاً في هدوء، وراح يتبعها من جديد. وعند منتصف الجسر كفت عن السير. فكف الرجل عن السير أيضاً.

كانت ليلة دامسة الظلام. وكان اليوم غير مغر بمغادرة البيوت، وفي تلك الساعة وذلك المكان لم يكن غير أناس قليلين يتحركون في الشوارع. وهؤلاء أنفسهم كانوا يجرون في سرعة بالغة، من غير أن يروا أو أن يلاحظوا على وجه التحقيق، لا المرأة ولا الرجل الذي كان يتعقبها. إن منظرهما لم يكن مما يلفت فضول أولئك اللندنيين المعدمين الذين اتفق أن اتخذوا سبيلهم فوق الجسر، تلك الليلة، بحثاً عن قنطرة باردة أو زريبة لا باب لها حيث يستطيعون أن يضطجعوا، وهكذا وقف الرجل والفتاة صامتين، فلا هما يتكلمان ولا أحد من السابلة يوجه إليهما كلام.

وران على النهر ضباب عمق وهج النيران المضرمة فوق بعض الزوارق الصغيرة الراسية عند أرصفة النهر المختلفة، وزاد المباني القاتمة القائمة على الضفتين ظلمة وإبهاماً. وانتصبت المخازن العتيقة المكسوة بالسخام، في كلتا الناحيتين، مظلمة كئيبة من بين مجموعة السطوح وحيطان الجملون المتلاصقة. كان برج كنيسة سانت سايفيور القديمة، وبرج سانت ماغنوس المستدق الطرف ـ اللذان كانا منذ عهد بعيد حارسي الجسر العتيق الجبارين ـ منظورين في الظلام. ولكن غابة المراكب تحت الجسر، وأبراج الكنائس المتناثرة بأعداد كبيرة فوقه، كانت كلها محجوبة عن الأنظار أو تكاد.

وكانت الفتاة قد خطت بضع خطوات جيئة وذهاباً، على نحو متكرر قلق ـ من غير أن يرفع المراقب اللامنظور عينيه عنها لحظة واحدة ـ عندما قرع ناقوس كاتدرائية القديس بولس الثقيل معلناً ولادة يوم جديد. وعلى القصر، وموطن الفسوق، والسجن، ومستشفى المجاذيب، على حجرات

الولادة والموت، والصحة والمرض، ووجه الجثة المتخشب ورقاد الطفل الهادئ. . . على هذه كلها خيم منتصف الليل.

ولم تكد تنقضي دقيقتان على دقات الساعة المعلنة انتصاف الليل أيضاً حتى ترجلت فتاة، يصحبها سيد ماجد أشيب، من إحدى عربات الأجرة على مسافة يسيرة من الجسر. وبعد أن صرفا العربة اتخذا سبيلهما نحوه مباشرة. وما وطئا رصيف الجسر حتى وثبت الفتاة وهرعت إليهما.

ومشيا قُدُماً، مجيلين الطرف حولهما، وقد بدت على محياهما سيماء أمل ضئيل لم يكن يطمع في التحقق إلا قليلاً. وفجأة انضم إليهما هذا الرفيق الجديد، فكفا عن السير مطلقين صيحة دهش، ما لبثا أن كبحاها في الحال. ذلك بأن رجلاً يرتدي ثياباً ريفية انتهى إلى مقربة منهما ـ بل لقد حاذاهما محتكاً بهما ـ في تلك اللحظة بالذات.

وقالت نانسي متعجلة: «ليس هنا. أنا أخشى أن أتحدث إليكما هنا فلنبتعد عن الطريق العام. . ولنهبط درجات السلم هناك!»

وفيما كانت تنطق بهذه الكلمات، مشيرة بيدها إلى الناحية التي رغبت إليهما أن يمضيا إليها، التفت الريفي خلفه، ثم سألهم في لهجة جافية لأي غرض يحتلون الرصيف كله، وتابع سبيله.

وكانت الدرجات التي أومأت إليها الفتاة هي تلك التي تشكل السلم المفضية إلى النهر، عند ضفة «ساري»، وعلى نفس جانب الجسر الذي تقوم فوقه كنيسة سانت سايفيور. وإلى تلك البقعة أسرع الرجل، المتخذ مظهر أهل الأرياف، من غير أن يلمحه أحد منهم. وبعد أن ألقى على ذلك الموضع نظرة فاحصة شرع يهبط درجات السلم.

والواقع أن تلك السلم هي جزء من الجسر. وهي تتألف من ثلاث مجموعات من الدرجات. وفي أدنى المجموعة الثانية يهبط الجدار الحجري القائم إلى اليسار وينتهي عند نصف عمود مربع زخرفي مواجه للتايمس. وعند هذه النقطة تتسع الدرجات الدنيا وتَعْرُض، بحيث إن الشخص الذي ينعطف عند زاوية الجدار تلك تتعذر رؤيته على أيما

شخص آخر يتفق أن يكون واقفاً آنذاك على السلم فوقه، ولو بدرجة واحدة ليس غير. وحين بلغ الريفي هذه النقطة أجال بصره في ما حوله باهتياج. وإذ لم ير أي مخبأ أفضل، وإذ كان ثمة متسع كاف بسبب من انحسار المد، فقد انزلق جانباً، مولياً ظهره نصف العمود المربع، وأنشأ ينتظر، موقناً أو يكاد أنهم لن يهبطوا إلى أدنى من ذلك، وأنه حتى ولو لم يستطع أن يسمع ما سيقولون فسوف يكون في ميسوره أن يتعقبهم.

وتصرم الوقت في ذلك المكان المنعزل تصرماً بطيئاً جداً، وتعاظمت لهفة الجاسوس على النفاذ إلى دوافع تلك المقابلة المختلفة اختلافاً كلياً عما كان قد صور له.. حتى لقد اعتبر غير مرة أنه خسر المعركة، وأقنع نفسه بأحد أمرين: أنهم كانوا قد وقفوا عند نقطة أعلى بكثير، أو أنهم كانوا قد لجأوا إلى بقعة أخرى مختلفة بالكلية لعقد اجتماعهم المحاط بالأسرار. وكان على وشك الانبثاق من مخبئه والعودة صعداً إلى الجسر عندما سمع وقع أقدام أولاً، ثم بعد ذلك مباشرة أصواتاً تنطلق من على بضع خطوات من أذنيه.

ورفع نفسه ملتصقاً بالحائط وحبس أنفاسه، وأنشأ يصغي بانتباه شديد.

ـ «هذا البعد كاف.» كذلك قال صوت كان من الواضح أنه صوت السيد الماجد. «أنا لن أدع السيدة الصغيرة تمضي إلى أبعد من ذلك. ولقد كان يمكن لكثير من الناس أن يرتابوا فيك ارتياباً عظيماً حتى ولو لم تمعني في الابتعاد أكثر مما فعلت. ولكني راغب، كما ترين، في أن أسايرك.»

فصاح صوت الفتاة التي كان الجاسوس قد اقتفى أثرها: «أن تسايرني! أنت رجل بالغ اللطف، حقاً، يا سيدي. أن تسايرني! حسناً، حسناً، ما لنا وهذا.»

فقال السيد الماجد بلهجة أحفَلَ باللطف: «ولكن لأي غرض يمكن أن تكوني قد سقتِنا إلى هذا المكان الغريب؟ لِمَ لم تدعيني أتحدث إليك، هناك فوق، حيث يوجد ضوء، وشيء من الحركة، بدلاً من أن تجيئي بنا إلى هذا الجحر المظلم الموحش؟»

فأجابته نانسي: «لقد قلت لك من قبل إني كنت أخشى أن أتحدث إليكما هناك. أنا لا أدري لذلك سبباً.» وارتعدت الفتاة. «ولكني أستشعر الليلة من الخوف والرعب ما لا أكاد أقوى على احتماله.»

فسألها السيد الماجد الذي بدا وكأنه يرثي لها: «الخوف من ماذا؟»

فأجابته الفتاة: «لست أدري. ولشد ما أتمنى لو دريت. لقد ساورتني طوال النهار فكرات موت رهيبة، وأكفان ملطخة بالدم، وخوف أحرقني وكأنني أتقلب على نار. ولقد كنت أقرأ الليلة كتاباً قتلاً للوقت، فإذا بي ألمح الأشياء نفسها بين السطور.»

فقال السيد الماجد وهو يهدئ من روعها: «أوهام.»

فأجابته الفتاة في صوت أجش: «لا، ليست أوهاماً. أقسم لك أني رأيت كلمة «تابوت» مطبوعة في كل صفحة من صفحات الكتاب بأحرف كبيرة سوداء.. أجل، وهذه الليلة رأيت الناس يحملون تابوتاً من تلك التوابيت ويجرون به في الشارع على مقربة مني.»

فقال السيد الماجد: «ليس ثمة أي شيء غير مألوف في هذا. فكثيراً ما مرّ بي أناس يحملون توابيت.»

فأجابته الفتاة: «تلك كانت توابيت حقيقية. أما هذا فلم يكن.»

كان ثمة في سيمائها شيء استثنائي إلى درجة جعلت أوصال المستمع المتواري تنْمَل وهو يصغي إلى الفتاة تنطق بهذه الكلمات، وجعلت دمه يجري بارداً في عروقه. وقد هدأ حين سمع صوت السيدة الشابة العذب وهي تتوسل إليها أن تعتصم بالهدوء، وأن لا تستسلم لمثل هذه الأوهام الرهيبة.

وقالت السيدة الشابة لرفيقها: «تحدث إليها في لطف. يا للمخلوقة المسكينة! يبدو أنها في حاجة إلى ذلك.»

فصاحت الفتاة: «إن على أصحابك الأتقياء المتشامخين أن يُسمعوني العظات الزاخرة بالكلام على نار جهنم والانتقام الإلهي. آه، يا سيدتي

العزيزة، لماذا لا يحاول أولئك الذين يزعمون أنهم قطعان اللّه الخاصة أن يكونوا لطافاً معنا، نحن البؤساء المساكين، مثلك أنت. . . أنت التي تزهين بالشباب والجمال وبكل ما لا يملكونه هم. . . أنت التي يحق لك أن تكوني أكثر تكبراً منهم، بعض الشيء، بدلاً من أن تكوني أشد تواضعاً منهم بكثير؟»

فقال السيد الماجد: «آه! إن المسلم ليوجه وجهه، بعد أن يغسله جيداً، نحو الشرق(*)، عندما يصلي. أما أصحابنا الذين تتحدثين عنهم فإنهم بعد يفركوا وجوههم بالعالم فركاً يمسح عنها كل أثر من آثار الابتسام يتوجهون بمثل الاطراد نفسه نحو جانب السماء الأشد قتاماً. ولو قد سُئلت ماذا تفضّل: أن تكون مسلماً أو أن تكون مسيحياً فريسياً(**) لأجبت بقولي: أفضل أن أكون مسلماً.»

وبدت هذه الكلمات وكأنها موجهة إلى السيدة الشابة، ولعل قائلها قصد بها أن يتيح لنانسي فرصة السيطرة على نفسها واستعادة رباطة جأشها. وما هي إلا برهة يسيرة حتى خاطبها السيد الماجد قائلاً:

ـ «أنت لم تجيئي إلى هنا مساء الأحد الماضي.»

فأجابته نانسي: «لم أستطع أن أجيء. لقد احتُجزت بالقوة.»

ـ «ومن الذي احتجزك؟»

ـ «الرجل الذي حدثت السيدة الشابة عنه.»

فسألها السيد الماجد العجوز: «أرجو أن لا تكون الظنون قد ساورته فشعر أنك على اتصال مع أحد في ما يتصل بالموضوع الذي جاء بنا إلى هنا، هذه الليلة. .»

فأجابته الفتاة هازة رأسها: «لا. إن من العسير عليّ جداً أن أتركه من غير أن أخبره بالسبب الذي يحملني على ذلك. والواقع أنه ما كان في

(*) المقصود بـ «نحو الشرق»، نحو الكعبة المشرّفة. (المعرب)

(**) الفريسي: المنافق. المرائي.

إمكاني أن أجتمع إلى السيدة يوم اجتمعت بها لو لم أجرعه شيئاً من صبغة الأفيون قبل أن أغادر المنزل.»

فسألها السيد الماجد: «وهل أفاق قبل أن تعودي؟»

ـ «لا. ولم يرتب في أمري لا هو ولا أحد منهم.»

فقال السيد الماجد: «حسن. أصغي الآن إليّ.»

فأجابته الفتاة، وقد تمهل لحظة: «أنا على استعداد.»

فاستهل السيد الماجد كلامه قائلاً: «إن هذه السيدة الشابة قد نقلت إليّ وإلى بعض الأصدقاء الآخرين الذين يستطيع المرء أن يثق بهم ما أنبأتها به منذ أسبوعين تقريباً. وأنا أعترف بأن الشكوك خامرتني بادئ الأمر، فتساءلت ما إذا كنت جديرة بأن أثق بك ثقة كاملة أم لا. ولكني أؤمن الآن إيماناً راسخاً بأنك جديرة بذلك.»

فقالت الفتاة في حرارة: «أجل، أنا جديرة.»

فقال السيد الماجد: «أعيد القول إني أؤمن بهذا. ولكي أثبت لك أني نزاع إلى الثقة بك أنبئك في غير تحفظ أننا نعتزم أن ننتزع السر، أياً ما كان ذلك السر، بفضل مخاوف الرجل الذي يدعونه مونكس، ولكن إذا... إذا لم نستطع أن نفوز بذلك الرجل، أو إذا فزنا به ثم لم نستطع أن نحصل منه على ما نريد فعندئذ يتعيَّن عليك أن تسلمي إلينا اليهودي.»

فصاحت الفتاة مجفلة: «فاجين؟»

فقال السيد الماجد: «أجل. إن عليك أن تسلمي ذلك الرجل إلينا.»

فأجابته الفتاة: «لن أفعل ذلك أبداً! لن أفعل ذلك أبداً! برغم أنه الشيطان نفسه، وبرغم أنه كان بالنسبة إليّ أسوأ من الشيطان. لا، أنا لن أفعل هذا أبداً.»

ـ «لن تفعلي هذا؟» كذلك قال السيد الماجد الذي بدا وكأنه قد استعد استعداداً كاملاً لسماع ذلك الجواب.

فأجابته الفتاة: «أبداً!»

ـ «قولي لي لماذا؟»

فأجابته الفتاة في حزم: «لسبب واحد. . لسبب واحد تعرفه السيدة، ولسوف تؤيدني في هذا ـ أنا واثقة من أنها ستفعل ـ لأنها عاهدتني على ذلك. ثم إن هناك سبباً آخر: وهو أنه ارتكب في حياته آثاماً كثيرة، وأنني ارتكبت بدوري آثاماً كبيرة. وهناك كثيرون تورطوا معنا في الشرور نفسها فلن أغدر بهم. . . لا، لن أغدر بأولئك الذين كان في استطاعتهم أن يغدروا بي، ولكنهم لم يفعلوا، برغم خباثتهم كلها.»

فسارع السيد إلى القول وكأن تلك النقطة كانت هي ما سعى إلى الفوز به: «إذن، أرشديني إلى مونكس، واتركي لي أن أتدبر أمره بنفسي.»

ـ «وإذا ما وشى بالآخرين؟»

ـ «في هذه الحالة أعدك ـ إذا ما استطعنا أن ننتزع الحقيقة منه ـ بأن لا أذهب بالمسألة إلى أبعد من ذلك. فلا بد أن تكون في قصة حياة أوليفر الصغير أحداث من المؤلم عرضها على أنظار الناس. وهكذا ما إن ننتزع الحقيقة من فمه حتى نترك الآخرين وشأنهم.»

فتساءلت الفتاة: «وإذا لم يبح بها؟»

فأردف السيد الماجد: «عندئذ لن يقدم فاجين ذاك إلى العدالة من غير موافقتك. وفي مثل هذه الحالة سيكون بإمكاني، في ما أعتقد، أن أبدي لك أسباباً جديرة بأن تدعوك إلى منحنا تلك الموافقة.»

فتساءلت الفتاة: «هل تعاهدني السيدة على ذلك؟»

ـ «أجل، أعاهدك. . . أعاهدك بكل صدق وإخلاص.»

فقالت الفتاة بعد صمت قصير: «ولن يعلم مونكس كيف عرفتما ما تعرفانه؟»

فأجابها السيد الماجد: «أبداً. إن هذه المعلومات يجب أن تستعمل ضده بطريقة لا تمكنه من فهم مصدرها ولو على سبيل التخمين.»

فقالت الفتاة بعد فترة أخرى من الصمت: «لقد كنت كاذبة، ولقد عشت منذ طفولتي بين الكذابين، ولكني سوف أثق بكلامكما.»

وبعد أن أكد لها كل من السيد الماجد والسيدة الشابة أن في ميسورها أن تثق بهما شرعت في التحدث بصوت خفيض إلى درجة جعلت من العسير على الجاسوس أن يكتشف حتى فحوى ما قالت، فذكرت اسم النزل (الذي خرجت منه تلك الليلة، والذي منه اقتفيت آثارها)، ووصفت موقعه. ومن طريقة توقفها عن الكلام بين الفينة والفينة بدا وكأن السيد الماجد كان يدوّن مذكرات سريعة عن المعلومات التي أفضت بها إليه. حتى إذا أوضحت موقع البيت إيضاحاً دقيقاً وحددت أفضل مكان تمكن مراقبته منه من غير إثارة للانتباه، والليالي والمواقيت التي كان من دأبه أن يختلف فيها إليه، بدت وكأنها تفكِّر بضع لحظات لكي تستحضر في ذهنها صورة أوضح عن سمات مونكس ومظهره.

ثم قالت: «إنه رجل طويل القامة قوي البنية، ولكنه مهزول بعض الشيء. وهو حين يمشي لا يفتأ يلتفت ذات اليمين وذات اليسار. لا تنس هذا، لأن عينيه غائرتان في رأسه على نحو لا تضارعه في العمق أيما عينين أخريين، ومن هنا يكاد يكون في استطاعتك أن تعرفه بهذه العلامة الفارقة وحدها. أما وجهه فداكن، مثل شعره وعينيه. وعلى الرغم من أن سنه لا يمكن أن تعدو السادسة والعشرين أو الثامنة والعشرين فإنه ذابل منهوك القوى. ويغلب على شفتيه، عادة، شحوب شديد، وهما مشوهتان تبدو عليهما آثار أسنان. ذلك بأنه يصاب بين الفينة والفينة بنوبات رهيبة، ويبلغ به الأمر في بعض الأحيان أن يعض يديه ويغطيهما بالجراح ـ لماذا أجفلت؟» كذلك قالت الفتاة، وكفت عن الكلام فجأة.

فأجابها السيد الماجد، متعجلاً، قائلاً: «لم أعِ أني أجفلت. أرجوك أن تتابعي.»

فقالت الفتاة: «بعض هذه المعلومات استقيتُهُ من أناس آخرين في النزل الذي حدثتك عنه، ذلك بأني لم أره إلا مرتين، وفي كل منهما كان متلفعاً بعباءة واسعة. وأحسب أن هذا هو كل ما أستطيع أن أقدمه من معلومات تساعدك على معرفته. ولكن قف..» كذلك أضافت، «أن على

رقبته، وفي مكان عال إلى حد يمكنك من أن ترى جزءاً منها تحت منديله عندما يدير وجهه، أقول إن على رقبته. . . .»

فصاح السيد الماجد: «علامة عريضة حمراء، ندبة أو حرق، أليس كذلك؟»

فقالت الفتاة: «عجيب جداً؟ أنت تعرفه إذن!»

وأطلقت السيدة صيحة اندهاش. واعتصموا كلهم بالصمت بضع لحظات إلى حد مكّن الجاسوس من أن يسمعهم يتنفسون في وضوح.

فقال السيد الماجد قاطعاً الصمت: «أحسب أني أعرفه. ويخيل إليّ، من خلال وصفك، أني أعرفه من غير ريب. سوف نرى، الناس يتشابهون تشابهاً عظيماً. ومن يدري، فقد لا يكون هو الشخص نفسه.»

وفيما هو يتحدث على هذا النحو، في لامبالاة مصطنعة، خطا خطوة أو خطوتين نحو الجاسوس المختبئ، على ما أدرك هذا الأخير حين سمعه يغمغم في وضوح: «لا بدَّ أنه هو!»

ـ «والآن. . .» كذلك قال عائداً إلى موضعه السابق، على ما بدا من الصوت، «لقد أسديت إلينا أعظم العون، أيتها الفتاة. وأرجو أن تفيدي من ذلك. ما الذي أستطيع أن أعمله لخدمتك؟»

فأجابته نانسي: «لا شيء».

ـ «إنك لن تصري على قول هذا.» كذلك رد عليها السيد الماجد في نبرة حنان كان خليقاً بها أن تعطف فؤاداً أقسى وأشد تحجراً من فؤادها. «فكري الآن. قولي لي.»

فأجابته الفتاة، وهي تبكي: «لا شيء، يا سيدي. ليس في استطاعتك فعل شيئاً لمساعدتي. لم يبق ثمة أي أمل لي. . أؤكد لك ذلك.»

فقال السيد الماجد: «إنك إنتِ التي توصدين باب الأمل. إن الماضي لم يكن بالنسبة إليك غير هدر رهيب للطاقات الفتية المضيعة، ولتلك الكنوز التي لا تثمّن بمال والتي يمنحنا إياها الخالق مرة ثم يحبسها عنها

بعد ذلك، أما في ما يتصل بالمستقبل ففي استطاعتك أن تتعلقي بحبال الأمل. أنا لا أقول إن في إمكاني أن أهبك طمأنينة القلب والفكر، لأنك لن تفوزي بهذه الطمأنينة إلا بمقدار ما تسعين في سبيلها. ولكن في استطاعتي أن أبحث لك عن ملجأ هادئ، هنا في إنكلترة، أو هناك في بعض البلدان الأجنبية إن كنت تخشين البقاء في الوطن. ليس هذا فحسب، بل إني لشديد التوق إلى أن أبحث لك عن ملجأ كهذا. فقبل فجر غد، قبل أن يفيق هذا النهر على أولى أشعّة النهار، سوف توضعين في مكان لن يكون في مقدور رفاقك السابقين أن يبلغوه بأية حال، من غير أن تتركي وراءك أقل أثر، وكأنك زلتِ في هذه اللحظة عن ظهر الأرض. هيا! أنا لن أدعك تعودين لتتبادلي كلمة واحدة مع أيما رفيق قديم، أو لتلقي نظرة واحدة على مأواك القديم، أو لتتنفسي نفس الهواء الذي لا يعدو أن يكون بالنسبة إليك طاعوناً وموتاً. أهجري هذا كله، ما دامت هناك فرصة.»

فصاحت السيدة الشابة: «سوف تقتنع الآن بذلك. إنها تتردد، كما أستطيع أن أؤكد.»

فقال السيد الماجد: «أخشى أن تكوني مخطئة، يا عزيزتي.»

فأجابت الفتاة، بعد صراع باطني قصير: «أنا لا أتردد، يا سيدي. أنا مشدودة بالأغلال إلى حياتي القديمة. إني أمقتها الآن وأبغضها، ولكني لا أستطيع التخلي عنها. لقد أوغلت في طريق الآثام حتى بلغت نقطة اللارجوع. ومع ذلك فلست أدري، إذ لو أنك تحدثت إليّ على هذا النحو منذ فترة ما لسخرت من حديثك. ولكن. . .» وأجالت طرفها في ما حولها باهتياج «إن الخوف يستبد بي من جديد. وعليَّ أن أرجع إلى البيت.»

ـ «البيت!» كذلك كررت السيدة الشابة مفخمة كل حرف من حروف هذه الكلمة.

فأجابتها الفتاة: «أجل، البيت، يا سيدتي. إلى ذلك البيت الذي شيدته لنفسي بكدحي الموصول طوال حياتي. دعني أنصرف. إني عرضة

للمراقبة. اذهب! اذهب! وإذا كنت قد أسديت إليك أية خدمة فكل ما أسألك إياه هو أن تتركني، وتدعني أمضي لسبيلي على انفراد.»

فقال السيد الماجد وهو يطلق زفرة: «ليس ثمة أمل. ومن يدري فلعلنا نعرض سلامتها للخطر ببقائنا هنا. وجائز أن نكون قد عُقناها أكثر مما كانت تتوقع.»

فقالت الفتاة في حرارة: «أجل، أجل، لقد فعلتما.»

فصاحت السيدة الشابة: «أية نهاية يمكن أن تنتهي إليها حياة هذه المخلوقة البائسة!»

فقالت الفتاة: «انظري أمامك، أيتها السيدة. انظري إلى تلك المياه القاتمة. كم من مرة قرأت عن أناس مثلي غاصوا في اللجة غير مخلِّفين نفساً بشرية واحدة تعنى بهم أو تبكي عليهم. قد يتم ذلك بعد سنوات، وقد يتم بعد أشهر معدودات، ولكني لا بدَّ صائرة إلى هذا، آخر الأمر.»

فأجابتها السيدة الشابة باكية: «لا تقولي ذلك، أرجوك!»

فقالت الفتاة: «إن مثل هذا الكلام لن يطرق أذنيك بعد اليوم، يا سيدتي العزيزة. وأسأل اللّه أن يقيك سماع هذه الأهوال وأمثالها. طاب مساؤك، طاب مساؤك!»

واستدار السيد الماجد.

فصاحت السيدة الصغيرة: «دونك هذا الكيس. خذيه أرجوك، فقد تجدين فيه ما يعينك في ساعة الحاجة والبلاء.»

فأجابتها الفتاة: «لا! أنا لم أفعل ذلك طمعاً في المال. فدعيني أحتفظ بهذه الفكرة. ولكن... أعطيني، برغم ذلك، شيئاً كنت تلبسينه: فأنا أود أن آخذ شيئاً. لا، لا، لست أريد خاتماً... بل أريد قفازيك أو منديلك... أو أي شيء أستطيع أن أحتفظ به ذكرى منك، أيتها السيدة اللطيفة. والآن، فليباركك اللّه! فليباركك اللّه! طاب مساؤك!»

وكان في الاهتياج العنيف الذي غلب على الفتاة وفي خوفها من أن افتضاح أمرها ما قد يعرضها للاضطهاد وسوء العذاب، ما بدا وكأنه أقنع

السيد الماجد بتركها، نزولاً عند رغبتها. وسمعت أصداء أقدام متراجعة، وصمتت الأصوات.

وسرعان ما برز شخصا السيدة الصغيرة ورفيقها فوق الجسر بعد ذلك. لقد وقفا عند قمة السلم.

وصاحت السيدة الشابة وهي تصغي: «اسمع! هل نادت؟ لقد حسبت أني سمعت صوتها.»

فأجابها مستر براونلو، ملتفتاً إلى الوراء في كآبة: «لا، يا حبيبتي. إنها لم تتحرك، ولن تتحرك إلا بعد أن ننصرف.»

وتباطأت روز مايلي، ولكن السيد العجوز وضع ذراعه في ذراعها، وقادها في قوة رفيقة. حتى إذا تواريا عن النظر ارتمت الفتاة على طولها كله تقريباً فوق إحدى درجات السلم الحجرية، ونفست عن التياع فؤادها بدموع سخينة.

وبعد فترة يسيرة نهضت، وراحت ترتقي درجات السلم بخطى واهنة مضطربة. وظل الجاسوس الذاهل جامداً في موقعه لا يتحرّك، طوال بضع دقائق بعد ذلك. حتى إذا استيقن، بكثير من النظرات الحذرة إلى ما حوله، أنه أمسى وحده من جديد انزلق من مخبئه في أناة، وعاد خلسة في محاذاة الجدار، بمثل الطريقة التي كان قد هبط بها إلى هناك.

وحين بلغ قمة السلم اختلس النظر غير مرة ليستوثق من أن أحداً لا يراقبه. ومن ثم انطلق نوح كلايبول بأقصى سرعته، واتجه نحو منزل اليهودي بأسرع ما استطاعت رجلاه أن تحملاه.

الفصل السابع والأربعون

عواقب وخيمة

كانت قد بقيت ساعتان اثنتان لانبلاج الفجر، وهي الفترة التي يمكن أن تدعى في خريف العام، وبحق، جوف الليل، إذ تكون الشوارع صامتة

مهجورة، وإذ تبدو الأصوات نفسها وكأنها استسلمت للرقاد، ويبدو التهتك والشغب وكأنهما قد أويا إلى مضجعيهما ليحلما. في تلك الساعة الساكنة الصامتة بالذات، كان فاجين ساهراً في جحره المألوف، مقطب الجبين شاحب الوجه، محمر العينين محتقنهما إلى درجة بدا معها شبحاً رهيباً غادر القبر منذ لحظة وقد أقضت مضجعه روح شريرة.

لقد جثم قرب مستوقد بارد متدثراً بلحاف عتيق بال، موجهاً وجهه نحو شمعة تتلاشى أنفاسها فوق طاولة قريبة منه. كانت يده اليمنى مرفوعة إلى شفتيه، وكان خلال استغراقه في التفكير منكباً على قرض أظافره الطويلة السوداء، فتبدو في لثّته الخالية من الأسنان أنياب قليلة أشبه ما تكون بأنياب كلب أو هرة.

وغط نوح كلايبول في نومه وقد تمدد فوق حصير مفروش على الأرض. وكان الرجل العجوز يوجه إليه عينيه، في بعض الأحيان، لحظة من زمان، ثم يردهما بعد ذلك إلى الشمعة، التي أظهرت (بفتيلها الطويل المسود المنثني على نفسه إنثناء كاملاً تقريباً وشحمها الحار السائل على نحو متخثر فوق الطاولة) إن أفكاره كانت مشغولة في مكان آخر.

ولقد كانت كذلك في الواقع، فتحسره لإخفاق خطته الرائعة، وكرهه للفتاة التي تجاسرت على مفاوضة قوم أغراب، وارتيابه المطلق في أنها رفضت تسليمه، وخيبة أمله المريرة لضياع أمله في الانتقام من سايكس، وخوفه من الافتضاح والخراب والموت، وغيظه الضاري القاتل الذي ألهب ذلك كله.. تلك كانت الفكرات المنفعلة التي راودت ذهن فاجين متعاقبة في شبه دوامة خاطفة غير منقطعة، بينا اعتلجت في فؤاده ضروب الخواطر الشريرة والنيات الأشد قذارة.

وظل قابعاً هناك غير مبدل وضعه أقل تبديل، وغير مبال بالزمن ـ في ما يبدو ـ أضأل مبالاة، حتى جذب أذنه الحادة وقع أقدام في الشارع.

ـ «وأخيراً!» كذلك غمغم فاجين ماسحاً شفتيه الجافتين المحمومتين. «وأخيراً!»

وفيما هو يتكلم قرع الجرس في رفق. فارتقى السلم إلى الباب، ثم عاد لتوه يصحبه رجل متلفع حتى الذقن، متأبط صرة. حتى إذا قعد هذا الرجل وطرح معطفه عن كتفيه تكشف عن شخص سايكس البدين.

ـ «خذ!» كذلك قال، واضعاً الصرة على الطاولة. «اعتن بها عناية حسنة، وحاول أن تفيد منها أقصى ما تكون الإفادة. لقد شقيت في الحصول عليها شقاءً عظيماً، وكنت أحسب أنه سيكون في إمكاني أن أصل إلى هنا منذ ثلاث ساعات.»

ووضع فاجين يده على الصرة، ثم أقفل عليها باب الخزانة وعاد إلى مقعده من غير أن ينبس بكلمة. ولكنه لم يرفع عينيه عن اللص، لحظة واحدة، خلال ذلك كله. حتى إذا جلسا متقابلين، ركّز بصره عليه ـ وقد ارتعدت شفتاه ارتعاداً عنيفاً، وعصفت بوجهه انفعالات استبدت به ـ تركيزاً حمل سارق البيوت على رد كرسيه إلى الوراء على نحو لاإرادي، وأنشأ يتأمل اليهودي وإمارات الذعر العظيم على وجهه.

وقال سايكس: «والآن ماذا؟ لماذا تنظر إلى الناس هكذا؟»

فرفع فاجين يده اليمنى، وهز سبابته المرتعدة في الهواء. ولكن انفعاله كان من العنف بحيث فقد القدرة على الكلام مؤقتاً.

ـ «يا للشيطان!» كذلك قال سايكس متحسساً صدره في ذعر. «لقد أصابه مس من جنون. يتعيَّن عليّ أن آخذ حذري هنا.»

فأجابه فاجين وقد استعاد القدرة على الكلام: «لا، لا. لست... لست أنت الشخص المقصود يا بيل. أنا.. أنا لا ألومك على شيء.»

ـ «أوه، لا، أنت لم تفعل شيئاً من ذلك، أليس هذا صحيحاً؟» كذلك قال سايكس، ناظراً إليه في تجهم، ونقل غدارته ـ في تباه ـ إلى جيب أقرب إلى متناوله.

فقال فاجين مقرباً كرسيه إلى أدنى: «لدي شيء أحب أن أقوله لك.. شيء سوف يقع في نفسك موقعاً أشد من موقعه في نفسي.»

ـ «ماذا؟» كذلك قال اللص وفي وجهه سيماء تؤذن بعدم التصديق. «تكلم! عجل! وإلا اعتقدت نانسي أني هلكت.»

فنظر سايكس إلى وجه اليهودي في ارتباك عظيم، وإذ لم يجد ثمة أي تفسير لذلك اللغز، أنشب أظفار يده الغليظة برقبة فاجين وأنشأ يهزه هزاً عنيفاً.

وقال: «تكلم ولا تبطئ! وإذا لم تفعل أخمدت أنفاسك خنقاً. افتح فمك وقل ما تريد أن تقوله في كلمات واضحة. هيا، انطق، أيها الوغد العجوز الهائل، انطق!»

فاستهل فاجين كلامه: «لنفرض أن الغلام الراقد هناك..» واستدار سايكس إلى حيث كان نوح نائماً، وكأنه لم ينتبه إليه من قبل. وقال: «حسناً؟» وهو يستعيد وضعه السابق.

فتابع فاجين كلامه: «لنفرض أن ذلك الغلام وشى بنا.. أفشى سرنا جميعاً... فالتمس بادئ الأمر الأشخاص الذين لا بدَّ منهم لتحقيق ذلك، ثم عقد اجتماعاً معهم في الشارع ليعطيهم أوصافنا، وليصف كل علامة فارقة يمكن أن يعرفونا بها، والوكر الذي يستطاع إلقاء القبض علينا فيه بأقصى السهولة واليسر. لنفرض أنه أقدم على ذلك كله، وأنه أقدم فوق هذا على كشف مؤامرة تورطنا كلنا فيها، كثيراً أو قليلاً... وإنه فعل ذلك إرضاء لنزوة في ذات نفسه... من غير أن يقبض عليه، ومن غير أن يقع في الشرك، أو يحاكم، أو يحرضه السجان ويدفعه بجعل طعامه مقصوراً على الخبز والماء.. أجل إرضاء لنزوة في ذات نفسه، وإشباعاً لشهوة من شهواته، غير متورع عن التسلل إلى الخارج في جوف الليل ليبحث عن أولئك الذين يضمرون لنا أشد العداء، ويسعى بنا عندهم. هل تسمعني؟» كذلك صاح اليهودي، وقد تطاير شرر الغيظ من عينيه. «لنفرض أنه أقدم على هذا كله، فما الذي يكون؟»

ـ «ما الذي يكون؟» هكذا أجابه سايكس، ثم أطلق يميناً هائلة: «إذا ما ترك حياً ريثما أصل، فسوف أسحن جمجمته تحت عقب حذائي

الحديدية حتى أحيلها إلى ذرات يبلغ عددها عدد شعر رأسه!»

فصاح فاجين صيحة كادت أن تكون زعيقاً: «ولنفرض أني أقدمت أنا على ذلك. أنا العارف بأشياء لها أول وليس لها آخر، والقادر على أن أشنق كثيراً من الناس بالإضافة إلى نفسي!؟»

فأجابه سليكس وهو يكزّ أسنانه، وقد ران الشحوب على وجهه لمجرد الاقتراح: «لست أدري». ولكنني سوف أفعل في السجن شيئاً يصفدني بالأغلال. وإذا ما حوكمتُ معك في وقت واحد فسوف أنقض عليك بها في قلب المحكمة، وأطيّر دماغك أمام الناس جميعاً. إن ذلك سوف يزودني بقوة..» كذلك غمغم اللص وهو يروز ذراعه المفتولة العضل، «أستطيع بها أن أسحق رأسك وكأنَّ عربة نقل موسوقة قد مشت فوقه!»

ـ «أحق ما تقول؟»

ـ «حق؟» كذلك قال سارق البيوت «جرِّبني!»

ـ «ولنفرض أن المقدم على ذلك كان تشارلي، أو «المراوغ»، أو «بت»، أو.......»

فأجابه سايكس في نفاد صبر: «لست أبالي أيهم يقدم على ذلك. إني سوف أنتقم بالطريقة نفسها من أيّ واحد منكم كائناً من كان!»

وحدق فاجين إلى اللص، ثم أومأ إليه بأن يعتصم بالصمت، ثم انحنى فوق الفراش الممدود على أرض الحجرة، وهز النائم لكي يوقظه. ومال سايكس إلى أمام من غير أن يغادر كرسيه، وانتظر ويداه على ركبتيه وكأنه يتساءل في ذهول إلام سوف ينتهي هذا الاستجواب كله.

وقال فاجين، رافعاً بصره على نحو ينم عن توقع شيطاني، ومتحدثاً في بطء وبتوكيد شديد: «بوتلر! بوتلر! يا للغلام المسكين! إنه مرهق... مرهق من مراقبتها هذه المدة كلها... أجل، من مراقبتها هي، يا بيل.»

فسأله سايكس وهو يرتد إلى الوراء: «ما تعني؟»

فلم يُجب فاجين بشيء، ولكنه انحنى فوق النائم مرّة أخرى، وأنهضه حتى أمسى في وضع قاعد. حتى إذا كُرر اسم نوح المستعار عدة مرات، فرك عينيه، وتثاءب تثاؤبة عريضة ثم أجال طرفه الوسنان في ما حوله.

فقال اليهودي وهو يشير خلال كلامه إلى سايكس: «قص عليّ قصتك مرة أخرى. . أجل قصها مرة أخرى لكي يسمعها هو بأذنه.»

ـ «أية قصة؟» كذلك سأله نوح الناعس، وهو يهز نفسه في نكد.

فقال فاجين، وهو يمسك بسايكس من معصمه، وكأنه يريد أن يحول بينه وبين مغادرة المنزل قبل أن يسمع ما فيه الكفاية: «قصتك مع. . مع نانسي. . لقد تبعتها، أليس كذلك؟»

ـ «نعم.»

ـ «حيث التقت شخصين؟»

ـ «هذا صحيح»

ـ «سيداً وسيدة كانت قد زارتهما من تلقاء نفسها قبل ذلك، وكانا قد سألاهاأن تتخلى عن جميع رفاقها، وعن مونكس أولاً، ففعلت ذلك. . وأن تصفه لهم، ففعلت. . . وأن تدلهما على البيت الذي نجتمع فيه ونقصد إليه، ففعلت. . . وأين يمكن أن يراقب أحسن مراقبة، ففعلت. . . وفي أي وقت تذهب جماعتنا إلى هناك، ففعلت. . لقد فعلت ذلك كله. ولقد قالت ذلك كله، حرفاً حرفاً، من غير تهديد، ومن غير تذمر، أليس هذا صحيحاً؟» كذلك صاح فاجين وقد ذهب الغيظ بصوابه أو كاد.

فأجابه نوح وهو يحك رأسه: «تماماً. هذا ما حدث على وجه الضبط!»

ـ «ما الذي قالاه عن الأحد الماضي؟»

فأجابه نوح متفكراً: «عن الأحد الماضي! ولكني قلت لك ذلك من قبل.»

ـ «أعده على مسمعي مرّة أخرى. . . أعده مرّة أخرى!» كذلك صاح

فاجين مشدداً قبضته على معصم سايكس، رافعاً ذراعه الأخرى إلى فوق بينما كان الزبد يتطاير من بين شفتيه.

فقال نوح الذي بدأ، بعد أن زايله النعاس، وكأنه عرف سايكس معرفة ضبابية: «لقد سألاها... لقد سألاها لماذا لم تأتِ، يوم الأحد الماضي، كما وعدت. فقالت إنها لم تستطع.»

ـ «لماذا... لماذا؟ قل له ذلك.»

فأجابه نوح: «لأن بيل أكرهها على البقاء في المنزل.. بيل الذي سبق لها أن حدثتهما عنه من قبل.»

فصاح فاجين: «ثم ماذا؟ ثم ماذا عن الرجل الذي سبق لها أن حدثتهما عنه؟ أخبره بذلك.. أخبره بذلك!»

فقال نوح: «حسناً، إنها لم تستطع أن تغادر المنزل في سهولة بالغة من غير أن يعرف إلى أين كانت ذاهبة. وهكذا فإنها حين مضت أول مرة لزيارة السيدة ـ ها! ها! لقد أضحكتني حين قالت ذلك، أجل لقد أضحكتني ـ أعطته شراب صبغة الأفيون.»

فصاح سايكس متملصاً من قبضة اليهودي في ضراوة: «يا لنار الجحيم! دعني أذهب!»

ورد العجوز عنه، وخرج من الحجرة مندفعاً، وأخذ يرتقي السلم وهو يتميَّز من الغيظ.

فصاح فاجين وهو يلحق به في اهتياج: «بيل! بيل! كلمة واحدة.. كلمة واحدة ليس غير.»

وكان خليقاً بتلك الكلمة أن لا تُلْفظ لو وُفق سارق البيوت إلى فتح الباب. ولكنه كان لا يزال واقفاً عنده يلعن ويشد في عنف على غير طائل، عندما أقبل اليهودي وهو يلهث.

وقال سايكس: «دعني أخرج. لا تتحدث إليّ، فسوف يكون في هذا خطر عليك. دعني أخرج، أقول لك!»

فأجابه فاجين واضعاً يده على القفل: «أعرني سمعك لأقول كلمة واحدة! إنك لن تلجأ. . .»

فسأله الآخر: «ماذا؟»

ـ «إنك لن تلجأ إلى العنف أكثر مما ينبغي، أليس كذلك يا بيل؟»

كان الصبح يتنفس، وكان ثمة قدْر من الضياء يمكن كلا الرجلين من رؤية وجه الآخر. وتبادلا نظرة خاطفة، وكان في عينيهما كليهما نار لا يستطيع المرء أن يغفل عنها.»

ـ «أنا أقصد،» كذلك قال فاجين متكشفاً عن اعتقاده بأن كل تعمية كانت قد أمست الآن غير مجدية. «أنا أقصد أنه يحسن بك أن لا تستخدم العنف أكثر مما ينبغي بسبب من المخاطر التي تكتنف مثل هذا الصنيع. كن ماكراً، يا بيل، ولا تنجرف مع تيار الغضب.»

ولم يجب سايكس بشيء، ولكنه فتح الباب فجأة، وكان اليهودي قد أدار قفله، واندفع إلى الشوارع الصامتة اندفاعاً عنيفاً.

ومن غير أن يقف لحظة أو يفكِّر لحظة، ومن غير أن يلتفت يمنة أو يسرة أو يرفع عينيه إلى السماء أو يخفضهما نحو الأرض، ناظراً دائماً إلى أمام في تصميم وحشي، مطبقاً بعض أسنانه على بعض إطباقاً شديداً جعل فكه المرهق يبدو وكأنه يخترق جلده، واصل اللص سيره المسعور، غير مطلق كلمة، وغير مرخ عضلة، حتى انتهى إلى باب داره. لقد فتحه، في رفق، بمفتاح ما، وراح يرتقي السلم في خطى واسعة صامتة، ثم دخل حجرته الخاصة، وأقفل الباب قفلتين، ودعمه بطاولة ثقيلة، ثم جذب ستارة الفراش.

كانت الفتاة نائمة فيه نصف عارية. وكان قد أيقظها من رقادها، ذلك بأنها نهضت وعلى وجهها إمارات الذعر.

وقال الرجل: «انهضي!»

فقالت الفتاة وقد بدا عليها السرور لعودته: «أهذا أنت، يا بيل!؟»

فكان جوابه: «أجل، أنا. انهضي!»

كان ثمة شمعة مضاءة، ولكن الرجل سارع إلى انتزاعها من الشمعدان، ورماها تحت شباك الموقد. حتى إذا رأت الفتاة ضوء الفجر في الخارج نهضت لترد الستارة إلى وضعها الأول.

فقال سايكس وهو يبسط يده ليحول بينها وبين ما أرادت أن تفعله: «أتركيها وشأنها. إن الضوء كافٍ لتمكيني من فِعل ما يتعيَّن عليَّ فعله.»

فقالت الفتاة في صوت خفيض مذعور: «لماذا تنظر إليّ هكذا، يا بيل؟»

وراح اللص يتأملها بضع ثوان، وقد اتسع منخراه وأنشأ صدره يعلو ويهبط. ثم إنه أمسك بها من رأسها ورقبتها، وجرها إلى وسط الحجرة. وبعد أن ألقى نظرة على الباب، وضع يده الثقيلة على فمها.

فلهثت الفتاة، مناضلة بقوة الخوف القاتل: «بيل! بيل! أنا.. أنا لن أزعق أو أصيح.. ولو مرة واحدة... اصغِ إليَّ.. كلمني.. قل لي ما الذي فعلتُهُ!»

فأجابها اللص كاتماً أنفاسها: «أنتِ تعرفين، أيتها الشيطانة! لقد كنتِ تحت المراقبة الليلة، ولقد سُمعت كل كلمة من الكلمات التي نطقت بها.»

فقالت الفتاة متشبثة به: «إذن فأبق على حياتي إكراماً للّه، كما أبقيت على حياتك. بيل، يا عزيزي بيل، إن قلبك لا يمكن أن يرضى بقتلي. أوه! فكِّر بكل ما تخليت عنه، هذه الليلة فقط، في سبيلك. إن عليك أن تتروى قليلاً ولا تتورط في مثل هذه الجريمة. أنا لن أرخي قبضتي عنك، وليس في وسعك أن تردني عنك. بيل، بيل، إكراماً للّه، إكراماً لك أنت، إكراماً لي، كف عن هذا قبل أن تسفح دمي! لقد كنت مخلصة لك، وإني لأقسم على ذلك بروحي الآثمة!»

وناضل الرجل في عنف لكي يحرر ذراعيه. ولكن ذراعي الفتاة كانتا مطبقتين عليهما إطباقاً عنيفاً. لقد حاول أن يردها عنه بأقصى قوته، ولكنه لم يوفق إلى ذلك.

وصرخت الفتاة باذلة أقصى جهدها لكي تضع رأسها على صدره:

«بيل لقد حدثني السيد الماجد والسيدة العزيزة، هذه الليلة، عن ملاذ في بلد أجنبي ما، حيث أستطيع أن أنهي حياتي في عزلة وسلام. فدعني أقابلهما من جديد، وأتوسل إليهما وأنا راكعة على ركبتي أن يظهرا نحوك مثل الذي أظهراه نحوي من رحمة وإحسان، ودعنا نغادر معاً هذا المكان الرهيب، ونحيا هناك ـ منفصلين انفصالاً كاملاً ـ حياة أفضل، وننسى كيف عشنا من قبل، إلا في صلواتنا، وينقطع أي منا عن مشاهدة الآخر. إن ثمة دائماً متسعاً للتوبة. لقد قالا لي ذلك... وأنا أستشعره الآن... ولكننا في حاجة إلى شيء من الوقت... إلى شيء قليل جداً من الوقت!»

وحرر سارق البيوت إحدى ذراعيه، وأمسك بغدارته. ولكن يقينية الافتضاح العاجل إذا ما أطلق النار سرعان ما خطرت له حتى وهو في سورة غيظه تلك، فلم يكن منه إلا أن ضرب الوجه المرفوع نحوه والذي كاد أن يمس وجهه هو بذلك المسدس ضربتين أفرغ فيهما كامل قوته.

فتمايلت الفتاة وهوت، وقد كاد يعميها، الدم الذي انهمر من جرح عميق في جبينها. ولكنها ما لبثت أن نهضت على ركبتيها، في صعوبة بالغة، وأخرجت من صدرها منديلاً أبيض ـ منديل مايلي ـ ورفعته، بيديها المتشابكتين، نحو السماء أعلى ما مكّنتها قوتها الواهنة من رفعه، وزفرت صلاة التمست فيها الرحمة من بارئها.

كان مشهداً رهيباً. وارتد القاتل إلى الجدار مترنحاً، وحجب عينيه بيده لكي لا يرى، وتناول هراوة غليظة ثم أجهز على الفتاة.

الفصل الثامن والأربعون

فرار سايكس

لو عُدَّت الأعمال المنكرة التي ارتُكبت، تحت جنح الظلام، ضمن نطاق لندن الواسع منذ أن هبطت العتمة عليها، إذن لكن ذلك العمل أسوأها على الإطلاق. ولو عُدَّت الأهوال التي تصاعد ريحها النتن مع

هواء الصباح إذن لكان ذلك الهول أقذرها وأمعنها في الوحشية.

لقد أشرقت الشمس ـ الشمس الساطعة التي تعيد إلى الإنسان لا الضوء وحده، بل حياة جديدة، وأملاً جديداً، ونضارة جديدة ـ على المدينة المكتظة في جلال صاف مشع. وعبر الزجاج الثمين الملون والنافذة المرقعة بالورق، وعبر قبة الكاتدرائية وشق الجدار العفن سفحت أشعتها في غير ما محاباة أو تمييز. لقد أنارت الحجرة التي تمددت فيها المرأة القتيل. أجل لقد أنارتها. وحاول الرجل أن يصد الأشعة عن الحجرة، ولكنها ظلّت تتدفق عليها برغم ذلك. وإذا كان المشهد قد بدا رهيباً في الصباح الشاحب فكيف تحسبه كان، في هذه اللحظة، وسط ذلك الضوء الساطع كله؟!

ولم يكن الرجل قد فارق مكانه، فقد كان يخشى أن يتحرك. كان قد سمع أنيناً ولاحظ إحدى يديها تضطرب، فانضاف الذعر إلى الغيظ، فراح يضرب الفتاة مرّة تلو المرّة. وذات مرة طرح على جسدها بساطاً، ولكن تصور عينيها وتخيلهما تتحركان نحوه كان أسوأ من رؤيتهما تحدقان إلى فوق، وكأنهما تراقبان انعكاس بركة الدم التي ارتعدت وتراقصت في ضياء الشمس على السقف. وكان قد نزع البساط عنها. فإذا بعينيه تقعان على الجسد ـ الجسد الذي أمسى مجرد لحم ودم ـ ولكن أي لحم، وأي دم!

وقدح زناداً، وأضرم ناراً، وطرح الهراوة فيها. وكان على طرف الهراوة شعر فاشتعل وانكمش إلى رماد خفيف، وسرعان ما تلقفه الهواء فراح يدوِّم في الموقد. وحتى هذا روَّع الرجل، على الرغم من صلابته وشدة بأسه. ولكنه ظل ممسكاً بسلاحه حتى انقصف، وعندئذ وضعه فوق ركام الفحم الحجري لكي تأتي عليه النار ويستحيل رماداً. ثم إنه غسل وجهه، ومسح ثيابه. ولكن بعض البقع أبت أن تزول، فما كان منه إلا أن مزق قطع القماش تلك، وألقى بها في النار. يا لهذه البقع كيف تناثرت في الحجرة! حتى قوائم الكلب نفسها كانت ملطخة بالدم.

ولم يكن، طوال هذا الوقت كله، قد أولى الجثة ظهره، ولو مرة

واحدة. لا، لا، إنه لم يولها ظهره ولو لحظة. حتى إذا أتمّ هذه الإجراءات ارتد ـ على نحو تراجعي ـ نحو الباب، جاراً الكلب معه خشية أن يلوث قوائمه من جديد ويحمل إلى الشارع بينات جديدة على الجريمة. وأوصد الباب في رفق، وأقفله، ونزع المفتاح، وغادر البيت.

وعَبَرَ الشارع، ورفع بصره إلى النافذة ليستيقن من أن أيما شيء لم يكن يُرى من الخارج. كانت الستارة ما تزال مسدلة، تلك الستارة التي كانت الفتاة قد رغبت في إزاحتها ليتسرب إلى الحجرة ذلك الضياء الذي لن تراه أبد الدهر. وكانت جثتها طريحة تحتها تقريباً. لقد عرف ذلك. يا للسماء، لشد ما كانت الشمس تسفح أشعتها على تلك الرقعة بالذات!

ولم تدم نظرتُه تلك غير لحظة واحدة. فقد كان في الخروج من تلك الحجرة عزاء لنفسه. وصفر للكلب، ومضى لسبيله على جناح السرعة.

لقد اجتاز آيلينغتون. وفي هايفايت صعد موسعاً الخطى في الهضبة، حيث انتصب تمثال ويتينغتون(*). ثم هبط نحو «هايغايت هيل» في تردد، غير عارف إلى أين يتعيَّن عليه أن يمضي. ثم انعطف إلى اليمين، مرّة أخرى، حالما شرع في هبوطه تقريباً، وسلك الطريق المختصرة الممتدة عبر الحقول، وتاخم «غابة كاين»، وهكذا انتهى إلى مرج هامبستيد هيث. وبعد ذلك اجتاز الغور الممتد في محاذاة «وادي الصحة»، فارتقى الضفة المقابلة، وعَبَرَ الطريق التي تصل ما بين قريتي هامبستيد وهايغايت، ثم اجتاز ما تبقى من المرج إلى حقول «نورث أند» (الطرف الشمالي). وفي أحد هذه الحقول استلقى تحت سياج، واستسلم للرقاد.

وسرعان ما استيقظ من نومه، وانطلق ـ لا لكي يوغل في الريف،

(*) كان ريتشار ويتينغتون Whittington (المتوفى عام 1423) شخصية تاريخية، فقد كان عمدة لندن، وبطل إحدى الأساطير. والتمثال المشار إليه يصور هذه الأسطورة ويمثل كيف فر ويتينغتون هارباً وكيف سمع نواقيس لندن تدعوه إلى العودة. (المعرب)

ولكن لكي يعود في اتجاه لندن سالكاً الطريق السلطانية ـ ثم انقلب على عقبيه مرّة أخرى. . . واجتاز جزءاً آخر من الأرض نفسها التي كان قد قطعها. . . ثم هام على وجهه في الحقول، منطرحاً على حافات الخنادق التماساً للراحة، ليعود بعدُ فينهض منتصباً على قدميه، ويتجه نحو بقعة أخرى، حيث فعل الشيء نفسه، وراح يضرب في الأرض من جديد.

كان يبحث عن مكان قريب، لا يختلف إليه الناس كثيراً، لكي يفوز بشيء من لحم وشراب. وبعد تردد وتساؤل، استقر رأيه على الشخوص إلى «هيندون». فقد كانت هيندون مكاناً طيباً، غير ناءٍ جداً، وفي معزل عن طريق الكثرة الكبرى من الناس. وهكذا وجَّه خطاه إلى هناك ـ راكضاً حيناً، متلكئاً في عناد غريب بمثل سرعة بزاقة حيناً، واقفاً حيناً آخر وقوفاً كاملاً، مضيعاً وقته بتكسير الوشيع بضربات عصاه. ولكنه ما إن وصل إلى هناك حتى بدا جميع الذين التقوا به ـ وحتى الأطفال الواقفون بالأبواب ـ وكأنهم ينظرون إليه في ارتياب. فما كان منه إلا أن انقلب راجعاً من حيث أتى، غير واجد في نفسه الجرأة على شراء قطعة لحم أو قطرة من شراب، برغم أن فمه لم يذق أيما طعام منذ ساعات عديدة. ومرّة أخرى راح يتسكع في المرج، غير عالم إلى أين ينبغي له أن يذهب. . .

وهام على وجهه أميالاً وأميالاً، ومع ذلك فقد كان يرجع دائماً إلى المكان نفسه. كان الصباح والظهر قد انقضيا، وكانت الشمس قد جنحت للمغيب، وواصل هو هيامه، متجهاً إلى أمام وإلى وراء، مصعداً حيناً وهابطاً حيناً، مطوفاً على نحو موصول، راجعاً إلى المكان نفسه، وأخيراً نأى بنفسه عن ذلك الموضع، واتخذ سبيله إلى هاتفيلد.

وكانت الساعة قد بلغت التاسعة عندما هبط الرجل (وقد خارت قواه) والكلب (وقد أخذ يَعْرُج من جراء ما بذل من جهد لم يتعوده) الكثيب المحاذي لكنيسة القرية الآمنة، ثم راحا يتهاديان في الشارع الصغير، لينسلا آخر الأمر إلى نزل صغير كان ضوؤه الهزيل قد قادهما إلى تلك البقعة. كان في المشرب نار، وكان بعض العمال الريفيين يعاقرون الخمر

أمامه. وأفسحوا مكاناً للرجل الغريب، ولكنه آثر الجلوس في الزاوية القصوى، وأنشأ يأكل ويشرب وحده، أو على الأصح مع كلبه: فقد كان يلقي إليه بقليل من طعام بين الفينة والفينة.

ودار حديث القوم المجتمعين هناك حول الأرض المجاورة، والفلاحين. حتى إذا استُنفد هذان الموضوعان دار حول سن رجل عجوز كان قد دفن يوم الأحد الماضي: فأما الشبان الحاضرون فقد اعتبروه طاعناً في السن، وأما الشيوخ الحاضرون فأعلنوا أنه كان في ريعان الشباب ـ لقد قال جد أشيب أن المتوفى لم يكن أكبر منه سناً ـ وأنه كان في ميسوره أن يعيش عشر سنوات أو خمس عشرة سنة إضافية على الأقل، لو عُني بنفسه... أجل، لو عني بنفسه.

ولم يكن ثمة في هذا ما يلفت الانتباه أو يثير الجزع. وبعد أن دفع اللص حسابه، قبع في زاويته معتصماً بالصمت محجوباً عن الأعين، وكان على وشك أن يستسلم للرقاد عندما دخل وافد جديد في شيء من الصخب فأيقظه نصف إيقاظ.

وكان هذا رجلاً مضحكاً فيه شيء من البائع المتجول وشيء من المشعوذ وكان يطوف في قرى الريف مشياً على قدميه لكي يبيع حجار السَّنّ، ومشاحذ الموسى، وأمواس الحلاقة، وقطع الصابون، والعجائن الخاصة بعدة الخيل، وأدوية للكلاب والأفراس، وعطوراً رخيصة، وأدهنة للزينة وتثبيت الشعر وما إلى ذلك من سلع كان يحملها في صندوق مشدود إلى ظهره. فلم يكد يدخل حتى تبادل مع أولئك الريفيين مختلف المُلَح والنكات الساذجة، وظل على ذلك إلى أن أتم عشاءه، وفتح صندوق كنوزه، وعندئذ سعى في براعة إلى مزج التجارة باللهو.

ـ «وما هذه البضاعة؟ أهي صالحة للأكل، يا هاري؟» كذلك سأله أحد الريفيين وهو يبتسم ابتسامة عريضة، ويشير إلى ضرب من الصابون في إحدى الزوايا.

فقال الرجل وهو يُخرج قطعة منه: «هذا تركيب لا يخطئ ولا يقدر

بمال لإزالة جميع أنواع البقع، والصدأ، والوسخ، والعفن، واللطخات، والكمدات، والطرطشات عن الحرير والأطلس، والكتان، والتول الرفيع، والجوخ، والكريب الأسود، والقماش، والسجاد، والمرينو(*)، والموسلين، والبومبازين(**)، والأقمشة الصوفية. إن بقع الخمر، وبقع الفاكهة، وبقع الجعة، وبقع الماء، وبقع الدهان، وبقع الزفت، ومختلف أنواع البقع الأخرى، كلها تزول بفركة واحدة من هذا المركب الذي لا يخطئ ولا يقدر بمال. وإذا لوثت سيدة شرفها فلي عليها إلا أن تبلع قطعة منه وعندئذ تشفى في الحال ـ لأن هذا المركب سام. وإذا شاء أحد السادة المحترمين أن يتثبت من ذلك، فليس عليه إلا أن يزدرد قطعة صغيرة منه، وعندئذ يقتنع اقتناعاً لا لُبس فيه ـ لأن هذا العلاج حاسم مثل رصاصة مسدس، وذو طعم أدعى إلى التقزز، ومن هنا يكون لمن يأخذه فضل أعظم. القطعة ببنس واحد! القطعة المشتملة على هذه المنافع كلها ببنس واحد!»

ووجد مشتريان اثنان، على التو. أما الآخرون فترددوا تردداً واضحاً. وإذ رأى البائع ذلك ضاعف من هذره وثرثرته.

فقال: «إن هذه البضاعة تُباع كلها حال خروجها من المصنع. وهناك أربع عشرة طاحونة مائية، وست ماكينات بخارية، وبطارية كلفانية تعمل في استمرار من أجل صنعها، ومع ذلك فإنها لا تنتجها في سرعة كافية، على الرغم من أن العمال ينكبون على إنتاجها في نشاط ينتهي بهم إلى الموت، فتُدفع التعويضات إلى الأرامل في الحال، مع عشرين جنيهاً كل سنة لكل من الأولاد، وخمسين جنيهاً للتوأمين! القطعة ببنس واحد! وإذا أعطاني أحدكم نصفي بنس لن أعارض، وإذا أعطاني أربعة أرباع بنس تقبلتها في سرور! القطعة ببنس واحد! بقع الخمر، بقع الفاكهة، بقع الجعة، بقع الماء، بقع الدهان، بقع الزفت، بقع الوحل، بقع الدم!

(*) منسوجات يؤخذ صوفها من نوع من الغنم الإسباني.

(**) البومبازين، نسيج صوفي مخلوط بحرير أو قطن.

انتبهوا! ها هي بقعة على ثياب سيد محترم موجود معنا هنا، ولسوف أزيلها قبل أن يجد متسعاً من الوقت ليطلب لي نصف ليتر من الجعة!»

فصاح سايكس مجفلاً: «هاه! أعد إليّ القبعة!»

فأجابه الرجل وهو يغمز الجماعة: «سوف أزيلها قبل أن تعبر الحجرة لتأخذها. أيها السادة، لاحظوا البقعة التي على قبعة هذا السيد! إن حجمها لا يزيد على حجم شلن، ولكنها أكثف من نصف ريال. وسواء أكانت بقعة خمر، أو بقعة جعة، أو بقعة ماء، أو بقعة دهان، أو بقعة وحل، أو بقعة دم...»

ولم يستطع الرجل أن يذهب إلى أبعد من هذا، ذلك بأن سايكس أطلق شتيمة رهيبة، وقلب الطاولة رأساً على عقب، وانتزع القبعة منه، وغادر النزل في اهتياج.

وبمثل التردد والتصرف الضال اللذين استحوذا عليه، بالرغم منه، طوال النهار عمد القاتل ـ بعد أن وجد أن أحداً لم يلحق به وأن القوم حسبوا في أغلب الظن أنه مجرد مخمور قذر ـ أقول عمد القاتل إلى الارتداد مجتازاً المدينة مرّة أخرى. ونأى بنفسه عن وهج مصابيح مركبة سفر عمومية واقفة في الشارع، ولم يكد يتابع سبيله حتى عرف مركبة البريد القادمة من لندن ورأى أنها واقفة عند مكتب صغير من مكاتب البريد. ولم يشك إلا قليلاً في الذي سوف يحدث، ومع ذلك فقد عبر الشارع، وأرهف السمع.

كان المسؤول عن المركبة واقفاً بالباب، ينتظر كيس الرسائل. وفي تلك اللحظة أقبل رجل يرتدي بزة شبيهة ببزة حارس صيد فناوله المسؤول سلة كانت موضوعة على الرصيف.

وقال: «هذه السلة لأهل بيتك. هيا، عجلوا هناك! لعن اللّه ذلك الكيس... إنه لم يكن جاهزاً الليلة قبل البارحة. هذه حال غير حسنة، كما تعلم.»

ـ «هل من جديد في العاصمة، يا بن؟» كذلك سأله حارس الصيد،

وهو يرتد إلى مصراعي النافذة لكي يستطيع أن يستمتع بمشهد الخيل استمتاعاً أفضل.

فأجابه الرجل وهو يلبس قفازيه: «لا، ليس هناك في ما أعلم أي جديد. لقد ارتفع القمح قليلاً. ولقد سمعت القوم يتحدثون عن جريمة قتل أيضاً، حدثت في مكان ما من سبيتالفيلدز، ولكني لست واثقاً من ذلك كل الثقة.»

فقال أحد المسافرين وهو يطل من نافذة المركبة: «أوه، هذا صحيح مئة بالمئة. ولقد كانت جريمة قتل رهيبة أيضاً!»

فقال المسؤول عن المركبة وهو يمس قبعته: «أحق ما تقول، يا سيدي؟ وهل القتيل رجل أم امرأة، من فضلك؟»

فأجابه المسافر: «امرأة، والمعتقد...»

فقال الحوذي في صبر نافد: «والآن، يا بن!»

فقال المسؤول عن المركبة: «لعن اللّه ذلك الكيس. هل ذهبت لتنام هناك؟»

فصاح رئيس المكتب وهو يُقبل راكضاً: «لقد أتيت!»

فزمجر المسؤول عن المركبة: «لقد أتيت! آه، أنت أشبه ما تكون بالوارثة الشابة التي ستقع في غرامي، ولكني لا أعرف متى. والآن، أعطني هذا الكيس. حسن جداً!»

وأطلق البوق بضع نغمات بهيجة، فانطلقت المركبة في سبيلها.

وظل سايكس واقفاً في الشارع. غير متأثر ـ في الظاهر ـ بما سمعه منذ لحظة، وغير مستشعر أيما قلق غير قلق التساؤل إلى أين يتعيَّن عليه أن يذهب. وأخيراً انقلب على عقبيه مرّة أخرى، وسلك الطريق التي تفضي، من هاتفيلد، إلى سانت آلبانز.

لقد سار في عناد. ولكنه لم يكد يخلف البلدة وراءه، ويخوض في وحشة الطريق وظلمتها، حتى استشعر أن عاصفة من الذعر والرعب استبدت به فزلزلت كيانه كله زلزالاً. وفجأة اتخذ كل شيء أمامه ـ سواء

أكان مادة أم شبحاً، ساكناً أو متحركاً ـ شكل شيء رهيب. ولكن هذه المخاوف لم تكن شيئاً بالقياس إلى ما استحوذ عليه من وهم أدخل في روعه أن الصورة الرهيبة التي رآها ذلك الصباح كانت تجري على آثاره. كان في ميسوره أن يلمح ظل تلك الصورة في الدجنة، وأن يتبيَّن كل قسمة من قسماتها، وأن يلاحظ بأية خطى متصلبة ورصينة بدت وكأنها تتعقبه. وكان في ميسوره أن يسمع حفيف ملابسها بين أوراق الشجر، وكانت كل هبة ريح تحمل إليه آخر صرخة من صرخاتها الواهنة. كان إذا كف عن السير كفت، وإذا ما ركض تبعته... ولكن من غير أن تركض، ولو أنها ركضت لسرى ذلك عنه بعض الشيء... لا، لقد تبعته مثل جثة ليس لها من الحياة غير القدرة على السير الميكانيكي... جثة تحملها ريح كئيبة بطيئة لا تعصف ولا تخمد.

واستدار مرة بعد مرة، في تصميم يائس، عاقداً العزم على صد هذا الشبح ولو أدت رؤيته إلى طرحه على الأرض ميتاً. ولكن شعر رأسه وقف، وجمد الدم في عروقه. ذلك بأن الشبح استدار معه، وكان آنذاك خلفه. كان قد أبقاه أمامه ذلك الصباح، ولكنه أمسى الآن خلفه ـ خلفه على نحو موصول ـ وأسند ظهره إلى منحدر ما، فأحس بأن الشبح يقف فوقه، على نحو مرئي إزاء سماء الليل الباردة. فاستلقى على الأرض ـ مستقبلاً إياها بوجهه وصدره. فإذا بالشبح يقف عند رأسه، صامتاً، منتصباً، ساكناً: شاهد قبر حيا، خطت كلماته بالدم.

فليكف الناس عن الكلام على القتلة الفارين من وجه العدالة، وعن إتهام العناية الإلهية بالغفلة عنهم. فقد مات سايكس في دقيقة واحدة من دقائق ذلك الذعر الرهيب أربعمئة ميتة عنيفة!

وكان في أحد الحقول التي مرّ بها سقيفة يستطيع أن يبيت فيها تلك الليلة. وكانت قبالة الباب ثلاث شجرات حور فارعة الطول جعلت الظلمة الشديدة ترينُ على داخل السقيفة. وأنَّت الريح خلال تلك الشجرات أنيناً مشؤوماً. ولم يستطع أن يواصل سيره إلا بعد أن انبلج الفجر من جديد.

وهنا استلقى في محاذاة الجدار. . . لكي يقاسي عذابات جديدة.

ذلك بأن رؤيا انبثقت أمامه الآن، لا تقل إلحاحاً وفظاعة عن تلك التي كان قد نجا بنفسه منها. لقد تراءت له في الظلام تانك العينان الواسعتان المحدقتان، الكامدتان الزجاجيتان إلى درجة جعلته يؤثر النظر إليهما على التفكير فيهما. كانتا ضياء في ذات نفسيهما، ولكنهما لم ترسلا الضياء إلى أيما شيء، ولم يكن ثمة غير عينين اثنتين، ولكنهما كانتا في كل مكان. فإذا ما اجتنب رؤيتهما بإغماض جفنيه، انبثقت الحجرة بكل أشيائها المألوفة ـ وكان خليقا به في الواقع أن ينسى بعضها لو شاء أن يعدد محتويات الحجرة من الذاكرة ـ وكل من تلك الأشياء في موضعه المعتاد. كانت الجثة في مكانها، وكانت عيناها كما رآهما عندما انسل هارباً. فنهض واندفع إلى الحقل. وكان الشبح خلفه. فعاود الدخول إلى السقيفة، وانكمش على نفسه من جديد. وقبل أن يستلقي على الأرض كانت العينان هناك.

وهنا ظل في ذعر لا يستطيع أحد غيره أن يعرفه، فارتعدت أوصاله كلها، وتفصَّد العرق البارد من مسامه جميعاً. وفجأة حملت ريح الليل صدى صياح بعيد وهدير أصوات يشوبها ذعر. وكان سماع أيما صوت بشري في ذلك الموطن المنعزل ـ ولو انطوى على مُوْجب للذعر حقيقي ـ شيئاً ذا شأن. فاسترد قوته ونشاطه تجاه الخطر الذي قد يحدث بشخصه، ووثب واقفاً على قدميه، واندفع إلى الهواء الطلق.

لقد بدت السماء وكأن النار قد أضْرمت فيها. كانت ثمة ألسنة لهيب ترتفع في الهواء ملقية وابلاً من الشرر متدحرجة إحداها فوق الأخرى، فتضيء الجو على مسافة أميال وأميال، وتسوق سحائب من الدخان إلى حيث كان يقف. وغدت الصيحات أعلى فأعلى بعد أن ضخَّمت الأصوات ذلك الهدير، فإذا به يسمع صيحة «النار!» ممتزجة برنين ناقوس خطر، وسقوط أجسام ثقيلة، وفرقعة ألسنة النيران فيما كانت تنفتل حول عقبة جديدة ما، وتتواثب عالياً عالياً وكأن غذاء قد أنعشها. وتعاظمت الضجة

فيما كان ينظر مستطلعاً. كان هناك ناس ـ رجال ونساء ـ وضوء وجلبة. وكان ذلك أشبه بحياة جديدة بالنسبة إليه. فاندفع قُدماً ناكس الرأس، مخوضاً في العليق والغياض، واثباً فوق البوابات والأسيجة مسعوراً مثل كلبه الذي كان يعدو أمامه مطلقاً نباحاً عالياً مدوياً.

وأخيراً انتهى إلى مكان الحادث. كان ثمة أناس كالأشباح، نصف عراة، مهتاجون اهتياجاً تجلى في رواحهم ومجيئهم على نحو مضطرب. وكان بعضهم يحاول أن يخرج الخيل المروعة من الاسطبلات، وبعضهم يسوق الماشية من الفناء والبيوت الملحقة، وبعضهم ينبثق من الركام المشتعل مثقلاً بالأحمال، وسط وابل من الشرر المتساقط، وانهيار العوارض الخشبية التي أحالتها الحرارة حمراء متقدة. كانت الفجوات، حيث نهضت قبل ساعة واحدة أبواب ونوافذ، تتكشف عن كتلة من النار المسعورة. وكانت الجدران تتمايل وتنهار في لجة النار، وكان الرصاص والحديد الذائبان يسيلان على الأرض وقد استحال لونهما لشدة الحرارة إلى بياض. وصرخت النسوة والأطفال، وشجع الرجال بعضهم بعضاً بصيحات وهتافات صاخبة. وكان في قعقعة مضخات الأطفاء الآلية، وانبجاس المياه وهسيسها فيما هي تسقط على الخشب الملتهب، ما ضاعف من عنف الهدير الهائل. وصاح هو أيضاً، حتى بح صوته واندفع، هارباً من ذاكرته ومن نفسه وسط الحشد الأشد كثافة.

وغاص ههنا وهناك تلك الليلة، معملاً المضخات حيناً، مندفعاً خلال الدخان واللهب حيناً، ولكنه لم يكف لحظة عن الانهماك في العمل حيثما بلغت الضجة وبلغ الازدحام أوجهما. كنت تراه يصعد المراقي ويهبطها، وتلمحه فوق سطوح المباني وفوق أرضيات الغرف التي اهتزت تحت ثقله وارتعدت، وتحت وابل الآجر والحجارة المتساقطة، في كل جزء من أجزاء ذلك الحريق. ولكنه كان يحمل رقية تصون حياته من الأذى.. فلم يصب بأي خدش أو كدمة، ولم يعرف أي انشغال بال، حتى انبلج الصبح من جديد، ولم يبق غير الدخان والخرائب المكسوة بالسخام.

حتى إذا انقضى هذا الاهتياج المجنون عاوده، على نحو أقوى بعشرة أضعاف، وعي جريمته الرهيب. وأجال النظر في ما حوله في حذر، ذلك بأن الناس كانوا يتجاذبون الحديث جماعات جماعات، ولقد خشي أن يكون هو موضوع كلامهم. وأطاع الكلب إيماءة إصبعه ذات المغزى فانسحبا خلسة معاً. ومر بالقرب من مضخة جلس عليها نفر من الناس، فدعوه إلى مشاركتهم طعامهم وشرابهم. تناول شيئاً من خبز ولحم، وفيما هو يتجرع بعض الجعة سمع رجال الإطفاء، وكانوا من لندن، يتحدثون عن الجريمة. فقال أحدهم: «يقولون إنه فر إلى برمنغهام، ولكنهم لا بدَّ أن يلقوا القبض عليه، لأن شرطة الاستطلاع قد خرجت تبحث عنه، ومساء غد سيطلقون صيحة التنبه واليقظة في أرجاء البلاد كلها.»

فلم يكن منه إلا أن نأى وأعرض بجانبه، وراح يمشي حتى كاد يسقط على الأرض. ثم إنه اضطجع في إحدى الطرق، واستسلم لنوم طويل ولكنه متقطع قلق. وبعد ذلك استأنف طوافه التائه، متردداً لا يستقر على رأي، يعذبه الخوف من ليل متوحد جديد.

وفجأة اتخذ قراراً يائساً قضى بأن يرجع إلى لندن.

لقد قال في ذات نفسه: «إن هناك من استطيع أن أتحدث إليه. ومخبأ حسن أيضاً. إنهم لن يتوقعوا أن يقبضوا علي هناك أبداً، بعد هذه المطاردة في الريف. لماذا لا أستطيع أن ألبث هادئاً أسبوعاً أو نحو أسبوع ثم أنتزع من فاجين بعض المال المسروق وأركب البحر إلى فرنسة؟ يا للشيطان، سوف أغامر في القيام بذلك!»

وأذعن لسلطان هذا الحافز في غير إبطاء، فاختار أشد الطرق انعزالاً واستهل رحلته الارتجاعية، وقد عقد العزم على الاختباء على مبعدة يسيرة من العاصمة، ثم دخولها مع الغسق من إحدى الطرق الملتوية، والذهاب تواً إلى ذلك الحي الذي كان غاية مطافه.

والكلب؟ الواقع أنه إذا ما نشرت أوصافه وعلاماته الفارقة على الناس فلن تُنسى الإشارة إلى أن الكلب قد أفتُقد وأن من المحتمل أن يكون قد

ارتحل معه. ومن يدري فلربما أفضى ذلك إلى إلقاء القبض عليه فيما هو يجتاز الشوارع. وهكذا وطن النية على إغراقه، وواصل السير وهو يجيل الطرف حوله بحثاً عن بركة أو نحوها. وفيما هو في بعض الطريق التقط حجراً ثقيلاً، وربطه بمنديله.

ورفع الحيوان بصره إلى وجه سيده بينما كان يتخذ هذه الاستعدادات. وسواء أكانت غريزته قد فهمت شيئاً من هدف تلك الاستعدادات، أو أن نظرة اللص الجانبية إليه كانت أقسى من المألوف، فقد تلكأ على مسافة من صاحبه أبعد من المعتاد، وارتعد خوفاً فيما كان يتقدم على نحو أبطأ. حتى إذا توقف سيده عند حافة بركة من البرك والتفت ليناديه، كف عن السير في الحال.

فصاح سايكس: «هل تسمعني؟ تعال إلى هنا!»

وتقدم الحيوان بدافع العادة ليس غير. ولكن ما إن انحنى سايكس ليطوق عنقه بمنديله حتى أطلق نباحاً خفيضاً وارتد مجفلاً.

فقال اللص: «ارجع!»

فحرّك الكلب ذنبه، ولكنه لم يتحرك. وعقد سايكس أنشوطة وناداه مرّة أخرى.

وتقدم الكلب، ونكص على عقبيه، وتريث لحظة، واستدار، وولى بأقصى سرعته.

وصفر الرجل مرة ومرة. ثم قعد، وانتظر متوقعاً أن يعود. ولكن أيما كلب لم يعد وعندئذ استأنف الرجل رحلته.

الفصل التاسع والأربعون

مونكس ومستر براونلو يجتمعان آخر الأمر. حديثهما والأنباء التي وضعت له حداً

كانت العتمة قد شرعت تهبط عندما ترجل مستر براونلو من مركبة أجرة عند باب داره الخاصة، وقرعه قرعاً رفيقاً. حتى إذا فتح الباب، غادر

المركبة رجل قوي البنية ووقف عند جانب من العتبة، بينما ترجل رجل آخر كان مستوياً في مقعد الحوذي ووقف عند جانبها الآخر. وأومأ إليهما مستر براونلو فأخرجا من المركبة رجلاً ثالثاً وهرعا به ـ وهو يمشي بينهما ـ إلى المنزل. وكان هذا الرجل هو مونكس.

وارتقوا السلم، على النحو نفسه، من غير أن ينطقوا بشيء، فقادهم مستر براونلو إلى إحدى الحجرات الخلفية. وعند باب هذه الحجرة توقف مونكس، وكان قد صعد السلم على كره منه واضح. فلم يكن من الرجلين إلا أن نظرا إلى السيد الماجد العجوز وكأنهما يسألانه تزويدهما بأوامره.

فقال مستر براونلو: «إنه يعلم ما يتعرض له إن لم يذعن. وإذا ما تردد أو حرك إصبعاً لغير ما تأمرانه به فاسحباه إلى الشارع والتمسا النجدة من الشرطة واتهماه ـ باسمي أنا ـ بالإثم والإجرام.»

فسأله مونكس، «كيف تجرؤ على قول هذا في حقي؟»

فأجابه مستر براونلو جابها إياه بنظرة ثابتة: «وأنت كيف تجرؤ على استفزازي؟ أيبلغ بك الجنون حداً يحملك على مغادرة هذا المنزل؟ أفلتا يديه. والآن، يا سيدي، أن لك ملء الحرية في أن تذهب، وأن لنا ملء الحرية في أن نتبعك. ولكني أحذرك، مقسماً بأقدس ما عندي، فأقول لك إنك ما إن تضع قدمك على أرض الشارع حتى أكلف الشرطة بإلقاء القبض عليك بتهمة الاحتيال والسرقة. إني رجل صلب عنيد. فإن عقدت العزم على أن تكون مثلي دفعت دمك ثمناً لذلك وكنت أنت الملوم لا أحداً غيرك!»

فسأله مونكس منقلاً طرفه من أحد الرجلين الواقفين في محاذاته إلى الآخر: «ولكن استناداً إلى أية سلطة اختطفني هذان الكلبان، في الشارع، واقتاداني إلى هنا؟»

فقال مستر براونلو: «استناداً إلى سلطتي أنا. إني أنا من سيعوض هذين الرجلين عن كل أذى قد يلم بهما. أنت تشكو سلبهما حريتك، ولكنك كنت تملك الفرصة المتاحة لاستردادها في طريقك إلى هنا. . ومع

ذلك فقد رأيت من الحكمة أن تلزم الهدوء. وها أني أكرر الآن ما قلته لك من قبل: ألتمس حماية العدالة، وعندئذ ألجأ أنا إلى العدالة أيضاً. ولكن لا تحاول، إذا ما انتهيت في ذلك إلى نقطة اللارجوع، أن تتضرع إليَّ طالباً الرأفة عندما تنتقل السلطة من يدي إلى أيدي الآخرين. ولا تقل أني دفعت بك إلى الهاوية التي أوقعت نفسك فيها.»

وبدا الاضطراب والذعر واضحين على وجه مونكس. وتردد.

فقال مستر براونلو في ثبات ورباطة جأش كاملين: «سوف تقرر بسرعة. وإذا شئت أن أقدم اتهاماتي علانية وأسلمك لعقوبة لا أستطيع ـ على الرغم من قدرتي على التكهن بمداها وأنا أرتعد ـ أن أسيطر عليها.. إذا شئت ذلك قلت لك مرة أخرى أنك تعرف الطريق. أما إذا لم تشأ، وإذا آثرت أن تلجأ إلى حلمي وإلى رأفة أولئك الذين أنزلت بهم أعظم الأذى فاجلس، من غير أن تنطق بأية كلمة، على ذلك الكرسي. لقد انتظرتك يومين كاملين.»

فغمغم مونكس ببضع كلمات غير مفهومة، ولكنه ظل متردداً.

فقال مستر براونلو: «لا تضع الوقت. إن كلمة واحدة أقولها تفقدك حق الاختيار إلى الأبد.»

ولكن الرجل ظل متردداً. فقال مستر براونلو: «لست ميالاً إلى المفاوضة والأخذ والرد. وإذ كنت أدافع عن أعز مصالح الآخرين فليس لي الحق في الإقدام على ذلك.»

فسأله مونكس بلسان متلعثم: «أليس هناك... أليس هناك حلّ وسط؟»

ـ «لا، على الإطلاق.»

ونظر مونكس إلى السيد الماجد العجوز بعينين قلقتين، وإذ لم يلمح على محياه غير القسوة والعزم دخل الحجرة وجلس على الكرسي يهز كتفيه..

وقال مستر براونلو للخادمين: «أقفلا الباب من الخارج، وأدخلا حين أرن لكما الجرس.»

فامتثلا أمره، وغادر الرجلان وحدهما.

وقال مونكس خالعاً قبعته ومعطفه: «هذه معاملة لطيفة، يا سيدي، من أقدم أصدقاء أبي!»

فأجابه مستر براونلو: «الواقع أنه بسبب من أني كنت أقدم أصدقاء أبيك، أيها الشاب.. وبسبب من أن آمال السنوات الغضة السعيدة ورغباتها كانت مرتبطة به.. وبتلك المخلوقة الحلوة التي جرى في عروقها عين الدم الجاري في عروقه والتي التحقت ببارئها وهي بعد صبية وخلفتني هنا رجلاً منعزلاً متوحداً... وبسبب من أنه ركع معي عند فراش احتضار أخته الوحيدة وهو بعد غلام في ذلك الصباح الذي كان مقرراً أن تصبح فيه ـ ولكن اللّه شاء غير ذلك ـ زوجتي الشابة... وبسبب من أن قلبي المصروح تعلق به منذ ذلك الحين، خلال تجاربه كلها وأخطائه كلها حتى لفظ أنفاسه الأخيرة... وبسبب من أن ثمة ذكريات قديمة تملأ قلبي، ولأن مشهدك نفسه يذكرني به.. أقول بسبب من هذا كله أراني مدفوعاً إلى معاملتك بلطف ـ أجل، يا إدورد ليفورد، معاملتك حتى في هذه اللحظة بلطف ـ وأحمر خجلاً لعدم جدارتك بحمل هذا الاسم.»

ـ «أي علاقة للاسم بهذه المسألة؟» سأله الآخر، بعد أن تأمل اهتياج رفيقه تأملاً اتسم بالصمت والذهول. «أية أهمية للاسم عندي؟»

فأجابه براونلو: «لا أهمية له البتة. ولكنه الاسم الذي حملته هي، وحتى في هذه اللحظة، وبعد انقضاء هذه المدة كلها، يذكرني هذا الاسم، وأنا الرجل العجوز، بالنشوة والبهجة الغامرة اللتين استشعرتهما ذات يوم لمجرد سماعه ملفوظاً على لسان رجل غريب. أنا جد سعيد لتغييرك اسمك.. جد سعيد.. جد سعيد..»

ـ «هذا كله رائع جداً،» كذلك قال مونكس (لكي نحتفظ باسمه المستعار) بعد صمت طويل راح خلاله يتمايل في تحد متجهم ذات اليمين

وذات الشمال، بينما قعد مستر براونلو جامداً، حاجباً وجهه بيده. «ولكن ما الذي تريده مني؟»

فقال مستر براونلو موقظاً نفسه: «إن لك أخاً. أخاً كان مجرد الهمس باسمه في أذنك حين أدركتك في الشارع كافياً، أو يكاد، لحملك على المجيء معي إلى هنا، وأنت مندهش مذعور.»

فأجابه مونكس: «ليس لي أي أخ. أنت تعلم أني وحيد أبوي. فلماذا تحدثني عن أخوة لي؟ أنت تعرف ذلك جيداً كما أعرفه.»

فقال مستر براونلو: «انتظر حتى تسمع ما أعرفه، وما قد تنكره أنت. فلسوف أثير اهتمامك عما قريب. أنا أعلم أنك كنت الثمرة الوحيدة وغير الطبيعية إلى أبعد الحدود من ذلك الزواج التعس الذي أكره عليه أبوك البائس وهو بعد في مقتبل العمر، بحكم كبرياء الأسرة وبحكم المطامح المغالية في الخسة وعدم التبصر.»

فقاطعه مونكس في ضحكة ساخرة: «لست أبالي بالإهانات. أنت تعرف تلك الحقيقة، وهذا وحده يكفيني.»

فتابع السيد العجوز كلامه قائلاً: «ولكني أعرف أيضاً الآلام والنكال البطيء وضروب العذاب المتطاول التي أحدثها ذلك الزواج غير المتناغم. أنا أعرف بأي إرهاق وكلال جر كل من ذينك الزوجين الشقيين قيده الثقيل في عالم مسموم في نظريهما كليهما. وأنا أعرف كيف عقب التعنيف الصريح، الشكليات الباردة، وكيف حل النفور محل اللامبالاة، والبغض محل النفور، والاشمئزاز محل البغض، إلى أن حطما آخر الأمر ذلك القيد المقعقع، وافترق كل منهما عن الآخر حاملاً قطعة من القيد تثيره وتعكر صفوه، قطعة لا يستطيع تحريره منها غير الموت، لكي يحجبها خلف حياة جديدة مع معارف جدد، ووراء ستار من أعظم قدر من الابتهاج وفق إلى تكلفه. ولقد نجحت أمك في ذلك، فنسيت شقاءها وشيكاً. أما فؤاد أبيك فتقرح وعلاه الصدأ طوال سنوات وسنوات.»

فقال مونكس: «حسناً، لقد انفصلا. وأي بأس في ذلك؟»

فواصل مستر براونلو حديثه: «وبعد أن انقضت على افتراقهما فترة ما وانغمست أمك انغماساً كلياً في حياة القارة الأوروبية الطياشة، ناسية زوجها الشاب نسياناً كاملاً ـ زوجها الذي كان أصغر منها بعشر سنوات ـ تعرّف أبوك، وقد انهدّت آماله، إلى أصدقاء جدد، وكان قد لبث في الوطن لا يغادره. وهذه الواقعة على الأقل أنت تعرفها من قبل.»

ـ «أنا؟ لا!» كذلك قال مونكس مشيحاً بوجهه، خابطاً الأرض بقدمه مثل رجل عقد العزم على إنكار كل شيء: «لست أنا من يعرف!»

فقال مستر براونلو: «إن لهجتك لتؤكد لي، بقدر ما تؤكد لي تصرفاتك، إنك لم تنسها قط، أو لم تكف عن التفكير فيها بمرارة. أنا أشير إلى عهد يرقى إلى خمس عشرة سنة خلت، عندما كنت أنت غلاماً لم يتجاوز الحادية عشرة من العمر، وكان والدك في الحادية والثلاثين ليس غير ـ إذ كان، وإني لأكرر ذلك، صبياً صغيراً عندما أمره أبوه بالزواج. أيتعين عليَّ أن أعود إلى الوراء واستعرض أحداثاً تكدر ذكرى أبيك، أم تراك تؤثر أن توفر ذلك عليّ فتبوح لي بالحقيقة؟»

فقال مونكس: «ليس لدي ما أبوح به، في استطاعتك أن تواصل حديثك إذا شئت.»

فقال مستر براونلو: «إذن، فقد كان بين هؤلاء الأصدقاء الجدد ضابطاً بحرياً متقاعداً كانت زوجته قد توفيت قبل نصف عام تقريباً، وغادرته مع ولدين ـ لقد رزقا أكثر من ذلك، ولكن ولدين اثنين فقط قدر لهما، لحسن الطالع، أن يبقيا على قيد الحياة. كانا بنتين، إحداهما مخلوقة جميلة في التاسعة عشرة، والأخرى مجرد طفلة في الثانية أو الثالثة من عمرها.»

فسأله مونكس: «وأية أهمية لهذا بالنسبة إليّ؟»

فقال مستر براونلو وقد بدا وكأنه لم يسمع هذا الاعتراض: «كانوا يقيمون في منطقة كان أبوك قد ذهب إليها، في عهد تجواله التائه، وعقد العزم على الاستقرار فيها. وتعاقبت المعرفة، والإلفة، والصداقة، في

سرعة، وكان والدك ذا مواهب يعز نظيرها عند الكثرة الكبرى من الناس، وكان يشبه أخته جسداً وروحاً. فلم يكد الضابط العجوز يزداد به معرفة حتى شرع يحبه. وكم كنت أود لو أن الأمر انتهى عند هذا الحد. وكذلك شرعت ابنته تحبه بعد أن ازدادت معرفة به.»

وأمسك العجوز عن الكلام. وكان مونكس يعض شفتيه، مركزاً عينيه على أرض الحجرة. وما إن لاحظ العجوز ذلك حتى استأنف حديثه قائلاً:

ـ «ولم ينقض عام حتى عقد قرانه، في خشوع ومهابة، على تلك الفتاة: لقد كانت موضوع حب أول ووحيد، حب صادق عارم كالذي يلم عادة بالفتيات البريئات.»

وهنا أعلن مونكس، وهو يتململ في كرسيه: «إن حكايتك هذه لمن أطول الحكايات.»

فرد مستر براونلو على هذه الملاحظة: «إنها حكاية واقعية حافلة بالأسى والمحن والحزن، أيها الشاب. وأمثال هذه الحكايات طويلة عادة. ولو قد كانت حكاية حافلة ببهجة وسعادة خالصتين إذن لكانت قصيرة جداً. وأخيراً توفي أحد أولئك الأنسباء الأثرياء الذين ضحي بأبيك لتدعيم مصالحهم ومراكزهم، كما يضحى عادة بأشخاص آخرين فليس هذا بالأمر النادر. ولكي يعوضه من الشقاء الذي تسبب في إنزاله به ترك له دواءه الشافي من ضروب الأسى كلها: المال. وكان الموقف يقتضي من أبيك أن يذهب في الحال إلى رومة، إلى حيث كان ذلك الرجل قد لجأ التماساً للشفاء، ثم توفي تاركاً شؤونه في اختلاط واضطراب بالغين. وذهب أبوك، فألم به هناك داء قاتل، وما إن وصل النبأ إلى باريس حتى سارعت أمك ـ حاملة إياك معها ـ إلى الالتحاق به، ولكنه توفي في اليوم الذي تلا يوم وصولها، غير تارك وصية، أجل غير تارك وصية، وهكذا انتقلت الثروة كلها إليها وإليك.»

وعند هذا القسم من الحكاية حبس مونكس أنفاسه، وأصغى في لهفة بالغة غلبت على وجهه، برغم أن عينيه لم تكونا موجهتين نحو المتكلم.

حتى إذا كف مستر براونلو عن الكلام عدل جلسته مثل رجل تنفس الصعداء فجأة، ومسح وجهه المحرور ويديه المضطرمتين.

وفي بطء، قال مستر براونلو، مركزاً عينيه على وجه الرجل الآخر: «لقد قام والدك وقبل أن يمضي إلى ما وراء البحار، وخلال مقامه القصير في لندن في طريقه إلى رومة، قام بزيارتي.»

ـ «أنا لم أسمع بذلك قط،» كذلك قاطعه مونكس في لهجة أراد بها أن تكون راشحة بعدم التصديق، ولكنها عبّرت أكثر ما عبرت عن اندهاش راشح بالانزعاج والضيق.

ـ «لقد قام بزيارتي، وترك عندي في جملة ما ترك صورة... لوحة فنية بريشته هو ـ هي صورة هذه الفتاة الصغيرة البائسة ـ لم يكن راغباً في أن يخلفها وراءه، ولكنه كان عاجزاً مع ذلك عن حملها معه في رحلته العاجلة تلك. كان القلق والندم قد أبلياه حتى أمسى شبحاً أو كالشبح، وحدثني بلهجة شاردة ذاهلة عن خراب وعار كان هو مسببهما، وأسر إليَّ بعزمه على تحويل ممتلكاته كلها إلى نقد، مهما كلفه ذلك من خسارة، وبعزمه بعد أن خصك أنت وخص زوجته بجزء من ثروته الجديدة على مغادرة البلاد (وقد أدركت أحسن الإدراك أنه لن يغادرها منفرداً) وعلى عدم العودة إليها أبد الدهر. ثم ضن عليّ أنا صديقه القديم، صديق صباه الذي امتدت جذور مودته القوية في الثرى الذي وارى جثمان أعز الناس على فؤاده وفؤادي... أجل ضن حتى عليَّ أنا بتفاصيل اعترافاته الأخرى، واعداً إياي بالكتابة إليّ وبإخباري بكل شيء، وبأن يجتمع إليّ بعد ذلك مرّة أخرى للمرة الأخيرة على هذه الأرض. واأسفاه! لقد كانت تلك هي المرة الأخيرة. أنا لم أتلق منه أية رسالة، ولم أره بعد ذلك قط.»

وتمهل مستر براونلو لحظة ثم أضاف: «وذهبت إلى مسرح حبه الـ... (لِمَ لا أستخدم التعبير الذي لا يتردد جميع الناس في استخدامه، باعتبار أن القسوة أو المحاباة الدنيويتين سيان عنده الآن) أجل ذهبت إلى مسرح حبه المجرم بعد أن عقدت النية على أنه، إذا ما كانت مخاوفي في

محلها، فإن تلك الوليدة التائهة يجب أن تجد على الأقل سقفاً يؤويها وقلباً يحنو عليها. وكانت الأسرة قد غادرت تلك المنطقة قبل ذلك بأسبوع، لقد سألت دائنيها أن يقدموا إليها جميع الفواتير الصغيرة غير المدفوعة، ودفعتها كلها، ثم هجرت المكان تحت جنح الظلام. أما لماذا وإلى أين فهذا ما لا يعرفه أحد.»

وهنا تنفس مونكس الصعداء على نحو أحفل بالارتياح، وأجال الطرف في ما حوله وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة النصر.

ـ «ولكن حين ألقي أخوك،» كذلك قال مستر براونلو وهو يدني كرسيه إلى كرسي الرجل الآخر، «حين ألقي أخوك، وكان طفلاً ضعيفاً مهملاً رث الثياب. في طريقي بيد أقوى من يد المصادفة، وحين أنقذته من حياة الرذيلة والعار...»

فصاح مونكس: «ماذا؟»

فقال مستر براونلو: «أجل حين أنقذته أنا من تلك الحياة. لقد قلت لك إني سأثير فضولك وشوقك عما قريب.. ويخيّل إليَّ الآن أن زميلك الماكر قد كتم اسمي عنك، على الرغم من أنه كان ـ بقدر ما يعلم هو ـ سيبدو غريباً على أذنيك. حين أنقذته، إذن، وراح يقضي فترة النقاهة في بيتي أثار دهشتي شبهه العظيم بتلك اللوحة التي تحدثت عنها. وحتى عندما رأيته أول مرة، بكل ما اكتنفه من قذر وبؤس، كانت على محياه ملامح بدت مثل لمحة من صديق قديم أومضت في حلم حي. ولست في حاجة إلى إنبائك أنهم أوقعوه في الشرك واستردوه منه قبل أن أعرف قصته...»

فسارع مونكس إلى السؤال: «وما الذي يجعلك في غير حاجة إلى ذلك؟»

ـ «لأنك تعرفه جيداً.»

ـ «أنا!»

فأجابه مستر براونلو: «إنكارك هذا عبث لا طائل تحته. سوف أريك أني أعرف أكثر من هذا.»

فقال مونكس متلعثماً: «أنت... أنت... لا تستطيع أن تثبت أي شيء ضدي. إني أتحداك أن تفعل ذلك.»

فرد عليه الرجل العجوز وهو يحدجه بنظرة فاحصة: «سوف نرى لقد أضعت الغلام، ولم تستطع جهودي كلها أن تهديني إلى مقره. ولما كانت أمك ميتة فقد عرفت أنك وحدك قادر على حل اللغز، إذا ما كان في إمكان أي امرئ أن يحله. ولما كنت، يوم سمعت بك أخيراً في ممتلكاتك الخاصة في جزائر الهند الغربية ـ إلى حيث كنت قد لجأت عقب وفاة أمك لكي تتجنب نتائج سيرتك الآثمة هنا ـ فقد رحلت أنا إلى هناك. ولكنك كنت قد غادرت تلك الجزائر قبل بعضة أشهر، وكان مظنوناً أنك في لندن، ولكن أحداً لم يكن يدري أين. وعدت إلى لندن من جديد. فإذا بوكلاء أعمالك يجهلون مقرك جهلاً كاملاً. لقد قالوا لي إنك وفدت ومضيت لسبيلك بمثل الطريقة الغريبة التي تعودت اصطناعها دائماً. كانوا يرونك أحياناً بعد بضعة أيام من ذلك، ثم تحتجب عن أعينهم طوال أشهر بكاملها. وأغلب الظن أنك كنت تواصل الذهاب إلى الأماكن الوضيعة نفسها والاتصال بعصابة الأشرار نفسها التي ألفت الاختلاط بها منذ كنت غلاماً شرساً متمرداً. والواقع أني أضجرت أولئك الأشرار بمراجعاتي المستمرة. وجبت الشوارع ليل نهار، ولكن جميع جهودي ظلت ـ إلى ما قبل ساعتين اثنتين ـ عبثاً لا طائل تحته. ولم تقع عيني عليك لحظة واحدة.»

فقال مونكس وهو ينهض في جسارة: «وها أنت ذا تراني الآن. ثم ماذا؟ إن التزوير والسرقة كلمتان طنانتان ـ كلمتان يبررهما، في اعتقادك، شبه متخيّل بين عفريت صغير وبين صورة تافهة رسمتها ريشة رجل ميت. أخ! أنت لا تعرف حتى إذا ما كان ذانك الزوجان العاطفيان قد أنجبا ولداً. أنت لا تعرف حتى هذا.»

فأجابه مستر براونلو وقد نهض هو الآخر: «أنا لم أكن أعرف ذلك، ولكني عرفت خلال الأيام الخمسة عشر الأخيرة كل شيء. إن لك أخاً. أنت تعرف هذا وتعرف أخاك. ولقد كانت ثمة وصية أتلفتها أمك، تاركة لك السر والربح عند وفاتها. وكانت تلك الوصية تشتمل على إشارة إلى طفل كان من المحتمل أن يكون ثمرة تلك العلاقة التعيسة، وهو طفل وُلِد فعلاً، ولقد التقيتَه مصادفة، عندما أثيرت شكوكك أول ما أثيرت بما بينه وبين أبيه من شبه. ولقد سعيتَ إلى مسقط رأسه. وكانت ثمة بينات ـ بينات طالما أخفيت ـ على ولادته ونسبه. وهذه البينات أتلفتها أنت بنفسك، والآن، وبكلماتك نفسها التي وجهتها إلى اليهودي شريكك في الجريمة، فإن «الأدلة الوحيدة على هوية الغلام تستقر في قاع البحر، وعظام العجوز التي تلقتها من أمه تبلى في نعشها». أفلا تزال، أيها الابن الساقط الجبان الكذاب. . . أنت يا من يعقد اجتماعاته مع اللصوص والقتلة ليلاً في غرف مظلمة. . . أنت، يا من أفضت مؤامرتك ومكائدك إلى مقتل مخلوقة تساوي ملايين من مثلك. . . أنت، يا من أفعمت منذ كنت في المهد قلب والدك نفسه بالسخط والمرارة، ويا من تقيحت فيك جميع المشاعر الشريرة وضروب الرذيلة والفجور حتى وجدت متنفساً لها في داء رهيب جعل وجهك صورة عن روحك نفسها. . أنت، إدورد ليفورد، ألا تزال مصراً على أن تتحداني؟»

ـ «لا، لا!» كذلك أجابه الجبان، وقد أذهلته هذه التهم المتراكمة.

وهنا صاح السيد العجوز: «إن كل كلمة، أجل كل كلمة، دارت بينك وبين ذلك الوغد البغيض أعرفها. إن الظلال المرتسمة على الجدار قد تلقفت همساتك وحملتها إلى أذني. ومشهد الطفل المضطهد خلق الرذيلة نفسها خلقاً آخر، ومنحها الشجاعة بل منحها صفة الفضيلة أيضاً. واقتُرفت جريمة قتل كنت شريكاً معنوياً فيها إن لم تكن شريكاً فعلياً.»

فقاطعه مونكس: «لا. لا. أنا. . . أنا لا أعرف شيئاً عن ذلك. كنت في سبيلي إلى البحث عن حقيقة هذه القصة عندما فاجأتني. أنا لم أعرف

الباعث على ذلك. لقد حسبت أنه كان نزاعاً عادياً.»

فقال مستر براونلو: «كان الباعث على ذلك هو أنها باحت ببعض أسرارك. فهل لك أن تبوح بكامل تلك الأسرار؟»

ـ «نعم. أنا مستعد.»

ـ «أمستعد أنت لأن تكتب بياناً بالحقيقة والوقائع، وأن تشهد عليه بعض الشهود؟»

ـ «أعدك بذلك أيضاً.»

ـ «وتعدني بأن تبقى هنا، ملتزماً الهدوء، ريثما تُعَد الوثيقة، ثم تمضي معي إلى المكان الذي أراه أنسب الأماكن للشهادة على صحتها؟»

فأجابه مونكس: «إذا أصررت على ذلك نزلت عند رغبتك أيضاً.»

فقال مستر براونلو: «يتعيَّن عليك أن تفعل أكثر من ذلك. وهو أن ترد الحق السليب إلى غلام بريء كل البراءة، إذ هكذا هو في الواقع برغم أنه ثمرة حب مجرم ليس أتعس منه. أنت لما تنسَ شروط الوصية، فنفذها بقدر ما يتعلق الأمر بأخيك ثم أمضِ في سبيلك حيث شئت. فليس ينبغي لكما أن تلتقيا في هذا العالم منذ اليوم.»

وفيما كان مونكس يذرع الحجرة جيئة وذهاباً متأملاً ـ وقد غلب على وجهه التجهم والشر ـ في هذا الاقتراح وفي إمكانيات التملص منه، تتجاذبه مخاوفه من ناحية وكراهيته من ناحية، فتح الباب على عجل ودخل سيد (مستر لوزبيرن) الحجرة في اهتياج عنيف.

وصاح: «سوف يلقى القبض على الرجل. سوق يلقى القبض عليه الليلة!»

فسأله مستر براونلو: «القاتل؟»

فأجابه الآخر: «نعم.. نعم. لقد رأوا كلبه قابعاً على مقربة من مأوى عتيق، ويبدو أنه ليس ثمة كبير شك في أن سيده هناك، أو أنه سوف يفد إلى هناك تحت جنح الظلام. إن العيون والأرصاد ليحومون حول المكان

في كل ناحية. ولقد تحدثت إلى المكلفين بإلقاء القبض عليه، فقالوا لي إنه لا يستطيع أن يولي فراراً. والليلة ستعلن الحكومة عن تخصيص جائزة مقدارها مئة جنيه لمن يرشد إليه.»

فقال مستر براونلو: «ولسوف أقدم أنا خمسين جنيهاً إضافية. إني سأعلن ذلك بشفتي هاتين في أيما مكان يتم فيه إلقاء القبض عليه، إذا ما استطعت بلوغه. أين مستر مايلي؟»

ـ «هاري؟ إنه لم يكد يرى صديقك هذا في المركبة معك، تحت حراسة شديدة، حتى هرع إلى حيث سمع النبأ الذي أعلنته.» كذلك أجاب الطبيب: «ثم إنه امتطى صهوة جواده وانطلق للالتحاق بالفصيلة الأولى في مكان ما من الضواحي متفق عليه بينهما.»

فسأله مستر براونلو: «وفاجين؟ ماذا حل به؟»

ـ «حين سمعت عنه آخر مرة لم يكن قد اعتقل بعد، ولكنه سوف يعتقل قريباً، ولعل اعتقاله أن يكون قد تم الآن. إنهم على يقين من إيقاعه في الشرك.»

وهنا التفت مستر براونلو إلى مونكس وسأله في صوت خفيض: «هل عقدت العزم؟»

فأجابه: «نعم. ولكن... هل... هل ستكتم سري؟»

ـ «سوف أفعل. ابق هنا ريثما أعود. هذا هو أملك الوحيد في السلامة.»

وغادرا الحجرة، وأقفل الباب. سأله الطبيب في همس: «ماذا فعلت؟»

ـ «كل ما كنت أرجو أن أفعله، بل أكثر من ذلك. لقد زاوجت ما بين المعلومات التي أفضت بها الفتاة البائسة وبين معلوماتي السابقة وبين نتائج الاستطلاع الذي قام به هناك صديقنا الممتاز، وبذلك لم أدع له منفذاً يفر منه، وكشفت القناع عن سفالته كلها التي أمست تحت هذه الأضواء

واضحة كالشمس في رابعة النهار. سجل وحدد الساعة السابعة، من مساء بعد غد، موعداً للاجتماع. ولسوف نكون هناك قبل الموعد بساعات قليلة، ولكننا سوف نجد أنفسنا في حاجة إلى الراحة، وبخاصة السيدة الصغيرة، التي قد يقتضيها الموقف قدراً من رباطة الجأش أعظم مما يستطيع أي منا أن يتنبأ به الآن. ولكن دمي يغلي توقاً إلى الانتقام لتلك المخلوقة البائسة المقتولة. أية سبيل سلكوا؟»

فأجابه مستر ليزبورن: «امض إلى مخفر الشرطة مباشرة، تصل في الوقت المناسب. أما أنا فسوف أبقى هنا.»

وافترق الرجلان في الحال، وفي نفس كل منهما حمى اهتياج لا سبيل إلى كبحها البتة.

الفصل الخمسون

المطاردة والفرار

على مقربة من ذلك الجزء من نهر التايمس الذي تحاذيه كنيسة روذرهايث، حيث المباني على الضفتين هي الأقذر وحيث المراكب في النهر هي الأشد إسوداداً بسبب من غبار الفحامين ودخان البيوت المتلاصقة الخفيضة السقوف، يقوم أقذر وأغرب وأعجب حي من الأحياء الكثيرة المخبوءة في لندن، والمجهولة جهلاً كاملاً هي وأسماؤها أيضاً عند الجمهرة العظمى من السكان.

ولبلوغ هذا المكان يتعيَّن على الزائر أن يخوض في متاهة من الطرق الضيقة، الموحلة، المزدحمة بأبناء الشاطئ النهري الأشد فقراً وجلافة، والمكرسة للتجارات التي يقتضيها وجودهم هناك. إن السلع الأشد رخصاً والأسوأ نوعاً لتتراكم في الدكاكين، وإن الملابس الأشد خشونة وابتذالاً لتتدلى على أبواب التجار وتتماوج من النوافذ وأسوار البيوت. ويتعيَّن على ذلك الزائر أن يدفع بمنكبيه عمالاً من الطبقة الدنيا عاطلين عن العمل

وعدداً من ناقلي الحصى، وسائقي عربات الفحم، والنسوة السليطات والأطفال الذين لا تعلو أجسادهم غير أسمال بالية، وأوغاد النهر وأوباشه، فيما هو يشق طريقه في صعوبة وعسر، تزعجه مشاهد بغيضة وروائح كريهة منبعثة من الأزقة الضيقة المتشعبة ذات اليمين وذات الشمال، وتصمه قرقعة عربات النقل المحملة بأكوام ضخمة من بضائع المستودعات. حتى إذا انتهى آخر الأمر إلى شوارع أبعد وأشد إيحاشاً من تلك التي كان قد اجتازها، تعيَّن عليه أن يمشي تحت واجهات منازل متداعية، ناتئة فوق الرصيف، وجدران عارية بدت وكأنها تتداعى للسقوط فيما هو يجتاز بها، ومداخن أنهار نصف من كل منها وتردد النصف الآخر في الانهيار، ونوافذ تحميها قضبان حديدية صدئة كاد الزمن والقذر أن يلتهماها، وجميع علائم الهجر والإهمال التي يستطيع المرء أن يتخيلها.

في هذه البقعة، وراء «دوكهيد» في مقاطعة «ساوثوارك»، تقع «جزيرة يعقوب» Jacob's Island يحيط بها خندق موحل يبلغ عمقه ستة أقدام أو ثمانية، وخمسة عشر قدماً أو عشرين عندما يكون المد مرتفعاً، خندق كان يدعى يوماً «بركة المصنع» Mill Pond ولكنه عُرِف في أيام هذه القصة باسم «خندق الحماقة» Folly Ditch. إنه جدول أو نهير متفرع من التايمس، ويمكن دائماً غمره، عند ارتفاع المد، بفتح السدود القائمة عند مصنع الرصاص الذي استمد اسمه القديم منه. وفي أحوال كهذه، يرى الغريب ـ حين ينظر إلى «ميل لاين» من أحد الجسور الخشبية التي تمتد فوقه ـ نزلاء البيوت القائمة على كل من الجانبين وهم يدلون من أبوابها الخلفية ونوافذها دلاء متنوعة وآنية بيتية من كل ضرب ليسحبوا بها الماء. حتى إذا حول عينه عن هذه العملية إلى المنازل نفسها كان خليقاً بدهشه أن يستثار أعظم الاستثارة بالمشهد الذي أمامه: شرفات خشبية متشققة متصلة بمؤخرات نصف دزينة من البيوت على نحو مشترك تتخللها ثقوب تمكن النزلاء من النظر إلى الحمأة المنبسطة تحتها، ونوافذ محطمة مرقعة نتأت منها أوتاد لتجفيف البياضات التي لم توجد هناك البتة، وحجرات بالغة

الصغر، بالغة القذارة، بالغة الضيق بحيث يبدو الهواء فيها فاسداً حتى بالنسبة إلى الأوساخ والأقذار التي تؤويها، وغرف خشبية مقحمة نفسها فوق الوحل متوعدة بالسقوط فيه، وجدران ملوثة بالوسخ وآساس مهترئة، وكل ملامح الفقر المنفرة، وكل إمارة بغيضة من إمارات النجاسة والتعفن والقمامة. إن هذه كلها لتزين ضفتي «خندق الحماقة» ذاك.

والمخازن، في «جزيرة يعقوب» كلها فارغة لا سقف لها. الجدران متداعية للسقوط، والنوافذ لم تعد نوافذ إلا على المجاز، والأبواب منهارة إلى الشوارع، والمداخن مسودة ولكنها لا ترسل أي دخان. لقد كانت تلك الجزيرة، منذ ثلاثين أو أربعين عاماً، وقبل أن تداهمها الكوارث المالية والدعاوى أمام المجلس العدلي، مكاناً نابضاً بالحياة، أما اليوم فهي جزيرة مهجورة حقاً. فالبيوت لا مالكين لها، يقتحمها ويلجها كل من آنس في نفسه الشجاعة، وهناك يعيشون، وهناك يموتون. إن من يلجأون إلى «جزيرة يعقوب» يجب أن تكون لديهم دوافع قوية تغريهم بالعيش المُحاط بالسرية أو يجب أن يكونوا قد دفعوا إلى حال من البؤس يائسة.

في حجرة عليا من أحد هذه المنازل ـ منزل منعزل ذي حجم لا بأس به، خرب من نواح أخرى، ولكن أبوابه ونوافذه تزوده بحماية قوية: منزل تشرف مؤخرته على الخندق بطريقة سبق لنا أن وصفناها ـ اجتمع ثلاثة رجال. لقد نظر بعضهم إلى بعض، بين الفينة والفينة نظرات تعبّر عن الارتباك والتوقع القلق، واعتصموا فترة من الزمان بصمت عميق مكتئب. فأما أحدهم فكان توبي كراكيت، وأما الثاني فكان مستر تشيتلينغ، وأما الثالث فكان لصاً في الخمسين من عمره كاد أنفه إن يهشم في شجار قديم ما وكان وجهه يحمل ندبة ربما رجع عهدها إلى تلك الحادثة نفسها. كان هذا الرجل مجرماً عائداً من المنفى وكان اسمه كاغز.

وقال توبي ملتفتاً إلى مستر تشيتلينغ: «كنت أتمنى لو أنك اخترت مخبأ آخر عندما فاحت رائحة المخبأين القديمين، ولو أنك لم تأتِ إلى هنا يا صاحبي العزيز.»

فقال كاغز: «لِمَ لم تفعل. أيها الأحمق؟»

فأجابه مستر تشيتلينغ في نبرة كئيبة: «حسناً، لقد ظننت أن رؤيتي سوف توقع في نفسك قدراً من الابتهاج أكثر قليلاً من هذا.»

فقال توبي: «ولكن يحسن بك أن تعلم، أيها الفتى، إنه حين يعرف المرء كيف يعتزل الناس اعتزالاً تاماً، كما فعلت أنا، وبذلك يوفق إلى سقف آمن يظل رأسه من غير أن يتجسس أحد عليه، فعندئذ يكون من المزعج بعض الشيء أن يتشرّف بزيارة يقوم بها فتى تكتنفه ظروف مثل ظروفك (مهما يكن محترماً، ومهما يكن من الممتع اللعب معه بالورق في بعض المناسبات)».

فأضاف مستر كاغز: «وبخاصة حين يكون في ضيافة الفتى المعتزل صديق رجع من بعض البلاد الأجنبية على نحو أسرع مما كان متوقعاً، وهو من شدة التواضع بحيث لا يرغب في المثول بين أيدي القضاة عند عودته.»

وران صمت وجيز بدا توبي كراكيت بعده وكأنه اعتبر أن من العبث الذي لا طائل تحته أن يقوم بأي جهد إضافي للاحتفاظ بتبجحه اللامبالي فالتفت إلى تشيتلينغ وقال:

ـ «متى ألقي القبض على فاجين، إذن؟»

ـ «في ساعة الغداء تماماً... في الساعة الثانية من هذا الأصيل. أما أنا وتشارلي فوفقنا إلى الفرار من طريق المدخنة التي في حجرة الغسيل، وأما بوتلر فأختبأ في صهريج الماء الفارغ، جاعلاً رأسه في الجزء الأدنى منه. ولكن قدميه كانتا من الطول بحيث برزتا من أعلى الصهريج، وهكذا ألقوا القبض عليه أيضاً.»

ـ «وبت؟»

ـ «مسكينة بت! لقد ذهبت لترى إلى الجثة، لتقول كلمة للفتاة التي كانتها» كذلك أجاب تشيتلينغ، وقد أكفهر وجهه أكثر فأكثر «وأصابها مس

من جنون، فراحت تصرخ وتهذي، ناطحة جدران الحجرة الخشبية برأسها. فما كان منهم إلا أن ألبسوها صدرة السجن واقتادوها إلى المستشفى... حيث هي الآن.»

فسأله كاغز: «وماذا حل ببايتس الصغير؟»

فأجاب تشيتلينغ: «لقد تسكع بعض الشيء لكي لا يصل إلى هنا قبل العتمة، ولكنه سوف يجيء عما قريب. فليس ثمة الآن مكان آخر يستطيع الذهاب إليه، لأن جماعة «حانة المقعدين» كلهم قد اعتقلوا، ومشرب الدكان (لقد ذهبت إلى هناك ورأيته بعيني) مليء برجال الشرطة.»

فأعلن توبي وهو يعض شفتيه: «هذه كارثة. ولسوف تكون هذه هي النهاية لأكثر من غلام واحد.»

فقال كاغز: «المحاكمات جارية. وإذا ما وفقوا إلى ختم التحقيق، وشهد علينا بوتلر واضعاً نفسه في خدمة الملك ـ وهو شيء لا بدَّ أن يفعله، كما يستدل مما سبق له أن قاله ـ فعندئذ يستطيعون أن يقيموا الدليل على أن فاجين شارك في إعداد الجريمة(*)، ويعينون يوم الجمعة موعداً لمحاكمته، ولن تنقضي أيام ستة حتى يتأرجح على أعواد المشنقة...»

وقال تشيتلينغ: «كنت أتمنى لو أنك سمعت الناس يزمجرون! لقد قاتل رجال الشرطة كالأبالسة، ولولا ذلك لمزق إرباً إرباً. وخر على الأرض لحظة، ولكنهم ضربوا نطاقاً حوله، وشقوا طريقهم في آن معاً. كنت أتمنى لو أنك رأيته كيف كان ينظر في ما حوله، وقد كسي بالطين وتدفق الدم من جراحه، وقد تشبث بهم وكأنهم أعز أصدقائه.. إن في استطاعتي أن أتمثلهم الآن، غير قادرين على تثبيت أقدامهم فوق الأرض بسبب من تدافع الحشود حولهم، وقد سحبوه وسطها. وفي استطاعتي أن أتصوّر الناس يثبون عن الأرض، واحداً وراء واحد، مكشرين عن أنيابهم، ويندفعون نحوه. وفي استطاعتي أن أرى الدم على شعره ولحيته، وأسمع

(*) يقصد الجريمة التي ذهبت نانسي ضحيتها.

الصيحات التي شقت النسوة بها طريقهن إلى وسط الحشد عند زاوية الشارع، مقسمات ليقتلعن قلبه من صدره اقتلاعاً!»

وضغط الراوي المذعور الذي قدر له أن يرى هذه المشاهد كلها. . ضغط يديه على أذنيه، ثم نهض مغمض العينين، وراح يذرع الحجرة في عنف جيئة وذهاباً، مثل رجل شارد اللب.

وفيما هو منهمك في تذريعه هذا، وقد قعد الرجلان صامتين مركزين أعينهما على الأرض، سمع على السلم وقع أقدام طفيف. وقفز كلب سايكس إلى الحجرة، فهرعوا إلى النافذة، وهبطوا السلم، واندفعوا إلى الشارع. كان الكلب قد دخل واثباً من نافذة مفتوحة. إنه لم يقم بأية محاولة للحاق بهم، ولا ولم يكن لسيده أثر ما.

وقال توبي بعد أن رجعوا: «ما معنى هذا؟ إنه لا يمكن أن يكون آتياً إلى هنا. أنا. . أنا. . أرجو أن لا يفعل.»

ـ «لو كان آتياً إلى هنا إذن لجاء مع الكلب.» كذلك قال كاغز، منحنياً ليتفحص الحيوان الذي كان قد انطرح لاهثاً على أرضية الحجرة: «هاي! فليأتين أحدكما ببعض الماء من أجله، لقد سقط مغشياً عليه من الإسراف في العدو.»

وقال تشيتلينغ بعد أن راقب الكلب فترة في صمت: «لقد شرب الماء كله حتى النقطة الأخيرة. وهو مكسو بالوحل. . . أعرج. . نصف أعمى. . ولا ريب في أنه قد أقبل من مكان بعيد.»

فصاح توبي: «من أين يمكن أن يكون قد أقبل؟ لقد مرّ، طبعاً، بالأكواخ الأخرى، حتى إذا ألفاها غاصة بالغرباء أقبل إلى هنا، حيث تعود أن يقبل في كثير من الأحيان. ولكن من أين يمكن أن يكون قد أقبل أولاً، وكيف جاء إلى هنا وحده من غير الآخر!»

فقال تشيتلينغ: «إنه. . .» (إن أحداً لم يجرؤ على تسمية القاتل باسمه القديم)، إنه لا يمكن أن يكون قد انتحر. ما رأيكما؟»

فهز توبي رأسه.

وقال كاغز: «لو إنه انتحر، لاقتادنا الكلب إلى حيث أقدم على فعلته هذه. لا. أنا أعتقد أنه غادر البلاد، وخلف الكلب وراءه. ولا بدَّ أنه قد فر، وإلا لكان حزن الكلب أعظم وأشد.

وإذ بدا هذا الرأي أكثر احتمالاً من أيما رأي آخر فقد تبنته الجماعة واعتبرته الحل الصحيح. وانسل الكلب تحت أحد الكراسي. والتف على نفسه مستسلماً للرقاد، من غير أن يراقبه بعد ذلك أحد.

وكانت العتمة قد هبطت الآن، فأوصدت مصاريع النوافذ، وأضيئت شمعة ووضعت على الطاولة. كانت أحداث اليومين الأخيرين الرهيبة قد تركت أثراً عميقاً في نفوس الثلاثة جميعاً. . . أثراً زاده عمقاً أن الخطر كان محدقاً بهم وأنهم كانوا غير مطمئنين إلى وضعهم. وأدنى كل منهم كرسيه إلى كرسي الآخر، مجفلاً عند سماعه أي صوت. وتحدثوا بعض الشيء، وكان حديثهم همساً، ثم اعتصموا بصمت مشوب بالذعر المزلزل وكأن جثمان المرأة القتيل مسجى في الحجرة التالية.

وكانوا قد جلسوا على هذا النحو، فترة من الزمن، عندما سمعوا فجأة قرعاً متعجلاً على باب المدخل.

ـ «هذا هو بايتس الصغير،» كذلك قال كاغز، مجيلاً طرفه في ما حوله بغضب، لكي يكبح الخوف الذي استبد به.

وقرع الباب من جديد. لا، إنه لم يكن هو. إن بايتس لم يسبق له أن قرع الباب على هذا النحو البتة.

ومضى كراكيت إلى النافذة، وحين عاد كانت الرعدة تسري في أوصاله كلها. ولم يكن ثمة حاجة لإخبارهم من القادم. فقد كان وجهه الشاحب يفصح عن ذلك. وأخذ الكلب حذره، لحظة، وهرع إلى الباب وهو يعوي. فقال كراكيت رافعاً الشمعة: «إن علينا أن نسمح له بالدخول.»

فسأله الرجل الآخر في صوت أجش: «أليس لنا من ذلك مناص؟»

ـ «لا. إنه يجب أن يدخل.»

ـ «لا تتركنا في الظلام،» كذلك قال كاغز وتناول شمعة كانت على إطار الموقد، وأضاءها بيد مرتعشة إلى حد أن القرع على الباب تكرر مرتين قبل أن يفرغ هو من ذلك.

وهبط كراكيت إلى الباب، ثم عاد يتبعه رجل كان وجهه محجوباً بمنديل، وكان منديل آخر معقوداً حول رأسه تحت قبعته. ونزعهما في بطء، كاشفاً عن وجه شاحب، وعينين غائرتين، وخدين أجوفين، ولحية لم تحلق منذ أيام ثلاثة، وجسم مضنى، لاهثاً لهاثاً شديداً. كان ذلك الرجل هو سايكس نفسه.

وضع يده على كرسي قائم في وسط الحجرة، ولكنه ارتعد فيما كان يحاول الارتماء عليه، وبدا وكأنه يجيل طرفه حوله، ثم سحبه إلى الوراء على مقربة من الجدار ـ أقصى مقربة من الجدار ـ وأسنده إليه، وقعد.

ولم يتم تبادل أية كلمة. ونقل الرجل طرفه من واحد من الجماعة إلى آخر، في صمت. فإذا اتفق لعين أن ترتفع إليه خلسة وتلتقي عينه، سارع إلى اجتنابها في الحال. حتى إذا قطع صوته الغائر الصمت، أجفلوا ثلاثتهم. لقد بدوا وكأنهم لم يسمعوا نبراته من قبل.

لقد سأل: «كيف جاء هذا الكلب إلى هنا؟»

ـ «وحده. منذ ثلاث ساعات.»

ـ «إن الصحيفة الصادرة الليلة تقول إن فاجين قد ألقي القبض عليه. هل هذا صحيح أم كذب؟»

ـ «صحيح.»

فقال سايكس ممراً يده عبر جبينه: «عليكم اللعنة جميعاً! أليس لديكم ما تقولونه لي؟»

وأتوا بحركة تنم عن قلق واضطراب، ولكن أياً منهم لم يتكلم.

فقال سايكس ملتفتاً إلى كراكيت: «وأنت، يا من يدير هذا البيت، هل تعتزم أن تبيعني للسلطة أم أن تدعني أقيم هنا حتى تنتهي هذه المطاردة؟»

ـ «في استطاعتك أن تمكث هنا، إذا وجدت أن ليس في ذلك خطر،» كذلك أجابه الشخص المخاطب، بعد شيء من التردد.

ورفع سايكس بصره، في أناة، إلى أعلى الجدار القائم خلفه، محاولاً أن يدير رأسه أكثر، وقال: «هل... هل... الجثة... قد دفنت؟»

وهزوا برؤوسهم.

ـ «ولِمَ لم تدفن؟» كذلك تساءل ملقياً النظرة نفسها على الجدار القائم خلفه. «لأي غرض يبقون مثل هذه الأشياء القبيحة فوق سطح الأرض؟ من الذي يقرع الباب؟»

فأفهمه كراكيت، بإيماءة من يده بينما كان يغادرة الحجرة، أن ليس ثمة ما يدعو إلى الخوف. وسرعان ما انقلب عائداً يتبعه تشارلي بايتس. وكان سايكس جالساً قبالة الباب، فلم يكد الغلام يدخل الحجرة حتى وجد نفسه أمامه وجهاً لوجه.

ـ «توبي،» كذلك قال الغلام مرتداً إلى الوراء حين حول سايكس عينيه نحوه، «لماذا لم تنبئني بهذا ونحن في الطابق الأسفل؟»

كان ثمة شيء رهيب في انكماش الثلاثة جميعاً، فنزع المسكين إلى استرضاء هذا الغلام الصغير. إذ أومأ برأسه وتظاهر برغبته في مصافحته.

ـ «فلنمض إلى حجرة أخرى.» كذلك قال الغلام وهو ينكفئ أكثر فأكثر.

وقال سايكس مندفعاً إلى أمام: «تشارلي! ألا.. ألا تعرف من أنا؟»

فأجابه الغلام، وهو يمعن في الانكفاء، ناظراً ـ والذعر في عينيه ـ إلى وجه القاتل: «لا تدن مني أيها الوحش!»

فكف الرجل عن السير، وتبادلا النظرات. ولكن عيني سايكس انخفضتا، شيئاً بعد شيء، نحو الأرض.

ـ «اشهدوا ثلاثتكم،» كذلك صاح الغلام هازاً جمع كفه المطبق، مهتاجاً أكثر فأكثر بينما كان يتكلم: «اشهدوا ثلاثتكم... أنا لست خائفاً منه... وإذا ما جاءوا إلى هنا للقبض عليه أسلمته إليهم. سوف أفعل. أجل، أنا أحيطكم بذلك علماً منذ هذه اللحظة. وقد يقتلني من أجل ذلك إذا شاء، أو إذا جرؤ، ولكني إن كنت هنا أسلمته إليهم. ولسوف أسلمه إليهم ولو علمت أنهم سيلقونه حياً في الماء الحار. القاتل! النجدة! وإذا كان في كل منكم، أنتم الثلاثة، قلب رجل عمدتم إلى مساعدتي. القاتل! فليسقط القاتل!»

وفيما الغلام يطلق هذه الصيحات، مرفقاً إياها بإيماءات عنيفة، هجم بمفرده على الرجل القوي فطرحه على الأرض، بفضل قوته المحشودة ومفاجأته الخاطفة، طرحاً ثقيلاً.

وبدا المشاهدون الثلاثة وكأن الإنشداه قد غلب عليهم. إنهم لم يحاولوا التدخل البتة، فراح الغلام والرجل يتدحرجان على الأرض معاً. ولم يبال أولهما باللكمات التي انهالت عليه، فأنشب أظفاره على نحو كان لا يزداد إلا إحكاماً في الملابس المحيطة بصدر القاتل، غير منقطع عن إطلاق صيحة النجدة بكامل قوته.

ولكن قوى الخصمين كانت غير متكافئة إلى حد جعل من المتعذر أن يستمر الصراع طويلاً. وكان سايكس قد جمده تحته، واضعاً ركبته على رقبته عندما جذبه كراكيت حادجاً إياه بنظرة راشحة بالذعر وأومأ إلى النافذة. كان ثمة أضواء تومض تحت، وأصوات عالية تتجاذب أطراف حديث جاد، ووقع أقدام متعجلة ـ بدت وكأن عددها لا نهائي ـ تعبر أقرب جسر خشبي. وبدا وكأن ثمة بين الحشد رجل على صهوة جواد، إذ كان ثمة صدى حوافر تطقطق على أرض الشارع غير المستوية. وتعاظم وهج الأضواء، وغدا وقع الأقدام أشد قوة وأكثر صخباً. ثم إنهم سمعوا

قرعاً عنيفاً على الباب، ثم دمدمة مبحوحة من جمهرة من الأصوات الغضبى خليقة بأن توقع الرعب في قلب أجرأ الناس وأشجعهم.»

ـ «النجدة!» كذلك صاح الغلام في صوت مزق الهواء. «إنه هنا! أكسروا الباب!»

ـ «باسم الملك!» كذلك صاحت الأصوات من الخارج. وارتفعت الصيحة المبحوحة من جديد، ولكن على نحو أعلى وأقوى.

وصاح الغلام: «اكسروا الباب! أقول لكم إنهم لن يفتحوه أبداً. اركضوا مباشرة إلى الحجرة المضاءة. اكسروا الباب!»

وانهالت على الباب ومصاريع النوافذ الدنيا، عندما كف الغلام عن الكلام، ضربات ثقيلة داوية، وهتافات من الحشد عالية، أعطت السامع ـ للمرة الأولى ـ فكرة كافية عن ضخامة الحشد.

ـ «افتحوا باب موضع من المواضع أستطيع أن احتجز فيه هذا الغلام الجهنمي الزاعق» كذلك صاح سايكس في ضراوة، راكضاً جيئة وذهاباً، جاراً الغلام الآن في سهولة بالغة حتى لكأنه كيسٌ فارغ. ثم أضاف: «ذلك الباب! عجلوا!» ودفعه إلى تلك الحجرة، وأحكم إغلاق بابها بالمزلاج، وأدار المفتاح: «هل باب الطابق السفلي مقفل؟»

ـ «مقفل قفلاً مزدوجاً ومدعم بالسلاسل،» كذلك أجابه كراكيت الذي كان لا يزال هو والرجلان الآخران عاجزين كل العجز ومشدوهين.

ـ «وألواح الباب... أهي قوية؟

ـ «إنها مطوقة بحديد مصفح.»

ـ «والنوافذ أيضاً؟»

ـ «أجل، والنوافذ.»

ـ «عليكم اللعنة!» كذلك صاح الوغد اليائس، رافعاً النافذة المؤطرة، متوعداً الحشد. «ابذلوا ما استطعتم من جهد! فلن أمكنكم من نفسي!»

ومن بين جميع الصيحات الرهيبة التي قُدِّر أن تطرق الآذان البشرية لم

يكن ثمة ما هو أقوى من صيحة ذلك الحشد المسعور. وصاح بعضهم لأولئك الذين كانوا أدنى إلى الهدف ودعوهم إلى إضرام النار في المنزل. وهدر آخرون طالبين من رجال الشرطة أن يطلقوا النار عليه فيردوه قتيلاً. ومن بينهم جميعاً لم يتكشف أحد عن مثل الهياج المجنون الذي تكشف عنه الرجل الممتطي صهوة الجواد: لقد وثب من على السرج فشق الحشد وكأنه يشق طريقه في الماء وصاح، تحت النافذة، في صوت ارتفع فوق أصوات الآخرين كلها: «عشرون جنيهاً لمن يأتيني بالمرقاة!»

ورددت الأصوات، الأشد قرباً، هذه الصيحة، ورجع المئات صداها. وراح بعضهم يطالب بالحصول على المراقي، وبعضهم يطالب بالحصول على المطارق الكبيرة. وأخذ آخرون يعدون جيئة وذهاباً حاملين المشاعل وكأنهم يبحثون عنها، ثم انقلبوا عائدين وأنشأوا يهدرون مرّة أخرى. وأنفق آخرون أنفاسهم في لعنات وستائم واهنة، واندفع غيرهم إلى أمام بمثل نشوة المخالطين في عقولهم، وبذلك عاقوا تقدم من كانوا تحت. وحاول نفر من أكثرهم جرأة أن يتسلقوا الجدار بواسطة ميازيب المياه والفجوات التي فيه. وتمايل الجميع ذات اليمين وذات الشمال، في الظلمة المحيطة بهم، مثل حقل من القمح تعبث به ريح غاضبة. واشتركوا بين الفينة والفينة في إطلاق زمجرة واحدة ضارية.

وقال القاتل، حين ارتد إلى الحجرة في خطى مترنحة، وأوصد النافذة لكي لا يرى تلك الوجوه: «لقد كان المد عالياً عندما جئت، أعطوني حبلاً، حبلاً طويلاً. إنهم متجمعون كلهم عند الجزء الأمامي من المنزل، وفي استطاعتي أن أقفز إلى «خندق الحماقة» وأفرّ من هناك. أعطوني حبلاً، وإلا ارتكبت ثلاث جرائم قتل أخرى وقتلت نفسي.»

وأومأ الرجال المذعورون إلى حيث تُحفظ مختلف الأشياء المماثلة. فلم يكن من القاتل إلا أن سارع لاختيار أطول الحبال وأقواها، وهرع إلى أعلى المنزل. كانت النوافذ التي في مؤخرة المنزل قد سدت كلها بالآجر منذ عهد بعيد، ما خلا فرجة صغيرة في جدار الحجرة التي حبس فيها

الغلام، ولكن تلك الفرجة كانت أصغر من أن تتسع حتى لمرور جسم مثل جسمه. ومع ذلك، فإنه لم يكف لحظة عن دعوة من كانوا في الخارج ـ من هذه الكوة نفسها ـ إلى ضرب الحراسة على مؤخرة المنزل. وهكذا لم يكد القاتل يبرز فوق أعلى المنزل، من خلال الباب الذي في السطح، حتى أعلنت هذه الحقيقة صيحة مدوية بلغت آذان أولئك الذين كانوا في مقدمته، فشرعوا ينعطفون ـ على التو ـ حول المنزل وكأنهم سيل متدفق، وكل منهم يدفع الذي أمامه دفعاً.

وأقام القاتل عارضة خشبية ضخمة، كان قد حملها لهذا الغرض، خلف الباب على نحو محكم جداً جعل فتحه من الداخل أمراً عسيراً جداً. ثم إنه دب فوق القرميد وأطل على الحاجز المنخفض.

كان المد قد انحسر، وكان الخندق مجرد رقعة من وحل.

وكان الحشد قد أخلد إلى الصمت خلال هذه اللحظات القليلة، إذ كان أفراده يشاهدون حركات سايكس وهم في ريب من غرضه. ولكن ما إن عرفوا ذلك الغرض وأدركوا أنه متعذر، حتى أطلقوا صيحة انتصار حاقد لم يكن صياحهم السابق كله، إذا ما قيس بها، غير همسات. وارتفعت صيحتهم تلك مرة ومرة. وتلقف الصوت أولئك الذين كانوا على مسافة نائية إلى درجة تجعلهم غير قادرين على فهم معناها. وتردد صداها وتردد. لقد بدا وكأن المدينة كلها قد صبت سكانها جميعاً لكي يلعنوه.

وواصلت طليعة الحشد زحفها، وواصلت وواصلت. . . في سيل من الوجوه الغاضبة جارف عنيد، يضيئها ههنا وهناك مشعل متوهج كان يبرز كامل غيظها وانفعالها. وكانت الغوغاء قد اقتحمت البيوت القائمة على الضفة الأخرى من الخندق: كانت مصاريع النوافذ قد رفعت، أو اقتلعت اقتلاعاً وكانت في كل نافذة صفوف من الوجوه متعاقبة، وبدت في كل سطح من سطوح المنازل عناقيد من الناس متراكبة. وانحنت الجسور الصغيرة كلها (وكان ثمة في مدى البصر ثلاثة منها) تحت ثقل الحشد الزاحف فوقها. وواصل السيل اندفاعه، بحثاً عن ركن أو ثقب يطلق فيه

العنان لصيحاته، وليرى إلى الصعلوك ولو لحظة واحدة.

ـ «لقد أوقعوه الآن في الشرك،» كذلك صاح رجل فوق الجسر الأقرب. «هورا!»

وشحب لون الحشد عندما أمست رؤوس أفراده حاسرة كلها. ومرّة أخرى ارتفعت الصيحة الداوية. وصاح رجل عجوز من فوق الجسر نفسه: «سوف أدفع خمسين جنيهاً إلى الرجل الذي يقبض عليه حياً. ولسوف أبقى هنا حتى يعود ليسألني تقديم المكافأة إليه.»

وأطلق الحشد زمجرة أخرى. وفي هذه اللحظة شاع بين المتجمهرين أن الباب قد كسر آخر الأمر، وأن الرجل الذي كان أول من طالب بالحصول على مرقاة قد نفذ إلى الحجرة. وفي الحال انعطف السيل، فيما انتقل هذا النبأ من فم إلى فم. وإذ رأى المطلون من النوافذ أن الواقفين على الجسور قد انكفأوا متدافعين، غادروا مراكزهم واندفعوا إلى الشارع ملتحقين بالمتجمهرين الذين عادوا الآن فاندفعوا، وقد اختلط حابلهم بنابلهم، إلى البقعة التي غادروها منذ قريب: كان كل امرئ يدفع جاره ويخاشنه، وكانوا كلهم يلهثون من شدة التحرق إلى الاقتراب من الباب وإلقاء نظرة على المجرم وقد أخرجه رجال الشرطة من المنزل. ورهيبة كانت صرخات وصيحات أولئك الذين كاد التدافع يخنقهم، أو الذين ديسوا بالأقدام في ذلك الهرج والمرج. كانت الأزقة الضيقة غاصة بالناس. وفي هذه اللحظة، بين اندفاع بعضهم للعودة إلى البقعة الواقعة قبالة المنزل، ومحاولات الآخرين العابثة للتملص من الحشد، انصرف انتباه القوم المباشر عن المجرم، على الرغم من أن التشوق الجماعي لرؤيته في قبضة العدالة تعاظم واشتد، إن كان تعاظمه واشتداده أمرين ممكنين.

كان الرجل قد انطرح أرضاً، وقد أوقعت ضراوة الحشد واستحالة الفرار أعظم الذعر في قلبه. حتى إذا لاحظ هذا التغيّر المفاجئ، هبَّ واقفاً على قدميه، عاقداً العزم على القيام بجهد أخير من أجل النجاة بنفسه

من طريق الارتماء في الخندق، ومحاولة الانسلال تحت جنح الظلام والفوضى، ولو أدى ذلك إلى موته اختناقاً.

كانت قوة جديدة قد انبعثت في نفسه، تشحذها الضجة المقبلة من داخل المنزل والمعلنة أن المغيرين قد اقتحموه فعلاً. فلم يكن منه إلا أن وضع قدمه على إحدى المداخن، وطوقها بواحد من طرفي الحبل تطويقاً محكماً، وبيديه وأسنانه صنع من طرفه الآخر، في ثانية واحدة تقريباً، أنشوطة منزلقة متينة. وبواسطة هذه العقدة كان في ميسوره أن يهبط إلى مسافة لا تبعد عن سطح الأرض غير مترين اثنين على الكثير، ولقد حمل مديته بيده استعداداً لقطع الحبل عندئذ، والقفز إلى الأرض.

ولحظة رفع الأنشوطة فوق رأسه قبل أن يزلها تحت إبطيه، وعندما عمد الرجل العجوز الذي سبقت الإشارة إليه (والذي كان قد تشبث بدرابزون الجسر ليقاوم ضغط الحشد ويحتفظ بموضعه) أقول وعندما عمد هذا العجوز إلى تحذير من كانوا حوله قائلاً لهم أن الرجل على وشك أن يهبط من أعلى المنزل... في تلك اللحظة نفسها رفع المجرم ذراعيه في الهواء، ناظراً خلفه إلى السطح، وأطلق صيحة رعب هائلة.

ـ «العيون من جديد! العيون من جديد!» كذلك صرخ على نحو غير بشري.

وترنح وكأنما انقضت عليه صاعقة، وفقد توازنه، فسقط على السور. كانت الأنشوطة تطوق عنقه. لقد ارتفعت تحت وطأة ثقله، محكمة مثل وتر قوس، رشيقة كالسهم. وكان سقوطه من ارتفاع خمسة وثلاثين قدماً. وفجأة حدثت رجة عنيفة، واختلاج أوصال رهيب: لقد لبث مشنوقاً هناك، ويده المتصلبة مطبقة على المدية المفتوحة.

وارتعدت المدخنة العتيقة من أثر الصدمة، ولكنها صمدت لها في شجاعة. وتأرجح القاتل في محاذاة الجدار جثة هامدة، وراح الغلام، منحيا الجثة المتدلية التي عطلت عليه الرؤية، يدعو الناس إلى المجيء وانتزاعها من هناك، إكراماً للّه.

فلم يكن من كلب ظل مختبئاً حتى تلك اللحظة إلا أن راح يعدو جيئة وذهاباً فوق الحاجز الخفيض مطلقاً عواء مشؤوماً. ثم إنه استجمع قواه للقفز، ووثب محاولاً بلوغ كتفي الرجل الميت. حتى إذا أخطأ الهدف، سقط في الخندق، منقلباً على ظهره خلال ذلك: لقد ارتطم رأسه بحجر، فتحطمت جمجمته.

الفصل الواحد والخمسون

وفيه تفسير لأكثر من لغز واحد، وطلب زواج لا مهر فيه ولا نفقة

لم يكن قد انقضى على الأحداث المروية في الفصل السابق يومان اثنان عندما ألفى أوليفر نفسه، في الساعة الثالثة بعد الظهر، في عربة خصوصية تندفع بسرعة نحو مسقط رأسه. كان معه في تلك العربة مسز مايلي، وروز، ومسز بيدوين، والطبيب الطيب، وكان مستر براونلو يتبعهم في مركبة بريد يصحبه الشخص الآخر الذي لم نذكر بعد اسمه.

ولم يكونوا قد تحدثوا كثيراً خلال الرحلة. ذلك بأن أوليفر كان في غمرة من الاضطراب والقلق حرمته القدرة على استجماع أفكاره، وكادت تحرمه القدرة على الكلام. أما رفاقه فلم يبد أنهم كانوا أقل تأثراً منه بكثير، إذ كان ذانك الاضطراب والقلق قد ألما بهم أيضاً، بدرجة مماثلة على الأقل. وكان مستر براونلو قد أشعره، وأشعر السيدتين، في كثير من الاحتراس، بطبيعة الاعترافات التي انتزعت من مونكس. وعلى الرغم من معرفتهم أن الغرض من الرحلة الحالية كان إكمال العمل الذي استهل استهلالاً جد بارع فإن الشك والغموض كانا يحيطان بالمسألة كلها إلى حد كاف لجعلهم يعانون أشد الحيرة والترقب.

وكان الصديق الكريم نفسه قد حال، بمساعدة مستر لوزبيرن، دون تسرب أنباء الأحداث الرهيبة ـ التي حدثت منذ قريب ـ إليهم من أي

طريق. وقال: «صحيح أنهم لا بدَّ أن يعرفوها عما قليل، ولكن الظرف عندئذ قد يكون خيراً من هذا الظرف، وليس يمكن أن يكون أسوأ بأية حال.» وهكذا واصلوا رحلتهم في صمت: كان كل منهم مستغرقاً في تأملات تدور حول الموضوع الذي جمع شملهم، ولكن أياً منهم لم يكن ميالاً إلى التعبير عن الأفكار التي استحوذت عليهم جميعاً.

ولكن إذا كان أوليفر قد اعتصم بالصمت، بدافع من تلك المؤثرات، فيما كانوا يرتحلون نحو مسقط رأسه سالكين طريقاً لم تقع عيناه عليها قط من قبل، فإن سيل ذكرياته كلها سرعان ما رده إلى الأيام الخوالي، فإذا بحشد من العواطف يعتلج في صدره عندما انعطفوا إلى تلك الطريق التي كان قد اجتازها سيراً على قدميه: غلاماً بائساً شريداً تائهاً من غير صديق يعينه أو سقف يظل رأسه.

ـ «انظري هناك، هناك!» كذلك صاح أوليفر وهو يمسك بيد روز في حرارة ويومئ إلى الريف من خلال نافذة العربة. «ذلك هو سلم السياج الذي اجتزته. وتلك هي الأسيجة التي اختبأت حولها، خشية، أن يدركني أحد ويكرهني على العودة! وهناك يمتد الممرّ عبر الحقول، ذلك المجاز الذي يفضي إلى البيت العتيق حيث كنت غلاماً صغيراً. أوه، «دك»، «دك»، يا صديقي العزيز القديم، لشد ما أتمنى لو أستطيع فقط أن أراك اليوم مرّة أخرى!»

فأجابته روز واضعة يديه المطويتين في يديها بلطف ورقة: «سوف تراه عما قريب. ولسوف تخبره عن مدى سعادتك البالغة، ومبلغ ثرائك، وأن عودتك إليه لتدخل البهجة على قلبه أيضاً وهي السعادة العظمى.»

فقال أوليفر: «نعم، نعم، ولسوف ننتزعه من هنا، ونلبسه ونعلمه، ونبعث به إلى موطن ريفي هادئ يستطيع أن ينمو فيه قوياً معافى، أليس كذلك؟»

فهزت روز برأسها أن «نعم»، ذلك بأن رؤية ابتسامة الغلام من خلال دموع البهجة البالغة التي تحدرت على وجنتيه سلبتها القدرة على الكلام.

وقال أوليفر: «لا ريب في أنك سوف تعلمينه في كرم وإحسان، لأنك تعاملين الناس كلهم على هذا النحو. إن سماعك ما يستطيع أن يرويه لك من قصته سوف يفجر الدموع من عينيك. أنا واثق من ذلك، ولكن لا بأس... لا بأس، فسرعان ما سينقضي ذلك كله، ولسوف تبتسمين من جديد ـ أنا واثق من هذا أيضاً ـ عندما تفكرين في مدى تغيّره، فذلك كان موقفك بالنسبة إليّ.» وهنا صاح الغلام في فيض من الانفعال الحنون: «لقد قال لي (فليباركك اللّه) عندما هربت، ولسوف أقول له (فليباركك اللّه) الآن، وأريه مبلغ حبي له.»

حتى إذا اقتربوا من المدينة وشرعوا آخر الأمر يجتازون شوارعها الضيقة أصبح من أعسر العسير حمل الغلام على البقاء ضمن تخوم العقل والمنطق. كان هناك دكان ساواوبيري الدفان كعهده به تماماً، إلا أنه بدا أصغر وأقل مهابة من ذي قبل... وكانت هناك جميع الدكاكين والبيوت المألوفة التي كانت تربطه بكل منها، تقريباً، حادثة ما... وكانت عربة نقل غامفيلد ـ العربة نفسها التي عرفها ـ واقفة أمام باب الحانة العتيقة... وكان هناك ملجأ الفقراء، سجن أيام صباه الكئيب... وكان البواب الهزيل نفسه واقفاً عند المدخل، ولم يكد أوليفر يراه حتى انكمش إنكماشاً غير إرادي ثم ضحك من نفسه لهذه الحماقة البالغة التي تكشف عنها ثم طفق يبكي ثم عاود الضحك من جديد... وكانت عشرات الوجوه التي عرفها، وتقف بالأبواب أو تطل من النوافذ... وكان أيضاً كل شيء وكأنه لم يغادره إلا بالأمس تقريباً، وبدا له وكأن حياته الجديدة لم تكن غير حلم سعيد.

ومع ذلك فقد كان ذلك هو الواقع الخالص، الحقيقي، البهيج. وتقدموا مباشرة إلى باب الفندق الرئيسي (الذي كان أوليفر يحدق إليه في ذعر، متوهماً أنه قصر منيف، والذي بدا اليوم وكأن جلاله وحجمه قد تضاءلا تضاؤلاً كبيراً). وهناك كان مستر غريمويغ على أتم الاستعداد لاستقبالهم، مقبلاً السيدة الصغيرة، والسيدة الكبيرة أيضاً، عندما ترجلوا

من العربة، وكأنه جد الجماعة كلها. لقد كان يمور ابتساماً وكرماً، ولم يقسم ولو مرة واحدة ليأكلن رأسه. . . لا، لم يقسم ليفعلن ذلك حتى عندما خالف مساعد حوذي هرماً جداً في موضوع الطريق الأقرب إلى لندن، وذهب إلى القول بأنه أعلم منه بذلك، على الرغم من أنه لم يسلك تلك الطريق غير مرة واحدة وكان في تلك المرة الوحيدة مستغرقاً في النوم. كان طعام العشاء قد أعد، وكانت حجرات النوم جاهزة، ولقد رتب كل شيء وكأنما بمثل السحر.

وبرغم هذا كله فلم تكد جلبة نصف الساعة الأولى تنقضي حتى ساد الصمت والحصر اللذان هيمنا عليهم خلال الرحلة. ولم يشاركهم مستر براونلو عشاءهم، بل مكث في حجرة مستقلة. ولم يكف السيدان الآخران عن الدخول والخروج وعلى وجهيهما إمارات القلق، وكانا يتحدثان على انفراد في الفترات القصيرة التي كانا حاضرين خلالها. وذات مرة، دعيت مسز مايلي إلى حجرة أخرى، وبعد أن غابت ساعة أو نحوها عادت وعيناها حافلتان بالدمع. كل هذا جعل روز وأوليفر، اللذين لم يطلعا على أسرار جديدة، يستشعران الضيق وتوتر الأعصاب. لقد ظلا صامتين متعجبين، حتى إذا تبادلا بضع كلمات تحدثا في همس وكأنهما كانا يخافان أن يسمعا جرس صوتيهما.

وأخيراً، عندما أعلنت الساعة التاسعة، وشرعوا يفكِّرون في أنه يحسن بهم أن لا يسمعوا أيما شيء إضافي تلك الليلة دخل مستر لوزبيرن ومستر غريمويغ الحجرة، يتبعهما مستر براونلو ورجل لم يكد أوليفر يراه حتى صرخ، أو كاد، من شدة الاندهاش، ذلك بأنهم قالوا له إنه أخوه، وكان هو عين الرجل الذي لقيه في البلدة التي تقام فيها السوق الأسبوعية، والذي رآه يختلس النظر مع فاجين من خلال نافذة حجرته الصغيرة. وألقى مونكس نظرة كراهية، لم يستطع حتى في تلك اللحظة أن يكبحها، على الغلام المنشده، وجلس على مقربة من الباب. وتقدم مستر براونلو، وفي يده بعض الأوراق، إلى مائدة كان أوليفر وروز جالسين غير بعيد عنها.

وقال: «إنها مهمة أليمة، ولكن هذه الاعترافات التي وقعت في لندن على مشهد من رجال كثيرين يجب أن يكرر فحواها هنا. ولقد كنت أؤثر أن أوفر عليك هذا الخزي ولكن علينا أن نسمعها من شفتيك قبل أن نفترق، وأنت تعلم لماذا؟»

فقال الرجل المخاطب، مديراً وجهه: «تابع! عجل! لقد أرهقت إرهاقاً كافياً في ما أحسب. لا تبقني هنا.»

فقال مستر براونلو، جاذباً أوليفر نحوه واضعاً يده على رأسه: «هذا الغلام هو أخوك من أبيك، الابن غير الشرعي لأبيك، يا صديقي العزيز إيدوين ليفورد، من آغنيس فليمنغ البائسة، التي توفيت وهي تلده.»

فقال مونكس، عابساً في وجه الغلام المرتعد الذي كان في ميسور المرء أن يسمع ضربات فؤاده: «نعم. هذا هو ابنهما النغل.»

فقال مستر براونلو في تجهم: «إن التعبير الذي تستعمله هو تقريع لأولئك الذين تخطوا منذ زمن طويل هذا العالم الضعيف. إنه لا يسربل بالعار أيما امرئ حي، ما عداك أنت الذي تستعمله. ولكن دعنا من ذلك الآن. لقد وُلِد في هذه المدينة.»

فكان الجواب النكد: «في ملجأ الأيتام بهذه المدينة. القصة عندك مسطورة هنا» وفيما هو يتكلم أومأ إلى الأوراق في فروغ صبر.

ـ «يجب أن تكون عندي هنا أيضاً،» كذلك قال مستر براونلو وهو يجيل نظره في المستمعين.

فقال مونكس: «اسمعوا إذن! أنتم جميعاً! لما مرض أبوه في رومة التحقت به زوجته، أمي، التي كان قد انفصل عنها منذ عهد بعيد والتي مضت للقائه من باريس مصطحبة إياي.. ابتغاء الاهتمام بأمر ممتلكاته، على قدر ما أعلم، ذلك بأنها لم تكن تحبه كثيراً، ولم يكن هو يحبها كثيراً. ولم يعرفنا البتة، إذ كان قد فقد الوعي، ولقد استغرق في سبات حتى اليوم التالي، عندما أسلم الروح. وبين الأوراق التي على منضدته، كانت ورقتان يرجع تاريخهما إلى اليوم الأول من أيام مرضته الأخيرة،

وكانتا موجهتين إليك أنت»، قال ذلك مخاطباً مستر براونلو، «ضمن ظرف اشتمل أيضاً على رسالة صغيرة إليك، وقد كتب على ظاهره أن هذا الظرف يجب أن لا يدفع إليك إلا بعد وفاته. أما إحدى الورقتين فكانت رسالة إلى تلك الفتاة آغنيس، وأما الثانية فكانت وصية.»

فسأله مستر براونلو: «وماذا كان في الرسالة؟»

ـ «الرسالة؟... لقد كانت قصاصة من ورق حافلة بالكلمات المشطوبة، منطوية على اعتراف نادم ودعاء إلى اللّه أن يمدها بعونه. كان قد قص عليها حكاية لغز غامض ما (لا بدَّ أن يشرح لها ذات يوم) حال بينه وبين الزواج منها آنذاك، وهكذا ظلت تثق به في أناة وصبر حتى ذهبت في الثقة إلى أبعد مما ينبغي ففقدت ما لا يستطيع أحد أن يرده إليها. وكانت، في تلك الآونة، في الشهور الأخيرة من حملها. لقد أنبأها بكل ما كان يعتزم أن يفعله لكي يمحو عارها، لو قدر له أن يظل على قيد الحياة، وتوسل إليها إذا ما توفي ـ أن لا تلعن ذكراه، أو تحسب أن الإثم الذي اقترفاه سوف تحمل هي أو ابنهما مسؤوليته، لأن الجريمة كلها كانت جريمته هو. وذكرها بذلك اليوم الذي أهداها فيه الحلية الذهبية الصغيرة التي يشبه شكلها شكل القلب، والخاتم الذي نقش عليه اسمها الأول وترك فيه فراغ للاسم الذي كان يرجو أن يخلعه عليها ذات يوم.. ورجاها أن تحتفظ بتلك الحلية وتضعها دائماً فوق قلبها كما قد فعلت من قبل... ثم راح يهذي مكرراً الكلمات نفسها مرة ومرة، وكأنه كان شارد اللب. وأنا أحسب أنه كان شارد اللب فعلاً.»

ـ «والوصية؟» كذلك قال مستر براونلو فيما كان أوليفر يسفح العبرات في غزارة.

فاعتصم مونكس بالصمت.

فقال بروانلو متكلماً بالنيابة عنه: «لقد كُتبت الوصية بنفس الروح التي كُتبت بها الرسالة. وفيها تحدث عن ضروب الشقاء التي أورثته إياها زوجته، وعن النزوع الشرير والرذائل والخبث والأهواء المبكرة التي لمسها

فيك أنت ولده الوحيد الذي درب على بغضه وكره. وترك لك منه ومن أمك مورداً سنوياً مقداره ثمانمئة جنيه. أما جملة ممتلكاته فقد قسمها قسمين متساويين ـ الأول لآغنيس فليمنغ، والآخر لولدهما إذا ما ولد وقدر له أن يبلغ سن الرشد. فإذا كان الولد أنثى ورثت ذلك المال في غير قيد ولا شرط. أما إذا كان ذكراً فإنه لا يرثه إلا إذا لم يلوث اسمه ـ خلال حداثته ـ بأيما عمل يشتمل على عار أو حقارة أو جبن أو ظلم. ولقد فعل ذلك، كما قال، ليظهر ثقته في الأم وإيمانه ـ الذي لم يزده قرب الموت إلاّ قوة ـ بأن الغلام سوف يقاسمها قلبها الكريم وطبيعتها النبيلة. أما إذا خاب ظنه في الغلام فيؤول الإرث إليك. إذ عندئذ، وعندئذ فقط ـ حين يتكافأ الولدان ـ يقر بأولوية حقك في ثروته، برغم أنه لا يرى لك حقاً في محبته بعد أن نفر قلبه منك، منذ صباك الأول، ومقتك.

فقال مونكس في صوت أعلى: «ولقد فعلت أمي ما يتعيَّن على كل امرأة أن تفعله. لقد أحرقت هذه الوصية. ولم تبعث بالرسالة قط إلى مَنْ وجهت إليه. ولكنها احتفظت بها، وبغيرها من البينات، لكي تفيد منها إذا ما حاولوا بالغش والكذب أن يمحوا وصمة العار. ثم إن أمي أطلعت والد الفتاة على الحقيقة بعد أن أضافت إليها كل تهويل استطاع بغضها العنيف أن يضيفه إليها، وإني لأحبها بسبب من ذلك الآن. فلم يكن منه، وقد نخسه الخزي والعار، إلا أن فر مع أولاده إلى زاوية قصية من زوايا وايلز، وبدل حتى اسمه نفسه لكي لا يكون في مستطاع أصدقائه أن يكتشفوا مقر عزلته أبد الدهر. وهناك، بعد فترة غير مديدة، وجد ميتاً في فراشه. كانت الفتاة قد غادرت بيتها، سراً، قبل ذلك ببضعة أسابيع. وكان قد بحث عنها، سعياً على القدمين، في كل بلدة أو قرية مجاورة. وفي نفس الليلة التي عاد فيها إلى بيته، واثقاً من أنها قد انتحرت لتخفي عارها وعاره، تفطر قلبه العجوز حزناً وأسى.»

وهنا ران الصمت فترة قصيرة، إلى أن تولى مستر براونلو مهمة إكمال القصة من حيث تركها مونكس، قال:

ـ «وبعد بضع سنوات وفدت والدة هذا الرجل ـ إدورد ليفورد ـ لزيارتي. كان قد فارقها وهو بعد في الثامنة عشرة، وسلبها جواهرها ومالها، وقامر، وبدد، وزور، وفر إلى لندن. وكان قد اتصل، طوال سنتين اثنتين، بأحط طريدي العدالة والمجتمع. وكانت هي ترزح تحت وطأة داء عضال أليم، وتتمنى لو توفق إلى اكتشاف مقره قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة. وهكذا شُرع في البحث عنه. وانقضت فترة طويلة كان البحث خلالها عقيماً، ولكنه آتى ثمراته آخر الأمر، فرجع معها إلى فرنسة.

ـ «وهناك توفيت،» كذلك قال مونكس، «بعد داء متطاول. وحين كانت على فراش الاحتضار أفضت إليّ بهذه الأسرار، وببغضها القاتل الذي لا يخمد أواره لجميع أولئك الذين تتصل بهم تلك الأسرار ـ على الرغم من أنها كانت في غير حاجة إلى توريثي ذلك البغض، لأني كنت قد ورثته منذ عهد طويل. لقد أبت أن تصدق أن الفتاة قد قتلت نفسها وقتلت الطفل معها، بل كانت شبه مقتنعة بأن غلاماً ذكراً قد وُلِد وأنه على قيد الحياة. ولقد أقسمت لها، إذا ما لقيته ذات يوم أن أطارده، وأن لا أدعه يعرف الراحة، وأن أتعقبه بأقسى الحقد وأن أصب عليه جام الغضب الذي كان يتأكلني، وأن أبصق على التبجح الفارغ الذي تكشفت عنه تلك الوصية المهينة بجره، إذا استطعت، إلى حبل المشنقة نفسه. ولقد كانت هي على حق. فقد لقيته في طريقي آخر الأمر. ولقد بدأت تنفيذ خطتي بداية حسنة، ولولا ثرثرة بعض المومسات، لانتهيت كما بدأت.»

وفيما كان الوغد يطوي ذراعيه طياً محكماً ويرسل اللعنات على نفسه إرسالاً جديراً بخبث عاجز مخيب التفت مستر براونلو إلى الجماعة المروعة المحيطة به وشرح لها كيف فاز اليهودي ـ الذي كان شريكاً لمونكس في الإجرام وموضع ثقته ـ بمكافأة كبيرة لقاء إبقائه أوليفر في حبائله، وهي مكافأة كان الاتفاق بينهما يقضي بإعادة جزء منها إذا ما شاءت المصادفة أن ينقذ الغلام من شركه، وكيف أن نزاعاً بهذا الصدد كان قد قادهما إلى القيام بزيارتهما للبيت الريفي للتحقق من هويته.

وهنا التفت مستر براونلو إلى مونكس وسأله: «والحلية والخاتم؟»

ـ «لقد اشتريتهما من الرجل والمرأة اللذين حدثتك عنهما، واللذين سرقاهما من القابلة التي كانت قد سرقتهما بدورها من الجثة.» كذلك أجاب مونكس من غير أن يرفع بصره. «وأنت تعرف ما الذي حل بهما.»

فاجتزأ مستر براونلو بالإيماء إلى مستر غريمويغ، الذي غادر الحجرة في خفة بالغة، ثم رجع بعد برهة يسيرة دافعاً مسز بامبل أمامه، جاراً زوجها الممتنع وراءه.

وصاح مستر بامبل في حماسة زائفة: «هل تخدعني عيناي؟ أم أن هذا هو أوليفر الصغير؟ أوه! أوليفر، ليتك تعلم كم كنت أتألم من أجلك..»

فغمغمت مسز بامبل: «إعقل لسانك، أيها المعتوه!»

فاحتج مدير الملجأ: «أليس طبيعياً... طبيعياً... يا مسز بامبل؟ أليس لي الحق أن أتأثر، وأنا الذي نشأته تنشئة أبرشانية، حين أراه جالساً هنا، بين سيدات وسادة ليس أكثر منهم إنساً ولطفاً؟! لقد أحببت هذا الغلام دائماً، وكأنه... وكأنه... جدي نفسه،» كذلك قال مستر بامبل متردداً بعض الشيء بحثاً عن تشبيه ملائم. «أيها السيد أوليفر، يا عزيزي، هل تذكر السيد الماجد المبرور ذا الصدرة البيضاء؟ آه، لقد صعد إلى السماء في الأسبوع الماضي، في تابوت سندياني ذي مقبضين مطليين بالذهب، يا أوليفر.»

فقال مستر غريمويغ في لهجة حريفة: «هيا، يا سيدي، إكبح جماح عواطفك!»

فأجابه مستر بامبل: «سوف أبذل أقصى جهدي، يا سيدي. كيف حالك، يا سيدي؟ أرجو أن تكون في خير عظيم.»

وإنما وجه هذه التحية إلى مستر براونلو الذي كان قد تقدم نحو الزوجين المحترمين حتى أمسى على قيد خطوة منهما. وسألهما وهو يشير إلى مونكس:

ـ «هل تعرفان هذا الشخص؟»

فأجابت مسز بامبل على نحو قاطع: «لا.»

فقال مستر براونلو، مخاطباً زوجها: «ولعلك أنت لا تعرفه أيضاً؟»

فقال مستر بامبل: «أنا لم أره في حياتي قط.»

ـ «ولم تبعه أيما شيء، أيضاً؟»

فأجابته مسز بامبل: «لا!»

فقال مستر براونلو: «ربما لم يكن معك في أيما يوم من الأيام حلية ذهبية وخاتم؟»

فأجابت المديرة: «لا، من غير ريب. لماذا جيء بنا إلى هنا لنجيب على هراء مثل هذا؟»

فأومأ مستر براونلو إلى مستر غريمويغ مرّة أخرى. ومرّة أخرى وثب ذلك السيد الماجد مغادراً الحجرة في سرعة استثنائية. ولكنه لم يرجع هذه المرة، مع رجل وزوجة بدينين. ذلك بأنه أدخل إلى الحجرة، هذه المرة، امرأتين مصابتين بشلل جزئي فهما ترتعشان وتترنحان في مشيتهما.

وقالت الأولى، رافعة يدها المتغضنة: «أنت أغلقت الباب ليلة توفيت سالي العجوز. ولكنك لم تستطيعي أن تحجبي الصوت أو توقفي الخشخشة.»

ـ «لا، لا،» كذلك قالت الأخرى، مجيلة النظر في ما حولها هازة فكيها الأدردين(*). «لا، لا، لا.»

فقالت الأولى: «لقد سمعناها تحاول أن تقول لك ما فعلت، ورأيناك تأخذين من يدها ورقة، وتعقبناك أيضاً في اليوم التالي حين قصدت إلى دكان المرابي»

فأضافت الثانية: «أجل. وكان ما تحملين حلية على شكل قلب وخاتماً ذهبياً. لقد اكتشفنا ذلك، ورأيناك تتناولينهما. لقد كنا على مقربة أوه، لقد كنا على مقربة.»

(*) الأدرد، الذي ذهبت أسنانه. (المعرب)

فاستأنفت الأولى كلامها قائلة: «ونحن نعرف أكثر من ذلك. ذلك بأنها كثيراً ما أخبرتنا، منذ عهد بعيد، أن الأم الشابة كانت قد أنبأتها بأنها، وقد شعرت أنها لن تشفى البتة، ماضية في سبيلها، حين ألم بها الداء، إلى الموت قرب ضريح والد الطفل.»

فسألها مستر غريمويغ، وهو يتظاهر بالمضي نحو الباب: «هل تحبين أن تري المرابي نفسه؟»

فأجابته المرأة: «لا! إذا كان هو» ـ وأشارت إلى مونكس ـ قد بلغ به الجبن حداً جعله يعترف، وهو شيء ألاحظ أنه قد فعله، وإذا كنتم قد استنطقتم جميع هؤلاء النسوة العجائز حتى عثرتم على العجوزين اللتين كنتم تبحثون عنهما، فعندئذ لا يكون عندي ما أقوله. لقد بعت الحلية والخاتم فعلاً، وهما في مكان لا تستطيعان أبد الدهر أن تسترداهما منه. ثم ماذا؟»

فأجابها مستر براونلو: «لا شيء، باستثناء أنه يبقى لنا أن نحرص على أن لا يتولى أي منكما منذ اليوم أي منصب يقتضي صاحبه أمانة واستقامة. في استطاعتكما أن تغادرا الحجرة.»

فقال مستر بامبل، مجيلاً الطرف حوله على نحو يثير الرثاء إلى حد بعيد، فيما كان مستر غريمويغ يغادر الغرفة مع المرأتين العجوزين: «أرجو... أرجو أن لا تؤدي هذه الحادثة الصغيرة التعسة إلى حرماني من منصبي الأبرشاني...»

فأجابه مستر براونلو: «إنها سوف تفعل من غير ريب. وفي استطاعتك أن تتأكد من ذلك، وأن تعتبر نفسك سعيداً أيضاً.»

ـ «لقد كان ذلك كله من عمل مسز بامبل. إنها هي التي أرادت هذا.» كذلك أكد مستر بامبل، بعد أن نظر حوله أولاً لكي يستيقن من أن زوجته غادرت الحجرة.

فأجابه مستر براونلو: «هذا ليس بعذر. لقد كنت حاضراً عند إتلاف الحلية والخاتم. والواقع أنك، في نظر القانون، أكبر المجرمين مسؤولية. ذلك بأن القانون يفترض أن زوجتك تعمل بتوجيه منك.»

فقال مستر بامبل وهو يعصر قبعته بيديه الاثنتين عصراً شديداً: «إذا كان القانون يفترض ذلك فالقانون حمار. . . معتوه. وإذا كان هذا هو نظر القانون فالقانون أعزب. وأسوأ ما أتمناه للقانون هو أن تفتح عيناه المغمضتان بالتجربة. . . أجل بالتجربة.»

حتى إذا وضع توكيداً كبيراً على هذا التكرار لهاتين اللفظتين أحكم مستر بامبل وضع قبعته على رأسه إحكاماً بالغاً، ثم وضع يديه في جيبيه وتبع زوجته هابطاً السلم.

وقال مستر براونلو، ملتفتاً إلى روز: «أعطيني يدك، أيتها الآنسة. لا ترتعدي. فليس ثمة ما يدعوك إلى الخوف من سماع الكلمات القليلة الباقية التي نريد أن نقولها.»

ـ «إذا كان فيها. . . (ولست أدري كيف يمكن أن يكون فيها) أقول إذا كان فيها أيما إشارة إليّ. . .» كذلك قالت روز، «فأرجو أن ترجئ إسماعي إياها إلى وقت آخر. أنا لا أملك القوة أو المزاج الآن.»

فقال السيد العجوز وهو يمسك بذراعها: «لا، أنت أكثر شجاعة من ذلك، أنا واثق مما أقول. هل تعرف هذه الآنسة، يا سيدي؟»

فأجابه مونكس: «نعم.»

فقالت روز في صوت واهن: «أنا لم أرك قط من قبل.»

فقال مونكس: «أما أنا فقد رأيتك في كثير من الأحيان.»

فقال مستر براونلو: «لقد كان لوالد آغنيس البائسة بنتان اثنتان. فما كان مصير البنت الأخرى. . . الطفلة؟»

فأجابه مونكس: «الطفلة؟ عندما توفي أبوها في موطن غريب، وباسم غريب، من غير رسالة، أو كتاب، أو قصاصة ورق تقدم أقل دليل يمكن الاهتداء به في البحث عن أصدقائه وأقربائه. . . حملت الطفلة إلى بعض القرويين الفقراء، فربوها وكأنها ولد من أولادهم.»

ـ «تابع!» كذلك قال مستر براونلو مشيراً إلى مسز مايلي أن تتقدم «تابع!»

فقال مونكس: «أنت لم تستطع أن تكتشف البقعة التي لجأ إليها هؤلاء القوم، ولكن حيث تخفق الصداقة يوفق الحقد في كثير من الأحيان إلى النجاح. فقد اكتشفت أمي تلك البقعة، بعد عام من البحث الماكر. . . أجل، ووجدت الطفلة.»

ـ «لقد أخذتها، أليس كذلك؟»

ـ «لا، فقد كان القوم فقراء، وبدأوا يضيقون ذرعاً ـ الزوج على الأقل ـ بإنسانيتهم الرائعة، وهكذا تركتها لديهم، مقدمة إليهم مبلغاً صغيراً من المال سرعان ما نفد، واعدة إياهم بمبلغ إضافي، وهو وعد لم تكن تعتزم الوفاء به. بيد أنها لم تتكل على استيائهم وفقرهم لضمان تعاسة الطفلة، فروت لهم حكاية عار الأخت، بعد أن حرفتها وفقاً لأغراضها، ودعتهم إلى الاحتراس من الطفلة لأن دماً فاسداً يجري في عروقها، وزعمت لهم أنها بنت غير شرعية، وأنها لا بد أن تزل عاجلاً أو آجلاً. وخلعت الظروف والملابسات على هذا كله مظهر الحقيقة، وصدقه القوم، وهناك عاشت الطفلة حياة كانت من البؤس بحيث فازت حتى برضانا نحن، إلى أن شاءت المصادفة أن ترى الطفلة سيدة أرملة كانت تقيم آنذاك في تشيستر، فرثت لحالها، واصطحبتها إلى بيتها. وأحسب أنه كان ثمة قدر ملعون يحاربنا، إذ إنها ظلّت هناك برغم جهودنا كلها ونعمت بالسعادة. ومنذ سنتين أو ثلاث سنوات غابت عن ناظري، ولم أرها بعد ذلك إلى ما قبل بضعة أشهر.»

ـ «هل تراها الآن؟»

ـ «أجل، مستندة على ذراعك.»

فصاحت مسز مايلي وهي تضم الفتاة إلى صدرها بعد أن كاد يغمى عليها: «ولكن هذا لا ينفي أنها بنت أخي، وأنها لا تزال ولدي وأعز الناس عندي. وأنا لن أتخلى عنها الآن ولو أعطيت كنوز العالم كلها. يا رفيقتي الحلوة! يا ابنتي الغالية؟»

فصاحت روز متشبثة بها: «أنت الصديق الوحيد الذي عرفته في

حياتي. أنت أكرم الأصدقاء وخيرهم. إن قلبي ليتفطر أسى. أنا لا أحتمل سماع هذا كله.»

فقالت مسز مايلي وهي تعانقها في حنان: «لقد احتملت أكثر من ذلك وكنت خلال هذا كله خير مخلوقة وألطف مخلوقة قدر لها أن تسبغ السعادة على كل من عرفت. كفى، كفى، يا حبيبتي، تذكري من هو هذا الذي ينتظر أن يضمك بين ذراعيه. يا للغلام المسكين! انظري هنا، انظري، انظري، يا عزيزتي!»

فصاح أوليفر وهو يطوق جيدها بذراعيه: «لا، ليست عمتي. أنا لن أدعوها عمتي بعد اليوم. أنت أختي، أختي العزيزة، التي علّمتني، وعلّمت قلبي! شيء ما إن أحبها أعظم الحب منذ البدء! روز، عزيزتي... روز، حبيبتي!»

فلتقدس العبرات التي سفحت والكلمات المتهدجة التي تبودلت خلال عناق اليتيمين الطويل المحكم! لقد وجدا، في تلك اللحظة الوحيدة، وأضاعا أباً، وأختاً، وأماً. وامتزجت البهجة والأسى في الكأس، ولكن لم يكن ثمة دموع موجعة، ذلك بأن الأسى نفسه انبعث على نحو مرقق جداً وانبعث مغلفاً بذكريات رقيقة عذبة إلى درجة أمسى معها ابتهاجاً وقوراً، وفقد كل صفة من صفات الألم.

وبقيا وحدهما فترة طويلة، طويلة. ثم إن قرعة رفيقة على الباب أعلمتهما أن ثمة شخصاً في الخارج. وفتحه أوليفر، وانسل نائياً بنفسه، مخلياً المكان لهاري مايلي.

وقال وهو يجلس على مقربة من الفتاة الحلوة: «أنا أعرف كل شيء. يا عزيزتي روز، أنا أعرف كل شيء.»

ثم أضاف بعد صمت متطاول: «أنا لم آتِ إلى هنا مصادفة. لا، ولم أسمع هذا كله الليلة، ذلك بأني عرفته أمس.. أمس ليس غير. هل حدست أني أقبلت لتذكيرك بوعد؟»

فقال رزو: «قف، أنت تعرف كل شيء في الواقع.»

ـ «كل شيء. ولقد أذنت أنت لي أن أعاود بحث موضوع حديثنا الأخير في أيما وقت أشاء خلال عام واحد.»

فتابع الشاب قائلاً: «لا لكي أحملك على تعديل قرارك، ولكن لكي أسمعك ترددينه، إذا شئت. لقد تم الاتفاق بيننا، آنذاك، على أن أضع كل ما قد أملكه من جاه وثروة عند قدميك. ولقد أخذت على نفسي عهداً، إذا لزمت قرارك السابق، أن لا أحاول تعديله بأيما كلمة أقولها أو عمل أقدم عليه.»

فقالت روز في حزم: «والأسباب نفسها التي قررت موقفي آنذاك سوف تقرر موقفي الآن. وإذا كنت في أيما يوم من الأيام ملزمة بأداء واجب الولاء الصارم نحوها، هي التي أنقذتني طيبتها من حياة عوز وعذاب، فمتى يتعيَّن عليَّ أن أستشعر هذا الواجب أقوى مما يكون الاستشعار إن لم أفعل ذلك هذه الليلة. إنه صراع، ولكنه صراع أنا فخورة بخوضه. وإنه ألم، ولكنه ألم سوف يحتمله قلبي.»

فاستهل هاري قائلاً: «إن الأسرار التي كشف النقاب عنها الليلة. . .»

فأجابته روز في رفق: «الأسرار التي كشف النقاب عنها الليلة تتركني في نفس المركز، في ما يتعلق بك، الذي كنت فيه من قبل.»

فألحف العاشق: «إنك تقسين قلبك عليّ، يا روز.»

فقالت السيدة الصغيرة وهي تنفجر بالبكاء: «أوه، هاري، هاري، لشد ما أتمنى لو أستطيع، وأوفر على نفسي هذا الألم.»

ـ «إذن فلماذا تفرضين على نفسك احتمال هذا الألم؟» كذلك قال هاري وهو يمسك بيدها. «فكري، يا عزيزتي روز، فكري في ما سمعته الليلة.»

ـ «وما الذي سمعته؟ وما الذي سمعته؟» كذلك صاحت روز. «إن والدي قد رزح تحت وطأة شعوره العميق بالخزي إلى درجة حملته على اجتناب كل شيء. . . أوه، لقد قلنا ما فيه الكفاية، يا هاري، لقد قلنا ما فيه الكفاية.»

فقال الشاب وهو يصدها عن سبيلها عندما نهضت: «لا، لا يزال ثمة بقية، لا يزال ثمة بقية. إن آمالي، ورغباتي، ومطامحي، وشعوري، وكل فكرة من أفكاري باستثناء حبي لك قد تغيّرت. أنا لا أعرض عليك اليوم مركزاً ممتازاً في جماعة صاخبة، ولا أسألك الاختلاط بعالم من الخبث والنميمة حيث تتضرج الوجنات الحيية الشريفة بسبب من كل شيء ما خلا الخزي والعار الحقيقيين. وإنما أعرض عليك بيتاً. . . قلباً وبيتاً. . . أجل يا روز، يا أعز الناس عندي، وهذان وحدهما هما كل ما عليّ أن أعرضه.»

فتلجلجت: «ماذا تعني؟»

ـ «أنا أعني بهذا أني عندما فارقتك آخر مرة فارقتك وأنا عازم على أن أرسخ العزم على تذليل جميع الحواجز الوهمية القائمة بيني وبينك، عاقد النية على أنه إذا لم يكن في إمكان عالمي أن يصبح عالمك عمدت إلى جعل عالمك عالمي، وعلى أن لا أجيز لأحد من ذوي النسب الرفيع أن ينظر إليك شزراً، لأني قد وطنت النية على الابتعاد عن هؤلاء جميعاً. وهذا ما فعلته حقاً. فأولئك الذين أعرضوا بجانبهم عني بسبب من هذا قد أعرضوا بجانبهم عنك، مظهرين بذلك أنك كنت حتى الآن على صواب. والواقع أن أصحاب السلطان والأنسباء المتمتعين بالنفوذ والمنزلة الاجتماعية الرفيعة الذين ابتسموا لي آنذاك أصبحوا ينظرون إليّ، الآن، في برود. ولكن ثمة حقولاً باسمة وأشجاراً مضيافة في ريف إنكلتره الأشد خصباً. وقرب إحدى كنائس القرى ـ كنيستي يا روز، كنيستي! ـ ينهض بيت ساذج سوف يوقع في نفسي الاعتزاز أكثر مما توقعه جميع الآمال التي تخليت عنها ولو ضوعفت هذه الآمال ألف مرة. ذلك هو اليوم وضعي وتلك هي منزلتي، وإني لأضعهما الآن عند قدميك!»

* * *

ـ «من أشق الأمور أن ينتظر المرء العاشقين ليتناول طعام العشاء معهم.» كذلك قال مستر غريمويغ، بعد أن أفاق من رقاده وأزاح المنديل الذي كان قد وضعه على رأسه.

والحق أن مائدة العشاء كانت ما تزال تنتظر منذ فترة جد طويلة. ولم يكن لدى مسز مايلي، أو هاري، أو روز (الذين وفدوا، آخر الأمر، كلهم معاً) ما يدافعون به عن أنفسهم.

وقال مستر غريمويغ: «كنت أفكر جدياً في أن آكل الليلة، رأسي، بعد أن بدأت أعتقد أني لن أفوز بشيء آخر آكله. ولسوف أبيح لنفسي، إذا أجزتم لي ذلك، أن أعانق عروس المستقبل.»

ولم يضع مستر غريمويغ أيما وقت، فسارع إلى معانقة الفتاة الخفرة. وإذ كان المثل معدياً فقد حذا حذوه في ذلك كل من الطبيب ومستر براونلو. وبعض الناس يؤكدون أن هاري مايلي كان هو أول من أقدم على ذلك العمل، في حجرة مظلمة مجاورة. ولكن التفات المقدمين يعتبرون هذا فضيحة خالصة، ذلك بأنه كان شاباً وكان قسيساً.

وقالت مسز مايلي: «أوليفر، يا ولدي، أين كنت ولماذا تبدو حزيناً إلى هذا الحد؟ إن ثمة دموعاً لا تزال تتحدر على وجهك. فما المسألة؟»

كم من خيبة يخبئها لنا هذا العالم! خيبة تصيبنا عادة في أقرب آمالنا إلى الفؤاد، تلك الآمال التي تضفي على طبيعتنا أعظم الشرف.

كان «دك» المسكين قد مات.

الفصل الثاني والخمسون

آخر ليلة من ليالي فاجين على هذه الأرض

كانت قاعة المحكمة مرصوفة، من الأرضية إلى السقف، بالوجوه البشرية. ومن كل أنش مربع من المكان حدقت عيون مستطلعة لاهفة. ومن الدرابزون القائم تجاه مقعد المتهمين إلى الزاوية القصوى لأصغر ركن في الشرفات كانت النظرات كلها مركزة على رجل واحد: فاجين. فأمامه ووراءه، وفوقه وتحته، وعن يمينه وعن شماله بدا فاجين وكأنه محاط بفلك متألق كله بأعين مومضة.

لقد وقف هناك، وسط هذا الوهج كله من الضياء الحي، مسنداً إحدى يديه على اللوح الخشبي الذي أمامه، ممسكاً أذنه باليد الأخرى، وقد دفع رأسه إلى أمام لكي يتلقف ـ في وضوح أشد ـ كل كلمة نطق بها القاضي الذي ترأس الجلسة، والذي كان يقدم خلاصة الاتهام إلى المحلفين. وبين الفينة والفينة كان يدير عينيه نحوهم، في صرامة، التماسا لأيما أثر ينم عن أضأل العطف عليه. حتى إذا أعلنت التهم الموجهة إليه في وضوح رهيب، نظر إلى محاميه في مناشدة خرساء رجاة أن يقدم إلى المحكمة، حتى في تلك اللحظات، حجة ما في الدفاع عنه. وفي ما عدا مظاهر القلق هذه. لم يحرك لا يداً ولا قدماً. ولم يكن قد تحرك، إلا نادراً، منذ بدء المحاكمة. والآن وقد أمسك القاضي عن الكلام ظل هو في وضعه المتوتر نفسه، مركزاً نظراته عليه وكأنه لا يزال يصغي.

وسرت في القاعة جلبة ضئيلة، فانتزعته من ذهوله. وإذ أجال الطرف في ما حوله رأى المحلفين وقد أقبل بعضهم على بعض للمداولة. وشردت عيناه نحو الشرفة فبصر بالناس وقد نهض بعضهم فوق بعض لكي ينظروا إلى وجهه: كان فريق يسارع إلى وضع النظارات على عيونه، وكان فريق يهمس في آذان جيرانه وعلى وجوهه سيماء المقت والبغضاء. وقلة كان أولئك الذين بدوا وكأنهم غافلون عنه، فهم لا ينظرون إلا إلى المحلفين، في دهشة وتبرّم، متسائلين كيف جاز لهؤلاء أن يترددوا في إصدار الحكم. ولكنه لم يستطع أن يلمح في أي وجه ـ حتى بين النساء اللواتي كان منهن هناك جمهرة كبيرة ـ أضأل العطف عليه، أو أيما شعور غير الرغبة الغامرة في أن يروه يُدان.

وفيما هو يلحظ ذلك كله في نظرة مشدوهة واحدة ران السكون المأتمي مرّة أخرى. والتفت إلى الوراء فرأى المحلفين وقد وجّهوا أنظارهم إلى القاضي. هش!

كانوا يلتمسون مجرد الإذن لهم بالانسحاب.

وتفرس في وجوههم، واحداً بعد واحد، فيما كانوا يغادرون القاعة،

وكأنه يريد أن يرى في أي اتجاه مالت كثرتهم، ولكن محاولته هذه ذهبت أدراج الرياح. لقد وضع السجان يده على كتفه. فتبعه على نحو ميكانيكي إلى أقصى قفص الاتهام، وقعد على كرسي كان الرجل قد هداه إليه. ولولا ذلك لما استطاع أن يراه.

ورفع بصره نحو الشرفة مرّة أخرى. كان بعض الناس يأكلون، وكان بعضهم يروحون وجوههم بالمناديل، ذلك بأن المكان المكتظ كان جد قائظ. وكان ثمة شاب يرسم وجهه على دفتر صغير. فتساءل فاجين هل كانت الصورة تشبهه. وحين كسر الفنان رأس قلمه وعاود بريه بمديته نظر إليه في لامبالاة كما ينظر أيما مشاهد بليد.

وحين التفت إلى القاضي راح عقله يشغل نفسه، هذه المرة أيضاً، بالتفكير في زي ملابسه، وثمن كلفتها، وطريقة ارتدائها. وكان في منصة القضاء أيضاً سيد عجوز بدين سبق له أن غادر القاعة قبل نصف ساعة تقريباً ثم عاد الآن فاتخذ مقعده. فتساءل فاجين في ما بينه وبين نفسه ما إذا كان هذا الرجل قد مضى لتناول الطعام، وما الذي أكله. وواصل سلسلة أفكاره اللامبالية حتى لفت شيء جديد إحدى عينيه وأثار الأخرى.

وليس معنى هذا أن عقله كان، طوال هذه الفترة، متحرراً لحظة واحدة من الشعور الغامر الماحق بأن القبر ينفتح عند قدميه، فقد كانت هذه الحقيقة ماثلة في ذهنه أبداً، ولكن مثولاً غامضاً عاماً، فلم يكن في ميسوره أن يركز تفكيره عليها. وهكذا، فحتى فيما كان يرتعد ويشتعل بدنه بمثل الحمى لتمثل فكرة الموت العاجل، راح يعد أطراف الحاجز الحديدية الشائكة أمامه. ويعجب كيف اتفق لرأس أحدها ان كسر، وما إذا كانوا يعتزمون إصلاح الدرابزون أم تركه على حاله. وبعد ذلك فكَّر في أهوال المشنقة جميعاً ـ وكف عن التفكير ليراقب رجلاً كان ينضح الأرض بالماء ابتغاء تطرية الجو ـ ثم عاوده التفكير من جديد.

وأخيراً انطلقت صيحة تدعو إلى الصمت، ونظر القوم كلهم، حابسين أنفاسهم، إلى الباب. لقد رجع الملحفون، ومروا به عن كثب.

ولكنه لم يستطع أن يستنتج من وجوههم أيما شيء، فكأن تلك الوجوه كانت من صخر. وران صمت كامل، فلا نأمة ولا نفس: «مذنب!»

وضج المبنى بصيحة هائلة، ثم بثانية، ثم بثالثة، وبعد ذلك ردد صدى صرخات عالية ازدادت قوة شيئاً بعد شيء، مثل رعد غاضب. لقد كانت تفجر الابتهاج من صدور الجماهير المحتشدة في الخارج، وهي ترحب بالنبأ القائل أنه سوف يلقى حتفه يوم الاثنين.

وخمدت الضجة، وسُئل ما إذا كان لديه ما يقوله إنقاذاً لنفسه من حبل المشنقة. وكان قد استأنف وضعه الإصغائي، وأنشأ يحدق إلى سائله بينما كان ذلك الطلب يوجه إليه. ولكنه كرر مرتين قبل أن بدا وكأنه قد سمعه، ثم اجتزأ بأن غمغم قائلاً إنه رجل عجوز. . . رجل عجوز. . . رجل عجوز. . . وهكذا استحالت غمغمته إلى همس، ثم اعتصم بالصمت من جديد.

واعتمر القاضي بالقلنسوة السوداء، والسجين لا يزال محتفظاً بسيمائه نفسها ووضعه نفسه. وأطلقت امرأة في الشرفة صيحة استثارتها تلك المهابة الرهيبة. فسارع إلى رفع بصره نحو الشرفة وكأنه مغضب لهذه المقاطعة، ثم انحنى إلى أمام في مزيد من الانتباه والتركيز. كانت كلمة القاضي مهيبة مؤثرة، وكان الحكم رهيباً سماعه. ولكنه وقف، مثل تمثال من رخام، من غير أن ينبض فيه عصب واحد. وكان وجهه الشاحب لا يزال متلعاً إلى أمام، وقد تدلّى فكه الأدنى، وجحظت عيناه أمامه، عندما وضع السجان يده على ذراعه وأومأ إليه بضرورة الانصراف. فحدق إلى ما حوله، لحظة، تحديقاً أبله، وامتثل الأمر.

وساقوه إلى حجرة مبلطة واقعة تحت قاعة المحكمة، حيث كان بعض السجناء ينتظرون ريثما يجيء دورهم، وبعضهم الآخر يتحدثون إلى أصدقائهم الذين احتشدوا حول نافذة مقضبة بالحديد تطل على الفناء المكشوف. لم يكن هناك من يتحدث إليه هو. ولكن فيما كان يمر تراجع السجناء إلى الوراء لكي يمكنوا المتعلقين بقضبان النافذة من رؤيته على

نحو أفضل: ورموه بالألقاب المهينة، وزعقوا وصفروا. فهز جمع كفه في وجوههم وود لو يبصق عليهم، ولكن سائقيه دفعوه، في قوة وعنف، عبر ممرّ مظلم لا تضيئه غير بضعة مصابيح باهتة، إلى داخل السجن.

وهنا فتش، خشية أن يكون لديه أيما أداة يستبق بها القانون. حتى إذا أجريت هذه الشعيرة، قادوه إلى إحدى زنزانات المحكوم عليهم بالموت، وغادروه هناك. . . وحيداً.

وجلس على مقعد حجري قبالة الباب كان يقوم مقام كرسي وسرير في آن معاً. وإذ خفض عينيه المحتقنتين نحو الأرض حاول أن يجمع شتات أفكاره. وبعد برهة شرع يتذكر بضعة مقاطع غير مترابطة مما قاله القاضي، على الرغم من أنه كان قد خُيِّل إليه، آنذاك، أنه لم يوفق إلى سماع كلمة واحدة. وشيئاً بعد شيء نزلت تلك الأقوال في منازلها الصحيحة، وأخذت تذكره بمزيد منها، بحيث لم تكد تنقضي فترة يسيرة حتى استحضر في ذهنه كلمات القاضي كلها، بالحرف تقريباً. أن يوضع حبل المشنقة في عنقه، حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة. . . تلك كانت هي النهاية. أن يوضع حبل المشنقة في عنقه حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة.

وحين أمست الظلمة جد حالكة، أنشأ يفكِّر في جميع معارفه الذين ماتوا على أعواد المشنقة، وقد لقي بعضهم حتفه على هذا النحو بسببه هو. لقد نهضوا من أجداثهم، في تعاقب سريع إلى حد كاد يجعل من المتعذر عليه أن يحصيهم. وكان قد شهد بعضهم يموتون. . . وكان قد سخر منهم أيضاً، لأنهم ماتوا وعلى شفاههم صلاة. أية ضجة محشرجة أحدثها السقوط المفاجئ! وما أسرع ما انقلبوا من رجال أشداء أولي بأس إلى ركام من الملابس متأرجح!

ومن يدري فلعل بعضهم كان قد نزل في تلك الزنزانة نفسها. . وجلس على هذا المقعد نفسه. كانت الظلمة دامسة، فلماذا لم يجيئوا بمصباح؟ وكانت الزنزانة قد بنيت منذ سنوات عديدة. ولا ريب في أن عشرات من الرجال قضوا ساعاتهم الأخيرة هناك. كان ذلك أشبه بالقعود

في سرداب نثرت فيه الجثث: القلنسوة، والأنشوطة، والأذرع المشدودة إلى الأجساد، والوجوه التي عرفها حتى تحت ذلك الحجاب الرهيب. . . قليلاً من النور! قليلاً من النور!

وأخيراً، وبعد أن تخدشت يداه من الضرب على الباب الثقيل وعلى الجدران برز رجلان: أحدهما يحمل شمعة أقحمها في شمعدان حديدي معلق على الجدار، والآخر يجر حصيراً لكي يمضي ساعات الليل فوقه. ذلك بأن السجين لا ينبغي له، بعد، أن يُترك وحيداً.

ثم هبط الليل ـ الليل الدامس، المأتمي، الصامت. ولقد كان لغيره من الساهرين أن يسعدوا بسماع دقات الكنيسة، لأنها تؤذن بتجدد الحياة وبقرب الفجر. أما هو فلم تحمل إليه تلك الدقات غير اليأس. كان دوي كل دقة يطلقها الجرس المعدني مثقلاً بنبرة واحدة عميقة غائرة: الموت. فأية فائدة يرتجيها من جلبة الصباح البهيج التي نفذت حتى إلى ذلك المكان؟ كانت ضرباً آخر من جرس الجنازة، زادته السخرية بشاعة ووحشية.

وانقضى النهار. النهار؟ لم يكن ثمة نهار. فما إن أشرق حتى توارت شمسه بالحجاب. . . وأقبل الليل من جديد، أقبل طويلاً جداً، ومع ذلك كان قصيراً جداً: فهو طويل بصمته الرهيب، قصير بساعاته المولية فراراً. وهذى السجين وجدف حيناً، وعوى وشد بشعره حيناً. وأقبل رجال موقرون من أهل دينه للصلاة من أجله، ولكنه طردهم راشقاً إياهم بضروب اللعنات. وجددوا جهودهم الخيرة ولكنه أوسعهم ضرباً.

السبت مساء. لم يبق من عمره، الآن، غير ليلة واحدة. ولحظة خطر له ذلك بزغ الفجر. . . فجر الأحد.

ولم يسيطر على روحه الذابلة ذلك الشعور المذبل بوضعه اليائس سيطرة كاملة إلا عشية ذلك اليوم الأخير الرهيب. وليس معنى هذا أن أيما أمل محدد أو وطيد في الرحمة كان قد راوده، ولكن معناه أنه لم يوفق قط إلى أكثر من التفكير على نحو غامض بإمكانية الموت بمثل هذه السرعة. ولم يكن قد تحدث إلا قليلاً إلى أي من الرجلين اللذين تناوبا على

مراقبته، ولم يبذلا هما، بدورهما، أي جهد لإثارة انتباهه. كان قد قعد هناك، يقظان ولكنه حالم. أما الآن، فراح يثب مجفلاً، كل لحظة، ويذرع الزنزانة جيئة وذهاباً، فاغر الفم، محموم الجسد، وقد عصفت به نوبة ذعر وغيظ جعلت ذينك الرجلين نفسيهما ـ وهما المتعودان على رؤية هذه المشاهد ـ ينكصان على أعقابهما في رعب منه شديد. وانتهى آخر الأمر إلى أن يمسي رهيباً جداً ـ رغم وخزات ضميره الشرير اللاذعة كلها ـ حتى لقد عجز أحد الرجلين عن احتمال البقاء هناك، والنظر إليه على انفراد. وهكذا أنشأ الرجلان يحرسانه معاً.

وجثم على فراشه الحجري، وفكّر في الماضي. كان قد جرح ببعض المقذوفات التي ألقتها الجماهير يوم اعتقاله، وكان رأسه معصوباً بقماش أبيض. وتدلى شعره الأحمر على وجهه الشاحب، وشكلت لحيته المنتوفة على نحو جزئي خصلاً مفتولة، والتمعت عيناه بضياء رهيب، وفرقع جلده غير المغسول تحت نار الحمى التي أحرقته بأوارها. الساعة الثامنة... الساعة التاسعة... الساعة العاشرة. إذا لم تكن هذه مجرد حيلة لترويعه، وإذا كانت هذه هي الساعات الحقيقية التي يمضي بعضها في أعقاب بعض، فأين سيكون هو عندما تدق مرّة أخرى؟! الساعة الحادية عشرة! تلك ساعة أخرى تعلن قبل أن تكف الساعة السابقة عن الذبذبة. في الساعة الثامنة من صباح غد سوف يكون هو المشيع الوحيد في موكب جنازته الخاصة. وفي الساعة الحادية عشرة...

إن أسوار نيوغايت الرهيبة هذه، التي حجبت كثيراً من الشقاء وكثيراً من الآلام التي تمتنع على الوصف، لا عن أعين الناس ولكن ـ في كثير من الأحيان وطوال فترة مديدة ـ عن أفكارهم أيضاً، لم تشتمل في أيما يوم من الأيام من مشهد أشد هولاً من ذلك المشهد. ولقد كان خليقاً بأولئك النفر القلائل الذين تلكأوا عند مرورهم بالسجن وتساءلوا ترى ما الذي يفعله الرجل الذي سيتأرجح غداً على أعواد المشنقة، أقول لقد كان خليقاً بهؤلاء أن يأرقوا تلك الليلة لو قدر لهم أن يروه.

ومنذ أن هبطت العتمة حتى منتصف الليل تقريباً كان يلم بمسكن البواب جماعات صغيرة مؤلفة من شخصين أو ثلاثة أشخاص، ويسألون ـ بوجوه متلهفة ـ هل صدر الأمر بإرجاء تنفيذ الحكم؟ حتى إذا أجيبوا بالنفي أفضوا بالنبأ السعيد إلى آخرين، متعنقدين في الشارع، فلم يكن من هؤلاء إلا أن راحوا يومئون، مرشدين بعضهم بعضاً، إلى الباب الذي منه سوف يخرج المحكوم عليه بالموت، والبقعة التي فيها ستنصب المشنقة. ثم مشوا بخطى كارهة، وانقلبوا عائدين لكي يحاولوا تصور المشهد. وشيئاً بعد شيء تناقص عددهم، واحداً بعد واحد. وطوال ساعة، في جوف الليل البهيم، خُلِّف الشارع للوحشة والظلمة.

وكانت الساحة المنبسطة أمام السجن قد أخليت، وكانت بضعة حواجز قوية، مدهونة باللون الأسود، قد أقيمت عبر الطريق لصد ضغط الجماهير المرتقب، عندما برز مستر براونلو وأوليفر أمام خادعة(*) الباب وأبرزا إذناً يجيز لهما الدخول على السجين، إذناً موقعاً من أحد حكام المقاطعات، فأدخلا إلى حجرة البواب.

وقال الرجل الذي كان عليه أن يقودهما: «هل سيصحبك الفتى أيضاً؟ إنه ليس مشهداً يحسن بالأطفال أن يروه، يا سيدي.»

فقال مستر براونلو: «ذلك صحيح، يا صديقي، ولكن لهذا الطفل صلة وثيقة بالمسألة التي دفعتني إلى مقابلة الرجل. وإذ كان رفيقي هذا قد رآه في أوج خساسته ونجاحه فأحسب أن من الخير له ـ ولو كلفه ذلك شيئاً من الألم والخوف ـ أن يراه الآن.»

وإنما قِيلت هذه الكلمات القليلة على انفراد بحيث لا يسمعها أوليفر. ورفع الرجل يده إلى قبعته. وبعد أن نظر إلى أوليفر في شيء من الفضول فتح باباً آخر قبالة ذلك الذي كانا قد دخلا منه، وقادهما خلال ممرّات مظلمة ملتوية نحو الزنزانات.

(*) الخادعة Wicket: الباب الصغير في الباب الكبير. (المعرب)

وقال الرجل، وقد كف عن السير في ممرّ مظلم كان عاملان اثنان يعدان فيه بعض الترتيبات: «هذا هو المكان الذي سيمر منه، ولو خطوت خطوة واحدة في هذا الاتجاه إذن لرأيت الباب الذي سيخرج منه.»

وقادهما إلى مطبخ مبلط، مجهز بمراجل نحاسية خاصة بطعام السجناء، وأشار إلى أحد الأبواب. كان ثمة فوقه خادعة مفتوحة انبعثت منها أصوات بشرية، ممتزجة بأصداء مطارق وألواح خشبية تطرح على الأرض. كانوا ينصبون المشنقة.

ومن هذا المكان اجتازوا عدة أبواب مصفحة فتحها لهم من الداخل سجانون آخرون. حتى إذا دخلوا فناء مكشوفاً، صعدوا سلماً ضيق الدرجات، انتهوا عند قمته إلى ممرّ كان إلى يساره صف من أبواب غليظة. وهنا أومأ السجان إليهما أن يقفا حيث هما وقرع أحد هذه الأبواب بمجموعة مفاتيحه. فلم يكن من الحارسين ـ بعد شيء من التهامس ـ إلا أن أقبلا نحو الممرّ متمطيين وكأنهما سعيدان بهذه الراحة المؤقتة، وأومآ إلى الزائرين أن يتبعا السجان إلى الزنزانة. ففعلا.

كان المجرم المحكوم عليه بالموت قاعداً على سريره، متمايلاً ذات اليمين وذات الشمال، وقد غلبت على وجهه سيماء جعلته أقرب إلى وجوه الوحوش العالقة في الأشراك منه إلى وجوه بني البشر. كان ذهنه شارداً يعيش في دنيا حياته الماضية، ذلك بأنه واصل الغمغمة من غير أن يبدو أنه كان يعي وجودهم إلا بمقدار ما شكل ذلك الوجود جزءاً من رؤياه.

لقد غمغم: «أنت غلام طيب، يا تشارلي... لقد أحسنت صنعاً. وأوليفر، أيضاً، ها! ها! ها! أوليفر أيضاً... إنه الآن جنتلمان بكل ما في الكلمة من معنى... إنه الآن جنتلـ... سوقوا ذلك الغلام إلى فراشه!»

وأمسك السجان بيد أوليفر الحرة. وبعد أن همس في أذنه أن يتشجع ولا يستسلم للذعر، راح يراقب المشهد من غير أن ينطق بكلمة.

وصاح فاجين: «سوقوه إلى فراشه! هل تسمعونني، أنتم الآخرون؟

لقد كان هو، بطريقة ما، سبب هذا كله. إن تأديبه يستحق بذل المال. . . احتز عنق بوتلر، يا بيل. . . لا تقلق على الفتاة. . . احتز عنق بوتلر أعمق ما تستطيع أن تحتزها. اقطع رأسه، يا بيل!»

فقال السجان: «فاجين.»

فصاح اليهودي، منقلباً في الحال إلى وضع الإصغاء الذي كان قد اتخذه خلال محاكمته: «هذا أنا! رجل عجوز، يا إلهي! رجل عجوز طاعن في السن، طاعن في السن!»

فقال السجان واضعاً يده على صدره لكي يمنعه من النهوض: «اسمع، ههنا شخص يريد أن يراك، لكي يسألك بعض الأسئلة، في ما أحسب. فاجين! فاجين! هل أنت رجل؟»

فأجابه رافعاً بصره وقد غلبت على وجهه سيماء لم تحتفظ من التعبير البشري بغير الحنق والرعب: «أجل، ولكني لن أظل كذلك طويلاً. فليتخطفهم الشيطان كلهم! بأي حق يريدون أن يسفحوا دمي؟»

ووقعت عينه، فيما كان يتكلم، على أوليفر ومستر براونلو. فلم يكن منه إلا أن انكمش إلى الزاوية القصوى، وتساءل عم جاءا يفعلانه.

ـ «إهدأ!» كذلك قال السجان وهو لا يزال يضغط بيده على صدره: «والآن، يا سيدي، قل له ماذا تريد. عجل، من فضلك، لأن حاله تزداد سوءاً على سوء ساعة بعد ساعة.»

فاقترب مستر براونلو منه وقال: «إن لديك أوراقاً أودعها لديك، مبالغة في الاحتراز، رجل يدعى مونكس.»

فأجابه فاجين: «انك كذب خالص. ليس لدي أية ورقة. . . ولا أية ورقة.»

فقال مستر براونلو في وقار: «استحلفك باللّه أن لا تقول ذلك الآن، وأنت على شفير الموت. ولكن قل لي أين هي. أنت تعلم أن سايكس قد مات، وأن مونكس قد اعترف، وأنه لم يبق ثمة أيما أمل في كسب جديد. أين تلك الأوراق؟»

ـ «أوليفر؟» كذلك صاح فاجين وهو يومئ إلى الغلام، «تعال، تعال، دعني أهمس في أذنك.»

فقال أوليفر في صوت خفيض، وهو يسحب يده من يد مستر براونلو: «أنا لست خائفاً.»

ـ «الأوراق»، كذلك قال فاجين وهو يجذب أوليفر نحو، «ضمن كيس من الخيش، في ثقب مرتفع بعض الشيء في المستوقد، في الحجرة الأمامية العليا. أريد أن أتحدث إليك، يا عزيزي. أريد أن أتحدث إليك.»

فأجابه أوليفر: «نعم، نعم. دعني أتلو صلاة. أجل، دعني أتلو صلاة. وأتل أنت نفسك، راكعاً، صلاة واحدة، معي، وبعدئذ نتحدث حتى الفجر.»

ـ «في الخارج، في الخارج»، كذلك أجابه فاجين وهو يدفع أوليفر أمامه نحو الباب، ناظراً بعينين زائغتين من فوق رأسه. «قل لهم إني نائم.. ولسوف يصدقونك. في استطاعتك أن تخرجني إذا أخذتني هكذا. هيا، هيا!»

فصاح الغلام وهو ينفجر بالبكاء: «أوه، اغفر يا إلهي لهذا الرجل البائس!»

فقال فاجين: «حسن جداً، حسن جداً. إن ذلك سوف يساعدنا. هذا الباب أولاً. إذا وجدتني أرتعد وأرتجف، ونحن نجتاز بالمشنقة، فلا تبال، بل تابع سيرك بسرعة. هيا، هيا، هيا!»

وقال السجان: «هل لديك أي سؤال آخر تريد أن تطرحه عليه، يا سيدي؟»

فأجابه مستر براونلو: «لا، ليس لدي أيما سؤال آخر. ولكن لو رجوت أن أوفق إلى رده إلى شيء من الإدراك لوضعه...»

فقال الرجل، هازاً رأسه: «لن يستطيع شيء أن يفعل ذلك، يا سيدي. من الخير لك أن تفارقه.»

وفتح الباب، ورجع الحارسان.

وصاح فاجين: «عجل! عجل! . . . برفق، ولكن ليس بهذا البطء كله. سر بسرعة أعظم، سر بسرعة أعظم!»

فوضع الرجال أيديهم عليه، وخلصوا أوليفر من قبضته، وردوه إلى الوراء. وناضل بقوة اليأس، لحظة، ثم أطلق سلسلة من الصيحات اخترقت حتى تلك الجدران الكثيفة، وترددت في آذانهم إلى أن بلغوا الفناء المكشوف.

وانقضت فترة قبل أن يغادروا السجن. وكاد أن يغمى على أوليفر بعد هذا المشهد الرهيب. وكان من الضعف بحيث لم يستطع، خلال ساعة أو يزيد، أن يجد القدرة على السير.

وكان الضحى يرتفع عندما غادرا السجن آخر الأمر. كانت جمهرة كبيرة من الناس قد احتشدت، وكانت النوافذ تغص بأناس يدخنون ويلعبون الورق قتلاً للوقت، وكان أفراد الحشد يتدافعون ويتشاجرون، ويمزحون. لقد ضج كل شيء بالحياة والنشاط، ما خلا مجموعة قاتمة من الأشياء كانت وسط ذلك كله: المنصة السوداء، والرافدة الخشبية المعترضة، والحبل، وسائر عدة الموت الرهيبة.

الفصل الثالث والخمسون

خاتمة

إن أقدار أولئك الذين شاركوا في أحداث هذه القصة قد أشرفت على النهاية. والقليل الذي بقي على مؤرخهم أن يرويه يمكن أن يروى في بضع كلمات قليلة وبسيطة.

فلم تكد تنقضي أشهر ثلاثة حتى زفت روز فليمنغ إلى هاري مايلي في كنيسة القرية التي قدر لها منذ ذلك الحين أن تصبح مسرح نشاط الكاهن الشاب. وفي اليوم نفسه امتلكا بيتهما الجديد السعيد.

ونزلت مسز مايلي في بيت ابنها وكنتها لكي تستمتع، خلال البقية

الهادئة من أيامها، بالهناءة العظمى التي يستطيع أفاضل الناس أن يعرفوها في شيخوختهم ـ بتأمل السعادة ينعم بها أولئك الذين أغدقوا هم عليهم أعمق حبهم وأرق عنايتهم، طوال حياتهم المنفقة على خير ما تنفق الأعمار وأحفله بالعمل الدؤوب الصالح.

ولقد بدا، بعد البحث الوافي الدقيق، أن حطام الثروة الباقية في عهدة مونكس (والتي لم تعرف النماء والتكاثر بين يديه أو بين يدي أمه قط) لو قسم على نحو متساو بينه وبين أوليفر إذن لما أصاب كلاً منهما غير ثلاثة آلاف جنيه أو أكثر قليلاً. وكان من أوليفر، وفقاً لشروط وصية أبيه، أن يفوز بالميراث كله، ولكن مستر براونلو ـ الذي لم يشأ أن يحرم الولد الأكبر من فرصة التكفير عن رذائله السابقة والأخذ بأسباب الحياة الكريمة ـ اقترح قسمة الميراث بين الأخوين، فأقره أوليفر على ذلك في بهجة وحبور.

وارتحل مونكس ـ وهو لا يزال يحتفظ بذلك الاسم المستعار ـ بنصيبه من الميراث إلى موطن قصي في العالم الجديد، حيث بدد تلك الثروة في فترة وجيزة، وحيث عاد سيرته المرذولة الأولى. حتى إذا حكم عليه بالسجن فترة طويلة بسبب من عمل جديد من أعمال الخبث والتزوير، عاودته نوبة من نوبات علته القديمة، فمات في محبسه. وعلى مثل هذا البعد عن أرض الوطن، مات سائر الأعضاء الرئيسيين الباقين من عصابة صديقه فاجين.

وتبنى مستر براونلو أوليفر. وانتقلا ومدبرة البيت العجوز إلى منزل لا يبعد غير ميل واحد عن بيت راعي الكنيسة الذي أقام فيه أصدقاؤه الأثيرون على قلبه، محققاً بذلك آخر أمنية خفق بها فؤاد أوليفر المحب المشبوب، جامعاً شمل جماعة صغيرة عاشت في دنيا من السعادة لا يستطيع هذا العالم المتقلب أن يعرف أعظم منها أبد الدهر.

وبعيد زواج روز وهاري، رجع الطبيب الفاضل إلى تشيرتسي حيث كان يمكن، وقد حرم رؤية أصدقائه القدماء، أن يستبد به الضجر والتبرم،

لو كان في مزاجه مجال لمثل هذا الشعور، وحيث كان يمكن أن يمسي نكد الطبع بكل ما في التعبير من معنى لو استطاع أن يعرف إلى ذلك سبيلاً. ولقد أرضى نفسه، طوال شهرين أو ثلاثة، بالإلماع إلى أن الهواء أمسى لا يلائمه، في أغلب الظن. حتى إذا وجد آخر الأمر أن ذلك المكان لم يعد بالنسبة إليه، فعلاً، ما كانه في الماضي، تخلى عن عيادته لمساعده، وعاش عيش العزاب في بيت صغير خارج القرية التي كان صديقه الشاب قسيسها، وسرعان ما استرد عافيته ونشاطه. هناك انصرف إلى البستنة، والزراعة، وصيد الأسماك، والتجارة، وما إليها مباشرًا هذه الهوايات كلها باندفاعه المميّز. وما لبث أن اكتسب، في هذه الحقول جميعاً، شهرة عريضة في طول المنطقة وعرضها، وأمسى مرجعاً لا يضارع ولا ينازع.

وكان قد وفق، قبيل انتقاله هذا، إلى إنشاء صداقة متينة مع مستر غريمويغ، صداقة بادله إياها ذلك الرجل الغريب الأطوار في إخلاص. وهكذا طفق مستر غريمويغ يزوره مرات عديدة خلال العام. وفي هذه المناسبات كلها كان مستر غريمويغ يغرس النباتات، ويصيد الأسماك، ويعمل في النجارة بحماسة بالغة، وبطريقة فريدة جداً، ولكنه كان يذهب دائماً ـ مطلقاً قسمه المفضل ـ إلى أن طريقته تلك هي الصحيحة. وفي أيام الأحد كان من دأبه دائماً أن ينتقد عظة القس الدينية في وجهه، ثم يعمد دائماً إلى إبلاغ مستر لوزبيرن بعد ذلك، في ثقة لا تتزعزع، أنه يعتبرها قطعة ممتازة ولكنه يرى من الخير أن لا يصرح بذلك. وكان من عادة مستر براونلو أن يناكده ـ وهو مزاح تقليدي كان أثيراً على قلب هذا الرجل الفاضل ـ بنبوءته القديمة الخاصة بأوليفر، وأن يذكره بتلك الليلة التي قعدا فيها معاً والساعة بينهما، ينتظران عودته. ولكن مستر غريمويغ كان يؤكد أن الصواب لم يخنه، على الإجمال، ويلاحظ ـ تأييداً لوجهة نظره ـ أن أوليفر لم يرجع على أية حال. وهو أمر كان ينتزع منه الابتسامة دائماً، ويعزز مرحه وسروره.

برأت حكومة التاج مستر نوح كلايبول بعد أن اعتبرته شاهداً ضد فاجين. وإذ اعتبر أن مهنته ليست خلواً من الأخطار بقدر ما كان يرتجي، فقد ظل ـ برهة قصيرة من الزمن ـ حائراً يبحث عن وسيلة لكسب الرزق لا تقتضيه عملاً مرهقاً. وبعد شيء من التفكير عمل مخبراً للدولة. وبذلك يكسب ما يستطيع أن يحيا به على نحو لائق. وكانت خطته تقوم على الانطلاق مع شارلوت، وقد ارتدت بزة حسنة، مرة كل أسبوع، إبان الصلاة في الكنيسة. فتسقط السيدة مغشياً عليها عند أبواب بعض الخمارين الخيرين، حتى إذا زوده الخمار بما ثمنه ثلاثة بنسات من البراندي لكي يعيدها إلى رشدها، عمد في اليوم التالي إلى الوشاية به(*)، كاسباً من وراء ذلك نصف الغرامة. وكان مستر كلايبول يسقط هو نفسه مغشياً عليه، ولكن النتيجة لم تكن تتغير البتة.

وأخرج مستر ومسز بامبل من وظيفتيهما، وشيئاً بعد شيء ترديا في هاوية العوز والبؤس، ثم انتهيا آخر الأمر إلى أن يصبحا لاجئين في ذلك الملجأ نفسه الذي كان لهما فيه، ذات يوم، سلطان على الآخرين وسيطرة. ولقد سمع بعضهم مستر بامبل يقول إنه لا يؤانس من نفسه، في غمرة هذا النحس والهوان، حتى مجرد القوة على حمد اللّٰه لافتراقه عن زوجته.

أما مستر جيلز و«بريتلز» فلزما وظيفتيهما القديمتين، برغم أن الأول أمسى أصلع، وأن رأس الذي سميناه الغلام كان قد اشتعل شيباً. كانا يبيتان في بيت القسيس، ولكنهما كانا يوزعان خدماتهما توزيعاً متكافئاً بين نزلائه وبين أوليفر، ومستر براونلو، ومستر لوزبيرن، إلى حد جعل القرويين عاجزين حتى يوم الناس هذا عن الاهتداء إلى جواب هذا السؤال: في أي بيت كان يعملان رسمياً؟

وروعت جريمة سايكس المعلم تشارلز بايتس، فراح يتساءل: أليست

(*) كان القانون، آنذاك، يحظر بيع الخمر أيام الأحد. (المعرب)

الحياة الشريفة، بعد كل شيء، هي الأفضل؟ حتى إذا استقر رأيه آخر الأمر على أنها الأفضل من غير ريب ولى مشاهد الماضي ظهره، وعزم على التكفير عن ذلك بالعمل الدائب في حقل من النشاط جديد. لقد كافح كفاحاً قاسياً، وقاسى آلاماً مبرحة، فترة من زمان. ولكنه كان ذا طبع رضي، وإذ اجتمع إلى هذا الطبع الرضي غرض صالح فقد وفق المعلم بايتس آخر الأمر إلى النجاح. وبعد أن عمل خادماً عند أحد المزارعين، ثم خادماً عند أحد المشتغلين بالنقل أمسى الآن أبهج تاجر ماشية في نورثامبتونشاير كلها.

والآن إن اليد التي تخط هذه الكلمات لترتعش بعد أن شارفت على إنجاز مهمتها. إنها لتود أن تواصل، فترة يسيرة إضافية، نسج خيوط هذه المغامرات.

أجل، إني لأتمنى لو أتلكأ برهة أخرى مع قليل من أولئك الذين خالطتهم دهراً طويلاً، ولو أشاركهم سعادتهم بمحاولة وصفها. فأصور روز مايلي في قمة التألق والملاحة الجديرين بالصبايا النواضر، وقد سفحت على سبيلها المعزولة في الحياة ضوءاً رقيقاً غمر كل من سلكوا تلك السبيل معها، ونفذ إلى أعماق قلوبهم. وأصور فيها حياة القوم المتحلقين حول المستوقد وبهجتهم الغامرة، أو حياة الجمع في أيام الصيف الناشطة. وأتبعها خلال الحقول القائظة الرطبة عند الظهيرة، وأسمع نبرات صوتها العذب الخفيضة أثناء النزهة سيراً على الأقدام في ضوء القمر. وأراقبها بكل طيبتها وخيريتها في الخارج، وبكامل نشاطها الباسم وهي تؤدي واجباتها البيتية في المنزل على نحو لا يتطرق إليه الكلل. وأرسمها وأرسم ابن اختها المتوفاة السعيد في تعاطفهما ومحبتهما المتبادلة، وأنفق ساعات كاملة في تمثل الأصدقاء الذين فقداهما فحزنا عليهما أعظم الحزن. وأستحضر أمام ناظري، مرّة أخرى، تلك الوجوه البهيجة الصغيرة التي تعنقدت حول ركبتها، وأصغي إلى زقزقتهم المرحة. وأستحضر في ذهني نبرات تلك الضحكة الصافية، وتلك الدمعة العاطفة

التي التمعت في العين الزرقاء الرقيقة، أجل، إني لأتمنى لو أستحضر هذا كله، وألفا من النظرات والبسمات والتفاتات الفكر والحديث.

أما كيف أنفق مستر براونلو بقية عمره وهو يفعم ذهن ابنه بالتبني بذخائر المعرفة، وكيف تعاظم تعلقه به بعد أن نمت شخصيته وتكشفت عن البذور المعافاة المبشرة بوشك صيرورته إلى كل ما كان يرجوه له من خير.. وكيف اكتشف فيه سمات جديدة من صديقه القديم أيقظت في صدره هو ذكريات عتيقة كئيبة ولكنها مع ذلك حلوة مروحة للنفس... وكيف راح اليتيمان، اللذان امتحنا بضروب البلاء، يفيدان من دروس الحياة القاسية من طريق الإشفاق على الآخرين، والحب المتبادل، والشكر المشبوب للعزة الإلهية التي صانتهما وحفظتهما... فهذه كلها أمور لا داعي لروايتها. لقد سبق مني القول إنهم كانوا سعداء حقاً. وهل يستطيع المرء أن ينعم بالسعادة، من غير محبة عارمة ومن غير إنسانية فؤاد، ومن غير الاعتراف بجميل ذلك الكائن الأعظم الذي قانونه الرحمة، وصفته العظمى الإحسان إلى جميع المخلوقات الحية؟

إن في داخل مذبح كنيسة القرية القديمة لوحة رخامية بيضاء لا تحمل غير كلمة واحدة: «**آغنيس**». وليس في ذلك القبر أي نعش، وإني لأسأل اللّٰه أن تنقضي سنوات وسنوات قبل أن ينقش فوق هذا الاسم اسم آخر. ولكن، إذا كانت أرواح الموتى ترجع فعلاً إلى الأرض، لكي تزور بقاعاً أمست مقدسة ـ بحب أولئك الذين عرفوهم في الحياة ـ وإنما أعني هنا حب ما بعد القبر ـ فإني أؤمن أن طيف آغنيس يحوم أحياناً حول تلك الزاوية المهيبة. وليس يضعف من إيماني هذا كون تلك الزاوية في كنيسة، وكون آغنيس ضعيفة ضالة.

انتهى

تشارلز ديكنز

أوليفر تويست

* «أرجوك، يا سيدي، أريد مزيداً من حساء!» كذلك قال أوليفر تويست وهو يبسط يديه بالطبق. ومن أجل هذه الجريمة المنكرة طُرد أوليفر من الملجأ الذي وُلِد فيه. ودُفع إلى دَفّان يعلمه صناعة دفن الموتى ويستغله أبشع استغلال. ما دفع أوليفر لأن يفرّ إلى لندن حيث قاده حظه النكد إلى وكر عصبة لصوص رهيبة... وحيث جرت حوادث ومفاجآت تقشعر لهولها الأبدان.

* لقد سبق أن قدمنا ترجمة كاملة لرائعة ديكنز الخالدة: «قصة مدينتين»، وها هي ذي رائعة أخرى. ففي «أوليفر تويست»، نموذج فذّ من فن ديكنز الروائي، حيث نقع فيها على الحبكة القوية والنكتة اللاذعة، والسخرية البارعة، والنزعة الإنسانية المفعمة بالحب. إنها قصة كلاسيكية: ترجمت إلى جميع لغات العالم، وتحولت إلى فيلم سينمائي ومسلسل تلفزيوني، ولا تزال تدرس في المدارس حتى يوم الناس هذا...

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
هاتف: 303339 22 212+ فاكس: 305726 22 212+
بيروت: ص.ب: 113/5158
هاتف: 750507 1 961+ فاكس: 343701 1 961+
markaz@wanadoo.net.ma cca_casa_bey@yahoo.com

دار العلم للملايين
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - مقابل ثكنة الحلو - بناية فرنسبنك
هاتف: 306666 1 961+ فاكس: 701657 1 961+
ص.ب: 1085 - بيروت: 2045 8402 - لبنان
www.malayin.com malayin@malayin.com

ISBN 9953-63-458-0
9 789953 634586